



دكتور سوقي صيف

نائب شيخ الاسلام العربى



العصر الاسلامى
فاصل



دار المعارف

العصر الإسلامي

تاريخ
الأدب العربي
٢

العصر الإسلامي

تأليف
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة العشرون



دار المعارف

مجله
مطالعات اسلامی

کتابخانه

مطالعات اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُفْتَدِيَةٌ

هذا هو الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي ، وهو خاص بالعصر الإسلامي ، وقد وزَّعته على كتابين ، جعلتُ أولهما لعصر صدر الإسلام وثانيهما لعصر بني أمية ، وكل كتاب ينقسم فصولاً تُبَيِّنُ فيها جوانب الحياة في العصر بحثاً ترتَّب فيه المقدماتُ والنتائج موصولةً بالنصوص ، كما يُبَيِّنُ فيها الأعلام النابون في الشعر والخطابة والكتابة بحثاً تُرَسِّمُ فيه شخصياتهم وخصائصهم الأدبية .

ودفعتني النصوص الكثيرة في عصر صدر الإسلام إلى نقض الفكرة التي شاعت في أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين . إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل في أشعار المخضرمين . وهو زعمٌ غير صائب ، بل هو زعم يسرف في تجاوز الحق ، فقد أتمَّ الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم في صفوف المجاهدين في سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفي الفتوح . وهم في ذلك كله يستلهمون الإسلام ، ويعيشون له ، ويعيشون به ، يريدون أن ينشروا نوره في أطباق الأرض ، وقد مضوا يَصْدُرُونَ عنه في أشعارهم صدور الشَّدَى عن الأزهار الأرجة . وبالمثل صدروا عنه في نثرهم ، فإذا هم يستحدثون فنوناً من النثر ينشئونها لإنشاء إذ أنشأوا - على هدى القرآن الكريم - آيات بديعة من المواعظ الدينية ، كما أنشأوا ضروراً من المعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية .

ثم كان عصر بني أمية ، عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم وانسياحهم في مشارق الأرض ومغاربها ، مما أذكى في نفوسهم جذوة الشعر ، فإذا هو يَحْيِي في

أوطان جديدة حياة خصبة، ولا أقصد الكوفة والبصرة والشام ومصر فحسب، بل أيضاً خراسان التي أهملها مؤرخو أدبنا، مع ازدهار الشعر فيها ازدهاراً رائعاً. وقد أخذ الشعراء يختصعون في كل مكان لمؤثرات مختلفة: بيئية ودينية وحضارية وثقافية واقتصادية. وفي هذه الأثناء كان الموالى يتعربون، وسرعان ما أتقنوا العربية وأعرّبوا بها عن قلوبهم وعقولهم وأعماق وجدانهم. وليس بصحيح ما يردده المستشرقون من أنهم كانوا يختصمون مع العرب في العصر الأموي، فقد كانت العلاقة بين الجماعتين حينئذ علاقة بيرة وتعاون وإخاء.

والكتاب الثاني يبسّط كل هذه الظروف الجديدة في حياة الأمة العربية لعصر بني أمية وكيف اندفع الشعراء في ظلالها ينهضون بالشعر ويتطورون به في فنونه وأغراضه، فقد مضى شعراء الهجاء والفخر في البصرة ينفذون إلى لون جديد هو النقائض التي بثّوا فيها مناظرة عنيفة في المثالب والمفاخر القبلية. كان يجتمع لها معاصروهم في سوق المربد للاستماع إليها والفرجة والمتعة. ومضى شعراء المديح ينفذون إلى لون جديد هو الشعر السياسي الذي صور فيه الزبيريون والخواارج والشيعة وغيرهم نظرياتهم في الحكم وقيامهم من دونها مدافعين. ولكل فرقة من هذه الفرق في شعرها طابع تميزه، فبينما يميز مثلاً شعر الخوارج بتصوير استبسالهم في الحروب وتهاقهم على حياض الموت مستصغرين الدنيا ومتاعها الزائل نرى شعر الشيعة يتميز بكثرة ما ذرّفوا على أئمتهم المستشهدين من دموع غزار، مطالبين بردّ السلطان إلى أصحابه الشرعيين. وقد اضطربت فنون الشعر اضطراباً لا في المديح والهجاء والفخر فحسب، بل أيضاً في الغزل، فظهر فيه الغزل العذري بجانب الغزل الصريح، وزكا شعر الزهد، ونما شعر المجون ووصف الطبيعة، ومدّ الرّجّاز طاقة أراجيزهم، وسلكوا فيها الطّرديات، فهي ليست عباسية - كما كان يُظن - إنما هي أموية. وتحول نفر منهم بأراجيزه إلى غاية تعليمية للغة وشواذها وشواردها، حتى غدت - في بعض جوانبها - كأنها متون للاستظهار والحفظ. وفي كل هذه الفنون والأغراض تعاقبت تراجم الشعراء.

ولعلّ عصرًا عربيًّا لم تزدهر فيه الخطابة كما ازدهرت في عصر بني أمية بأنواعها السياسية والحفلية والدينية، فقد اشتدت الخصومات بين الفرق السياسية

وانبرى خطباؤها يدُودون عن نظرياتهم مؤلّبين الناس على خصومهم . ونشطت نشاطاً عظيماً خطابة المحافل بين أيدي الخلفاء والولاة . أما الخطابة الدينية فاحتدمت على لسان الوعاظ والقُصّاص احتداماً ، استطاعوا في أثنائه أن يتخذوا لأنفسهم أسلوباً جديداً ، يرتفعون فيه عن ألفاظ العامة المبتذلة ويهبطون عن ألفاظ البدو الآبدة ، أسلوباً يخاطبون به جميع الطبقات في المراكز المتحضرة التي يختلط فيها العرب بالأعاجم ، وقد أقاموه على الازدواج والترادف وتحلية الكلام بالأخيلة والمقابلات ، مع العناية بدقائق المعاني وفَتْق الحيل للتعبير عن خفياتها . وقد أخذوا أنفسهم بتعليم شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون الخطابة والمناظرة وكيف يتقنون إصابة الحجّة ، وبذلك كانوا أول من مهدّ لوضع قواعد البلاغة العربية .

ونما تدوين المعارف في عصر بني أمية ، سواء فيما يتصل بمعارف الجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها ، أو فيما يتصل بالإسلام وكل ما يرتبط به من تشريع وتفسير وحديث نبويّ وخطوب جسام . وقد مضوا يصنّفون في المغازي والتاريخ وقصص الأنبياء ، وفي المثالب والأمثال والمواعظ ، وفي مسائل العقيدة من قَدَرٍ وغير قَدَرٍ ، وفي الأغاني والمغنين وطبقاتهم . وترجموا رسائل في الطب والنجوم والكيمياء ، ودوّنوا كثيراً من الخطب ومن الرسائل السياسية والوعظية والشخصية . ونهض كتاب الدواوين بالكتابة عن الخلفاء والولاة والقواد نهضة واسعة ، جعلتهم يستعيرون من الوعاظ أسلوبهم الذي وصفناه ، وما زالوا يترقّون بكتاباتهم ، حتى وضعوا الرسائل الأدبية الخالصة . والله أسأل أن يهديني سواء السبيل .

الكتاب الأول

في عصر صدر الإسلام

الفصل الأول

الإسلام

١

قيم روحية

تدل كلمة الإسلام باشتقاقها اللغوي على معنى الخضوع والانقياد ، وقد ترددت في القرآن الكريم بهذا المعنى في مثل : (وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له) (وأميرت أن أسلم لرب العالمين) . ومن ثمَّ أُطلقت علماً على ديننا الخفيف في قوله تبارك وتعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) وهو دين لسعادة الناس كافة ، دين يكمل الديانات السماوية السابقة ويسيطر على كل ما جاء به الرسل ، يقول جلَّ شأنه : (وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً) ، ويقول : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ويقول : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) ويقول : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) .

فالإسلام هو الشريعة الإلهية الأخيرة التي تفرض سلطانها على كل ماسبقها من شرائع سماوية . وهو يقوم على ركنين أساسيين هما : العقيدة والعمل . وتسمى العقيدة بالإيمان من الأمن بمعنى طمأنينة النفس وتصديقها بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وأهمُّ أصل في العقيدة الإسلامية الإيمان بوحداية الله ، يقول سبحانه وتعالى : (قل هو الله أحدٌ الله الصمدُ لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكن له كفوؤاً أحد) فلا عبودية لغير الله من أوثان وأحجار وكواكب ، وهو ليس إله قبيلة ولا إله شعب بعينه ولا إله نور أو ظلام بل هو (رَبُّ العالمين) رب كل شيء في الكون وخالقه (ليس كمثله شيء) (لا تُدركه الأبصار وهو

يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) . قد أحاط علمه بكل ما في الكون (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) . وعلى مثال علمه الواسع قدرته التي تبسط سلطانها على كل ما في العالم وتقبض على زمامه (وسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) (والله على كل شيء قدير) . وهو مع قدرته وسلطانه وعقابه للمذنبين الآثمين رحيم بعباده ، يقول سبحانه (ورحمتي وسعت كل شيء) (وقد كتب ربكم على نفسه الرحمة) . وتقرن بالرحمة في القرآن الكريم المحبة التي يفيضها على عباده مستشعرين لجلاله وكماله المطلق (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أَعِزَّة على الكافرين) . ودائماً تصحب محبة الله الدعوة إلى العمل الصالح والنهي عن العمل الخبيث (إن الله يحب المتقين) (إن الله يحب المتكولين) (إن الله يحب المحسنين) (والله لا يحب المفسدين) (والله لا يحب الظالمين) . ومن محبة الله للناس ورحمته بهم أن اصطفى لهم من خلقه أنبياء يوحى إليهم بما فيه سعادتهم في الدارين الأولى والآخرة (رُسُلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وعلى الناس أن يؤمنوا بما جاءوا به من كتب سماوية ، خاتمتها الذكر الحكيم (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

ووراء هذا العالم المادى الذى نشاهده عالم غيبي ، به نوعان من الأرواح خيرٌ وشرير ، والخير هو الملائكة الذين يتنزلون بالوحى على قلوب الرسل (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) (نزل به الروح الأمين على قلبك) . وهؤلاء الملائكة ينصرون المؤمنين ويستغفرون لهم ربهم ويتوفونهم ويكتبون أعمالهم (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) . أما الأرواح الشريرة فهي الشياطين المطرودون عن الملأ الأعلى ، وهم يستنفثون غيوتهم فيمن ضلُّوا عن الصراط المستقيم (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) (ولقد جعلنا في السماء بُرُوجاً وزيّناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم) .

ويُكثر القرآن من الحديث عن عقيدة المعاد، فالناس جميعاً مبعوثون بعد موتهم (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون) وهو يوم الحساب، كل يحاسب على أعماله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قَتَرٌ ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (لا يذوقون فيها برّداً ولا شرباً إلا حميماً وغساقاً جزاءً وفاقاً).

ودائماً يردد الذكر الحكيم أن الإنسان مشدود إلى إرادة الله العليا ومشيتته الربانية وأنه ينبغي أن يتدبر إرادته الصغرى بجانب هذه الإرادة الكبرى، فلا يتبع هواه بل يراقب ربه في كل ما يأتي ويدع. فهناك مشيئة مطلقة هي مشيئة الله التي تسيطر على كل ما في الكون (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وبجانبها مشيئة الإنسان التي تجعله مسئولاً أمام ربه عن عقيدته وعمله وما كسبت يده (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) (كل نفس بما كسبت رهينة) (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه).

وتلك هي أصول العقيدة الإسلامية، وبجانبها أعمال من العبادات يجب على المسلم أداؤها، وهي ترجع إلى أربعة أصول: الصلاة والصوم والحج والزكاة. الصلاة بما يسبقها من طهارة الوضوء وبما فيها من تلاوة للقرآن وتسبيح واستغفار، وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين كيفيتها وأوقاتها، وفي القرآن الكريم (قل لعباد الذين آمنوا يقيموا الصلاة) (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً). والصوم هو صوم شهر رمضان تبتلاً إلى الله (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبكم لعلكم تتقون). شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هُدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه.. وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط

الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) . والحج (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) وهو في أشهر معلومات ، وقد بيّن الرسول للمسلمين كيفيته وما يقترن به من عبادة وذكر لله وتسبيح . ثم الزكاة وهي أن يرُدَّ من مال الغنى على الفقير وعلى الصالح العام للأمة ، وهي تُذكر في القرآن دائماً مع الصلاة تأكيداً لها وحثاً عليها في مثل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

ولم يرسم القرآن الكريم للمسلمين معالم عقيدتهم وفروضها العملية فحسب ، بل رسم لهم أيضاً طريق الفضيلة وما ينبغى أن يتحلّوا به في سلوكهم وأخلاقهم ، حتى ينالوا رضا ربهم ومحبة ، يقول تبارك وتعالى : (وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .. والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يُقسروا وكان بين ذلك قواماً .. ولا يقتلون النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق ولا يَزْنُونَ ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعفُ له العذاب يوم القيامة ويَخْلُد فيه مُهاناً .. والذين لا يشهدون الزور وإذا مَرُّوا باللغو مروا كراماً) (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن .. وأُمُّرٌ بالمعروف ونهْيٌ عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تُصعِّرْ خَدَّكَ للناس ولا تَتَمَشَّجْ في الأرض مَرَحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور واقصِدْ في مشيك واغْضُضْ من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) . ويقول جَلَّ وعز ناهياً عن الهزء بالناس والغيبة والظن الآثم : (إنما المؤمنون إخوة .. يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرُ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءً من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تَلَسَّزُوا أنفسكم ولا تنازروا بالألقاب بئس الاسمُ الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغْتَبَبْ بعضكم بعضاً يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تَوَّابٌ رحيم) .

وقد حرَّم الإسلام جملة الفواحش ما كبر منها وما صغر (قل إنما حرَّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) . ومما حرَّمه تحريماً باتاً آفة الخمر وآفة القمار (إنما الخمر والميسر .. رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

ودائماً تلقانا في الذكر الحكيم دعوة المسلمين إلى الخير والارتفاع عن الدنيا والنقائص (ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

وبهذه القيم الروحية جميعاً يقوم الإسلام ، فهو ليس عقيدة سماوية وفروضاً دينية فحسب ، بل هو أيضاً سلوك خلقى قويم ، إذ يدعو إلى طهارة النفس وتبئد كل الفواحش والردائل ، ومراقبة الإنسان لربه في كل ما يأتي من قول أو فعل ، فإنه معروض عليه يوم القيامة ، يوم يُجزى كلُّ إنسان بما قدّمت يده . وقد مضى الصحابة يعبدون الله حق عبادته مستشعرين ضرباً من القلق على مصيرهم ، بعث فيهم الضمير الحى الذى يستشعر صاحبه الخوف من ربه في سره وعقله ، كما يستشعر الرجاء في نعيمه ورضوانه .

٢

قيم عقلية

قضى الإسلام على الوثنية الجاهلية بكل ما طوى فيها من كهانة وسحر وشعوذة وخرافة ، وبذلك ارتقى بعقل الإنسان إذ خلّصه من الحماقات والترهات ، وقد مضى يحتكم إليه في معرفة الكائن الأعلى الذى أنشأ الكون ودبّر نظامه ، داعياً له إلى أن يتأمل في ملكوت السموات والأرض ، فإن من ينعم النظر في هذا الملكوت ونظامه يعرف أنه لم يُخلَق عبثاً وأن له صانعاً سوى كل شيء فيه وقدّره ، يقول جلّ ذكره : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقينا عذاب النار) (الشمس والقمر بحسبان) (والسماء بنيناها بأيدي وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شيء خالقنا زوجين لعلكم تذكرون) .

وواضح من ذلك أن القرآن اتجه إلى العقل في دعوته إلى الإيمان بوجود الله وقدرته وتدبيره ، وكذلك الشأن في الإيمان بوحدهانيته . وقد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) وما كان لهذا الذى

فَضَّلَهُ عَلَى كُلِّ مَا فِي الرُّجُودِ أَنْ يَعْبُدَ أَشْيَاءَ خَلَقَهَا اللَّهُ وَسَخَّرَهَا لِفَائِدَتِهِ (قُلْ أَغِيرَ اللَّهُ أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ). وَهُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ يَدْبِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سَبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ). وَبِالْمِثْلِ يَحْتَكِمُ الْقُرْآنُ إِلَى الْعَقْلِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى صِحَّةِ الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ فَإِنْ مِنْ يَبْعَثُ الْحَيَاةَ فِي الْكَائِنَاتِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَرُدَّهَا إِلَيْهَا (كَأَيُّ بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) (وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وَيُنْشِئُ الذِّكْرَ الْحَكِيمَ بِاللَّائِمَةِ عَلَى مَنْ لَا يَسْتَخْدِمُونَ عَقُولَهُمْ ، فَيُشَبِّهِهُمْ بِالْأَنْعَامِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ ، وَيَقُولُ إِنَّهُمْ لَا يَمْتَازُونَ فِي شَيْءٍ عَنِ الصَّمِّ الْبُكْمِ الْعُمَى (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا). وَكَثِيرًا مَا تُخْتَمُّ الْآيَاتُ بِمِثْلِ (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ) (إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

وَوَدَّاعْتِمَاءُ يَدْعُو الْقُرْآنَ كُلَّ مُسْلِمٍ أَنْ يَسْتَغْلِ عَقْلُهُ فِيمَا خُلِقَ لَهُ مِنَ التَّدْبِيرِ ، فَيَتَأَمَّلُ وَيَنْظُرُ وَيَحْكُمُ لَا عَنْ عَقَائِدٍ موروثة بل عَنْ دَلِيلٍ نَاطِقٍ وَشَهَادَةٍ صَحِيحَةٍ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ الْمُسْتَبْصِرَةُ رَكْنًا أَسَاسِيًّا فِي الْإِسْلَامِ ، فَهَنْ أَسْلَمَ عَنْ غَيْرِ فَهْمٍ وَتَبَصَّرَ كَانَ إِسْلَامُهُ مُنْقَوْصًا ، إِذَا الْإِسْلَامُ الصَّحِيحُ يَقُومُ عَلَى الْفَهْمِ وَالِاقْتِنَاعِ لَا عَلَى التَّقْلِيدِ وَالْمُحَاكَاةِ لِلْأَبَاءِ وَالْأَسْلَافِ .

وَيُشِيرُ الْقُرْآنُ مَرَارًا إِلَى مَا وَهَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ فَضِيلَةِ الْعَقْلِ ، وَأَنَّ اللَّهَ أَوْدَعَ فِي هَذِهِ الْفَضِيلَةِ خَوَاصَّ تَمَكُّنُهُ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَى جَمِيعِ الْخُلُوقَاتِ ، يَقُولُ جَلَّ شَأْنُهُ : (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرَى الْفُلُوكُ فِيهِ بِأَمْرٍ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

تشكرون وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) (هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) . فكلُّ ما في الوجود مسخر للناس ولعقولهم كي يستغلوه وكي يستكشفوه لمنفعتهم .

وكان أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم) فالدعوة إلى العلم وأنه نعمة أسبغها الله على الإنسان تقترن بآيات القرآن الأولى . ودائماً تتردد فيه الإشادة بالعلم والعلماء في مثل : (وقل رب زدني علماً) (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . وفي كل هذه الآيات دعوة صريحة للمسلمين كي يطلبوا كل علم ويفيدوا منه : ولعله لذلك لم يظهر عندنا تعارض بين الإسلام والعلم في أي عصر من العصور ، بل تعاونا دائماً تعاوناً مثمرًا . وقد رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تحث على العلم والتعلم من مثل : « طلب العلم فريضة » على كل مسلم » و « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة » و « العلماء ورثة الأنبياء » .

وقد حمل الإسلام هؤلاء العلماء أمانة الدين الحنيف ، وجعل لهم حق الاجتهاد في فروعه وما يُطَوَّر فيهِ من استنباط للأحكام يقول جليل ذكره : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين) ويقول : (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ، ويقول للرسول الكريم : (وشاورهم في الأمر) ، وفعلاً كان يستشير أصحابه في كثير من المسائل ويصدر عن رأيهم^(١) . ومن هنا أصبح الاجتهاد بالرأى أصلاً من أصول الإسلام حين لا يوجد نص في كتاب أو سنة ، روى الرواة عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله

(١) انظر « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » وما بعدها .

لمصطفى عبد الرازق (الطبعة الأولى) ص ١٤٣

قال : فلإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 قال : فلإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : أجهد رأيي لا آلو ، قال : فضرب
 بيده في صدرى ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول
 الله^(١) . وقد نسما الاجتهاد بعد وفاة الرسول بحكم الفتوح واتساع الدولة ، ولم
 يكن الخلفاء يفتنون بأرائهم إلا بعد استشارة الصحابة^(٢) . ومُصِّرت الأمصار
 وسرعان ما أخذت تظهر جماعات من الفقهاء في كل مصر إسلامي تحمل
 للناس تعاليم القرآن وسنة الرسول ، وكانوا إذا عرض لهم أمر لم يجدوا حُكمه في
 القرآن والسنة اجتهدوا وأفتوا الناس فيه برأيهم .

وفى كل ما قدمنا ما يدل بوضوح على أن الإسلام رفع من شأن العقل
 الإنسانى إذ جعله الحَكَمَ في فروع الشريعة وحثه على استكمال سيطرته على
 الطبيعة وقوانينها ، كما حثه على التزود بجميع المعارف . وفتح الأبواب واسعة أمامه
 كي يجتهد في مسالك الدين العملية . فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا المسلمين
 يتحولون مع الفتوح إلى معرفة كل ما لدى الأمم المفتوحة من تراث عقلى .
 وسرعان ما شادوا صرح حضارتهم الرائعة ، وقد مضوا يستخدمون كل طاقاتهم
 الذهنية في جميع صور المعرفة دينية وغير دينية . وكان لما أصَّله الإسلام من
 حق الاجتهاد العقلى أثر واسع في أن أصبح الإسلام نفسه قابلا للتطور ، وحقاً
 أصوله العقيدية زمنية أبدية ، ولكنها أصولٌ أسَّست على العقل الصحيح وفسحت
 له في التشريع .

٣

قيم اجتماعية

كان العرب يعيشون في الجاهلية قبائل متنازعة ، لا يعرفون فكرة الأمة إنما
 يعرفون فكرة القبيلة وما يربط بين أبنائها من نسب ، وكل قبيلة تتعصب لأفرادها
 تعصباً شديداً ، فإذا جنى أحدهم جناية شركته في مشوليتها ، وإذا قُتل لها

(٢) مصطفى عبد الرازق ص ١٥٨ وما بعدها .

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن

عبد البر (طبع القاهرة) ٥٥/٢

أحد أبنائها هبَّت للأخذ بثأره هبة واحدة . فلما جاء الإسلام أخذ يُضعف من شأن القبيلة ويُحلُّ محلها فكرة الأمة ، يقول جلَّ ذكره : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وهي أمة يعلو فيها السلطان الإلهي على السلطان القبلي وعلى كل شيء ، ومن ثمَّ أصبحت الرابطة الدينية لا الرابطة القبلية هي التي توحد بين الناس . وكان أول ما وضعه الإسلام لإحكام هذه الرابطة أن نقل حق الأخذ بالثأر من القبيلة إلى الدولة ، وبذلك لم يعد الثأر — كما كان الشأن في الجاهلية — يجرُّ ثأراً في سلسلة لا تنتهي ، من الحروب والمعارك الدموية ، بل أصبح عقاباً بالمثل ، وأصبح واجباً على القبيلة أن تقدّم القاتل لأولى الأمر حتى يلتقي جزاءه . وقدمضى الإسلام يحاول القضاء على العصبية القبلية كما قضى على قانونهم القديم : الثأر للدم ، يقول عزَّ شأنه : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، ويقول الرسول في خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . » ^(١)

وأخذ الإسلام يُرسي القواعد الاجتماعية لهذه الأمة ، بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، يسودهم البر والتعاطف ، حتى لكأنهم أسرة واحدة ، مُحيت بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية ، وأيضاً فوارق الشرف والسيادة الجاهلية ، فالناس جميعاً سواء في الصلاة وجميع المناسك وفي الحقوق والواجبات ، وينبغي أن يعودوا لإخوة ، يشعر كل واحد منهم بمشاعر أخيه ، باذلاً له ولمصلحة هذه الأمة كل ما يستطيع ، فهو لا يعيش لنفسه وحدها ، وإنما يعيش أيضاً للجماعة يفقدها بروحه وبماله وبكل ما أوتي من قوة . ومن ثمَّ وُضع نظام الزكاة وعُدَّتْ — كما قدمنا — ركناً أساسياً في الدين ، فواجب كل شخص أن يقدم من ماله سنوياً فرضاً مكتوباً عليه للفقراء وللصالح العام .

(١) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٣٣/٢ .

وبذلك أصبح للفقير حق معلوم في مال الغنى ، يؤديه إليه راضياً . ومدّ القرآن الكريم هذا الحق ، إذ دعا دعوة واسعة إلى الإنفاق في سبيل الله ، لا بالزكاة فحسب ، بل بكل ما يهبه الأغنياء تقرباً إلى الله ورغبة في حسن المثوبة ، يقول جلّ وعزّ : (من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . . . مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . . . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطبل والله بما تعملون بصير . . . يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد . . . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وعلى هذه الشاكلة حاول القرآن الكريم أن يقيم ضرباً من العدالة الاجتماعية في محيط هذه الأمة الجديدة ، إذ جعل ردّ الغنى بعض ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة حقاً دينياً . إنه لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضاً لأمته ويرابط معها ترابطاً اقتصادياً كما يترابط في وجدانه وإيمانه . وقد اندفع كثير من الصحابة ينفقون أموالهم جميعها في سبيل الله ، ويؤثّر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما نفعى مالٌ ما نفعى مالٌ أبى بكر »^(١) وكان غيره من أغنياء الصحابة يقتدون به ، فقد جهّز عثمان جيش العسرة في غزوة تبوك بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتمّ الألف بخمسين فرساً^(٢) ، وكثر مال عبد الرحمن ابن عوف حتى قدّم عليه في إحدى تجاراته سبعمائة راحلة تحمل القمح والدقيق والطعام فجعلها جميعها في سبيل الله^(٣) . ولم يُعْن الإسلام فقط بتنظيم العلاقات الغنى من جهة والفقير والصالح العام من جهة ثانية ، بل عني أيضاً بتنظيم العلاقات العامة كالميراث وتنظيم المعاملات كالتجارة والزراعة والصناعة ، فقد أوجب

(١) الاستيعاب (الطبعة الأولى) ص ٣٤٢ . (٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (طبع دار المعارف)

للعامل أجراً يتقاضاه جزاء عمله ، وأوجب على التاجر أن لا يستغلّ الناس بأى وجه من الوجوه : سواء فى الكيل والميزان أو فى التعامل المالى ، يقول جلّ شأنه : (وأوفوا الكيلَ إذا كِلْتُمْ وزنوا بالقسطاس المستقيم) (ولا تبسّموا الناس أشياءهم) (الذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المسّ .. وأحلّ الله البيع وحرم الرّبا) . ولا يكاد يكون هناك جانب من جوانب الحياة الاجتماعية إلا وضع فيه الإسلام من السنن والقوانين ما يكفل للناس حياة مستقيمة قوامها العدالة .

وقد نظّم حقوق المرأة ورعاها خير رعاية ، إذ كانت مهضومة الحقوق فى الجاهلية ، فردّها إليها حقوقها ، وجعلها كفؤاً للرجل ، لها ماله من الحقوق ، يقول تبارك وتعالى : (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) وأيضاً لهن مثل ما للرجال من السعى فى الأرض والعمل والتجارة ، يقول عزّ شأنه : (للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن) . وكان كثير من غلاظ القلوب يبتدون بناتهم خشية العار ، فحرم ذلك القرآن ، يقول جلّ ذكره : (وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به أيمُسِكُهُ على هُونٍ أم يدسه فى الترابِ ألا ساء ما يحكمون) . وحرم البغاء وشدّد فى النكير عليه حتى القتل . ونظّم الزواج وجعله فريضة محبّبة إلى الله ونعمة من نعمه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمة) . ودعا فى غير آية إلى معاملة الزوجات بالمعروف . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجّة الوداع : « أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقّاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن أن لا يُوطئن فرشكم غيركم وأن لا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرّح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان (أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله .. فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً » . وأباح الإسلام الطلاق ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله ، ويقول جلّ شأنه : (فإن

كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) (وإن خفتم شقاقَ بَيْنَهما فابعثوا حَكَمًا من أهله وحَكَمًا من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما) . ويوجب القرآن للزوجة كثيراً من الحقوق حين تُفصم العلاقة بينها وبين زوجها ، من ذلك أن يُسَرَّحها بإحسان وأن لا يُمسك عنها شيئاً من صداقتها، يقول جلَّ وعز: (وإن أردتم استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتُم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذنَ منكم ميثاقاً غليظاً) .

وبكلِّ ذلك كفل الإسلام للمرأة حقوقها ، وأوجب على الرجل أن يرعاها وأن يقوم بها خير قيام . ومن غير شك ليست هناك علاقة بين الإسلام ونظام الحریم الذي شاع في العصر العباسي ، فإن الإسلام يُجِلُّ المرأة ويرفع قدرها ، حتى نراها في الصدر الأول من العصر الإسلامي تشارك في الأحداث السياسية على نحو ما هو معروف عن موقف السيدة عائشة أم المؤمنين في حروب على وطلحة والزبير ، وكانت هي نفسها مصدراً كبيراً من مصادر الحديث النبوي وهَدَى الرسول الكريم .

٤

قيم إنسانية

رأينا الإسلام يرفع من شأن المسلم اجتماعياً وعقلياً وروحياً ، وهو ارتفاع من شأنه أن يسمو بإنسانيته ، إذ حرَّره من الشرك وعبادة القوى الطبيعية ، وأسقط عن كاهله نير الخرافات . وبدلاً من أن يشعر أنه مسخر لعوامل الطبيعة تتقاذفه كما تهوى نَبْهه إلى أنها مسخرة له ولمنفعته ، ودعاه لأن يستخدم في معرفة قوانينها عقله ويُعْمَل فكره . وبذلك فك القيود عن روح الإنسان وعقله جميعاً ، وهياه حياة روحية وعقلية سامية ، كما هياه حياة اجتماعية عادلة ، حياة تقوم على الخير والبرِّ والتعاون ، تعاون الرجل مع المرأة في الأسرة الصالحة وتعاون الرجل مع أخيه في المجتمع الرشيد .

ودائماً يلفت الذكر الحكيم إلى سمو الإنسان ، وأنه يتفَضَّلُ سائر المخلوقات فقد خلق في (أحسن تقويم) ، وسوى وعدل ورُكِّب في أروع صورة ، ووهب من الخواص الذهنية ما يُحيل به كل عنصر في الطبيعة إلى خدمته ، يقول جلَّ شأنه : (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً) . ويذكر القرآن في غير موضع أن الإنسان خليفة الله في الأرض (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة) (وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرض) فالإنسان خليفة الله في أرضه ووكيله فيها ، خلقه ليسودها ، ويخضع كل ما في الوجود لسيطرته .

وقدمضى الإسلام يعتدّ بحرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية إلى أقصى الحدود ، وقد جاء والاسترقاق راسخ متأصل في جميع الأمم ، فدعا إلى تحرير العبيد وتخليصهم من ذل الرق ، ورغّب في ذلك ترغيباً واسعاً ، فأنبرى كثير من الصحابة ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ، يفكّون رقاب الرقيق بشرائهم ثم عتقهم وتحريرهم . وقد جعل الإسلام هذا التحرير تكفيراً للذنوب مهما كبرت ، وأعطى للعبد الحق الكامل في أن يكتب مولاه ، أو بعبارة أخرى أن يستردّ حريته نظير قدر من المال يكسبه بعرق جبينه (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم . . . وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) . وقد حرّم الإسلام بيع الأمة إذا استولدها مولاه ، حتى إذا مات رُدَّت إليها حريتها . وكانوا في الجاهلية يسترقون أبناءهم من الإماء ، فأزال ذلك الإسلام ، وجعلهم أحراراً كأباؤهم .

ووسّع الإسلام حقوق الإنسان واحترمها في الدين نفسه إذ نصّت آية كريمة على أن (لا إكراه في الدين) فالناس لا يُكْرَهون على الدخول في الإسلام ، بل يُتْرَكون أحراراً وما اختاروا لأنفسهم . وبذلك يضرب الإسلام أروع مثل للتسامح الديني ، يقول تبارك وتعالى : (ولو شاء ربك لآمنَ من في الأرض كلُّهم جميعاً أفأنت تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين) . وحققاً اضطُرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى امتشاق الحسام ، ولكن للدفاع عن دين الله لا للعدوان ، يقول جلَّ وعز : (وقتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب

المعتدين) . وقد دعا الذكر الحكيم طويلاً إلى السلم والسلام في مثل قوله تعالى :
(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا
في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) لذلك لانهجب
إذا كانت تحية الإسلام هي « السلام عليكم » .

فالإسلام دين سلام للبشرية يريد أن ترفرف عليها ألوية الأمن والطمأنينة ،
ومن تنمة ذلك ما وضعه من قوانين في معاملة الأمم المغلوبة سلماً وحرباً ، فقد
أوجب الرسول صلى الله عليه وسلم على المسلمين في حروبهم أن لا يقتلوا شيخاً
ولا طفلاً ولا امرأة ، وعهده^(١) لنصارى نجران من أروع الأمثلة على حسن
المعاملة لأهل الذمة ، فقد أمر أن لا تُمسّ كنائسهم ومعابدهم وأن تُترك لهم
الحرية في ممارسة عباداتهم . ومضى الخلفاء الراشدون من بعده يقتدون به في
معاملة أهل الذمة معاملة تقوم على البر بهم والعطف عليهم . ومن خير ما يصور
هذه الروح عهد عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس فقد جاء فيه أنه « أعطاهم
أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . . . لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم
ولا يُنْتَقَصَ منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يُكْرَهون
على دينهم ولا يضار أحد منهم »^(٢) . وكان هذا العهد إماماً لكل العهود التي
عقّدت مع نصارى الشام وغيرهم .

والحق أن تعاليم الإسلام السمحة لا السيف هي التي فتحت الشام ومصر
إلى الأندلس ، والعراق إلى خراسان والهند ، فقد كفّل للناس حريتهم لا لأتباعه
وحدهم ، بل لكل من عاشوا في ظلاله مسلمين وغير مسلمين وكأنه أراد وحدة
النوع الإنساني ، وحدة يعمها العدل والرخاء والسلام .

المصرية بالأزهر) ص ٧٦ .
(٢) تاريخ الطبري (طبع مطبعة الاستقامة
بالقاهرة سنة ١٩٣٩) ١٠٥/٣ .

(١) انظر السيرة النبوية (طبعة الحلبي)
٢٣٩/٤ وما بعدها و ٢٤١/٤ وما بعدها ،
وقارن بفتوح البلدان للبلاذري (طبع المطبعة

الفصل الثانى

القرآن والحديث

١

نزول القرآن وحفظه وقراءته

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُنزل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم مُنْجِماً فى ثلاث وعشرين سنة . حتى تهياً النفوس البشرية لتلقى هذا الفيض الإلهى (وقرآنًا فرَقْنَاهُ لتقرأه على الناس على مُكُوثٍ ونَزَّلْنَاهُ تنزيلاً) . وكان أول نزوله فى شهر رمضان وفى ليلة معلومة منه هى ليلة القدر (شهر رمضان الذى أُنزل فيه القرآن) (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فى ليلة القَدَرِ) وظلَّ ينزل به على الرسول الكريم روح القدس جبريلُ بلسان عربى بليغ (وإِنَّه لتَنْزِيلُ رب العالمين نَزَلَ به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) (من كان عدواً لجبريل فإنه نزَّله على قلبك بإذن الله) (نزَّله روح القدس من ربك بالحق) . إنه كلام الله أوحى به إلى رسوله المصطفى الذى اختاره لتبليغ آخر رسالاته إلى الناس كافة . وكان الرسول يأمر بكتابة كل ما ينزل منه وقت نزوله ، واتخذ لذلك جماعة من كرام الكاتبين مثل على وعثمان وزيد بن ثابت وأبى بن كعب . ومضى كثير من كتبة الصحابة يكتبونه لأنفسهم . على أنهم جميعاً لم يعولوا على كتابته فقط ، إنما عولوا أولاً على حفظه وأخذوه شفاهاً عن الرسول الأُمى ، الذى كان يحفظه ويتلوه على المسلمين . وساروا على سُنَّته يتحفظونه ويتلونه آناء الليل وأطراف النهار مرتلين له ترتيلاً .

ونصوصُ القرآن صريحة فى أن سوره وآياته جميعاً رُتِّبَتْ بوحي من الله إلى رسوله ، يقول جبريلُ شأنه : (وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدة كذلك لثبتَّ به فؤادك ورتَّلْنَاهُ ترتيلاً) (إن علينا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ) . فالرسول لم

يَرْفَعُ إِلَى الرَفِيقِ الْأَعْلَى إِلَّا بَعْدَ تَرْتِيبِ الْقُرْآنِ وَأَيَاتِهِ وَسُورِهِ تَرْتِيباً كَامِلاً . وَتَلَقَّاهُ عَنْهُ الصَّحَابَةُ بِهَذَا التَّرْتِيبِ ، وَكَانَ حَقَّقَتْهُ يَسْمُونَ بِالْقُرَّاءِ . وَلَمَّا اسْتَحَرَّ الْقَتْلَ بِهِمْ فِي يَوْمِ الْيَمَامَةِ لِعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ خَشِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ يَسْتَحَرَّ بِهِمْ فِي مَوَاطِنٍ أُخْرَى ، فَيَذْهَبَ قُرْآنٌ كَثِيرٌ ، فَدَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ لَسْنَتَيْنِ مِنْ خِلَافَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ يَتَهَاوَتُونَ فِي الْمَعَارِكِ ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْتِيَ عَلَيْهِمْ . وَهُمْ حَمَلَةُ الْقُرْآنِ فِيضِيعٌ وَيُنْسَى ، فَلَوْ جَمَعْتَهُ ! وَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يَرَا جَعَهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْفِكْرَةِ وَرَأَى رَأْيَهُ ، وَحِينَئِذٍ عَهْدٌ إِلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ - أَحَدِ كُتَبَةِ الْوَحْيِ الْأَبْرَارِ - بِجَمْعِهِ ، فَجَمَعَهُ مِنَ الْعُسْبِ وَاللَّخَافِ وَصَدُورِ الْحَفْظَةِ الْمَشْهُودِ لَهُمُ بِالِاتِّفَاقِ مِنْ مِثْلِ أَنَّى بْنِ كَعْبٍ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَطَلْحَةَ وَحذِيفَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ وَتَحْرِيًّا فِي الدَّقَّةِ وَمِبَالِغَةً فِي الْحَيْطَةِ أَمَرَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ لَا يَقْبَلَ مَنْ حَافِظُ شَيْءٍ حَتَّى يَشْهَدَ شَاهِدَانِ عَدْلَانِ بِصِحَّتِهِ وَأَنَّهُ كُتِبَ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَلَمَّا جُمِعَ الْمَصْحَفُ حُفِظَ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ ، وَلَمَّا تَوَفَّى وَخَلَفَهُ عُمَرُ انْتَقَلَ الْمَصْحَفُ إِلَيْهِ ، وَبَعْدَ وَفَاتِهِ انْتَقَلَ إِلَى حَفْصَةَ ابْنَتِهِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ .

وَحَدَّثَ فِي عَهْدِ عُثْمَانَ أَنْ أَخَذَ الْقُرَّاءُ فِي الْأَمْصَارِ الْبَعِيدَةِ يَخْتَلِفُونَ فِي بَعْضِ الْأَدَاءِ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَصْحَفُ أَبِي بَكْرٍ لِيَرْجِعُوا إِلَيْهِ ، فَأَنْزَعَ ذَلِكَ حَذِيفَةُ بْنُ الْيَمَانِ الَّذِي كَانَ يَغْزُو فِي فَتْحِ أَرْمِينِيَّةٍ وَأَذْرَبِيجَانَ فَهَرَعَ إِلَى عُثْمَانَ قَائِلاً : إِنْ النَّاسُ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي الْقُرْآنِ حَتَّى إِنِّي وَاللَّهِ لِأَخْشَى أَنْ يَصِيبَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْاِخْتِلَافِ . فَهَسَمَ عُثْمَانُ الْأَمْرَ ، وَأَجْمَعَ رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يَكْتُبَ لِلْمُسْلِمِينَ إِمَاماً يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ . وَبَعَثَ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالْمَصْحَفِ نَنْسَخُ مِنْهُ نَسْخاً ، ثُمَّ نَرُدُّهُ إِلَيْكَ ، فَأَرْسَلَتْ بِهِ إِلَيْهِ ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنَ هِشَامٍ ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرُّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ ، وَهُمْ الثَّلَاثَةُ الْآخِرُونَ : إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي كِتَابَةِ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَارْتَبِعُوا بِلِسَانِ قُرَيْشٍ ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ ، فَصَدَعُوا بِأَمْرِهِ . وَرَدَّ عُثْمَانُ مَصْحَفَ أَبِي بَكْرٍ إِلَى حَفْصَةَ وَطَابَتْ

نفسه ، وأمر أن تكتب المصاحف من مصحفه وأن يحملها القُرَّاء إلى الأمصار ، ويُقرئوها الناس على حَرَفِها ، وأرسل بالمصاحف إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق وغيرها من الأمصار الإسلامية ، وأمر بحرق ماسواها ، فأطاعته الأمة لما تعلم في صنيعه من الرشد والهداية . ومضى القُرَّاء في العالم الإسلامي يُقرئون الناس القرآن على حَرَفِ هذا المصحف الإمام ، غير أن فروقاً حدثت بينهم في القراءة داخل ذلك الحرف ، وهي المعروفة بالقراءات ، وقد وقع إجماع المسلمين على سبع منها ، وهي قراءات ابن عامر وابن كثير وعاصم وأبي عمرو بن العلاء وحمزة ونافع والكسائي .

وواضح مما قدّمنا أن القرآن الكريم أُحيط بسياج متين من المحافظة على نصّه محافظة بالغة ، إذ كانت آياته تُكْتَبُ فور نزولها ، وكان الصحابة يكتبونها ويحفظونها ويتلونّها في صلواتهم وعباداتهم مراراً ليلاً ونهاراً ، وسرعان ما جمعه أبو بكر في مصحف واحد ، وأتبعه عثمان بمصحفه ، وبعث بنسخ منه إلى مختلف الأمصار الإسلامية .

٢

سور القرآن وتفسيره في العهد الأول

عَدَدُ سور القرآن أربع عشرة ومائة تختلف طولاً وقصراً ، وتتضمن السورة طائفة من الآيات ، وهي تبلغ عدا البسملة أربع عشرة ومائتين وستة آلاف . وقد قُسِّمَتْ تسهيلاً لتلاوته إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء ينقسم إلى حزبين ، وكل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع . وهي أقسام لتيسير التلاوة والحفظ . وقد نزلت كثرة السور بمكة ، ومن ثم كانت السور إمامكية وإمامية نسبة إلى المدينة ، ومعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل بمكة داعياً للدين الحنيف ثلاثة عشر عاماً انتقل بعدها إلى المدينة حيث ظل بها عشر سنوات إلى أن لبّى نداء ربه . على أن بعض السور تمتاز فيها آيات مكية بأخرى مدنية ،

بتوقيف من الله جلَّ جلاله . وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله إلى رسوله وأتباعه وخصومه .

والسور المدنية بصفة عامة طويلة ، وهي لا تختلف عن السور المكية من حيث الطول والقصر فحسب ، بل تختلف أيضاً في المعاني التي تدور عليها . أما السور المكية فإنها تخوض غالباً في الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ونسب عباد الأوثان والأصنام والإيمان بالبعث والحساب ، فمن عمل صالحاً فله الجنة والنعيم ، ومن عمل سيئاً فله النار والجحيم . وتتخلل ذلك الموعظة الحسنة والقصص عن الأمم الماضية والقرون الخالية والحث على التمسك بأهداب الفضيلة ودعوة العقل إلى التدبر في خلق السموات والأرض ، فإن من تدبر في هذا الخلق عرف أنه لا بد له من صانع أحكم نظامه وأقام ميزانه . أما السور المدنية فإنها تفصل القول في العمل الصالح الذي ينبغي على المسلم أن يقوم به ، ومن ثم كان يكثر فيها التشريع الديني وكذلك التشريع الاجتماعي بكل ما يتصل به من نظم الأسرة كالميراث والزواج والطلاق وبيروالدين ونظم المجتمع كالبيع والشراء والرهن والمداينة وقسمة الغنائم والزكاة وتحرير الرقيق ، مع بيان بعض العقوبات وجوه التحليل والتحريم . وفي تضاعيف ذلك تذكّر العبادات وتتردد الدعوة إلى التوحيد والبعث والحساب والثواب والعذاب والإيمان بالكتب السماوية .

ودعت الحاجة منذ نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تفسير بعض آياته ، فكان الصحابة يرجعون إليه ليفسر لهم بعض ما يتوقفون فيه ، وكان هو أحياناً يبادر فيبين لهم بعض الآيات ، يقول جلَّ ذكره : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ويقول : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب) . وتدل الآية الأولى دلالة واضحة على أن الرسول كان يبين للناس الأحكام القرآنية أمراً ونهياً ، فهو المفسر الأول لأوامر الله ونواهيه . وتدل الآية الثانية على أن في القرآن آيات تحتاج تأويلاً ، وهي تصرّح بذلك في وضوح .

وفي مقدمة تفسير الطبرى عن ابن مسعود : « كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » . ويتضح من نص الآية الكريمة الثانية أنه سُمح لأولى العلم بالدين وأصوله من الصحابة أن يفسّروا للناس آى الذكر الحكيم ، وهم الذين يسميهم الله عز وجل باسم الراسخين فى العلم . ويحدثنا السيوطى فى كتابه « الإتيقان ^(١) » أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النّبى صلى الله عليه وسلم والصحابة وأن يدوّنها فى كتاب له بعنوان « ترجمان القرآن » وقد اختصره فى كتاب طبع فى ستة أجزاء سماه « الدر المشور فى التفسير بالمأثور » . ويقول إنه اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة هم الخلفاء الراشدون وابن مسعود وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير وابن عباس ^(٢) ، ويصرّح بأن الرواية عن أبى بكر وعمر وعثمان نَزَرَة ، أما على فقد روى عنه كثير . والآثار المروية عن زيد ابن ثابت قليلة ، وكذلك عن أبى موسى الأشعري وابن الزبير . أما أبى فله سند فى الطبرى عن طريق أبى العالية ، وعاش ابن مسعود بعده مدة طويلة كوّن فى أثناءها مدرسة فى الكوفة حتّمت عنه تفسيراً كثيراً ، وسنّده الجيّد هو السدّى الكبير عن مرّة الهمداني . وما نُسب إلى كل السابقين من تفسير لا يقاس إلى ما نُسب لابن عباس ، فهو أكثر الصحابة تفسيراً . وقد حمل تفسيره كثيرون من التابعين أمثال مجاهد وعطاء وعلى بن أبى طلحة . وهو يُعدُّ المؤسس الحقيقى لعلم التفسير فهو الذى تهجّه ووضع أصوله ، واشتهر بأنه كان يرجع إلى أهل الكتاب فى قصص الأنبياء ، وأنه كان يعتمد على الشعر القديم فى تفسير بعض الألفاظ ^(٣) . وقد حتّمل ابن جرير الطبرى فى تفسيره الكبير ما أُثّر عنه وعن الصحابة الأولين من تفسير الذكر الحكيم ، وكذلك حمل كل ما أضافته الأجيال التالية لعصر الصحابة فى تفسير هذا النبع الإلهى الذى لا تنفى كنوزه .

(١) انظر النوع الثامن والسبعين فى هذا الكتاب .
 (٢) انظر فى ابن عباس ودوره فى التفسير كتاب مذاهب التفسير الإسلامى لحوالد تسهر .
 (٣) ترجمة عبد الحليم التجار (ص ٨٣ وما بعدها) .

أثر القرآن في اللغة والأدب

القرآن الكريم مفخرة العرب في لغتهم، إذ لم يَتَحَ لَأمة من الأمم كتاب مثله لا ديني ولا دنيوي من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب، سواء حين يتحدث عن عبادة الله الواحد الأحد وعظمته وجلاله، أو عن خَلْقِه للسموات والأرض، أو عن البعث والنشور، أو حين يشرع للناس حياتهم ويقيمها على نهج سديد يحقق لهم السعادة في الدارين : الأولى والآخرة .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكاد يمضي في تلاوته حتى يروع سامعيه ويأخذ بمجامع قلوبهم : سواء أكانوا من أنصاره أم كانوا من أعدائه ، فقد رَوَى الرواة أن الوليد بن المغيرة الذي كان من ألدَّ خصومه سمعه يتلو بعض آى الذكر الحكيم، فتوجَّه إلى نفر من قريش يقول لهم : « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن » ، وإن له لخلوة وإن عليه لطُلوَّة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمُغْدق^(١) . وواضح أنه أحسن في دقة أن آى القرآن تباين كلام الإنس من فصحتهم كما تباين كلام الجن الذي كان ينطق به كهَّانهم . إنه ليس شعراً موزوناً ، مما كان يدور على ألسنة شعرائهم ، ولا سجعاً مقفى مما كان يدور على ألسنة كهَّانهم وغيرهم من خطبائهم ، إنما هو نمط وحده فُصِّلَت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس : وتجد فيها وفي كل ما يتصل بها من ألفاظ رَوْحاً وعدوبة . إنه نمط باهر ، بل هو نمط معجز ببيانه وبلاغته ، يقول جَلّ ذكره : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) . وفعلاً عجز العرب عن معارضته عجزاً تاماً ، فمضوا يجرِّدون سيوفهم ويُغْمِدون ألسنتهم ، ولم تلبث المعجزة الباهرة أن استعلت ،

(١) انظر تفسير الزمخشري في سورة المدثر. مغدق : كثير المياه .

ولم تلبث أضواؤها أن انتشرت في الجزيرة العربية ، وسرعان ما بزغت على دروب العالم ومسالكه من أواسط آسيا إلى جبال البرانس مما هباً لانقلاب واسع في تاريخ اللغة العربية وأدبها ، ونُجْمِل ذلك إجمالاً . فإن تفصيله لا يتسع له كتاب فضلاً عن صحف معدودة .

وأول ما كان من آثار القرآن الكريم أنه جمّع العرب على لهجة قريش ، وحقاً كانت هذه اللهجة تسود القبائل الشمالية في الجاهلية ، غير أن هذه السيادة لم تكن تامة ، فقد كان الشعراء هم الذين يستخدمونها غالباً ، أما قبائلهم فكانت تلوك لهجات تختلف عن اللهجة القرشية قليلاً أو كثيراً ، حسب قربها من مكة أو بعدها . فعميل القرآن على تقريب ما بين هذه اللهجات من فروق واستكمال السيادة للهجة القرشية ، إذ كان العرب يتلونه آناء الليل وأطراف النهار . وأخذت هذه اللهجة تعمُ بين القبائل الجنوبية متغلغلة في الأنحاء الداخلية التي كانت لا تزال تتكلم الحميرية . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار أخذت لهجته تسود في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه ، إذ كانت تلاوته فرضاً مكتوباً على كل مسلم ، وحث الإسلام على حفظه وترتيبه . يقول عزّ شأنه : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) قال ربّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنْسَى) . وبذلك تحول المسلمون في جمهورهم إلى حفظة للقرآن ، يتلوه كبيرهم وصغيرهم حتى من سكنوا منهم الصحارى البعيدة وروعوس الجبال ، مما جعلهم ينطبعون بطابعه اللغوية .

ومن غير شك أتاح هذا الحفظ للهجة قريش لا أن تنتشر في العالم الإسلامي فحسب ، بل أن تُحَفَظ أيضاً وتظل على مرّ العصور جديدة غَضّة لا تبلى مع الزمان ، وأيضاً فإنها اكتسحت ما لقيت من لغات ، إذ اتخذتها شعوب — لا حصر لها — لسانها . فأصبح هو اللسان الأدبي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي . فكل من عاشوا في هذه الأنحاء تكلموا العربية القرشية ، إذحلت من ألسنتهم محل لغاتهم الأولى وأصبحوا عرباً يعبرون بالعربية عن مشاعرهم وعقولهم ، وكل ذلك بفضل القرآن الكريم ، فهو الذي حفظ العربية من الضياع ، ونشرها في أقطار الأرض ، وجعلها لغة حية خالدة .

وثاني آثاره أنه حوّل العربية إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، وبذلك أحلّ فيها معانى لم تكن تعرفها من قبله ولا كانت تعرف العبارة عنها ، وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأها ابتداء مثل : الفرقان والكفر والإيمان والإشراك والإسلام والنفاق والصوم والصلاة والزكاة والتميم والركوع والسجود . وغير ذلك من كلمات الدين الحنيف ، ولكن من الحق أن المسألة لم تكن مسألة ألفاظ فحسب ، إنما كانت أيضاً مسألة دين جديد . له مضمونه الذى لم يكن العرب يعرفونه ، من الدعوة إلى عباد الله واشتقاق الدليل عليها وعلى وحدانيته من خلّقى السموات والأرض ومن تاريخ الأمم وما يعى من عظات ومن تاريخ الأنبياء وما يحمل من عبر ، ومن تقرير البعث والنشور وبَسْطُ صُورِ الثواب والعقاب مستعيناً فى ذلك بالوجدانات الغريزية وبالعقول وتمييزها وما ينبغى أن ينهى لها من صواب الرأى . وإنه ليترقى دائماً من معرفة الحواس إلى معرفة الأذهان ، وفى خلال ذلك يشرّع للناس ما ينبغى أن تكون عليه حياتهم من نظام فى أسرهم وفى مجتمعهم بحيث تسودهم الرحمة والعدالة كما تسودهم أخوة عامة ، يَبْدُل فيها الغنى للفقير من مال الله ما يعينه ، أخوة لأسود فيها ولا أبيض ولا عربى ولا أعجمى . وكل هذه الدعوة الكريمة التى نزل فيها مائة وأربع عشرة سورة تُعَدُّ ابتداء ، بعباراتها وبمعانيها . ونستطيع أن نقول إن كل ما كسبته العربية بعد ذلك من عظات عند الحسن البصرى وغيره من كبار الواعظين ، إنما هو من فيض القرآن ومعينه الغزير .

وبمرّ الزمن أخذت تتكون حوله علوم كثيرة . ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب العلم كما قدمنا فى غير هذا الموضع . وقد أخذوا يشتقون منه مباشرة علوماً كثيرة كعلم القراءات وغيره من العلوم التى عرض لها السيوطى فى كتابه « الإتيقان فى علوم القرآن » وهو يقع فى مجلدين يصور فيهما ما انبثق حوله من علوم مختلفة كعلم التفسير وعلم أسباب النزول وعلم نحوه وإعرابه وعلم عامته وخاصه مما هياً لظهور علوم البلاغة . ومن العلوم المهمة المتفرعة منه علم الفقه وأصوله . ولا نبالغ إذا قلنا إن العلوم الإسلامية كلها إنما قامت لخدمته ، فهو الذى هياً بقوة لهضة العرب العلمية .

وثالث آثاره أنه هذب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريب ، فأقامها في هذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة ، ويكفى أن تعود إلى معلقة مثل معلقة لبيد أو إلى شعر قبيلة مثل هذيل وديوانها المطبوع لترى كيف أنه حقاً اختطّ أسلوباً جزلاً ، له رونق وطلاوة ، مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه . وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا فضول ، فاللفظ على قدر المعنى ، وكأنما رُسم له رسماً ، وهو لفظ لا يرتفع عن الأفهام ولا عن القلوب ، بل يقرب منها حتى يلمس الشغاف . وما لا شك فيه أن القرآن هو الذى ابتدع هذا الأسلوب المحكم ، بل هذا الأسلوب السهل الممتنع الذى يلذ الآذان حين تستمتع له والأفواه حين تنطق به والقلوب حين تصغى إليه ، هذا الأسلوب الذى يميز عربيتنا ، والذى استطاع أن يفتح القلوب حين فتح العرب الأمصار فإذا أهلها مشدوهون ، وإذا هم يهجرون لغاتهم المختلفة إلى لغته الصافية الشفافة . وقرأ في قوارعه حين يتحدث عن البعث والحساب والعذاب وفي ملاطفاته حين يتحدث عن الرحمة والمغفرة أو حين يتحدث إلى رسوله فإنك ستجد الأسلوب دائماً مطرداً في جودة الإفهام وروعته مع سهولة اللفظ ومتانته وسلامته من التكلف ، وانظر إلى قوله تعالى يتوعد المشركين وما ينتظرهم يوم يُبْعَثُونَ : (ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَادَةِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتِ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) . وقارن بين ذلك وبين ملاطفته جلّ وعز لرسوله في سورة الضحى : (والضحى والليل إذا سجى ما ودّك ربك وما قلى والآخرة خير لك من الأولى وسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك يتيماً فأوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث) فلن

تجد هنا ولا هناك كلمة متوعدة ولا لفظاً ضعيفاً ، إنما تجد روعة الأسلوب دائماً وجزالته وعدوبته ونصاعته ، مع دقة العبارات واستيفائها لمعانيها ، ومع الألفاظ المستحسنة في الآذان وعلى الأفواه ، الألفاظ التي تغذى العقول برحيقها الصافي وتشفي القلوب والنفوس .

وهذا الأسلوب البالغ الروعة الذي ليس له سابقة ولا لاحقة في العربية هو الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره ، فعلى هدىه أخذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة وحُسن مخارج الحروف فيه ، ودقة الكلمات في مواضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وبحيث تجلّى عن مغزاها ، مع الرصانة والحلاوة . وكان العرب – ولا يزالون – يتحفّظونه ، فهو معجمهم اللغوي والأدبي الذي ساروا على هُداه ، مهما اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم وأعصارهم . يقول الجاحظ : « وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آى من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والركة وسلسّ الموقع . وقال الهيثم بن عدى : قال عمران بن حِطّان : إن أول خطبة خطبها عند زياد – أو عند ابن زياد – فأعجب بها الناس وشهداها عمى وأبى ، ثم لنى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن » (١) . وما ذلك إلا لفتنتهم بأسلوبه وإحكام نَظْمه ، فإنك تجد العبارة منه ، بل اللفظة ، حين تأتى في سياق كلام كاتب أو خطيب أو شاعر تضيء ، كأنها الشهاب الساطع . ولا يزال أدباء العرب يستقون من فيضه وينهلون من نبعه الغزير ما يقوم ألسنتهم ، ويكفل لهم إحسان القول بدون تكلف أو تعمل أو اجتلاب للألفاظ من بعيد .

٤

الحديث النبوى

الحديث هو كل ما حُكى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، وهو بذلك ليس جميعه أقوالاً له ، بل منه ما يسمّى باسم

(١) البيان والتبيين ١ / ١١٨ .

الآثار وهي ما رواه الرواة حكاية عن خلقه أو عمله أو في شأن من شئونه .
 وضم إليه الرواة كثيراً مما حكى عن الصحابة وخاصة الخلفاء الراشدين ، إذ
 كانوا يقتدون به في أقوالهم وأفعالهم عملاً بقوله تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله
 أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) ويقول الجاحظ : « كانوا يكرهون أن يقولوا سُنَّةَ أبي بكر وعمر ،
 بل يقال : سنة الله وسنة رسوله »^(١) . وفي ابن سعد عن صالح بن كيسان قال :
 « اجتمعت أنا والزُّهري ونحن نطلب العلم فكنا نكتب السنن ، قال : وكتبنا
 ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم قال : نكتب ما جاء عن
 الصحابة فإنه سُنَّةٌ ، قال : قلت إنه ليس بسنة ، فلا نكتبه ، قال : فكتب ولم
 أكتب ، فأُنجح وضيَّعت »^(٢) .

وأهمية الحديث ترجع إلى أن القرآن الكريم يذكر أصول الدين الإسلامي
 وأحكامه مجملة دون تفصيل وأنه هو الذي يفصلها ، فالقرآن مثلاً لم يذكر
 تفاصيل الصلاة والزكاة وهما من أهم أركان الإسلام ، بل اكتفى بمثل قوله
 تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وفصل الحديث أوقات الصلاة وكيفيةاتها ،
 كما فصل القواعد والأسس التي يجب اتباعها في جمع الزكاة وتوزيعها . وهذان
 أمران من مئات الأوامر التي تناولتها أفعال الرسول وأقواله . فهو الذي بيَّن
 أحكام الشريعة وصوَّرها عملياً كما صور المبادئ الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية
 التي جاء بها الرسول . وبذلك كان مكملًا للقرآن ، وخاصة حين تُجْمَل أحكامه
 أو يَسْتَبْهِم المراد من معنى بعض آياته ، فقد رُوِيَ عن علي بن أبي طالب أنه لما
 أرسل ابن عباس ليحاج بعض الخوارج أوصاه بأن لا يعارضهم بالقرآن لأنه
 حمّالٌ أوجه ، ويحتمل معاني مختلفة ، وبأن يكون عماده السُنَّة فلا يجدوا منها
 مخرجاً^(٣) .

وكان الصحابة يروون حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته وكان
 هو نفسه يحثهم على ذلك ، فعن ابن عباس قال : قال رسول الله : « اللهم ارحم خلفائي قلنا

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي)

ج ٢ ق ٢ ص ١٣٥ .

١٤٦/٢

(٣) نهج البلاغة (١)

٣٣٦/١ .

(٢) طبقات ابن سعد (طبعة أوربا)

يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال : الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس ^(١) . وكان كثيراً ما يقول للوفود : احفظوا أحاديثي واخبروا بها مَنْ وراءكم من العشائر ، وتكرر في خطبة حجة الوداع المشهورة : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » . وكان يُرسل في القبائل رسوله ليعلّمهم القرآن وسنته . ومرّ بنا أنه لما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تنقضي؟ فقال : بكتاب الله ، فقال : فإن لم تجد؟ قال : فبسنة رسوله . فالحديث كان متداولاً في حياة الرسول وكان الرسول يأمر بنشره وإذاعته في الناس ، حتى يقفوا على أوامر الدين ونواهيه وما أخذهم به من آداب ونظم .

ولما توفى الرسول وانتشر الصحابة في الأمصار الإسلامية أخذوا يبلّغون كتاب الله وسنة رسوله أينما ذهبوا ، وكادوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة من أفعاله وأقواله إلا أحصوها وتناقلوها ، واشتهر من بينهم جماعة بكثرة ما روى عنهم في هذا الباب مثل أبي هريرة وعائشة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وابن عباس وأنس بن مالك ، وكثير غيرهم . حتى إذا ذهب الصحابة خلفهم التابعون يحكون ما سمعوه منهم . وبذلك أخذ الحديث ينتقل من جيل إلى جيل ، فالحدث يقول : سمعت من فلان عن فلان أو حدثني أو أخبرني أو أنبأني . ومن ثم تكون سند الحديث وتكونت السلاسل الطويلة من رواته ، تلك السلاسل التي تضخمت مع مر الزمن بعامل طول المسافة بين المحدث ومن ينقل عنهم حتى عصر الرسول . وقد يكون للحديث الواحد أكثر من سند بسبب تفرق الصحابة في الأرض ، وبذلك تعددت طرق رواية الحديث ، كما تعدد حاملوه ، وأصبح يحتوى متناً وسنداً يطول ويقصر . وطبيعي أن يسمى حديثاً لأنه كان يعتمد على الرواية والنقل الشفوي ، وهو يسمى أيضاً السنة ، وهي في اللغة العادة ويراد بها العادة المقدسة التي رويت عن النبي وصحابته ، وهي تستعمل في القرآن بمعنى تقاليد الأسلاف الأولين وقد حوّلها المسلمون إلى التقاليد التي حكيت عن الرسول وصحبه .

وبما لا ريب فيه أن بعض أحاديث الرسول دُون في حياته ، وخاصة تلك

(١) انظر في هذا الحديث مقدمة القسطلاني

عل البخارى .

التي تتصل بالزكاة حين كان يكتب إلى بعض الأقوام يبين لهم فرائض دينهم ، على نحو ما نجد ذلك في بعض كتبه المأثورة^(١) . ورخص النبي في بعض الأحوال لنفر من الصحابة أن يكتبوا حديثه ، فقد أذن لرجل من الأنصار شكاً إليه سوء حفظه لما يسمع منه أن يستعين على حفظه بيمينه^(٢) ، وعن رافع بن حديج قال : « قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها ؟ قال : اكتبوا ولا حرج^(٣) » ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب ما يسمع من حديث فأذن له^(٤) ، وكان يسمى صحيفته التي كتبها عن الرسول الصادقة^(٥) . وفي بعض الأحاديث أن الرسول أمر أصحابه أن يكتبوا لرجل يبنى خطبة سمعها منه ، تضمنت بعض الأحكام الدينية^(٦) . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ما كان من هذه الكتابة لحديث الرسول في حياته ، فإنها كانت محدودة جداً ، وكان الرسول ينهى أن تصبح كتابة حديثه عامة ، حتى لا يختلط بالقرآن ، وهذا هو السبب فيما أثير عنه من أقوال تنهى عن تدوين حديثه من مثل قوله لأصحابه : « لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن فمن كتب شيئاً فليمححه »^(٧) . وما يدل دلالة قاطعة على أن جمهور الحديث لم يكتب على عهد الرسول أن نجد عمر بن الخطاب يستشير الصحابة في كتابته ، وطفق يستخير الله فيها شهراً ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إني كنت أردت أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً^(٨) . فترك كتابة السنن ، وتبعه كثير من الصحابة يروون الحديث ويكرهون أن يكتبه سامعهم مثل زيد بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي موسى الأشعري ، واقتدى بهم كثير من التابعين وإن كانت أخذت تظهر عند بعضهم بوادر كتابته ، ولكنه على كل حال لم يدون في القرن الأول للهجرة تدويناً عاماً . وظل الأمر على ذلك حتى تولى عمر بن عبد العزيز

- | | |
|---|------------------------------------|
| (١) انظر في ذلك مجموعة الوثائق السياسية | (٤) تقييد العلم ص ٧٤ وما بعدها . |
| في العهد النبوي والخلافة الراشدة لحميد الله | (٥) تقييد العلم ص ٨٤ . |
| (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) . | (٦) نفس المصدر ص ٨٦ . |
| (٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي (طبعة | (٧) تقييد العلم ص ٢٩ وما بعدها . |
| يوسف العش) ص ٦٥ . | (٨) نفس المصدر ص ٤٩ وما بعدها . |
| (٣) تقييد العلم ص ٧٢ . | |

الخلافة (٩٩ - ١٠١ هـ) فأمر بتدوينه . جاء في حاشية^(١) الزرقاني على موطأ مالك : « لم يكن الصحابة ولا التابعون يكتبون الأحاديث إنما كانوا يؤدونها لفظاً ويأخذونها حفظاً إلا كتاب الصدقات والشئ اليسير .. حتى خيف عليها الدروس وأسرع في العلماء (من حفظها) الموت ، فأمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر الحزبي (والى المدينة) فيما كتب إليه : أن انظر ما كان من سنة أو حديث فاكتبه . وقال مالك في الموطأ رواية محمد بن الحسن : أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم ، أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته أو نحو هذا فاكتبه لي فلما خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، علّقه البخاري في صحيحه ، وأرجعه أبو نعيم في تاريخ أصبهان بلفظ : كتب عمر إلى الآفاق : انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه . وتوفي عمر قبل أن يصله عمل ابن حزم في هذا الصدد . وأول مدوّن للحديث بالمعنى الدقيق لكلمة تدوين هو ابن شهاب الزهري^(٢) المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وأخذ التصنيف والتأليف في الحديث يكثر بعده ويتسع ، وسرعان ما ظهر موطأ مالك ثم تابعت صحاحه مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم .

و إنما قدمنا ذلك ليقف القارئ على أن الحديث تأخر تدوينه ، وكان طبعياً أن يتداوله الأعاجم والمولدون قبل هذا التدوين حتى ينهجوا نهج الرسول ويقتفوا أثره ، فزادوا ونقصوا في عبارته وقدموا في كلماتها وأخروا وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ ، ومن أجل ذلك رأى أئمة اللغة والنحو من علماء البصرة والكوفة وبغداد أن لا يحتجوا بشيء من الحديث في إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد التي دونوها ، لأن الأحاديث لم تكن تُروى بألفاظها كما جاءت عن الرسول إنما كانت - تُروى غالباً - بمعانيها ، ومن أجل ذلك كان كثير من الأحاديث تتعدد رواياته .

٥٧١/١ وتهذيب التهذيب لابن حجر ٩/٤٤٥
وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٠٢/١ والمعارف
لابن قتيبة ص ٢٣٩ وصفة الصفوة ٢/٧٧ .

(١) انظر الحاشية ١٠/١ .
(٢) انظر في ترجمته كتاب الأنساب
للسماعى ٢٨١ وابن خلكان (طبعة بولاق)

على أن طائفة من الأحاديث رويت رواية تواتر، ومن ينظر في هذه الأحاديث وما نص عليه العلماء بأنه روى بلفظه يعرف أنه عليه السلام أوتي جوامع الكلم، وحققاً ما يقوله الجاحظ من أنه «لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشيّد بالتأييد ويُسَّر بالتوفيق»^(١) ويضرب الجاحظ لبيان الرائع بعض الأمثلة من حديثه الذي قلَّ عدد حروفه وكثرت معانيه، فمن ذلك قوله للأَنْصار: «أما والله ما علمتكم إلا لتقلُّون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع» وقوله «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على مَنْ سواهم»، وقوله: «لا تزال أمتي صالحاً أمرها ما لم ترَ الأمانة مغنماً والصدقة مغرمًا»، وقوله «المستشار مؤتمن»، وقوله: «إن أحبَّكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنُكم أخلاقاً الموطَّئون أكنافاً الذين يَأْلِفون ويؤْلَفون. وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثَّارون المتفهبون»، وقوله «لا تَجُنَّ يمينك على شمالك» وقوله: «ما أملتُ تاجر صدوق» وقوله: «رَحِمَ الله عبداً قال خيراً فغنمَ أو سكتَ فسلمَ» وقوله: «إن الله يَرْضَى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً: يَرْضَى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا وأن تَنَاصَحُوا من ولَّاه الله أمركم، ويكره لكم قيلَ وقالَ وكثرة السؤال وإضاعة المال» وقوله: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وإنما لك من ماله ما أكلت فأغفيت أو لبست فأبليت أو وهبت فأمضيت» وقوله: «إن قوما ركبوا سفينة في البحر فافتسموا فصار لكل رجل موضع، فنقَر رجل موضعه بفأس، فقالوا: ما تصنع؟ قال: هو مكاني أصنع به ما شئتُ، فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا» وقوله: «حصَّنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة» وقوله: «من ذَبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقاً على الله أن يحرم لحمه على النار» وقوله: «أوصاني ربي بتسع: أوصاني بالإخلاص في السرِّ والعَلانية، وبالعدل في الرضا والغضب، وبالقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عن ظلمي، وأعطى من حرمني، وأصِل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عِبراً» وقوله: «إن الأحاديث ستكثر

بعدي كما كثرت على الأنبياء من قبلي ، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فهو عنى قلته أو لم أقله » . ويذكر الجاحظ طائفة من أقواله التي دارت بين الناس دوران الأمثال والتي تعدُّ ذخيرة أدبية رائعة من نحو قوله صلى الله عليه وسلم ^(١) :

يا خيل الله اركبي - مات حتف أنفه ^(٢) - لا تطح فيه عسزان - الآن حمي الوطيس ^(٣) - كل الصبيد في جوف الفراء ^(٤) - هُدنة على دخن وجماعة على أقذاء ^(٥) - لا يُلْسَع المؤمن من جُحُر مرتين . ومن أمثاله أيضاً : إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قَطَعَ ولا ظهراً أبى ^(٦) - إياكم وخضراء الدمن ^(٧) - الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة ^(٨) .

وإذا كنا قد عرضنا في غير هذا الموضع لأثر القرآن في اللغة والأدب فإن للحديث هو الآخر أثراً فيهما ، وإن كان لا يبلغ أثر القرآن العظيم ، لأنه دونه في البلاغة ، وإن كان قائله أبلغ العرب قاطبة وأفصحهم . ويمكن أن نلاحظ أثره في أنه عاون القرآن الكريم في انتشار العربية ، وفي حفظها وبقائها ، وكان له أثر أيضاً في توسيع المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تُستخدَم من قبل هذا الاستخدام الخاص ، وقد أقبل العلماء في مختلف الأمصار الإسلامية ، وعلى تعاقب الأعصار ، يدرسون ويتحفظونه ويشرحونه ويستنبطون منه . وحقاً أن كثرت رؤيت بالمعنى . ولكن هذا لا يقلل من قيمته اللغوية ، إذ كانت ألفاظه تدور في عصور سبقت عصر فساد اللغة ، وهي من أجل ذلك ألفاظ عربية سليمة ، وبالتالي هي أكثر ثمين . وقد استمد المتأدبون من هذا الكثر في رسائلهم وأشعارهم ما أضاف إليها - على مر العصور - رونقاً وطلاوة ، وما يزال ذلك شأنهم إلى اليوم . وقد

- | | |
|--|---|
| (١) انظر البيان والتبيين ١٥/٢ . وراجع كتب الأمثال . | (٥) دخن : حقد . |
| (٢) مثل يضرب لمن مات على فراشه . | (٦) المنبت : من أسرع بناتته حتى هلك فلم يقض ما يبنى من حاجة أو من سفر . |
| (٣) الوطيس : التنور . يضرب مثلاً في اشتداد الحرب . | والظهر : الناقة التي يركبها . |
| (٤) الفراء : حمار الوحش . يضرب مثلاً في نفاسة الشيء أو الشخص . | (٧) الدمن : البعر المتليد . يضرب مثلاً للتنفير من المرأة الحسناء تنشأ في منبت سيء . |
| | (٨) الراحلة : الصالحة لأن ترحل . |

جاءت فيه أحرف غريبة من لغات القبائل ، إذ كان الرسول يخاطب بعض وفودهم بلغاتهم ، وبقيت من ذلك آثار مختلفة كحديثه المشهور الذي أبدل فيه أل بأم كما يصنع بعض العرب من حمير إذ قال : « ليس من أمبير أمصيام في أمستقر » ، أى ليس من البر الصيام في السفر . ومن أجل هذا وأمثاله ألف العلماء في غريبه كتباً ، من أهمها كتاب غريب الحديث للقاسم بن سلام . ومن تأثيره أيضاً نشأة الكتابة التاريخية لا في السيرة النبوية فحسب ، بل أيضاً في تراجم المحدثين للحكم لهم أو عليهم فيما نُقل عنهم . ومن غير شك هو السبب في أن المسلمين أشد الأُمم عناية بتواريخ رجالهم على نحو ما نعرف في مثل طبقات ابن سعد وأُسْدُ الغابة والإصابة والاستيعاب وميزان الاعتدال للذهبي . فالحديث هو الذي فتَحَ باب الكتابة التاريخية وهيئاً لظهور كتب الطبقات في كل فن . وهذا غير ما نشأ عنه من علوم الحديث وغير مشاركته في علوم التفسير والفقه ، مما بعثَ على نهضة علمية رائعة .

الفصل الثالث

الشعر

١

كثرة الشعر والشعراء المخضرمين

تزخر كتب الأدب والتاريخ بما نُظِم من أشعار في صدر الإسلام ، وهي أشعار كثيرة ، نلقاها في كل ما يصادفنا من أحداث العصر ، فليس هناك حدث كبير إلا ويواكبه الشعر ويرافقه ، وكان أكبر الأحداث دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وهي دعوة اضطرته إلى حَمَل السيف للذباب عنها ، وانقسم العرب بإزائها مؤمنين ومشركين فكان هناك من آمنوا وحَسَنَ إيمانهم ومن وقفوا يدافعون عن الدين القديم ويصدون عن سبيل الله ، وكل ذلك نجده ماثلاً على السنة الشعراء . واستقام أمر الإسلام في الجزيرة ، غير أن أقواماً ارتدوا لعهد أبي بكر ، فحاربهم ومثّل الشعر هذه الحرب ، ثم كانت الفتوح ، فانطلق العرب يحملون مشاعل الإسلام إلى العالم وهم يُنشِدون أناشيد الجهاد . وتلت ذلك فتنة عثمان وحروب على وطلحة والزبير وعائشة من جهة وحروب على معاوية من جهة ثانية ، فَعَلَّتْ أصوات الشعراء وتصايحوا بأشعارهم في كل مكان .

ومضى كثيرون ينظمون في هذا العصر لأمع الأحداث ، بل مع أنفسهم وقبائلهم مستضيئين إلى حد كبير بالإسلام وهُدًى به الكريم . فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف في هذا العصر ، وهذا طبيعي لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله في الجاهلية وكانوا قد انحلت عُقْدَة لسانهم وعبروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتمَّ الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه . وقرأ في كتب الأدب والتاريخ مثل الأغاني والطبری وسيرة ابن هشام وكتب الصحابة مثل الإصابة والاستيعاب فستجد الشعر يسيل على كل لسان ، وقرأ في

المفضليات والأصمعيات فستجد المفضل الضبي والأصمعي يحتفظان في كتابيهما بغير مطولة للمخضرمين ، وقد عقد ابن قتيبة في الشعر والشعراء تراجم لكثيرين منهم ، وسلك ابن سلام في كتابه « طبقات فحول الشعراء » طائفة من مجوديهم البارعين .

ومن يرجع إلى كل هذه المصادر يستقر في نفسه أن الشعر ظل مزدهراً في صدر الإسلام ، وليس بصحيح أنه توقف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين إذ يقول في مقدمته : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخسروا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ، ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم يتزل الوحى في تحريم الشعر وحفظه وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه ^(١) . وكأنه يجعل توقفهم عن الشعر مدة نزول الوحى لعصر الرسول ، وواضح أن هذا لا يصدق على المشركين لأنهم لم يُشغَلُوا بالدعوة ، ومعروف أن جمهور القبائل العربية إنما دخل في الإسلام بعد فتح مكة في العام الثامن للهجرة . وإذن فانصرفهم عن الشعر — إن صح — إنما كان لمدة عامين أى إلى أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وهو نفسه ينقض ما قاله في أول كلامه بما قاله في آخره من أن الرسول سمع الشعر وأثاب عليه ، ونحن نعرف أنه كان يقف بجانبه ثلاثة من شعراء المدينة ينافحون عنه ويردُّون على شعراء مكة وغيرهم من خصومه ذائدين مدافعين ، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . وحتى في العامين الأخيرين من حياته على الوفود كان كل وفد يتقدم معه خطبائه وشعراؤه ، وبمجرد أن يمشلوا بين يديه يتحدث خطبائهم وينشد شعراؤهم ويرد عليهم خطباء الرسول صلى الله عليه وسلم وشعراؤه ^(٢) .

ولعل الذى دفع ابن خلدون إلى كلامه السابق ما جاء عند ابن سلام وتناقله الرواة بعده من قوله : « فجاء الإسلام وتشاغلت عن الشعر العرب وتشاغلوا

(١) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البية) . (٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٦/٤

وما بعدها .

بالجهاد وغزو فارس والروم ولدت (العرب) عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير^(١) . وابن سلام إنما يقول ذلك ليدل على أن شعراً عربياً كثيراً ضاع من يد الزمن ، وكان يكفي ما قاله من أنهم لم يدونوه وأنهم اكتفوا بروايته ، فإن من شأن الرواية إذا طال العهد بها أن لا تحتفظ بكثير من الشعر وأن يسقط منه غير قليل ، أما قوله بأن العرب لمت عن الشعر وشغلت عنه بالجهاد فينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه .

وربما جاءت شبهة لصغار العرب للشعر في صدر الإسلام وإعراضهم عنه من مهاجمة القرآن للشعراء في قوله تعالى : (والشعراء يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَنَلُوا) . وواضح من نفس هذه الآيات أن القرآن إنما يهاجم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرسول ويشبِّطون عن دعوته ، فالقرآن لم يهاجم الشعر من حيث هو شعر ، وإنما يهاجم شعراً بعينه كان يؤذى الله ورسوله ، وهو نفسه الذي قال فيه الرسول الكريم : « لأن يمتليء جوف أحدكم قبيحاً خيراً له من أن يمتليء شعراً »^(٢) أما بعد ذلك فإن الرسول كان يُعْجَبُ بالشعر ويقول حين يسمع بعض روائعه : « إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكماً أو حكمة »^(٣) ، وكان يحضُّ حسان بن ثابت وغيره على نظمهم ويشبههم . وكان بعض خصومه ممن توعداهم يتخذه وسيلة إلى استرضائه وعفوه عنه ، على نحو ما هو معروف عن كعب بن زهير الذي أحفظه بأشعار مختلفة ندّد فيها بالإسلام ، ثم قدّم عليه فأنشده لاميته المشهورة يطلب الصفح عن إساءته ، فتهلل وجهه بشراً وخلع عليه بُردته^(٤) .

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (٣) العمد ٩/١ .
 (٢) أغاني (طبعة الساسي) ١٤٢/١٥ وما بعدها .
 (٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (٣) العمد ٩/١ .
 (٤) أغاني (طبعة الساسي) ١٤٢/١٥ وما بعدها .

والحق أن الإسلام لم يردَّ العرب عن الشعر ونظمه ، وسنرى عما قليل أن الرسول عليه السلام اتخذهُ سلاحاً ماضياً ضد خصومه من مشركي قريش وأعداء رسالته ، إذ كان يرى أن وقع نبئله عليهم أشد من وقع الحسام^(١) . وكان الخلفاء الراشدون من بعده يرددونه دائماً على ألسنتهم^(٢) ، كما كان صحابته كثيراً ما يتناشدونه في المسجد^(٣) . وقد اشتهر عمر بن الخطاب بأنه كان كثيراً ما يسأل وفود القبائل عن شعرائهم ، وكانوا ينشدونه بعض أشعارهم وقد ينشدوها هو متعجباً مستحسناً^(٤) ، ويقال إنه كتب إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة : « مُرْ مَنْ قَبْلَكَ بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب »^(٥) ، ويقول ابن سلام إنه « كان لا يكاد يعرض أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »^(٦) .

وكل ذلك معناه أن الإسلام لم يُثَبِّط عن الشعر إلا حين وقف معارضاً لدعوته ، أما بعد ذلك فقد كان يرتضيه ويستحسنه . وقد مضى الخلفاء الراشدون مهتدين بهدى الإسلام الحنيف ينهون عن الهجاء ويعاقبون فيه ، وقصة عمر بن الخطاب مع الخطيئة معروفة ، فقد حبسه حين أقذع في هجائه للزبير بن بدر ، ولما استرحمه على أفلاذ كبده بأبياته المشهورة عفا عنه ، بعد أن عاهدته على أن لا يعود إلى مثل هذا الهجاء^(٧) . واتبع عثمان سنة عمر في التشديد على من يستلقون المسلمين باللسنة حداداً ، وقصته مع ضابي بن الحارث البُرْجمي مشهورة فقد هجا جماعة من الأنصار هجاء مقذعاً أفحش فيه ، فاستعدوه عليه فحبسه ، وظل في حبسه حتى مات^(٨) .

٢٧٠/٥ وخزانة الأدب للبغدادى ٢/٢٩٢ .

(٥) العدة ١/١٠ .

(٦) البيان والتبيين ١/٢٤١ .

(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢/١٨٥ .

(٨) ابن سلام ص ١٤٤ وانظر في ترجمة

ضابي أيضاً الشعر والشعراء ١/٣٠٩ والإصابة

٢/٣٦٧ والخزانة ٤/٨٠ والكامل للمبرد (طبعة

رايت) ص ٢١٩ .

(١) العدة ١/١٢ .

(٢) راجع خطبة أبي بكر في السيفة

وكتاب عثمان إلى علي حين حوَّص ، وانظر ابن

سعد ٥٧/٦ .

(٣) طبقات ابن سعد (طبعة أوربا) ج ١ ق ٢

ص ٩٥ - ٩٦ والفائق للزمخشري ١/٢٥٧ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ٨/١٩٩ ،

١٠/٢٨٨ والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف

ولكن هاتين القصتين شيء ونظم العرب للشعر حينذاك وروايته شيء آخر . فقد كانت حريتهم مكفولة في هذه الرواية وذلك النظم ما لم يتعرضوا للأعراض ، ومن الظلم للإسلام أن يقال إنه كفَّ العرب عن الشعر ووقف نشاطه ، فقد كان يُنشدُ على كل لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لأعلى خموله سواء في معركة الإسلام مع الوثنيين والمتردين أو في الفتوح أو في معركة على مع خصومه في العراق . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإن أحداثه حَلَّتْ من عَقْدِ الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه ، فإذا بنا نجد مكة التي لم تُعرَف في الجاهلية بشعر كثير يكثر شعراؤها ، وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء في الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها . وهم يسمون جميعاً مخضرمين من الخضرمة وهي الاختلاط لأنهم خلطوا في حياتهم بين الجاهلية والإسلام فعاشوا في العصرين معاً .

٢

الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

مما لا ريب فيه أن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا في الإسلام ، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم ، فأتوا قبل إسلامهم وحرى بهؤلاء أن يدخلوا في غمار الجاهليين ، فهم ليسوا مخضرمين بالمعنى الصحيح للخضرمة ، ومن ثم كُنَّا نخرج دُرَيْدَ بن الصَّمَّةَ والأعشى وأمية ابن أبي الصلت والأسود بن يعفر النَّهْشَلِيَّ وأضرابهم من سِلْكِ المخضرمين وننظمهم في سلك الجاهليين ، لأن الموت أدركهم قبل أن يتمَّ الله عليهم نعمة الإسلام .

ومعروف أن قريشاً حادَّت الله ورسوله حين بُعث مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وسرعان ما نشبت بين البلديتين معركة حامية الوطيس ، تقف فيها قريش ومن يُعينها من العرب في جانب ، ويقف الرسول صلوات الله عليه ومن هاجروا معه من مكة ومن التفؤوا حوله في المدينة في جانب آخر . وبمجرد أن

اشتبكت السيوف أخذ الشعراء في الجناحين المتناقضين يسلّون ألسنتهم ، ولم تكن مكة في الجاهلية - كما قدمنا - تُعرَفُ بشعر إلا بعض مقطوعات تُنسبُ لورقة ابن نوفل وغيره من المتحنّفين ، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فتّيانها مثل نُبَيْتِه ومساfer اللذين ترجم لهما أبو الفرج في أغانيه . فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزُبَيْرِ وضرار بن الخطاب الفهري وأبي عَزَّةَ الجمحي وهُبَيْرَةُ بن أبي وهب المخزومي ، وقد أخذوا يسدّون سهام أشعارهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين وأنصاره من المدينة . وعزّ ذلك عليه لا لأنهم كانوا يهجونَه فحسب ، بل أيضاً لأنهم كانوا يصدّون عن سبيل الله بما يتذيع من شعرهم في القبائل العربية ، فقال لأنصار : « ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله بسلّاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله ما يسرّني به مِقْصُولٌ بين بُصْرَى وصنعاء^(١) وانضم إليه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فاحتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة . وقرأ في سيرة ابن هشام فستجده ينقل عن ابن إسحق عقب كل موقعة حربية ما قيل فيها من شعر ، تجد ذلك عقب غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة وعقب غزوة أحد في السنة الثالثة وغزوة الخندق في السنة الخامسة كما تجد أطرافاً من ذلك في فتح مكة للسنة الثامنة .

على أنه ينبغي أن نشك في كثير من هذه الأشعار لأن ابن إسحق - كما يقول ابن سلام - كان يَحْمِلُ كل غُثاء من الشعر حتى أفسده وهجّنه^(٢) ، ونرى ابن سلام يقول في ترجمته لأبي سفيان بن الحارث : «لسنا نعدّ ما يروى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأنّ لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم^(٣) . على أن ابن سلام نفسه يثبت لأبي سفيان بن الحارث قصيدة كافية ناقض بها في يوم أحد كافية^(٤) كان قد نظمها حسان بعد وقعة بدر^(٥) ، وقد

(١) أغاني ١٣٧/٤ .

(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٣) ابن سلام ص ٨ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٧ وما بعدها .

أثبت لابن الزبَعْرَى قصيدته التي قالها في نفس اليوم^(١)، والتي يقول فيها :
 لَيْتَ أَشْيَاخِي بَبْدَرٍ شَهِدُوا ضَجَرَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلِ^(٢)
 حِينَ أَلْقَتْ بِقُبَاءٍ بَرْكَهَا وَاسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِي عَبْدِ الْأَسْلِ^(٣)
 فَقَبِلْنَا النُّصْفَ مِنْ سَادَتِهِمْ وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَاعْتَدَلِ^(٤)

وأيضاً فإنه أثبت لأبي عَزَّة ميمية يحرض فيها بني كنانة^(٥)، وقال عن
 هبيرة بن أبي وهب : إنه كان شديد العداوة لله ولرسوله ، وهو الذي يقول في
 يوم أحد^(٦) :

قُدْنَا كِنَانَةً مِنْ أَكْنَافِ ذِي يَمَنٍ عَرَضَ الْبِلَادِ عَلَى مَا كَانَ يُزْجِيهَا^(٧)
 قَالَتْ كِنَانَةٌ : أَنَّى تَذْهَبُونَ بَنَا قُلْنَا : التَّخِيلَ ، فَأُمُوها وَمَا فِيهَا^(٨)

وكان في الطرف المقابل حسان وكعب وابن رواحة ، وحسان أشعر الثلاثة ،
 يقول ابن سلام : « وهو كثير الشعر جيده » ، ويقال إن أول ما جرى به لسانه
 حين سلَّه على قريش هذه الأبيات يتحدث بها أبا سفيان بن الحارث^(٩) :

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَأَجِبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
 فَلَمَّا أَبَى وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَفَاءُ
 أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفٍّ فَشَرُّكُمْ لَخَيْرِكُمْ الْفِدَاءُ

- (١) ابن سلام ص ١٩٨ وما بعدها .
 (٢) أشياخه ببدر : من قتلوا بها من مشركي قريش . الأسل : الرماح .
 (٣) قباء : موضع بضواحي المدينة . أَلْقَتْ الحرب بركها : حصى وطيسها . استحمر القتل : اشتد وكثر .
 (٤) قبلنا النصف : انتصفنا بمن قتلناه منهم لقتل بدر .
 (٥) ابن سلام ص ٢١٣ .
 (٦) ابن سلام ص ٢١٥ .
 (٧) الأكفاف : النواحي . ذويمن : موضع قريب من مكة . يزجي : يسوق ويدفع .
 (٨) يريد بالتخييل المدينة لكثرة فيها أموها : قصدوها .
 (٩) أغاني ١٣٩/٤ والاستيعاب لابن عبد البر ص ١٢٩ .

ويقول ابن سلام : « وكعب شاعر مجيد ، قال يوم أحدٍ في كلمة :

فجئنا إلى موجٍ من البحر وَسَطَهُ أحابيشُ منهم حاسِرٌ ومقنَعٌ^(١)
ثلاثةُ آلافٍ ونحنُ نَصِيَّةُ ثلاثُ مثينٍ إن كُثرنا وأربعُ^(٢)
فراحوا سراعاً مُوجِفينَ كأنهم جهامٌ هَراقتُ ماءهُ الرِّيحُ مُقْلِعُ^(٣)
ورُخْنا وأخرانا بَطاءً كأننا أسودٌ على لَحْمٍ بَيْيشَةٍ ظُلُعُ^(٤)

وقال في أيام الخندق :

مَنْ سَرَهُ ضَرْبُ يَرْعِيلٍ بَغْضُهُ بعضاً كَمَعَمَعَةِ الأَباءِ الْمُحْرَقِ^(٥)
فَلَيَاتٍ مَأْسَدَةً تُسَلُّ سِيوفُهَا بين المِزادِ وبين جِزَعِ الخَنْدَقِ^(٦)

ووقف ابن سلام عند ابن رواحة وتحدث عن حُسْنِ إسلامه وأنه كان أحد الأمراء الثلاثة الذين قتلوا يوم مؤتة وأثبت له من هجائه لقريش قوله^(٧) :

نجالدُ النَّاسِ عن عُرْضٍ فَنَأْسِرُهُم فينا النبيُّ وفيما تنزلُ السُّورُ^(٨)
وقد علمتم بآنا ليس غالبنا حَيٌّ من الناسِ إن عَزُّوا وإن كَثُرُوا
يا هاشمَ الخيرِ إن اللهَ فَضَّلَكُمْ على البَرِيَّةِ فَضْلاً ماله غَيْرُ^(٩)
فثَبَّتَ اللهُ ما آتاك من حَسَنِ تشبِيتِ موسى ونَصْرًا كالذي نَصَرُوا^(١٠)

النار في القصب . الأباء : أجمة القصب .

يصف أصوات المعركة .

(٦) أرض مأسدة : كثيرة الأسود . المِزاد :

موضع بالمدينة . جزع الخندق : منعطفه .

(٧) ابن سلام ص ١٨٨ .

(٨) عن عرض : عن ناحية ، يريد أنهم

لا يبالون من يضربون .

(٩) غير : تغيير .

(١٠) يقصد الرسل .

(١) أحابيش قريش : حلف منهم تحالفوا

عند جبل يسمى حبشيا . الحاسر : الذي لا بيضة

له عكس المقنع .

(٢) النصية : الخيل والأشراف .

(٣) موجفين : مسرعين . الجهام : السحاب

أفرغ مائه .

(٤) بيشة : مسبعة في واد كثير الشجر .

ظلع : من الظلع وهو العرج . يكنى بذلك عن سيرهم

البطيء المظلم .

(٥) يرعيل : يمزق . الممعة : صوت لذب

وفي الأغاني أن حسناً وكعباً «كانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعتبرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشدّ القول عليهم قولُ حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشدّ القول عليهم قول ابن رواحة»^(١). ومن المؤكد أن حسناً وكعباً كانا يرميان قريشاً عن بصيرة حين غلبت على هجائهما صورةُ الهجاء القديمة، لأنها هي التي كانت تؤذي نفوس القرشيين المكّيين ولو أنهما رمياهم بالشرك وعبادة الأوثان لما نالا منهم، إذ كانت تلك عقيدتهم وكانوا يعتزّون بها، ومن ثم اتجه حسان وكعب هذه الوجهة، فطعنا في الأحساب والأنساب، وعير أسادتهم وفرسانهم بالفرار من الحرب وتوعداهم بالبلاء المستطير. وطبيعي لذلك أن لا نجد عندهما تأثراً واضحاً بمثالية القرآن الكريم في ذمّ المشركين، إذ نراه خالياً من الشتم والسباب والطعن في الأعراض والأحساب، وأيضاً فإنه لا يتوعد المشركين بحرب مبيّرة تأتي على الشيب والشبان، إنما يتوعدهم بالنار، ومع ذلك يفتح الأبواب واسعة لرحمة الله وغفرانه وتوبته على المشركين الذين يثوبون إلى عقولهم ويدخلون في دينه الخفيف.

وكان يَشْرَكُ شعراء قريش في التآليب على رسول الله وأنصاره وأصحابه نفر من شعراء اليهود نكثوا ما عاهدوه من المواعدة وحقوق الجوار^(٢) وأخذوا يهجونه هو والمسلمين ويخذّلون عنه قريشاً والعرب، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُنمَّ نوره ولو كره الكافرون. وكان من رءوسهم في هذا الفساد كعب بن الأشرف^(٣)، وقد بلغ من سوء فعله أن كان يشبّب بنساء الرسول ونساء المسلمين، مما جعل محمد بن مسلمة يقتله في رهط من الأنصار^(٤). غير أن اليهود لم يرتدعوا وأخذوا يعملون سراً وجهرًا على تقويض الدعوة المحمدية، فاضطر الرسول إلى إجلالهم عن المدينة، حتى إذا انتهينا إلى خلافة عمر رأيناه ببصيرته النافذة يأمر بإجلالهم عن الجزيرة.

(٤) ابن سلام ص ٢٣٨ والسيرة النبوية

٥٤/٣ وما بعدها.

(١) أغاني ١٣٨/٤.

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبي) ١٤٧/٢.

(٣) أغاني (طبعة الساسي) ١٠٦/١٩.

وكان كثير من شعراء العرب يقفون مع قريش باكين قتلاها ومحرضين لها على كفاحها ضد الرسول مثل أمية بن أبي الصلت، ورثاؤه لقتلى بدر مشهور^(١) ومثل الأسود بن يعفر الذي أشاد بانتصارها في يوم أحد^(٢)، وقد ماتا في أثناء هذا الصراع. وكان يقف هذا الموقف نفر من شعراء القبائل التي لما تدخل في الإسلام. وكان يرد عليهم جميعاً شعراء المدينة متوعدين مهددين على شاكلة قول كعب بن مالك يهدد ثقيفاً بعد انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم على يهود خيبر^(٣) :

قَصَيْنَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ وَتَرٍ وَخَيْبَرٍ ثُمَّ أَحْجَمْنَا السُّيُوفَا^(٤)
نَخِيرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَوَّاطِعُهُنَّ : دَوْسًا أَوْ ثَقِيفَا^(٥)
فَلَسْتُ لِحَاصِنٍ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مَنَا أُلُوفَا^(٦)
فَنَنْتَزِعَ الْعُرُوشَ بَنَاطِنَ وَجٍّ وَنَتْرِكَ دَارِكُمْ مَنَا خُلُوفَا^(٧)
وَنُرْدِي اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَوَدَا وَنَسْلُبُهَا الْقَلَائِدَ وَالشُّنُوفَا^(٨)

وتُفْتَسَحُ مكة في السنة الثامنة للهجرة، ولكن تظل للصراع بقية في شعراء هذيل، على نحو ما يمثلهم أبو خراش الهذلي في بكائه لدُبَيْيَّة سادن العُزَّى حين قتله خالد بن الوليد^(٩). وتظل بقية أخرى في ثقيف ومعاركها مع الرسول في حُنين. على أنه بمجرد أن دخلت مكة في الإسلام أُدبجت الجزيرة كلها فيه، وأخذت وفودها تفد على الرسول معلنة اعتناقها الدين الخفيف. وفي هذه الأثناء نجد كثيراً من الشعراء وعلى رأسهم شعراء قريش يفزعون إلى ساحة الرسول الكريم

- (١) ابن سلام ص ٢٢١ والسيرة النبوية ٣/٣١١.
(٢) ابن سلام ص ١٢٣.
(٣) ابن سلام ص ١٨٤.
(٤) الوتر : الثأر.
(٥) دوس وثقيف : قبيلتان كانتا تنزلان بالطائف.
(٦) الحاصن : المرأة المفيفة.
(٧) يقصد بالعروش قضبان الكرم.
وج : الطائف ونواحيها. والحق الخلوف : الذي فارقه الرجال، يقصد أنهم سيبيدونهم.
(٨) نردى : نهدم. اللات والعزى وود : أصنام. القلائد : السموط. الشنوف : جمع شنف وهو القروط.
(٩) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ١٤٨/٢ وأظفر الأصنام لابن الكلبي ص ٢٤ وما بعدها.

يطلبون عفوه ، وقصةُ كعب بن زهير مشهورة ، وقد مرت بنا الإشارة إليه ،
ومثله أنس بن زعيم ، فإنه كان هجا الرسول ، ثم تاب إلى رشده ، فقدم عليه
معتذراً ، وأنشده أبياتاً مدحه بها ، يقول في تضاعيفها^(١) :

وما حملتُ من ناقةٍ فوق رَحْلها أبرُّ وأوفى ذِمَّةً من محمدٍ
ونظم أبو سفيان بن الحارث أشعاراً كثيرةً يأسى فيها على ما فرط في جنب
الله ورسوله على شاكلة قوله^(٢) :

لعمركُ إني يوم أحمل رايةً لتغلبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ محمدٍ
لكالمُدْلِجِ الحَيْرَانِ أَظْلَمَ ليلَه فهذا أوانُ حين أهْدَى وأهْتدى
وكان كثير من الشعراء المسلمين يمتدح الرسول وهديه الكريم ، يتقدمهم
في ذلك شعراء المدينة ، وتُنسَبُ إلى الأعشى قصيدة في مديحه^(٣) لا شك أنها
منحولة ، وتُنسَبُ لأبي طالب قصيدة مدحه بها يقول فيها :

وأبيضُ يُستَسْقَى الغمامُ بوجهه ربيعُ اليتامى عِصْمَةٌ للأرامل
ويقول ابن سلام : «قد زيد فيها وطُوت»^(٤) وتُنسَبُ إلى عباس بن مرداس
فارس بنى سُلَيْم أشعار كثيرة يمدحه بها من مثل قوله^(٥) :

نبيُّ أتاننا بعد عيسى بنِ ناطقٍ من الحق فيه الفضلُ منه كذلكا
أميناً على الفرقان أول شافعٍ وآخر مبعوثٍ يجيب الملائكا
ونظم كثير من المراثي في قتلى المسلمين والمشركين ، ورثاءُ قَتَيْلَةَ
لأبيها النَّصْر بن الحارث ذائع مشهور . ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى بكاه
الشعراء بكاء حاراً ، ومن أرق ما رثي به قصيدة حسان التي يستهلها بقوله^(٦) :

ما بالُ عيني لا تنام كأنما كُحِلَتْ مآقيها بكُحْلِ الأزمَدِ

(١) الإصابة لابن حجر ٦٩/١ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٤ .

(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٠٥/١٤ .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٥/٩ .

(٦) ديوان حسان (طبعة هرشفيلد) ص ٥٨ .

وأكبر الظن أنه اتضح كيف أن الشعر في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجري على كل لسان ، ويكفى أن نرجع إلى سيرة ابن هشام فسنرى سيوله تتدافع من كل جانب ، وحقاً فيها شعر موضوع كثير ، ولكن حينما يُصنَّفُ وحين نقابل عليه ما ارتضاه ابن سلام وغيره من الرواة الموثوق بهم نجدنا إزاء ملحمة ضخمة تعاون في صنعها عشرات من الشعراء والشاعرات .

٣

الشعر في عصر الخلفاء الراشدين

عَمَّتْ أضواء الإسلام في الجزيرة العربية كلها منذ السنة التاسعة للهجرة ، فقد أُعلن في الحج لهذه السنة أنه من شعائر الإسلام وأن الجزيرة دار المسلمين ، وبذلك قُضِيَ على الوثنية في أنحائها قضاء مبرماً من جهة ، وأصبح الإسلام والعروبة شيئاً واحداً من جهة ثانية ، وهذا هو السر في نشوء نظام الولاء حين فُتحت البلاد الأجنبية ، فإنه كان حتماً على من يسلم أن يلتحق بقبيلة عربية ويصبح كأنه فرد من أفرادها .

ولم يكد يتسلم أبو بكر الصديق مقاليد الخلافة حتى طغت على الجزيرة موجة حادة من الردة ، إذ امتنع كثير من العرب عن أداء الزكاة على شاتهم وبعيرهم ، فاستشار الصديق كبار الصحابة فيما يصنع ، فكلهم قالوا : إنه لا طاقة لنا بقتال العرب جميعاً ، فقال : « والله لأن أخيراً من السماء فتخطفني الطير أحبُّ إلى من أن يكون رأيي هذا » ثم صعد المنبر فخطب الناس خطبة مشهورة قال فيها : « والله لو منعوني عيالا لجاهدتهم عليه » ثم نزل فوجه الجيوش إليهم بقيادة خالد بن الوليد وغيره . وكانت قبيلة أسد قد تجمعت حول متنبئ ظهر فيها يسمى طليحة بن خويلد ، وانضمت إليها غطفان . وعبثا حاول من حسن إسلامهم في القبيلتين أن يردوهما عن غيئهما ، ولم يلبث أن التقى بهما خالد عند بئر بُزْأخة ، فنكّل بهما تنكيلاً شديداً ، استسلمتا على إثره . واتجه خالد تَوّاً إلى تميم ومتنبئتها سجاح فلم تلبث بعد مناوشات صغيرة أن أذعنت له ،

وقُتِل حينئذ مالك بن نويرة سيد بني يربوع ، ولأخيه متمم فيه مراث رائعة^(١) .
 واتجه خالد بجيوشه نحو بني حنيفة في البجامة ومتنبهاً مُسَيَّلِمة ، فالتقى بها في
 « عقربة » ونشبت بين الطرفين معارك حادة استحرّ فيها القتل ، غير أن الدوائر لم
 تلبث أن دارت على بني حنيفة ، فسقط متنبهاً في ميدان المعارك ، وأعلنت
 استسلامها . وكان ذلك نصراً مؤزراً لدين الله ، وسرعان ما دانت « البحرين »
 بالطاعة ، واتجهت أسراب من هذه الجيوش إلى حضرموت ونجران واليمن ،
 حيث التفت الناس هناك حول متنبى يسمى الأسود العنسي ومتنبى آخر يسمى
 قيس بن عبد يغوث ، ولم تلبث كل هذه الأنحاء أن استسلمت .

وإذا كانت معركة الشرك لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلّفت
 ملحمة كبيرة فإن معركة الردة هي الأخرى قد خلّفت أشعاراً كثيرة ، بعضها
 كان إنذاراً وتخويفاً ووعظاً من مثل قول الحارث بن مرة في وعظه لبني
 عامر^(٢) :

بني عامرٍ إن تَنْصُرُوا اللهَ تَنْصُرُوا وإن تَنْصَبُوا اللهَ والدين تُخَذِّلُوا
 وإن تَهْزَمُوا لا يُنْجِكمُ منه مهْرَبٌ وإن تَشَبْتُوا للقوم والله تُقْتَلُوا

وبعضها كان حماسة دينية يهتف بها المحاربون من المسلمين من مثل قول
 أوس بن بجير الطائي في موقعة بُزَاخة^(٣) :

وليتَ أبا بكرٍ يرى من سيوفنا وما تَخْتَلِي من أذْرُعٍ ورقابٍ^(٤)
 ألم تر أن الله لا ربَّ غيره يصبُّ على الكفار سَوَاطِعَ عذابٍ

وللمرتدين أشعار مختلفة يستثيرون بها العزائم^(٥) .

- | | |
|--|---|
| (١) انظر في متمم ورثائه لأخيه الأغاني
(طبعة الساسي) ٦٣/١٤ والشعر والشعراء
(طبع دار المعارف) ٢٩٦/١ والخزانة
٢٣٤/١ ومجمع الشعراء للمرزباني (طبعة الحلبي)
ص ٤٣٢ والمفضليات (طبع دار المعارف)
ص ٢٦٣ ، ٢٧١ . | (٢) الإصابة لابن حجر ٥٥/٢ وراجع
في أشعار أخرى الإصابة ٢٧٤/١ ، ٣/٢ ،
١٥٢/٢ ، ١٢٢/٥ .
(٣) الإصابة ٥٥/٢ .
(٤) تختل : تقطع .
(٥) تاريخ الطبري ٤٩٤/٢ والإصابة ١٢٥/٣ . |
|--|---|

ورُئِبَ الصَّدْعُ وعاد الحق إلى نصابه ، فرأى أبو بكر بثاقب بصيرته أن يدفع العرب إلى خارج جزيرتهم كي ينشروا الإسلام في آفاق الأرض ، فاندفعوا جميعاً يجاهدون في سبيل الله ويبتغون رضوانه ، وسرعان ما سقطت الحيرة وجنوبي العراق أمام جيوش المثنى بن حارثة وخالد بن الوليد ، وجهز أبو بكر جيشين لغزو الشام ، أحدهما بقيادة عمرو بن العاص والآخر بقيادة يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة ، وانتصر الجيشان في فلسطين . ولم يلبث أن أمدهما أبو بكر بخالد بن الوليد ، وجعل له إمارة الجيوش ، فانتصر على أرطابون في موقعة أجنادين كما انتصر في موقعة اليرموك ، وهو رافد من روافد نهر الأردن ، وحاصر دمشق ، واستطاعت جماعات من جيوشه أن تستولى على حمص . ويتوفى أبو بكر في السنة الثالثة عشرة للهجرة قرير العين بما أدى لله ولرسوله ، وكان آخر ما تكلم به « رَبِّ تَوْفَّنِي مسلماً وألحقني بالصالحين »^(١) ، وبكاه كثير من الشعراء^(٢) ومن خير ما قيل فيه قول حسان بن ثابت^(٣) :

إذا تذكرتَ شَجَوًا من أخى ثقةً فاذكرْ أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
التالى الثانى المحمودَ سيرته وأولَ الناس منهم صدقُ الرسلا
وثانى اثنين فى الغار المُنيف وقد طاف العدو به إذ صعدَ الجبلا
وكان حبُّ رسولِ الله قد علموا خيرَ البرية لم يغدل به رجلا

وأوصى أبو بكر من بعده بالخلافة لعمر بن الخطاب ، فسار بأحسن سيرة مقتدياً بهدى الله ورسوله وخليفته الصديق ، لا يخاف فى الحق لومة لائم . وهو أول من دوّن الدواوين ورتّب الناس فيها على سوابقهم ، وأول من رتّب التاريخ العربى وجعله من الهجرة ، وأول من تلقب بأمر المؤمنين . وفتح الله له الفتوح ، وكان من أول أمره فى ذلك أن عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيوش فى الشام وولّى أبا عبيدة بن الجراح مكانه ، فأتمّ يعاونه خالد فتوح الشام ، وانطلق عمرو بن العاص بجيشه ففتح مصر . أما فى الشرق فكانت المعركة

(٣) ديوان حسان ص ٢٩ والبيان والتبيين

(١) الطبرى ٦١٥/٢ .

(٢) الطبرى ٦١٧/٢ والاستيعاب ص ٣٤٢ . ٣٦٢/٣ .

حامية الوطيس . وقد أمدَّ عمر المثنى بن حارثة بجنود يقودها أبو عبيد الثقفى ، ونشبت سلسلة من الوقائع عند قُسَّس الناطف والبويب انتصر فيها المسلمون ، وبينما كان الفرس يستعدون لمعركة أخيرة هى معركة القادسية توفى المثنى فخلفه فى قيادة الجيوش سعد بن أبى وقاص ، ومضى الفرس بهزيمة شديدة ، وقتل قائدهم رستم فى المعركة . وتقدم سعد إلى عاصمتهم المدائن فاستولى عليها . ولم يلبث الفرس أن تجمعوا فى جلولاء شرق دجلة ، ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة . وانسحب يزدجرد ملك الفرس إلى إيران وتبعته الجيوش الإسلامية بقيادة النعمان ابن مقرن وتوفى فخلفه حذيفة بن اليمان . ولم تلبث هذه الجيوش أن استولت على نهاوند ثم أصفهان ثم إصطخر ، وعاش يزدجرد طريداً ، حتى أرسل إليه عامل خراسان لعهد عثمان من قتله فى مخبئه الأخير .

وتلقانا فى كل موقعة حربية شرقاً وغرباً أشعار حماسية كثيرة ، سنعرض لها عما قليل ، ونحيل إلى الإنسان كأنما الجزيرة كلها قد تحولت جيشاً يجاهد فى سبيل الله ونشر الإسلام ، فقد أحسَّ العرب فى عمق أن عليهم أن ينشروا الدين الحنيف فى أنحاء الأرض . ومن غير شك كان المتخلفون من الشيوخ والنساء وغيرهما يحسون ألماً عميقاً لفراق ذويهم ، على نحو ما يصور لنا ذلك البرريق بن عياض الهذلى ، إذ يقول ^(١) :

وإن أمس شيخاً بالرجيع وولدةً وتصبح قوى دون دارهم مضراً ^(٢)
أسائل عنهم كلما جاء راكبٌ مقياً بأملحٍ كما رُبط اليعر ^(٣)
فما كنت أخشى أن أقيم خلافتهم بستة أبيات كما نبت العتر ^(٤)
وكان عمر ينهى من لهم آباء شيوخ يعولونهم عن الهجرة براً بهم ، ويروى أن المخبل السعدى جزع جزعاً شديداً حين هاجر ابنه شيبان لحرب الفرس مع سعد بن أبى وقاص ، وكان قد أسنَّ وضعف ، فاقتقد ابنه فلم يملك الصبر عنه ، ومضى إلى عمر فأنشده أبياتاً يقول فيها :

(١) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب)
٥٨/٣ وانظر أيضاً ١٩٧/٢ ، ١٩٩/٢
حيث تجد لأسامة بن الحارث أشعاراً مماثلة .
(٢) الرجيع : موضع . ولدة : صبية .
(٣) أملح : موضع . اليعر : الجدى الكبير .
(٤) العتر : شجر له ورق صفار .
خلافتهم : بعدهم .

إذا قال - جبي يا ربيعُ ألا ترى؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
ويخبرني شيان أن لن يعقني تعقُّ إذا فارقتني وتُحِبُّ^(١)
فرقاً له عمر، وكتب إلى سعد يأمره أن يرد شيبان إلى أبيه فردّه إليه ولم يزل
عنده حتى مات^(٢). وليس المخبّل وحده الذي فزع إليه يشكو هجرة ابنه، فقد
فزع إليه أيضاً أمية بن حُرثان بن الأسكر حين هاجر ابنه كلاب إلى حرب
الفرس، وكان مما أنشده فيه:

لمن شيخان قد نشدا كلاباً كتابَ الله إن حَفِظَ الكتابا^(٣)
إذا هتفتُ حمامةً بَطْنِ وَجٍّ على بَيْضَاتِهَا ذَكَرَا كلابا
تركتَ أباك مُرْعَشَةً يدها وأُمِّكَ ما تُسَبِّحُ لها شرابا
فأمر بإشخاصه إليه^(٤). ومن فزع إلى عمر أيضاً في ذلك أبو خراش الهذلي
حين هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام، وقد أنشده شعراً مؤثراً، فأمر برده عليه
وأن لا يغزو من له أبٌ هرم إلا بعد أن يأذن له راضياً بهجرته^(٥).

ولعل في هذا كله ما يصور كيف كان يتراعى شباب العرب على الجهاد
في سبيل الله، ومع هذا يأبى المستشرقون إلا أن يجعلوا تلك الفتوح الرائعة ابتغاء
الدنيا والغنائم^(٦) لا ابتغاء الله وثواب الآخرة، وربما كان من خير ما يرد عليهم
قول النابغة الجعدي لامرأته، وقد أظهرت تأثرها لهجرته في فتوح فارس^(٧):

يا ابنة عمي كتابُ الله أخرجني طوعاً وهل أَمْنَعُ الله ما فعلا
فإن رجعتُ فَرَبُّ الناس يرجعني وإن لحقتُ برَبِّي فابتغى بدلا
ما كنتُ أعرجُ أو أعمى فيعذرني أو ضارعاً من ضنّى لم يستطع حولا^(٨)

(٦) راجع تاريخ الدولة العربية لقلهوزن

(طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٥

والمقيدة والشرية لحولده تسيهر ص ١٣٧.

(٧) الشعر والشعراء ٢٥١/١ وقد ظلت هذه

الروح مسيطرة على الفاتحين في العصر الأموي،

انظر الطبري ٤١٣/٥.

(٨) ضارعا: ضاويًا نحيلًا. ضنّى: مرض.

(١) تحوب: تأثم.

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٠/١٣.

(٣) يقصد ما في كتاب الله من رعاية الآباء

والبر بهم.

(٤) ابن سلام ص ١٦٠ والخزانة ٥٠٥/٢.

(٥) أغاني (سأسي) ٦٩/٢١ وديوان الهذليين

١٧٠/٢ وانظر في حالات مشابهة الأمالي

٣٠٩/٢ وذيله ص ١٠٩.

وكان عمر من وراء هذه الجيوش مثالا رائعا للعدل والتقوى والزهد في الدنيا . وما زال يسوس العرب سياسة مثالية ، حتى امتدت إلى جسده الطاهر يد أبي لؤلؤة المجوسى الآثمة في الظلام ، فطعنته بخنجر مسموم طعنات لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، ولم يلبث أن توفى بين بكاء المسلمين وتشجيعهم ، ومن رائع ما قيل فيه من رثاء قول جرّاء بن ضرار أنخى الشماخ^(١) :

جَزَى اللهُ خَيْرًا مِنْ أَمِيرٍ وَبَارَكْتَ يَدُ اللهِ فِي ذَلِكَ الْأَدِيمِ الْمَرْقِ^(٢)
فَمَنْ يَسْمَعُ أَوْ يَرْكَبُ جَنَاحِيْ نَعَامَةٍ لِيُذَرِكَ مَا حَاوَلْتَ بِالْأَمْسِ يُسَبِّقُ
قَضِيَّتْ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا بَوَائِقَ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تَفْتَقِ^(٣)

وكان عمر وهو على فراش الموت قد جعل الخلافة شورى في ستة من أصحاب رسول الله توفى وهو عنهم راض ، وكانوا من المهاجرين الأولين ، وهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص . ووقع اختيارهم على عثمان ، فضى ينفذ سياسة عمر في إتمام فتح إيران وإفريقية ، وأقر معاوية بن أبى سفيان على الشام ، إلا أنه عزّل عمرو بن العاص عن مصر وولّاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، ففتح إفريقية . وما نصل إلى سنة أربع وثلاثين للهجرة حتى تندلع ثورة عنيفة على عثمان في الكوفة يقودها الأشتر النخعي وفي مصر يقودها محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر الصديق . وكان من أهم أسباب هذه الثورة ضعف عثمان ، إذ كان شيخاً كبيراً ، واستسلامه لأهل بيته من الأمويين وتوليته لهم كثيراً من الأعمال ، مما أحفظ عليه كبار الصحابة وملاهم مودة . وكانت هناك أسباب وراء ذلك ، فإن عمر رأى أن يترك للجيش خمّس الغنائم وأن تستأثر الدولة بالقسّ وهو الأرض الثابتة ، ومعروف أنها تركت لأصحابها على أن يؤدوا عنها إتاوة عادلة وأن يؤدوا الجزية إن لم يسلموا نظير حماية الجيش لهم وإعفائهم من

(١) ابن سلام ص ١١١ والأغانى ١٥٩/٩ (٢) البوائق : الدواهي . تفتق : تشق عن نمرها . والاستمارة واضحة .
(٣) الأديم : الجلد .

الواجبات العسكرية ، وكان كثير من المحاربين يرون أن يَشْرِكُوا الدولة في الفىء ، ولكن صوتهم لم يرتفع في عهد عمر لقوة شخصيته ، حتى إذا كان عهد عثمان بدأ التدمير يشتد ، وتطورت الظروف ، فاشتعلت الثورة عليه اشتعالا أدنى إلى قتله في ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة ، وبكاه كثير من شعراء الصحابة^(١) ، من ذلك قول أيمن بن خُرَيْم^(٢) :

ضَحُّوا بِعُثْمَانَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ضَحَّى وَأَيُّ ذَنْبٍ حَرَامٍ لَهُمْ ذَبَحُوا
إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَتْلَهُ سَفَهًا لَاقُوا أَثَامًا وَخُسْرَانًا فَمَا رَبَحُوا
مَاذَا أَرَادُوا أَضَلَّ اللَّهُ سَبِيلَهُمْ بِسَفْهِهِمُ لِلدَّمِ الزَّأكِيِّ الَّذِي سَفَحُوا
وكان على عُبَيْدٍ أكبر الشخصيات بين المهاجرين ، فبايعه الثوار وبايعته المدينة ، ولكن هذه البيعة لم تُرَضْ طلحة والزبير وانضمت إليهما السيدة عائشة أم المؤمنين ، فأعلنوا سخطهم ، وولوا وجوههم نحو البصرة مستنفرين الناس ضده ، وتبعهم على ، فنزل في الكوفة ، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين ، وسرعان ما انتصر على في موقعة الجمل المشهورة ، وقُتِلَ طلحة والزبير وانسحبت عائشة إلى المدينة . وكان على قد عزل معاوية ابن عم عثمان وواليه على الشام ، فلم يصدع لأمره واعتبر نفسه ولي دم عثمان ، فجهز الجيوش لحربه وانضم إلى معاوية عمرو بن العاص وكثير من قريش . وسار إليه على بجموعه ، فالتقوا على الحدود العراقية السورية في صفين الواقعة على الضفة اليمنى للفرات ، واحتدمت معركة عنيفة كاد فيها النصر أن يُكْتَسَبَ لعلى ، غير أن معاوية عمد — بمشورة عمرو بن العاص — إلى الحيلة ، إذ جعل طائفة من جنوده ترفع المصاحف على أسنة رماحها طالبة الاحتكام إلى القرآن ووقف هذه الحرب الميرة للمسلمين ، وتنبه على للحيلة غير أن كثرة جيشه أجبرته على وقف القتال والدخول مع معاوية في مفاوضات . واتفق الفريقان على اختيار حكمين ، هما عمرو بن العاص عن معاوية وأبي موسى الأشعري عن على ليحكمما بينهما على أساس من القرآن . واستطاع عمرو أن يُقْنِعَ أبا موسى بخلع على ومعاوية

(١) انظر الاستيعاب ص ٩٢ والكامل ٤٤٧/٣ وما بعدها .

المبرد (طبعة راييت) ص ٤٤٤-٤٤٥ والطبرى (٢) المبرد ص ٤٤٥ والاستيعاب ص ٩٣ .

معاً. ولم يلبث مركز على أن تززع في العراق فإن طائفة كبيرة من جيشه كانت قد أسرعته منذ قبوله التحكيم إلى الخروج عليه ، واتخذت معسكراً لها في حروراء بالقرب من الكوفة وبايعت عبد الله بن وهب الراسبي بالخلافة . فلما ظهرت نتيجة التحكيم انضم إليها كثير من أتباع على . وعيناً حاول إقناعهم بخطتهم ، ولم يرأخيراً بدأ من حربهم ، فالتقى بهم عند مصب قناة النهروان في دجلة وهزمهم هزيمة ساحقة ، إلا أن بقية منهم نجت ، وكان منهم عبد الرحمن ابن ملجم الذي تحيّن منه فرصة ، وقتله غيلة ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من رمضان سنة أربعين للهجرة ، وقد بكاه كثير من أصحابه^(١) ، وعلى رأسهم أبو الأسود الدؤلي إذ يقول^(٢) :

أف شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا وخيسها ومن ركب السفينا
إذا استقبلت وجه أبي حسين رأيت البدر راق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث حلت بأنك خيرها حسباً وديننا

وقد كثرت الأشعار في هذه الحروب الأهلية منذ الثورة على عثمان ، فقد كان بعض الثائرين عليه والساخطين يصورون ثورتهم وسخطهم في أشعار كثيرة^(٣) ، ويُقتل عثمان ، ويبكيه كثيرون وخاصة من بني أمية . وقد ذهبوا يتوعدون علياً ويهددونه على شاكلة قول الوليد بن عقبة يخاطب بني هاشم^(٤) :

ولنا وإياكم وما كان منكم كصدع الصفا لا يرأب الصدع شاعبه
هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مراربه
وقد مضى يحرض معاوية على الأخذ بثأره في أشعار كثيرة^(٥) . وتطورت

(١) انظر في مراثيه الاستيعاب ص ٤٨٥ - (٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٠/٥ والكامل للمبرد ص ٤٤٤ .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢٩/١٢ والطبري ١١٦/٤ وخيسها في البيت الثاني : (٥) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ١٢٢/٥ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٢٢ والطبري ٤٤٩/٣ .

(٣) انظر الاستيعاب ص ٤١٠ .

الأمور . ونشبت وقعة الحمل بين علي وبين طلحة والزبير وعائشة ، ودوت في هذه الوقعة أشعار حماسية كثيرة^(١) من مثل قول القائل^(٢) :

نحن بنو ضَبَّة أصحابُ الجمَلِ نَنعَى ابنَ عَفَّانَ بِأَطرافِ الأَسَلِ
ننازل الموتَ إذا الموت نَزَلَ والموتُ أَشهى عندنا من العَسَلِ

والتقى على بمعاوية في صفين ، وحمى وطيس المعارك ، وتنادى الشعراء يهددون ويتوعدون ، وكلُّ يعتقد أن الحق في جانبه ، من مثل قول أبي الطُّفَيْلِ عامر بن واثلة يصف بعض أنصار عليّ :

كهولٌ وشبانٌ وساداتٌ معشرٍ على الخَيْلِ فرسانٌ قليلٌ صدودها
شعارهمُ سِما النبيِّ ورايةٌ بها انتقمُ الرحمنُ ممن يكيدها
وردَّ عليه خزيمَةُ الأسدِ يصف جيش معاوية^(٣) :

ثمانون ألفاً دينُ عثمان دينهم كتائبُ فيها جِبْرِيلُ يقودها
فمن عاش منكم عاش عبداً ومن يمِتْ ففي النار سُقْيَاهُ هناك صديدها

ويفيض كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم بأشعار كثيرة اندلعت فيها نيران العصبية القبيلية^(٤) ، وقد يكون دخلها انتحال ووضع واسع ، ولكن في تاريخ الطبري وفي كتب الأدب وكتب الصحابة ما يكفي لبيان ما انزل على الألسنة من أشعار ملتهبة^(٥) . وقد تلت ذلك وقعة النهروان بين علي والخوارج ، ومنذ خروجهم وشعرهم لا يتخمد له أوار . ومن غير شك أذكت كل هذه الأحداث جذوة الشعر العربي إذكاءً وأشعلتها إشعالا .

(١) تاريخ الطبري ٥٢٢/٣ وما بعدها . نشر المؤسسة العربية الحديثة ص ١٣٧ ، ٣١٢ ،

(٢) الطبري ٥٢٧/٣ . ٣٤٧ ، ٣٧٦ ، ٤٨٧ وفي مواضع متفرقة .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٩ / ١٥ . (٥) انظر الطبري ١٦/٤ وما بعدها

(٤) وقعة صفين (بتحقيق عبد السلام محمد هرون)

شعر الفتوح

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون في سبيل الله دولتي
الفرس والروم . فقصوا على الأولى ، واستولوا على أهم ولايتين للثانية ، وهما الشام
ومصر . وكانوا في أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدوية ، يتغنون
فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم وما يؤدُّون لله ودينه . ومن الصعب أن
نعرِّض كل ما نظموا في مواقعهم المختلفة ، إنما نلم بطرف منه ، ولنقف
قليلاً عند موقعة واحدة في الشرق هي موقعة القادسية ، وفيها يلمع اسم
أبي محجن الثقفي^(١) ، وكان مولعاً بالخمرة فحبسه سعد بن أبي وقاص ، حتى
إذا احتدمت المعركة توسَّل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه - على أن يعود إلى
قيده - ليسُهم في شرف المعركة ، فأطلقته وأبلى فيها بلاء حسناً ، وعاد
إلى سجنه وهو يشد^(٢) :

لقد علمتُ ثَقِيفٌ غيرَ فخرٍ بآنا نحن أكرمهم سيوفنا
فإن أخبَسَ فقد عرفوا بلائنا وإن أطلقَ أجزعُهم خُتوفنا
وكان حول أبي محجن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحوا بروع أبطالهم ،
وهم يتصايحون بالشعر الحماسي ، منهم عمرو بن معديكرب الزبيدي^(٣) ، وكان
من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم ، وكانت له آثار مشهورة في القادسية واليرموك
ونهاوند ، ومن شعره^(٤) :

والقادسية حين زاحم رُستَمُ كنا الحماة بهن كالأشطان^(٥)
الضاربين بكل أبيض مخدَمٍ والطاعنين مجامع الأضغان^(٦)

٤٦٠/٣ ومعجم الشعراء للمرزباني (طبعة
الخليج) ص ١٥ ومعاهد التنصيص ٢٤٠/٢
والعيني ٣٧٩/١ .

(٤) ذيل الأملاني ص ١٤٦ .

(٥) الأشطان هنا : الجن والمردة .

(٦) الأبيض : السيف . المخدَم : القاطع .
مجامع الأضغان : القلوب .

(١) انظر في ترجمة أبي محجن الأغاني (طبع
السائي) ١٣٧/٢١ والشعر والشعراء ٣٨٧/١
والإصابة ١٧٠/٧ والخزانة ٥٥٠/٣ وما بعدها
والاستيعاب ص ٦٨٢ .

(٢) أغاني ١٤٠/٢١ .

(٣) انظر في ترجمته كتب الصحابة وأغاني
دار الكتب ٢٠٨/١٥ والشعر والشعراء ٣٣٢/١
وذيل الأملاني ص ١٤٥ والخزانة ٤٢٢/١ ،

ومنهم بشر بن ربيعة الحشعمي، وله يصور بلاءه وبلاء قومه في مواقع القادسية^(١) :

تذكّر - هداك الله - وقّع سيوفنا بباب قُدَيْسٍ والمكر عَسِيرُ^(٢)
 عشيةً ودّ القوم لو أن بعضهم يُعار جَنَاحِي طائر فيطير
 إذا ما فرغنا من قِراع كتيبةً دَلَفْنَا لِأُخْرَى كالجبال تسير^(٣)
 ترى القوم فيها واجمين كأنهم جمالٌ بأَحْمَالٍ لَهُنَّ زفير^(٤)

ومن له بلاء حسن في القادسية قيس بن المكشوح المرادي ابن أخت عمرو بن معديكرب، وهو الذي قتل رسم قائد الفرس في تلك المعارك، وله يصور ذلك^(٥) :

جلبتُ الخيلَ من صَنَعَاءَ تَرْدِي بكل مدججٍ كالليث سامى^(٦)
 إلى وادي القرى فديار كلبٍ إلى اليرموك فالبلد الشامى
 وجئتُ القادسيةَ بعد شهرٍ مسومةً، دوابرها دواى^(٧)
 فناهضنا هنالك جَمْعَ كسرى وأبناء المرازبة الكرام^(٨)
 فلما أن رأيتُ الخيل جالتُ قصدتُ لموقف الملك الهمام
 فأضربُ رأسه فهوى صريعاً بسيفٍ لا أفلَّ ولا كهام^(٩)
 وقد أبلى الإلهُ هناك خيراً وفعلُ الخير عند الله نامى

ومن حضر القادسية الأسود بن قُطَيْبة، وله فيها أشعار كثيرة^(١٠)، وعمرو بن

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٤٣/١٥ .
 (٢) قدیس : يريد القادسية أو موضع بجانبها .
 (٣) دلفنا : تقدمنا .
 (٤) واجم : من الوجوم وهو السكوت مع كظم النفيظ .
 (٥) فتوح البلدان للبلاذري (طبع المطبعة المصرية بالأزهر) ص ٢٦١ .
 (٦) تردى الخيل : ترجم الأرض بحوافرها .
 (٧) مسومة : معلمة . الدوابر : العرايب .
 دواى : ملطخة بالدم .
 (٨) المرازبة : رؤساء الفرس .
 (٩) أفل : مثلم . كهام : كليل لا يقطع .
 (١٠) الإصابة ١٠٨/١ .

شأن الأسدى^(١)، وكان كثير الشعر في الجاهلية والإسلام، وله يذكر قتل رستم^(٢) :

قتلنا رُستمًا وبنيه قسراً تشير الخيلُ فوقهم الهَيْالاً^(٣)

وفرَّ الهَرْمُزَانُ ولم يحامى وكان على كتيبه وبالا^(٤)

وشهد القادسية أيضاً عروة بن زيد الخيل، وله فيها شعر كثير على شاكلة قوله^(٥) :

برزتُ لأهل القادسية مُعلماً وما كلُّ من يَغشى الكريهة يُعلم

ومن الشعراء البارزين الذين شهدوها ربيعة بن مقروم الضبي^(٦)، وقد ختم

الملاحظ كتابه «الحيوان» بأبيات له يذكر فيها بلاءه حيثئذ، يقول فيها^(٧) :

وشهدتُ معركةَ الفيول وحولها أبناء فارسَ بيضُها كالأعبل^(٨)

مُتسرِّبلى حلقِ الحديد كأنهم جُرْبُ مقارفة عنيةٌ مُهمل^(٩)

والأبيات من قصيدة رواها أبو الفرج في أغانيه، وهو فيها يتحدث بجانب

صنيعه في تلك الحرب عن اقتحامه لحوانيت الخمارين ويفخر بأنه يسقى

صاحبه الصَّبوح، ونحن نعرف أن الإسلام حرَّم الخمر، ومن ثم كنا نقطع

بأن القصيدة تتألف من جزءين قيل أولهما في الجاهلية، وقيل ثانيهما في

الإسلام، وسرى عند حسان بن ثابت قصيدة على هذه الشاكلة حين نترجم

له في الفصل التالى. ومن ذلك قصيدة لَعْبُدة^(١٠) بن الطيب، وهو من الشعراء

المجيدين الذين أبلوا في حروب القادسية والمداخن، ونراه يستهلها بقوله^(١١) :

(١) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٦/١١ والشعر والشعراء

٣٨٩/١ وابن سلام ص ١٦٤ والاستيعاب

ص ٤٥٤ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٢٢.

(٢) الطبرى ٥٠/٣.

(٣) الهيال : ما ينهال من الغبار.

(٤) الهرمزان : الكبير من حكام الفرس.

(٥) الأغاني (طبع الساسى) ٥١/١٦.

(٦) انظر ترجمته في أغاني (ساسى) ٩٠/١٩.

والشعر والشعراء ٢٧٩/١ والإصابة ٢٢٠/٢

والخزانة ٥٦٦/٣.

(٧) الحيوان (طبعة الحلبي) ٢٦٣/٧.

(٨) البيض : الخوذ. الأعبل : حجر أبيض.

(٩) يشبه الفرس بإبل جرباء. مقارفة : من

القراف وهو داء يقتل البعير. العنية : طلاء

للجرب، وأراد نفس الإبل الجربى. والمهمل :

الذى يهمل الإبل في المرعى.

(١٠) انظر في ترجمته الأغاني (طبعة الساسى)

١٦٣/١٨ والشعر والشعراء ٧٠٥/٢ والإصابة

١٠١/٥ والموشح ص ٧٥.

(١١) انظر القصيدة في المفضليات (طبعة

دار المعارف) ص ١٣٥.

هل حبل خَوْلَة بعد الهجر موصولُ أم أنت عنها بعيدُ الدار مشغولُ
ويمضى فيذكر جهاد المسلمين للفرس ، يقول :

يقارعون رموسَ العُجمِ ضاحيةً منهم فوارسُ لا عَزْلٌ ولا مِيلٌ^(١)
ويحدثنا عن هجرته مع قومه وأنهم إنما يبتغون ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضلَ ربٍّ سَيِّبُهُ حسنٌ وكل خيرٍ لديه فهو مقبول
ولكننا نُصدِّمُ في آخر القصيدة بوصفه المسهب لمجلس شراب ، ومن ثمَّ كنّا
نقطع بأن للقصيدة أصلاً قديماً يتصل بحياة الجاهليين الوثنية وما كانوا يخلّون من
خمر . وقد أضيفت إلى هذا الأصل قطع جديدة ، تتصل بالهجرة في سبيل
الله ورسوله ووصف معارك العرب مع الفرس .

وعلى هذا النحو نستطيع دائماً أن نجتمع كثيراً من الأشعار التي نُظمت في
كل معركة ، سواء مع الفرس أو مع الروم ، وإن ما تطفح به كتب الصحابة
مثل الاستيعاب والإصابة وكتب التاريخ مثل الطبري وكتب الأدب مثل
الأغانى وكتب الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت ليؤلف للعرب في الفتوح
ملحمة ضخمة . ولم تكن كلها أشعاراً حماسية ، ففيها مراث رائعة لبعض
من كانوا يفقدونهم ، من ذلك قصيدة كثير بن الغريزة التميمي يرثي بها من
أصيبوا في معارك الطالائق وجوزجان لعهد عمر بن الخطاب ، وفيها يقول^(٢) :

سَقَى مُزْنُ السحابِ إذا استهلَّتْ مصارعَ فتيةٍ بالجُوزجانِ
وما بي أن أكون جَزَعْتُ إلا حنينَ القلبِ للبرقِ اليماني
ورُبَّ أخٍ أصاب الموتُ قبلي بكيتُ ولو نُعيتُ له بكاني

وعبروا في أثناء ذلك عن حنين بالغ إلى ديارهم وأهلهم . وبجانب هذا الحنين
والرثاء نجد بعض الشعراء يتحدثون عن بلائهم في المغازي بعامة ، على نحو

حيث سرد أبو الفرج القصيدة في ترجمته وانظر
فيه الإصابة ٣١٨/٥ والخزانة ١١٨/٤ ومعجم
الشعراء ص ٢٤٠ .

(١) يقارعون: يضاربون . العجم : الفرس .
العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .
الميل : جمع أويل وهو الذي لا يحسن ركوب الخيل .
(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٧٨/١١

ما نجد عند زياد بن حنظلة في وصفه لمغازى الشام لعهد عمر وما أفاءه الله على المسلمين^(١) ويروون أنه كان لأوس^(٢) بن مَغْرَاء « قصيدة طويلة ذكر ما كان فيها من بلائهم في الفتوح وفخر فيها بقريش لم يقل أحد أحسن منها » ومن قوله فيها :

محمَّد خيرٌ من يمشى على قَدَمٍ وكان صافيةً لله خلصانا
ويمكن أن نضم إلى هذه الأشعار شكوى بعض الجنود من الولاة والعمال حين يخونون فيما اتُّمِنُوا عليه ، على نحو ما نجد عند يزيد بن الصَّعِق . فقد أرسل بشكوى طويلة إلى عمر بن الخطاب من أصحاب الخراج ، يقصُّ عليه كيف أُنْزِلُوا ثراء غير مشروع من أعمالهم التي يتولونها وما يأخذون لأنفسهم من المغازى ، وفيها يقول^(٣) :

نُؤِوبُ إِذَا آبُوا وَنَغَزُوا إِذَا غَزَوْا فَأَنَّى لَهُمْ وَفَرٌّ وَلَيْسَ لَنَا وَفَرٌّ
وقد وصفوا كثيراً مما شاهدوه في فتوحهم من المعازل والحصون والحيوان كالقيل ، وتحدثوا عما نزل بهم من طواعين^(٤) .

وهناك أشياء لا بد أن نلاحظها في هذه الأشعار الكثيرة التي رُوِيَتْ عنهم في مغازيهم وفتوحهم ، لعل أهمها أنها طُبِعَتْ بطابع الآداب الشعبية ، سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم . أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المتانة مبلغ الأشعار التي نُسِبَتْ في العصر نفسه إلى الشعراء المجوِّدين ، وأما من حيث القائلون فإن كثيراً منهم يكاد يكون مجهولاً ، لسبب بسيط وهو أنه من عامة الجنود . ومن ثمَّ اختلف الرواة في نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها . ويكثر أن يُرْسَلَ الراوى الشعر لإرسالاً بدون نسبته إلى شاعر بعينه ، وينصُّ الطبرى على قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق في الجزيرة العربية ولا يُعْرَفُ من نظمهما ، ويعقب عليهما بقوله : « وسُْمِعَ بنحو

(١) طبرى ١٠٨/٣ . مواضع متفرقة والموشح ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة دار الكتب) ٨/٥ والشعر والشعراء ٦٦٨/٢ (٣) فتوح البلدان ص ٣٧٧ . (٤) الحيوان ١٣٧/٤ والإصابة ١٤/٣ ، ٦٠/٥ والإصابة ١١٨/١ وابن سلام ص ٤٤٥ وفى

ذلك في عامة بلاد العرب^(١) . وكأن طائفة من شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التي يبدعها الشعب ، فناظمها لا يعرف كما لا يعرف مرسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذكروا أو يُمجّدوا بل إنه لا يعنيهم أن يذكروا أو يمجّدوا ، إذ هم آخر من يهتم بهذا الفضل .

ويسود في هذا الشعر الإيجاز ، فهو شعر اللوحات السريعة والمواقف الحافظة ، وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة ، يجري فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق في معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية . إنه يعبر عن خاطر التحم بصدوره دون معاناة أو مكابدة ، ويرى به في سرعة كما يرى بسهمه أو يضرب بسيفه ، غير مفكر في تنقيح ولا في تصفية أو تهذيب ، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره .

وملاحظة أخيرة ، وهي أن قصصاً كثيراً عن أبطال الفتوح وجهادهم في حروب الفرس والروم أضيف إلى هذه الأشعار . وقد حمل لنا ياقوت في معجمه كما حملت كتب التاريخ والأدب أطرافاً منه كثيرة . ومن غير شك خضع هذا العمل كله لخيلة القصص فزادوا في القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم . ولكن مهما يكن فلهذا كله أصل صحيح ، وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدفق على ألسنة الفاتحين ، وكانوا ينشدونه في كل موقف وكل معترك ، مقصدين له حيناً وراجزين أحياناً أخرى ، وطبيعي أن يشيع فيه الرجز ، لأنه كان فعلاً الوزن الشعبي الذي ينظم فيه عامة العرب .

الفصل الرابع

الشعراء المخضرمون ومدى تأثرهم بالإسلام

١

كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام

من يقرأ في شعر المخضرمين متصفحاً ما نُثر في كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصدرّون في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم . ولشعراء المدينة القِدْحُ المَعْلَى في هذا الميدان ، فهم الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم منذ نزوله بين ظهرانيهم ينافحون عنه ويدافعون عن دعوته مصوّرين لهديّته الكريم ، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان عبد الله خاصة دائم الاستمداد من القرآن يستلهمه في هجائه للمشركين وفي كل ما ينظم من أشعار ، على شاكلة قوله (١) :

شهدتُ بأن وعد الله حقٌّ وأن النار مَثْوَى الكافرينا
وكان بجانب هؤلاء الثلاثة شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة الشعرية ، وقد رُويت لهم أشعار تنمُّ عن مدى إيمانهم العميق كقول أبي قيس صِرْمَة بن أبي أنس الأنصاري في قصيدة بديعة (٢) :

ونعلم أن الله لا شيء غيره وأن كتاب الله أصبح هادياً
وقول أبي الدرداء (٣) :

يريد المرء أن يؤتَى مناهُ ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

(٣) الاستيعاب ص ٦٦٣ .

(١) الاستيعاب ص ٣٦٢ .

(٢) الاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .

وتحوّل شعراء قريش منذ فتحت مكة ودخلوا في دين الله يكفّرون عما
قدّمتم ألسنتهم بأشعار ، يعتذرون فيها للرسول صلى الله عليه وسلم كقول ابن
الزبّعي^(١) :

يا رسولَ الملّيك إنَّ لسانِي راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُور^(٢)
إذ أجارى الشيطان في سننِ الغيِّ ومن مالٍ مَيْلُهُ مَثْبُورٌ^(٣)
آمن اللحمُ والعظامُ بما قُدِّمَتْ فنفسي الفِداً وأنتَ النَّذيرُ
وقد حسُنَ إسلامهم ، ومضوا يصعدون عنه في أشعارهم ، حتى إذا انتقل
الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجّعون عليه ، على شاكلة قول
أبي سفيان بن الحارث^(٤) :

لقد عظمتْ مُصِيتُنَا وجَلَّتْ عَشِيَّةٌ قِيلَ : قد قُبِضَ الرسولُ
نبيُّنا كان يجُلُو الشكُّ عِنا بما يوحي إليه وما يقولُ
وإذا تركنا شعراء المدينتين الكبيرتين إلى شعراء نجد والبوادي وجدنا بينهم
كثيرين يتقبسون من أضواء الإسلام ، ولا نقصد من خرجوا إلى الجهاد في سبيل
الله فحسب ، فقد عمَّ ذلك مَنْ ظلوا في الجزيرة ولم يُتَبَّحْ لهم تقديم سنهم شرف
الاشترك في هذا الجهاد .

ونحن نقف عند مشهورهم ، ثم نعطف على من لم يبلغوا مبلغهم من
الشهرة ، ولعل أول من ينبغي الوقوف عنده عبدة بن الطبيب الذي تحدثنا عنه
في شعر الفتوح ، فقد روى له صاحب المفضليات عينية بديعة ، ونراه في شطر
كبير منها يوصي أبناءه بتقوى الله وبرِّ الوالد والحدَر من التَّمَام الذي يزرع
الضغائن بين الناس ، مستلهماً في ذلك آى الذكر الحكيم ، يقول^(٥) :

أوصيكمُ بتقَى الإلهِ فإنّه يعطى الرغائبَ من يشاء ويمنعُ
وِبِرِّ والدكم وطاعةِ أمره إن الأبرَّ من البنين الأطوَعُ

(٤) الاستيعاب ص ٧٠٨ .

(٥) المفضليات ص ١٤٦ .

(١) ابن سلام ص ٢٠٢ .

(٢) رتق الفتق : خاطه . بور : ضال هالك .

(٣) سنن : طريق . مَثْبُور : هالك ضائع .

واعصوا الذى يُزجى النّماثل بينكم متنصّحا ذاك السّام المنقّع^(١)
 يُزجى عقاربهُ ليعث بينكم حرباً كما بعث العروق الأخدع^(٢)
 وهو القائل فى رثاء قيس بن عاصم^(٣) :

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ ورحمته ما شاء أن يترحمّا
 فلم يكُ قيسٌ هُلكهُ هلكَ واحدٍ ولكنه بنيانُ قومٍ تهدّما

وواضح ما فى البيت الأول من روح إسلامية . وارجع إلى سُوَيْد^(٤) بن
 أبى كاهل اليشكرى فسرى المفضل الضبى يروى له قصيدة^(٥) يفخر فيها فخراً
 جديداً ، لا عهد لنا به من قبل . فخراً إسلامياً يذكر فيه ربّه وما أنعم به عليهم
 من نعمٍ ، يقول :

كتب الرحمنُ والحمدُ له سعةَ الأخلاقِ فينا والضَّلَعُ^(٦)
 وإبَاءٌ للدنّياتِ إذا أُعْطِيَ الكثيرُ ضَيْماً فكَنَعُ^(٧)
 وبناءً للمعالى إنمّا يرفعُ اللهُ ومن شاءَ وضعُ
 نعمٌ لله فينا ربّها وصنيعُ الله ، واللهُ صنعُ^(٨)

ويمضى فيعرض لخصم دنىء النفس كان يغتابه ، ونراه يصفه وصفاً
 يستلهم فيه الآية الكريمة (وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ
 لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ) يقول :

- (١) يزجى : يدفع ويسوق . السام : السم .
 المنقّع : القاتل .
 (٢) الأخدع : عرق فى العنق إذا ضرب
 أجابته العروق .
 (٣) الشعر والشعراء ٧٠٥/٢ .
 (٤) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٣٨٤/١ وابن
 والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/١٠٢ وابن
 سلام ص ٢٨ والإصابة ١٧٢/٣ والخزانة
 ٥٤٦/٢ وحديث الأربعة لطف حسين
 (طبعة الحلبي) ١٩٠/١ .
 (٥) المفضليات ص ١٩٠ .
 (٦) الضلع : الاضطلاع بالأمر .
 (٧) الكثير : المغلوب . كنع : خضع .
 (٨) ربها : أتمها . صنع : صفة ، لافعل ،
 أى قادر على أن يصنع .

بِئْسَ مَا يَجْمَعُ أَنْ يَغْتَابَنِي مَطْعَمٌ وَخَمٌّ وَدَاءٌ يُدْرَعُ^(١)
 وَيَحْيِيَنِي إِذَا لَاقَيْتُهُ وَإِذَا يَخْلُو لِي لَحْمِي رَتَعُ^(٢)
 وَمَنْ أَسْلَمَ وَهُوَ فِي سَنٍّ كَبِيرَةٍ الْخَصَيْنِ^(٣) بِنِ الْحُمَامِ سَيِّدِ بَنِي مَرْثَةَ الدَّبْيَانِيِّينَ ،
 وَلَهُ أُبَيَّاتٌ تَطْرُدُ عَلَى هَذَا النُّحُو^(٤) :

وَيَوْمَ تَسْعَرُ فِيهِ الْحُرُوبُ لَبَسْتُ إِلَى الرَّوْعِ سِرْبَالَهَا^(٥)
 فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا التَّقَى وَنَفْسٌ تَعَالَجُ آجَالَهَا
 أُمُورٌ مِنَ اللَّهِ فَوْقَ السَّمَاءِ مَقَادِيرُ تَنْزُلُ أَنْزَالَهَا^(٦)
 أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ الْمُخْزِيَا تِ يَوْمَ تَرَى النَّفْسُ أَعْمَالَهَا
 وَخَفَّ الْمَوَازِينُ بِالْكَافِرِينَ وَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا

والصلة واضحة بين هذه الأبيات وآي الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى :
 (واتقوا الله) (فإن الله يحب المتقين) (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم
 يحزنون) (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (هو الذي
 يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون) (وإن من شيء
 إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) وقوله عَزَّ شَأْنُهُ : (إذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ
 زِلْزَالًا) (فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأما
 هاوية وما أدراك ما هي نار حامية) (ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم
 بما يفعلون) .

واقراً في النَّمْرِ^(٧) بِنِ تَوَلَّبَ ، وهو ممن أدركوا الإسلام وقد علّست سنهم ،

- | | |
|---|---|
| (١) وخم : غير مري . يدرع : يلبس . | (٦) أنزالها : منازلها . تنزل أنزالها : تقع
مواقعها . |
| (٢) رتع : أكل بنهم . | (٧) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢٠٨/٦٣٠ |
| (٣) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢٠٨/٦٣٠ | وابن سلام ص ١٣١ والأغاني (طبعة دار الكتب) |
| (٤) أغاني ١٤/١٤ . | ١٤/١ وما بعدها والاستيعاب ص ١٢٧ وأسد
الغابة ٢/٢٤ والإصابة ٢/١٨ والخزانة ٢/٧ |
| (٥) تسمر : تتفقد . السربال : الدرع . | (٧) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد ج ٧
ق ١ ص ٢٦ والشعر والشعراء ١/٢٦٨
وابن سلام ص ١٣٣ والأغاني ١٩/١٥٧
والموشح ٧٨ والخزانة ١/١٥٢ والاستيعاب
ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢٥٣ . |

فسترى في شعره آثاراً من تلاوته للقرآن الكريم ، على شاكلة قوله ^(١) :
ومتى تُصِيبَكَ خَصَاصَةٌ فَارْجُ الْغِنَى وإلى الذي يُعْطَى الرَّغَائِبَ فَارْغِبْ
وهو القائل ^(٢) :

أَعِذْنِي رَبِّ مِنْ حَصَرٍ وَعِىٍّ ومن نَفْسٍ أَعَالِجُهَا عِلَاجَا
ومن حاجاتِ نَفْسِي فَاعْصِمْنِي فَإِنَّ لِمُضْمَرَاتِ النَفْسِ حَاجَا ^(٣)
وَأَنْتَ وَلِيِّهَا فَبَرِّئْتُ مِنْهَا إِلَيْكَ وَمَا قَضَيْتَ فَلَا خِلَاجَا ^(٤)
وَيُرَوَّى أَنَّهُ أَنْشَدَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصِيدَةً قَالَ فِيهَا ^(٥) :

لِلَّهِ مِنْ آيَاتِهِ هَذَا الْقَمَرُ وَالشَّمْسُ وَالشَّعْرَى وَآيَاتُ أُخْرَى
وَمَرْتُ بِنَا اسْتِجَارَةُ الْمُخْتَبِلِ ^(٦) السَّعْدَى بِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ حِينَ هَاجَرَ بَنِيهِ
لِلْغَزْوِ وَكَيْفَ رَدَّهَ عَلَيْهِ ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِي نَهَايَةِ قَصِيدَةٍ لَهُ رَوَاهَا الْمُفَضَّلُ الضَّبِّي ^(٧) :

إِنِّي وَجَدْتُ الْأَمْرَ أَرْشَدُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَشَرُّهُ الْإِثْمُ
وَكَانَ فِي الشَّيْخَانِ ^(٨) شُرَكَائِي ، وَهُوَ مِمَّنْ شَارَكُوا فِي مَعْرَكَةِ الْقَادِيسِيَّةِ وَمَعَارِكِ
أَذْرَبِيَّجَانَ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا نَجِدُ فِي دِيْوَانِهِ شَيْئاً وَاضِحاً عَنْ جِهَادِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
وَكَأَنَّمَا عَنَى الرِّوَاةُ بِشِعْرِهِ الْبِدْوَى وَإِحْسَانَهُ فِيهِ لَوْصَفِ الْقَوْسِ وَحِمَارِ الْوَحْشِ ^(٩) ،
وَمَا يَتِمَثَّلُ بِهِ مِنْ شِعْرِهِ ^(١٠) :

لَيْسَ بَمَا لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ بَأْسٌ وَلَا يَضُرُّ الْبَرَّ مَا قَالَ النَّاسُ

- | | |
|--|--|
| (١) الشعر والشعراء ٢٦٩/١ والأغاني ١٦١/١٩ . | (٧) المفضليات ص ١١٨ . |
| (٢) الأغاني ١٦٢/١٩ والحيوان ٣٠٥/٢ . | (٨) راجع في ترجمته ابن سلام ص ١١٠ |
| (٣) حاج : جمع حاجة . | والشعر والشعراء ٢٧٤/١ والأغاني (طبع |
| (٤) خلاص : اعتراض . | دار الكتب) ١٥٨/٩ والخزانة ٥٢٦/١ |
| (٥) أغاني ١٥٩/١٩ . | والإصابة ٢١٠/٣ والموشح ص ٦٧ . |
| (٦) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٣٨٣/١ | (٩) انظر ترجمته في المراجع السابقة وراجع |
| والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٩/١٣ | الحيوان ٧٩/٥ . |
| والإصابة ٢١٨/٢ والخزانة ٥٣٦/٢ والموشح | (١٠) الشعر والشعراء ٢٧٧/١ وبأس الأولى : |
| ص ٧٥ . | شجاعة . |

وقد أنشدنا في الفصل السابق أبياتاً من مراثية أخيه جرّاء لعمر بن الخطاب ، واشتهر أخوهما مزرد^(١) بهجائه وخاصة للأضياف ، ويظهر أنه ارعوى وتاب عن الهجاء . كما يدل على ذلك قوله^(٢) :

تَنْزَلْتُ مِنْ شَتَمِ الرِّجَالِ بِتَسْوِيَةٍ إِلَى اللَّهِ مَنَى لَا يَنَادَى وَلِيَدَهَا
وَمِنْ شِعْرَاءِ هَذَيْلِ الْبَارِعِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَبُو ذُو وَيْبٍ^(٣) الْهُدَالِي . وقد قدم
المدينة عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف يبكيه مع الباكين قائلاً
من أبيات^(٤) :

كُسِفَتْ لِمَصْرِعِهِ النُّجُومُ وَبَدَّرَهَا وَتَزَعَزَعَتْ آطَامُ بَطْنِ الْأَبْطَحِ
وَتَزَعَزَعَتْ أَجْبَالُ يَثْرِبَ كُلِّهَا وَنَخِيلُهَا لِحُلُولِ خَطْبِ مُفَدِّحِ
وهو في ديوانه يُعْنَى بوصف النحل ، مثله في ذلك مثل شعراء هذيل ،
وقد خرج يغزو في سبيل الله ، ونراه في جنود عبد الله بن سعد بن أبي سرح
الذين فتحوا قرطاجنة ، وقد أرسل به مع عبد الله بن الزبير إلى عثمان مبشرين
له بفتحها . وعاد إلى مصر ، ولكن حدث أن توفي له — قبل وفاته بعام —
خمسة بنين في وباء ، فراثهم بعينيته المشهورة وفيها نحسُّ رضاه بقضاء الله مع
التحسر اللاذع على نحو ما نجد في قوله^(٥) :

أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي غُصَّةً بَعْدَ السُّرْقَادِ وَعِبْرَةً لَا تُقْلَعُ
فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمْ بَعِيشٍ نَاصِبٍ وَإِخَالَ أَنِي لَاحِقٌ مُسْتَتَبِعٌ^(٦)

ومعاهد التنصيص ١٩٥/١ ومعجم الأدباء
لياقوت (طبع مصر) ٨٣/١١ وشرح
شواهد المغني ١٠ والاشتقاق (نشرة الخانجي)
ص ١٧٨

(٤) الاستيعاب ص ٦٦٦ .

(٥) انظر ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب
المصرية) ١/١ وما بعدها .

(٦) غبرت : بقيت . ناصب : متعب .
مستتبع : تابع .

(١) راجع في ترجمة مزرد الشعر والشعراء
٢٧٤/١ والخزانة ١١٧/٢ والإصابة ٨٥/٦
ومعجم الشعراء ص ٤٨٣ ومعاهد التنصيص
٢٠٢/١ .

(٢) الإصابة ٨٤/٦ .

(٣) انظر في ترجمته ابن سلام ص ١١٠
والشعر والشعراء ٦٣٥/٢ والأغانى ٢٦٤/٦
والاستيعاب ص ٦٦٥ والإصابة ٦٣/٧
والخزانة ٢٠٣/١ وأسد الغابة ١٨٨/٥

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميم لا تنفع
والنفس راغبة إذا رغبها وإذا تُردُّ إلى قليل تقنع
وروى الرواة أنه قال حين حضره الموت يخاطب ابن أخ له يسمى
أبا عبيد^(١) :

أبا عبيد وقع الكتاب واقترب الوعيد والحساب
وأشاع الإسلام في نفوس كثير من الشعراء برأ ورحمة بأهلهم وأقربائهم .
ويشتهر في هذا الصدد عمرو بن شأس الذي سبق أن عرضنا له في شعر الفتوح ،
فقد كان له ابن من أمة سوداء ، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به فعاتبها
بقطعته المعروفة^(٢) :

أردت عراراً بالهوان ومن يرذ عراراً لعمري بالهوان فقد ظلم
وكان ينحو هذا المنحى مَعْن^(٣) بن أوس المُرَني في عتابه لابن عمه الذي
أساء إليه إساءة كبيرة . وظل يسىء إليه وهو يوالى أشعاره في صفحه عن
زلاته برأ به وبقرابته مع تجنيبه عليه وتجرمه ، يقول^(٤) :

وذى رحم قلمت أظفار ضيغنه بحلمي عنه وهو ليس له حلم
فما زلت في لين له وتعطف عليه كما تحنو على الولد الأم
ومن غير شك كان يستهدى في ذلك آى الذكر الحكيم التى تدعو إلى
البر بالأقرباء والصفح الجميل . ويمرض عمرو^(٥) بن أحمر الباهلى فيتوجه
إلى ربه داعياً^(٦) :

- (١) أغاني ٢٧٩/٦ ومعجم الأدباء ٨٩/١١ .
(٢) ابن سلام ص ١٦٦ والشعر والشعراء ٣٨٩/١ .
(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة دار الكتب) ٥٤/١٢ والإصابة ١٧٩/٦ والخزانة ٢٥٨/٣ وانظر فهرس البيان والتبيين والجماسة للمرزوقي ومعجم الشعراء ص ٣٢٢ ومعاهد التنصيص . وقد نشرت أشعاره في لبيزج .
(٤) أغاني ٦٠/١٢ وديوانه (طبعة لبيزج)
(٥) ابن سلام قطعة حكيم يقول فيها :
والحي كالميت ويبقى التقي
والعيش فنان فحلو وممر
ص ٣٦٠٥ .
(٦) الشعر والشعراء ٣١٦/١ وقد روى له

إليك إله الحق أرفع رغبى عياداً وخوفاً أن تُطيل ضماييا^(١)
 فإن كان بُرّاً فاجعل البرّ نعمةً وإن كان فيضاً فاقض ما أنت قاضيا^(٢)
 ومن نحس عندهم أثر الإسلام واضحاً نهشل^(٣) بن حيرى في مراثيه لأخيه
 مالك ، وكان قد قُتل بصيفيين ، ومن قوله في إحداها^(٤) :

أناس صالحوّن نشأت فيهم فأودوا بعد ألفٍ واتساقِ
 أرى الدنيا ونحن نعيثُ فيها موليةً تهباً لانطلاقِ
 أعاذلَ قد بقيتُ بقاء قيسٍ وما حى على الدنيا بباقي
 وكان بجانب من قد منا شعراء عُرِفوا بركة دينهم ، ومع ذلك فحين نتعقب
 شعرهم نجد فيه خيوطاً إسلامية تظهر في نسجه من حين إلى حين ، منهم
 عبّداً^(٥) بنى الحسحاس ، وكان يتغزل غزلاً مفحشاً جعل قومه يقتلون له عهد
 عثمان ونراه يقول :

عَمِيرَةٌ وَدَّعْ إِنْ تَجَهَّزْتَ غَازِيَا كفى الشيبُ والإسلام للمرء ناهيا
 ويُرَوَى أنه أنشد هذا البيت عمر بن الخطاب فقال له : لو قلت شعرك
 مثل هذا لأعطيتك عليه . ومثله النجاشي^(٦) قيس بن عمرو ، الذى حدّاه على بن
 أبى طالب فى شرب الخمر برمضان ، وقد تهاجى مع كثير من الشعراء وعلى
 رأسهم تميم بن أُبَيّ بن مقبل العَجَلَانِي ، وفيه وفي قبيلته يقول :
 إِذَا اللَّهُ عَادَى أَهْلَ لَوْمٍ وَدَقَّةٍ فَعَادَى بَنَى الْعَجَلَانَ رَهْطَ . ابن مُقْبِلِ^(٧)
 قَبِيلَةٍ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلَمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

والشعراء ٣٦٩/١ وابن سلام ص ١٥٦ والإصابة
 ١٦٣/٣ والخزانة ٢٧١/١ وشرح شواهد المغنى
 ١١٢ . وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه .
 (٦) راجع فى ترجمة النجاشي الاشتقاق
 لابن دريد (نشرة الخانجي) ص ٤٠٠ والشعر
 والشعراء ٢٨٨/١ والإصابة ٢٦٣/٦ والخزانة
 ٣٦٨/٤ .

(٧) البيت دعاء على بنى العجلان ، وواضح
 أن النجاشي يرميهم بأن أحسابهم لثيمة خسية .

(١) الضمان : ما يصيب الإنسان فى جسده
 من مرض أو زمانة .

(٢) فيضا : موتا .

(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ٤٩٥
 والشعر والشعراء ٦١٩/٢ والأغانى ٢٧٠/٩
 والإصابة ٢٦٨/٦ والخزانة ١٤٧/١ .

(٤) أمالى المرتضى ٢٢٦/٢ .

(٥) انظر ترجمة عبد بنى الحسحاس فى
 أغانى (سالى) ٢/٢٠ وما بعدها والشعر

ولو أنه كان صحيح الإسلام ما هجأهم بالبيت الثاني، فإن الإسلام يُجِلُّ الوفاء بالذمم والعهود وينهى عن الظلم وكل ما يتصل به ولكن روحه كانت جاهلية . وكان ابن^(١) مقبل على شاكلته ، يقول ابن سلام : « إنه كان جافياً في الدين وكان في الإسلام يبكي أهل الجاهلية »^(٢) ومع ذلك ندَّت على لسانه أبيات فيها ما يدل في وضوح على تأثره بالدين الحنيف من مثل قوله^(٣) :

هل الدهرُ إلا تارتان فمَنهما أَموت وأُخرى أبتغى العيش أَكْذَحُ
وكلتاها قد خُطَّ لى فى صحيفة فلا الموتُ أهْوَى لى ولا العيش أَرْوَحُ
وهو يَصُدِّرُ فى البيتين عن الآية الكريمة : (ما أَصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتابٍ من قبل أن نَبْرَأَها) وما يَرْوَى له قوله^(٤) :
النَّاسُ هَمُّهُمْ الحِياةُ ولا أرى طول الحِياة يَزِيد غير خَبالٍ
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد دُخْرًا يكون كصالح الأعمال
ومن يُسَلِّك فى هؤلاء الشعراء الذى عُرِفوا بركة دينهم الحطيئة، وسنرى عما قليل أثر الإسلام فى شعره .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على فساد الفكرة التى شاعت بين الباحثين عرباً ومستشرقين من أن الإسلام لم يترك آثاراً عميقة فى نفوس المخضرمين ، وخاصة أهل البادية^(٥) ، فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم جميعاً . ونحن نقف عند خمسة منهم يُعَدُّون فى طليعتهم هم حسان بن ثابت وكعب بن زهير ولييد والحطيئة والنابعة الجعدى ، لنرى فيهم مدى تأثر المخضرمين بالإسلام ، ولندل فى وضوح على أن هذا التأثير لم يقف عند شعراء المدينة من مثل حسان ، فقد نفذ إلى شعراء البادية وتعمَّقهم على نحو ما سنرى عند لييد والنابعة الجعدى .

(٣) الحيوان للجاحظ ٤٨/٣ .

(٤) طبرى ٢٩/٥ .

(٥) راجع مثلاً تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية لئالينو (طبع دارالمعارف) ص ٩٥ .

(١) راجع فى ترجمة ابن مقبل الشعر والشعراء

٤٢٤/١ وابن سلام ص ١٢٥ والإصابة

١٩٥/١ والخزانة ١١٣/١ وزهر الآداب

١٩/٢ .

(٢) ابن سلام ص ١٢٥ .

حسان^(١) بن ثابت

كان أبوه ثابت بن المنذر بن حزام الخزرجي « من سادة قومه وأشرافهم » ، وكانت أمه « الفريرة » خزرجية مثل أبيه ، وقد أدركت الإسلام ودخلت في دين الله^(٢) . وهو يُسَلِّك في المعمرين إذ يقال إنه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام ستين أخرى ، وهي سنٌ تقريبية ، فقد قيل إنه توفي قبل الأربعين ، وقيل بل سنة خمسين وقيل بل سنة أربع وخمسين . وهو ليس خزرجياً فحسب ، بل هو أيضاً من بني النجار أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فله به صلة قرابة ورحم .

وزناه قبيل الإسلام يتردد على بلاط الغساسنة ، ويقال إنه مدَّ رحلاته إلى بلاط النعمان بن المنذر ؛ وكان لسان قومه في الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية ، ومن ثمَّ اصطدم بالشاعرين الأوسيين : قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت^(٣) . ويقال إنه عرض شعره على النابغة بسوق عكاظ ، وقدَّم عليه الأعشى ، فأثار موجدته^(٤) .

وبهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فدخل حسان في الإسلام ، حتى إذا أخذ شعراء قريش في هجاء الرسول وصحبه من المسلمين انبرى لهم بلاذع هجائه ، وكان رسول الله يحثه على ذلك ويدعو له بمثل : « اللهم أبدِّه بروح القدس » واستمع إلى بعض هجائه لم فقال : « لهذا أشدُّ عايجهم من

المغنى ص ١١٤ والخزانة ١٠٨/١ . وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة في ليدن بتحقيق هرشفيلد وفي مصر بتحقيق البرقوقي وفي تونس والهند وبيروت ، وسنعمند في المراجعة على طبعة ليدن .
(٢) انظرها في ابن سعد ٢٧١/٨ .
(٣) انظر أغاني (دار الكتب) ١٢/٣ والديوان ص ٥٢ وفي مواضع متفرقة .
(٤) أغاني (دار الكتب) ٣٤٠/٩ .

(١) انظر في ترجمة حسان ابن سلام ص ١٧٩ وفي مواضع متفرقة وأغاني (دار الكتب) ١٣٤/٤ وما بعدها و ٢٧/١١ و ١٥٧/١٤ و (طبعة الساسي) ١٢/١٦ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٦٤/١ والموشح ص ٦٠ وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٢٥/٤ والاستيعاب ص ١٢٨ والإصابة ٨/٢ وسير أعلام النبلاء للذهبي (طبع دار المعارف) ١١٥/٢ و ص ٣٦٦ وما بعدها وشرح شواهد

وقع النَّبْلُ » ، وفي حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أُمِرْتُ عبد الله ابن رواحة (بهجاء قريش) ، فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفي واشتفى » . ومَرَّ بنا في الفصل السابق أنه لم يكن يهجو قريشاً بالكفر وعبادة الأوثان ، إنما كان يهجوهم بالأيام التي هزموا فيها ويعيِّرهم بالمثالب والأنساب . وهذا طبعي لأنهم كانوا مشركين فعلا ، فلو هجأهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغاً ، ويُروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهْجُهم وجبريل معك » ^(١) .

ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض في حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، ونراه يعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً ، من مثل قوله :

حَصَانُ رَزَانُ مَا تُزَنُّ بِرَيْبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْنَى مِنْ لَحُومِ الْغَوَافِلِ ^(٢)
فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ قِيلَ عَنِّي قُلْتُهِ فَلَا رَفْعَ سَوَاطِي إِلَى أَنَا مِلِي
ويظهر أن بعض المهاجرين وعلى رأسهم صفوان بن المعطل أثاروه في هذا الحادث ، حتى وجد وجداً شديداً ، فقال :

أَمْسَى الْجَلَابِيبُ قَدْ عَزَّوْا وَقَدْ كَثُرُوا وَابْنُ الْفَرِيعَةِ أَمْسَى بَيْضَةَ الْبِلَدِ ^(٣)
على أنه مضى في نفس القصيدة يعلن إخلاصه للإسلام وأنه سيستمر في ذبِّه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال إنه كان ينشد الرسول شعره في المسجد ، والذي لا شك فيه أنه كان يحظى منه بمنزلة رفيعة ، حتى ليُروى أنه كان يرفع أزواجه إلى أطمه حين يخرج لحرب أعدائه ، وكان حين يعود يَنَقَسُّمُ له في الغنائم ، وقد أهداه بستاناً ، كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية ، وهي أم ابنه عبد الرحمن . وكان

(١) انظر في هذا الحديث وما قبله ترجمته في كتب الصحابة والأغاني ١٣٧/٤ وما بعدها .
(٢) حصان : عفيفة . رزان : ذات وقار .
تزن : تهم . غرنى : جائعة . يريد أنها لا تغتاب
(٣) سمي بعض المهاجرين الجلابيب استصغاراً لشأنهم . البلد هنا : النعام . وفي المثل هو أذل من بيضة البلد لأن النعام يترك بيضه فيحضنه غيره . النساء .

الخلفاء الراشدون يجلبونه ويفرضون له في العطاء . ويقال إنه وفد على معاوية وأنه نَحِيَّ بِأُخْرَةٍ .

وبحقَّ سُمِّيَ حسانَ شاعر الإسلام ورسوله الكريم ، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مُصْمِيَةٍ . وقصته مع الحارث بن عوف المُرِّي حين قُتل في جواره داعٍ من دعاة الرسول مشهورة ، فقد قال فيه وفي عشيرته :

إِنْ تَغْدِرُوا فَالْغَدْرُ مِنْكُمْ شِيْمَةٌ وَالْغَدْرُ يَنْبُتُ فِي أَصُولِ السَّخْبَرِ (١)
وبكى الحارث من هجائه له بدموع غزار ، واستجار بالرسول متوسلاً إليه أن يكفّه عنه . وقد مضى حين قدم على الرسول وفد بني تميم يردُّ على شاعر هذا الوفد الزُّبَرْقَان بن بدر مادحاً للمهاجرين مدحاً رائعاً . يقول في تضاعيفه :

إِنْ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرِ وَإِخْوَتِهِمْ قَدْ بَيْنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ (٢)
يَرْضَى بِهَا كُلٌّ مِنْ كَانَتْ سِرِيرَتُهُ تَقْوَى الْإِلَهَ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمْ فَكُلُّ سَبْقٍ لَأَذْنٍ سَبَقَهُمْ تَبَعُ
أَهْدَى لَهُمْ مِدْحِي قَلْبٌ يُوَازِرُهُ فِيمَا أَرَادَ لِسَانُ حَائِكُ صَنَعُ

ومن المحقق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل المدر في عصره وأنه أشعر اليمن قاطبة . وقد خَلَّفَ ديواناً ضخماً رواه ابن حبيب ، غير أن كثيراً من الشعر المصنوع دخله ، يقول الأصمعي : « تُنْسَبُ إليه أشياء لا تصح عنه » (٣) ويقول ابن سلام : « قد حُمِلَ عليه مالم يُحْمَلْ على أحد ، ولما تعاضهت (تشامت) قريش واستبست وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنْقَى » (٤) . وكان ممن حَمَلَ عليه غُثَاءً كثيراً ابنُ إِسْحَق في المغازي ، ولا حظ ذلك ابن هشام وهو يَرْوِي عنه السيرة النبوية ، فكان يرجع إلى العلماء بالشعر وعلى رأسهم أبو زيد الأنصاري راوية البصرة المشهور يسألهم عن صحة أشعار حسان

(١) السخبر : شجر ، ومن أمثالهم : ركب
فلان السخبر إذا غدر .
(٢) الذوائب : الأعلى في الشرف . فهر :
(٣) الاستيعاب ص ١٣٠ .
(٤) ابن سلام ص ١٧٩ .

المروية عند ابن إسحق فكانوا يُثبتون بعضها وينكرون بعضاً آخر وقد يردُّونها إلى غيره من معاصريه ومن جاءوا بعدهم . ومع ذلك نرى كثيراً مما أنكروه مثبتاً في رواية ابن حبيب . ونحن نعرض صنيع ابن هشام ليعلم مدى ما وُضع على حسان ، فمن ذلك أن نراه كثيراً يقول بعد إنشاده لبعض القصائد : « وأهل العلم ينكرون هذه القصيدة لحسان »^(١) ومن ذلك أنه نسب قصيدتين أضيفتا إليه إلى كعب بن مالك^(٢) ونسب ثلاثة إلى عبد الله^(٣) بن الحارث السهمي ورابعة إلى معقل^(٤) بن خويلد الهذلي وخامسة إلى ربيعة بن أمية الدبلي وقيل بل هي لأبي أسامة الجشمي^(٥) . ونسب سادسة إلى ابنه عبد الرحمن^(٦) . وإذا مضينا نبحت في مراجع أخرى وجدنا قطعة لعبد الله بن رواحة تضاف إليه ، وهي في رثاء نافع بن بُدَيْل^(٧) ، وكذلك أضيفت إليه قطعة ثانية لعبد الله بن رواحة وهي في رثاء عثمان^(٨) ، وأيضاً أضيفت إليه مقطوعة يائية في هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرة الأوس والخزرج له ، ونصَّ الرواة على أنها لصيرمة^(٩) بن أبي أنس الأنصاري ، ونُسب له بيتان في الفخر بالأزد وهما لسعد^(١٠) بن الحصين الأنصاري ، ونُسبت له مقطوعة رائية ، وهي لبشير^(١١) بن سعد بن الحصين . ونظن ظناً أن شعره اختلط بأشعار الأنصار ، وخاصة كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وابنه عبد الرحمن ، أما الأولان فقد اشتركا معه في هجاء قريش ،

- | | |
|---|--|
| (١) انظر ابن هشام في مقطوعة عينية ٥٦/٣ وفي قصيدة عينية ١٤٩/٣ وما بعدها وقابل بالديوان ص ٧٦ وهي في رثاء حمزة ، وانظر حائية في رثاء حمزة ١٥٩/٣ ومقطوعتين في رثاء خبيب ١٨٦/٣ وقابل بالديوان ص ٨٤ ، وكذلك مقطوعة بائية في ١٩٢/٣ وقابل بالديوان ص ٣٩ ومقطوعتين : لامية ورائية في عمرو بن ود في ٢٨١/٣ وقابل بالديوان ص ٤٦ . | (٦) السيرة النبوية ١٩٩/٤ والديوان ٥١ وراجع الحيوان ١٠٨/٣ حيث تشكك المحاذظ في مقطوعة تنسب إليه وقال إنها تنسب أيضاً إلى ابنه عبد الرحمن . |
| (٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١٣٧/٣ وقابل بالديوان ص ٣٦ وانظر السيرة ٣٦٢/٣ وقابل بالديوان ص ٦٣ . | (٧) انظر الديوان ص ٣١ وقابل بالاستيعاب ص ٣٠٥ وابن هشام ١٩٨/٣ . |
| (٣) انظر السيرة النبوية ٢٠/٣ والديوان ص ٢٩ . | (٨) انظر الديوان ص ٧١ وقارن بالاستيعاب ص ٤٩٢ . |
| (٤) السيرة النبوية ٨١/٣ والديوان ص ٨٤ . | (٩) راجع الديوان ص ٢١-٢٢ والاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ . |
| (٥) السيرة النبوية ٢٨٢/٣ والديوان ٥١ . | (١٠) انظر الديوان ص ٤٠ وقارن بالأغاني (طبع الساسي) ١٢٠/١٤ . |

وأما عبد الرحمن فعُرف أنه كان يهاجى النجاشى الحارثى ويذم قومه بنى الحارث بن كعب وعشيرته بنى الحماس ذمّاً قبيحاً^(١) . ومن هنا كنا نشك فيما يضاف إلى حسان من هجائهم ونظن أنه من أشعار ابنه ، حُمل عليه^(٢) . ومن هذا الباب أشعاره المملوءة غيظاً على قتلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون^(٣) ليظهروا للناس أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان في صفّهم وليغسلوا عنهم عار الأشعار التى نظمها حسان فى هجاء أسرهم حين كان أبوسفیان وغيره من رؤوسها يقودون الجيوش ضد الرسول ويحادّونه . ومثلها ما يضاف إليه من أشعار فى مديح الزبير^(٤) بن العوام وعبد الله^(٥) بن العباس ، وكأن الأحزاب السياسية لعبت دوراً فى وضع الشعر على لسانه .

والحق أن شعر حسان الإسلامى كَثُرَ الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع فى بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركافة وهلهلة ، لا لأن شعره لان وضعف فى الإسلام كما زعم الأصمعى ، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال . ونحن نوثق شعره فى الجاهلية إلا ما اتهمه الرواة^(٦) ، ومن رائع هذا الشعر ميميته التى يملؤها ضجيجاً وعجيجاً بمفاخر قومه والتى يقول فيها :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

ولاميته التى يمدح بها الغساسنة بمثل قوله :

بِيضُ الْوَجْهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ شُمُّ الْأَنْفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

أما هجاؤه لقريش فينبغى أن نُسبَعد منه ما اتهمه الرواة وأن لانقبل منه إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب ، ومن ثم كنا نرتضى ميميته (تَبَلَّسْتُ فَوَادَكَ فى المنام خريدة^(٧)) التى يعير فيها الحارث بن هشام المخزومى بفراره فى يوم

(١) ابن سلام ص ١٢٥ .

(٢) انظر الديوان فى هجاء بنى الحماس الحارثيين

قوم النجاشى ص ٤٧ ، ٨١ ، وكذلك انظر مقطوعة

رائية ص ٤٨ ونونية ص ٨٢ .

(٣) راجع ابن عبد البر فى الاستيعاب ص ٤٩٢

حيث يذكر أن أهل الشام زادوا عليه فى رثاء

عثمان أبياتاً ، وقد رد بيتاً له فيه إلى عمران بن حطان .

(٤) الاستيعاب ص ٢٠٨ وقد نسبت إليه

أشعار فى هجاء آل العوام والوضع فيها ظاهر . انظر

الديوان ص ٨٥ .

(٥) الديوان ص ٧٤ والبيان والتبيين ١/ ٣٠٠

(٦) انظر الأغاني (سأسى) ١٤/ ١٢٥-١٢٧ .

بدر ، ومثلها قصيدته الميمية (منع النوم بالعشاء الهموم) التي يهجو فيها ابن الزبير ويفتخر بقومه فخر أعنيقا ، ومن نمطهما لاميته (أهاجك بالبيداء رَسْمُ المنازل) . وبهذا القياس نُضيف إليه مقطوعته الكافية التي وجهها إلى أبي سفيان ابن الحارث ، وقد رواها ابن سلام^(١) . ومثلها مقطوعته الدالية التي يستهلها بقوله :

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم والذك العبد^(٢)
ومقطوعته الميمية التي يقول فيها :

لعمرك إن إلك من قريش كإل السقب من رأل النعام^(٣)
وأيضاً نحن نثبت له قصيدته الهمزية التي يقول فيها لأبي سفيان بن الحارث :
هجوت محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاءُ

وهو يستهلها بذكر منازل صاحبه مشبهاً بها ومستطرداً إلى ذكر الحمر على طريقة الجاهليين ، مما جعل القدماء يقولون إن القصيدة تتكون من جزئين : جزء نظم في الجاهلية ، وجزء نظم في الإسلام^(٤) . وهو يمضي في الجزء الثاني متحدثاً عن فروسية قومه ومتوعداً قريشاً بحروب مُبيرة ، وتختلط في هذا الجزء المعاني الجاهلية بالمعاني الإسلامية إذ يتعرض لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم ومتابعة قومه له ونصرتهم لدينه ، من مثل قوله :

وجبريلُ أمينُ الله فينا وروحُ القدس ليس له كِفَاءُ^(٥)
وقد تبرز المعاني الإسلامية في بعض أهاجيه لقريش كقوله من مقطوعة يعيرها فيها بهزيمتها يوم بدر :

فينا الرسولُ وفينا الحقُّ نتبعه حتى الممات ونصُرُ غير محدود
مستعصمين بحبلٍ غير مُنْجِذمٍ مُستحکمٍ من حبالِ الله ممدود^(٦)

(١) ابن سلام ص ٢٠٨ والديوان ص ١٩ .

(٢) بنت مخزوم : فاطمة بنت عمرو المخزومي

(٣) وهي أم عبد الله وأبي طالب والزبير بن عبد المطلب .

(٤) السقب : ولد الناقة . الرأل : ذكر النعام .

الإل : القرابة .

(٥) انظر الاستيعاب ص ١٢٩

(٦) كفء : كفه ونظيره .

(٦) منجذم : منقطع .

وهو يشير في البيت الثاني إلى قوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) .
وله مراث في الرسول الكريم تتضح فيها المعاني الإسلامية اتضحاً على نحو
ما يلقانا في مراثيه التي رواها أبو زيد الأنصاري والتي يقول فيها :

وما فقد الماضون مثل محمدٍ ولا مثله حتى القيامة يُفقد
وقد مرّت بنا في الفصل السابق مراثيه البديعة لأبي بكر الصديق ، ومن
قوله في عمر حين توفى على إثر طعنة فيروز الموحسي :

وفجّعنا فيروز لا درّ درّه بأبيض يتلو المحكمات منيب^(١)
وعلى هذا النحو اتشحت بعض أشعار حسان الإسلامية بأضواء الدين
الحنيف وهديه الكريم .

٣

كعب^(٢) بن زهير

أبوه زهير بن أبي سُلمى من فحول الشعر في الجاهلية . وهما من قبيلة
مزينة ، ولكنهما يوضعان في عداد غطفان حيث عاش زهير مع بنيه بين أخواله
بنى مرة الذُبْيَانين . وقد تلقن كعب الشعر عن أبيه ، مثله في ذلك مثل أخيه بُجَيَّر
ومثل الحطيئة . ويذكر لنا الرواة الطريقة التي كان يخرج بها زهير تلاميذه
من أهل بيته وغيرهم إذ يقولون إنه كان يحفظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى
تتضح موهبة الشعر فيهم . ويقولون عن كعب إنه كان يخرج به إلى الصحراء ،
فيُلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يُجيزه^(٣) تمريناً له وتدريباً . على صوغ

والاستيعاب ص ٢٢٦ وأسد الغابة ٢٤٠/٤
والإصابة ٣٠٢/٥ ومعجم الشعراء للمرزباني
ص ٢٣٠ والخزانة ٣٧٥/١ ، ١١/٤ .
وقد طبعت دار الكتب المصرية ديوانه برواية ثعلب .
(٣) أغاني (طبع الساسي) ١٤١/١٥ وأمالى
المرتضى (طبع الحلبي) ٩٧/١ .

(١) لا در دره : الدر : اللبن وكثرته ، يدعو
عليه بأن لا يزكو عمله . المحكمات : آيات
الذكر الحكيم . وكفى ببياض عمر عن نقاء صحيفته .
(٢) راجع في ترجمة كعب طبقات فحول
الشعراء لابن سلام ص ٨٣ وما بعدها والشعر
والشعراء لابن قتيبة ١/٨٦ وأغاني (طبعة الساسي)
١٤٠/١٥ وابن هشام ١٤٤/٤ وما بعدها

الشعر ونظمه . ويبدو أن كعباً اشتهر في الجاهلية بأكثر مما اشتهر الخطيئة ، يدلُّ على ذلك ما يرويه ابن سلام من أن الخطيئة قال له : « قد علمتَ روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم ، وقد ذهبت الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع »^(١) ، فقال كعب قطعته التي يقول فيها :

فَمَنْ لِلْقَوَافِ شَانِهَا مِنْ يَحْكُوكَهَا إِذَا مَا ثَوَى كَعْبٌ وَفَوْزَ جَرْوَلُ^(٢)
ومعروف أن كعباً وبجيراً أخاه والخطيئة أدركوا الإسلام ، وكان أسبقهم إلى الدخول فيه بجير ، وقد هجاه كعب حينئذ هجاء آذى رسول الله بمثل قوله^(٣) :

أَلَا أَبْلَغَا عَنِّي بُجَيْرًا رِسَالَةً فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتُ وَيُحْكُ هَلْ لَكَ
شَرِبْتَ مَعَ الْمُأْمُونِ كَأْسًا رَوِيَةً فَأَنْهَلَكَ الْمُأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَ^(٤)
وخالفت أسباب الهدى وتبعته على أي شيء - ويب غيرك - ذلكا^(٥)
على خلقي لم تُلَفْ أُمًّا وَلَا أَبًا عليه ولم تدرك عليه أخاً لك
ويقال إن الرسول سمع بهذا الشعر فتوعده ، وأجابه بجير فيما أجابه به بقوله^(٦) :

مَنْ مَبْلَغٌ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهِيَ أَحْزَمُ
إِلَى اللَّهِ لَا الْعُزَّى وَلَا اللَّاتِ وَحْدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النَّجَاءُ وَتَسْلِمُ
لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمَفْلُتٍ مِنَ النَّارِ إِلَّا طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمٌ
وما زال كعب على وثنيته حتى فُتِحَتْ مَكَّةُ وانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف ، فكتب إليه بجير أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل كل من

(١) ابن سلام ص ٨٧ وانظر الأغاني (طبع)

دار الكتب) ١٦٥/٢ .

(٢) ثوى وفوز : مات وهلك . جربول : الخطيئة .

(٣) مقدمة الديوان ص ٣ وأغاني (سامي)

١٤٢/١٥ والسيرة ١٤٤/٤ والاستيعاب

ص ٢٢٦ .

(٤) المأمون : الرسول وقيل بل أراد به أبا بكر .

النهل : الشرب الأول . العلل : الشرب الثاني .

(٥) ويب غيرك : هلك هلاك غيرك ،

ويوب بالنصب على إضمار فعل .

(٦) الديوان ص ٤ والسيرة ١٤٥/٤ .

آذاه من شعراء المشركين إلا من أعلنوا إسلامهم، ودعاه أن يتقدم على رسول الله تائباً. وشرح الله صدره للإسلام، فقدم المدينة وبدأ بأبي بكر، فوقع من نفسه « فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته، فقال: يا رسول الله! هذا رجل جاء يبايعك على الإسلام، فبسط النبي صلى الله عليه وسلم يده، فحسّر كعب عن وجهه، وقال: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله! أنا كعب بن زهير. فتجهمت الأنصار وغلظت له، لذكره قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحببت المهاجرة أن يسلم ويؤمنه النبي صلى الله عليه وسلم، فأمنه رسول الله^(١)، وأنشده مدحته الخالدة:

بانَتْ سعاد فقلبي اليوم متبولٌ متيمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولٌ^(٢)

فكساه النبي صلى الله عليه وسلم برودة اشتراها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم، وكان يلبسها الخلفاء بعد معاوية في العيدين^(٣). وقد اكتسى بها كعب حلّة مجد لا تبلى، ولقبت قصيدته من أجلها بالبردة. ونراه يستهلها بالغزل، إذ يذكر سعاد وفراقها وأن قلبه مرتن عندها فليس له فكاك، وكأنه يتأثر أباه في بعض غزله إذ يقول في إحدى قصائده^(٤):

وفارقتك برهنٍ لا فكاك له يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقاً^(٥)

ويلح في وصف سعاد ويشبهها بالظبي ويشبه ريقها بالخمير، متأثراً في ذلك أباه في نفس القصيدة، كما تأثره في الحديث عن إخلاف صاحبه لوعدها. ويخرج من ذلك إلى وصف ناقته مستلهماً ما نظمه أبوه في هذا الموضوع من قبل. وما زال ينعت ناقته حتى قال يصور خوفه وفزعه من رسول الله:

(١) ابن سلام ص ٨٣ والشعر والشعراء ١٠٦/١
(٢) انظر الأغاني ١٤٢/١٤ .
(٣) ابن سلام ص ٨٧ والشعر والشعراء ١٠٦/١
(٤) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٣٣ .
(٥) غلق الرهن: لم ينفك أبداً .
(١) ابن سلام ص ٨٣ والشعر والشعراء ١٠٦/١
(٢) انظر القصيدة في ديوان كعب (طبعة دار الكتب المصرية) ص ٦ . ومتبول: مغرم .
وبانت: فارقت . ومكبول: مقيد .

وقلت خلّوا طريقي - لا أبا لكم - فكلُّ ما قدّر الرحمنُ مفعولٌ
كلُّ ابنِ أنثى وإن طالَتْ سلامتهُ يوماً على آلهِ حَدْبَاءُ محمولٌ
أُنْبِئْتُ أَنَّ رسولَ الله أوعدني والعَفْوُ عند رسول الله مأمولٌ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلةً لا قرآن فيها مواعِظٌ وتفصيلٌ
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرتُ عني الأقاويلُ
إن الرسول لنورٌ يُسْتَضَاءُ بهِ مهنّدٌ من سيوف الله مسلولٌ^(١)
في عُصْبَةٍ من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلّموا زُولُوا^(٢)
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشفٌ عند اللقاء ولا ميلٌ معازيلُ^(٣)

ومضى يمدح المهاجرين حتى قال :

يمشون مشى الجمالِ الزُّهرِ يَعْصِمُهُمْ ضَرْبُ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ^(٤)
يعرّض بالأنصار لغلظتهم - كانت عليه - فأنكرت قريش ما قال ،
وقالوا لم تمدحنا إذ هجوتهم . ولم يقبلوا منه ذلك حتى قال يذكر الأنصار :
من سرّه كرمُ الحياة فلا يَزَلْ في مِقْنَبٍ من صالحى الأنصار^(٥)
الباذلين نفوسهم لنبيهم يوم الهياج وسطوة الجبارِ
يتطهّرون - كأنه نُسْكٌ لهم - يوم علقوا من الكُفَّار^(٦)
صلموا علياً يوم بدّرٍ صَدْمَةٌ دَانَتْ لَوْقَعَتِهَا جميعُ نزار^(٧)

(١) المهنّد: السيف المطبوع من حديد اخند

وهو خير السيوف .

(٢) زولوا: هاجروا .

(٣) أنكاس: جمع نكس وهو الضعيف .

الذليل . كشف: جمع أكشف وهو الذى ينكشف

في القتال وينهزم . ميل: جمع أميل وهو الجبان .

معازيل: جمع معزال وهو الذى ينمزل فى الحرب

عن صحبه ومن يستغيث به .

(٤) الزهر: البيض . عرد: نكل وجبن .

التنابيل: القصار .

(٥) المِقْنَب: جماعة الخيل والفرسان .

(٦) علقوا: قتلوا .

(٧) ير يدبعل بنى على بن مسعود وهم بنو كنانة .

ورثوا السيادة كابراً عن كابرٍ إن الكرام همُ بنو الأخيار
وحَسُنَ إسلام كعب، وأخذ يصدر في شعره عن مواعظ وحكم يستهدى
فيها الذكر الحكيم ، من مثل قوله :

لو كنت أعجبُ من شيءٍ لأعجبني سَعَى الفتي وهو مخبوءٌ له القَدْرُ
يسعى الفتي لأُمورٍ ليس يُدركها والنفس واحدةٌ والهَمُّ منتشرٌ
والمرءُ ما عاش ممدودٌ له أَمَلٌ لا تنتهى العينُ حتى ينتهى الأثرُ
ونراه يردد كثيراً أن الله يرزق عباده ، وأنه لا يتركهم بدون رزق فهو راعيهم

الذى يَنْفُضُ عليهم . وهو الغنى الحميد ، يقول :

أَعْلَمُ أَنَّى مَتَى ما يَأْتِنِي قَدَرِي فليس يَحْبِسُهُ شُحٌّ ولا شَفَقُ^(١)
والمرءُ والمال يَنْمِي ثم يَذْهَبُهُ مَرُّ الدهورِ وَيُفْنِيهِ فَيَنْسَحِقُ
فلا تخافِ علينا الفقرَ وانتظري فَضْلَ الذى بِالْغِنَى من عنده نَثَقُ
إِنْ يَفْنَ ما عندنا فالله يرزقنا وَمَنْ سوانا ولسنا نحن نرتزق
وهو في ذلك يقرب من زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر
الشخص منهم في رزق غد ، بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغفر .
وله قصيدة لامية يظهر أنه نظمها في الجاهلية لما يذكر فيها من شربه الخمر
مع من يصطنيه . ويظهر أنه عاد فأدخل فيها بعد إسلامه هذه الأبيات :

فأَقْسَمْتُ بِالرَّحْمَنِ لا شَيْءَ غَيْرِهِ يَمِينَ امرئٍ بَرٍّ ولا أَتَحَلَّلُ^(٢)
لأَسْتَشْعِرُنَّ أَعْلَى دَرِيْسِي مسلماً لوجه الذى يُخَيِّ الأَنامَ وَيَقْتُلُ^(٣)
هو الحافظُ الوَسْطانَ بالليل مَيِّتاً على أَنه حَيٌّ من النومِ مُثْقَلُ^(٤)
من الأَسودِ السارى وإن كان نائراً على حَدِّ نابيه السَّامُ المَثْمَلُ^(٥)

(١) شفق : خوف .

(٢) لا أتحلل : لا أستنى .

(٣) الدريس : الثوب البالى . كنى بذلك عن

حسن إسلامه وتوكله على الله الذى يحيى ويميت .

(٤) الوسنان : النائم .

(٥) الأسود : الأفمى . السارى : الذى يسير

ليلاً . النائر : الطالب بثأر . المثل : المجمع

وهي تَنَمَّ عن ولائه لدينه الخفيف وأنه أسلم وجهه لربه ، جل جلاله ،
الحافظم الذي يكلاً عباده ويقيهم الأذى ، ولعلَّ في ذلك ما يدل دلالة واضحة
على مدى تأثير الإسلام في نفسه وفي شعره . وديوانه يدل - كما يدل تأخره في
إسلامه - على أنه كان فيه شر كثير ، إذ نراه دائماً في شعره الجاهلي مفاخرأ
متوعدأ مهتدأ ، حتى إذا أسلم أخذت نفسه تصفو ، وأخذ يستشعر معاني
الإسلام الروحية ، وما دعا إليه من الخلق الفاضل ، حتى نراه في الهجاء نفسه
يعلن لهاجيه أنه يصفح الصفح الجميل ، سائقأ له ، لا من الشتم والسباب ، بل من
الحكم ، ما يحاول به أن يكفَّ أذاه عنه ، يقول^(١) :

إن كنت لا ترهب ذمِّي لما تعرف من صفحِي عن الجاهل
فاخش سكوتي إذ أنا منصتُ فيك لمسموع خنا القائل
فالسامع الدام شريكُ له ومطعمُ المأكول كالأكل
مقالةُ السوء إلى أهلها أسرع من مُنحدرِ سائل
ومن دعا الناس إلى ذمِّه ذمَّوه بالحق وبالباطل
ولا تهجُ إن كنت ذا إربةٍ حربَ أخى التجربة العاقل^(٢)
فإن ذا العقل إذا هجته هجَّت به ذا خبل خايل

فهو ينهأ أن لا يجعل الصفح عنه سببأ إلى سوء القول ، حتى لا يجنى على
نفسه ما هو أقبح أثراً وأبقى وسمأ ، ويقول إن الذين يبسطون ألسنتهم بالهجاء
سرعان ما يرتد عليهم هجاء أقذع وأمر ، هجاء بالحق وبالباطل . وهو
في ذلك كله يأخذ بأدب القرآن ورسوله عليه الصلاة والسلام من العفو والصفح
ومن التفرع لمن يهجو به بدلا من الطعن في الأعراض سنتهم القديمة .

(٢) الإربة : الدهاء .

(١) الخزانة ١٢/٤ والاستيعاب ص ٢٢٧

والحيوان ١٥/١ .

ليبد^(١)

من عشيرة ذات سيادة وشرف في بني كلاب العامرين ، هي عشيرة بني جعفر ، وقد اشتهر فيها أبوه ربعة وأعمامه الطُّفَيْل وأبو براء ومعاوية . أما ربعة فكان بحراً فياضاً ، ومن ثمَّ لُقِّبَ : « ربيع المُفْتَرين » وقد قتلته بنو أسد في بعض حروبها مع قومه . وأما الطفيل فكان فارساً مغواراً وهو أبو عامر المشهور هو الآخر بفروسيته ، وكذلك كان أبو براء شجاعاً مقداماً وكان يلقَّب بملاعب الأُسَنة ، أما معاوية فكان ذا رأى وحكمة ، فلُقِّبَ بمعوذ الحكماء . وأمَّ ليبد تامرة بنت زباج العبَّسية .

وقد نشأ ليبد يشعر شعوراً عميقاً بكرامة أسرته وأمجادها ومناقبها ، وبمجرد أن شبَّ أخذ يشترك في حروبها وغاراتها ووفادتها على أمراء الحيرة ويقصُّ الرواة من ذلك حديثاً يتصل - إن صحَّ - بأول ما كان من تيقظ موهبته الشعرية وهو لا يزال حَدَثًا ، فهم يروون أن وفدًا من قومه على رأسه عمه أبو براء وفد على النعمان بن المنذر ، فوجد هناك وفدًا من بني عَبَّس على رأسه الربيع بن زياد ، وكان بين العباسيين وبني عامر قبيلة ليبد عدواة منشؤها أن العامرين قتلوا زهير بن جذيمة سيد بني عبس في بعض حروبهم . ولم يلبث الوفدان أن اصطدما ، وأخذ الربيع يدسُّ على العامرين عند النعمان . وعرفوا ذلك ، فاستشاط ليبد غضباً ، ووثب بين يدي النعمان يهجو الربيع برجز

والمعمر بن ص ٦٠ والخزافة ١/ ٣٣٤ وقد طبع الخالدي جزءاً من ديوانه سنة ١٨٨٠ ونشر هوبر جزءاً آخر سنة ١٨٨٧ وأضاف بروكلمان بقية طبعته في ليدن سنة ١٨٩١ وطبع الديوان أخيراً طبعة علمية محققة اضطلع بها إحسان عباس ونشرت في الكويت سنة ١٩٦٢ .

(١) انظر في ترجمة ليبد ابن سلام ص ١١٣ والشعر والشعراء ١/ ٢٣١ والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٥/ ٣٦١ وطبعة السامي ١٥/ ١٣٠ وطبقات ابن سعد ٦/ ٢٠ وأسد الغابة ٤/ ٢٦٠ والموشح ص ٧١ وأما المرتضى (طبعة الحلبي) ١/ ١٨٩ والاستيعاب ص ٢٣٥ والإصابة ٦/ ٤

مقدع ، فانصرف النعمان عن الربيع وأجزل في إكرامه للعامريين . وسواء أصبح هذا الخبر أولم يصح فإن لبيدا أخذ منذ سال الشعر على لسانه ينظمه في الفخر بعشيرته والاعتداد بها اعتداداً بالغاً . ويقال إنه كان يكتمه في أول الأمر . حتى إذا نظم معلقته : « عَفَّتْ الديار محلُّها فقمامها » أخذ يظهره . وأخذ اسمه يطير في القبائل . ولما سارت الركبان بأمر الرسول في المدينة ورسالته النبوية أرسله عمه أبو براء برسالة إليه ^(١) ، فوقع الإيمان في قلبه ، إلا أنه لم يُعلن إسلامه حينئذ . وعاد إلى قبيلته ، حتى إذا استدار العام خرج مع وفد منها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأعلنوا دخولهم في دين الله . وكان ابن عمه عامر بن الطفيل وأخوه أربد وفدا على الرسول قبل ذلك يريدان به شراً فعصمه الله . ودعا عليهما . فلم يلبث عامر أن أصابه طاعون في عنقه فقتله ، أما أربد فتزلت عليه صاعقة من السماء أهلكته . وظل لبيد بعد إسلامه يبكيه بكاء حاراً .

ورجع لبيد بعد إعلانه إسلامه إلى قبيلته يذكر لهم البعث والجنة والنار ويقرأ لهم القرآن . وما زال بينهم حتى خَـطَّ عمر الكوفة فترها وأقام بها إلى أن توفاه الله في صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة . ويقول الرواة إنه شغل نفسه حينئذ بالقرآن وتلاوته ولم ينظم الشعر إلا قليلاً ، ويصورون ذلك فيقولون إن عمر أرسل إلى المغيرة بن شُعْبَةَ واليه على الكوفة : أن استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا في الإسلام . فلما سأل لبيداً عن شعره انطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة ؛ ثم أتاه بها . وقال : أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر ، فكتب المغيرة بذلك إلى عمر . فأمر أن يزيد عطاءه خمسمائة وكان ألفين . ويمضى الرواة فيزعمون إنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه ^(٢) ، فمن قائل هو قوله :

الحمدُ لله إذ لم يأتني أجـلي حتى كساني من الإسلام سـرّاً بالـا

(طبعة دار الكتب) ١٥/٣٦٩ وانظر الاستيعاب ص ٢٣٥ حيث يذكر بيتاً ثالثاً .

(١) أغاني (طبعة السامي) ١٥/١٣١ .
(٢) الشعر والشعراء ١/٢٣٢ والأغاني

ومن قائلٍ ، بل هو قوله :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه والمرءُ يُصلحه المجلسُ الصالحُ

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعاني الإسلام ومثاليته الروحية ، بحيث يمكن أن نقسم شعره قسمين : قسماً جاهلياً وقسماً إسلامياً .

وهو في القسم الجاهلي لا يخرج إلى مديح أو هجاء ، بل يمتضى مفاخره فخراً عنيفاً بآبائه وفتوته معتدّاً اعتداداً لا حدَّ له بالأقربين من أسرته ، ومن ثمَّ وقف مع ابن عمه عامر بن الطفيل ضد علقمة بن عُلانة حين تفاخرا إلى هرم بن قُطَيْبَةَ النَّزَارِي^(١) وأقرأ فيه فستجده دائماً في هذا القسم مفاخره بقومه وشجاعتهم وبلائهم في الحروب وما لهم من مناقب جليلة حتى إذا أفضى إلى نفسه تحدث عن شئله وتجشّمه لسرى الليل بأصحابه وفتوته وكيف يسقى الخمر لداته ، وكيف يقامر ليطعم الجائع المحروم . وكثيراً ما يهجم في قصائده على هذا الفخر ، وقد يقدم لذلك بمقدمات ، على نحو ما صنع في معلقته ، إذ بدأها بذكر الديار وذكر الأحبة الطاعنين ، ثم مضى يصف اقتحامه للصحرى على ناقته ، وسرعان ما شبهها بأتان وحشية ، استرسل في الحديث عنها وعن حمار كان يصاحبها ويلاعها . وخرج من ذلك إلى تشبيهها ببقرة وحشية مذعورة لفقد طفلها ، ويسترسل في وصف تعقب الرماة لها وإرسالهم جوارح الكلاب عليها ، ويخلص إلى الفخر بكرمه وبسالته ومنادته لرفاقه . ويفخر بقومه وكثرة ساداتهم وما سنّه لهم آباؤهم ، يقول :

إنا إذا التقتِ المجامعُ لم يزل منا لِرَازُ عَظِيمَةٍ جَشَّامُهَا^(٢)
ومقسَّمٌ يُعْطَى العَشِيرَةُ حَقَّهَا وَمُعْذِرٌ لِحَقْوَقِهَا هَضَامُهَا^(٣)
فَضْلاً ، وذو كرمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى سَمَحٌ كَسُوبُ رَغَائِبِ غَنَامِهَا

(٣) معذمر : لايمطى . هضام هنا : يعطى قوماً ويحرم الآخرين .

(١) أغاني (سأى) ٥٢/١٥ .

(٢) اللراز : الملازم للشئ ، جشامها : من التجشم وهو ركوب الخطر .

من مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا
فَبِنَا لَنَا بَيْتًا رَفِيعًا سَمَكُهُ فَمَا إِلَيْهِ كَهْلُهَا وَغَلَامُهَا
فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ الْمَلِكُ فَإِنَّمَا قَسَمَ الْخَلَائِقَ بَيْنَنَا عَلَامُهَا

وشعره الجاهلي دائماً على هذه الوتيرة من الحديث عن مناقب آبائه ومفاخره
ووصف راحلته وتشبيهها بالأتان المتوجسة والبقرة المسبوعة أو النعامة الخائفة ،
وقد يتحدث عن المطر . وهو في ذلك كله يتميز بالإغراب الشديد في لفظه ،
حتى ليس قارئه شيء من الضجر لكثرة ما يورد من أوابد الألفاظ وحوشيتها .
واقراء ما لم نَرَوْه من المعلقة قبل هذه الأبيات التي أنشدناها فإنك ستجد مفرغاً في
ألفاظ متناهية في الإغراب ، ومن ثمَّ وصف شعره أبو عمرو بن العلاء فقال :
إنه رحي بَزَرٍ^(١) ، يريد أنه خشن لا يحسن في السمع ، وقال الأصمعي ، شعر
ليبد كأنه طيلسان طبراني أي أنه محكم الصنعة ولا رونق له .

وإذا انتقلنا من هذا القسم إلى شعره الإسلامي وجدنا قراءته للقرآن الكريم
تهذب من لفظه وتدخل عليه غير قليل من الطَّلَاوة ، ومن ثمَّ يقول فيه ابن
سَلَامٍ : « كان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق »
ويتضح ذلك في مراثيه المشهورة لأخيه أربد ، فإن لألفاظها ماء ورونقاً وفي
معانيها من الإسلام أصداء وظلالا ، وارجع إلى عينيته فستجد جمال السبك
والصياغة ، وستجد الروح الإسلامية ماثلة في تضاعيف أبياتها على شاكلة
قوله^(٢) :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ وَتَبَقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ^(٣)
فَلَا جَزَعُ إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا وَكُلُّ فَتَى يَوْمًا بِهِ الدَّهْرُ فَاجِعُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلِهَا بِهَا يَوْمَ حَلَّوْهَا ، وَغَدَوْا بِلَاقِعُ^(٤)

(٤) بلاقع : جمع بلقع وهو الأرض القفر .
وغدوا : غدا .

(١) الموشح للمرزباني ص ٧١ .

(٢) الديوان بتحقيق إحسان عباس ص ١٦٨ .

(٣) المصانع : الأبنية الضخمة .

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رَمَادًا بعد إذ هو ساطع^(١)
وما البر إلا مُضَمَّرَاتٌ مِنَ التُّقَى وما المال إلا عارياتٌ ودائعٌ
وليس كل ما حدث من انقلاب في شعره الإسلامى أنه انتقل من الألفاظ
الحوشية إلى الديباجة الطلية ، فقد تغلغل الإسلام في ضميره . فاتجه في
أشعاره إلى ربه منيباً إليه ، والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب الذى ينتظره ،
يقول في قصيدة له^(٢) :

إنما يحفظ التُّقَى الأبرارُ وإلى الله يستقرُّ القرارُ
وإلى الله ترجعون وعند الله وَرْدُ الأمور والإصدارُ
كلُّ شَيْءٍ أَحْصَى كِتَاباً وَعِلْماً ولديه تَجَلَّتِ الأسرارُ
إن يكن في الحياة خيرٌ فقد أُنْ ظِرْتُ لو كان ينفع الإنظارُ^(٣)
عشتُ دهرًا ولا يدوم على الآيِّ ام إلا يَرَمَرُمُ وتَعَارُ^(٤)

فإنك تجده يتحدث عن التقوى والأبرار والعمل الصالح وأن الناس
معروضون على الله يوم القيامة وقد أَحْصَى كل شَيْءٍ في كتاب وأن الموت
حق لا شك فيه وأن على كل إنسان أن يفكر في مصيره . ويمضى في
طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ مَنْ حوله بما أهلك الله من الأمم الحالية مخوفاً
من الموت ويوم الحساب ، وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح ، ومهوناً من الدنيا
ومتاعها الزائل ونعيمها الفانى ، على نحو ما نرى في لاميته التى نؤمن بأنه نظمها
في الإسلام ، وفيها يقول^(٥) :

ألا كلُّ شَيْءٍ ما خلا الله باطلٌ وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ
وكلُّ أناسٍ سوف تدخل بينهم دُونِهِ تَصْفَرُّ منها الأناملُ^(٦)

(٥) الديوان ص ٢٥٦ والشعر هو الشعراء .

٢٣٧/١ والطبرى ٢٨/٥ .

(٦) يريد بالدوهمية الموت .

(١) يحور : يصير .

(٢) ديوان لبید ص ٤١ والحيوان ١٦٣/٧ .

(٣) الإنظار : التأخير .

(٤) يرمزم وتعار : جيلان في نجد .

وهو في البيت الأول يستمد من مثل قوله تعالى : (كلُّ من عليها فان ويبقى وجه ربِّك ذو الجلال والإكرام) ويستمد في البيت الثاني من مثل قوله جلَّ وعز : (كلُّ نفس ذائقة الموت) أما البيت الثالث فاستمدَّ مباشرة من قوله تبارك وتعالى عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب : (أفلا يعلم إذا بُعِثَ ما في القبور وحُصِّلَ ما في الصدور) . واسترسل في القصيدة يتحدث عن النعمان بن المنذر ومملكه وأجناده وكيف بادوا جميعاً مما جعل القدماء يظنون أنه نظمها في رثائه^(١) وفي الواقع كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتي على الملوك والأئم ، ومن ثَمَّ مضى يتحدث عن الغساسنة وأصحاب الرِّسِّ وكيف أمسى كل ما كانوا فيه أحلاماً . وعلى هذا النمط نفسه لامية أخرى يستهلها بقوله^(٢) :

لله نافلةُ الأجلِّ الأفضلِ وله العلا وأثيثُ كلُّ مؤثِّلٍ^(٣)
لا يستطيع الناسَ مَحْوَ كتابه أنَّى وليس قضاؤه بمبدلٍ
وهو في هذا المطلع يستلهم الذكر الحكيم وما فيه من أوصاف الذات العلية ، وأن كل ما يجري في الكون بقضائه وأن كل ما يأتي من عمل في كتاب مبين ، وأن كلا سيُجزَى بما سجَّلَ عليه كتابه ، يقول سبحانه : (وكلَّ شئٍ أحصيناه كتاباً) (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) . ويمضي لبيد في القصيدة فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما أصاب بعض العمالق ولقمان ونسره وأبرهة وأمراء المناذرة والغساسنة من ريب الزمان . ومن هذه الشاكلة نفسها موعظته^(٤) :

من يَبْسُطِ اللهُ عليه إصْبَعاً بالخير والشر بَأَى أولعاً^(٥)
يملاً نه منه ذنوباً مُتْرَعاً وقد أباد إرماً وتبعاً^(٦)
والحق أن تلاوته للقرآن التي اشتهر بها أثَّرت في نفسه آثاراً عميقة . وقد يكون الرواة تزيدوا في بعض هذه الأشعار ولكن كثرة ما يُنسبُ إليه منها يدل على أن

(١) انظر الديوان ص ٢٥٤ .
(٢) الديوان ص ٢٧١ .
(٣) أثيث : موطناً عظيم . مؤثِّل : مؤصل ،
(٤) الديوان ص ٣٢٧ .
(٥) الإصبع : الأثر الحسن .
(٦) ذنوباً مُتْرَعاً : دلوا نملوا .
ويوصف به الملك والمجد .

الإسلام تعمق روحه ، وأنه استشعر معانيه ومواعظه ، فضى بحيلها أبياتاً وأشعاراً ، بل قصائد دينية ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من أجود هذه القصائد لاميته المقيدة التي يقول فيها^(١) :

إِنْ تَقَوَّى رَبَّنَا خَيْرُ نَفْلٍ وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَلٌ^(٢)
أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نِدَّ لَهُ بِيَدِيهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلُ
مِنْ هِدَاةِ سُبُلِ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمِنْ شَاءَ أَضَلُ
فَاكْذَبَ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَتْهَا إِنَّ صَدَقَ النَّفْسَ يُزْرَى بِالْأَمَلِ
غَيْرَ أَنْ لَا تَكْذِبْنَهَا فِي التَّقَى وَاخْزُهَا بِالْبِرِّ ، اللَّهُ الْأَجَلُ^(٣)

ونراه يذكر في هذه القصيدة رحلة له لعلها رحلته إلى الكوفة كما يذكر فقداه لأربد وببكيه . وعلى هذا النحو يظل لبيد بشعره الإسلامي مستمسكاً بالعروة الوثقى زاجراً عن الدنيا وخُدعها داعياً إلى أن يكفَّ الإنسان عن سيئاته ومرغباً له في الباقيات الصالحات حتى يغتنم بقية أجله بخير عمله .

٥

الخطيئة^(٤)

اسمه جَرُول : وَلُقِّبَ بِالْخَطِيئَةِ لِقَصْرِه أَوْلَدَ مَامَتَهُ ، وَقَدْ وَلَدَ لِأُمَةٍ تَسْمَى الضَّرَاءَ ، كَانَتْ لِأَوْسَ بْنِ مَالِكِ الْعَبْسِيِّ . وَنَشَأَ فِي حَجْرِهِ مَغْمُوزاً فِي نَسَبِهِ ، وَجَعَلَهُ ذَلِكَ قَلَقاً مُضْطَرِباً مِنْذُ أَخَذَ يَحْسُ الْحَيَاةَ مِنْ حَوْلِهِ ، وَزَادَ فِي اضْطِرَابِهِ وَقَلَقِهِ ضَعْفُ جِسْمِهِ وَقَبْحُ وَجْهِهِ ، إِذْ كَانَتْ تَقْتَحِمُهُ الْعَيُونَ . وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ

والأغاني (طبع دار الكتب) ١٥٧/٢ والإصابة
٦٣/٢ والخزانة ٤٠٨/١ وحديث الأربعة
لطف حسين (طبعة الحلبي) ١٥٣/١ وما بعدها.
ونشر ديوانه في إستانبول ، ونشره جولد تسهر
والشنقيطي ، وكذلك نشره نعمان أمين طه بمطبعة
الحلبي ، وسنعمد على نشرته .

(١) الشعر والشعراء ٢٣٨/١ والديوان
ص ١٧٤ وما بعدها .
(٢) النفل : العطية . الريث : البطء .
(٣) اخزها : سبها واقهرها .
(٤) انظر في ترجمة الخطيئة ابن سلام
ص ٨١ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٨٠/١

فضل شجاعة يستطيع أن يتلافى به هوان شأنه في « عبس » على نحو ما صنع
عنترة من قبله . ومن ثمَّ نشأ يشعر بغير قليل من المرارة ، ولعل هذا هو السبب
في غلبة الهجاء عليه .

ولما تيقظت في نفسه موهبة الشعر لزم زهير بن أبي سُلمى يعلمه إحكام
صنعه على نحو ما كان يعلم ابنه كعباً . ومربنا أن الخطيئة كان يروى
شعر كعب أيضاً ، وأنه طلب إليه أن ينوّه به ، حتى يدور على الألسنة
ذكره . ومعنى ذلك أن الخطيئة من مدرسة زهير التي كانت تُعنى بالتعبير وصقله
وتصفيته من كل شائبة ، كما كانت تعنى بالمعانى ودقتها .

ويضيء الإسلام في الجزيرة ، فلا يسارع إليه ، ومن هنا اختلف الرواة
هل قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فأعلن إسلامه على شاكلة
كعب ، أو أنه تأخر في اعتناقه الإسلام ، حتى توفى الرسول الكريم . ونراه
يسارع إلى الردّة ، مُعينا بشعره المرتدّين ضد أبي بكر وخلافته ، حتى
ليقول :

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا فيا لعبادِ الله ما لأبي بكر
أَيُورثها بكرًا ، إذا مات ، بعده فتلك ، وبيتِ الله ، قاصمةُ الظهرِ
على أن من الرواة من نسب هذين البيتين إلى غيره^(١) . وقد عاد مع المرتدين
إلى الإسلام .

وجمهور شعره يدور في المديح والهجاء ، ويقول الأصمعي : « كان الخطيئة
جشعاً سؤولاً ملحفاً دنىء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلاً ، قبيح المنظر ،
رثاً الهيئته ، مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول في شاعر من
عيب إلا وجدته ، وقلما تجد ذلك في شعره »^(٢) . وقد يكون الأصمعي بالغ
في نعتة بهذه الصفات ، وحقاً كان يمدح سادة القبائل بشعره منذ نشأ في
الجاهلية من أمثال عُبَيْسَةَ بنِ حِصْنِ الفزاري وزيد الخيل ، وكان يتورط فيما

(١) انظر الطبري ٤٧٧/٢ حيث نسب البيتين إلى أخيه (٢) أغاني (دار الكتب) ١٦٣/٢ .
الخطيل وقارن بالديوان ص ٣٢٩ والأغاني ١٥٧/٢ .

بينهم من خصومات ومنافرات ، إذ نراه يقف في صف عيينة بن حصن حين نافر ابن عمه زبَّان بن سيار ، كما نراه يقف في صف علقمة بن علاثة حين نافر عامر بن الطفيل^(١) . وكان غيره من الشعراء يصنعون صنيعة ، فقد كان الأعشى ولييد يقفان في صف عامر . وقد تكون حادثته مع الزُّبرقان بن بدر هي التي شوهته ، ذلك أنه لقيه في عهد عمر بن الخطاب يوم المدينة ، وكان على صدقات قومه ، فلما عرفه دلَّه على داره حيث زوجه وعشيرته ، فنزل بأهله ، وفزع بنو أنف الناقة — إذ كانوا ينافسون عشيرة الزُّبرقان — حين علموا ذلك ، وعملوا على أن يفسدوا العلاقة بينه وبين زوج الزُّبرقان ، وكانت قد تراخت في استقباله . وأتيحت بذلك الفرصة لبنى أنف الناقة ، فضموا الخطيئة إليهم وبالغوا في إكرامه ، وانطلق يُشقي عليهم ثناء رائعاً معرضاً بالزُّبرقان بمثل قوله يخاطبه :

دَعِ المكارم لا تَرَحَّلْ لُبُغَيْتِهَا واقْعُدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي^(٢)

ورفع الزُّبرقان أمره إلى عمر ، فحكَّم حسان بن ثابت فيه ، فلما حكم بأنه هجاه حبسه . وأخذ الخطيئة يستعطفه بأبياته المشهورة التي يقول فيها :

ماذا تقول لأفراخٍ بذى مَرَحٍ زُغِبِ الحواصل لا ماء ولا شَجَرٌ^(٣)

أَلْقَيْتَ كاسِيَهُمْ فِي قَعَرٍ مُظْلِمَةٍ ، فاغفرْ عليك سلامُ اللهِ يا عُمَرُ

ولأن له قلب عمر ، فعفاه عنه بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يعود إلى الهجاء

ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم^(٤) .

ونحن إذا قرأنا أشعاره المختلفة التي عرض فيها للزُّبرقان وجدناه لا يُقنِّد في هجائه ، إنما يمسُّه على نحو ما رأينا في بيته السالف برفق ، عامداً إلى التَّهْكُم والسخرية . ولا نشك في أن الإسلام هو الذي خفَّف من حدة لسانه ، ونراه يصرِّح بذلك إذ يقول^(٥) :

(١) ابن سلام ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) يريد المظوم المكسو .

(٣) ذميرخ : واد بالحجاز . الأفراخ :

صغار الطير شبه بها أولاده . زغب الحواصل :

(٤) انظر في القصة الأغاني ١٧٩/٢ وما بعدها .

(٥) الديوان ص ٩٨ .

لم يثبت على حواصلهم سوى الزغب القصير ،

كناية عن صغرهم وأنهم لا يقوون على الطيران .

(٤) انظر في القصة الأغاني ١٧٩/٢ وما بعدها .

(٥) الديوان ص ٩٨ .

ولما أن مدحتُ القومَ قلتم هجوتَ ولا يحلُّ لك الهجاءُ
ألم أك مسلماً فيكون بيني وبينكم المودةُ والإخاءُ
ولم أشتمُ لكم حسبا ولكن حَدَوْتُ بحيثُ يُسْتَمَعُ الحُداةُ

فهو يذ كر حرمة الإسلام ، ويتذم بها ، ويقول إنه حين مدح بنى أنف الناقة وحدا بهم فسمعه قوم الزبرقان جعلوا ذلك ذمًا لهم وهجاء ، لمدحه خصومهم . ونراه يولّي وجهه نحو علقمة بن عُلّانة ، لينشده إحدى مدائحه فيه ، ولكن الموت يسبقه إليه فيُجنّز له ابنه في العطاء . ويتجه نحو العراق في عهد عثمان . فيمدح الوليد بن عقبة واليه على الكوفة ، ويذود عنه حين يطعن عليه أهلها . وقد حُمِلت عليه أبيات في ذمه . ويمدح من بعده سعيد بن العاص الذي خلفه في تلك الولاية ، كما يمدحه في ولايته لمعاوية على المدينة (٤٩ - ٥٥ هـ) . ونرى أهلها يجمعون له من أموالهم خشية معرة لسانه . والمطزون أنه توفي في ولاية سعيد آنفة الذكر .

وقد كان على شاكلة زهير يُعنى بشعره وتجويده عناية شديدة ، وقد أثر عنه أنه كان يقول : « خير الشعر الحولى المحكك » فهو ممن كان يتأثنون في شعرهم ، ويعيدون فيه النظر ، حتى تخرج جميع الأبيات مستوية في الجودة والروعة . ولعل ذلك ما جعله يُكثر من المقطعات ، ونراه في مطولاته يشبب ويصف الصحراء وحيوانها الوحشي والأليف . ومدائحه لا تقل عن مدائح زهير جودة على شاكلة قوله في بنى أنف الناقة :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجدا
أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

وكانوا يعيرون باسمهم ، فما هو إلا أن قال معرضاً بالزبرقان وعشيرته :

قومٌ هم الأنف والأذنا بغيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

حتى أصبح اللقب فخراً لهم . وتُرَوَّى له أهاج في زوج أمه وفي أمه وفي ضيفانه . وكلها مزاح . حتى لنراه يمزح مع نفسه ، فيقول :

أرى لي وجهاً شوّه الله خلقه . فقُبِّحَ من وجهٍ وقُبِّحَ حاملُهُ
أما بخله الذي أشار إليه الأصمعي والرواة ، فقد غسله بكثرة مديحه للكرم ،
وبقصيدته « وطاوى ثلاث »^(١) وفيها يصور أعرابياً فقيراً نزل به ضيف ، وعياله
من حوله يتضورون جوعاً ، فهمّ أن يذبح له أحدهم ، لولا أن عَسَّنت له أتان
وحشية ، فصادها وأطعمها ضيفه . والقصيدة رائعة في وصف غريزة الكرم
العربية .

والحق أن الرواة بالغوا في اتهامه بالبخل ودناءة النفس ، كما بالغوا في
اتهامه بفساد الدين ، قد يكون رفيقه ولكنه ليس فاسده ، فقد كان يستشعره في
الهجاء بشهادة لسانه كما قدمنا . ونراه في مديحه يكثر من ذكر جزاء الله لممدوحه
على ما يقدم له من بيرة على شاكلة قوله في بعض ممدوحيه :

فَلْيَجْزِرْهُ اللهُ خَيْراً مِنْ أَخِي ثَقَةٍ وَلِيَهْدِيهِ بِهَدَى الْخَيْرَاتِ هَادِيهَا
وقد يستهل المدح بالثناء على الله في مثل قوله :

الحمد لله إني في جوار فتى حامى الحقيقة نفاعٍ وضرارٍ
وقال أبو عمرو بن العلاء : لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت
الخطيئة^(٢) :

من يَفْعَلِ الخير لا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لا يذهب العُرفُ بين الله والناسِ
ولعل في ذلك ما يدل على أنه حَسَنٌ إسلامه ، وأبلغ في الدلالة على
ذلك قوله في وصف التقى والعدل الصالح^(٣) :

ولستُ أرى السعادةَ جمعَ مالٍ ولكن التقى هو السعيدُ
وتقوى الله خيرُ الزادِ دُخْرًا وعند الله للاتقى مزيدُ

(٣) أغاني ١٧٥/٢ والديوان ص ٣٥٣ .

(١) الديوان ص ٣٩٥ وما بعدها .

(٢) أغاني ١٧٣/٢ .

فالسعادة في رأيه ليست في الدنيا وأموالها ومتاعها الزائل ، وإنما هي في الآخرة ونعيمها ومتاعها الخالد الذي لا يُنال إلا بالتقوى ، فهي السعادة الحقيقية . ومعنى ذلك أن الإسلام لم يظل بعيداً عن روح الخطيئة ، بل أخذ يُرسل فيها مثل هذه الإشعاعات النيرة .

٦

النايعة^(١) الجعدى

هو عبد الله^(٢) بن قيس من بنى جَعْدَةَ العامريين ، ولد بالفاتح جنوبى نجد ، ولما شب اضطرب فيما يضطرب فيه قومه من حروب ، ويقال إنه ظل ثلاثين عاماً في الجاهلية لا ينطق الشعر ثم تفجّر على لسانه ، فسُمّي النايعة لنبوغه فيه بأخرة ، ويقال إن نبوغه فيه إنما كان في الإسلام .

والنايعة الجعدى في جاهليته مثل لبيد يتغنى بمفاخر قومه وانتصاراتهم في حروبهم ويهجو خصومهم وخاصة بنى أسد الذين قتلوا أخا له في بعض حروبهم مع قبيلته ، وقد بكاه كثيراً ، ومن بكائه فيه قصيدته التى يؤبّسها فيها بقوله^(٣) :

فَتَى كَمَلْتُ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقَى مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا
فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا

ويقال إنه كان يفد بشعره على اللخمين في الحيرة . ولما أخذت وفود العرب تفد على الرسول صلى الله عليه وسلم معلنة إسلامها وفد عليه مع قومه سنة تسع للهجرة وأنشده قصيدة يقول فيها :

(١) انظر في ترجمة النايعة : الشعر والشعراء ١/٢٤٧ وابن سلام ص ١٠٣ وما بعدها والأغاني (طبعة دار الكتب) ١/٥ وما بعدها وأسد الغابة ٢/٥ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢١٨ وأمالى المرتضى ١/٢٦٣ والمعمرين ص ٦٤ والخزانة ١/٥١٢ والموشع ص ٦٤ . وقد جمعت ماريّا

ناليكو أشعاره ونشرتها في روما سنة ١٩٥٣ .

(٢) اختلف المؤرخون في اسمه هل هو عبد الله ابن قيس أو قيس بن عبد الله أو حبان بن قيس .

(٣) الشعر والشعراء ١/٢٥٢ والديوان ص ١٢٣ .

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجَدُودُنَا وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ : فَأَيْنَ الْمَظْهَرِيَا أَبَا لَيْلَى ؟ فَأَجَابَهُ : الْجَنَّةُ . وَاعْجَبَ الرَّسُولُ بِشَعْرِهِ وَمَنْطِقِهِ ، فَقَالَ لَهُ : لَا يَنْقُضُضُ اللَّهُ فَالَكُ (١) .

وَيُظَنُّ أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ مَعَ قَوْمِهِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ ، بَلْ أَقَامَ فِي الْمَدِينَةِ مَهَاجِرًا ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ الْفَتْوحُ خَرَجَ مَعَ الْعَرَبِ مِيَمًا نَحْوَ الشَّرْقِ وَالْفُرْسِ مَجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَنَشَّرَ الدَّعْوَةَ الْمَحْمَدِيَّةَ . وَقَدْ أَخَذَ يَضِيفُ إِلَى رَائِعَتِهِ الَّتِي أَنْشَدَهَا الرَّسُولُ أُبَيَاتًا كَثِيرَةً ، تَصُورُ حَيَاتِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَابْتِغَاءَهُ رِضْوَانَ اللَّهِ بِجِهَادِهِ وَتَقْوَاهُ جَمِيعًا يَقُولُ (٢) :

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهَدَى وَيَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ نَيْرًا (٣)
وَجَاهَدْتُ حَتَّى مَا أَحْسُ وَمَنْ مَعِيَ سُهَيْلًا إِذَا مَالَا حُثْمَتْ غَوْرًا (٤)
أَقِيمْ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضِي بِفِعْلِهَا وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَوْجَرًا (٥)

وَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَتَشَوَّقَ إِلَى مَنَازِلِ قَوْمِهِ فِي الْبَادِيَةِ ، فَاسْتَأْذَنَ عُمَانَ فِي الْإِلْمَامِ بِهِمْ فَأَذِنَ لَهُ ، حَتَّى إِذَا نَشَبَتِ الْحُرُوبُ بَيْنَ عَلَى وَمَعَاوِيَةَ وَجَدْنَاهُ فِي صَفُوفِ عَلَى بِصِفَتَيْنِ ، يَرْجُزُ بِمُخَصَّصِهِ وَيَنْظُمُ الْأَشْعَارَ فِي مَدِيحِهِ وَهَيْجَاءِ مَعَاوِيَةَ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ (٦) :

قَدْ عَلِمَ الْمِصْرَانِ وَالْعِرَاقُ أَنَّ عَلِيًّا فَخَلُّهَا الْعَتَاقُ (٧)
إِنْ الْأُلَى جَارَوْكَ لَا أَفَاقُوا لَهُمْ سِيَاقُ وَلَكُمْ سِيَاقُ
قَدْ عَلِمْتُ ذَلِكَمُ الرِّفَاقُ سَقَمْتُ إِلَى نَهْجِ الْهَدَى وَسَاقُوا
إِلَى الَّتِي لَيْسَ لَهَا عِرَاقُ فِي مِلَّةٍ عَادَتْهَا النِّفَاقُ (٨)

(٥) أَوْجَرُ : خَائِفٌ .

(٦) أَغَانِي ٣١/٥ وَالْدِيَوَانُ ص ١٣٣ .

(٧) الْمِصْرَانِ : الْكُوفَةُ وَالْبَصْرَةُ . الْعَتَاقُ : الْكَرِيمُ .

(٨) الَّتِي لَيْسَ لَهَا عِرَاقُ : الَّتِي لَا تَعْرِفُ لَهَا غَايَةَ .

(١) أَغَانِي ٨/٥ .

(٢) أَغَانِي ٩/٥ وَالْدِيَوَانُ ص ٣٣ وَمَا بَعْدَهَا .

(٣) الْحَجْرَةُ : مَجْمُوعَةٌ مِنَ النُّجُومِ الصَّغِيرَةِ يَنْتَشِرُ ضَوْوُهَا فَيَرَى كَأَنَّهُ بَقْعَةٌ بَيْضَاءُ .

(٤) غَوْرُ النُّجُومِ : غَابَ .

ولعل هذا هو الذي جعله يصطدم بكعب بن جُعَيْل شاعر معاوية .
ويُروى أنه لما قُتل على وتحولت الخلافة إلى معاوية كتب إلى مروان عامله على
المدينة أن يأخذ أهله وأمواله ، فاستعطفه بأبيات ألانت قلبه فعفا عنه .
ونراه يقف دائماً مع قومه ، حتى لَيُضْطَرَّ أبو موسى الأشعري
والى البصرة لعمر أن يضربه أسواطاً ، وكأتما كانت فيه بقية من عصبيته
الجاهلية . ولا نشك في أن هذه البقية فيه هي التي دفعته إلى الاصطدام بأوس
ابن مَغْرَاء ، ويقول ابن سَلَّام إنه غلب عليه ولم يكن إليه في الشعر ولا قريباً .
ونزل مع قومه بأصبهان ، وهناك نراه يتهاجى مع سَوَّار بن أوفى القشيري ،
وتتصدى له زوجه ليلي الأخيلية ، ويغلبان عليه جميعاً . وهما أيضاً لم يكونا
إليه في الشعر ، وربما كان لتعمق الإسلام في نفسه أثر في تلك الهزائم ،
إذ كان يتخرج من المضي في الهجاء المقذع ، ويقول ابن سلام إن الأخطل
هجاه بأخرة . ولما دعا ابن الزبير لنفسه في أواخر خلافة يزيد بن معاوية قدم
عليه في مكة ومدحه بقصيدة رائعة يقول فيها^(١) :

حَكَيْتَ لَنَا الصَّدِيقَ لَمَّا وَلَيْتَنَا وَعَثَانَ وَالْفَارُوقَ فَارِتَا حَ مَعْدُمُ
وَسَوَّيْتَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْعَدْلِ فَاسْتَوَوْا فَعَادَ صَبَاحًا حَالُكَ اللَّيْلِ مُظْلِمُ
وأثابه ابن الزبير ثواباً جزيلاً . وعاد إلى أصبهان ، غير أنه لم يلبث أن
توفى بها عن سن عالية سنة خمس وستين . وهو بلا شك من المعمرين ، غير أن
الرواة بالغوا في ذلك حتى قالوا إنه أقدم من النابغة الذبياني وأنه عُمِّرَ مائة وثمانين
سنة بل تزيد ، مستشهدين بما أضيف إليه من مثل قوله^(٢) :

تَذَكَّرْتُ شَيْئاً قَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ وَمِنْ عَادَةِ الْمُحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْذِرِ بْنِ مُحَرَّقٍ أَرَى الْيَوْمَ مِنْهُمْ ظَاهِرَ الْأَرْضِ مُقْفَرَا
والمُنْذِرُ بْنُ مُحَرَّقٍ هو المُنْذِرُ بْنُ مَاءِ السَّمَاءِ الَّذِي قُتِلَ فِي بَعْضِ حُرُوبِهِ مَعَ
الغساسنة سنة ٥٥٦ للميلاد ، ولا شك في أن هذا الشعر مصنوع عليه .

(٢) أغاني ٦/٥

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٧٠٤

والديوان ص ١٣٧ .

ومن المحقق أن النابغة كان أحد الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية ، وقد خرج يجاهد في سبيل الله ، وهو يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، فكان طبيعياً أن يستلهمه في شعره . وهو من هذه الناحية من خير الأمثلة على أثر الإسلام في شعر المخضرمين ومدى هذا الأثر ، إذ عبّر في غير قصيدة عن خشية الله وتقواه من مثل قوله (١) :

مَنْعَ الْغَدَرِ فَلَمْ أَهْمُمْ بِهِ وَأَخُو الْغَدَرِ إِذَا هَمَّ فَعَلْ
خَشِيَةُ اللَّهِ وَأَنْتَى رَجُلٌ إِنَّمَا ذِكْرِي كَنَارٍ بِقَبْلِ (٢)

وهو دائم الحديث عن نعمة الله عليه بالإسلام ، وتحوله من ظلمات الوثنية إلى أضواء الدين الحنيف ، يقول (٣) :

عُمِّرْتُ حَتَّى جَاءَ أَحْمَدُ بِالْهُدَى وَقَوَارِعُ تَتَلَّى مِنَ الْقُرْآنِ
وَلَبَسْتُ مِلَّ الْإِسْلَامِ ثَوْباً وَاسِعاً مِنْ سَيْبٍ لَا حَرِمٍ وَلَا مَسَانٍ (٤)
وليس كل ما نجده عنده من أثر الإسلام أبياتاً مفردة تتخلل قصائده ، فإن له موعظة بليغة رواها غير راو ، وهي تطرّد على هذا النمط (٥) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مِنْ لَمْ يَقْلُهَا فَنَفْسُهُ ظَلَمَا
الْمَوْلِجِ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيْلِ لِي نَهَاراً يُفَرِّجُ الظُّلَمَا
الْخَافِضِ الرَّافِعِ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ وَلَمْ يَبْنِ تَحْتَهَا دِعْمَا (٦)
الْخَالِقِ الْبَارِئِ الْمَصُورِ فِي الْأَرْحَامِ مَاءً حَتَّى يَصِيرَ دِمَا
مِنْ نُطْفَةٍ قَدَّمَا مَقْدَرُهَا يَخْلُقُ مِنْهَا الْإِبْشَارَ وَالنَّسَمَا
ثُمَّ عِظَاماً أَقَامَهَا عَصَبٌ ثُمَّتَ لَحْماً كَسَاهُ فَالْتَنَمَا
ثُمَّ كَسَا الرَّأْسَ وَالْعَوَاتِقَ أَبْ شَاراً وَجِلْدَا تَخَالَه أَدَمَا (٧)

عطاء . حرم : مناع .

(٥) الشعر والشعراء ٢٥٣/١ وانظر الديوان ص ١٠٢ .

(٦) دعم : دعائم وعمد .

(٧) العواتق : جمع عاتق وهو المنكب .

(١) الديوان ص ٨١ وانظر الحيوان ٣/٥٠٤ .

(٢) القبل : النشز من الأرض يستقبلك ورأس كل أكمة أو جبل .

(٣) الديوان ص ١٣٧ وأما المرتضى ١/٢٦٦ .

(٤) مل الإسلام : من الإسلام . سيب :

وَالصَّوْتَ وَاللَّوْنَ وَالْمَعَايِشَ وَأَلْ
ثُمَّتَ لَا بُدَّ أَنْ سَيَجْمَعُكُمْ
فَاتِّمِرُوا الْآنَ مَا بَدَأَ لَكُمْ
فِي هَذِهِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَلَا
يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ تَرَوْنَ إِلَى
أَمْسُوا عَبِيدًا يَرْعَوْنَ شَاءَ كُمْ
أَوْ سَبِيًّا الْحَاضِرِينَ مَأْرَبَ إِذْ
فَمُرَّقُوا فِي الْبِلَادِ وَاعْتَرَفُوا
وَبَدَّلُوا السِّدْرَ وَالْأَرَكَ بِهِ
أَخْلَاقَ شَتَّى وَفَرَّقَ الْكَلِمَا
وَاللَّهِ ، جَهْرًا ، شَهَادَةً قَسَمًا
وَاعْتَصِمُوا إِنْ وَجَدْتُمْ عِصْمًا
عِصْمَةً مِنْهُ إِلَّا لِمَنْ رَحِمَا
فَارَسَ بَادَتْ ، وَخَدَّهَا رَغِمًا^(١)
كَأَنَّمَا كَانَ مُلْكُهُمْ حُلْمًا
يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهِ الْعَرِمَا
هُونَ وَذَاقُوا الْبِئْسَاءَ وَالْعَدَمَا^(٢)
خَمَطَ وَأَضْحَى الْبُنْيَانُ مُنْهَدِمًا^(٣)

والنابعة في مطلع هذه العظة يُثْنَى على الله بما هو أهله ، مقررًا إيمانه
بوحْدانيته وأنه لا شريك له ، ونحسُّ أنه يستعير لفظه من الذكر الحكيم ، فهو
يسهل قوله بكلمة « الحمد لله » ولا يلبث أن يستلهم مثل قوله تعالى : « إن الله لا
يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . ويتحدث في البيت الثاني عن
نظام الكون المنبئ عن قدرة الله وجليل صنعه له وتقديره على نظام بديع ،
مستعيراً من القرآن نفس لفظه في قوله جَلَّ وَعَز : (قل اللهم مالك الملك . . .
بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل) .
وفي البيت الثالث مضى ينظم قوله تعالى : (الله الذي رفع السموات بغير عمدٍ
ترونها) . وخرج في البيت الرابع من خَلَقَهُ للكون إلى خَلَقَهُ للإنسان واستمر ينظم
مثل قوله جَلَّ وَعَز : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في
قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة عظاماً
فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . وهو
يمضي فيتحدث عن البعث والنشأة الثانية محذراً مخوفاً . وما يلبث أن يتحدث عن

(٣) السدرو الأراك : شجرة لا ينتفع ثمره . الحمط :
ثمر الأراك أو هو نبت مر .

(١) رغم الخد : كناية عن الذل .
(٢) اعترفوا الهون : عرفوه .

القرون والأمم البائدة مكملًا بذلك العظة والعبرة ، بالضبط على نحو ما نقرأ في القرآن من حديث عما أصاب الأمم الباغية من هلاك ، وقد اقتبس منه ما جاء فيه عن دولة سبأ اقتباساً تتطابق فيه الألفاظ واقرأ قوله تعالى : (لقد كان لسبأً في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا .. وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) ، فإنك تجده قد نظم الآيات الكريمة في أبياته الثلاثة الأخيرة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح اتضاحاً لا لبس فيه أن أهل نجد والبادية كان مثلهم مثل أهل الحواضر حين دخلوا في الإسلام فقد تمثلوه وتألقبت أضواءه في صدورهم وفي أشعارهم ، حتى لتتحول جوانب منها إلى مواضع خالصة ينقرون فيها الناس من الدنيا ونعيمها الفاني ، حاثين لهم على التزود بالتقوى والعمل الصالح .

الفصل الخامس

النثر وتطوره

١

تطور الخطابة

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع في الخطابة ، إذ اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة حيث ظل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش وكل من يلقاه في الأسواق آيات القرآن الكريم ، وهو في أثناء ذلك يخطب في الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، محاولاً بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما يصور لهم من قوة الكائن الأعلى مدبر الكون ومنظمه ، الذي لم يخلقهم عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه حق عبادته ، وليستشعروا كل ما يمكن من الكمالات الروحية والاجتماعية والإنسانية ، حتى تتم لهم السعادة في الدنيا والآخرة .

وهاجر الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، فاتصلت خطابته ، واتسعت جنباتها ، بما أخذ يشرع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التي ينبغي أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون في سبيل الحق والخير ، وهو في تضاعيف ذلك يأخذهم بأداب رفيعة من السلوك السامي ، مبيناً لهم معاني الإسلام الروحية التي تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به ، كما تقوم على معرفة العمل الصالح وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها الإنسان على ما قدّمته يداه ولو كان مثقال ذرة . وما يزال يعرض أوامر الدين ونواهيه ، واضعاً الحلول لكثير من المشاكل الدنيوية ، كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشاكل حُلّت بما يحقق سعادة الجنس البشري وهناءته .

وعلى هذا النحو كانت خطابة الرسول عليه السلام متممة للذكر الحكيم ، ومن ثمَّ كانت فرضاً مكتوباً في صلاة الجمع والأعياد ثم مواسم الحج ، وتحفظ كتب الحديث بما اتخذته فيها من سنن وتقاليد^(١) ثبتت إلى اليوم . وبينما كانت تسبق الخطابة الصلاة في الجمع كانت الصلاة تسبقها في الأعياد ، وهي تتوزع على خطبتين يقف فيهما الخطيب على منبر أو نشز من الأرض ، وقد اعتمد على قوس أو سيف أو عصا ، ويُقبل على الناس مسلماً . وتبدأ الخطبة الأولى في الجمع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ، ويؤثر عن الرسول أنه كان يقول في فاتحة هذه الخطبة : « الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »^(٢) . وعادة يتلو الخطيب في الخطبة الأولى لصلاة الجمعة بعض آي القرآن الكريم ، حتى يستلهمها في موعظته . وإذا انتهى منها جلس ، ثم يقوم للخطبة الثانية ، وفيها يكثر من الدعاء ، ويقال إنه كان آخر دعاء أبي بكر في الخطبة الثانية : « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أياهى يوم لقائك » وكان آخر دعاء عمر : « اللهم لا تدعنى في غميرة ، ولا تأخذنى في غيرة ، ولا تجعلنى مع الغافلين »^(٣) . ولا تُفتتح خطبتا العيدين بالحمد لله إنما تفتح بالكبير ، فيكبّر الخطيب في أولاهما سبع تكبيرات وفي ثانيتهما خمس تكبيرات .

وطبيعى أن تقضى هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام ، ولا نقصد سجع الكُهَّان الذى كان يرتبط بدينهم الوثنى فحسب ، بل نقصد أيضاً خطابة المنافرات ، فقد نهى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأنساب والأحساب ، وإن ظلت لذلك بقية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حين كانت تُنفد عليه وفود العرب ، على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عطار بن حاجب بن زُرارة بين يديه مفأخراً بقومه ،

(١) انظر في صلاة الجمع والعيدين كتب

(٢) عيون الأخبار ٢/٢٣١ .

(٣) انظر العقد الفريد ٣/٢٢٢ .

الحديث مثل صحيح البخارى ومسلم .

وقد نَدَّب له الرسول ثابت بن قيس بن الشماس، فرد عليه مستوحياً هدى الإسلام، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله^(١).

ونمضى في عصر الخلفاء الراشدين، فتكثر بجانب خطب الجمع والأعياد المواقف التي تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء، كموقف أبي بكر حين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السقيفة، فقد درأ في الموقفين جميعاً الشَّعَثَ الذي كاد يودي بالجماعة، وكذلك موقفه حين ارتدَّ كثير من العرب وامتنعوا عن أداء الزكاة. وكم من خطيب وقف حينذاك يحضُّ قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة. ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام في الجزيرة أعدَّ منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد، إذ كانت كما قدَّ منا فرضاً مكتوباً على المسلمين في كل مكان يحلونه من الجزيرة.

ثم تكون الفتوح، ويخطب أبو بكر في الجيوش الغازية يحضُّ على الجهاد ونشر الدين الحنيف في أطباق الأرض. وترتفع أصوات القواد بالخطابة في كل قطر حاثين الجنود على الصبر في القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب. ويخيل إلى الإنسان كأنما ملك كل منهم من قلوب جنوده بيانه وبلاغته مالا تملكه الدنيا بخذاً غيرها. ولا نغلو إذا قلنا إن بلداً من بلدان الفرس في العراق وإيران وبلدان الروم في الشام ومصر لم يفتَحْ إلا بعد أن فتحت خطبة أحد هؤلاء القواد، كخطبة المغيرة بن شُعْبَةَ في القادسية^(٢) وخالد بن الوليد في اليرموك^(٣)، وعتبة بن غزوان في فتح الأبلَّة، ونحن نكتفي بقطعة من خطبة عتبة إذ يقول^(٤):

«أما بعد فإن الدنيا قد تولَّتْ حذاءً^(٥) مدبرة، وقد آذنتُ أهلها بصُرمٍ، وإنما بقي منها صُبابَةٌ كصِبابَةِ الإناءِ يصطبُّها^(٦) صاحبها، ألا وإنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم».

ويتولى عمر، فيكثر من الخطابة لا في الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث، ومع كل خبر يأتيه بفتح. وقد سار على هدى أبي بكر

(١) تاريخ الطبري ٣٧٨/٢.

(٤) البيان والتبيين ٥٧/٢.

(٢) الطبري ٣٧/٣.

(٥) حذاء: سريعة الإدبار.

(٣) الطبري ٥٩٢/٢.

(٦) يصطبها: يشر بها. والصِبابَةُ: بقية الماء.

في استشارة أصحابه في كل مهم ، وكل ما يجد من تشريع ، وخاصة في معاملة الأمم المفتوحة . وكان هذا بدوره عاملا من عوامل نمو الخطابة في العصر ، إذ كان الحكم ديمقراطياً ، وكان من حق كل شخص أن يخطب مصوراً وجهة نظره ، وفَسَّحَ عمر لخطابة الوفود في مجالسه ، تَسْتَمِيع لأقوامها وتذكر حاجتها ، واشتهر الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد قواد الفتوح بغير خطبة ألقاها بين يديه^(١).

ولم تقف الخطابة الدينية في هذا العصر عند الجزيرة ، فقد أخذت تحلّ مع المسلمين في كل بلد فتحوها ، وكان هذا بدون شك عاملا من عوامل نموها ، إذ تكاثرت من يردّونها ومن يحسنون حوكمها وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعظون الناس به من مواعظ حسنة ، على نحو ما أثر عن عبد الله بن مسعود في إحدى مواعظه ، وفيها يقول لأهل الكوفة^(٢):

«أصدق الحديث كتابُ الله ، وأوثق العُرَى كلمة التقوى ، وخير المثل ملّة إبراهيم ، وأحسن السُّنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وشرُّ الأمور مُحدثاتُها ، وخير الأمور عزائمُها ، ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهمي . . . خير الغنى غنى النفس . الخمر جُمَاع الآثام . . . أعظم الخطايا اللسان الكذوب . سبب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمة معصية . . . مكتوب في ديوان المحسنين من عَمَل عُفَى عنه . السعيد من وعظ بغيره . . . أحسن الهدى هدى الأنبياء » .

وفي هذين الاتجاهين الكبيرين من المواعظ والخص على الجهاد مضت الخطابة طوال عصر عمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان ، حتى إذا أشعل الثوار عليه في الكوفة ومصر نار الفتنة أخذت الخطابة فيها مكانها ، إذ وقف أمثال الاشتر النخعي في الكوفة ومحمد بن أبي بكر في مصر يؤلبون الناس عليه . وتتوالى الحوادث ، ويُقتل عثمان ، ويتولّى على بن أبي طالب مقاليد الخلافة ، وتجتمع السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ويقررون الخروج عليه . ويقصدون البصرة ، ويستجيب أهلها لهم . فيضطّرون على أن يتبعهم ، وينزل الكوفة ، وتكون موقعة الجمل

(١) انظر البيان والتبيين ١٤٤/٢ .

(٢) البيان والتبيين ٥٦/٢ .

المشهورة ، وفيها ينتصر على^١ ، وتم لهبيعة أهل العراق .

وقبيل هذه الموقعة وفي أثنائها تكثر الخطب بين أنصار على وخصومه ، فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته ، وفي تاريخ الطبرى من هذه الخطب كثرة وافرة ، ومن يذكرهم بين من ثبّطوا الناس عنه أبو موسى الأشعرى^(١) ، أما من استنفروا الناس له فكثيرون ، وعلى رأسهم الأشعث ابن قيس والأشتر النخعى وزيد بن صوحان وأخوه سيّحان .

وانتدب على^٢ أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام ، فخرجوا معه إلى صِفِّين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده ، وفي هذه الأثناء تتكاثر الخطب كثرة مفرطة وخاصة في صفوف على وأصحابه ، وكان هو نفسه خطيباً مفوّهاً . وكان يجيشه غير خطيب من أمثال من ذكرناهم آنفاً وأمثال عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة وعدى بن حاتم الطائى وعمرو بن الحمق وشبث بن ربعي^٣ . وقبل اندلاع الحرب كان يتبادل على ومعاوية الوفود ، وكان يخطب غير واحد بين أيديهما ، وعيثا تحاول الوفود لمّ الشعث ، ويُقَضِّى الأمر ، وتنشب الحرب ويخطب معاوية محرّضاً أصحابه . ومن رءوس خطبائه حينئذ عمرو بن العاص .

وتستعر المعركة وترجح كفة على وجيشه رنجحاناً واضحاً ، فياجأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة ، إذ يرفعون المصاحف على أسنّة رماحهم ، مطالبين بالاحتكام إلى كتاب الله على يد محكمين يستهدون بآيه . ويُخَمِّد القُرَّاء في جيش على^٤ سيوفهم ، ويتبعهم الناس ، ويمنعهم على ، فيهدونه بأن يُصْبِحَ مصيره مصير عثمان ، وينزل على إرادتهم ، ويُخَمِّتار أبو موسى الأشعرى عن أهل العراق وعمرو بن العاص عن أهل الشام . وفي أثناء رجوع على بجيوشه إلى الكوفة ، يتبين كثير من جنده أنهم قد خدعوا ، ويتلوّمون عليه لأنّه قبل التحكيم ، ويعظم الخلاف والشجار بين أصحابه ، ويخطب فيهم . ويتكاثر الخطباء بين محبّذ التحكيم ومنفّر منه ، ويخرج عليه فريق كبير من جيشه وينزلون معسكراً خاصاً بهم في حرّ وزاء بالقرب من الكوفة ، فيسمون لذلك بالحرورية ، أما الاسم الشامل الذى جمعهم فهو الخوارج .

ويحاول على^١ وعبد الله بن العباس أن يردَّ أهم إلى سواء السبيل ، فتقوم بينهما وبينهم مناظرات في مسألة التحكيم يكون عمادها الجدل المستمد من نصوص القرآن والحديث ، وبذلك يَعْرِف هذا العصر المناظرة الشفوية ، بل إنها لتتفجر تفجراً . ونحن نورد طرفاً من مناظرة ابن عباس لهم مما احتفظ به الطبري ، وهو يجري على هذه الصورة^(١) :

« راجعهم ابن عباس ، فقال : ما نَقَمْتُم من الحكمين ، وقد قال الله عزَّ وجل : (إن يريدوا إصلاً يوفق الله بينهما)^(٢) فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ . فقالت الخوارج : قلنا أمّا ما جعل حُكْمَهُم إلى الناس وأمرَ بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به ، وما حَكَمَ فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حَكَمَ في الزاني بمائة جلدة وفي السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا . قال ابن عباس : فإن الله عز وجل يقول : (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)^(٣) . فقالوا له : أو تجعل الحكم في الصيد والحديث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين؟! . وقالت الخوارج : قلنا له : فهذه الآية بيننا وبينك ، أعدّلْ عندك ابنُ العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلاً فلسنا بعدول ونحن أهل حُرِّيه ، وقد حَكَمْتُم في أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عزَّ وجلَّ حُكْمَهُم في معاوية وحزبه أن يُقَتَّلُوا أو يرجعوا^(٤) . وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عزَّ وجل فأبوه . ثم كتبتم بينهم وبينه كتاباً ، وجعلتم بينهم وبينه المودعة والاستفاضة^(٥) . وقد قطع عزَّ وجلَّ الاستفاضة والمودعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة الإلّامن أقرَّ بالجزية . ولما لم يسمع الخوارج ولم يطيعوا اضطُرَّ على^١ إلى حربهم ، وفتك بهم فتكاً ذريعاً في موقعة النهروان . وكانوا يظهر ون استبسالا شديداً ، يدفعهم إلى ذلك

(١) الطبري ٤٧/٤ .

(٢) الآية في الصلح بين الزوجين وتماها : (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما) .
(٣) الآية في حكم قاتل الصيد وهو محرم ، وتماها : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء ما

قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم) .
(٤) يشير الخوارج إلى قوله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بنت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تفسى حتى تنفي إلى أمر الله فإن قامت فأصلحوا بينهما بالعدل) .
(٥) الاستفاضة : المودعة .

خطبائهم من أمثال قائدهم عبد الله بن وهب الراسبي . وحسرة قوص بن زهير السعدي والمستورد بن علقمة ، ومن يرجع إلى خطبهم يجدها تتقد حماساً وحمية من مثل قول ابن وهب في بعض خطبه (١) :

« أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويسئبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا - التي الرضا بها والركون إليها والإيثار لإياها عناء وتباً (٢) - أثرٌ عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق وإن من (٣) وضراً ، فإنه من يُمنّ ويُضّر في هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله عز وجل والخلود في جناته » .

وينتهي التحكيم بمهزلة خلع على ، وتمتد يد آثمة من أيدي الخوارج إليه في الظلام ، فتطعنه طعنة نجللاء ، ويُسلم الحسن ابنه الأمر راضياً إلى معاوية ، ويبايعه المسلمون كافة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح من كل ما قدمنا كيف نمت الخطابة في هذا العصر نمواً واسعاً ، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية . وليس هذا كل ما يلاحظ فيها ، فقد دارت حول معاني القرآن الكريم وخطابة الرسول وأحاديثه ، وهي معان جديدة لم يكن للعربية بها عهد ، معاني هذا الدين الخفيف الذي بعث لغتنا ونشرها بعثاً جديداً ، والذي مرتها وذللها لكي تؤدي الرسالة النبوية وكل ما تحمل من مواعظ وتعاليم . وقد أخذ كل خطيب يحمل قبساً من هذه التعاليم والمواعظ يستضيء به في كل ما يخاطب به الناس ابتغاء التأثير عليهم وبلوغ ما يريد من أداء الخطبة الدينية الخالصة في أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج وأختها التي تدعو إلى الجهاد والحض على قتال الأعداء . ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سنة في كل خطبة : حتى الخطبة السياسية ، وكانوا يُسمّون كل خطبة تخلو منه بشراء ، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس آي القرآن الكريم والصلاة على الرسول شوهاء (٤) .

(٣) من : قطع ومجر .

(٤) البيان والتبيين ٦/٢ .

(١) الطبري ٤/٥٤ .

(٢) تبار : هلاك .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الخطباء كانوا يزورون كلامهم ويعدونه على أنفسهم إعداداً طويلاً ، ثم يُلْقُونَهُ على الناس ، حتى لقد رُوِيَ ذلك عن عمر بن الخطاب ^(١) . وكان الخطيب يستشهد أحياناً ببعض الأمثال ، أو ببعض أبيات من الشعر تؤكد المعنى الذى يريد أن يصبّه في نفوس سامعيه صَبّاً ، على نحو ما نجد في خطبة لأبي بكر في الأنصار ^(٢) .

وإذا كنا قد لاحظنا في الجزء الأول من هذا التأريخ للأدب العربى غلبة السجع على خطباء الجاهلية فإننا نلاحظ في هذا العصر أنه كاد ينحسر تماماً عن الخطابة ، إلا بقايا ظلت في خطابة الوفود حين كانت تَقْدُمُ على الخلفاء ، يقول الجاحظ : « كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة » ^(٣) ، وبقية أخرى استظهرها بعض المتنبيّة في حروب الردة مثل مسيلمة الكذاب متنبئ النجاسة ، ويقول الجاحظ إنه « عمدًا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه » ^(٤) . ومما يروى له - إن صحَّ - قوله ^(٥) :

« سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير إذا طمع ، ولا زال أمره في كل ما سَرَ نفسه يجتمع ، رأيكم ربكم فحيّاكم ، ومن وحشة خيلاكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لو بكم الكُبار ، رب الغيوم والأمطار » .

ونستطيع أن نقول إن السجع في خطابة هذا العصر كان شيئاً عارضاً ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسجع في خطابه ، وكان يستنفر منه حين يلهج به أحد محدثيه ^(٦) ، كراعية لتشبه بالكهّان في سجعهم ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلّة الصحابة ، يدلّ على ذلك ما يروى من أن عمر بن الخطاب سأل صحاباً العبّدى حين قدم عليه من غزو مَكْران الفارسية عن شأنها وشأن العرب هناك ، فأجابه : « أرضٌ سهْلُها جبيل ، وماؤها وشل ^(٧) »

- | | |
|---|---------------------------------------|
| (١) الطبرى ٤٥٦/٢ وقارن بكلمة لعثمان | (٤) الحيوان ٨٩/٤ . |
| ابن عفان في البيان والتبيين ٣٤٥/١ وعيون | (٥) الطبرى ٤٩٨/٢ . |
| الأخبار ٢٣٥/٢ . | (٦) صحيح مسلم (طبع الآستانة) ١١١/٥ |
| (٢) زهر الآداب ٣٢/١ | وموطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ١٩٢/٢ . |
| .. (٣) البيان والتبيين ٢٩٠/١ . | (٧) وشل : قليل . |

وتمرها دَقَل^(١)، وعدوها بطل، وخيرها قليل وشرها طويل، والكثير بها قليل .
 إن كثر الجند بها جاعوا، وإن قَلَّتْ بها ضاعوا . وقد أنكر عمر عليه هذا السجع
 فقال له : أسجَّاع أنت أم مخبر^(٢) . وكان الخلفاء بعد عمر يُنْكَرُونَ السجع
 على محدِّثهم . وأمامنا خطب القوم ، وهى تخلو وخلو تاماً من السجع إلا ما جاء
 عصواً في الحين البعيد بعد الحين . ولكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع فإنهم لم
 يهملوا جزالة اللفظ ورصانته ، بل لقد كان همّ كل خطيب أن يحسن قوله
 وأن يصوغه صياغة رائعة .

وأخرى تلاحظُ على الخطابة في هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية ،
 فإن الخطابة الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد ، ومن ثم كانت تأخذ شكل
 أقوال متناثرة لا رابط بينها ، أما في هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع
 واضح يحول فيه الخطيب ويصول ، إذ يحدث الناس واعظاً ، أو يعرض
 عليهم حدثاً محدداً من أحداث الإسلام ، بحيث نستطيع أن نقول إن الخطبة
 أصبحت ذات موضوع ، تلمُّ بأطرافه وتفصيله . وبذلك كله نهضت الخطابة
 ونهض معها النثر نهضة واسعة ، فقد أخذ الخطباء يوسِّعون طاقته بما يحملونه من
 معاني الإسلام وما يبسطون في هذه المعاني ويولِّدون ويفرِّعون . ونحن نقف
 قليلاً عند خطابة الرسول وخطابة خلفائه الراشدين لتتضح صور التطور التي
 وسَّعت جنبات النثر وزادت في معانيه ومادته بأداة البيان الكاملة وأسباب
 البلاغة الوافرة .

٢

خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم

على هدى القرآن الكريم كان محمد صلوات الله عليه يخطب في العرب
 ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية ، وقد أوتي من اللسانِ

والبيان والتبيين ١ / ٢٨٥ .

(١) دقل : ردى .

(٢) انظر في هذا الخبر الطبري ٢ / ٢٥٧

والفصاحة ما مَلَكَ به أزمّة القلوب ، وكأنا ما كانت المعاني والأساليب موقوفة بشخصها بين يديه ، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتُصنّغى له الأفتدة . وقد ظل طوال مكثه بمكة يتلو على قريش ومن يلقاه في الأسواق كتاب الله حيناً ، وحيناً آخر كان يخطب في نفس معاني القرآن المكية متحدثاً عن رسالته ، وداعياً إلى وحدانية الله مبيناً أنه يهيمن على الناس في أعمالهم وأنه سيبعثهم يوم القيامة ، ليجزى بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، حتى إذا انتقل إلى المدينة فُرضت الخطابة — كما قدمنا — في صلاة الجمعة والأعياد ثم في مواسم الحج . وكان ما يزال يخطب في الأحداث التي تُلِّم . وفي أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات^(١) غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيم إلا بأطراف قليلة ، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خطبته وعصر التدوين فضاعت أو سقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة .

وأكثر هذه البقايا مما خُطب به عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة ، وهو فيها يتطابق مع آي القرآن التي كانت تنزل عليه ، إذ نراه تارة واعظاً ، وتارة مشرعاً ، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع في نسيج بلاغي رائع . ونحن نسوق أول خطبة خطبها بالمدينة حين صلى بالناس في دخوله إليها صلاة الجمعة ، وهي تمضي على هذه الشاكلة^(٢) :

« الحمد لله أحمدده وأستعينه وأستغفره وأشهد به وأؤمن به ولا أكفره وأعادي من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلّة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً . وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً . وإن تقوى الله ، لمن عمل به على وجل وخافة من ربه ، عَوْنٌ صِدْقٌ على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذي بينه وبين الله من

(٢) الطبري ١١٥/٢ .

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٦٣ .

أمره في السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدّم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً . ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد . والذي صدق قوله ، وأنجز وعده لا خائف لذلك ، فإنه يقول عز وجل : (ما يُبَدِّل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد) . فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله ، في السر والعلانية (ومن يتق الله يكفر الله عنه سيئاته ويُعظم له أجراً) . ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً . وإن تقوى الله يوقى مقتته ويوقى عقوبته ويوقى سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرطوا في جنب الله . قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم)^(١) وسماكم المسلمين (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) ولا قوة إلا بالله . فأكثرُوا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم . فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفّه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم .

والخطبة موعظة رائعة ، يستلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله وأنه أتم نعمته على الناس بإرساله إليهم كى يخرجهم مما هم فيه من غواية وضلالة ويدخلوا في رعايته الإلهية ، فلا يعملوا عملاً بدونه . ليتركوا إذن الوراثة الضالة والوسط المشقى على الهلاك ويجمعوا على هدى الله وتقواه ، وليستشعروه في السر والعلانية فإنه يعلم خائنة الأعين وما يستكن في الصدور ، وليقدّموا من خشيته وطاعته ما يكفرون به عن سيئاتهم وتبيض به وجوههم يوم الحساب حتى يدخلوا في جنّاته . إنه يوم ما بعده مستعب ، فإذا الجنة وشفيعها العمل الصالح ، وإما النار وبئس القرار . ويدفعهم دفعاً إلى الجهاد في سبيل الله ونشر دعوة الحق والخير ، فقد اجتباهم واختارهم ليضبطلعوا بأمانة الرسالة المحمدية ، لينشروها في أطراف الأرض . والرسول في كل ذلك يستوحى القرآن وآياته ، وهي تقف

(١) اجتباكم : اختاركم .

منارات في موعظته ، يستمد من إشعاعاتها ما يضيء به كلامه . بل إن وراء هذه المنارات منارات أخرى من هدى القرآن ، بحيث نستطيع أن نرد كل موعظته إلى ينابيع الضوء التي تفجرت منها ، إذ كانت تسيل في نفسه ، بل كانت تشع بمعاني نورها ، كما يشع نور الشمس في السماء . وكان أحياناً ينتقل في سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلى تشريعات يتم بها قيام هذا المجتمع الإسلامي ويسود على كل ما حوله ، تشريعات قوامها مصلحة الجماعة وأن يعيش المسلم متعاوناً متضامناً في سبيل الخير ، وهو خير تطبّع عليه الجنة بنعيمها الخالد ، خير يكفل سعادة البشرية ، ومن أروع ما يصور ذلك خطبته عليه السلام في حجة الوداع ، وهي تجرى على هذا النمط (١) :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهتد الله فلا مضلّ له . ومن يضلّ فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم — عباد الله — بتقوى الله ، وأحسّكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير . أما بعد أيها الناس ! اسمعوا مني أبيعن لكم ، فلاني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كتحترمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع (٢) ، وإن أول رباً أبدأه ربا عمى العباس ابن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السّدانة (٣) والسّقاية (٤) . والعَمْدُ قَوْدٌ (٥) ، وشبهه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ! إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون

(١) البيان والتبيين ٣١/٢ وانظر السيرة
النبيه لابن هشام (طبعة الحلبي) ٢٥٠/٤
والعقد الفريد ٥٧/٤ .
(٢) موضوع : ساقط ومحرم .
(٣) السّدانة : خدمة الكعبة .
(٤) السّقاية : سقاية الحجاج .
(٥) العمد : القتل المتعمد . القود : قتل
القاتل بمن قتل .

من أعمالكم . أيها الناس ! (إنما النسيء ^(١) زيادة في الكفر يُضِلُّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم) : ثلاثة متواليات وواحد فَرْدٌ . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن أن لا يُوطئنَ فرشكم غيركم ، ولا يَدْخُلنَ أحدٌ تَكَرُّهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تَعْضُلوهن ^(٢) . وهجرتهن في المضاجع وتضر بهن ضرباً غير مبرح ^(٣) . فإن اتهمن وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عَوَانٌ ^(٤) ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة . ولا يحل لامرئٍ مسلمٍ مالٌ أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعنَّ بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرهكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير . ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب . أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحجر ^(٥) ، من ادعى إلى غير أبيه أو تولَّى غير مَوالِيه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ،

(١) النسيء : شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً ، ويحلونه عاماً آخر إن أرادوا الإغارة ،

(٢) تعضلوهن : تضيقوا عليهن .

(٣) الضرب غير المبرح : الضرب الخفيف .

(٤) عوان : أى هن عندكم بمنزلة الأسيرات .

(٥) للفراش : أى لصاحبه ، وللعاهر الحجر : أى أن هذا مقضى به رغم أنها أو اهله يشير إلى رجمها .

لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ^(١) وَلَا عَدْلٌ^(٢). والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته». وواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكذب بِلَيْمٍ بالحمد لله والشهادة والوصية بالتقوى حتى انتقل يبين طائفة من التشريعات الإسلامية التي أقامها الدين الحنيف حدوداً بين حياة العرب في الجاهلية وحياتهم في الإسلام ، فقد كانوا مفكرين متنافرين يتحاربون دائماً طلباً للأخذ بالثأر ونهباً للأموال . وجمعهم الإسلام تحت لوائه في جماعة كبرى متآخية متناصرة لا يَبْغِي بعضها على بعض . ولكي يقضى على كل سبب للحرب بينهم رَدَّ دَمَ القَتِيلِ إلى الدولة فهي التي تعاقب عليه ، ولكي يستأصل هذا الداء دعا إلى التنازل عن حق الأخذ بالثأر القديم ، وحرَّم النهب والسلب تحريماً قاطعاً مشدداً فيه العقوبة .

والرسول يفتتح في الخطبة أوامر الإسلام ونواهيه بإعلان أن دماء المسلمين وأموالهم حرام ، وأن على كل من كانت عنده أمانة أن يردَّها على صاحبها ، وأن على كل مسلم أن يرعى أخاه في ماله ، فلا يأخذ منه شيئاً إلا بالحق ، ومن ثم حرَّم الرِّبَا ، وبدأ بعشيرته وتاجرها الموسر العباس بن عبد المطلب فأسقط عن رقاب المدنيين له رِباء . وعلى نحو ما أسقط الربا أسقط دماء الجاهلية ، فليس لمسلم أن يثار لقتيل له ، وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . ولم يُبق من ما ثرا الجاهلية شيئاً سوى خدمة الكعبة وسقاية الحجيج ، وأوجب في قتل العمد القَتُودَ ، ولكن الدولة هي التي تقوم به ، وبذلك قضى الإسلام على حروبهم الداخلية . وقد جعل في القتل شبه العمد مائة بعير . كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود بين أفرادها السلام والوثام .

ويحذّر الرسول من الشيطان وغواياته ، محرمّاً للتلاعب بالأشهر الحرم ، واضعاً تقويماً قمرياً يتألف من اثني عشر شهراً ، منها أربعة حُرُمٌ : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . ويرفع من شأن المرأة ومعاني علاقاتها بزوجها ، فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات ، وفي الطرفين جميعاً يحفظ لها كرامتها كما يحفظ لزوجها نفس الكرامة . داعياً إلى التعاطف بينهما والتراحم والتعامل برفق وإحسان .

(١) صرف : توبة .

(٢) العدل : الفدية .

ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة ، فيقرر أن المؤمنين إخوة ، لكل منهم على صاحبه ما للأخ على أخيه من التآزر والتعاون والتحاب ، فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ، ولا حرب ولا سفك للدماء . وإنه لعهدٌ مِّنْ نَّفْسِهِ عاد كافراً آثماً قلبه . لقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تنابذ وتفاخر . فالناس جميعاً لآدم ، ولا عربى عندنا ولا عربى قمحطانى ، بل لا عربى ولا أعجمى ، فقد وُضعت موازين جديدة لحياة العرب ، فلم يعد التفاضل بالنسب والحسب ، إنما أصبح بالتقوى فهى معيار التفاضل . ويلفت الرسول سامعيه إلى ما قرره القرآن فى الميراث وأنصبت له : وأن للمورث أن يوصى بالثلث من ماله . ويُرسي قاعدة مهمة فى شرعية الأبناء ، وخاصة هؤلاء الذين تلدهم العواهر : فينسبهم إلى أصحاب الفراش ، وكانوا ينسبونهم إلى غير آبائهم ، وقد لا ينسبونهم أبداً ، فحرّم ذلك تحريماً باتاً . وبذلك قضى على نبالة النسب من جهة الخثولة قضاء مبرماً .

وعلى هذا النحو كان الرسول صلوات الله عليه يبيّن فى خطابه حدود الحياة الإسلامية وما ينبغى أن يأخذ به المسلم نفسه فى علاقاته الكبرى مع أفراد أمته وعلاقاته الصغرى مع أسرته . فإن ترك ذلك فإلى وعظ المسلمين وما ينبغى أن يأخذوا أنفسهم به ، فى سلوكهم حتى تزكو نفوسهم ، وفى عبادتهم لربهم وتقواه حتى التقوى حتى لا يزيغوا ولا ينحرفوا عن المحجة ، بل يتدرجوا فى مراقى الكمال الإنسانى .

وهذه الخطبة وسابقتها تصوران فى دقة حسن منطق الرسول فى خطابه ، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب ، فقد كان يكره اللونين جميعاً من الكلام لما يدلّان عليه من التكلف ، وقد برّاه الله منه إذ يقول فى كتابه العزيز : قل يا محمد : (وما أنا من المتكلفين) . والذى لا شك فيه أنه كان يبلغ بعفوه وقوّى فطرته ما تنقطع دونه رقاب البلغاء ، وقد وصف الجاحظ بلاغته فى خطابه أدق وصف ، فقال إنه : « جانب أصحاب التقيع (١) ، واستعمل المبسوط فى موضع البسّط والمقصور فى موضع القصّر ، وهجر الغريب الوحشى ،

(١) التقيع : التعمير وهو التكلم بأقصى

ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشُيِّد بالتأييد ، ويُستَر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدام ، ولا بارت له حجة ، ولم يَقْصُ له خصم ، ولا أفحبه خطيب ، بل يبذل الخطب الطوال بالكلم القصار ، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفساج^(١) إلا بالحق ، ولا يستعين بالخيالة . . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لنظماً ولا أعدل وزناً . ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين فى فَحْوَى^(٢) ، من كلامه صلى الله عليه وسلم^(٣) . ونضيف إلى الجاحظ أنه عليه السلام هو الذى فتق معانى هذه الخطابة الدينية التى لم يعرفها العرب قبله ، فهو الذى رَسَمها ، وفجَّرَ يَنابيعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأما احتشد الكلم بأزمته إليه ، ليختار منه أفصح وأسلسه وأبينه فى الدلالة ، يسعفه فى ذلك ذوق مرهف وحسٌ دقيق تبيينهما فيما رُوِيَ عنه من قوله : « لا يقولنَّ أحدكم خَبِثَتْ نفسى ولكن ليقل : لَقِيسَتْ نفسى »^(٤) كراهية أن يضيف المسلم الظاهر إلى نفسه الخبث ، مما يدل على أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار البرىء من كل ما يُسْتَكْرَه ، اللفظ الذى يجبِّب إلى النفوس لحلاوته وعذوبته وصفاته ونقائه .

٣

خطابة الخلفاء الراشدين

كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فى الذروة من الفصاحة والبلاغة ، إذ سَرَى فى نفوسهم بيان القرآن بترغيبه وترهيبه وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته ، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم .

(١) الفلج : الفوز .

(٢) فحوى : دلالة .

(٣) البيان والتبيين ١٧/٢ .

(٤) الحيوان ٣٣٥/١ ولقيست النفس : غشت .

وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وكان أحب رفيق إلى الرسول والصق أصحابه به ، وقد نوه القرآن بذكره . فقال جل شأنه : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) ، وفيه نزلت آيات أخرى . وهو خير من يمثل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن الكريم ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه ، فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل ، بما استشعر من معاني الإسلام وقيمه الروحية . وقد أثرت عنه خطب كثيرة . تدل دلالة واضحة على شدة شكيمة في الدين ويقظته وصدق حسه ، وأنه حقاً كان أجدر أصحاب رسول الله بخلافته . فمن ذلك أنه — لما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى واضطرب الناس وماجوا ، وقالوا وقال معهم عمر بن الخطاب : إن الرسول لم يمُت — أقبل فكشف عن وجهه ، فقبله ، وقال : بأبي أنت وأمي طيبتَ حياً وطُبتَ ميتاً . وخرج من عنده فيدّر الصحابة بخطبته المشهورة^(١) التي قال فيها : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت » ثم أخذ في بيان غلط من كذبوا موته محتجاً عليهم بمثل قوله تعالى : (إنك ميتٌ وإنا هم ميتون) ، وتلا : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم) ، ثم تلا : (كل نفس ذائقة الموت) ، ثم تلا : (كل شيء هالك إلا وجهه) . فتاب من كذبوا موته رضوان الله عليه إلى رشدكم . ولم يلبث أن عرف أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عُبادة في سقيفة^(٢) بني ساعدة ، يقولون : منا أمير ومن قريش أمير ، فراع ذلك وخشى على الأمة من الفرقة والطمع في الملك ، فبادر إليهم قبل أن يستفحل الشر . وتبعه عمر وأبو عبيدة في نفر من المهاجرين . وهناك خطب في الأنصار ، فأقنعهم أن يجتمعوا على رجل من قريش ، وتمت البيعة له ، فخطب في الناس بعد أن حمّد الله وأثنى عليه وقال^(٣) :

« أيها الناس ! إني قد وليتُ عليكم وليست بخيركم ، فإن رأيتموني على حقٍّ فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسدّ دوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ

(١) الطبري ٢/٤٤٤ وزهر الآداب ١/٣٠ . (٣) عرون الأخبار ٢/٢٣٤ والطبري ٢/٤٥٠ .

(٢) الطبري ٢/٤٤٥ وما بعدها .

الحق له ، وأضعفكم عند القوى حتى آخذ الحق منه ، أقول قول هذا وأستغفر الله لي ولكم » .

وأخذت تتجلى مواقفه العظيمة وآثره الكريم . فإنه أمر أن يخرج بسعث أسامة إلى وجهته من حرب الروم كما أمر الرسول . وكان كثير من العرب قد منعوا الزكاة ، ومشى إليه كثير من المهاجرين والأنصار ، يقولون له لا قبيل لنا بحرب العرب ، فاقبل الصلاة منهم واترك الزكاة . فقال قوله المأثور : « لو منعوني عقلاً^(١) مما أعطوه النبي لجاهدتهم عليه . » وجاهدهم بجيوشه ، حتى عادوا إلى الإسلام بعد ردّهم . وإذا أخذنا نقرأ في خطبه وجدنا جمهورها وعظماً يستمد مادته من القرآن وكلام الرسول ، على شاكاة قوله في خطبة له^(٢) :

« إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أُريد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرتم به ، وضرائب أدّيتوها ، وسلف قدمتموه . من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ . أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً^(٣) . . . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره . واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما إنه لا خيرَ بخير بعده النار ، ولا شرَ بشرٍّ بعده الجنة » .

واستنّ بجانب مثل هذه الموعظة سنة الوصية للجيوش الفاتحة ، وهو في وصاياه يتصنر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية في معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم ، إذ يطلب إليهم أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يمثلوا بقتيل ولا يقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلوا مالا، إلا

(٣) الركز : الصوت الخفى .

(١) العقال هنا : كناية عن البعير .

(٢) الطبرى ٢ / ٤٦٠ .

للمأكلة ولا يتعرضوا لرهبان النصارى ، وتصوّر ذلك كله وصيته لجيش أسامة بن زيد حين سيره إلى مشارف الشام ، وفيها يقول ^(١) :

« أيها الناس! قِفُوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تَغْلُوا ^(٢) ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تنقروا ^(٣) ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للمأكلة . وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . »

وواضح مما تمثّلنا به من خطابة أبى بكر أنه لم يكن يلهج بسجع ، إنما كان يلهج بكلم فصيح جزل واضح الدلالة عما في نفسه . وكان يتخير لفظه ، وربما كان من الأدلة على ذلك ما يروى من أنه عرض لرجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا ، عافاك الله . فتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ إذ قد يُظنّ أن النفي مسلط على الدعاء ، فقال له : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله ^(٤) .

وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختياره عمر خليفة من بعده ، وكان على شاكلته نفاذ بصيرة وصدق عزم وبلاغة لسان ، كما كان صفي رسول الله . وقد أعزّ الله به الإسلام في مكة حين أعلن ولاءه لرسوله ، وما زال منقطعاً إليه والرسول يقرّ به منه ويتخذ موضع مشورته ، حتى توفى وخلفه أبو بكر ، فكان له نعم الظهير والمعين . ولما أُسندت إليه مقاليد الخلافة نهض بها في رجاحة عقل ، حتى إن أحداً لم يردّ عليه رأياً واحداً ولا عملاً واحداً ، وما زال يوطئ الأمر بسعة حلم وشدة عزم ، مجتهداً للأجناد ، حتى فتحت فارس وتسمّ فتح الشام وفتحت مصر ، وهو على ذلك كله نعم الكالىء والحافظ لرعيته . وكان بيانه في مقدار عقله قوة وسداداً ، إذ كان في مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة ، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضّاد من أى شدّقيه شاء ^(٥) ، فما هو إلا

(٤) البيان والتبيين ١/ ٢٦١ .

(٥) البيان والتبيين ١/ ٦٢ .

(١) الطبرى ٢/ ٤٦٣ .

(٢) تغلوا : تخونوا في النوى .

(٣) تقمروا : تستأصلوا وتقطعوا .

أن يقف بين الناس واعظاً أو يقوم في الجنود ناصحاً حتى يتهنئ بكلامه، وحتى تنصاع له القلوب انصياعاً ، ونحن نكتفي بقوله في إحدى مواعظه (١) :

« إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه فخلّفكم تبارك وتعالى ، ولم تكونوا شيئاً ، لنفسه وعبادته... وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وحملكم في البر والبحر ، وزرّقكم من الطيبات لعلكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً وبصراً . ومن نعم الله عليكم نِعَمٌ عَمَّ بها بنى آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصّها وعوامّها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قُسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعهم شكرها ، وفدحهم حقّها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مُسْتَخْلَفُونَ في الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم . . . والله المحمودُ مع الفتوح العظام في كل بلد . . . فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارة إلى مرضاته » .

وسار سيرة أبي بكر في تشييع الجيوش بالخطابة محرّضاً على الجهاد ، حتى ينتشر الدين الخفيف في أقطار الأرض ، وهو لن ينتشر إلا بالقوة التي تُعزِّز الحق وتُعَلِّي سلطانه . إنها معركة الإسلام ، معركة النفوس المؤمنة التي وعدّها الله أن ترث الأرض ومن عليها . وما زال عمر يُبهرز هذه المعاني محاولاً أن يرتفع العرب في جهادهم عن ضعف المخلوق ، ويصبحوا قوة من قوات الخالق ، يقول في بعض هذه الخطب (٢) :

« أين الطُّرَّاء (٣) المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) والله مظهر دينه ، ومعزُّ ناصره ، ومُؤَلِّي أهله موارِيث الأُمم ، أين عباد الله الصالحون ؟ » . ولما اجتمع الجيش أمر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد ، وهو أبو عبيد بن مسعود ، وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم

(٣) الطراء : الذين خرجوا عن ديارهم .

(١) الطبري ٢٨٣/٣ .

(٢) الطبري ٦٣١/٢ .

في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يُصلحها إلا الرجل المكيث^(١) الذي يعرف الفرصة والكف^(٢) .

وتوفى عمر ، فخلفه عثمان ، وكان يهبط درجة عنه وعن أبي بكر في الفصاحة والبيان . ويروى أنه أُرْتِج عليه يوماً وقد أراد الخطابة في الناس فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يُعَدَّان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب » . وليس معنى ذلك أنه كان يُرْتِجُ عليه دائماً ، فقد كان يخطب أحياناً ، فيملأ النفس بمواعظه ، على شاكلة قوله حين بايعه أهل الشورى والناس^(٣) :

« إنكم في دار قُلُوعَةٍ^(٣) وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أُتِيتُمْ ، صُبِّحْتُمْ أو مُسِّيتُمْ . ألا وإن الدنيا طُوبِيت على الغرور ، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ثم جدّوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغْفَلُ عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعسروها ومتّعوا بها طويلاً ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رعى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً ، فقال عز وجل : (واضرب لهم مثلاً الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلف به نبات الأرض ، فأصبح هَشِيماً تَذَرُوهُ الرياح وكان الله على كل شيء مُقْتَدِراً ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً) » .

وامتنحن في آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه ، بل ظل صابراً يتلو القرآن ويدعو الناس إلى أن لا يُحَدِّثُوا فَتَنَ هذه الفرقة ، وهو في أثناء ذلك يعظهم أن لا تُبْطِطَهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقي على ما يفنى فيلزموا الجماعة ، ولا يتخاذلوا فيصبحوا أحزاباً .

وولى على الخلافة من بعده ، والفتنة تموج بالناس ، وطلحة والزبير والسيدة عائشة يؤثرون عليه أهل البصرة ومعاوية يؤلب أهل الشام ، فاصطدم بهم جميعاً ، وانتقل إلى الكوفة يجمع الناس ويحار بهم .

(١) المكيث : الرزين المتبصر في الأمور . (٣) قلعة : انقلاع أى أنها لا تدوم .

(٢) الطبرى ٣/٣٠٥ .

وانتصر على الثلاثة الأولين ، ودخل مع معاوية في حروب صيفيين : ثم كانت خُدعة التحكيم : وخرج عايه فريق من جيشه ، فاضطُرَّ إلى حربه ، وهو في كل ذلك يُخطب واعظاً حيناً وداعياً إلى جهاد خصومه حيناً آخر . وكان خطيباً منوهاً لا يُشَقُّ غُبارُه ، ومن مواعظه قوله (١) :

« إن الدنيا قد أدبرت وأذنت بoudاع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، وإن المضممار (٢) اليوم والسباق غداً . ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص في أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يضره أمله ، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله خسر عمله ، وضرَّه أمله ، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ! »

وطبيعي أن تكثر خطبه في حروب خصومه ، وقد ظل نحو أربع سنوات يجاهدهم ويخطب في أصحابه حاثاً لهم على الجهاد ، ومن قوله في خطبة (٣) له بأخيرة من أيامه وقد تقاعس بعض جنده وأخذت جنود معاوية تغير على أطراف العراق .

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الحسف ، ومنع النصف (٤) . ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهيراً ، حتى شئت عليكم الغارات ... فيا عجباً من جد هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلهم عن حقكم ... حتى صرتم هدفاً يُرمى وفيئاً يُستهب ، يُغار عليكم ولا تغرون ، وتغزون ولا تغزون .. قد ورَّيتُم (٥) صدرى غيظاً ، وجير عتmoni الموت أنفاساً (٦) ، وأفسدتُم على رأيي بالعصيان والخذلان » .

(٥) ورَّيتُم : ملائم ، وأصله من ورى القبيح

جوفه إذا أكله .

(٦) الأنفاس : جمع نفس بالتحريك ،

وهو الجرعة من الماء ونحوه .

(١) البيان والتبيين ٥٢/٢ .

(٢) المضمار : الزمن الذي تضم فيه الخيل

للسباق وكذلك الموضع .

(٣) البيان والتبيين ٥٣/٢ .

(٤) النصف : الإنصاف .

وقد خلف على خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً في البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبرى . على أنه ينبغي أن نقف موقف الحذر مما يُنسب إليه من خطب في الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة فإن كثرت وُضعت عليه وضعاً . وقد تنبّه إلى ذلك السابقون^(١) ، واختلفوا في واضعها ، هل هو الشريف المرتضى أو الشريف الرضى ، وقد توفى أولهما سنة ٤٣٦ للهجرة بينما توفى الثاني سنة ٤٠٦ . ومن يقول بأنه الشريف المرتضى الذهبي في ميزان^(٢) الاعتدال وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان^(٣) . وذهب النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة في كتابه « الرجال » إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى^(٤) ، وأقرّ هو نفسه بذلك ، إذ ذكر في الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذي ألفه ووسّمه باسمه : نهج البلاغة^(٥) ، وذكر ذلك أيضاً في كتابه « مجازات^(٦) الآثار النبوية » . والمظنون أن الوضع على عليّ قديم . فقد ذكر المسعودي في مروج الذهب أن له أربعمئة خطبة ونيفاً وثمانين يتداولها الناس^(٧) .

ولعل في ذلك ما يدلُّ على وجوب التحرز والثبوت فيما يضاف إليه من خطب ، وأن لا نعوّل على شيء منها إلا إذا جاء في المصادر القديمة التي أشرنا إليها . وإن ما جاء فيها لكاف في تصوير قدرته الخطابية وإحسانه إحساناً كان يخلب ألباب سامعيه ويؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً .

وواضح من كل ما قد منا كيف ارتقت الخطابة في هذا العصر ، وكيف تحولت إلى وعظ الناس وإرشادهم لما فيه كمالهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ، وقد أخذت ميادينها تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة ، كما أخذت

- | | |
|--|---|
| (١) انظر ترجمة الشريف المرتضى في ابن خلكان ، وراجع مرآة الجنان لليافعي ٥٥/٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٥٧/٣ . | (٤) كتاب الرجال (طبعة بومباي) ص ١٩٢ ، ٢٨٣ . |
| (٢) ميزان الاعتدال (طبعة لكهنو) ٢٠١/٢ . | (٥) الجزء الخامس من حقائق التنزيل للشريف الرضى (طبعة النجف) ص ١٦٧ . |
| (٣) لسان الميزان (طبعة حيدر آباد) ٢٢٣/٤ . | (٦) مجازات الآثار النبوية (طبع بغداد) ص ٢٢ ، ٤١ . |
| | (٧) مروج الذهب (طبعة باريس) ٤٤١/٤ . |

تتشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرة ، منها ما يتصل بالجهاد والحرب ، ومنها ما يتصل بالمناظرة في الآراء السياسية المتعارضة بين على وخصومه القرشيين من جهة ثم بينه وبين الخوارج من جهة أخرى . وهي في كل ذلك تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعاني وتستمد الأساليب ذات البهاء والرونق .

٤

الكتابة

نوه الإسلام بالكتابة وفضلها منذ أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال جلّ شأنه : (اقرأ باسم ربك الذي خلق : خلّق الإنسان من علق) ، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) . ومن تمام هذا التنويه القسّم بالقلم في قوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) وبالكتاب في قوله سبحانه : (والطُّور وكتاب مسطور في رق منشور) . وتبرّد في القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف في مثل قوله تبارك وتعالى : (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) ، وقوله : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس) وقوله : (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة) .

وعمل الرسول عليه السلام جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه ، حتى لراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرةً من صبيان المدينة^(١) ، وقد حثّ القرآن على استخدامها في المعاملات ، يقول عزّ سلطانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا تدّأستم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما أمره الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق) . ومن غير شك كانت هي الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه ، فقله كان الصحابة يكتبونه ، حتى يتحفّظوه .

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ١٤ .

وكان هناك جماعة من الكتاب يكتبون آياته - كما قدّمنا - بين يدي الرسول من مثل عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وأبي بن كعب وزيد ابن ثابت . وكان يكتب له في حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية ابن أبي سفيان . وكان يكتب ما بين الناس المغيرة بن شعبة والحسين بن نمير ، كما كان يكتب بينهم في قبائلهم ومياهمم عبدالله بن الأرقم والعلاء بن عتبة الحَضْرَمِي . وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب من كتاب الرسول إذا غاب ، فغلب عليه لقبُ الكاتب^(١) .

ومعنى ذلك كله أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تُستخدَم على نطاق واسع لا في كتابة القرآن فحسب ، بل في كتابة كل ما يهم المسلمين في معاملاتهم وعقودهم . وكان الرسول عليه السلام يستخدمها في جميع موثيقه وعهوده ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده ، وتكتظ كتب الحديث والتاريخ والأدب بهذه العهود والمواثيق ، سواء منها ما كان على لسان الرسول وما كان على لسان خلفائه . وقد استطاع محمد حميد الله الحيدر آبادي أن يجمع طائفة ضخمة منها سماها « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » وقد قدم لها ببحث عن مقدار الثقة بها، وجمهورها مما لا يترقى إليه الشك . وهي تفتتح بالكتاب الذي كتبه الرسول حين نزل المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود المقيمين بها . ونقف قليلا عند هذا الكتاب لنبين أهمية هذه الوثائق ومدى تطويرها للنثر الكتابي عند العرب ، فقد أخذ هذا النثر يحمل تشريع دولة الإسلام الجديدة وما يُطَوَّى فيه من تعاليم الدين الحنيف وحدوده وفرائضه وأول ما يلقانا في هذا الكتاب أن جميع أهل يثرب : « أمة واحدة من دون الناس » وهي أمة لا ترتبط بروابط النسب المعروفة في القبيلة وإنما ترتبط بروابط الدين . وعلى هذه الأمة أن تتعاون ضد كل من يَبْغِي عليها منها أو من غيرها ، وأن تكفل في داخلها مبادئ السلام كما تكفل حماية الجار ونصرة المظلوم . ومن تبعها من غير دينها له النصرة والأسوة إلا من ظلم وأثم . وهي أمة

(١) الوزراء والكتاب للجهشياري (طبعة الحلبي)

يعلوها سلطان الله الذي يُرَدُّ إليه وإلى رسوله كل اختلاف وكل حدث أو اشتجار يُخاف شره .

والكتاب بذلك كله يرينا تكوين الجماعة الإسلامية والعلاقات التي تربط بين أفرادها ، وهو يوضح هذه العلاقات في داخل العشائر كدفع الدية والولاء ، كما يوضح العلاقات بين أعضاء الجماعة الكبرى التي يُشرف عليها الله ورسوله ، وهي علاقات وثقتها روابط الدين وثيقاً شديداً ، بحيث أصبح كل ما يدعو إلى اشتجار مردّه إلى هذا الدستور الديني الجديد ، الذي يُلغى الفوارق القبلية ، ويقيم العدل والمساواة ، ولا يدع للناس حق الأخذ بالثأر ، بل يرده إلى الله ورسوله ، فلا ثأر يجر ثأراً بل عقاب عادل بالمثل في القتل وغير القتل .

ونخصي في تلك الوثائق فنقرأ المعاهدة التي كتبها الرسول بينه وبين قريش عام الحديبية^(١) والتي نصّت على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، ذمة لا تنكث « وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » . ونقرأ بعد ذلك كتابه إلى يهود خيبر ثم قسمة أموالها . وتتوالى كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والتصديق برسالته ، ومن دعاه النجاشي ملك الحبشة وهرقل ملك الروم والمقوقس صاحب مصر . وكما يكتب إلى الملوك يكتب إلى أساقفة الشام وأمراءها وولاة شرق الجزيرة من قبل كسرى ، وكذلك جنوبها . وقد يكتب إلى القبائل نفسها . وتلقانا معاهدة مع أهل نجران^(٢) ، وفيها يبين ما عليهم من خراج ثم يقول : « ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدتهم وعشيرتهم وبيعتهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . ولا يُغيّر أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم دية ولا دم جاهلية . . . ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين » . وعلى هدى هذا الكتاب كانت كتب أبي بكر وعمر التي كتبها إلى أهل البلاد المفتوحة . وتلقانا بعد ذلك عهده إلى الأمراء الذين أبقاهم على إماراتهم في

(١) مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي

والنشر) ص ١٣ .

والخلافة الراشدة (طبع لجنة التأليف والترجمة

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٨٠ .

القبائل وفي اليمن ، كما تلقانا عهوده إلى من كان يرسل بهم لتعليم الناس في آفاق الجزيرة شئون دينهم ، وما ينبغي أن يأخذوه منهم من الزكاة ، وقد يرسل بذلك إلى بعض أمرائهم . ومن خير ما يصور هذه العهود كتابه^(١) إلى عامله باليمن ، وفيه يأمره بتقوى الله والأخذ بالحق وأن يعلم الناس القرآن ويفقههم فيه كما يعلمهم أوامر الدين ونواهيه وما فرض عليهم من الحج إلى بيته المقدس ومن الصلاة ، وإيتاء الصدقات ويرسم له حدودها على الزروع والثمار والأنعام والأغنام وأن زاد خيراً فهو خير له .

وعلى هذا النحو اتسعت الكتابة على عهد الرسول ، إذ أصبحت تؤدى تعاليم الدين الحنيف ، وكل ما أقامه لصالح الجماعة الإسلامية وسعادتها ، وكل ما فرضه من معان إنسانية في معاملة من يدخلون في لوائه وفي ذمة الله وعقده .

ويتولى أبو بكر الصديق مقاليد خلافة الرسول ، ويرتد كثير من العرب ، فيجند لهم الجيوش ويبعث مع قادتها بكتاب مفتوح يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدين الله وأن من استجاب وكفّ وعمل صالحاً قبل منه وأُعين عليه ، ومن أبى فلن يُعجز الله وقوتل حتى يُقرّ بالحق . وأتبع ذلك بعهد لأمرء الأجناد ضمّته نفس هذه المعاني وأن يستوصوا بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول . وما زال يراسل معهم حتى رُئِبَ الصدع . وتتحول الأجناد بأمرائها إلى الفتوح ، فيكتب لهم ناصحاً على نحو ما كتب لخالد بن الوليد^(٢) . وتلقانا له منذ هذا التاريخ كتابات وعهود مختلفة كان يرسل بها إلى رؤساء الأجناد في البلاد المفتوحة . وكان آخر ما كتبه عهده لعمر ، وفيه يقول : « إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن برّاً وعدّك فذلك علمي به ورأيي فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون » .

وولّى عمر ، فتمت في عهده فتوح إيران والشام ومصر ، ومع كل بلد تُفتتح كان أمرء الأجناد يكتبون لأهلها العقود والعهود ، وكان عمر لا يني

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ١٠٤ . (٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٢٧ .

عن مراسلتهم في كل ما يهم من الأمر ، سواء فيما يتصل بالحرب وتنظيم الجيوش أو فيما يتصل بمعاملة أهل البلاد المفتوحة وما يُعطى لهم من عهود، وعهده لأهل إيليا (بيت المقدس) الذي أشرنا إليه في غير هذا الموضع مشهور، وفيه يقول^(١) :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تُسَكَنُ كنائسهم ولا تُهْدَم ولا يُسْتَقَصُّ منها ولا من حيزها ولا من صليهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيليا أن يُعطوا الجزية .. وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » . وواضح أن عمر ترسّم في هذا العهد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى نَجْرَان . وعلى نحو ما كان يستلهم صنيع الرسول في عهوده كان يستلهم وصاياه لولاته في سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان ، ومن خير ما أُثر عنه في هذا الجانب رسالته إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة ، وهي تمضي في البيان والتبيين على هذا النحو^(٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسُنّة متبعة ، فافهم إذا أُدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك . البيّنة على من ادّعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حراماً حلالاً أو أحلّ حراماً . ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك ، وهُديت فيه لرشدك ، أن ترجع عنه إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذى في الباطل . الفهم الفهم عند ما يتلجلج في صدرك ، مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة النبي صلى الله عليه وسلم . اعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى . واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينة أمدأ ينتهي إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٤٨ وما بعدها .

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٦٨ .

وأجلى للعمى وأبلغ في العذر . المسلمون عُُدُولٌ بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حَـدٍّ أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظَنِيناً^(١) في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودَرَأَ عنكم بالبيِّنات والأيمان . ثم إياك والقلق والضجر والتأذَّى بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق ، التي يُوجب الله بها الأجر ، ويُحسن بها الذُّخْرَ ، فإنه من يُخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، ولو على نفسه يَكْفِيهِ الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيّن للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله سِتْرَهُ وأبدى فعله . والسلام عليك .

والرسالة وثيقة مهمة فيما ينبغي أن يكون عليه الحاكم قاضياً أو غير قاض من الرفق برعيته ومعاملة جميع أفرادها على قدم المساواة . وعمر يضع فيها أسس النظر في الادعاء وفي الصلح بين المتخاصمين ، ويفتح الباب واسعاً أمام من يقضى في شأن من شئون الرعية ويتبين خطأ قضاائه أن يرجع فيه . وما يلبث أن يضع للحاكم الأصول التي يصدر عنها في أحكامه ، وهي الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما ما يُنير له الحكم اجتهد برأيه معتمداً على القياس . ويجعل للمدعى أمداً ينتهى إليه . ويقول إن الأصل في المسلم أن يكون عدلاً ، إلا أن تَسْتَنِي عدلته فلا تصح شهادته . ويوضح للحاكم قاضياً أو غير قاض موقفه من الخصوم فلا يتأذَّى بهم ولا يتنكر لهم . وقد ترك وصية^(٢) للخليفة من بعده تُعَدُّ دستوراً رفيعاً للحكم ، سواء فيما يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل الذمة وما ينبغي أن يُؤخَذَ وا به من الرفق .

وفي الحق أننا لا نصل إلى عهد عمر حتى تصبح الكتابة جزءاً أساسياً في أعمال الدولة ، وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل ما رسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالأنظمة في الشعوب المفتوحة . وعمر في ذلك كله يستلهم القرآن والسنة النبوية ، ويستشير أصحابه في كل ما يأخذ من أمر ويدع ، وهو في ثنايا ذلك يجتهد ويفتح الباب لاجتهاد أصحابه . فإذا قلنا بعد ذلك إن الكتابة رقيت في العصر رقياً بعيداً لم نكن مغالين . إذ وَسَّعَتْ كل الحاجات السياسية التي جَدَّتْ ،

(١) ظنينا : متبهاً .

(٢) البيان والتبيين ٤٦/٢ .

وكل ما أُعطى للمسلمين المحاربين والشعوب المفتوحة من حقوق .

وقد مضى فاتحو الثغور في عهد عثمان يكتبون عهودهم لمن يغلبون عليهم أو يدخلون في طاعتهم دون حرب مقتدين بما رسمت اليهود في عهد عمر وأبي بكر ، وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولااته في الحرب والسلم . وخلفه على^١ فكثرت الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه . ومن أهم ما كُتب حينئذ وثيقة^(١) التحكيم بينه وبين معاوية .

وواضح من ذلك كله أن الكتابة تطورت تطوراً واسعاً في هذا العصر ، فقد تعددت الموضوعات التي تناولتها والتي لم يكن للعرب بها عهد قبل الإسلام ورسالة صاحبه النبوية ، إذ أخذت تحمل مجموعَ النظم الجديدة التي قامت عليها دولة الإسلام العتيقة . وكان الرسول عليه السلام هو الذي نُزل بها لتحمّل هذه النظم ، وخلفه عليها قواد الجيوش في عهودهم للبلاد المفتوحة وخلفاؤه الذين فصلوا هذه النظم وطابقوا بينها وبين حاجات المسلمين من جهة وحاجات من غالبوا عليهم من جهة أخرى ، ولعمر من بينهم في ذلك القيدُحُ المعلن إذ ساعدت كتبه الكثيرة في الفتوح وإلى الولاة على أن ينال النثر الكتابي كل ما كان ينتظره زمن الخلفاء الراشدين من تطور ونهوض .

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٨١ .

الكتاب الثاني
في عصر بني أمية

الفصل الأول

مراكز الشعر الأموي

١

المدينة ومكة

لا فصل إلى عصر بني أمية حتى تصبح المدينة ومكة مركزين مهمين من مراكز الشعر ، وحتى تتحضر تحضرًا واسعاً ، وإذا كانت المدينة فقدت في هذا العصر أهميتها السياسية ، إذ تحولت عنها الخلافة إلى الكوفة في عهد علي ثم إلى دمشق منذ معاوية فلما ظلت تحتفظ بالتراث الديني ، كما ظلت مستقرًا لأكثر طوائف المجتمع العربي رقة ودمائة . وهيات لذلك عوامل مختلفة من الثراء الواسع وما دخلها من عناصر أجنبية كثيرة أسرعت بها إلى التحضر ، بل إلى الترف البالغ ، أما الثراء فرجعه إلى ما خلفه فيها الصحابة الأولون لأبنائهم من أموال جلبوها من الفتوح ، فقد رجعوا إليها بحمول الذهب والفضة والجواهر ، وابتنوا القصور وبالقوا في تجميلها وزخرفتها^(١) ، وقام لهم على خدمة هذه القصور الرقيق الأجنبي الذي اجتلبوه ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، حتى ليرى عن الزبير بن العوام مثلاً أنه خلف وحده ألف عبد وأمة^(٢) . ومنذ أن دون عمر الدواوين كان يُفرض لأهلها الأعطيات الكثيرة ، وكان الأمويون يُغدقون عليهم إغداقاً^(٣) ، استرضاء لهم ، حتى يصرفوهم عن التفكير في الخلافة .

كل ذلك أعد لأن تعيش المدينة في هذا العصر عيشة دعة ، إلا فترة قصيرة هي الفترة التي انتقضت فيها على يزيد بن معاوية ، وقد دفعت ثمن هذا

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي (طبعة . (٣) الفخرى ص ١٢٧ واليعقوبي ٢/٣٥٨ باريس) ٢٥٤/٤ .
(٢) نفس المصدر ٢٥٤/٤ .
(٣) الأغاني ٧/٢٢ .

الانتقاض باهظاً في موقعة الحرة سنة ٦٣ للهجرة ، وكأن ذلك كان سحابة عارضة في سمائها لهذا العصر ، فبمجرد انقشاع تلك السحابة خلدت إلى صفو الحياة ونعيمها ، ولم يعكس عليها هذا الصفو والنعم شيء ، فقد تجنبت السياسة ، ونقرأ في أخبار أهلها فنجدهم ينعمون بألوان الطعام المختلفة^(١) وافلين رجالاً ونساء في الثياب الحريرية^(٢) وأنواع الطيب والعطور^(٣) ، وبالغ النساء خاصة في اتخاذ صنوف الحللى والجواهر^(٤) .

وطبيعى أن يكثر في هذا المجتمع المتحضر المترف الشبابُ العاطل الذى يريد أن يقطع أوقات فراغه الطويل في هوا برىء ، وسرعان ما قدّم له الرقيق الأجنبى ما يريد من هذا اللهو ، إذ عنى بالغناء عناية بالغة ، عناية استحدثت في أثنائها نظرية الغناء العربية التى نقرأ رُفَمها في كتاب الأغاني تالية للأصوات أو كما نقول اليوم الأدوار ، وقد جعلوها ستة ضروب ، هى الثقيل الأول والثقل الثانى وخفيف الثقيل والرّملى وخفيف الرمل والهزّج ، وميسّزوا مسجّرى الصوت فيها بحسب الأصابع ، فقالوا مثلاً : ثقل أول بالوسطى وخفيف ثقيل بالسبابة وخفيف رمل بالبصرة .

واكتمالُ هذه النظرية على أيدي الرقيق الأجنبى يؤكد أنها تأثرت تأثراً واسعاً بألحان الروم والفرس ، وليست المسألة مسألة افتراض فإن كبار المغنين الأولين في المدينة يؤثّر عنهم أنهم كانوا يغنون الغناء الفارسى بجانب غنائهم العربى^(٥) ، وكان هناك من يشخصّ إلى الشام فيتعلم ألحان الروم^(٦) . على أنه ينبغى أن لا نظن من ذلك أن نظرية هذا الغناء العربى نُقلت نقلاً عن الأجانب فقد تأثرت بغنائهم ، ولكنها استوت في صورة عربية مستقلة . ومما يؤكد ذلك أن مصطلحاتها جميعاً عربية وأن من قاموا عليها من الرقيق الأجنبى ولّدوا في بلاد العرب جميعاً ، ما عدا نشيطاً الفارسى . وكانت العادة أن يبدأوا

(١) ابن سعد (طبعة أوربا) ١٢٦/٤ .

٢٧٨ .

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٨/١ ،

٣٢١/٨ .

(٦) أغاني ٣٧٨/١ .

(٢) ابن سعد ٣٥٢/٨ والأغاني ١٣/٦

والمعارف ص ٢٧٤ والأغاني ٣١٠/١ .

(٣) أغاني ٢٦٢/٩ .

(٤) ابن سعد ٣٤٣/٨ وأغاني ٢٧٣/٨ ،

بالغناء العربي ، ثم يرحلوا إلى بلاد الفرس والروم فيأخذوا عنهما غناءهم ، ويُدخلوا ألعانه فى غناء العرب . ومما يدل على ما نزعـم أن أكثر الآلات الموسيقية التى يتردد ذكرها فى هذا العصر نديم مثل الصنـج والمِرْزهر والقضيب والدَفُّ والطبل والمزمار ، وحتى آلات العود والطمبور عُرفت فى العصر الجاهلى .

على كل حال نهضت المدينة فى هذا العصر بفن الغناء نهضة واسعة ، وشاركتها فى ذلك مكة كما سنرى بعد قليل ، ولا نغلو إذا قلنا إن البلدين جميعاً لم تُسبقا إلا قليلا للعصور التالية كى تضيفه إلى نظريته التى استحدثتها . وقد أقبل أهل المدينة على هذا الغناء إقبالا شديداً ، يشترك فى ذلك عامتهم وخاصتهم وعبيادهم وزهادهم ^(١) وقضاةهم ^(٢) ، حتى لتؤثر عن عمر بن عبد العزيز أصوات تغنى بها فى إمارته لهم ^(٣) . وكان من أشرفهم من جعل داره أشبه بفندق للمغنين والمغنيات ، على نحو ما هو مأثور عن عبد الله بن جعفر وقصد الناس لداره يسمعون بها ألوان الغناء ^(٤) ، وقد تخرج فى هذه الدار كثيرون من المغنيات والمغنين المطربين .

ومن كبار المغنين الذين اشتهروا بالمدينة فى هذا العصر طويس وهو أول من تغنى بها الغناء المتقن ^(٥) ، وأول من صنع الهزج والرمـل فى الإسلام ^(٦) ، وسائب خاثير مولى ابن جعفر وهو ممن نقلوا ألحان الفرس إلى الغناء العربى ^(٧) ومعبود وهو إمامهم فى الغناء غير منازع ، وابن عائشة ومالك الطائى وعطرد ويونس الكاتب وينسب إليه أول كتاب فى الغناء والأغاني ونسبها إلى أصحابها . ومن أشهر المغنيات عزة الميلاء وجميلة وسلامة القمس وحبابة وسلامة الزرقاء .

ولعل من الطريف أن نعرف أنه كانت هناك دور مخصصة للسمع يفد عليها شباب المدينة كل ليلة ، وأشهر هذه الدور دار جميلة ، وكانت تكتظ

(١) أغاني ٢/٢٣٨، ٤/٢٢٢، ٨/٢٢٤ . (٥) أغاني ٣/٢٩ .

(٢) أغاني ٨/٢٧٧ . (٦) أغاني ٤/٢١٩ .

(٣) أغاني ٩/٢٥٠ . (٧) أغاني ٨/٣٢١ .

(٤) المسعودى ٥/٣٨٥ .

بالمغنين والمغنيات ، ويَعُدُّ أبو الفرج منهم في أغانيه عشرات^(١) ، ويقصّ علينا أخباراً كثيرة عن هذه الدار ، نعرف منها ما أصاب الغناء في المدينة من رقي وازدهار ، إذ كانوا يتغنون الغناء المصحوب بالحقوات الكبيرة^(٢) ، والآخر المصحوب بالرقص والضرب على الآلات الموسيقية الكثيرة^(٣) . وكانت جميلة أحياناً تقوم باستعراض كبير يضم أشهر المغنين والمغنيات لا في المدينة فقط ، بل أيضاً في مكة^(٤) ، ويُقال إنها أرادت الحج فخرجت في مهرجان ضخم من المغنين والمغنيات ضمَّ نحو عشرين مغنياً وخمسين قينة^(٥) .

وعلى هذا النحو عاشت المدينة في هذا العصر لفن الغناء تنمية وترقية ، ورقبته إنما هو رمز لما أصاب مجتمعتها من تحول وتطور وتحضر ، ولما أخذ به من أسباب الرفة والنعيم . وكان يلتقى في هذا المجتمع كثير من الطفيليين وأصحاب الفكاهة والتندير ، واشتهر من بينهم أشعب ، وكان ماهراً في إضحاك معاصريه لا بنكته ونوادره فحسب ، بل أيضاً بإشاراته وحركاته . وتطّفق كتب الأدب بدعاباته وفكاهاته^(٦) .

ولم في هذا المجتمع كثيرات من النساء قدّرن المرح فيه والظرف وعلمن على تهذيب الأذواق ، نذكر من بينهن السيدة سَكِينَة بنت الحسين ، وقد ترجم لها أبو الفرج في أغانيه ترجمة^(٧) ، صور فيها جمالها وبهاءها وقارها وأخذها بأسباب الزينة حتى إنها عُرِفَتْ بتصفيف لحمة شعرها . كانت النساء يقلدنّها فيه ، بل كان من الرجال من يحاكيها في جُمَتِها . وكانت ظريفة مزاحمة ، وكثيراً ما كان يختلف إليها أشعب لإضحاكها . وكانت تَفْسُحُ في مجالسها للرجال وللمغنين والمغنيات وللشعراء ، وكثيراً ما كانت تفاضل بينهم .

نحن إذن بإزاء مجتمع متحضر اكتملت له كل الأسباب كي يمرح أهله مرحاً بريئاً ، مرحاً قوامه الغناء والدعابة والدوق الراقى المهدب . ولعلنا الآن نفهم

- | | |
|-----------------------------|--|
| (١) أغاني ١٨٦/٨ وما بعدها . | (٦) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة الساسي) |
| (٢) أغاني ٢١٨/٨ ، ٢٢٧/٨ . | ٨٣/١٧ . |
| (٣) أغاني ٢٢٦/٨ . | (٧) أغاني (طبعة الساسي) ١٥٧/١٤ |
| (٤) أغاني ١٨٨/٨ ، ٢١١/٨ . | وما بعدها . |
| (٥) أغاني ٢٠٩/٨ . | |

حزن أبي قـطيفة الأموى على فراق هذا المجتمع حين نفاه ابن الزبير هو وغيره من الأمويين إلى دمشق ، فقد أخذ يبكى بلدته في شعر مؤثّر ، مقارناً بينها وبين دمشق . ولانقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طُرد من فردوسه الأرضي ، يقول^(١) :

القَصْرُ فَالَنَخْلُ فَالْجَمَاءُ بَيْنَهُمَا أَشْهَى إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَبْوَابِ جَيْرُونِ
ويقول^(٢) :

أَقْطَعُ اللَّيْلَ كُلَّهُ بِاِكْتِثَابٍ وَزَفِيرٍ فَمَا أَكَادُ أَنْأَمُ
إلى أشعار كثيرة^(٣) تصور رقة حسه وحنينه بل لهفته على الحياة الهنيئة في مسقط رأسه ، مما جعل ابن الزبير يعفو عنه ويأذن له في الرجوع .
وفى هذا الجو الرقيق الذى زخر بالغناء والمرح نهض الشعر في المدينة نهضة واسعة . وقد تعاونت على هذه النهضة عناصر كثيرة من الأنصار وممن هاجر إليهم من قريش وغيرهم وممن تعرّب في بلدتهم من الموالى وأبنائهم تعرباً تاماً . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى كتاب الأغاني حيث يجد أبا الفرج يترجم لكثرة غامرة من شعراء المدينة لهذا العصر ، وممن ترجم له من الأنصار عبد الرحمن ابن حسان وابنه سعيد والنعمان بن بشير والسريّ بن عبد الرحمن والأحوص بن محمد ، وترجم من قريش لعبد الرحمن بن الحكم وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر بن الزبير والحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وترجم من حلفائهم للفقهاء المشهورين عروة ابن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ثم ابن أرقطة وابن هرمة . وممن ترجم لهم من الموالى موسى شهوات وأخوه إسماعيل بن يسار النّسائي ، وكان له ولدان شاعران هما محمد وإبراهيم . ووراء هؤلاء الشعراء كثيرون ذكرهم أبو الفرج عرضاً .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١/١ ، (٢) أغاني ٢٩/١ .
والقصر الذى عنه قصر سعيد بن العاص بالمدينة ، (٣) انظر ترجمته في الأغاني ١٢/١ وما بعدها .
الجماء : أرض بها . جيرون : دمشق .

وإذا أخذنا نقرأ في شعر هؤلاء الشعراء وجدنا جمهوره يَجْرَى في الحب والغزل ، وهو شيء طبيعي ، دفعت إليه حياة الشباب المتروك في المدينة ، كما دفع إليه فن الغناء الجديد . وحقاً بقيت بقية من الهجاء عند عبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن بن حسان ، إذ أدارا معركة هجاء عنيفة^(١) ، ولكن هذه المعركة تنهى بهما ، ولا تَبْقَى بعد ذلك إلا سهام ضئيلة تظهر من حين إلى حين . وبقيت بقية أوسع من المديح ، إذ كان بعض الشعراء يمدح بنى أمية طلباً لنوالهم ، على نحو ما نجد عند الأحوص^(٢) وموسى شهوات^(٣) ، وأخيه إسماعيل بن يسار^(٤) . والمديح والهجاء جميعاً ليسا هما اللونين اللذين غلبا هناك على الشعر والشعراء . وفي الحق أن من يبحث عن هذين اللونين ينبغي أن يتجه ببصره إلى العراق أو إلى الشام ، أما في المدينة فكانا يسقطان على هامش شعر الغزل الذي كان يتفق وتروى البيئة والذي كان يطلبه المغنون والمغنيات ليضعوا فيه أغانيهم الجديدة . ومن ثمَّ طبع هذا الغزل بطوابع غنائية قوية ، إذ كان في حقيقته أغاني تَصْحَبُ بالغناء والعزف على الآلات الموسيقية . ونستطيع أن نلاحظ هذه الطوابع في جوانب كثيرة من حيث الكمِّ ومن حيث الكيف ومن حيث الوزن ، فأما من حيث الكم فهو في مجموعه مقطوعات لا قصائد طويلة ، وهو من حيث الكيف لا يقف عند الأطلال إلا نادراً إنما يقف عند حكاية الحب وتحليل خواطر الشاعر إزاءه ، أما من حيث الوزن فإن الشعراء مالوا - تحت تأثير الغناء - إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة حتى يتيحوا للمغنين والمغنيات أن يحمّلوا شعرهم ما يريدون من ألحان وأنغام جديدة . وكثيراً ما نجد مغنياً يضع لحناً ويطلب إلى شاعرٍ أغنيةً يوقعها عليه^(٥) ، وكان بين الشعراء من يُحَسِّن وضع الألحان على شعره مثل عروة بن أذينة^(٦) ولا نصل إلى أواخر العصر حتى نجد من بين المغنين والمغنيات من يحسن نظم الشعر مثل أبي سعيد مولى فائد وسلامة القسّ ، وقد ترجم لهما صاحب الأغاني .

وإذا تركنا المدينة إلى مكة وجدناها تتطابق معها في كل ما وصفناه من

- (١) أغاني (سأى) ١٤٤/١٣ . (٤) أغاني ٤٠٨/٤ .
 (٢) أغاني (دار الكتب) ٢٩٧/١ و ٢٤٨/٤ . (٥) أغاني ٢٣٨/٢ وطبعة السأى ١٠٧/٢١ .
 (٣) أغاني ٣٦٥/٣ . (٦) أغاني (سأى) ١٠٩/٢١ .

مظاهر الحياة والحضارة وفن الغناء الجديد وما اتصل بذلك من شيوع شعر الحب والغزل . وكانت مثلها تغرق في ثراء واسع ورثة الشباب عن آبائهم ، وقد ورثوا عنهم كثيراً ، ورثوا ما كان في حجوهم من أموال التجارة في العصر الجاهلي ، ومعروف أن قوافل مكة كانت تحلُّ محل قناة السويس في عصرنا ، إذ كانت تنقل السلع بين حوض المحيط الهندي وحوض البحر المتوسط ، وانضافت إلى هذه الأموال أموال الفتوح الإسلامية وما فُرض لأهلها من أعطيات ورواتب في دواوين الخلافة وما قَسَمَ فيهم الأمويون دائماً من أموال ، وكان الحج يُنْفَى عليهم كل سنة بما يساءُ خَلَّة كل محتاج .

فكرة لم تكن تقلُّ في هذا العصر ثراء عن المدينة ، وهو ثراء استتبع بناء القصور المشيدة التي تختال جمالا وبهاء ، وقد بنى معاوية لنفسه فيها دوراً لُقِّبَتْ « بالرقط » لاختلاف ألوانها أحضر لها بنائين من الفرس ^(١) ، ومع ذلك كان إذا حج وقف مبهوراً لآراء بعض قصورها الأخرى ^(٢) . ومعروف أنه اتسع فيها بناء القصور والدور اتساعاً كبيراً لعهد عبد الله بن الزبير حين اتخذها مقراً لخلافته ^(٣) . وقد عُنِيَ كثير من الخلفاء ومن ولاتها الذين أثروا في الفتوح باستنباط العيون فيها وغرس النخيل والأشجار في ضواحيها ^(٤) من ذلك ما يروى عن سليمان بن عبد الملك من أنه أراد أن يحج فكتب إلى خالد القسري عامله عليها أن يُجرى له عينا إلى الكعبة من الماء العذب ، فصنع بركة في أصل « ثبير » بحجارة منقوشة ، وأسال منها الماء إلى المسجد الحرام في قَصَب من رصاص انتهى بفؤارة تسكب الماء في نافورة رخام بين الركن وزمزم ^(٥) .

ولم تغرق مكة في دور وقصور وعيون فحسب ، بل لقد أخذت تغرق إلى آذانها في الترف والنعيم . فإذا نفر من أهلها يأكلون ويشربون في صحاف الذهب والفضة ^(٦) ، ونفر يلبسون مقطعات الخزّ والسندس والديباج والحلل المشاة

-
- (١) أغاني ٢٨١/٣ . ص ١٦٤ و الأزرق ٤٤١/١ وما بعدها .
 (٢) أغاني ٢١١/١ . (٥) اليعقوبي (طبعة أوربا) ٣٥١/٢ .
 (٣) الأزرق ٣٩٢/١ . (٦) أغاني ٦٦/٥ .
 (٤) المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن)

على كل لون^(١) ، والطيب وأنواع العطور تفوح منهم^(٢) . وبالغ النساء في ذلك كله وفي اتخاذ الحلى وصنوف الجواهر^(٣) .

واكتظت مكة - كما اكتظت المدينة - بالرقيق الأجنبي الذي نهض بحاجات أهلها في مطاعمهم ومشاربهم وتوفير كل أدوات ترفهم . وكان من أهم ما نهض به الرقيق فن الغناء ، ونحس ضرباً من التعاون الوثيق بين أصحاب هذا الفن في مكة وأصحابه في المدينة ، فهم دائماً يلتقون ، حتى ليخيل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلدين ضاحية للأخرى . وكل مغن يحاول أن يبلغ من إتقان هذا الفن مبلغاً بعيداً يستهدى فيه ذوقه وما قد يكون عرفه من ألحان الفرس والروم ، ومن مقدّميهم وكبارهم في مكة ابن مسجج الذي اشتهر بأنه أول من غنّى الغناء المتقن ، وأنه « نقل غناء الفرس إلى غناء العرب » ، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطية والأسطوخوسية ، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلّم الضرب ، ثم قدم إلى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبّحه من النبرات التي هي موجودة في نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنّى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس بعد^(٤) . وعن هذا الأستاذ المبدع أخذ المغنون والمغنيات في مكة ، ومن أنبهم وأشهرهم ابن مُحَرَّر ، وهو أول من غنّى الرَّمَل^(٥) ، وابن سُرَيْج وقد رحل إلى المدينة فأخذ عن طوَيْس وغيره من مغنّيه^(٦) ، وكان أول من ضرب على العود الفارسي بالغناء العربي ، والغريز وكان لا يسألُ حَقَّ في الندب والنياحة ، والأبجر ، والهذلي . ومن مغنيات مكة سُمَيَّة ، وبَغُوم وأسماء وكانتا مولاتين لابن أبي ربيعة . ومكة إن لم تُعرَفْ بدار كبيرة كدار جميلة في المدينة فإن دار كل مغن فيها كانت تُعَدُّ نادياً من نوادي الغناء .

وعلى نحو ما رأينا أهل المدينة يُسَخِّفون بالغناء شغفاً شديداً كان أهل

(١) أغاني ٦٤/٥ . (٤) أغاني ٢٧٦/٣ .

(٢) أغاني ٣٩٩/٢ ، ٤٧/٣ . (٥) أغاني ٣٧٩/١ .

(٣) أغاني ٢٧٣/٨ ، ٢٧٨/٨ وانظر ابن سعد (طبعة أوربا) ٣٤٣/٨ . (٦) أغاني ٣٢١/٨ .

مكة جميعاً حتى فقهاؤهم من مثل عطاء^(١) بن أبي رباح وابن^(٢) جُربنج وقضائهم من مثل الأوقص^(٣) الخزومي . وتبع ذلك موجة واسعة من المرح ، ومن خير من يمثلها شاعر يسمى الدارمي . كان خفيف الروح . وفي كتاب الأغاني ترجمة^(٤) طريفة له تصور فكاهاته ودعاباته . واشتهر في هذا المجتمع المرح فتيات وسيدات شريفات كان لهن أثر بالغ في رقة الأذواق ورهافة الأحاسيس ، مثل الشريياء^(٥) بنت علي بن عبد الله بن الحارث الأموية ، وكان لها قصر عظيم تُعقد فيه ندوات يؤمها المغنون والشعراء ، غير من كانوا فيها فعلاً ، إذ كانت الثريا مولاة للغريز ويحيى قيسل وسمية .

ومعنى ذلك كله أن مجتمع مكة كان على غرار مجتمع المدينة حضارة وترفاً ومرحاً ورقة وغناء وعزفاً كل ليلة على أوتار العيذان والطنابير والآلات الموسيقية من كل لون . وأعد هذا كله شعراء مكة لأن يجري جمهور شعرهم في الغزل والحب ، وربما كان أهم شاعر مكّي تعلق بالهجاء والمديح عبيد الله ابن قيس الرقيات ، إذ اتخذ مصعب بن الزبير في أثناء ولايته على العراق شاعره الذي ينافح عن دعوة الزبيريين ضد بني أمية . وبعد أن صار الأمر إلى عبد الملك أصبح من مدّاحيه ومدّاحي أخيه عبد العزيز وإلى مصر . ولكن حتى ابن قيس أكثر شعره في الغزل ، وعلى غراره العرجي . على أن هناك من عاشوا للغزل وحده حتى فاقوا فيه شعراء المدينة على نحو ما هو معروف عن عمر بن أبي ربيعة ، ومن طريف ما كانوا يقولون عنه وعن تأثير غزله : « إذا أعجزك أن تطرب القرشي فغنّه غناء ابن سُريج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك تُرقصه^(٦) » .

وكل ما قلناه عن تأثير غزل أهل المدينة بالغناء من حيث الكم والكيف والوزن ينصب انصباباً على غزل أهل مكة ، وقد شاع بين الباحثين أن غزل المدينتين جميعاً في هذا العصر غلب عليه الطابع المادي الصريح ، بل لقد

(٥) أغاني ١/١٢٢ ، ٢٠٩/١ وما بعدها

وفي مواضع متفرقة .

(٦) أغاني ١/٢٨٤ .

(١) أغاني ١/٢٥٧ .

(٢) أغاني ١/٤٠٨ .

(٣) أغاني ٢/٣٦٧ .

(٤) أغاني ٣/٤٥ .

استولى عليه استيلاء بحكم ما أُتيح للمجتمع فيهما من ترف ومن حرية . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ذلك فنظن أن الشعراء تهادوا في صراحتهم إلى حد الإفحاش ، فالصراحة شيء والفحش شيء آخر . ومن المؤكد أن غزل مكة عند عمر بن أبي ربيعة وأضرابه أقل صراحة وحرية من غزل المدينة عند الأحوص وأقرانه، إذ كانت موجة اللهو في المدينة أكثر حدة^(١) . وينبغي أن نلاحظ أن هذا الغزل الصريح عند الأحوص وعمر ونظرائهما كان يرافقه غزل عفيف عند الفقهاء والزهاد من أمثال عروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة في المدينة وعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي في مكة ، وغزلهم جميعاً يمتاز بالنقاء والطهارة وسمو العاطفة .

ومما لا شك فيه أنه كانت تسقط من غناء المدينتين الكبيرتين بالحجاز وما شاع فيهما من غزل آثار مختلفة في بقية مدن الحجاز ، فمن ذلك ما يروى عن العسرجي الشاعر المكي من أنه كان ينزل كثيراً في أودية الطائف ، وكان يلزمه مغن يسمى الفيند^(٢) . ويلقانا هناك شاعران كلنا بالغزل هما محمد بن عبد الله النخعي ويزيد بن ضبة . ويذكر أبو الفرج أن المغنين في وادي القرى كانوا يقدون على مكة يتعلمون فيها الضرب والغناء والعزف ، ومن أشهرهم عمر^(٣) الوادي .

٢

نجد وبوادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال

إذا كنا لاحظنا تحضر مدن الحجاز وخاصة المدينة ومكة فإن نجدًا وبوادي الحجاز قلما سقط فيهما من الحضارة شيء ذو بال ، إذ استمرت القبائل فيهما تعيش على الرعي وطلب الكلاء، فهي تعيش — كأسلافها في الجاهلية — معيشة متبدية فيها غير قليل من الشطط^(٤) .

وفي هذه المعيشة ظلت المنافسات القبلية على المراعى ، وظل تربص القبائل

(٢) أغاني ٨٥/٧ .

(١) أغاني ٣٩٣/١ .

بعضها ببعض ، وإن كان من المحقق أن ذلك لم يأخذ الشكل الحاد الذي كان عليه القوم في الجاهلية ، بسبب نهى الإسلام عن الأخذ بالثأر وتحول حقه من أيدي الأفراد إلى أيدي الدولة ، وكان ولاية بني أمية في نجد وبوادي الحجاز يقطّين ، وكانوا إذا تفاقم الشر من بعض الأفراد زجّوا به في السجون . غير أن بقية من الشر والشجار بقيت ، وهي بقية استتبع ظهور بعض قُطّاع الطرق من أمثال طهّسان^(١) بن عمرو الكلّابي الشاعر ، كما استتبع غير قليل من شعر الفخر والمهجة ، على نحو ما نجد في مهاجاة^(٢) شبيب بن البَرصاء الدُّبَيّاني لعقيل بن علفّة وأرطاة بين سُهَيْبَة ، ومهاجاة^(٣) ابن مَيْمَادَة الدُّبَيّاني للحكم الحُضْرِي .

ودفع شطط المعيشة في هذه البيئة البدوية كثيرين من شعرائها للوفود على الخلفاء في دمشق والولاية في مكة والمدينة والكوفة والبصرة يطلبون نوالهم ، ومن ثمّ كانوا يترددون بين البدو والحضر . ولا نُبْعِد إذا قلنا إن شعراء شرق الجزيرة من ربعة وتميم وعبد القيس كانوا دائمي الارتحال إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد وكان منهم من تسكّذف به رحلاته إلى خراسان .

ومرّ بنا أن كثيراً من العرب المتبدلين ارتدّوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعوا الزكاة ، وقد قضى أبو بكر على هذه الرّدّة ، واستجابت الجزيرة لهذا الغرض الديني راضية مرضية . ويظهر أن بعض عمّال الصدقات كان يقسو في جمعها على العرب أحياناً ، ومن ثمّ ارتفعت أصوات في هذا العصر الأموي تشكو منهم شكوى مرة^(٤) .

ولا بد أن نلاحظ أن نشاط الشعر في نجد وبوادي الحجاز لهذا العصر كان أقل مما كان عليه في الجاهلية ، بسبب ما قلنا من إماتة الإسلام لفكرة الأخذ بالثأر التي سهّرت الشعر والشعراء قديماً وما انطوى فيها من عصبيات ، وحقّاً هو لم يُمت ذلك نهائياً ولكنه قلل من حيّثته . ومن أسباب ضعف نشاط الشعر أيضاً كثرة من هاجر وا في الفتوح شرقاً وغرباً ، إذ كانت عشائر ترحل

(١) انظره في أخبار الصمصمى للسكري ١٠٠ . (٢) أغاني ٢/ ٢٩٨ .

(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٧١/ ١٢ . (٤) انظر جمهرة أشعار العرب (طبع المطبعة

وما بعدها . الرحمانية) ص ٣٠٥ .

بِـرُمَّتْهَا . على أن هذا أحدث حزناً في نفوس كثيرين سبق أن وصفناه في عصر صدر الإسلام .

ضَعُفَ نشاط الشعر إذن في هذه البيئة البدوية ، ولكنه إذا كان ضعف في مجال الفخر والهجاء فإنه قوى قوة واسعة في مجال الغزل ، إذ تكاثر شعراؤه كثرة مفرطة وتكاثر قصصه الغرامية ، وخاصة في بنى عُدْرَةَ وبنى عامر . وقد ترجم أبو الفرج في أغانيه لكثيرين منهم مثل جميل وعُرْوَةَ بن حزام وقيس ابن ذريح ، ووقف طويلاً عند مجنون ليلى وشكَّ في حقيقته ، وهو بصور بما يضاف إليه من قصص كثير كيف أصبح هذا الغزل شعبياً ، وكان عرب نجد وبوادي الحجاز أفرغوا فيه وفي أفرادهم صور البطولة التي فقدوها في حياتهم الإسلامية بسبب خمود حروبهم الداخلية .

وغزل هؤلاء النجديين من أروع صور الغزل العربي ، لما أشاعوا فيه من نبل وسمو وطهارة ونقاء . وعادةً ينسب الأدباء والمؤرخون إلى بنى عُدْرَةَ ، لكثرة ما أنتجت فيه ، فيقولون غزل عُدْرِي وهو غزل يمسح عليه الإسلام وما أحاط به المرأة من جلال ووقار وما حرّم من الآثام ظاهرةً وباطنة . وكان مما ساعد عليه شعور الحزن الذي وصفناه في غير هذا الموضع والذي كان يجلل أطراف الجزيرة لمن هاجروا منها عن عشائريهم وأهلبيهم ، ودائماً يُصنّف الحزن النفس وينقيها ويعدّها حين تتحدث عن الحب أن تشجّج حقاً وأن تؤثر في النفوس تأثيراً بالغاً .

وإذا تركنا نجداً وبوادي الحجاز إلى أطراف الجزيرة الشمالية على حدود الشام والجزيرة وجدنا كثيراً من عشائر قيس وبطونها وخاصة من كلاب وعامر وسُلَيْمٍ تنزح إلى الشمال فتزاحم قبيلة كلب وأخواتها اليمنية في الشام وقبيلة تغلب في الجزيرة . ويكون ذلك سبب خصام قبلي واسع ، تصطدم فيه المصالح الاقتصادية في الرعى وغير الرعى كما تصطدم المصالح السياسية ، فقد كانت كلب وأخواتها اليمنية مواليةً لبنى أمية ، وكذلك كانت تغلب ، فكان طبيعياً أن تقف قيس في الصفوف المعادية حين تواتيها الفرصة . ولم تلبث الفرصة أن سَنَحَتْ حين بدا انهيار بنى أمية عقب وفاة يزيد بن معاوية ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة ،

وسرعان ما حطّبت قيس في حبّله ، معلنة ثورتها على الأمويين تحت إمرة الضحاك بن قيس في الشام وزُفر بن الحارث الكلّابي في قرقيسيا بالجزيرة . وتوالى الأحداث واتفق الأمويون وقبيلة كلب بزعامه ابن بَحْدَل على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة . وثار قيسُ الشام ، وأوقعتُ بها كلب وقبائل قضاعة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة ساحقة في مَرَجِ رَاهِط ، قُتِل فيها الضحاك بن قيس . وتمت البيعة لمروان في الشام ، وتبعته مصر . غير أن قيسَ الجزيرة ثبتت على موقفها بقيادة زفر بن الحارث وانضم إليه عُثَيْر بن الحُباب السُلَمي ، وأخذ عمير يغير غارات كثيرة على كلب في أيام متعاقبة مثل : يوم الغَوِير ويوم الهيل ويوم كآبة ويوم الإكليل ويوم السماوة ويوم دهمان ^(١) . ووالى قيس غاراتها على تغلب ، ونكّل بها عمير في غير موقعة ، وخاصة يوم ماكسين ^(٢) وكان بين من أسرت قيس فيه القطامي ، فلما عرفه زفر خلّى سبيله ، وأعطاه مائة من الإبل ، مما جعل القطامي ينوّه بمأثرته عليه طويلاً ^(٣) ، ونمضى فإذا تغلب تقتل عميراً سنة ٧٠ في إحدى غاراته عليها بالحشّاك إلى جانب نهير الثرثار . ويثار له زفر في موقعة مَرَجِ الكُحَيْل حيث فتك بتغلب فتكاً ذريعاً .

وكان يكفُّ عبد الملك في هذه الأثناء يده عن قيس الجزيرة رجاء أن تتحول إليه ، وكان الصراع مندلعاً بين المختار الثقفي ومعه أهل الكوفة وبين مصعب بن الزبير ومعه أهل البصرة ، فرأى عبد الملك أن ينتظر رجاء أن يُقضى بعضهم بعضاً ، وانتصر مصعب . ولم يعاجله عبد الملك بالهجوم ، ونراه يفلح في جذب زفر إليه ، حتى إذا أصبح طريقه آمناً اقتحم بجيشه العراق وقتل مصعباً سنة ٧١ للهجرة وأرسل الخنّاج إلى عبد الله بن الزبير بمكة ففضى عليه . وبذلك أنقذت تغلب من محالب قيس ، غير أن بقية بقيت لهذه الحروب الدامية إذ تصادف أن الأخطل دخل على عبد الملك وعنده الجحّاف بن حكيم السُلَمي فسأله عبد الملك هل يعرفه ؟ فقال : نعم هذا الذي أقول فيه :

ألا سائل الجحّاف هل هو نائرٌ بقتلى أصيب من سُليمٍ وعامرٍ ^(٤)

(١) انظر الأغاني (طبعة الساسي) ١٢١/٢٠ (٣) أغاني ١٢٨/٢٠ .

وما بعدها . (٤) يريد الأخطل اليوم الذي قتلت فيه بنو

تغلب عمير بن الحباب السلمي . (٢) أغاني ١٢٧/٢٠ .

وكان الجحاف ممن فتكوا بتغلب تحت لواء عمير بن الحباب . وقد ظل
يموج به الغضب والأخطل ينشد قصيدته حتى إذا فرغ منها أجابه :

نَعَمْ سَوْفَ نَبْكِيهِمْ بِكُلِّ مَهْنَدٍ وَنَبْكِي عُمَيْرًا بِالرَّمَا حِ الْخَوَاطِرِ^(١)

ومضى الجحاف، فأغار بقومه بني سُلَيْم سنة ٧٣ على تغلب عند موضع
يسمى البِشْر، فنكّل بها تنكيلاً فظيعاً، إذ قتل رجالهم ونساءهم وبَقَر بطون
حواملهم، وكان ممن قتله ابن للأخطل . أما الأخطل نفسه فوقع أسيراً، غير
أنه موّه على بني سُلَيْم حقيقته وقال : إنه من عبيد تغلب، فأطلقوه وهم لا يعرفونه .
ولما رأى الجحاف أنه خرج بذلك على ميثاقه لعبد الملك لحق بأرض الروم
خوفاً منه، ولكن قيساً ما زالت تتوسل إلى عبد الملك أن يعفو عنه حتى أمّنه .
غير أنه ألزمه أن يدفع ديات قتلى البِشْر فلجأ إلى الحجاج فأداها له، وتألّاه
الجحاف بعد ذلك ونَسِكَ^(٢) .

ولمّا سقنا هذه الأحداث، لأن العصبية الجاهلية عادت فيها جَدَّة بين
قيس من جهة وكتب وتغلب من جهة أخرى وعاد معها الثأر، حتى أصبح
فوق كل شيء، وحتى أصبحنا نسمع في كل مكان النار ولا العار، واشتطوا
في القتل وسفك الدماء اشتطاطاً، إذ بقروا بطون الحوامل وقتلوا النساء .

وعودة العصبية القبلية على هذا النحو هيأت في قوة لعودة أشعار الفخر
والهجاء . ففي كل جانب يتصايح الشعراء منذرين خصومهم بالويل والثبور،
ويفيض الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري بأشعارهم، ونجد
من ذلك آثاراً في الطبري يُنشدّها مع الأحداث في موقعة مرج راهط^(٣) وغيرها .
وآثاراً أخرى كثيرة في كتاب الأغاني^(٤)، فقد تراص شعراء كلب من أمثال جِوَّاس
ابن القَعْمَط وعمر بن الحُصَلَة ومنذر بن حسان وشعراء تغلب وعلى رأسهم الأخطل،
كما تراص شعراء قيس وعلى رأسهم زفر بن الحارث وعمير بن الحباب وجِهم

(١) خطير الرمح : اهتز في يد فارسه . (٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢/١٩٨

(٢) أغاني ١٢/١٩٨ وما بعدها . وما بعدها و (طبعة الساسي) ١٧/١١١

(٣) الطبري ٤/٤١٨ . وما بعدها ، ٢٠/١٢١ وما بعدها .

القشيري وابن الصنفار المخاربي ، وأخذ كل فريق يرش سهامه من الوعيد والتهديد والتخويف الشديد ، فالتهب الهجاء والفخر التهايا .

ومضى كثير من شعراء القبائل في هذه الأنحاء بعد أن عاد السلام إلى نصابه يمدحون الخلفاء والولاة طلباً للنوال ، يتقدمهم في ذلك الأخطل والنقشاشي وأعشى تغلب وأعشى بني شيبان ونابعهم ، وكما كانوا يقصدون الولاة والخلفاء كانوا يقصدون الأجواد من الأمويين وغيرهم .

٣

الكوفة والبصرة

لما أقبل العرب من الجزيرة على العراق يفتحون وينشرون الإسلام واتسعت بهم الفتوح لعهد عمر بن الخطاب رأى أن لا يتخذوا المدن القديمة منازل لهم حتى لا يتلاشوا فيها ، وأمر بثاقب بصيرته أن يبني لهم معسكران على حدود الجزيرة الشرقية . حتى يظل اتصالهم بالجزيرة ، وحتى لا ينساحوا في البلاد المفتوحة . وهذان المعسكران اللذان كانا مادة الجيوش المحاربة في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي جميعاً سواء في فارس أو في خراسان هما الكوفة والبصرة .

وقد خُطّطت الكوفة في سنة سبع عشرة للهجرة ، ونزلت القبائل اليمنية في شريقها والعدنانية في غربها ، ولم تلبث أن حُشدت حسب أنسابها في سبع خطط ، خطة أو سبع لكنانة وخلفائها وجديلة ، وخطة أو سبع لقضاة وغسان وبسجيلة وخشعم وكيندة وحضرموت والأزد ، وخطة أو سبع لمدحج وحمير وهمدان وخلفائهم ، وخطة أو سبع لتميم وسائر الرّباب وهوازن ، وخطة أو سبع لأسد وغطفان ومحارب والنمير وضبيعة وتغلب ، وخطة أو سبع لإياد وعكّ وعبد القيس وأهل هجر الحمراء . ولم يذكر الطبري السبع السابع^(١)

(١) طبري ١٥٣/٣ وما بعدها .

واستظهر ما سينيون في كتابه عن خطط الكوفة أنه كان لقبيلة طي* ، وربما شركتها فيه قبيلة بكر ، إذ لا نجد لها هي الأخرى ذكراً في الأسباع السالفة . وظلت هذه الأسباع حتى عصر زياد بن أبيه وقد جعلها أربعة ليُدخل القبائل بعضها في بعض .

وكان يَكْشَف الكوفة من الشرق زروع ونخيل وأشجار يسقيها الفرات ، وكان في ظاهرها من الغرب الحيرة والنجف والخَوَرَنق والسَّدير والغَرَيَّان ومتنزهات وديرة كثيرة^(١) وبمجرد أن نزلها العرب نزلها معهم بقايا الجيوش الساسانية التي انضمت إليهم ، ويقال إنهم بلغوا أربعة آلاف ، وكان نقيبهم يسمى دَيْلَم ، فنُسبوا إليه ، وُسِّمُوا حمراء ديلم^(٢) ، ونزلها معهم أيضاً رقيق الحروب التي خاضوها ، وأخذ يتوافد كثير من النبط والتجار والصناع .

وقد اتخذ علي بن أبي طالب الكوفة حاضرة له حين ذهب إلى حرب الخارجين عليه ، بينما نزلت السيدة عائشة وطلحة والزبير في البصرة ، ووقعت بين البلدين موقعة الجمل المعروفة وفيها علت كفة علي والكوفة . ويدخل أهل البصرة في طاعة علي ، ولكن تظل منذ هذا التاريخ في صدورهم إحساناً لأهل الكوفة . ويخرج علي بجيوشه إلى لقاء معاوية في صِفِّين ، وتحدثت المعركة بينهما ويشند أوارها كما يشند أوار الشعر بين الفئتين المتحاربتين . ويكون التحكيم .

ويخلص الأمر لمعاوية فيولّي على الكوفة المغيرة بن شعبة . ويأخذها بالرفق الشديد ، حتى مع من كانوا يظهرون فيها التشيع ولا يخفونه من أمثال حُجْر بن عدى ، وكذلك كان يصنع بالخوارج ، وقد كفاه أهل الكوفة أمر المُستورد ابن عَدَفَة الخارجي حين ثار عليه ، فأنبروا لقتاله وقضوا عليه وعلى من تبعه وهم يتناشدون الشعر ويرمونهم وجماعته^(٣) به . ومات المغيرة سنة ٥٠ للهجرة فخلفه على الكوفة زياد بن أبيه ، فأخذها أخذاً شديداً ، ولم يلبث أن ضيق الخناق بها على حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة ، واضطُرَّ حُجْر وبعض من شايعه إلى حمل السلاح ، فوقع مناوشات بينه وبين أصحاب زياد ،

(١) انظر مادة كوفة في معجم البلدان لياقوت .
(٢) فتوح البلدان للبلاذري (طبعة المطبعة
المصرية بالأزهر) ص ٢٧٩ .
(٣) طبري ١٤٣/٤ وما بعدها .

ارتفع فيها صوت الشعر^(١) ، وتغلب زياد عليه وعلى المتمردين معه ، وأرسله في نفر منهم إلى معاوية ، فقتله في ستة من أصحابه . وكانت تلك أول شرارة أوقدت النفوس في الكوفة ضد الحكم الأموي ، واعتبر الشيعة حُجراً وأصحابه شهداء ، وأخذوا يتفجعون عليهم^(٢) . وتمضى الكوفة تحت حكم زياد مبطنةً معارضةً شديدة ، إذ أخذ كثير من أهلها يصطبغ بصبغة التشيع ليعلى وبنيه . ويتوفى زياد في سنة ٥٣ ويخلفه على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد ، ثم الضحاك بن قيس الفهري ثم عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي ثم النعمان بن بشير ، ويتوفى معاوية ويخلفه ابنه يزيد ، فيضمها إلى عبيد الله بن زياد وإلى البصرة . ويأبى الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير مبايعة يزيد بالخلافة ويخرجان من المدينة إلى مكة ، فيكاتب أهل الكوفة الحسين ، ويرسل إليهم بآب بن مسلم بن عقيل فيبايعه اثنا عشر ألفاً منهم . ويخرج إليهم الحسين ، ويعلم في الطريق أن ابن عمه اضطر إلى قتال عبيد الله بن زياد وأن أهل الكوفة تخذوا عنه وأسلموه إلى عبيد الله ، فقتله ، وكان أول قتيل لبني هاشم صُلبت جثته ، يعلم الحسين بذلك كله ، ولكنه يصمم على المضي إلى غايته فيُقْتَل وهو يقاتل جنود عبيد الله بن زياد بكربلاء على نهر الفرات في العاشر من المحرم سنة ٦١ للهجرة . وتتطور الحوادث . فيتوفى يزيد بن معاوية ويضطر عبيد الله بن زياد أن يغادر البصرة إلى دمشق . ويتلاقى الشيعة بالتلاوم والتندم على تقصيرهم في حق الحسين ونفورهم عن نُصْرته ، ويرون أنه لا يغسل عارهم إلا حربٌ مَنْ قتلوه وإلا التوبة مما فرط منهم ، فسُمُّوا التَّوَابِينَ ، ولَوْأ أمرهم سليمان ابن صُرْد . ولم يلبثوا أن جمعوا آلة الحرب واتجهوا إلى الشام يريدون أن يثأروا للحسين ، فالتقوا في عَمَيْن الوردية (رأس العين) في وسط الجزيرة بجيش أموى على رأسه عبيد الله بن زياد ودارت الدوائر عليهم ، وسقط سليمان في المعركة ، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ . وعادت فلول الجيش الشيعي إلى الكوفة ، وانهز المختار الثقفي الفرصة ، فدعا لمحمد بن الحنفية ، وانضوى الشيعة تحت لوائه ، واستطاع أن يستخلص الكوفة من وإلى ابن الزبير ويطرده منها ، وأخذ

(١) طبرى ٤/١٩٣ .

(٢) طبرى ٤/٢٠٩ .

ينكّل بمن كان هواهم مع بني أمية ، مما جعل شعراءهم خشية بطشه يمدحونه هو وإمامه ، وكأَنهم من شيعتهم على شاكلة قول عبد الله بن كَهْأَم السَّأُولِي (١) :

دَعَا يَا لثَارَاتِ الْحُسَيْنِ فَأَقْبِلْتُ كَتَائِبُ مِنْ هَمْدَانٍ بَعْدَ هَزِيعٍ (٢)
وَأَبَ الْهُدَى حَقًّا إِلَى مُسْتَقَرِّهِ بِخَيْرِ إِيَابِ آبِهِ وَرَجُوعِ
إِلَى الْهَاشِمِيِّ الْمُهْتَدِي الْمُهْتَدَى بِهِ فَذَنَحْنُ لَهُ مِنْ سَامِعٍ وَمُطِيعِ
وَلَمَّا اسْتَجْمَعَ الْأَمْرُ لِلْمُخْتَارِ أَعَدَّ جَيْشًا بِقِيَادَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْثَرِ لِحَرْبِ أَهْلِ
الشَّامِ ، فَالْتَمَى فِي سَنَةِ ٦٦ بِجَيْشٍ عَلَيْهِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ فِي «خَازَر» بَيْنَ الْمَوْصِلِ
وَالرَّبْلِ ، وَذَارَتْ الدَّوَابُّ عَلَى جَيْشِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَقَطَ فِي الْمَعْرَكَةِ . وَيُولَّى ابْنُ
الزُّبَيْرِ عَلَى الْبَصْرَةِ أَخَاهُ مَصْعَبًا سَنَةَ ٦٧ وَتَنَشَّبَ الْحَرْبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُخْتَارِ ،
وَتَعَلَوْ كُفَّةَ مَصْعَبٍ ، فَيُقْتَتَلُ الْمُخْتَارُ وَتَدْخُلُ الْكُوفَةُ فِي طَاعَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ .

وَنَمَضَى بَعْدَ ذَلِكَ ، فَتَجَدَّ الْكُوفَةُ تَشَارَكَ فِي ثَوْرَةِ ابْنِ الْأَشْعَثِ لِعَهْدِ الْحِجَاكِ
وَهِيَ لَيْسَتْ ثَوْرَةٌ شِيعِيَّةٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ ثَوْرَةُ أَهْلِ السِّيَادَةِ وَالشَّرَفِ فِي الْكُوفَةِ عَلَى
بَنِي أُمِيَّةٍ ، فَقَدْ كَانَتْ الْكُوفَةُ مُسْتَقَرَّ الْبَيْوَتَاتِ الْعَرَبِيَّةِ (٣) . وَكَانَ سَادَةُ هَذِهِ
الْبَيْوَتَاتِ وَأَشْرَافُهَا يَمْتَعِضُونَ مِنْ ظُلْمِ وَلَاةِ بَنِي أُمِيَّةٍ لَمْ وَأَخَذَهُمُ بِالْعَنْفِ وَالْقَسْوَةِ
وخاصَّةَ الْحِجَاكِ ، وَأَتَيْتِ الظُّرُوفُ لِوَاحِدِهِمْ هُوَ ابْنُ الْأَشْعَثِ أَنْ يَعلنَ الثَّوْرَةَ
عَلَى الْحِجَاكِ بَلْ عَلَى الظُّلْمِ كُلِّهِ ، وَمِنْ ثَمَّ دَعَا لِنَفْسِهِ بِالْخِلَافَةِ ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِ
كَثِيرٌ مِنَ الْمَوَالِي وَالْقُرَّاءِ . وَتَنَازَلَهُ الْحِجَاكِ فِي وَقَائِعٍ كَثِيرَةٍ أَهمُّهَا وَقَعَةُ دِيرِ الْجُمَاكِمْ
وَانْتَصَرَ عَلَيْهِ ، وَهَرَبَ ابْنُ الْأَشْعَثِ إِلَى فَارَسٍ ، وَأَوَّغَلَ فِي هَرُوبِهِ ، حَتَّى وَصَلَ
إِلَى مَلِكِ التُّرْكِ مُسْتَجِيرًا ، وَقُتِلَ أَخِيرًا .

وَمَا زَالَ شِيعَةُ الْكُوفَةِ يَنْتَظِرُونَ الْإِمَامَ الْعُلُوِيَّ الَّذِي يَخْلُصُهُمْ مِنَ الْأُمَوِيِّينَ
وَيُظْلِمُهُمْ ، حَتَّى ظَهَرَ بَيْنَهُمْ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ ، وَدَعَا لِنَفْسِهِ بِالْخِلَافَةِ
مُنْشِئًا نَظْرِيَّةَ شِيعِيَّةٍ جَدِيدَةٍ نُسِبَتْ إِلَيْهِ ، هِيَ نَظْرِيَّةُ الزُّيْدِيَّةِ . وَمَا زَالَ بِهِ شِيعَتُهُ
يَسْتَعِدُّونَهُ عَلَى بَنِي أُمِيَّةٍ وَيَدْعُونَهُ لِلْخُرُوجِ ، حَتَّى خَرَجَ فِي سَنَةِ ١٢١ وَمَا كَادَ

(١) طبري ٥١٠/٤ .

(٢) الهزيع : نحو ثلث الليل .

(٣) من بيوت الشرف العريقة في الكوفة بيت

زُرَّارَةُ بْنُ عَدَسٍ الْقَيْمِيُّ وَبَيْتُ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ

الْكَنْدِيُّ وَبَيْتُ حَذِيفَةَ بْنِ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ وَبَيْتُ

ذِي الْجَدَيْنِ الشَّيْبَانِي .

القتال يستحرقُ بينه وبين جند يوسف بن عمر حتى انفضوا عنه إلا قليلا منهم ثبتوا معه حتى قُتلوا عن آخرهم ، وقُتل زيد ، وصُلب بسوق الكُسناسة في الكوفة . وهرب ابنه يحيى إلى خراسان ، وخرج بناحية الجوزجان ، وانتهى في سنة ١٢٥ إلى نفس المصير .

ولعل في كل ما قدمنا ما يوضح كيف أن الكوفة كانت موئل الشيعة في هذا العصر وأن ساداتها الذين لم يعتنقوا التشيع كانوا يكتنون بغضاً لبني أمية وحكمهم . ولم يكن للخوارج شأن مذكور في الكوفة ، ومع ذلك نجد لهم فيها شاعراً مشهوراً هو الطرّمسّاح . وكان كثير من أهلها ينصرف عن هذه المعارضة السياسية إلى الزهد وتقوى الله ، وكان يجوارهم من يُقبلون على اللهو والحر ، أمثال الأقيشسر الأسدي ، وتكاثروا بأخرة من العصر على نحو ما هو معروف عن مطيع بن إياس وحليته .

ولم تتورط الكوفة في العصبية القبلية ، ولذلك كان حظها في شعر الفخر والهجاء ضعيفاً ، وليس معنى ذلك أن الهجاء انحسر عنها ، فقد أخرجت شاعراً من أكبر المهجائين في العصر هو الحكم بن عُبَيدل . وقد مضى كثير من شعرائها يُعنى بمديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وكان منهم من يتعصب لبني أمية تعصباً شديداً مثل عبد الله بن الزبير الأسدي .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة وجدناها تخطّط حوالى سنة ست عشرة للهجرة معسكراً للجيوش المقاتلة في الشرق على مقربة من مصب نهر دجلة بين إقليم البطائح الذى تكثرت مستنقعاته وشاطئ خليج العرب ، وقد روعى فيها كما روعى في الكوفة أن تكون على حافة البادية ، وسرعان ما توزعت القبائل خططاً ، خمساً كبيرة : خطة تميم وخطة لعبد القيس وخطة لأهل العالية وخطة لبكر وخطة للأزد ، وكانت اليمن تلوذ بخطة الأزد بينما لاذت عشائر من أسد والنمر بن قاسط ببكر ، ولاذ أهل هجر بخطة عبد القيس ، ولاذت ضبة والرباب بخطة تميم . وقد أقاموا بجانبها سوقاً كبيرة ، هى سوق الميربد ، وقد تحولت في هذا العصر إلى سوق أدبية يتناشد فيها الشعراء أشعارهم ، ولكل شاعر حلقتة .

ونزلها مع العرب كثير من الرقيق الفارسي الذى جلبوه من الحروب ، كما

نزل معهم فريق كبير من جيوش يزدجرد خرج عليه وقاتله مع المسلمين ، وهو المعروف باسم الأساورة . وقد دخل في حلف تميم ، ودخل أيضاً في حلفها نفر من الهنود هم المعروفون باسم الزط والسيابجة والإندغار ، ونزل أيضاً بالبصرة جماعة من الأصهبانيين وأخرى من الحبش^(١) . وكان وقوع البصرة بالقرب من خليج العرب مهيباً دائماً لأن ينزلها كثيرون من الإفريقيين والهنود ، كما كان مهيباً لازدهار التجارة بها . وكانت الزراعة مزدهرة بها هي الأخرى ، ولا سيما زراعة النخيل بفضل النهرات الكثيرة التي اشتقّت من دجلة ، وخاصة نهري الأبلّة ومعدل .

وأخذ نزلتها من العرب المجاهدين في سبيل الله ومن انضم إليهم من الأساورة يُشخّنون بقيادة الأحنف بن قيس التميمي لعهد عمر بن الخطاب في أرض فارس وتغلغلوا إلى خراسان ، وتتابع الفرس على الصلح فيما بين نيسابور وطخارستان^(٢) . وولى البصرة لعهد عثمان عبد الله بن عامر فدفع الجيوش البصرية إلى سجستان وعامة خراسان^(٣) . ثم كانت فتنة عثمان وبيعة علي ، فانضم كثيرون من أهل البصرة إلى السيدة عائشة وطلحة والزبير ، وانزوى الأحنف بقومه تميم عنهم^(٤) ، ونشبت موقعة الجمل ، وأسلمت البصرة لعلي ، يتقدّم صفوفها الأحنف ، وحاربت معه بيصفيين ، وظلت والية له إلى وفاته .

وتدخل البصرة في العصر الأموي ، ونراها تُدْعَن للمعاوية وابنه يزيد ، بينما تأخذ في اجتراح العصبية القبلية القديمة ، وكان مماهياً لذلك قيام حلفين كبيرين بها ، هما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وبكر وعبد القيس . وبذلك تكتلت قبائلها في حلفين كبيرين ، وأوغر صدور الحلف الأول كثرة المهاجرين من أزد عثمان إلى البصرة . ونرى زياد بن أبيه يستغل هذه العصبية في توطيد سياسته بالبصرة ، إذ أخذ يضرب القبائل بعضها ببعض . ومعنى ذلك أن البصرة لم تُشغَلْ بخصومة شيعية على نحو ما شُغِلَت الكوفة ،

(١) انظر في تخطيط البصرة ومن نزلها فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٤١ وما بعدها والطبري (٢) طبرى ١٨٩/٣ ، ٢٢١ - ٢٤٤ .
(٣) طبرى ٣٥٨/٣ وما بعدها .
(٤) طبرى ٥١٠/٣ - ٥١١ .
٢٦٥/٤ ، ٤٧٨ ، ٥٥٩ وفنائس جرير والفرزدق ٧٣٧ .

فقد كانت كثرة أهلها عثمانية الهوى ، إنما الذى شغلها حقاً هو الحصومة القبلية وما طوى فيها من عصبيات ، وقد كان بها كثيرون من الخوارج ، غير أن زياداً أمعن فى الضرب على أيديهم . ونراه يختار من أهلها خمسة وعشرين ألفاً ومن أهل الكوفة مثلهم ، ويُخرجهم بآسَرِهِمْ إلى غزو خراسان^(١) ، حتى يتخلص من عناصر الشغب فى البلدين .

وتبعه ابنه عبيد الله فى سياسته من ضَرْب القبائل بعضها ببعض والتشديد على الخوارج . ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتضطرب البصرة ، ويبيع كثيرون منها ابن الزبير ، ويُضطرُّ عبيد الله أن يرحلها إلى دمشق . ويستولى مسعود بن عمرو سيد الأزد على قصر الإمارة والمسجد بالقوة ، يشدُّ من أَرْزِهِ قبيلته وبكر وعبد القيس ويصعد المنبر يخطب فى الناس ، فتغضب تميم وتهجم عليه مع أحلافها من الأساورة ، فتُنزله من فوق المنبر وتقتله . وينشب القتال بين الأزد وتميم طلباً للثأر ، ويتدخل الأحنف ويستطيع بحُسْنِكته أن يعيد السلام بين القبيلتين نظير دية كبيرة يؤديها للأزد هو وقبيلته ، ولكن العداوة تستمر متأججة بين الفئتين طوال العصر .

وتتبع البصرة ابن الزبير ، ويولى عليها أخاه مصعباً ، فيحارب المختار الثقفى فى الكوفة كما أسلفنا ، ويقضى عليه قضاء مبرماً . ويحارب الأزارقة ، ويوجه إليهم المهلب وغيره من القواد ، ويوقعون بهم هزائم عنيفة . وتنشب ثورة صغيرة للزنج فيُجْهَز عليها .

وتعود البصرة إلى الخضوع لبني أمية عقب مقتل مصعب ، وهى تغلّى بالعصبيات القبلية . ووليَّها الحجاج الثقفى لأكثر من عشرين عاماً ، وفى عهده عملاً شأن قيس لتعصبه لها ، وكان أكبر شخصية بين أبنائها ، فجئحت إليه وجئحت إليها ، وخاصة أنه احتاج تأييدها له فى الثورات الصغيرة التى كانت تنشب من حوله مثل ثورة قبيلة عبد القيس بزعامة ابن الجارود وثورة الزنج . وكان طبيعياً أن يكون بين أفراد حاشيته كثير منها . وأخذ تعصبه لها يقوى مع الزمن ، فإذا هو يعزّل أبناء المهلب عن خراسان ويولى عليها قتيبة

ابن مسلم الباهلي. ونراه يولّى على الجيوش الغازية في الهند محمد بن القاسم الثقفي. ومعروف أنه كان يُنِيب عنه في حكم البصرة الحكم بن أيوب الثقفي. وولّى على أصبهان خنّسَه مالك بن أسماء الفزارى. ومعنى ذلك أن قيساً قوى أمرها في البصرة لعهد الحجاج. ويتوفى سنة ٩٥ ويتوفى بعده الوليد بن عبد الملك، ويخلفه سليمان أخوه، فيولّى على العراق ثم خراسان يزيد بن المهلب، فيعظم شأن قبيلة الأزد.

وعلى هذا النحو كان يعظم شأن كل قبيلة في البصرة حين يتولاها شخص منها، وكان ذلك يزيد في تنافس قبائلها واشتعال العصبية بينها، لما يستتبع من المغنم السياسية في تولي الوظائف وغيرها. وولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، فعزل عن البصرة يزيد بن المهلب، وولّى عليها عدى بن أرطاة الفزارى، فعادت إلى قيس مكانتها. ويتوفى عمر ويخلفه يزيد بن عبد الملك، فيثور عليه يزيد بن المهلب، وتتجمع حول لوائه الأزد وربيعه بينما تقف تميم وقيس بجانب ابن أرطاة. ويظهر مسلمة بن عبد الملك بجيوش الشام على المسرح، ويقضى على ابن المهلب، ويتبع فلول جيشه هلال بن أحوز المازني التميمي فيقضى عليها وعلى من بقي من المهالبة قضاء مبرماً. ويولّى يزيد بن عبد الملك على العراق مسلمة لمدة محدودة، إذ سرعان ما ولّى عليه عمر بن هبيرة الفزارى، وكان يتعصب لقيس تعصباً شديداً، ولم يُشِرْ عليه الأزد وربيعه وحدهما، فقد أثار عليه أيضاً تميمًا وشاعرها الفرزدق. ويكلى الخلافة هشام ابن عبد الملك، فيعزل ابن هبيرة، ويولّى خالداً القسري لنحو خمسة عشر عاماً، وكان يتعصب لليمن تعصباً شديداً، فاضطّر الخليفة آخر الأمر أن يعزله ويولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي، وبذلك رفعت قيس رأسها، وعادت إلى سابق مكانتها. وممن وليها بعده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وكان آخر ولايتها يزيد بن عمر بن هبيرة القيسي.

ونرى من كل ذلك أن البصرة ظلت طوال العصر تعيش للعصبية القبلية، ومن ثم كانت المحور الذي دار عليه شعرها، إذ تحول كل شاعر يفخر بقبيلته مصوباً سهام هجائه لمن يعادونها من القبائل. ولم يقف الشعراء عند الحصومات

بين الحليّفين اللذين تحدّثنا عنهما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وربيعه ومن انضم إليهما من القبائل اليمنية ، فقد أثاروا ما بين العشائر والبطون من حزازات قديمة وأضافوها إلى ما تكوّن من حزازات حديثة ، بحيث لم تبق عشيرة إلا ولها شاعرها أو شعراؤها الذين يذودون عنها مفاخرين هاجين ، واتخذ ذلك شكل معارك عنيفة ، على نحو ما نعرف عن معركة الهجاء التي نشبت بين جرير والفرزدق .

ولم تُنمَّ البصرة شعر الفخر والهجاء وحده ، بل نَمَّت أيضاً شعر المديح ، فقد تحول شعراؤها إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد يمدحونهم ويأخذون جوائزهم . وقلنا آنفاً إن الخوارج في البصرة كانوا كثيرين ، وقد هيأت هذه الكثرة لأن يظهر من بينهم غير شاعر مثل عمران بن حطان ، أما الشيعة فكانوا قليلين ، ومن ثم لم ينشط الشعر الشيعي بالبصرة ، وكأنها تركته للكوفة كي تبلغ منه كل ما كانت تريد من معارضة الدولة والتشيع للبيت العلوي وبيان حقّه في الخلافة . وإذا كنا لاحظنا في الكوفة أن شعراء كثيرين كانوا يقفون في صفوف بني أمية ضد معارضيتهم من الشيعة فإن البصرة هي الأخرى كان بها كثير من الشعراء الذين نافحوا عن الحكم الأموي وعلى رأسهم جرير . ويلقانا بين أعاجم البصرة غير شاعر ، وطبيعي أن ينتظموا في صورة الشعر البصري العامة من الفخر والهجاء والمديح ، ومن اشتهروا منهم يزيد بن مفرغ الحميري . ويلقانا أيضاً شعراء يتغنون بالخمير مثل حارثة بن بدر الغداني التميمي ، وإن كان من الحق أن موجتها لم تتسع في البصرة اتساعها في الكوفة ، فقد كانت أكثر وقاراً ، ومن ثمّ فسّحت للزهد وشعرائه من أمثال أبي الأسود الدؤلي .

٤

خراسان

مرّ بنا أن جُسناء البصرة هم الذين مضوا شرقاً في عهد عمر بن الخطاب حتى فتحو خراسان ، وقد توغلوا فيها لعهد عثمان ، فكان طبيعياً أن يحملوا معهم ما أخذت تستشعره القبائل البصرية من العصبية القديمة . وكان مما زادها

َضْرَاوَةً فِي نَفْسِهِمْ أَنَّ قَوَادِ الْجِيُوشِ الْحَارِبَةِ كَانُوا يَكْفَأُونَ عَلَى انْتِصَارَاتِهِمْ بِإِسْنَادِ إِدَارَةِ الْجِهَاتِ الَّتِي يَفْتَحُونَهَا إِلَيْهِمْ ، وَكَانَ الْقَائِدُ حِينَ تُسَنَدُ إِلَيْهِ وَلَايَةً يَخْصُ قَبِيلَتَهُ بِالْعُنُومِ الْأَكْبَرِ . وَكَذَلِكَ كَانَ يَصْنَعُ الْوَلَاةَ مِنْ قَبْلِ الْخَلِيفَةِ أَوْ إِلَى الْعِرَاقِ ، فَانْطَوَتْ النَفُوسُ عَلَى مَوْجِدَةٍ شَدِيدَةٍ ، وَهِيَ مَوْجِدَةٌ أَدَّتْ هُنَاكَ دَائِمًا إِلَى حُرُوبٍ عَنِيفَةٍ وَاشْتِبَاكَاتٍ دَامِيَةٍ ، كَانَتْ تَعْلُو فِيهَا الْقَبِيلَةُ كَمَا كَانَ يَعْلُو النَّارُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ الْعَرَبُ بِخُرَاسَانَ فِي نَفْسِ الْمَوْقِفِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَسْلَافُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَهُمْ يَعِيشُونَ لِلْمَنَازَعَاتِ الْقَبِيلِيَّةِ وَالثَّارَاتِ ، وَحَقًّا كَانُوا يُشْخَلُونَ أحيانًا بِحُرُوبِ التُّرْكِ ، وَلَكِنْهُمْ كَانُوا لَا يَهْدُونَ وَيَنْصَرِفُونَ قَلِيلًا عَنْ حُرْبِهِمْ حَتَّى يَتَحَارَبُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ حَرْبًا مَرِيرَةً ، وَهِيَ حَرْبٌ عَادَتْ فِيهَا الْعَصَبِيَّاتُ جِدَّةً .

وَقَدْ بَدَأَتْ هَذِهِ الْعَصَبِيَّاتُ تَسْتَعْرِ هُنَاكَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ الَّذِي بَدَأَ اسْتِعَارَهَا فِيهِ بِالْبَصْرَةِ ، أَيْ بَعْدَ وَفَاةِ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ فَقَدْ أَخَذَتْ الْأَزْدَ وَأَحْلَافَهَا تَحَاوَلُوا أَنْ تَسْتَوْلِيَ عَلَى السُّلْطَانِ هُنَاكَ ، وَتَصْدَتْ لَهُمْ قَيْسُ وَتَيْمُ بْنُ زَعَادَةَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ خَازِمِ السُّلَاسِيِّ . وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَجْمَعَ السُّلْطَانُ فِي يَدِهِ هُنَاكَ مَعْلَنًا وَلاَهُ لَابْنَ الزُّبَيْرِ ، حَتَّى إِذَا غَلَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ عَلَى صَاحِبِهِ أُرْسِلَ إِلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ فِي طَاعَتِهِ عَلَى أَنْ يُطْعِمَهُ خُرَاسَانَ سَبْعَ سِنِينَ ، وَأَتَى ابْنُ خَازِمٍ ، غَيْرَ أَنْ نَاقَبَهُ فِي مَرَوْ : بِكَبِيرِ بْنِ وَشَّاحِ التَّيْمِيِّ ثَارَ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَلْبِثْ ابْنُ خَازِمٍ أَنْ قُتِلَ . وَدَخَلَتْ خُرَاسَانَ ثَانِيَةً فِي طَاعَةِ بَنِي أُمِيَّةٍ ، وَلَوَّى عَلَيْهَا عَبْدُ الْمَلِكِ بِكَبِيرًا ، ثُمَّ وَلَّى أُمِيَّةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدِ الْأُمَوِيِّ . وَضَمَّهَا إِلَى الْحِجَاجِ ، فَوَلَّى عَلَيْهَا فِي سَنَةِ ٧٨ الْمُهَلَّبَ الْأَزْدِيَّ بَعْدَ قَضَائِهِ عَلَى الْأَزَارِقَةِ ، فَقَدِمَهَا يَصْحَبِهِ شَاعِرُهُ كَعْبُ الْأَشْقَرِيِّ الَّذِي طَالَمَا أَشَادَ بَانْتِصَارَاتِهِ عَلَى الْأَزَارِقَةِ . وَيَلْزِمُهُ شُعْرَاءُ خُرَاسَانَ يَمْدَحُونَهُ وَيَصِفُونُ حُرُوبَهُ مَعَ التُّرْكِ مِنْ أَمْثَالِ الْمَغِيرَةِ بْنِ حَبِيبِ بْنِ التَّيْمِيِّ وَنَهَارِ بْنِ تَوْسَعَةَ الْيَشْكُرِيِّ الْبَكْرِيِّ وَزِيَادِ الْأَعْجَمِيِّ مَوْلَى عَبْدِ الْقَيْسِ . وَتَوَفَّى الْمُهَلَّبُ سَنَةَ ٨٢ ، فَيَوَلَّى الْحِجَاجَ بَعْدَهُ ابْنُهُ يَزِيدُ ، وَكَانَ شَجَاعًا مَقْدَامًا كَمَا كَانَ بَحْرًا فَيَاضًا ، وَقَدْ أَشَادَ الشُّعْرَاءُ هُنَاكَ بِحُرُوبِهِ فِي فُرْغَانَةِ وَخَوَارِزْمٍ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ إِشَادَةً رَائِعَةً . وَيَعْتَزُّهُ الْحِجَاجُ لِعَصَبِيَّتِهِ الشَّدِيدَةِ لِلْأَزْدِ

وأحلافها من اليمن وربيعة ويولّى أخاه المفضل ، وسرعان ما يرى أن يتخلص من المهالبة جميعاً ، فيعزل المفضل ويولى قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة ٨٦ فتعلو كفة قيس ويعظم سلطانها . وكان قتيبة قائداً محنكاً وفارساً مغوراً ، ففضى يفتح في طخارستان وأرض السُغْد وخوارزم وسمرقند ، والشعراء من حوله يتغنون بانتصاراته . ولم يلبث قتيبة أن سقط وهو في أوج مجده ، وذلك أن سليمان ابن عبد الملك وليّ الخلافة بعد أخيه الوليد ، وكان حانقاً على الحجاج وعمّاله ، وخشى قتيبة على مصيره ، فثار عليه ، وسرعان ما انفضت عنه الأزد وأحلافها ثم تبعهم تميم ، لأنه كان قتل منها نقرأ من آل الأهم ، وأساء معاملته بطلها وكيع بن أبي سُود . وتزعّم وكيع حربه ، وانضمت إليه الأزد ، وكانت مغیظة منذ عزّل المهالبة وانضمت معها قبائل ربيعة كما انضم الموالي بقيادة حسيان التبطي ، وأخيراً خذله قيس إلا نقرأ من عشيرته باهلة ، فلقى حتفه سنة ٩٦ للهجرة . وولّى سليمان مكانه وكيع بن أبي سُود ، فأخذ الناس بالعنف ، فعزله ، وولّى يزيد بن المهلب ، جامعاً له بين خراسان والعراق ، وقد مضى يتبع سياسة قبلية جامحة ، إذ رفع من شأن الأزد ، وملأ بها الوظائف ، وجعل لها القسط الأكبر في الغنائم . وتوفى سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز فعزل يزيد وحبسه لتأخره في أداء الفتيء ، وكان قد بالغ لسليمان في بعض كتبه ، فقال إن الفتيء في بعض حروبه كان قناطير من الذهب ، وزعم أن خُمُسَه بعد أن أخذ كل محارب حقه منه بلغ أربعة آلاف ألف وفي رواية ستة آلاف ألف ، فلما طلب منه عمر ذلك ، ولم يستطع أدائه حبسه حتى يؤدي ما عليه للدولة ، ولم يكتف بعزله وحده ، فقد عزل كل ولاته الأزديين ، وبذلك سقط أو هوى نجمُ الأزد ، وقد ولي عمر على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي . ودخلت في عصر يزيد بن عبد الملك ، وتولاها غير قيسى ، ولا يلبث أن يُطْلَها عهد هشام بن عبد الملك ، وفيه تصبح تابعة لخالد القسري وإلى العراق ، وكانت فيه عصبية شديدة لليمن ، فارتفع شأن الأزد . ونراه ينب عليها أخاه أسداً سنة ١٠٥ وكان يحاكيه في سياسته ، فالتهمت العصبية القبلية التهاّباً ، وامتشتت الحسام الكتلتان الكبيرتان تميم وقيس من جهة والأزد وأحلافها

من جهة أخرى ووقعت بينهما وقعة معروفة باسم وقعة البروقان ببلخ سنة ١٠٦ وتوالت بينهما الوقائع ، وعُزل أسد سنة ١٠٩ ووليها الحكم بن عوانة الكلبي ولم يلبث أن عُزل ووليها أشرس بن عبد الله السُلَاسِي ، وخلفه عليها الجعيد بن عبد الرحمن المُرِّي سنة ١١٢ وعُزل عنها في سنة ١١٦ وخلفه عاصم بن عبد الله الهلالي. وفي عهده نشبت ثورة الحارث بن سُرَيْج وكان يرى رأى المرجئة ، كما كان يرى إسقاط الجزية عن الموالى ، واتخذ جهم بن صفوان كاتباً له ، وهو أشهر متكلمى هذه الفرقة . واستفحلت الثورة إذ انضم إليها كثيرون من تميم والأزد والموالى . وما زال عاصم يجاهدهم ، حتى عُزل في سنة ١١٧ وولى مكانه أسد القَسْرِي للمرة الثانية فضيَّقَ الخناق على الحارث حتى فر هارباً . غير أن أسداً مات ، وسقط أخوه خالد في العراق ، إذ صرفه هشام عن ولايتها وولّى عليها يوسف بن عمر الثقفي ، جامعاً له معها خراسان ، فولّى عليها نصر بن سيار ، وفي عهده اشتدت العصبية اشتداداً مروّعاً واشتد معها الشجار والقتال في كل مكان ، وظهر الحارث بن سريج على مسرح الحوادث ثانية وقتل . وأخيراً يظهر أبو مسلم الخراساني . وعبتا يصيح نصر بن سيار بجنوده أن يتداركوا الأمر^(١) وتكون نهاية بنى أمية .

ويفيض تاريخ الطبري بأشعار الشعراء في هذه العصبية التي احتدمت هناك وفي وصف حروب العرب والترك . ولعل من الطريف أن نعرف أن الشعر نشط في خراسان نشاطاً عظيماً ، إذ كانت الكثرة من العرب هناك مضرية ، وحيثما وجدت المضرين وجدت الشعر ، وكانت الأحداث كثيرة ، فألهمت غير شاعر بالشعر الرائع . ومن أهم شعرائهم زياد الأعجم وكعب ابن مَعْدَان الأشقرى ونهار بن توسعة وثابت قُطْنَة والمغيرة بن حَبَشَاء . ولعل من الطريف أن نعرف أن مَن هُؤْلَاء الشعراء مَن كان فارساً مقداماً مثل ثابت قُطْنَة وكعب بن مَعْدَان ، وكان من هُؤْلَاء الشعراء الفرسان من يقع في حب بعض نساء الترك والديلم وفتياتهم ، فيتغزل بهن ، على نحو ما نرى عند أبي جليدة اليشكري^(٢) ، وأعشى همدان^(٣) . وكان بين المحاربين كثيرون يحنّون إلى ديار

(١) طبري ٣٦/١ وما بعدها والأخبار الطوال (٢) أغاني (دار الكتب) ٣١٩/١١ ، ٣٢٥ .

للدنوري ص ٣٦٠ . (٣) أغاني ٣٤/٦ وما بعدها .

قومهم في الجزيرة، وخاصة حين يُلم بهم وهن ، ويظنون أنهم ميتون ، وقصيدة مالك بن الربيع في مرضه مشهورة^(١). وكان يحدث أحياناً أن يُخفق بعض البدو بالجزيرة العربية في حبسهم ، فيرحلوا إلى الثغور ، وينظموا شعراً يضمنونه حبهم اليأس، وهو شعر يفيض باللوعة الممضّة على نحو ما نجد عند الصّمة القُشَيْري^(٢) الذي مات غازياً بطبرستان .

٥

الشام

لا يكاد يُقاس الشعر في الشام لهذا العصر إلى ما انبثّ منه في خراسان والعراق والحجاز ، ومرجع ذلك أن قبائل الشام كانت في جمهورها قبائل يمنية ، وهي لا تبلغ في الشعر والشاعرية ما تبلغه القبائل المضرية ، وأهم شاعر أنبثته بيئة الشام في هذا العصر هو عدي بن الرقاع العاملي ، وهو يتأخر خطوات عن شعراء العراق والحجاز المبرزين أمثال جرير والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة .

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن كثيراً من قبائل قيس نزل الشام مع الفتوح ، واصطدمت مصالحه كما قدمنا بمصالح كلب والقبائل اليمنية ، مما جعل الحروب تنشب بين الطرفين من جهة وأوقد نيران الهجاء والفخر بين شعرائهما من جهة ثانية ، سواء في موقعة مَرَج راحط أو فيما تلاها من مواقع ظلت سنوات . ولكن هذا الشعر نعه طارئاً على الشام ، فلولا وفود هذه القبائل المضرية ما ظهر ولا استطار .

ومما يتصل بهذا الشعر الطارئ على الشام شعراء الذين كانوا يفدون على الأمويين يمدحونهم من الحجاز ونجد والعراق والجزيرة . ومن الحجازيين الذين أكثروا الوفود عليهم ابن قيس الرقيّات ونصيّب والأحوص وكثير وإسماعيل

(١) أغاني (سبي) ١٦٢/١٩ وذيل الأمال (٢) أغاني (دار الكتب) ٢/٦ وما

بعدها

ص ١٢٦ .

ابن يسار النسائي وطُربِج الثقفي ويزيد بن ضَبَّة وأبو العباس الأعشى، ومن النجديين الراعي والعُجَيْر السَّلُولي وأرطاة بن سُهَيْبَة وعقيل بن عُلْفَة وابن ميسادة ومن العراق جرير والفرزدق والأخطل ومسكين الدارمي وعبد الله بن الزبير الأسدي وأعشى شيبان ونابغتهم وذو الرمة .

وهؤلاء الشعراء جميعاً كانوا وافدين ، ولم يستقروا في الشام ، إنما كانوا يَلْمُتُون بها ، ثم يعودون إلى ديارهم وأهلهم يُجَرِّحُ الحَقَائِب . وربما كان أهم عشيرة اشتهرت بالشعر في هذه البيئة هي العشيرة الأموية نفسها ، فقد اشتهر من بين أفرادها بنظم الشعر يزيد بن معاوية ، ثم ابن أخته يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد وسنعرض له ولشعره في موضع آخر .

على أن هذه الأسرة نفسها كانت طارئة على الشام ، ومن ثَمَّ لا نغلو إذا قلنا إن الشعر فيها لهذا العصر كان بعامة شعراً طارئاً . ومن هذا الشعر الطارئ ما كان ينظمه الغزاة في حروب الروم ، وكانت كثرتهم من عرب الشام اليمنية ، ولذلك لم يكثر الشعر في هذه الحروب ، غير أن نقرأ من المضربين شاركوا فيها ، فجرى الشعر على ألسنتهم وتصايحوا به في بعض معاركهم ، وبكوا به شهداءهم على نحو ما نجد عند أبي العيال الهذلي حين غزا مع يزيد بن معاوية الروم ^(١) واستشهد ابن عم له يسمى عبد بن زهرة فرثاه رثاءً حاراً ^(٢) .

وعلى هذا النحو كان الشعر في الشام لهذا العصر محدود النشاط ، وكان في جملته طارئاً إما مع قبائل قيس ، وإما مع الوافدين على أبواب الخلافة ، وإما مع البيت الأموي القرشي نفسه ، وإما مع الغزاة الذين كانوا يجاهدون الروم .

٦

مصر والمراكز الأخرى

إذا أخذنا نستقصي مراكز الشعر الأخرى لهذا العصر وجدنا العناصر اليمنية

(١) الإصابة لابن حجر ١٤٣/٧ . ٢٤١/٢

(٢) ديوان الهذليين (طبع دار الكتب)

تغلب عليها ، وهي من حيث الشعر والشاعرية تتخلف عن العناصر المضرية . وقد تصادف أن كان أكثر الفاتحين لمصر وبلاد المغرب والأندلس من العناصر اليمنية ، وأخذت تتقدم وراءهم قبائل منهم ، تستقر في تلك الديار ، فكان طبيعياً أن لا ينشط فيها الشعر ، وأن يظل خامداً طوال العصر .

ولعل أهم هذه المراكز المتخلفة في الشعر والشعراء مصر ، وكانت متصلة بالحضارة اليونانية والرومانية قبل الفتح . ومدرسة الإسكندرية بها مشهورة وقد ظلت منارة للعرفان حتى عصر عمر بن عبد العزيز إذ هجرها أكثر أساتذتها إلى أنطاكية . والذي لا ريب فيه أنه ظلت بمصر بقايا كثيرة من الحضارة اليونانية والرومانية . وقد أخذت تنفس في جو الثقافة الإسلامية العربية ، وسرعان ما ظهرت بها مدرسة دينية على رأسها عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأخذت تهض في هذا المجال . غير أننا إذا رجعنا إلى الشعر بها وجدناه متخلفاً ، لما قلنا من غلبة العناصر اليمنية على العرب النازلين فيها . وحقاً نجد فيها أشعاراً كانت تُنظم من حين إلى حين في الأحداث التاريخية واليومية ، وهي مبنوثة في كتاب الولاة والقضاة للكندي ، ولكن قيمتها الشعرية ضعيفة وأكثر من ينظمونها يُعَدُّون مجهولين لنا ، وربما كان أهمهم ابن أبي زمزمة الذي عاصر عبد العزيز بن مروان في ولايته على مصر (٦٥ - ٨٥ هـ) وأشعاره المنسوبة إليه لا تترقى إلى أفق شاعر متوسط من شعراء المراكز الأخرى في الحجاز ونجد والعراق وخراسان .

ومن المحقق أن الشعر نشط بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان ، غير أنه في جملته شعر وافتد ، أنشده بمصر شعراء الحجاز ونجد والعراق ، الذين وفدوا على ابن مروان بمدحونه لأخذ نواله ، وكان بجزاً فياضاً ، وغيثاً مدراراً ، فقصده الشعراء من كل صوب أمثال كثير وابن قيس الرقيات ونُصَيْب وجميل وأيمن بن خُريّم وعبد الله بن الحجاج الثعلبي . وبمجرد أن مات عبد العزيز خمد هذا النشاط الطارئ ، إذ لم يعد يفد عليها الشعراء لأخذ الجوائز والعطايا الجزيلة .

فصر لم يكن بها نشاط قوى للشعر في هذا العصر ، وإذا تركناها إلى الغرب انبسطت أمامنا بلاد المغرب إلى مشارف المحيط الأطلسي ، وكان الشعر بها

أكثر تخلفاً ، لغلبة العناصر اليمنية على من نزلها من العرب ، ولأنه لم يظهر بها
وال على شاكلة عبد العزيز بن مروان ، يترحل إليه الشعراء ويمدحونه . وكذلك
الشأن في الأندلس المفتوحة في عهد الوليد بن عبد الملك ، فقد فتحتها قبائل
يمنية ، ومن ثم لم يزهو الشعر بها ، بل ظل ذاوياً ذابلاً إلى نهاية العصر .

وطبيعي أن يكون النشاط الشعري في اليمن خامداً ، لأنها لم تُجَلِّ فيه من
قديم^١ ، ولأنه لم تضطرم بها العصبية والثورات التي تدلّع ألسنة الشعراء على نحو
ما مرّ بنا في البصرة والكوفة وخراسان ، ومع ذلك فقد كان ينزلها بعض الشعراء
لمديح ولاتها على شاكلة أبي دَهْشَل الجهمي الذي اشتهر بمدح ابن الأزرقي
المخزومي وإلى ابن الزبير^(١) . وحين ظهر فيها نشاط الخوارج الإباضيين لأواخر
هذا العصر أخذ الشعر يجري على بعض الألسنة . ولكن على كل حال كان الشعر
هناك متخلفاً ، وربما كان خير شعرائها خالد الزبيدي الذي ترجم له ياقوت
في معجمه^(٢) .

(٢) معجم الأدباء (طبع القاهرة) ٢١/١١ .

(١) أغاني (دار الكتب) ١٢٨/٧ .

الفصل الثانى

مؤثرات عامة فى الشعر والشعراء

١

الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعربها وأثر ذلك فى اللغة

اندفع العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام وتعاليمه السمحة فى أقطار الأرض ، ففتحوا العراق وإيران وخراسان والشام ومصر وبلاد المغرب ، وعبروا رقعة الماء الضيقة فى جبل طارق ، وركزوا أعلامهم على مشارف البرانس كما ركزوها فى الهند . وكانت بعض قبائلهم تنتشر قبل الإسلام وفتوحه فى العراق والشام ، فساعد ذلك على تعرب هذين القطرين سريعاً ، وأخذت تتعرب الأقطار الأخرى التى لم يكن لها عهد بالعروبة من قبل . ومن حينئذ لم يعد اللسان العربى خاصاً بأبناء الجزيرة وحدهم ، فقد أخذ يشيخ فى شعوب قريبة وبعيدة ، وسرعان ما تعربت ، وكان مما هياً لتعربها نظام الولاء الذى أخذ به العرب أنفسهم فى فتوحهم الواسعة ، فقد أدخلوا رقيق الحروب فى ولائهم ، وفتحوا الأبواب واسعة أمام من وراءه من الشعوب المفتوحة كى يدخلوا فى هذا الولاء وينتسبوا فيمن يؤثرون من القبائل العربية .

وبمجرد أن تمت الفتوح أخذ العرب والموالى جميعاً يعيشون حياة مشتركة حتى فى المدن التى اختطها الفاتحون لمعسكراتهم مثل البصرة والكوفة والفسطاط ، فإن العرب اختلطوا فيها وفى غيرها من المدن بالأجانب الذين قدّموا لهم خدماتهم فى الحرف والزراعة والتجارة ، وغصّت بهم دورهم وقصورهم ، إذ استخدموهم فى حاجاتهم من جهة وتزوجوا كثيرات من إماءهم من جهة ثانية ، على نحو ما هو معروف عن اتخاذهم للسراى والحوارى . وظهر أثر ذلك فى أجيال التابعين منذ

جيلهم الأول فقد بوز بينهم كثيرون لأسماء أجنبيات ، نذكر من بينهم أبناء بنات يزدجرد : علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وهذا الامتزاج الواسع بالموالي زواجاً وولاء لم يكن تأثر الموالي به أقل من تأثر العرب ، فقد أخذوا في التعرّب سريعاً ، وكانت أقطارهم تتكلم لغات مختلفة ، إذ كان أهل إيران وخراسان يتكلمون الفارسية ، وكان أهل العراق يتكلمون الفارسية والنبطية ولغات آرامية مختلفة ، ويتكلم أهل الشام الآرامية وغيرها من اللغات السامية ، بينما كان أهل مصر يتكلمون القبطية ، وأهل المغرب يتكلمون البربرية . وكانت لغة السياسة والثقافة في المغرب والأندلس اللاتينية وفي مصر والشام اليونانية والسريانية وفي العراق وإيران السريانية والفارسية .

وأخذت هذه اللغات تترك أماً كنّها من ألسنة أصحابها لتحلّ محلّها العربية ، غير أن هذا لم يحدث سريعاً بين عشية وضحاها ، فقد أخذ التعرّب يتدرج شيئاً فشيئاً ، وفي أثناء ذلك كانت العربية تتطور صوراً مختلفة من التطور ، وكان أول ما أصابها من ذلك أن نُحييت إلى حد كبير - بفضل القرآن الكريم ولغته القرشية - فروق اللهجات بين القبائل ، فأصبحت لغة القرآن هي اللغة العامة التي يتخاطب بها العرب مضربين وعجميين في كل مكان ، وإن ظلت من الماضي آثار هنا وهناك . وأخذ يظهر بسبب الامتزاج بالموالي تطور ثان في لغة التفاهم ، فإن العرب عمدوا إلى استخدام تعبيرات مبسطة ، حتى يفهم عنهم الموالي ويلوكوا ما يلفظونه بسهولة . وفي أثناء ذلك كانوا يستعربون منهم بعض الكلمات الأعجمية وخاصة في الأطعمة وأدوات الحضارة ، وكانوا يعربونها وقد يبقونها على صورتها الأصلية . ويتعرض علينا الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » كثيراً من الكلمات الفارسية التي جرت على ألسنة أهل الكوفة بسبب من عاشوا معهم وخالطوهم من الفرس ، فمن ذلك أنهم كانوا يسمّون المسحاة « بال » والحوك أو البقلة الحمقاء « الباذروج » وملتي أربع طرق

«جهارسوك»، وكانوا يسمون السوق «وازار» والقشاة «خيياراً» والمجدوم «ويئذى»^(١). وكانت الفارسية شائعة في البصرة ويتضح ذلك في دخول مقطع «آن» الفارسي على كثير من أسماء القطائع مثل «عمران»^(٢) «لعمر بن عبيد الله بن معمر و«سويئدان» لسويد بن منجوف السدوسي و«خالدان» لخالد بن أسيد و«مهلّبان» لآل الملّه. ومما يدل على شيوع الفارسية في البصرة ما يروى من أن يزيد بن مفرغ حين هجا أسرة عبيد الله بن زياد في ولايته عليها سقاه نبيذاً وحمله على دابة في ثياب مهلهلة مقروناً إلى هرة وخنزير، وأمر أن يطاف به في الشوارع على هذه الصورة المزرية، فتجمع حوله الصغار يسألونه بالفارسية أين جيست؟ أي ما هذا، فكان يجيبهم بلسانهم^(٣):

آبِ اسْتِ نَيْبِ اسْتِ عَصَارَاتِ زَيْبِ اسْتِ
سُمِيَّةَ رُوسِي اسْتِ

واست: من أفعال الكينونة، وآب: ماء. وسُمِيَّة: أم زياد. وروسِي: الخنزيرة. أي هذا ماء ونبيذ وعصارة زبيب وسُمِيَّة الخنزيرة، ويريد البغوي. ويلاحظ الجاحظ أن تأثير الفارسية سقط إلى داخل الجزيرة في المدينة مع من نزلها من الفرس، ولذلك سمو البطيخ «الخرَبز» والسميط «الرزق»، وطعام المصروع وهو لحم يتقع بالخردل «المزور» والشطرنج «الإشترنج» وغير ذلك من الأسماء^(٤).

ولم يقف استخدام هذه الألفاظ وما يشبهها عند اللغة اليومية، فقد تعداها أحياناً إلى شعر بعض الشعراء من العرب أمثال الفرزدق وجريير اللذين عاشا في البصرة، إذ نجد أولهما يستخدم كلمة «البَيْدَقُ والبَيَاقُ» المعروفة في لعبة الشطرنج استخداماً يدل على أنه كان يعرف اللعبة وما يصيب البَيْدَقُ فيها حين يتقدم إلى آخر الرقعة إذ يصبح وزيراً، يقول مخاطباً جريراً^(٥):

- (١) البيان والتبيين ١٩/١ وما بعدها. (٤) البيان والتبيين ١٩/١.
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٥٣ وما (٥) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيثن) بعدها.
(٣) ص ٧٨٧.
(٢) البيان والتبيين ١٤٣/١.

ونحن إذا عدت تيم قديمها مكان النواصي من وجوه السوابق
 منعتك ميراث الملوك وتاجهم وأنت لدرعى ببدق في البياض
 فهو يجعله ببدقاً غير متقدم . ونرى جريراً يستخدم في إحدى أهاجيه
 للفرزدق كلمة « الروذق » الفارسية بمعنى الحمل المنتوف وبره بعد سلقه ،
 ويستخدم معها كلمة « الببدق » الفارسية للدلالة على الشيء التافه ، إذ يقول في
 جعثن أخت الفرزدق^(١) :

لا خير في غضب الفرزدق بعدما سلخوا عجانك سلخ جلد الروذق
 سبعون والوصفاء مهر بناتنا إذ مهر جعثن مثل حر الببدق

وبنفس هذه الصورة دخلت كلمات نبطية إلى الشعر ولغة التفاهم ، وإذا
 كان ابن مفرغ صاغ من الفارسية شطوراً على نحو ما قدمنا فقد كان وراءه
 شعراء من الزنج مثل رباح^(٢) ومن الهند مثل أبي عطاء السندی .

وربما كان أهم من ذلك ما أصاب العربية من لُكنات هؤلاء الموالى ، فإن
 كثيرين منهم كانوا يجدون عسراً في نطق بعض حروف العربية التي لا توجد
 في لغاتهم ، ويعرض علينا الجاحظ في البيان والتبيين صوراً مما كان يجري على
 ألسنة عامتهم من هذه اللُكنات ، حتى لتُفسد العبارة العربية لإفساداً ، فن
 ذلك أن الحجاج سأل نخاساً : أتبيع الدواب المعيبة من جُنْد السلطان؟ فأجابه :
 « شر يكاننا في هوازها وشر يكاننا في مداينها ، وكما تجيء تكون » . ولم يفهم
 الحجاج ما يقول فقال له وبلك ما تعنى؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع
 الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول : « شركاؤنا
 بالأهواز وبالمداين يبعثون إلينا بهذه الدواب » ، فنحن نبيعها على وجوهها^(٣)
 ومن ذلك أن أمّ ولدٍ لحرير قالت لبعض ولدها : « وقع الجُرْدان في عجان أمكم »

رياح أو سنج بن رباح . انظر العربية ليوهان

(١) النقائص ص ٨٤٥ .

فك هامش ص ٣٦ .

(٢) انظر رسالة تفضيل السودان على البيضان

(٣) البيان والتبيين ١/ ١٦١ .

للجاحظ وأمالى ابن الشجرى (طبعة كرنكو)

١٩٤/١ وقد اختلف في اسمه هل هو رباح أو

فأبدلت الذال من الجرّذان دالاً ونطقت العجيين عجائاً . وقال بعض الشعراء
في أم ولد له يذكر لُكُنْتِها :

أَوَّلُ ما أَسْمَعُ منها في السَّحَرِ تذكيرُها الأُنثى وتأنِيثُ الذكرِ
والسُّوءَةُ السُّوءَاءُ في ذكر القمر

إذ كانت تنطقه الكمر^(١) . وكانت آثار من هذه اللكنات تَجَرى على
السنة فصحاء الموالى ممن صعدت بهم ملكاتهم إلى أفق الشعر العربى ، حتى
أصبحوا لا يقولون فيه فصاحة وبلاغة عن شعراء العرب الخُلصّ ، نذكر من
بينهم زياداً الأعجم ، وكان يرتضخ لُكُنْتِ فارسية يذهب فيها إلى إبدال العين
همزة والطاء تاء والسين شيناً^(٢) ، ويروى أنه أنشد المهلب في بعض مديحه :

فَتَى زاده السُّلطان في الودِّ رفعةً إذا غيّر السُّلطانُ كل خليلٍ
فقال : « زاده الشلتان^(٣) » وتكرر منه ذلك على سمع المهلب فوهبه غلاماً
ينشد شعره^(٤) . وكان أبو عطاء السندى وهو ممن عاشوا في العصرين :
الأموى والعباسى يبدل الحاء هاء والجيم زايا والشين سينا ، ودفعه ذلك أن يستوهب
ممدوحاً له يسمى سليمان بن سليم الكلبي غلاماً ينشد شعره^(٥) :

ولم تجر هذه اللكنات على السنة الموالى وحدهم ، فقد تسربت منها بعض
الآثار إلى السنة من كانوا ينشئون فيهم وخاصة من كانت أمهاتهم منهم ،
على نحو ما يحدّثنا الرواة عن عبيد الله بن زياد والى العراق ، إذ استبقاه
أبوذ مع أمه « مرجانة » حين تزوجت الفارس « شيرويه » فكان يبدل الحاء هاء
والقاف كافاً ، فإذا قال : أَحَرَّوَرِيَّ أنت ؟ قال : أهرورى أنت ؟ وإذا قال
قلت لك قال : قلت لك^(٦) . وقال مرة : افتحوا سيوفكم بدلا من سلُّوا
سيوفكم ، مما جعل ابن مفرغ يهجوّه بقوله^(٧) :

-
- (١) البيان والتبيين ٧٣/١ .
(٢) البيان والتبيين ٧١/١ والأغاني (طبعة السامى) ٩٩/١٤ .
(٣) البيان والتبيين ٧١/١ والكامل للبريد .
(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ٨٩/١٣ .
(٥) الشعر والشعراء ٢/٢٧ وراجع الأغاني (طبعة السامى) ٧٩/١٦ .
(٦) البيان والتبيين ٢/١ .
(٧) البيان والتبيين ٢/٢١٠ .
(طبعة رايت) ص ٣٦٦ .

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكلُّ أمرك للضياع
ويُروى أن أباه زياداً أوفده على معاوية فكتب إليه مشيراً إلى لُكنته:
« إن ابنك كما وصفت ولكن قَومٌ من لسانه »^(١)

وليس بين أيدينا نصوص توضح ما حدث من ذلك في مراكز الشعر
الأخرى بالأقطار المفتوحة ، ولكن لا بد أن ما كان يحدث في العراق من هذه
اللكنات كان يحدث في المراكز القريبة والبعيدة ما يماثله . واقرن بهذه اللكنات
لحنٌ كثير بسبب ضعف السلائق من مثل قول زياد الأعجم :

إذا قلت قد أقبلت أدبرت كمن ليس غادٍ ولا رائجُ

وكان القياس أن يقول : « ليس غادياً ولا رائجاً »^(٢) . ويظهر أن اللحن شاع
على ألسنة بعض العرب أنفسهم ، ومن ثم عني خلفاء بني أمية بتأديب أولادهم
ويقال إن عبد الملك أهمل تأديب ابنه الوليد فجرى اللحن على لسانه ، وما
يروون من لحنه أنه نطق يوماً كلمة « لص » بضم اللام ، وأنه قال لأبيه حين
قُتل أبو فديك الخارجي : « يا أمير المؤمنين قُتل أبي فديك » وقال مرة :
« يا غلام رُدَّ الفرسان الصادَّان عن الميَلمان »^(٣) .

واتسع هذا اللحن في الكوفة والبصرة حتى لئرى الحجاج المعروف بفصاحته
ولسنه ونشأته في البادية يخاف على نفسه منه ، فيسأل ابن يعمر : أسمعني
ألحن ؟ فقال : الأمير أفصحُ الناس ، فقال الحجاج : عزمتُ عليك أسمعني
ألحن ؟ قال : حرفاً ، فقال الحجاج : أين ؟ قال : في القرآن ، فقال : ذلك
أشنعُ له ، فما هو ؟ قال ابن يعمر : تقول : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم
وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنُ
ترضونها أحبُّ إليكم من الله ورسوله) بقراءة أحب بالرفع ومكانها النصب .
وكأنه لما طال عليه الكلام نسي ما ابتدأ به . فقال الحجاج : لا جرم لا تسمع
لي لحناً أبداً^(٤) . وكان خالد القسري مع ما اشتهر به من فصاحته لحناناً ، ويُروى

(٣) البيان والبيان ٢/ ٢٠٤ وما بعدها .

(٤) ابن سلام ص ١٣ .

(١) البيان والبيان ٢/ ٢١٠ .

(٢) الشعر والشعراء ١/ ٣٩٨ .

أنه قال يوماً : « إن كنتم رجبئون فإننا رمضانئون » . وفيه يقول يحيى بن نوفل ^(١) :

وألحنُّ الناسَ كلَّ الناسِ قاطبةً وكان يُولَعُ بالتَّشْدِيقِ في الخُطْبِ

ويُروى الرواية أن عيسى بن عمر النحوى خاصم رجلاً إلى بلال بن أبى بَرْدَةَ والى البصرة فخالده القسرى فجعل عيسى يتتبع الإعراب وجعل الرجل ينظر إليه، فقال بلال للرجل : لأن يذهب بعضُ حقِّ هذا أحبُّ إليه من ترك الإعراب فلا تشاغلُ به واقصد لحجَّتكَ ^(٢) ، ومن عُرِفَ في خراسان باللعن عمرو بن مسلم أخو قتيبة بن مسلم ^(٣) ، وكان سليمان بن عبد الملك في دمشق يقول : المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث يفخِّمُ اللحن كما يفخِّمُ نافع بن جبير الإعراب ^(٤) .

وانتشارُ اللحن على هذه الشاكلة هو الذى دفع لظهور اللغويين والنحاة منذ القرن الأول للهجرة ، فقد أخذت تتجرَّد جماعة من العلماء وخاصة في البصرة لتنقية العربية مما دخلها من فساد . وكان بعض هؤلاء العلماء يتعرض لفصحاء الشعراء ينقدهم نقداً نحوياً ، حتى لو اضطرتهم إلى ذلك الثقافية ، واشتهر في هذا الجانب عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى بمراجعاته للفرزدق فيما كان يُحمِّلُهُ أحياناً من بعض شاذات نحوية ، وما زال يراجعها حتى قال فيه بيمته المأثور :

فلو كان عبد الله مولى هجوتَه ولكنَّ عبد الله مولى موالِيا

فتعرض له ابن أبى إسحق قائلاً : كان يحسن أن تقول : مولى موال ^(٥) . على أن الفرزدق لم يُعسِّرفْ بضعف في الحيس اللغوى لأنه نشأ في البادية، إنما الذى عُرِفَ بذلك بعض الشعراء الذين نبتوا في المدن مثل الطرماح والكسرى . ويسجل الرواة على الطرماح أنه كان يستخدم ألفاظ البندوية الغربية في شعره استخداماً غير دقيق ^(٦) وأنه كان يكتلف بإدخال ألفاظ البطح الأراميين في شعره ^(٧) . ولم

(١) البيان والتبيين ٢ / ٢١٦ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٢١٨ .

(٣) البيان والتبيين ٢ / ٢١٩ .

(٤) البيان والتبيين ٢ / ٢١٧ .

(٥) ابن سلام ص ١٦ وما بعدها .

(٦) الموشح ص ٢٠٩ والأغاني (طبعة دار

الكتب) ١٢ / ٣٦ .

(٧) الموشح ص ٢٠٨ .

يكن الكميت يسلك في أشعاره الألفاظ النبطية ، ولكنه كان يشترك الطرماح في ظاهرة الاستخدام غير الدقيق للألفاظ البدوية^(١) ، ويرَوَى أنه أنشد ذا الرُّمّة يوماً بعض شعره ، وسأله رأيُه فيه ، فقال له : « إنك لتقول قولاً ما تقدر إنسان أن يقول لك فيه أصبت أو أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تجيء به ولا تقع بعيداً منه ، بل تقع قريباً » واقتنع الكميت بوجهة نظره واعتلّ لذلك بأنه لا يصف شيئاً رآه بعينه ، إنما يصف شيئاً وُصف له^(٢) ، ولذلك كان اللغويون لا يستشهدون بأشعاره ولا بأشعار الطرماح في اللغة^(٣) .

وعلى هذا النحو أخذت السلاطن تضعف حتى عند العرب أنفسهم ، وخاصة من نشأوا منهم في الحضر ولم يتغذوا بلبان البادية . وما نصل إلى العصر العباسي حتى يضع اللغويون خطأ فاصلاً بين الشعر القديم الجاهلي والإسلامي والشعر العباسي الحديث الذي سموه شعر المولدين وهو خط فاصلوا به فصلاً تاماً بين الشعر الفصيح الذي يمكن الاستشهاد به في اللغة والشعر الذي لا يُعتدّ به في هذا الاستشهاد . وقد اعتدوا بشعر الجاهليين والمخضرمين دون استثناء ، أما شعر الأمويين فأخرجوا منه نقرأ من العرب أمثال الطرماح والكميت متخذين النشأة في الحضر مقياساً لمعرفة المشوب والمصنّف والمعيب والسليم .

٢

الإسلام وأثره في موضوعات الشعر

طبيعي أن يؤثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي ، وهو تأثير يقوى ويضعف حسب نفسية الشعراء ، إذ كان بينهم من تعمّقه الإسلام ومن لم يتغلغل إلى أعماقه . على أنهم جميعاً كانوا يستظلون بظلاله ، وكان من حولهم الوعاظ والنسّاك يذيعون في مختلف الأجواء عبيير وعظهم ونُسكهم ، سواء في المساجد الجامعة أو في مقدمات الجيوش الغازية . وكانوا ما يزالون يحدّثون الناس عن البعث

(١) الموشح ص ١٩٢ والأغاني (دار الكتب) (٢) أغاني (سابق) ١٢٠/١٥ .

(٣) الموشح ص ١٩١ ، ٢٠٨ .

والثواب والعقاب ونعيم الجنة وعذاب النار داعين دعوة واسعة إلى التقوى والزهد في متاع الدنيا . وترامت من هذه المواعظ ومن القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة الأولين أشعة كثيرة نفذت إلى نفوس الشعراء وانعكست في أشعارهم على اختلاف موضوعاتها .

وقد أشرنا في غير هذا الموضع إلى ما أصاب الغزل بتأثير الإسلام من براءة وطُهر وصفاء ونقاء عند شعراء نجد وبوادي الحجاز وعند فقهاء المدينة ومكة . مما هيأ لظهور الغزل العذري بل لشيوعه ، وكأنما أضفت الإسلام على المرأة وعلاقتها بالرجل عند هؤلاء الشعراء ضرباً من القدسية ، أحاطها بهالة من الجلال والوقار ، فإذا الشاعر لا يدنو منها إلا في احتياط ، بل إذا هو يرى دونها صعباً أى صعاب ، فيتحول إلى نفسه يشكو ما أصابه من تباريح الحب وأوصابه شكوى تشف عن الله وعذابه في حبه ، وهى شكوى يتضرع فيها أحياناً إلى ربه على شاكلة قول جَمِيل^(١) :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حُبَّها ولا بد من شكوى حبيبٍ يروُّ
ألا تتقين الله فيمن قتلته فأمسى إليكم خاشعاً يتضرع
فياربَّ حَبِّبْنِي إليها وأعطني الـ مودةً منها أنت تعطى وتمنع
ونرى الغزلين جميعاً عذريين وغير عذريين يستلهمون في غزلهم بعض الأفكار الإسلامية كفكرة العفو والغفران ، يقول عمر بن أبى ربيعة^(٢) :

فديتكَ أطلقي حبلى وجودى فإن الله ذو عفوٍ غفورٍ
وقد مضى غير شاعر يردد فكرة الإثم في القتل وعقاب الله لقاتل النفس المؤمنة ، ونرى الفرزدق يفصل هذه الفكرة تفصيلاً في إحدى مقطوعاته ، فيقول^(٣) :

يا أختَ ناجيةَ بن سامةٍ إننى أخشى عليك بنى إن طلبوا دى
فإذا حلفتِ هناك أنك من دى لبريئة فتحللى لا تأثني^(٤)
فلئن سفكتِ دما بغير جريرةٍ لتخلدين مع العذاب الألام

(١) ديوان جميل تحقيق حسين نصار
ص ١١٧ .
(٢) ديوان عمر (نشر شوارتز) رقم ٤٠
(٣) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوى) ٧٧٨/٢ .
(٤) تتحلل من اليمين : تستثنى .

ولئن حملت دوى عليك لتحولن^(١) ثقلاً يكون عليك مثل يَلْمَلَم^(٢)

وإذا كان التوزدق توسّع في فكرة القتل على هذا النحو ، فأضاف إليها الاستثناء من اليمين وما ينتظر القاتل في غير جناية من عذاب الآخرة فإن وضّاح اليمين يستغل فكرة الحلال والحرام ويشقّعها بغتوى الترخّص في التسميم ، يقول^(٣) :

إذا قلت يوماً نؤلّني تسممت^(٤) وقالت معاذ الله من فعل ما حرّم

فما نؤلت حتى تصرّعت عندها^(٥) وأعلمتها ما رخص الله في التسم

وواضح أنه يقصد بالغم النظرة وما يمثّلها ، وكل ذلك جاء وضاحاً ومن ذكرناهم بتأثير الإسلام الذي كان يخالط قلوبهم ، فإذا أفاضله وأفكاره تمتزج بمعالي الحب والمناظرة .

وإذا تحولنا إلى المديح وجدنا يتحول في كثير من جوانبه إلى تصوير الفضيلة الدينية في الممدوح ، وشق هذا التصوير في مديح الخلفاء والولاة أن الحاكم والدين كانا مرتبطين ارتباطاً لا تنقسم عدّاء ، ففضي الشعراء يتحدثون عن تقواهم وأنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية . ونشب صراع حاد بين الأمويين من جهة والخوارج والشيعة من جهة ثانية في الحاكم الأعلى للمسلمين وما ينبغي أن يتحلّى به من صفات دينية . ولم يلبث شعراء بني أمية أن نقدوا من ذلك إلى تمجيد الأمويين ورسم إطار ديني لكل منهم ، وكان عمر بن عبد العزيز مثلاً حقيقاً للحاكم الأموي النقي ، فأكثر الشعراء من رسم إطار التقوى الذي يُطيف به وبحكمه . على شاكلة قول كُثَيْب^(٦) :

وصدقت بالفعل المقال مع الذي أتيت فأمسى راضياً كل مسلم

وقد لبست لبس الهلوك ثيابها تراءى لك الدنيا بكف ومغصم

وتومض أحياناً بعين مريضة وتبسّم عن مثل الجمان المنظم

(١) يللم : جبل على مرحلتين من مكة . (٣) ديوان كثير (طبعة الجزائر) ١٢٢/٢ .

(٢) أغاني ٣٢٨/٦ .

فَأَعْرَضَتْ عَنْهَا مَشْمُورًا كَأَنَّمَا سَقَتَكَ مَدُوفًا مِنْ سِيَامٍ وَعَلَقَمَ^(١)
 تَرَكْتَ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مَوْنَقًا وَآثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيٍ مَصْمَمٍ
 وَأَضْرَرْتَ بِالْقَانِي وَشَمَّرْتَ لِلَّذِي أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمٍ
 وهو لا يَصُورُ فِي عَمْرِ التَّقْوَى فَحَسِبَ ، بَلْ يَصُورُ فِيهِ أَيْضًا الزَّهْدُ
 وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الدُّنْيَا وَفَقْدُهَا وَمَتَاعُهَا الزَّائِلُ الَّذِي يَنْفَرُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ . وَتَتَّعِ
 هَذِهِ الصُّورَةَ فِي مَدِيحِ الشَّيْعَةِ لِأَتَمِّهِمْ عَلَى نَحْوِ مَا نَجَدْنَا فِي هَاشِمِيَّاتِ الْكُتُبِ
 وَفِي شَعْرِ أَتَمِّ بْنِ حَرْبٍ إِذْ يَقُولُ فِي بَنِي هَاشِمٍ^(٢) :

نَهَارَكُمْ مَكَابِدَةً وَصَوْمٌ وَلَيْلَكُمْ صَلَاةٌ وَاقْتِرَاءُ
 وَلَيْتُمْ بِالْقُرْآنِ وَبِالتَّزَكَّى فَاسْرِعْ فَيْكُمْ ذَاكَ الْبَلَاءُ

وعلى نحو ما تأثر المديح بالإسلام ومثاليته الروحية تأثر الهجاء ، إذ أخذ
 الشعراء يهجون خصومهم بانحرافهم عن الدين ، فأطالوا في وصفهم بالفسوق
 والبغى والطغيان كقول جرير في آل المهلب^(٣) :

آلُ الْمُهَلَّبِ فَرَطُوا فِي دِينِهِمْ وَطَغَوْا كَمَا فَعَلَتْ ثُمُودُ فَبَارُوا
 وَدَائِمًا يَرَى شِعْرَاءَ الشَّيْعَةِ الْأُمَوِيِّينَ بِالظُّلْمِ وَاتِّهَافِ الْحُرُمَاتِ وَتَعْطِيلِ أَحْكَامِ
 الدِّينِ وَابْتِدَاعِ مَا لَمْ يَأْتِ بِهِ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ مِنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكَمِيتِ^(٤) :

لَهُمْ كُلٌّ عَامٍ بِدْعَةٍ يَحْدِثُونَهَا أَزَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْحَلُوا
 كَمَا ابْتَدَعَ الرِّهْبَانُ مَا لَمْ يَحْيَ بِهِ كِتَابٌ وَلَا وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ تُنْزَلُ
 تَحِلُّ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْهِمْ وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ التَّهْدِيلُ

واشتد لهب الهجاء — كما قلنا في غير هذا الموضع — بتأثير العصبية ،
 ولم يكن ينسج منه خليفة ولا وال ولا شريف ، بل حتى القراء كان يتعرض لهم
 الشعراء ، وخاصة إذا رأوهم يداجون أول الأمر ، فكانوا يرمونهم بالنفاق وأنهم

(٣) ديوان جرير (طبعة الصاوي) ص ٢١٩ .

(٤) الهاشميات ص ١٢٣ .

(١) مدوفاً : مزيجاً .

(٢) أغاني (سأى) ٦/٢١ .

ليسوا صادقين فيما يظهرون من تقوى وصلاح ، على شاكلة قول ذى الرمة
ساخرأ من إحدى طوائفهم^(١) :

أما النبذ فلا يذعرك شاربُهُ واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء
قومٌ يوارونَ عما في صدورهم حتى إذا استمكنوا كانوا همُ الداء
مشمّرين إلى أنصاف سوقهم همُ اللصوص وهم يُدعون قراء

ولعلنا لا نُبتعد إذا قلنا إن شعر الحماسة كأن أقوى في تأثيره بالإسلام من
شعر الهجاء والمديح ، إذ كان يُنظمُ أكثره في الجهاد ، ومعروف أنه كان
دائماً في صفوف المحاربين قصّاصٌ ووعاظٌ يحثّونهم على الاستشهاد في سبيل
الله، حتى يفوزوا برضوانه ، ومن ثمّ تحولت بعض القطع الحماسية التي نظمت
في خراسان إلى مواعظ خالصة ، كقول نصر بن سيار^(٢) :

دع عنك دنيا وأهلاً أنت تاركهم ما خيرُ دنيا وأهلٍ لا يدومونا
وأكثرُ تقى الله في الأسرار مجتهدا إن التقى خيرُهُ ما كان مكنونا
واعلم بأنك بالأعمال مُرتَهَنٌ فكُنْ لذلك كثير الهمِّ معزونا
وامنح جهادك من لم يرجُ آخره وكُنْ عدواً لقومٍ لا يصلُّونا
فاقتلهم غضباً لله منتصرا منهم به ، ودع المرتاب مفتونا

وواضح أن نصراً يزهد في الدنيا ومتاعها الفاني بما يذكر من هلاك الأهل ، ويدعو
إلى التقوى في السر والخفاء مذكراً باليوم الآخر وما ينبغي أن يُستخذ له من ذخّر
الجهاد والذبّ عن دين الله ، وبيع النفس في محاربة أعدائه .

وكانت حرب الخوارج حرباً دينية خالصة ، أما هم فآمنوا بأنهم على
الحق وأن المسلمين من غيرهم خرجوا على حدود الله وأنه ينبغي جهادهم حتى
يعودوا إلى حياض الشريعة . وبنفس الصورة كان يراهم المسلمون من خصومهم
ويرون جهادهم فرضاً مكتوباً . وبذلك كانت أشعار الطرفين تُغشمسُ غمساً

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريدج) (٢) طبرى ٤٣٣/٥ .

في العقيدة الدينية ، فهم إنما يحاربون من أجلها وفي سبيلها ، ونحس كأما غاية كل خارجي أن يُقْتَلَ حتى يُكْتَبَ في سجل المستشهدين .

وكان شعر من حاربهم يسيل بالدعوة للاستبسال في الحرب وجهاد هذه الفرقة التي زاغت في رأيهم عن طريق الهدى ، ومن خير ما يصور ذلك قول كعب الأشقر في ملحمة الطويلة التي وصف فيها قتال المهلب للأزارقة وقضائه عليهم^(١) :

إنا اعتصمنا بِحَبْلِ اللَّهِ إِذْ جَحَدُوا بِالْمُحْكَمَاتِ وَلَمْ نَكْفُرْ كَمَا كَفَرُوا
جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا ديننا يخالف ما جاءت به النذر
وكان كثيرون يُقْتَلُونَ في هذه الحروب ، فكان الشعراء يندبونهم ندباً حاراً ،
مازجين نديهم بما ينتظرهم من نعم الخلد ، كقول الضحاك بن قيس يرثي بهلولاً
الصفري الذي خرج لعهد هشام بن عبد الملك وقُتِلَ^(٢) :

يَا عَيْنُ أَذْرِي دُمُوعاً مِنْكَ تَهْتَانَا وَابْكِي لَنَا صُحْبَةً بَانُوا وَإِخْوَانَا
خَلُّوا لَنَا ظَاهِرَ الدُّنْيَا وَبَاطِنَهَا وَأَصْبَحُوا فِي جَنَّاتِ الْخُلْدِ جِيرَانَا
وتعمُّ هذه الروح الدينية في مراثي من قُتِلُوا من العلويين منذ علي بن أبي
طالب ، وقد تحوّل مقتل الحسين منذ حدوثه إلى عويل وتفجع رهيب . وكان
من يرثون الأمويين يستشعرون هذه الروح في مراثيهم ، كقول جرير في عمر بن
عبد العزيز^(٣) :

حُمِّلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبَرَتْ لَهُ وَقَمَّتْ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عَمْرَا
بل لقد طُبع الرثاء عادة بطوابع هذه الروح وما يُطَوَّى فيها من التسليم لله
والرضا بقضائه ، فكلُّ نفس ذائقة الموت ، وهو حتمٌ في رقاب العباد ، وعليهم
أن يتذرعوا إزاءه بالصبر الجميل .

(٣) الديوان ص ٣٠٤ .

(١) طبري ١٢٥/٥ .

(٢) طبري ٤٦٠/٥ .

وعلى هذه الشاكلة كان الإسلام يؤثر في نفسية الشعراء ، وانعكس هذا التأثير على الموضوعات المختلفة التي نظموا فيها حتى وصف الصحراء ، فإننا إذا قرأنا هذا الوصف عند ذى الرمة أحسنا أن قلبه يمتلئ بالرحمة والشفقة والعطف البالغ على الحيوانات .

وليس هذا كله جميع ما أثر به الإسلام في الشعر الأدبي ، فإنه فجع بنبوعاً ، كان قد أخذ يسيل منذ ظهور الإسلام على السنة بعض الشعراء ، ولكن سبيله لم يبلغ ما بلغه في هذا العصر . ونقصه ينبوع الزهد وما يبطوئ فيه من الدعوة للعمل الصالح . وسرى في غير هذا الموضع كثرة الشعراء الذين تنفق على لسانهم هذا ينبوع الغزير ، بحيث أصبح موضوعاً قائماً بنفسه ، وبحيث أخذ فريق من الشعراء الذين لم يعرفوا بزهد يستظهرون صوراً إسلامية كثيرة في شعرهم ، بل حتى نجد الفرزدق المستهتر ينظم قصيدة في إبليس الرجيم^(١) . ولم يصطبغ الشعر وحده بالمثالية الدينية وما يرتبط بها من معان ، فقد جازاه الرجز في هذا الاصطباغ حتى لنجد رجلاً كثيرين يلبسون أراجيزهم بحمد الله ، وقد يحضون فيتحدثون عن خلق السموات والأرض ، وكثيراً ما يضيفون أدعية وآيات لربهم .

والحق أن الإسلام أثر أثراً واسماً في نفوس الشعراء ، وهو أثر ما زال يتعمق نفراً منهم حتى القلوب وعاظاً يعظون الناس ويدكرهم باليوم الآخر وما ينتظرهم من النواب والعقاب ، وهم في أثناء ذلك يتحدثون عن الموت وما تخرم من قرون بعد قرون ، كما يتحدثون عن الدنيا ومتاعها الزائل مصورين طريق النجاة وأنه يقوم على التقوى والعمل الصالح ومجانبة كل خلق ردىء من مثل الكبر والبخل والحيانة ، والتجلى بكل خلق كريم من مثل التواضع والجلود والأمانة .

٣

السياسة

قام الإسلام على تقرير السيادة الإلهية وسيطرتها على أمور المسلمين الدينية والدنيوية سيطرة تنهض على مبادئ الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن

(١) الديوان ٧٦٩/٢ .

المنكر . وبذلك فرض الإسلام على كل مسلم أن يشترك في الحياة العامة للجماعة ونشاطها السياسي ، وهو نشاط ينبغي أن يقوم على مبادئ الدين ومقاصده السامية .

وقد رأينا - في غير هذا الموضع - كيف أن الحوادث تطورت بعد مقتل عثمان ، فتولى علي[ؓ] ، ونشبت بينه وبين السيدة عائشة وطلحة والزبير موقعة الجمل ، ثم نشبت معركة صفين بينه وبين معاوية . وكان التحكيم ، فخرج جمع كبير من جيشه ثائرين ضده ، ولم يلبث أن قُتل ، فتحولت الخلافة إلى معاوية وبنيته الأموي وأصبحت وراثية في هذا البيت . وكان الأمويون في نظر كثيرين لا يمثلون الحكم الجديرين بالدولة الإسلامية ، لأنهم عكادوا الإسلام في أول ظهوره ، وبذلك كانوا يُعتدون مختصين للخلافة . وزاد في الحسنى عليهم أن سيرة يزيد بن معاوية وابن أخته يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد لم تكن سيرة مرضية . وأيضاً فإن محاسنهم ظلموا الناس . ومن أجل ذلك سخط عليهم جمهور من القراء أهل التقوى والورع ، غير أن هذا الجمهور لم يكون حزباً لمعارضتهم معارضة إيجابية ، فقد اكتفى بإشاعة السخط في الناس ، واشترك منه نفر في بعض الثورات عليهم ، لكنه على كل حال لم يقم بثورة منظمة . على أنه ينبغي أن نشير إلى ثورة المرجئة في خراسان بقيادة الحارث بن سرينج ، وسنعرض لها في حديثنا عن الثقافة وأصحاب المقالات الكلامية .

والحجاز والعراق هما أهم المراكز التي نشأت فيها المعارضة لبني أمية ، وقد بدأت معارضة الحجاز لم منذ حاول معاوية إسناد ولاية العهد لابنه يزيد وأخذ البيعة على ذلك من أهل الأمصار ، فإن فريقاً من أبناء كبار الصحابة مثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر أبوا أن يبايعوا ليزيد . فلما ولي الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة أن يشدّ دعلي هؤلاء الثلاثة في أخذ البيعة تشديداً ليس فيه رخصة ، فبايع عبد الله بن عمر ، وفكر الحسين وعبد الله بن الزبير إلى مكة . ولم يلبث أهل الكوفة أن استدعوا الحسين لبيته . فخرج وقتل بكر بلاء على حدود العراق . أما ابن الزبير فعاد بالبلد الحرام الذي لا يحل فيه القتل وسفك الدم ، ولما يئس يزيد من بيعته له أرسل إلى عامل المدينة أن يأخذها منه كرهاً ، فبعث

إليه بأخيه عمرو بن الزبير على رأس جيش ، وكان بينهما مغاضبة ، ولم يُفْلَح هذا الجيش في مهمته ، وقبض عبد الله على أخيه وقتله تحت السياط .

وفي هذه الأثناء رأى عامل المدينة أن يبعث إلى يزيد بطائفة من أشرفها ، ولما مثلوا بين يديه أكرمهم وأعظم جوائزهم ، غير أنهم رجعوا يئرون عليه الناس ويقولون : « إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ويشرب الخمر ويعزف بالطناير وتضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الخُرَّاب والفتيان ^(١) » . وثار أهل المدينة وبايعوا عبد الله بن حنظلة ، فأرسل إليهم يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المررى ونشبت بين الفريقين معركة الحرة المشهورة التي استبيحت فيها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ، وقد بكأها من الشعراء كثيرون ^(٢) . وولّى بعد ذلك جيش مسلم وجهه نحو مكة ، وسمع بذلك بعض الخوارج فنفروا لمساعدة ابن الزبير ، وحدث أن توفى مسلم في طريقه ، فخلفه الحصين بن نُمَيْر السَّكُونِي ، ومضى حتى حاصر مكة وابن الزبير ، غير أن الأنباء جاءت بوفاة يزيد سنة ٦٤ للهجرة ، فنكّ الحصار وعاد إلى الشام .

وهيّا ذلك لأن تتسع دعوة ابن الزبير : فإن الأمصار اضطربت على ولاية بني أمية حتى الشام ، إذ بايع بعض ولائها ابن الزبير ودعّمته هناك قبائل قيس . ولم تلبث مصر أن دخلت في طاعته كما دخلت الكوفة والبصرة وخراسان ، غير أن المختار الثقفي دعا لابن الحنفية (أحد أبناء علي من سيدة من بني حنيفة) في الكوفة وأخرج منها عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير ، الذي انتقم منه بحبس ابن الحنفية في سجن عارم بمكة ، وولّى على البصرة بدلا من عبد الله بن الحارث الملقب بالقُبَاع أخاه مصعباً ، فنازل المختار الثقفي وقضى عليه ، وبذلك عادت الكوفة إلى الدخول في طاعة ابن الزبير . وتلقانا في هذه الأحداث أشعار كثيرة مبثوثة في الطبرى .

ومنذ أول الأمر تدور الدوائر على قيس في موقعة مَرَج رَاهِط بالشام ، ويخلص هذا الإقليم لمروان بن الحكم ، وتتبعه مصر ، وسرعان ما يخلفه ابنه

معجم البلدان لياقوت .

(١) طبرى ٣٦٨/٤ .

(٢) طبرى ٣٧٠/٤ وراجع كلمة حرة في

عبد الملك. فترث في القدوم على مصعب بجيوشه ، حتى يرى ما يكون من أمره مع المختار الثقفي . ويُشغَلُ مصعب بعد المختار بالحوارج ، ويُقدِّمُ عبد الملك فيقضّى عليه ، ويُرسَلُ الحجاج إلى ابن الزبير بمكة ، فيهمزه ويقتله في سنة ٧٣ . وكان ابن الزبير شحيحاً ، ومن ثم هجاه فضالة بن شريك هجاء مرّاً^(١) . أما مصعب فكان جواداً ممدّحاً ، ولذلك مدحه ورثاه غير شاعر^(٢) :

وبمجرد القضاء على ابن الزبير في مكة دخل الحجاز في طاعة بني أمية ، ولم يعد للثورة عليهم طوال العصر . أما العراق فكان موطن الخصومة الحقيقية لهم ، إذ كان فيه الحوارج وخاصة في البصرة لأول هذا العصر ، وكان فيه الشيعة وخاصة في الكوفة ، وكان فيه كثير من أشرف العرب الذين كانوا يعدُّون بني أمية غاصبين للخلافة . وسرَّ بنا في غير هذا الموضع انتقاض عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عليهم وكذلك انتقاض يزيد بن المهلب . وكان هناك كثير من الرقيق الذين كانت تعاملهم الدولة فيما يظهر معاملة قاسية ، مما جعلهم يثورون مراراً ، مرة في عهد المغيرة بن شعبة إلى الكوفة^(٣) ، ومرة ثانية في عهد مصعب ، ومرة ثالثة في عهد الحجاج ، وكان الزنج هم الذين أشعلوا الثورتين الأخيرتين ، وسجِّلَ ذلك بعض الشعراء في أشعارهم^(٤) .

على أن هذه الثورات الجانبية لا تُقاس في شيء إلى ثورات الحوارج التي امتدَّ لها إلى أركان كثيرة في العراق والموصل وإيران واليمامة وحضرموت وعمان . وكان أول ظهورهم عقب التحكيم بين علي ومعاوية وما كان من رضا علي به ، فقد تنادى فريق من جيشه : لا حُكْمَ إلا لله ، وبذلك شقَّوا عصا الطاعة عليه ، ولم يلبثوا أن عدَّوه ومن معه ضالين وتجب الهجرة عنهم كما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة ، وفعلوا هاجروا إلى حِمْيَرٍ وراء بالقرب من الكوفة ، ولذلك سموا الحرورية . وُسِّمُوا أيضاً الحوارج ، لأنهم خرجوا على الجماعة ، أو لعلهم هم الذين سَمُّوا أنفسهم بذلك أخذاً من قوله تبارك وتعالى :

(١) أغاني ١٥/١ وانظر ٧١/١٢ وما بعدها . (٣) اليعقوبي ٢/٢٦٢ .

(٢) انظر الأغاني ٣٣/٦ وابن سلام ٥٣٠ . (٤) طبري ٥/٣٣٨ وما بعدها .

والطبري ٤/٥٩٣ ، ٩/٥ وما بعدها .

(ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله). وَتَمَّوْا أَنْفُسَهُمُ الشَّرَاقَةَ أَخْذاً مِنْ قَوْلِهِ جَبَلٌ وَعِزٌّ : (ومن الناس من يشعري نفسه ابتغاءَ مرضاة الله). وكان الذي أثارهم أنهم رأوا علياً ومعاوية يقتتلان على الخلافة ، كأن الأمر ليس أمر الله إنما هو أمر أشخاص ، فثاروا على ذلك ثورة عنيفة اعتبروها جهاداً في سبيل الله وسبيل دينه الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وجاهدوا علياً ، ولكنه نكّل بهم في موقعة النهروان . ولم يلبث ابن مُلْجَمُ المرادى أن قتله لينال رضا امرأة منهم ^(١) . وتحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية فأرأوا فيه إماماً زائفاً ، وأخذت تتكوّن عقيدتهم بسرعة حول محور ثابت هو أن الخلافة ينبغي أن لا تحتجزها قريش لنفسها من دون المسلمين ، فهي ليست حقاً لقريش ، إنما هي حق لله وينبغي أن يتولاها أكفأ المسلمين لها وخيرهم تقوى وورعاً ولو كان عبداً حبشياً . ومضوا يعتقدون أنهم وحدهم الجديرون بوصف الإسلام ، مؤمنين بأنه لا يتجاوز حدود معسكراتهم ، ومؤمنين أيضاً بأن من واجبهم أن يجاهدوا الجماعة التي ارتضت الأمويين وما تبتّوه من نظام الوراثة للخلافة في بيتهم . وكانت آراؤهم تعمل عمل السحر في كثير من النفوس ، فانضم إليهم كثير من العرب والموالي والأتقياء . ورافقهم يُعَمِّدُونَ سيوفهم لأول عهد معاوية ، ولكن لا تلبث طائفة منهم أن تخرج في الكوفة بقيادة المستورد بن علفة سنة ٤٣ وسرعان ما يُقَضِّصَ عليهم . وهدأ الكوفة حتى سنة ٥٨ فتثور منهم جماعة بقيادة حيان بن طُبُيَّان وينتظروهم نفس المصير ، ولا يعودون بعد ذلك إلى الظهور في الكوفة ، إذ لم يكن بها جمهورهم الكبير . بل كان في البصرة ، وهي لذلك تُعَدُّ مهد نشاطهم الأول . وقد تولّى أمرها زياد ابن أبيه ، فأخذهم أخذاً عنيفاً اضطروا معه إلى الاستتار . وخلفه ابنه عبيد الله فضى في سياسته ، وعذّب بهم ، فأكثر من حبسهم وقتلهم ، وكان ممن قتله من رجالهم عروة بن أُدَيْتَةَ ومن نساءهم البلسجاء ، ولم يلبث أبو بلال مرداس أخو عروة أن خرج في أربعين رجلاً إلى الأهواز سنة ٥٨ فبعث إليه ابن زياد جيشاً عليه ابن حصن التميمي عداده ألفان ، غير أن الجيش هُزم هزيمة نكراء عند « أسك » فقال رجل من بني تيم الله بن ثعلبة ^(٢) :

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٥٤٩ . (٢) طبرى ٢٢٢/٤ وانظر الكامل ص ٥٨٨ .

أَلْفَا مُؤْمِنٍ مِنْكُمْ زَعَمْتُمْ وَيَقْتُلُهُمْ بِأَسْكَ أَرْبَعُونَ
كَذَبْتُمْ لَيْسَ ذَلِكَ كَمَا زَعَمْتُمْ وَلَكِنَّ الْخَوَارِجَ مُؤْمِنُونَ
هُمْ الْفَيْئَةُ الْقَلِيلَةُ قَدْ عَلِمْتُمْ عَلَى الْفَيْئَةِ الْكَثِيرَةِ يُنْصَرُّونَا

وأرسل إليه ابن زياد جيشاً آخر بقيادة زُرْعَةَ بْنِ أَسْلَمِ الْعَامِرِيِّ ، فلم يكن
حظه خيراً من حظ سابقه ، حتى إذا كانت سنة ٦١ بعث إليه عبيد بن علقمة
فهزمه وقضى عليه . وقد تطايرت مع معاركه أشعار كثيرة .

وعاد الجيش المنتصر إلى البصرة ، فتصدى عبيدة بن هلال الخارجي ولفرعه لقائده
فقتلوه غيلةً ، وأخذ كثير من الخوارج يدعوا للاقتداء بأبي بلال في خروجه
شعراً^(١) وغير شعر . وسمع غريق منهم بأن جيشاً سَيِّسِيَّراً لابن الزبير
في مكة ، فخرجوا إليه ليعينوه ضدَّ من سيهاجمونه هو والبلد الحرام .
وتوفى يزيد فرجع أهل الشام إلى ديارهم ، وانفضَّ الخوارج من حول ابن الزبير ،
إذ رأوه لا يرى رأيهم ، وفي مقدمتهم نَجْدَةُ بن عامر الحنفي ونافع بن الأزرق
وعبد الله بن الصفار وعبد الله بن إباح . وذهبوا إلى البصرة ، وأخذوا يبدعون
لمحاربة السلطان ، وساعدتهم في شغبهم فرار عبيد الله بن زياد عقب وفاة يزيد
إلى الشام وانتقاض تميم وحلفائها على الأزد ومن آزرها . وانتهر نافع بن الأزرق
الفرصة فخرج بجمع كبير من الخوارج إلى الأهواز ، وطرد منها عمَّال ابن زياد ،
وتخلَّف عنه نَجْدَةُ بن عامر وابن الصفار وابن إباح ، إذ رأوه يغلو في آرائه ،
وذلك أنه كان يرى دار المسلمين دار كفر يجب الخروج عنها كما يجب
تحريم ذبائهم وميراثهم والتزوج منهم ، وأيضاً يجب قتلهم وقتل نساءهم وأطفالهم ،
وسلك ابنُ الأزرق معهم القسَّعةَ من الخوارج . وخالفه في كل ذلك الثلاثة
الذين سميناهم فقد ذهبوا إلى أن المسلمين ليسوا كفار دين تمسكهم بالتوحيد
والقرآن السنة ، إنما هم كفار نعمة ، ومن ثمَّ يحلُّ التزوج منهم كما يحلُّ التوارث
بينهم وبين الخوارج ، وحقاً يجب جهادهم ولكن لا يصحُّ قتل أطفالهم ، وأجمعوا

(١) الكامل ص ٥٩٠ ، ٥٩٥ .

على أن القَعْدَة منهم ليسوا كفاراً^(١) . ومضى نجدة بأصحابه الذين يسمون بالتَّجَدَّات نسبةً إليه فنزل اليمامة ، وأعلن هناك الجهاد ، أما عبد الله بن الصَّفَّار الذي تنسب إليه الصُّنُفَرِيَّة ، لصفرة وجوههم من أثر العبادة^(٢) فإنه لم يُعَدَّ الخَروج ، ومن أجل ذلك شاع القعود عن الجهاد بين أنصاره^(٣) .

وقد انضمَّ إلى نافع بن الأزرق كثيرٌ من جموع الخوارج الذين دانوا برأيه ، وهم يسمون الأزارقة نسبةً إليه ، وكان من بني حنيفة ، إلا أن أكثر أنصاره كانوا من بني تميم ، ولم يلبث أن جهَّز جيشاً كبيراً اتجه به إلى البصرة فخرج إليه مسلم بن عُبَيْدِيس في جيش ضخم ، وما زال يدافعه حتى كانت وقعة دولاب على نهر دُجَيْل في الأهواز وفيها قُتل نافع ومسلم معاً ، وتوالت وقائع أخرى قُتل فيها عبد الله بن الماحوز خليفة نافع . وتصدَّى لهم المهلب في سولاف ثم في سِلَی وسَلْبَرى ، وانسحب الخوارج إلى الجبال بقيادة الزبير بن الماحوز ، وهزمهم عمر بن عبيد الله بن معمر عند سابور ، فانسحبوا إلى أصفهان وكرمان وتعقبهم هناك عتَّاب بن ورقاء وقتل أميرهم الزُّبير فولَّوا عليهم قَطْرِيَّ بن الفُجَّاء وتقدَّم بهم إلى العراق ، فوجَّه إليهم مصعب المهلب ، فصدَّهم وما زال يناوشهم حتى قُتل مصعب ، وتحوَّل الأمر إلى بني أمية ، فأرسلوا إليهم قواداً حالقهم الخُزَّاء ، حينئذ وجَّه إليهم بشر بن مروان المهلب عدوهم اللدود ، وما زال يخضد من شوكتهم في رامهرمز وسابور وكرمان ، وتعقبهم إلى جيرفت ، ولم يلبث أن دبَّ الخلاف بينهم ، وتحاربوا ، إذ خرج على قطري جماعة كبيرة من صفوفه بزعامة ابن عبد رب ، وكان أكثرهم من الموالي . ورأى قطري أن ينسحب بجموعه إلى طبرستان ، وبذلك قضى المهلب سنة ٧٨ على عبد رب وأصحابه قضاء مبرماً ، وتعقب جيوش أخرى قطرياً وصاحبه عبدة بن هلال ، وكُلَّلت جهودها بالنجاح ،

(١) الكامل ص ٦١٠ - ٦١٥ وانظر الفرق

(٢) الكامل ص ٦١٥ .

بين الفرق للبغدادى ٦٢ وما بعدها والشهرستاني

(٣) نفس المصدر ص ٦١٤ والشهرستاني

طبعة لندن) ص ٩٠ ، ٩٣ ، ١٠٠ - ١٠٢

وما بعدها حيث تجد تفصيلاً لآراء هذه الفرق .

وبذلك انتهت حروب الأزارقة التي استمرت نحو أربعة عشر عاماً ، وقد تطاير فيها شعر كثير ^(١).

وقد قلنا إن نجدة خرج بمن معه إلى اليمامة ، فأخضعها ، كما أخضع البحرين وعمان ، وساعده اضطراب شئون الدولة في عهد ابن الزبير على أن يتسع نفوذه في اليمن وجزيرة العرب . غير أن خلافاً نشب بينه وبين بعض أنصاره ، فولّوا عليهم أبا فُدَيْلِكَ سنة ٧٢ وقد هاجم البصرة مراراً ، غير أنه هُزم في سنة ٧٣ هزيمة ساحقة فَصَّصَتْ على دولة النجدات قضاء مبرماً .

وشاع مذهب الصُّفَرِيَّة في الموصل ، وشاع معه القعود عن الخروج إلى أن ظهر فيهم صالح بن مسرِّح ، وكان من وعّاظهم ، فما زال يدبر الأمر حتى اجتمع حوله كثيرون ، فخرج بهم في سنة ٧٦ وأنزل بجيوش الحجاج هزائم متوالية ، غير أنه لم يلبث أن قُتِل في إحدى الوقائع . فنهض خليفته شبيب بن يزيد ومعه زوجته غزالة وأمه جَهِيْزَة بمقارعة الحجاج مقارعة عنيفة حتى لقد قتل خمسة قواد أرسلهم إليه واحداً بعد واحد . ودخل في بعض غاراته مع زوجته غزالة على الحجاج في الكوفة ، فهُرِّع إلى قصره ، وتحصَّن به منه ، وبذلك جعله بالعار . وفي إحدى حروبه نفرَّ به فرسه فغرق في نهر دُجَيْل سنة ٧٧ غير أن ذكره بقيت خالدة في ذاكرة الخوارج . وظل صُفَرِيَّة الموصل بعده لا يهدءون فقد تجدد خروجهم في عهد يزيد بن عبد الملك بقيادة شَوَذْب ، وقضت عليه جيوش الشام ، وخرج بعده في عهد هشام بهلول بن بشر ، وقضت عليه جيوش خالد القسري ، وكان آخر ثُوَّارهم الضحَّاك بن قيس الذي استولى على العراق في سنة ١٢٧ وبإيعاعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليها وسليمان بن هشام وصلَّيا خلفه فقال شُبَيْل بن عَزْرَة الضُّبَيْعِي ^(٢) :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ دِينَهُ وَصَلَّتْ قَرِيْشٌ خَلْفَ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ

وأرسل إليه مروان بن محمد ابنه عبد الله ثم نازله بنفسه ففضي على ثورته .

(١) انظر الكامل للمبرد ص ٦١٧-٧٠٣ . في مواضع متفرقة من الجزء الخامس وكذلك

(٢) البيان والتبيين ٣/١ و٣٤٣ وانظر في الأحداث الطبري الكامل للمبرد .

وظل أنصار عبد الله بن إباح المسمون بالإباضية نسبة إليه لا يتحركون ، حتى ظهر من أتباعه في سنة ١٢٩ عبيد الله بن يحيى الملقب بطالب الحق في حصر موت فاستولى عليها وعلى اليمن ، وجهز جيشاً بقيادة أبي حمزة للاستيلاء على مكة والمدينة ، واستولى عليهما غير أن جيشاً أمويّاً لقيه في وادي القسري وهزمه هزيمة ماحقة فترّ على إثرها إلى مكة ، وهناك لحقه الجيش وقتله ، وتقدم هذا الجيش فقضى على عبيد الله بن يحيى وعاد الأمر إلى نصابه .

وكان الشيعة طوال العصر يعارضون بني أمية جهراً وسراً ، وكان مركزهم الكوفة كما قدمنا ، ويُنضطرّ زياد بن أبيه إلى العنف بهم كما مرّ بنا في غير هذا الموضع حتى إذا وجد أهلها الفرصة بعد وفاة معاوية كاتبوا الحسين لينذهب إليهم لأخذ البيعة ، ويُقبل الحسين فلا يخفّوا إلى نجدته ، ويُقتل في كربلاء ، ويتحوّل قتله في نفوس الشيعة ناراً حامية لا تزال تسيل عويلاً وحرقاً لا ذعة^(١) . ثم تكون حركة التوّابين بزعامه سليمان بن صُرَد ، ويُقضى عليها ، ويبكيهم أعشى همدان في قصيدة طويلة كانت من المكتّمات في أيام بني أمية^(٢) .

ويتولى المختار بعد سليمان بن صُرَد قيادة الشيعة في الكوفة ، فيخرج عنها إلى ابن الزبير ، ويدعو دعوة صريحة لابن الحنفية ، وهو — كما أسلفنا — ابن علي بن أبي طالب من امرأة من بني حنيفة . وسرعان ما أخذت تتكون حول دعوته نظرية شيعية تسمى الكيسانية نسبة لمولى يسمى كيسان ، وقيل بل كيسان هو المختار نفسه . وتشترك هذه النظرية في الأسس التي قام عليها التشيع ، وهي أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة من بعده علي ، فهي ليست مفوّضة للأمة ، بل هي تنتقل بالوصية في علي وأبنائه المعصومين من الأئمة انتقالاً طريقته النص . وزادت الكيسانية أفكاراً غالية استمدتها من السبئية المنسوبين إلى عبد الله بن سبأ ، وكان

(١) انظر الطبري في حوادث سنة ٦١ ومقاتل ص ١٢٦ .

الطالبيين لأبي الفرج الأصبهاني (طبع الحلبي) (٢) طبري ٤/٧٢ : .

ص ١٠٤ وما بعدها ومعجم الشعراء للمرزباني

يغلو في تصور على ، حتى لقد زعم أن به قبساً إلهياً ورثه عن الرسول ، وهو يستقل من بعده في الأئمة واحداً تلو الآخر ، وبذلك أشاع فكرتي الحلول والتناسخ ، وأيضاً فقد زعم أن علياً سيهود فيملأ الأرض عدلاً وعلماً ونوراً . وبذلك وضع أسس فكرة الرجعة . ومضى يزعم أن الإمام لا يعلم علم الظاهر فحسب ، بل هو يعلم أيضاً علم الباطن لاطلاعه على أسرار الكون وخفايا المغيبات .

وكل هذه الأفكار انزلت إلى الكيسانية^(١) وزاد المختار عليها شعوبات^(٢) كثيرة من ذلك أنه كان يقول بالبهاء على الله أي أن له أن يعدل في الأحكام كلما بدا له التعديل ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وإنما اعتنق هذا القول لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال بوحى يوحى إليه ، فكان إذا وعد أصحابه بحدث شيء ، فإن حدث جعله دليلاً على صدق دعواه ، وإن لم يحدث يقول : قد بدا لربكم . وكان يزعم أن محمد بن الحنفية هو المهدي المنتظر الذي يخلص العالم من شروره ، وكان يتكهن بالأسجاع ، واتخذ لأشياعه كرسيًا غشاه بالديباج وقال لهم : إنه من ذخائر أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، وهو منكم بمنزلة التابوت في بني إسرائيل . وكان يكثر من إرسال حمامات بيضاء على جيوشه زاعماً أنها ملائكة تنزل عليهم من السماء ، وفي ذلك سرقة^(٣) البارقي وقد فر عنه^(٤) :

ألا أبلغ أبا إسحاق أني رأيت البلق دُهما مصمتات^(٥)
كفرت بوحىكم وجعلت نذراً على قتالكم حتى المات

الطوال للدينوري ص ٣٠٠ وقد نشر ديوانه في القاهرة بتحقيق حسين نصار .

(٤) طبرى ٥٢٧/٤ وأغانى ١٣/٩ .

(٥) البلق : الحمامات . مصمتات : لا يتخلط دهما لون آخر .

(١) انظر الفرق بين الفرق للبندادى ص ٣٤ والملل والنحل للشهرستاني ص ١٠٩ .

(٢) الملل والنحل ص ١٠٩ - ١١١ .

(٣) انظر في ترجمة سراقه الطبرى ٥٢٦/٤ وما بعدها ولأغانى (طبع دار الكتب) ١٣/٨ ، ٦٨ ، ١٣/٩ وابن عساكر ٦٩/٦ والأخبار

ويقول أعشى همدان^(١) .

شهدتُ عليكم أنكم سَبِيَّةٌ وَأَنْى بكم يا شُرْطَةَ الكُفْرِ عارفُ
وَأقسم ما كرسيتُكم بسكينةٍ وإن كان قد لُفَّتْ عليه اللفائفُ^(٢)
وإن لبَّسَ الثابوتُ فُتْنًا وإن سميتُ حمامُ حوَالِه وفيكم زخارفُ^(٣)

ولعل أهم فرقة شيعية بعد فرقة الكيسانية لهذا العصر هي فرقة الزيدية أتباع زيد بن علي الذي ثار في الكوفة سنة ١٢١ لعهد هشام بن عبد الملك ، وقُتل كما مرَّ في غير هذا الموضع ، وكان يؤمن بحقوق بيته في الخلافة غير أنه لم يكن يؤمن بالنص في الإمامة ولا ببقية الآراء الغالية عن الكيسانية وأشباههم ، وكان يجوزُ إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك جَوَّزَ إمامة أبي بكر وعمر مع وجود علي ، وذهب إلى أن كل فاطمي عالم زاهد سخي شجاع قادر على القتال في سبيل الحق يخرج للمطالبة به يصح أن يكون إماماً . وبكل ذلك كانت فرقة الزيدية في نشأتها - من أكثر فرق الشيعة اعتدالاً^(٤) ، وشاعرها الأول الذي عاش يردُّ نظريتها الكُفُوسِيَّة : وهاشميانه مطبوعة ومشهورة . وخرج بعد زيد ابنه يحيى ولكنه قُتل سنة ١٢٥ دون غاية . وخرج من بعده عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧ وانضم إليه كثيرون من أهل الكوفة ، وانتهى أمره بخروجه إلى بلاد الجبل ثم فراره وقتله . غير أن رايات الشيعة لا تلبث أن تقدّم من خراسان ، وتكون نهاية بني أمية .

ومن المحقق أن هذه الانقسامات العنيفة في صفوف الأمة العربية لعصر بني أمية وما جرّرت إليه بين أبنائها من تطاحن ومعارك دامية جعلها تنتكس صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ ظلت طوال هذا العصر مشغولة بفتن وحروب داخلية لو لم تُشغَلْ بها لفتحت أكثر العالم ولتغيّر وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ انقسم الشعب أحزاباً وصفوفاً تتحارب وتتناحر في سبيل

من ربكم).

(٣) فتن: جمع فتن وهو الفناء.

(٤) أنظر في الزيدية وعقيدتهم الملل والنحل

ص ١١٥.

(١) الهيوان ٢/٢٧١.

(٢) يشير إلى الآية الكريمة التي كان يقصدها

المختار في اتخاذ كرسية: (وقال لهم نبيهم

إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سَكِينَةٌ

الحكم ومطامعه ، ولو أنصفت الأمة لأخذت بنظرية الخوارج فأحقُّ الناس بحكمها أصلحهم سواء أكان من البيت الهاشمي أو من البيت الأموي أو من أى بيت من بيوت العامة ، فخير الأمة أنفعهم لإدارة شئونها ولو كان أبوه نجاراً أو حَمدَ أداً أو راعياً من الرعاة . ومن الغريب أنهم أهملوا التفكير في المصلحة العامة للشعب وما ينبغى أن يسوده من عدالة اجتماعية ومضوا يفكرون في الخلافة ومن أحقُّ بها من سواه ، وكأنما انقلبت الوسيلة غاية ، تُسَفَّك من أجلها الدماء .

وفى كل الأحداث التى قدمناها سواء منها ما يتصل بالشيعة والخوارج وثوراتها وما يتصل بأشراف العرب وثوراتهم على الأمويين تَرَوَى كتب التاريخ أشعاراً كثيرة ، إذ كان الشعر يجرى على كل لسان ، وانخذل الأمويون وخصومهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة .

٤

الحضارة

رأينا فى الفصل السابق كيف أن المدينة ومكة غرقتا فى نعيم الحضارة ، بما صَبَّ فيهما من أموال ورقيق أجنبي وجوار وإماء . وبمجرد أن هاجر العرب من الجزيرة ومَصَّرُوا الأمصار ونزلوا فى بلدان الأمم المفتوحة أخذوا يتأثرون وتأثراً واسعاً بالحضارات الأجنبية ، إذ كانت تحت أعينهم ، وكانت حجورهم تمتلئ بأموال الفتي وغنائم الحرب وما رُسِمَ لهم فى دواوين الدولة من رواتب ثابتة . وسرعان ما تحضروا ، بل سرعان ما تُتَرَفَّوا ، إذ ابتنوا القصور ، وطَعِمُوا فى أوانى الذهب والفضة مختلف الأطعمة . ولبسوا الثياب الحريرية المزركشة ، وتعطَّروا بالمسك وغيره من أنواع الطيب . وكان الموالى من ورائهم يهيتون لهم جميع الأسباب لينعموا بكل ألوان الترف ، إذ اكتظَّت بهم قصورهم ، يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد فى شىء من الحضارة ، فقد حُكِيَ أنه قدَّم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رِقاعاً ، وعثروا

على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجبتهم . فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المتهرة في أمثال ذلك والقومة عليه ، أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترّف في الأحوال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخير^(١) فأتوا من ذلك وراء الغاية^(٢) .

وقد ورث العرب في الشام المدن هناك ولم يمضروا أمصاراً جديدة ، وبذلك عاشوا في نفس المدن والدور والقصور التي كانت قبل الفتوح تتنفس الحضارة اليونانية الرومانية . وكان ذلك سبباً في سرعة تحضرهم ، إلا من أثر منهم العيش في البادية . وكانت هناك دمشق حاضرة الدولة التي أخذت تسيل إليها سيول الذهب والفضة من كل قطر ، ثم توزّعها في الناس من أهل الشام أولاً ثم من أهل البلدان الأخرى ، واستنّ لهم ذلك معاوية الذي كان يردّ بالناس على أرجاء وادٍ رحب^(٣) ، ويؤثّر عنه أنه كان يقول إنا نتمرغنا في نعيم الدنيا تمرغاً^(٤) . ويظهر لثم هذا النعيم في ابنه يزيد الذي عُرِف عنه كما قدمنا أنه كان « يشرب الخمر ويعزف بالطناير وتضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب » . ويخلفه مروان ابن الحكم وأبناءؤه الذين أحاطوا أنفسهم بكل ما يمكن من أبهة الملك لا في قصورهم التي كانت تزدهن بالطنافس وتلمع على حيطانها الفسيفساء وصفائح الذهب وتراعى في أفنيئها النافورات فحسب ، بل أيضاً في بيوت الله ، وعناية عبد الملك بالمسجد الأقصى وقبته التي تُعَدّ إحدى عجائب الدنيا مشهورة ، وكذلك عناية الوليد ابنه بالجامع الأموي في دمشق وزخرفته بالرخام والفسيفساء والزجاج الملون أشهر من أن نقف عندها^(٥) ، ولا تزال من ذلك بقية إلى اليوم . وقد بسط هذه العناية على المسجد الحرام في مكة ، فأحاله تحفة رائعة^(٦) . ومما يذكّر له من مآثر أنه عمّ بعطائه المجذّمين وقال لهم : لا تسألوا

(١) الخرقى : أثاث البيت .

(٤) طبرى ٢٤٧/٤

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البية (٥) الحيوان للجاحظ ٥٦/١ .

(٦) اليعقوبي ٣٤٠/١ .

بمصر ص ١٢١ .

(٣) طبرى ٢٩٨/٤ .

الناس، وأعطى كل مُتَمَعِدٍ خادماً وكل ضرير قانداً^(١). وتفنن الناس لعهدده فى بناء الدور والقصور، وخلفه سليمان فصبّ عنايته على الملابس والمطاعم وتأثّره الناس لعهدده تأثراً واسعاً^(٢). وتظهر ضريبة هذا الترف عند يزيد بن عبد الملك الذى وصفه أبو حمزة الإباضى، فقال: إنه « يشرب الخمر ويلبس الحُلّة قوّمَت بألف دينار... حَبَابَة عن يمينه وسَلَامَة عن يساره تغنيانه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قدّ ثوبه، ثم التفت إلى إحداهما فقال: ألا أظير»^(٣) وقد أرسل فى طلب مغنى الحجاز، فجاءه منهم كثيرون.

ولم تكن حمل الذهب والفضة تُحْمَلُ وحدها إلى بنى أمية من الآفاق، فقد كانت تُحْمَلُ معها حمل الجواهر والآلىء كما يحدثنا الجهمشيارى^(٤)، ويروى الطبرى أن يوسف بن عمر حمل إلى هشام بن عبد الملك لآلىء حبّتها أعظم ما يكون وحجراً من الياقوت يخرج طرفاه من الكف، قوّم بثلاثة وسبعين ألف دينار^(٥). وقد بلغ الترف أقصاه فى عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى عاش للهو والغناء، حتى تحوّل قصر الخلافة فى عهدده إلى ما يشبه داراً كبيرة من دور اللهو، ويقولون إنه « كان يلبس حول عنقه قلائد ذهبية مرصّعة بالأحجار الكريمة، ويغيّرها فى اليوم مراراً كما يغيّر الثياب شغفاً^(٦) ».

ومن المؤكّد أن أفراد العرب فى الشام لم يتحولوا جميعاً إلى مثل الوليد بن يزيد ولا إلى مثل أبيه فى هذا الترف الآثم، إنما المؤكّد أنهم تحضروا وأن نفراً منهم أُتُرفوا، بعضهم من أمراء البيت الأموى وبعضهم من الرعية. وبالمثل تحضّر من نزلوا فى الفسطاط والقيسروان والأندلس، وكانت كثرتهم من عرب الشام، الذين أصابوا حظاً من الحضارة قبل الفتوح لنزولهم قديماً فى تلك البيئة المتحضرة.

(١) طبرى ٢٦٥/٥.

(٢) طبرى ٢٦٦/٥.

(٣) البيان والتبيين ١٢٣/٢.

(٤) فطر الوزراء والكتاب للجهمشيارى.

ص ٢٧، ٣٤.

(٥) طبرى ٥١٩/٥.

(٦) أغاني ٥٩/٧.

ولإذا ولّينا وجوهنا نحو البصرة والكوفة وجدنا العرب هناك يتحضرون تحضراً واسعاً رغم احتفاظهم بعصبياتهم القبلية ، إذ ساكنوا الفرس وبقايا الآراميين وخالطوهم ، وتحولت إليهم كنوز العراق وإيران وما كانوا يفتحونه من خراسان ، حتى كان يُقسّم للفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب^(١) ، ومن يرجع إلى ما كتبه البلاذري في فتوح البلدان عن تمصير الكوفة والبصرة تهوله كثرة القطائع التي تملكها الناس هناك من عرب وموال أمثال مسمار مولى زياد وفير وز حصين وحسان النبطي . وكانت الحمامات تدرّ في البصرة لهذا العصر أموالاً كثيرة ، حتى ليُروى أن بعضها كان يُغلّ يومياً ألف درهم ، ولم يكن يملكها العرب وحدهم ، بل كان يملكها أيضاً الموالى . وما يذكره البلاذري من حماماتهم حمام آعّين مولى سعد بن أبي وقاص وحمام فيل مولى زياد وحمام سباه الأسواري .

ونرى العرب والموالى جميعاً يتنافسون بالبصرة في بناء القصور الفخمة ، ويذكر البلاذري منها قصر زر بن مولى عبد الله بن عامر وقصر أبي نافع مولى عبد الرحمن بن أبي بكر وقصر ابن الأصهباني وقصر شيرويه الأسواري الذي سُمّي «هزارد» لأنه اتخذ فيه ألف باب . وما يدل على مبلغ التأنق في بناء هذه القصور ما يُروى عن بعض التميميين بالبصرة من أنه طلب إلى معاوية أن يُعيّنه في بناء داره باثني عشر ألف جِدْع^(٢) ، وكذلك ما يُروى من أن عبيد الله بن زياد أنفق على داره هناك التي سماها البيضاء ألف ألف درهم وأنه ملأها بالرياش والطنافس وزخرف حيطانها بتصاوير الحيوانات^(٣) ، وفي نصوص كثيرة أنهم كانوا يحيطون قصورهم بالحدائق والبساتين^(٤) .

وتبع ذلك كله الرّفّة والترف في المطعم والملبس ، حتى لَنرى نفرّاً من الأتقياء يلبس الديباج والقلائس^(٥) ، ونراهم يَكُنُون عن هذا التحول في حياتهم بأنهم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ . (٤) انظر الكامل للمبرد ص ٧٨٥ والبيان

(٢) طبري ٢٤٦/٤ . والتبيين ٨٢/٢ .

(٣) راجع ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة (٥) ابن سعد ١٣٩/٥ ، ٢٠٢/٦ ، ٧٠٢/٧ ق

البيضاء وانظر الطبري ٤٠٢/٤ . ١٥٣/١ .

طعموا الجَرْدَقَ ولبسوا النُّمْرُقَ^(١). وكانت الثياب والأطعمة تُحْمَلُ إليهم من البلدان القريبة والبعيدة ، ويُروى عن الحجاج أنه كتب إلى عامل له بفارس «ابعث إلى بعسل من عسل خلّار^(٢)، من النّحل الأبكار، من الدّستفشار^(٣)، الذى لم تمسه النار^(٤)». ومما يصور هذا الرفه في العيش والتنعم ما يُروى من أن عبید الله بن زياد هياً لأبيه حين توفى ستين ثوباً ليكفنه فيها^(٥) ، فلم يعد الثوب ولا الثوبان ولا الثياب القليلة تكفى الكفن الواحد .

وطبعی أن يُعْمَنُوا في ثياب هذه الحياة الرّغدة بكثير من أسباب اللهو كسباق الخيل^(٦) والصيد^(٧) والقنص ولعبی^(٨) الشطرنج والردوسرى أن كثير من تورطوا في لثم الخمر. وقد أخذت الكوفة تُعنى بالغناء ولم تكتف بمن نشأوا فيها من أمثال حُنين^(٩) الحيرى وأحمد^(١٠) النّصبي ، فقد أخذت تستقدم المغنين والمغنيات من الحجاز ، وتفتح لم دوراً يختلف إليها الناس كدار^(١١) ابن رامین . وسقط هؤلاء المغنون إلى كل بلد عربى ، إذ نجد في القسقاط ابن أبجر^(١٢) مغنى المدينة .

ونعيم العرب في خراسان بكثرة ما أصابوا من الأموال وفتية الغنائم ، وفي كتب التاريخ والأدب أخبار من ذلك تكاد تشبه الأساطير ، منها أن عبد الرحمن بن زياد الذى ولاه معاوية أعمال خراسان سُئِلَ في أثناء ولايته عما صار إليه من أموال فقال : إني قدّرت ما عندى لمائة سنة ، فإذا هو يبلغ في كل يوم ألف درهم^(١٣) ، ويُروى أن مصعب بن الزبير في ولايته على العراق جاءه من هناك نخلة مصنوعة من الذهب ، عثا كيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر

- | | |
|--|--|
| (١) طبرى ٢٨٠/٥ . والفرق : مفرد نمارق وهي الطنافس | (٧) أغاني (دار الكتب) ٣٦١/١٣ والشعر والشعراء ٥٨٨/٢ . |
| (٢) خلار : موضع بفارس مشهور بعسل النحل . | (٨) نقائص جرير والفرزدق ص ٧٨٧ . |
| (٣) الدستفشار : كلمة فارسية معناها المعصور باليد . | (٩) أغاني (دار الكتب) ٣٤١/٢ . |
| (٤) البيان والتبيين ١٠٣/٢ . | (١٠) أغاني ٣٣/٦ . |
| (٥) طبرى ٤١٥/٤ . | (١١) أغاني (دار الكتب) ٦٠/١٥ . |
| (٦) البيان والتبيين ٢٥٧/٣ . | (١٢) أغاني ٣٤٦/٣ . |
| | (١٣) الجهشيارى ص ٢٩ . |

وأخضر ، وقد قومت بألفي ألف دينار^(١) . ويُروى أن الإصْبَهيد في طبرستان صالح يزيد بن المهلب في بعض حروبه هناك على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف نقداً ومائتي ألف ، وأربعمائة حِمْل زعفران وأربعمائة رجل ، على كل رجل بُرنس ، وعلى البرنس طيلسان ولجام من فضة وسرقة (شُققة) من حرير^(٢) . ويُقال إن الجراح الحكمي واليه لعهد عمر بن عبد العزيز كان يتخذ تحت بساطه نُقراً يملؤها ذهباً وفضة ويوزعها على من يدخل عليه من أصحابه^(٣) . وكان الأمراء والدهاقين يَتَقَدِّمون على ولاية خراسان بالهدايا النفيسة ، وقد قومت إحدى هداياهم لأسد بن عبد الله القسري بألف ألف ، وكانت قصرين : قصرأ من فضة وقصرأ من ذهب ، وأباريق وصحافاً من ذهب وفضة^(٤) . وكان الولاية يبدوهم يرسلون بالهدايا إلى الخلفاء ، ويُروى أن نصر بن سيار أعدَّ للوليد بن يزيد هدية من الجوارى والبراذين الفارحة وأباريق الذهب والفضة وتماثيل الظباء والسباع وأنه أرسل له بكثير من آلات الطرب^(٥) .

ووسط هذه الأمواج من الأموال تحضر العرب في خراسان ، بل أُتُروا ترفاً شديداً ، حتى لنرى بعض الولاية يقول إن فَيْسَى خراسان لا يني بمطبخي^(٦) ! ويقال إن يزيد بن المهلب كان يتخذ ألف خيوان يُطعم عليها الناس^(٧) . وتدل نصوص كثيرة على أن العرب تأقلموا هناك ، فلبسوا السراويل والطيايلة والقلانس القصيرة والطويلة^(٨) ، واحتفلوا بعيد النيروز والمهرجانات ، واختلفوا إلى سماع الطبول والمزامير^(٩) ، وشرب كثير منهم النبيذ حتى اضْطُرَّ بعض الولاية لتفشيهِ في الجند إلى أن يعاقب عليه بالقتل^(١٠) .

وفي كل مكان نجد آثار هذا الترف . وفي كتاب الأغاني تراجم كثيرة لمن كانوا يُسْرِفون على أنفسهم في شراب الخمر لا في خراسان فقط ، بل أيضاً

- | | |
|--------------------------------|---|
| (١) الجهتيارى ص ٤٤ . | (٧) طبرى ٢٨٨/٥ . |
| (٢) طبرى ٢٩٥/٥ . | (٨) لم يقف هذا اللبس عند عرب خراسان ، |
| (٣) بلاذري ص ٤١٥ . | فقد شاع بين عرب العراق وزهادهم . انظر ابن |
| (٤) طبرى ٤٦٥/٥ . | سعد ١٣٩/٥ ، ٣٩٢/٥ ، ٢٠٢/٦ ، ٢٥٥/٦ . |
| (٥) طبرى ٥٣٣/٥ . | (٩) طبرى ٤٣٧/٥ . |
| (٦) أغاني (دار الكتب) ٢٨١/١٤ . | (١٠) طبرى ٢٨٣/٥ . |
| وطبرى ١٣٢/٥ . | |

في العراق وفي الحجاز ، ولم تكن الحمر وحدها ضريبة هذا الترف ، فقد ظهرت في المدينة طائفة من الخنثين ، كانوا يتشبهون بالنساء في ثيابهن وعاداتهن من مثل تصفير الشعر وتصفيفه وصبغ الأظافر بالحناء ، مما اضطر سليمان بن عبد الملك أن ينزل بهم عقاباً صارماً^(١).

وطبيعي أن يمتد هذا الترف إلى النساء العربيات فقد كان الجوارى يزاحمنهن في قلوب الرجال ، فتفنن في زينهن تفنناً واسعاً ، على نحو ما حكينا ذلك فيما أسلفنا عن السيدة سكينة بنت الحسين. ويروى أن مصعب بن الزبير أهدي زوجته عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ثمانى حبسات من اللؤلؤ ، قيمتها عشرون ألف دينار ، ولما دخل عليها بهديته وجدها نائمة فأيقظها ليقدّمها إليها ، فلما رأتها قالت له غير آبهة: لقد كان النوم أحبّ إلى^(٢). ويروى الأغاني أن عائكة بنت يزيد ابن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان استأذنته في الحج فقال لها : ارفعي حوائجك واستظهري فإن عائشة بنت طلحة تحجّ ، ففعلت ، وجاءت بهيئة جهدت فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرّق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة ، عائشة ، فضغطهم ، فسألت عنه ، فقالوا : هذه ماشطها . ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى ستينها ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة ، عليها القباب والهواذج ، فقالت عائكة : ما عند الله خير وأبقى^(٣).

٥

الثقافة

إذا أخذنا نحلل عناصر الثقافة العربية في هذا العصر وجدناها تعود إلى ثلاثة جداول مهمة : جدول جاهلي و جدول إسلامي و جدول أجنبي . فأما الجدول الجاهلي فيبدو في الشعر والأيام ومعرفة أنساب القبائل وتقاليده الجاهلية ، وقد

(١) أغاني (دار الكتب) ٢٧١/٤ وما بعدها . (٣) أغاني ١٨٨/١١ .

(٢) أغاني ١٨٢/١١ .

أقبل العرب يعبسون من هذا الجدول عباءً ، وكأنما صُفُوا عليه صفوفاً ، وسرعان ما ظهر من بينهم علماء كثيرون يتخصصون بمعرفة الشعر وروايته والأنساب وتشعباتها وأخبار الجاهلية وأيامها مثل عُبَيْدِ بْنِ شَرِيَّةَ راوية الأخبار اليمنية ، ودَغْفَلِ بْنِ حَنْظَلَةَ النَّسَّابَةِ والنَّخَّارِ بْنِ أَوْسِ الْعُدْزِيِّ وزيد بن الكيس النخري وشهاب بن مذعور وبنى الكواء وغيرهم كثيرون . وفي أهل هذه الطبقة يقول مسكين الدارمي^(١) :

وَحَكْمٌ دَغْفَلًا وَاِرْحَلٌ إِلَيْهِ وَلَا تُرِحَ الْمَطِيُّ مِنَ الْكَالِ
تَعَالَ إِلَى بَنِي الْكَوَاءِ يَقْضُوا بِعِلْمِهِمُ بِأَنْسَابِ الرِّجَالِ
هَلُمَّ إِلَى ابْنِ مَذْعُورٍ شِهَابٍ يُنَبِّئُ بِالْمُؤَافِلِ وَالْعَوَالِ
وَعِنْدَ الْكَيْسِ النَّخْرِيُّ عِلْمٌ وَلَوْ أَضْحَى بِمُنْخَرَقِ الشَّعَالِ

وأما الجدول الإسلامي فيبدو في القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته وغزواته ، ثم في الفتوح الإسلامية وأحداثها وحروب علي وخصومه . وقد أخذ هذا الجدول يتشعب شعبتين كبيرتين : شعبة تاريخية تُعنى بتاريخ الإسلام على نحو ما يصور لنا ذلك أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير في اهتمامهما بمغازي الرسول ، وكان هناك من عُنوا بجمع أخبار أهل الكتب السماوية مثل وهب بن منبه . وشعبة دينية تُعنى بقراءات القرآن وبالحديث النبوي وما يتصل بهما من تشريع وفقه ، وقد ألفت أصحاب هذه الشعبة في كل بلد إسلامي مدرسة كبيرة يأخذ فيها الخلف عن السلف ، واشتهر من بينهم بمكة تلاميذ ابن عباس وعلى رأسهم عطاء وعكرمة وبالمدينة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومولاه نافع وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وعروة بن أذينة والزُّهري وبالبصرة طاووس وبالكوفة تلاميذ ابن مسعود وعلى رأسهم الشعبي وسعيد بن جبشير وشُرَيْح بن الحارث القاضي وبالبصرة ابن سيرين والحسن البصري وقتادة وإياس بن معاوية ومالك بن دينار وبخراسان الضحاك بن مزاحم وبالشام شهر بن حوشب ومكحول والأوزاعي وبمصر الصابحي ويزيد بن عبد الله البرقي .

وهذان الجدولان الإسلامى والجاهلى أخذت تنشأ حولهما طبقة من المعلمين العاميين الذين كانوا يعلمون الناشئة القرآن والشعر وما يتصل بهما . وكان منهم معلمون لأولاد الخاصة^(١) من خلفاء بنى أمية وأمرائهم وولاتهم مثل عبد الصمد ابن عبد الأعلى ، ومعلمون لأولاد العامة فى كتاتيب القرى ، وقد اشتهر الحجاج الثقفى بأنه هو وأباه كانا معلّمين بالطائف . ومن هؤلاء المعلمين الكُـمَيْت بن زيد وكان يعلم الصبية بالكوفة ، وكان يقابله فى مكة عطاء بن أبى رباح وفى خراسان الضحاك بن مزاحم وفى الرّى الطرماح ، وفيه يقول بعض من شاهده : « لقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده وكأنهم قد جالسوا العلماء^(٢) » .

وكان يلتقى بهذين الجدولين الإسلامى والجاهلى جدول ثالث أجنبى جاء العرب من ملاستهم للأمم الأجنبية فقد اندفعوا يطلبون كل ما لدى هذه الأمم من معارف تطبيقية نافعة ، فتعرفوا على تخطيط المدن وعمارة المباني وطريقة استغلال الأرض وشق التّرع والقنوات ، كما تعرفوا على طرق جباية الخراج وضبط الدواوين ، ونقلوا فى ذلك عن الفرس والروم كثيراً . وكانوا فى أول الأمر يستعينون بالأوليين فى دواوين العراق وفارس وخراسان وبالأخيرين فى دواوين مصر والشام ، وظلوا على ذلك إلى عصر عبد الملك : إذ عُرِبَت تلك الدواوين . وقد دفعهم حروبهم مع الروم لإنشاء الأساطيل واقتباس بعض أساليبهم الحربية .

ولم يقف العرب فى تأثرهم بالأجانب عند المعارف التطبيقية النافعة ، فقد تحولوا إلى المعارف النظرية البحتة يدرسونها ، وكانت تنتشر فى البلاد التى فتحوها الثقافة الهيلينية ، وهى مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية مختلفة دينية وغير دينية . وكانت تُعنى بهذه الثقافة مدرسة جُسُـدَيسابور فى إيران ومدارس أخرى فى الرّها ونصيبين وأنطاكية وقنسرين وحِـرَّان والإسكندرية كما كانت تعنى بها بعض الأديرة فى العراق والشام ومصر . وكان المعلمون

(١) انظر فى هؤلاء المعلمين للخاصة ومن يلهم
من معلمى الكتاتيب : البيان والتبيين ٢٥١/١ (٢) البيان والتبيين ٢٢٣/٢ .

في هذه الأديرة والمدارس يعتمدون غالباً على مصادر سريانية ويونانية ، ومن أشهر منهم في هذا العصر «سويرس سيبنوخت» أسقف دير قنسرين وتلميذه يعقوب الرهاوي وجورجيس أسقف حوران ، وكانوا جميعاً يُعَمِّنونَ بالمنطق الأرسططاليسي والفلسفة اليونانية^(١) .

وطبيعي أن يتصل العرب بهذه الفلسفة وذلك المنطق ، إذ كانوا ناشرين لدينهم ، وكانوا يجادلون النصارى وغيرهم من أصحاب الملل ، وقد اشتهر يوحنا الدمشقي الذي كان يشرف على الشؤون المالية لغير خليفة أموى بأنهم كانوا يكثر من جداله ، وله مصنفات مختلفة ، منها محاوراة مع بعض المسلمين في ألوهية المسيح ونظرية حرية الإرادة^(٢) . وقد مضى العرب يطلبون الوقوف على ماعدن القوم من وجوه الاستدلال المنطقي ، حتى يستعينوا على دحض الشبهة ، ويدعموا جدالهم بالحجج القاطعة . وينبغي أن نلاحظ أن كثيرين من حسملة هذه الثقافة الهيلينية المتشعبة أسلموا ، وتحولوا يدافعون عن الإسلام ويردون على خصومه . وبذلك لم تنتظر طويلاً هذه الثقافة وما يتصل بها من المنطق حتى تُترجم ، فقد كان أهلها يعربون تعريباً تاماً ، ومن ثم انتقلوا بها إلى العربية . وبين أيدينا أخبار تدل على أن العرب اهتموا بالترجمة منذ هذا العصر ، فمن ذلك ما يروى عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه استعان براهب رومي يسمى ماريانس ليعلمه الكيمياء^(٣) ، كما استعان بأصطفى القديم ، ويقول الجاحظ : « هو أول من ترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء^(٤) » ويذكر ابن النديم بعض كتبه في ذلك^(٥) . وفي أخبار عمر بن عبد العزيز أنه أمر ماسرجويه البصري أن يترجم من السريانية إلى العربية كتاباً في الطب للقس أهـرن بن أعين^(٦) ، وقد ذكر الحكم بن

- | | |
|---|--|
| (١) انظر مقالة مايرهوف « من الإسكندرية إلى بغداد » في التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي ص ٥٣ وما بعدها . | (٤) البيان والتبيين ١/٣٢٨ . |
| (٢) راجع تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى (الطبعة العربية) ٣١٤/٢ . | (٥) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨ . |
| (٣) وفيات الأعيان (طبعة ديسلان) | (٦) ابن أبي أصيبعة ١٦٣/١ وتاريخ الحكماء (مختصر الزوزني) طبع ليزج ص ٣٢٤ |
| (٤) وفيات الأعيان (طبعة ديسلان) | وانظر نقولا عن ماسرجويه في الحيوان ٢/٢٧٥ ، |
| ٢٤٦/١ . | ٣٦٤/٥ . |

عبدل الكوفي أهرن وطبّه في بعض شعره^(١). ويروى أن سالما مولى هشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل لأرسطاليس^(٢). كما يروى أنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية يتحدث عن الدولة الساسانية ونظمها السياسية^(٣).

وهذه الأخبار القليلة عن الترجمة في عصر بني أمية إنما هي رمز للحقيقة الكبيرة ، حقيقة تحول الثقافة الهيلينية إلى حجور العرب بكل ما كان فيها من منطق يوناني ومعارف مختلفة ، ومن المؤكد أن هذا التحول لم يتأخر إلى العصر العباسي كي يتم ، أو كي تتم دورته ، فقد كان كل شيء في هذا العصر الأموي يدفع إلى تمامه ، لا عن طريق الترجمة فحسب ، بل أيضاً كما قلنا آنفاً عن طريق المشافهة وانتقال الشعوب المفتوحة إلى الإسلام والعربية بكل كنوزها الفكرية ومعارفها العقلية .

ومعنى هذا كله أن العقل العربي دُعم في هذا العصر بمواد ثقافية كثيرة ، وهو دَعَمُ نجد آثاره في ازدهار العلوم الإسلامية الخالصة : علوم الفقه والتفسير والحديث ، كما نجد هذه الآثار في كثرة المناظرات التي نشبت بين الآراء المختلفة في السياسة والدين وغير السياسة والدين . وارجع إلى أخبار الخوارج فستجدهم يثيرون الجدل في كل مكان ، وجداهم مع علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس مشهور ، ويروى أن عبد الملك بن مروان أتي برجل منهم ، فجعل يبسط له من قوهم ويزين له من مذهبهم بلسان طلسق وألفاظ بينة ومعان قريبة ، حتى قال عبد الملك : لقد كاد يوقع في خاطري أن اللجنة خلقت لهم وأني أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبتت الله عليّ من الحجّة وقرّر في قلبي من الحق^(٤). وهذا رجل من عامتهم فما بالنا بزعمائهم ، ويشيد المبرد في كتابه « الكامل » بقدرتهم على الجدل واستظهار الأدلة والبراهين^(٥) ، وقد جعلهم

(١) الحيوان ١/٢٤٧ وبعيون الأخبار ٤/٦٢ . ص ٨١ .

(٢) الفهرست ص ١٧١ . (٤) الكامل (طبعة رايت) ص ٥٧٣ .

(٣) راجع صفحات عن إيران لصاقد نشأت . (٥) الكامل ص ٥٦١ .

ومصطفى حجازي (نشر مكتبة الأنجلو المصرية)

ذلك يختلفون ويتوزعون فرقا من أزارقة ونجدية وصُفُرية وإباضية، وشكا زيد بن جُنْدَب من هذا الاختلاف بينهم ، فقال ^(١) :

كُنَّا أَنَاساً عَلَى دِينٍ فَفَرَّقْنَا طَوْلُ الْجِدَالِ وَخُلُطُ الْجِدِّ بِاللَّعِبِ
مَا كَانَ أَغْنَى رَجَالاً ضَلَّ سَعِيَّهُمْ عَنِ الْجِدَالِ وَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْخُطْبِ

وكان الشيعة على شاكلتهم ينافحون عن عقيدتهم ، واختلفوا هم الآخرون وتجادلوا فيما بينهم ، وجادلوا أصحاب الفرق التي عاصرتهم ، ومن اشتهر بإحسانه للجدال منهم زيد بن علي بن الحسين مؤسس مذهب الزيدية الشيعي ، وقد تحول شاعره الكمي بأشعاره الملقبة بالهاشميات إلى تقرير نظرية هذا المذهب وكأننا لا نقرأ عنده شعراً ، وإنما نقرأ مقالة في المذهب الزيدي تبسط أصوله وتدافع عنه بالحجج والبراهين .

وإذا انتقلنا من السياسة إلى الدين وجدنا الفقهاء يتجادلون طويلاً في مسائلهم الفقهية بين أيدي الخلفاء وفي مجالسهم العامة والخاصة ، وتُروى من ذلك مناظرة ^(٢) بين قتادة والزُهري في مجلس سليمان بن عبد الملك وأخرى ^(٣) بين ابن شبرمة وإياس بن معاوية ، تناولا فيها نحو سبعين مسألة . ويُروى أن الشَّعْبِي الكوفي كان يجلس في مجالسه وحوله تلاميذه يناظرونه ^(٤) . وقد كثرت هذه المناظرات حتى نشأ عنها علم الاختلاف أي اختلاف الفقهاء . وكان أيوب السَّخْتِيَانِي يقول : « لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف ^(٥) » ، وأداهم ذلك إلى تحكيم العقل في آرائهم والتدقيق في مسالك أدلتهم حتى نشأ بينهم من سُمُّوا أهل الرأي لغلبة القياس على فقههم ^(٦) .

وقد تجادلوا طويلاً في مسائل العقيدة ، وسرعان ما أخذ علم الكلام في الظهور وتكونت فيه مذاهب القدرية والحبسرية والمُرجئة والمعتزلة ، وكان من أهم المسائل التي أثارت بينهم مسألة حرية الإرادة ، وهل الإنسان حر مختار في أفعاله أو هو

(١) البيان والتبيين ٤٢/١ .

(٢) البيان والتبيين ٢٤٣/١ .

(٣) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ .

(٤) البيان والتبيين ٩٨/٢ .

(٥) المعارف لابن قتيبة ص ٢٤٨ .

(٦) البيان والتبيين ٣٢٢/٢ .

مُجَبَّرٌ مَسِيرٌ ؟ ووقف القدرية وعلى رأسهم الحسن البصري يدافعون عن الرأي الأول ، إذ لو كان الإنسان مسيراً بقضاء لازم وقدر محتوم لبطل الثواب والعقاب وسقط وَعَدَ الله ووعيده .

واصطفَ أمام القدرية أصحاب مذهب الجبريتناضلون عن مذهبهم وأن كل شيء بقضاء وقدر . وكان هذا المذهب يُرضى الأمويين ، لأنه يتصرف الناس عن التفكير في ولايتهم وتديبرهم لشئونهم ، مؤمنين بأن خلافتهم قد رُتِّقَ مقدور يجب عليهم التسليم به ، ومن ثم نرى شعراءهم يردُّون هذه الفكرة طويلاً على شاكلة قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان^(١) :

اللَّهُ طَوْقُكَ الْخِلَافَةَ وَالْهُدَى وَاللَّهُ لَيْسَ لِمَا قَضَى تَبْدِيلُ

وانبثقت من هذا المذهب ومذهب القدرية شعبة المُرْجِئَةِ فكان هناك جبرية مرجئة وقدرية مرجئة ، وكانوا يرون الفصل بين الإيمان والعمل ، فالمؤمن مسلم وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية ، إذ المعوَّل في الإيمان على التصديق بالقلب . وكانوا يرون أيضاً إرجاء الحكم على أعمال الناس وتركه إلى الله جلَّ جلاله ، ومن ثم رأوا إرجاء الحكم في أمر على وعثمان ومعاوية حتى يحكم الله بينهم . وجعلهم ذلك يصطدمون بالدولة ، لما تنهى إليه دعوتهم من تعطيل أحكام الدين وأوامره ونواهيه ، ويلقانا منهم أبو ربيعة سنة ١٠٢ في نفر من أصحابه يحارب مع يزيد ابن المهلب في ثورته على الأمويين^(٢) . وفي أخبار عمر بن عبد العزيز أنه طلب أئمتهم في الكوفة من أمثال عتو بن عبد الله بن عتبة الهذلي ، وناظرهم في آرائهم^(٣) . ونرى عتوياً يرجع من عنده ، فيبرأ منهم ، وينضم إلى الشيعة ، مصوراً ذلك في أبيات تُنسب إليه تجرى على هذا النمط^(٤) :

وَأَوَّلَ مَا نَفَارِقُ غَيْرَ شَكٍّ نَفَارِقُ مَا يَقُولُ الْمُرْجِئُونَ
وَقَالُوا مُؤْمِنٌ مِنْ أَهْلِ جَوْرِ وَلَيْسَ الْمُؤْمِنُونَ بِجَائِرِينَ
وَقَالُوا مُؤْمِنٌ دَمُهُ حَلَالٌ وَقَدْ حَرَّمَتْ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ

(١) ديوان جرير (طبعة الصاوي) ص ٤٧٤ . (٢) ابن سعد ٢١٨/٦ .

(٢) طبري ٣٤٠/٥ . (٤) البيان والتبيين ٣٢٨/١ .

وواضح أنه يصف المرجئة بأنهم يستحلون دماء المسلمين مما كان سبباً في تعقب الأمويين لهم ، وقتلهم أحياناً على نحو قتل هشام بن عبد الملك لعتيلان^(١) الدمشقي.

ولم يُعترف بهذا المذهب في العراق والشام فحسب ، فقد كان له أنصار في خراسان ، ومن قدماء أنصاره هناك ثابت قُطْنَة وهو من مُرجئة الجبرية ، وله قصيدة طويلة يصور فيها عقيدته ، يقول في تضاعيفها^(٢) :

المسلمون على الإسلام كلُّهم والمشركون أشتوا دينهم قَدَدَا^(٣)
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً مِ النَّاسِ شِرْكَاً إِذَا مَا وَحَّدُوا الصَّمَدَا
وما قضى الله من أمرٍ فليس له رَدٌّ وما يَقْضِ من شيءٍ يَكُنْ رَشْدَا
كلُّ الخوارج مُخْطِ في مقالتهِ ولو تعبدَ فيما قال واجتهدا
أما عليٌّ وعثمانُ فإنهما عبدان لم يُشركا بالله مُدَّ عَبْدَا
ويتوفى ثابت ، ويظهر هناك جهنم بن صفوان أحد رؤوس الإرجاء^(٤) ويضع يده في يد الحارث بن سُرَيْج ويشعلان ثورة عنيفة على الأمويين ، ويُقْضَى عليها بعد صراع مرير .

وقد انبثق من مذهب القدرية مذهب جديد هو مذهب الاعتزال ، وكانت المشكلة الأولى التي انبثقت عنها هذا المذهب هي مشكلة مرتكب الكبيرة ، إذ كان الخوارج يرون أنه كافر ، بينما كانت المرجئة ترى أنه مؤمن ، وكان الحسن البصري ومن تابعوه من القدرية يرون أنه مؤمن فاسق فأظهر واصل بن عطاء القول بأنه غير مؤمن ولا كافر ، بل هو في منزلة بين المنزلتين . وأثار ذلك جدالاً عنيفاً بينه وبين أصحابه من القدرية ، ودفع الحسن عمرو بن عبَّيد ليجادله فيه ، فأقنعه واصل برأيه^(٥) ، وبذلك فارقا معاً مذهب الحسن ، وسُمِّيَا هما ومن

- (١) انظر في ترجمته لسان الميزان ٤/٢٤٤
والمعارف ص ٢٤٤ وفي هذين الكتابين أنه كان
قدرياً ولكن في الفهرست ص ١٧١ والملل والنحل
(طبعة لندن) ١٠٥ أنه كان مرجئاً ، ومن ثم
فقداده في مرجئة القدرية . وراجع فيه المنية والأمل
لابن المرتضى والفرق بين الفرق ص ١٩٠ .
- (٢) أغاني ١٤/٢٧٠ .
(٣) أشتوا : فرقوا . قَدَدَا : طرائق وفروقا .
(٤) انظر الملل والنحل ص ٦٠ حيث يوضح
كيف أصبح رئيساً لفرقة تسمى الجهمية نبيهاً
بعض أصول مقالتها .
(٥) انظر في ذلك أمالي المرتضى ١/١٦٥ .

تابعهما باسم المعتزلة . وقد اجتذبا إلى آرائهما كثيراً من الأتباع والدعاة ،
تسندهما في ذلك دراسة مستفيضة لآي القرآن الكريم وعقل دعماء بالمنطق وأدلتها
الدقيقة . ومضى أتباعهما على شاكلتهما يجمعون بين الدين والفلسفة ، فازدهر
الاعتزال وأصبح في العصر العباسي الأول أهم مذاهب المتكلمين ،

ولما أطلنا في هذا الجانب لنجد على أن العقل العربي في عصر بني أمية أمدّ تهراً وافداً
كثيراً، دعمته دعماء، مما كان له آثار بعيدة في أشعار الشعراء، إذ كانوا مندمجين
في الفرق السياسية والعقيدية وما نشب بينها من مجادلات ، ويسوق الرواة من ذلك
مجادلة بين ذي الرمة ورؤبة في القدر، وكان أولهما قدرياً وثانيهما جبرياً^(١) . وتأثير
هذه المجادلات تحول جرير والفرزدق يتجادلان جدالاً عنيفاً في عشيرتهما
من جهة وفي قيس وتميم من جهة ثانية على نحو ما هو معروف في نقائضهما ،
وكأنهما يتحولان بشعر الهجاء والعصبيات القديم إلى ما يشبه مقالات أهل
النحل . وكل ذلك من آثار هذا التطور الذي أصاب العقل العربي ، والذي
جعله يندفع في البحث والمناظرة والتدرب على جَسع البراهين والأدلة في أي
موضوع يعرض له .

وكان من ثمار هذا التطور أيضاً أن رأينا بعض الشعراء يسعى بشعره إلى غاية
تعليمية، إذ أخذ بعض الشعراء المعلمين من أمثال الكهميت والطرمّاح يحشدون
في أشعارهم أوابد اللغة وشواردها، ليعينوا الناشئة على معرفتها . ولم يلبث الرجّاز
وعلى رأسهم العجاج ورؤبة أن قدّموا من ذلك مادة وفيرة للناشئة ولعلماء اللغة .

٦

الاقتصاد وموقف العرب من الموالى

لا ريب في أن للمؤثرات الاقتصادية أثراً كبيراً في حياة الإنسان ، وبالتالي
في كل ما ينتج من أعمال وآثار . وإذا أخذنا ننظر في حياة الشعراء لهذا العصر
وجدنا للاقتصاد أثره العميق في اتجاهاتهم ، وهل نستطيع تفسير شيوع الغزل

(١) أمالي المرتضى ١/١٩٠ .

المادى الصريح في مدن الحجاز وانتشار الغزل العذرى العفيف في نجد وبيئات
البوادي إلا برد ذلك إلى نعومة العيش وما كان ينشعَمُ به سكان تلك المدن من ثراء
عريض ثم ما كان فيه سكان نجد والوادي من شطف العيش وخشونته ، ولا
ننكر أثر الإسلام في نفوسهم ، غير أننا لا ننكر أيضاً أثر نظام الحياة
الاقتصادي ومدى عمله في النفوس . وبالمثل نحن لا نستطيع تفسير شيوع
المدنيح في العراق وخراسان وما كان يهبط منه إلى دمشق إلا برد ذلك إلى ظهور
طبقة ضخمة من الأثرياء كانت أخلاقاً من الحكام الذين أداروا شؤون الدولة
في الخراج وغير الخراج ومن الأغنياء الذين ملكوا الإقطاعات ، بينما ظل وراءهم
جميعاً جمهور كبير ، يتلقى منهم رزقه إما بالعمل لهم وإما بما يقدم لهم من
مدنيح ، يقول ذو الرمة^(١) :

وما كان مالى من ثراث ورثته ولا دية كانت ولا كسب مأثم
ولكن عطاء الله من كل رحلته إلى كل محجوب السراق خضرم^(٢)
وقد مضى كثير من أصحاب الثراء العريض يحققون لأنفسهم كل ما تصبو
إليه نفوسهم من صور الترف مما أدّى ، وخاصة في أواخر العصر ، إلى ذبوع
شعر الخمر والمجون وانتشاره .

وإذا ذهبنا نتمتع النزاع السياسي الحاد الذي نشب طوال العصر وتكونت بسببه
فرق الزبيريين والشيعة والخوارج رأينا يعود في كثير من جوانبه إلى بواعث
اقتصادية ، فقد كانت هذه الفرق ترى الأمويين متسلطين على أموال الدولة
ينثرونها على أنصارهم ومن يلوذون بهم دون نظر إلى مصلحة الجماعة . وذهب
الزبيريون إلى أنه لا يمكن تحقيق هذه المصلحة إلا بعودة الخلافة من دمشق
إلى الحجاز وتحرير الناس من تحكم القبائل اليمنية التي جعل لها الأمويون
معظم السلطان ، وذهبت الشيعة إلى أن هذه المصلحة لا يمكن أن تتحقق
إلا على يد علوية تحمل الناس على الجادة ، بينما ذهب الخوارج إلى أنه لا يمكن
أن تتحقق إلا برد الأمر إلى الأمة لتختار أوليائه الصالحين ، ومضوا يجاهدون
الأمويين جهاداً عنيفاً .

(٢) الخضرم : كثير الخير والجلود .

(١) الديوان ص ٦٣٣ .

وتدل دلائل كثيرة على أن ولاية بني أمية ومن كانوا يقيمونهم على شئون الحراج والزكاة كانوا يستغلون وظائفهم في جمع ثروات ضخمة ، غير مراعين في ذلك إلاّ ولا ذمة ، فلمهلب مثلاً حين صرفه الحجاج عن الأهواز وجده قد احتجج لنفسه من بيت المال ألف ألف درهم^(١) ، بينما احتجج ابنه يزيد حين صرف عن خراسان لنفسه من بيت المال ستة آلاف ألف درهم^(٢) ، ويقال إن راتب خالد القسري في ولايته على العراق كان عشرين ألف ألف درهم ، ولم يكن يكفيه كل هذا الراتب ، إذ كان يستصني لنفسه - بوسائل غير مشروعة - ما يزيد على مائة ألف كل عام ، وقد استخرج منه ومن موظفيه يوسف الثقفى حين ولي بعده العراق سبعين ألف ألف^(٣) . وكأنما أصبحت الولاية على الناس السبيل غير الشريف للثروة الضخمة والغنى العريض ، حتى لرى أنس بن أبي أناس يقول لحارثة بن بدر الغداني التميمي حين ولي على سرق إحدى كور الأهواز^(٤) :

أحارِ بنَ بَدْرِ قد وليتَ إمارةً فكن جُرْداً فيها تخون وتَسْرِقُ
وعلى هذا النحو أصبحت الولاية على الأقاليم والكور مقترنة بالخيانة والسرقة ، وعمّ هذا الفساد ، حتى بين السعاة الذين كانوا يجمعون الزكاة في نجد داخل الجزيرة العربية ، على نحو ما تصوّر ذلك شكوى الراعى التي وجّه بها إلى عبد الملك بن مروان ، وفيها يصف سنة مجدبة أصابت قومه بني ثَمَر . ومع ذلك فَرَضَ عليهم السعاة فروضاً ثقيلاً ، فلما لم يؤدوها صَبَّوْا عليهم السَّيَاط وأرهقوهم من أمرهم عُسْراً ، ومن قوله في تلك الشكوى المريرة^(٥) :

أخليفةَ الرّجبنِ إنا معشرُ حنَفَاءُ نسجدُ بكرةً وأصيلاً
إن السُّعاةَ عصوك يوم أمرتهم وأتوا دواهي لو علمت وغولاً
فادْفَعْ مظالمَ عيَلتْ أبنائنا عنا وأنقِذْ شِلُونَا المأكولاً^(٦)

(٤) الحيوان ٣/١١٦ والشعر والشعراء ٢٠/٧١٥ .

(٥) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي

(طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٥٥ .

(٦) عيَلتْ : أفقرت . الشلو : العضو .

(١) طبري ٥/١٣٥ .

(٢) طبري ٥/٣٠٣ وانظر ٥/٣١٢ .

(٣) تاريخ اليعقوبي (طبعة أوربا)

٣٨٨ ، ٥٥/٢ .

ولإذا كان هذا يحدث في نجد والبادية فما كان يحدث في العراق وخراسان أدهى وأمر ، فقد مضى الولاة وجباة الخراج يعتصرون الناس بفرض ضرائب استثنائية كثيرة ، مما ملأ عليهم القلوب غيظاً وحنقاً والنفوس سخطاً ووجعاً ، فارتفعت الأصوات تطالب بالأمانة في الحكم لا في عهد بني أمية فحسب ، بل أيضاً في عهد الزبيريين ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة طويلة لابن همام السلولي وجهه فيها لابن الزبير شكوى عنيفة من عماله في العراق ومن أقامهم هناك على الخراج ، وهو يستلها بقوله ^(١) :

يا بنَ الزُّبَيْرِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَمْ يَبْلُغَكَ مَا فَعَلَ الْعُمَالُ بِالْعَمَلِ
بَاعُوا التُّجَارَ طَعَامَ الْأَرْضِ واقتسموا ضَلْبَ الْخَرَاجِ شُحاً حَاقَ سَمَةَ النَّفْلِ ^(٢)

وقد مضى يسميهم واحداً واحداً مصوراً لخيا نهم في الحكم ومطالباً بمحاسبتهم على ما استخلصوا من أموال لأنفسهم ظلماً وعسفاً .

ويظلم الناس متحمسين من هذا العسف والظلم ما يطاق وما لا يطاق إلى أن وليّ الخلافة عمر بن عبد العزيز ، فأمر برفع المظالم عنهم وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية ، كما أمر بحطّ الجزية عن أسلموا من الموالي . وبعث على العراق وخراسان عمالاً جُدداً ينفذون سياسته العادلة ، ومع ذلك ظلت الشكوى قائمة ، فقد قام إليه رجل وهو على المنبر فقال ^(٣) :

إِنَّ الَّذِينَ بَعَثَ فِي أَقْطَارِهَا نَبَذُوا كِتَابَكَ وَاسْتَحْلَ الْمَحْرَمُ
طُلُسَ الثِّيَابِ عَلَى مَنَابِرِ أَرْضِنَا كُلُّ يَجُورٍ وَكُلُّهُمْ يَتَظَلَّمُ ^(٤)

ويناديه كعب الأشقرى من خراسان ^(٥) :

إِنْ كُنْتَ تَحْفَظُ مَا يَلِيكَ فَإِنَّمَا عُمَالُ أَرْضِكَ بِالْبِلَادِ ذُنَابُ
لَنْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّذِي تَدْعُو لَهُ حَتَّى تَجْلُدَ بِالسُّيُوفِ رِقَابُ

(١) أنساب الأشراف ١٩١/٥ وما بعدها .

(٢) النفل : غنائم الحروب .

(٣) البيان والتبيين ٣٥٩/٣ .

(٤) طلس : غبر ، وهو يكنى بغيره الثياب

(٥) البيان والتبيين ٣٥٨/٣ .

عن قذارة نفوسهم وأنهم ليسوا أعفاء . يتظلم

حقه : يظلمه إياه .

وَيُتَوَفَّى عمر بن عبد العزيز سريعاً ، ويعود العسف والظلم . ويثور الحارث ابن سُرَيْج بخراسان في العقد الثاني من القرن الثاني مطالباً برفع الجزية عن أسلموا من الموالي ، ويتولّى هناك نصر بن سيار في العقد الثالث ، ويرفع الجزية عن الموالي مثبتاً للخراج على الأرض .

ولا بد أن نفرق هنا بين معاملة العرب للموالي ومعاملة الدولة لهم فإن الدولة إذا كانت قد تعسفت معهم أحياناً فإن العرب ظلوا يترعون لهم أخوتهم في الإسلام . ويسوق المستشرقون دليلاً قوياً على سوء معاملة الدولة لهم ما حدث في أيام الحجاج إذ هاجر كثير من موالي السواد في العراق إلى البصرة والكوفة ، فأمر بردّهم إلى قراهم ونقّش أسمائهم على أيديهم حتى لا يبرحوها ^(١) وظاهر الحادث عنف شديد في الظلم ولكن قد يكون الحجاج اضطرراً إلى ذلك لتعطل الزراعة في السواد وبالتالي تعطل الخراج الذي كان يُسفق منه على تجهيز الجيوش إلى خراسان وغير ذلك من شئون ولايته .

ولم ينكر عمر بن عبد العزيز وحده الجزية التي كانت مفروضة على مسلمي الموالي ، فقد كان ينكرها جماعة الأتقياء والقُرّاء ، لأنها تخالف نصوص الإسلام ، وأنكرتها جميع الفرق المعارضة للدولة من خوارج وشيعة ومرجئة ، وما زالت الأمة تلح في إنكارها إلحاحاً حتى رُفعت عنهم بأخرة من العصر . وقد عقد ابن عبد ربه فصلاً في العقد الفريد ، صور فيه العرب يسيئون في المعاملة إلى الموالي لعصر بني أمية إساءة بالغة ^(٢) . غير أن بين أيدينا أخباراً كثيرة تشهد بأنهم لم يكونوا بضطّهدون أحرارهم ولا أرقاءهم ، فقد ذكر ابن حبيب أن نحو ثلاثين من الرقيق في الكوفة والبصرة نسبوا شأهم حتى أصبحوا من أرباب السيادة والشرف ^(٣) . أما ما يلاحظه قلهوزن من أنهم كانوا يحاربون في جيش المختار رجالة لا فرساناً ^(٤) ، فلعل ذلك حدث اتفاقاً ، وقد اشتهر من بينهم غير قائد في خراسان مثل حُرَيْث بن قُتَيْبَة وأخيه ثابت وحيّان النبطي وابنه مقاتل ، ومن قوادهم المشهورين في الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس .

(١) طبري ١٨٢/٥ وتاريخ الدولة العربية (٣) المحبر ص ٣٤٠ .
 لقلهوزن ص ٢٣٥ وما بعدها .
 (٢) العقد الفريد ٤٠٣/٣ وما بعدها .
 (٣) تاريخ الدولة العربية لقلهوزن ص ٢٣٧ .
 (٤) تاريخ الدولة العربية لقلهوزن ص ٢٣٧ .

وقد مرّ بنا في حديثنا عن الحضارة ما كان لهم من إقطاعات وقصور وحمامات تُسْتَعْلَى في البصرة . فهم لم يكونوا في مرتبة متخلفة بالقياس إلى العرب ، ولعل مما يدل على ذلك أن نجد الفرزدق المعروف بغطرسته حتى على الخلفاء يمدح طائفة منهم مثل عبد الله^(١) بن عبد الأعلى مولى خالد بن الوليد ومسلمة^(٢) ابن سنان مولى بني مسمع وكثير^(٣) بن سيار مولى بني سعد ومسلم^(٤) بن المسيب مولى بني بجيلة . ومن يرجع إلى ديوان جرير يجده في إحدى قصائده يفتخر بمعدّ مدخلا فيها قضاة كما يفتخر بالموالي ذاكرًا أنهم ينتسبون إلى إسحق بن إبراهيم عليهما السلام . يقول^(٥) :

أنا ابنُ الثَّرى أدعو قضاة ناصري وآل نزارٍ ما أعزَّ وأكثرا^(٦)
وأبناء إسحاق الليث إذا ارتدوا محامل موتٍ لابسين السُّنورا^(٧)
فيوما سرايلُ الحديد عليهم ويوما ترى خزًا وعَصْبًا مُنيرا^(٨)
إذا افتخروا عدّوا الصَّبْهَبَ منهم وكسرى وآل الهُرْمزان وقيصرا^(٩)
ويصرّح بأن الموالي أبناء إسحق يجمعهم مع العرب أبناء إسماعيل أب واحد ، يقول :

أبونا أبو إسحق يجمع بيننا أبٌ كان مهديًا نبيًّا مُطهرا

ولا تهمنا صحة الأسطورة التي ردّها جرير في هذه الأبيات ، والتي تجعل الفرس والروم من أبناء إسحق ، إنما تهمنا دلالتها على ما كان يسود بين العرب من الإحساس بأنهم والموالي شعب واحد ، تفرّق ، ثم عاد إلى الاجتماع

-
- (١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي) عدد الثرى .
ص ٢ :
(٢) الديوان ص ١٠٦ .
(٣) الديوان ص ٢٨٧ .
(٤) الديوان ص ٨٨٧ .
(٥) ديوان جرير (طبعة الصاوي)
ص ٢٤٢ .
(٦) ابن الثرى : كناية عن كثرة قومه فهم
(٧) السُّنور : السلاح . وهو يصف بذلك
الفرس .
(٨) الخز : الحرير . العصب : ضرب من
التياب النفيسة . منيرا : منسوجاً بالقصب وله
أهداب ووشى .
(٩) الصَّبْهَب : لقب أمراء إيران .

على الإسلام والعروبة ، ونرى جريراً في نفس القصيدة ينوّه بمولى من البربر يسمى وضاحاً ، يقول :

لقد جاهد الوضاح بالحق مُعلماً فأورث مجداً باقياً أهلَ بربراً
والحق أن العرب اندمجوا في الموالي منذ الأيام الأولى في الفتوح ، فقد
ساكنوهم وتزوجوا منهم ، وعربوهم عن طريق نظام الولاء الذي شرعه الإسلام ،
إذ أدخلوهم في عداد قبائلهم ، وكأنما أردوا بذلك أن يُلغوا جنسياتهم إلغاءً ،
فهم عربٌ ولأءٌ . واستشعر الموالي ذلك في عمق حتى إذا أحسن نفر منهم تنظيمَ
الشعر وجدناهم يقفون في صفوف قبائلهم ذائدين عنها ومفاخرين بنفس روح
أبنائهم الأصيلين ، ومن خير ما يصور ذلك زياد الأعجم مولى عبد القيس
فقد عاش لقبيلته يحامى عنها ويصول^(١) ، ومثاله هرون^(٢) مولى الأزد وثروان^(٣)
مولى بني عُذرة وشُقْران^(٤) مولى بني سَلَّامان . وكانت القبائل تبادلهم نفس
التعصب ، فإذا جنى أحدهم جناية كبيرة وزُجَّ به في السجن لم يقرر قرار لقبيلته
حتى تُردَّ له حريته ، على نحو ما يقصه الرواة من موقف البجانية من ابن مفرغ
حين زُجَّ به عبيد بن زياد في سجن سجستان ، فإنها ما زالت تتشفع فيه عند
الخليفة وتتوسل حتى أمر بإطلاق سراحه^(٥) .

ومعنى ذلك أن نظام الولاء أقام أواصر بين العرب والموالي كأواصر الرحم ،
أما ما يلقانا عند إسماعيل بن يسار النسائي شاعر المدينة من أشعار تمجد الفرس^(٦)
فإنه يعد شذوذاً في العصر : وهو شذوذ ربما ساقه إلى نفسه كثرة الأشعار التي
كان يفتخر فيها كل عربي بقبيلته ممجداً لها ومشيداً بها محاولاً الغضب من القبائل
التي تعادىها ، وكأن ذلك نبّه إسماعيل للإشادة بجنسه الفارسي ، وقد لقي
جزاءه عند هشام بن عبد الملك ، فإنه غضب عليه غضباً شديداً حين رآه
يفخر بأصله الفارسي .

-
- (١) أغاني (دار الكتب) ٨٩/١٣ ، الكتب (٣٠٨/٢) .
٣٨٠/١٥ وما بعدها . (٥) الشعر والشعراء ، ٢٢٣/١ .
(٢) الحيوان للجاحظ (طبع الحلبي) ٧٥/٧ . (٦) انظر ترجمته في أغاني دار الكتب
(٣) البيان والتبيين ٣٠٩/٣ . ٤١/٤ وما بعدها .
(٤) نفس المصدر ١٠٨/١ وأغاني (دار

ومهما يكن فإن لإسماعيل كان شذوذاً على الموالي أنفسهم في هذا العصر ، وأكبر الدلالة على ذلك أننا نجد بشار بن برد الذي أعلن النزعة الشعبوية في عهد العباسيين إعلاناً قوياً يفتخر في هذا العصر بمواليه من قيس افتخاراً عنيقاً^(١) . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الشعراء من العرب يفتخرون بأمهاتهم الأعجميات مثل ابن ميادة^(٢) ، ومثل أبي نُخَيْلَةَ الذي يقول^(٣) :

أنا ابنُ سَعْدٍ وتوسَّطْتُ العَجمُ فأنَّا فيما شئتُ من خالٍ وعمِّ

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على بطلان ما يذهب إليه بعض المستشرقين من أن العرب والموالي كانوا يستشعرون العداء بعضهم لبعض في هذا العصر^(٤) ، فقد كانوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكان كل منهم ينصر صاحبه كلما هتف به أو استغاث ، وقد أخذوا ينهضون بجميع صور الحياة نهوضاً مشتركاً . وحقاً كانت الدولة عربية وكانت تتخذ ولائها من العرب ، ولكنها فسحت للموالي في شئون الخراج وفي الدواوين حتى بعد أن تُرجمت وعُربت ، على نحو ما هو معروف عن سالم مولى هشام وكان رئيس دواوينه ، ومثله عبد الحميد الكاتب وكان على رأس دواوين مروان بن محمد .

وربما كان أهم جانب يوضح علاقة العرب بالموالي لهذا العصر وأنها كانت تقوم على البر والتعاون الوثيق نهضتهم جميعاً بالدراسات الدينية وما انطوى فيها من وعظ وإمامة للمسلمين في المساجد ، فإننا حين نستعرض هذا الجانب نجدهم لا يقفون مع العرب فيه على قدم المساواة فحسب ، بل لأنهم يميزونهم ، حتى لتصبح منهم الكثرة الكثيرة من علماء الدين ودارسيه . وواضح من ذلك كله أن الموالي شاركوا في الحياة العربية لهذا العصر مشاركة قوية ، إذ كانوا يُعَدُّون فعلاً عرباً ، وقد أخذوا ينهضون بالأدب العربي ، على أنه أدبهم ، فهجر آدابهم المختلفة من فارسية وغير فارسية ، وأخذوا يعبرون عن عواطفهم ومشاعرهم بلغة القرآن الكريم التي ملكت أئمة قلوبهم واستولت منهم على الضمائر استيلاء .

(١) أغاني ١٣٩/٣ والديوان ٣١٦/١ ، (٢) البيان والتبيين ٢٢٥/٣ والشعر والشعراء ٥٨٣/٢ .
(٣) أغاني ٢٥٠/٣ ، ٨/٢ .
(٤) (٤) فلهوزن ص ٤٧٢ وفي مواضع متفرقة .

الفصل الثالث

شعراء المديح والهجاء

١

شعراء المديح

تعود العرب منذ العصر الجاهلي أن ينوّهوا في أشعارهم بأشرافهم وذوى النباهة منهم ويتحدثوا عن خصصهم النبيلة من الكرم والشجاعة والحلم والوفاء وحماية الجار ، وكان لا يُعَدُّ السيد فيهم كاملاً إلا إذا تغنى بنباهته ومناقبه غير شاعر . ومضوا على هذه السنته في الإسلام ، فكل سيد فيهم وكل ذى مكانة يودّ لو يحفظني بشاعر يُشيد به ، حتى يسير الركبان بذكره . وتستطيع أن ترجع إلى كتب الأدب والتاريخ مثل الأغاني والطبري لترى مصداق ذلك واضحاً ، وكأنه لم يعد للشعراء من شاغل يشغلهم سوى مديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وسنعرض لمُدّاح الأولين في الفصل التالى . أما الولاة فإنه لا يوجد من بينهم من لم يتعلق الشعراء بمديحه ونثر ورود الثناء في طريقه .

وأول من يلقانا من الولاة البارزين في العراق لهذا العصر زياد بن أبيه ممدوح حارثة^(١) بن بدر الغداني التميمي ومسكين^(٢) الدارمي ، وقد شُغِف عبد الله بن الزبير الأسدي بمدح ابنه عبيد الله^(٣) . ويخضع العراق لابن الزبير ، ويولّي عليه أخاه مصعباً ، وكان جواداً سمحاً ، فالتفّ حوله كثير من الشعراء يمدحونه من أمثال ابن قيس الرقيات وأعشى^(٤) همدان ود كتمين الغنّة يسي^(٥) . ويدخل العراق في طاعة عبد الملك بن مروان فيولّي عليه خالد بن عبد الله بن أسيد الأموي وهو من الأجواد الممدحين^(٦) ولا يلبث أن يعزله ويولّي أخاه بشراً « وكان من فتيان قريش سخاء ونجدة ، وكان ممدّحاً » ممدّحه جرير والفرزدق والأخطل

-
- (١) أغاني (ساسي) ١٩/٢١ وطبري ٤/١٦٨ (٤) أغاني ٢٣/٦ وطبري ٤/٥٦٥ ، ٥٩٢ .
والمبرد ص ١٧٩ .
(٥) معجم الأدباء (طبع مصر) ١١٦/١١ .
(٢) ابن سلام ص ٢٥٩ .
(٣) أغاني (دار الكتب) ٢٢٧/١٤ ، ٢٣٥ . حيث يذكر أنه وزع على الناس في يوم واحد ألف ألف .
(٦) المخبر لابن حبيب ص ١٥٠ والطبري ٥/٤٥ .

وكثير وأعشى بنى شيبان^(١) « كما مدحه نصيب^(٢) والأقيشر^(٣) الأسدي وأيمن^(٤) بن خُرَيم وغيرهم كثير . ويخلف بشرا الحجاج الثقفي ، ويظل نحو عشرين عاماً ، والشعراء يتوافدون على بابيه من مثل جرير والفرزدق وأعشى^(٥) بنى شيبان وحُمَيد^(٦) الأرقط وإيلي^(٧) الأخيلية . وكانت فيه قسوة جعلت من يقترفون بعض الجنايات حين يقعون في يده بمدحونه مدحاً مسرفاً على شاكلة قول العُدَيل بن الفُرخ العِجْلِيّ فيه^(٨) :

خليلُ أمير المؤمنين وسيفهُ لكلِّ إمامٍ مُضطَفّي وخليْلُ
بنَى قُبّة الإسلام حتى كأنما هدى الناس من بعد الضلال رسولُ
ولعل من الطريف أن نجد محمد بن عبد الله النخعي الثقفي^(٩) يهوى أخته زينب ، وينظم فيها غزلاً كثيراً يملؤه موجدة عليه : فيطلبه ويهرب منه إلى اليمن ويركب البحر هناك : ثم يعود إليه : وقد ضاقت به الأرض ، متوسلاً بمدائح كثيرة ، تجعله يعفو عنه .

ويتولّى العراق لسليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب . وسنعرض لمدّاحه عما قليل . وقد عزله عمر بن عبد العزيز ونراه يثور في عهد يزيد بن عبد الملك ويقضي على ثورته أخوه مسلمة ويوليه العراق لفترة محدودة ، ومن مدّاحه أبو نُخَيْسَلَة^(١٠) وأعشى^(١١) تغلب . وخلفه على العراق عمر بن هبيرة الفزاري ، وللفرزدق

-
- (١) ابن سلام ص ٣٧٧ .
(٢) أغاني (دار الكتب) ٣٣٤/١ .
(٣) أغاني ٢٧٠/١١ .
(٤) انظر ترجمة أيمن في الشعر والشعراء .
(٥) ٢٥٦/١ والأغاني (طبع ساسي) ٢٥/٢١ .
(٦) والإصابة ٩٤/١ وتهذيب ابن عساكر ١٨٧/٣ .
(٧) والموشع ص ٢٢١ .
(٨) أغاني (ساسى) ١٥٦/١٦ .
(٩) طبرى ١٩٠/٥ وانظر ترجمته في معجم الأدباء ١٣/١١ .
(١٠) أغاني (دار الكتب) ٢٤٨/١١ .
(١١) البيان والتبيين ٣٩١/١ وانظر ترجمته
- في الأغاني (ساسى) ١١/٢٠ والشعر والشعراء .
٣٧٥/١ والاشتقاق لابن دريد ص ٣٤٤ والخزانة .
٣٦٧/٢ .
(٩) انظر ترجمته في أغاني (دار الكتب) .
١٩٠/٦ ومعجم الشعراء للرزباني (طبعة الحلبي) ص ٣٤٢ .
(١٠) انظر الأغاني (ساسى) ١٤٠/١٨ .
(١١) مات على النصرانية سنة ٩٢ . انظر في ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٠/١١ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ١٣٢/١١ ومجلة المشرق ج ٢٢ ص ٢٩٨ .

فيه مدائح^(١١) ، لعله أراد أن يغسل بها هجاءه المقذع فيه ، ومثلها مدائحه في خالدا القسرى الذى ولى بعده^(١٢) ، وكأنه يكفر عن هجائه لهما ببعض المدائح . ومن مدحوا خالدا القسرى جرير^(١٣) ، وأبو الشَّغْب وفيه يقول حين عُزل وسجن :^(١٤)

فإن تسجنوا القسرى لاتسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه في القبائل

وكان الذى ولى العراق بعده يوسف الثقفى . ونرى الكميت يمدحه تقيّة وخوفاً من بطشه^(١٥) . وآخر ولاية هذا الإقليم يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان جواداً معطاءً ، وهو ممدوح أبي عطاء^(١٦) السنندى وبشار^(١٧) بن بُرْد وخلف^(١٨) بن خليفة .

ولم يمدح الشعراء في العراق هؤلاء الولاة وحدهم ، فقد كانوا يمدحون أيضاً نوابهم وأصحاب شُرطتهم وعملهم على الخراج وعلى البلدان من مثل الحكم بن أيوب الثقفى نائب الحجاج على البصرة ، وهو ممدوح الفرزدق^(١٩) وجرير^(٢٠) ومثل مالك بن المنذر بن الجازود صاحب شرطة البصرة لخالدا القسرى . ومن مُدَّاحه الفرزدق^(٢١) ، ومثل بلال بن أبى بردة ، نائب القسرى على البصرة : وهو ممدوح ذى الرمة^(٢٢) والفرزدق^(٢٣) وحمزة^(٢٤) بن بيض . وكان منقطعاً إليه ، ومثل أبان بن الوايد البجلي صاحب الخراج في عهد القسرى : ومن مُدَّاحه الفرزدق^(٢٥) . ومثل قطن بن مدركة الكلابى والى البحرين : وقد خصه الفرزدق

-
- | | |
|---|--|
| (١) الديوان (طبعة الصاوى) ص ٢٨٠ . | (١١) الديوان ص ٣١ ، ٧٦ ، ٦٧٨ ، ٨٠٣ . |
| (٢) الديوان ص ١٥٦ ، ١٦٥ ، ٣٣٥ . | (١٢) انظر فهرس ديوانه (طبعة كبريدج) والبيان والتبيين ١٤٨/١ وأغاني (ساسى) ٣٨/١٦ والمبرد ص ٢٥٩ . |
| (٣) الديوان (طبعة الصاوى) ص ١٧٤ . | (١٣) الديوان ص ٧٠ ، ٧٤ ، ٥٤٧ ، ٦٦٠ ، ٦٩٤ . |
| (٤) البيان والتبيين ٢٣٦/٣ . | (١٤) انظر في ترجمته الأغاني (طبعة الساسى) ١٤/١٥ وما بعدها ومسجم الأدباء ٢٨٠/١٠ . |
| (٥) أغاني (ساسى) ١١٦/١٥ . | وراجع فهرس البيان والتبيين والحيوان . |
| (٦) الشعر والشعراء ٧٤٥/٢ . | (١٥) الديوان ص ٦١ ، ٤٢٠ ، ٨٧٦ . |
| (٧) ديوان بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٤٥/١ . | |
| (٨) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٦٩٢/٢ . | |
| (٩) الديوان ص ٢٣ . | |
| (١٠) أغاني (دار الكتب) ١٣/٨ وما بعدها . | |

بعض مدائحه^(١) ، وكان المهاجر بن عبد الله والى البحرين جواداً
مدحاً ، ومن مدح أحه جرير^(٢) وأبو نَحْيَلَة^(٣) وذو الرمة^(٤) . ومن ولاية فارس
الذين طار ذكرهم على ألسنة الشعراء عمر بن عبيد الله بن معنم ، وله أحاديث
كثيرة في جوده^(٥) وهو ممدوح كثيرين ، منهم زياد الأعجم^(٦) وأبو حُرَابَة^(٧)
ومن ولاية الرّى الممدح حين خالد بن عتّاب بن ورقاء ممدوح أعشى همدان^(٨) .

وإذا ولينا وجوهنا نحو خراسان وسجستان وجدنا الولاة والعمال هناك
يَكِيلُون الأموال والعطايا للشعراء كيلاً ، وهم بدورهم ينثرون عليهم
رياحين مديحهم نثراً . ولعل أسيرة لم تَحْظَ هناك بما حظيت به أسيرة المهلب بن
أبي صفرة الأزدي الذي قضى على الأزارقة في فارس ، ثم ولى للحجاج خراسان
سنة ٧٨ وظل بها إلى أن توفى سنة ٨٢ فأقام الحجاج ابنه يزيد مقامه إلى
أن صرفه عنها وولّى عليها أخاه المفضل ، ولم يلبث أن عزله هو الآخر .
وما نصل إلى سنة ٩٦ حتى يعود نجم المهالبة إلى البرزوغ . إذ ولّى سليمان بن عبد
الملك يزيد على العراق ، وجمع له مع ولايتها خراسان ، فأصبح حاكماً للشرق .
ويتولى عمر بن عبد العزيز ، فيعزله ويسجنه في أموال خراج خراسان ،
ولا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى يعفو عنه ، غير أنه لم يلبث أن
قاد ضده مع إخوته وآله ثورة عنيفة ، قضى عليها مسلمة بن عبد الملك يؤازره
هلال بن أحرور المازني .

ولعلنا لا نبتعد إذا قلنا إن هذه الأسيرة تقوم في عصر بني أمية مقام أسيرة البرامكة
في عصر بني العباس ، إذ كان أفرادها بحورا فياضة ، فنوّه بهم الشعراء طويلاً
في خراسان والعراق جميعاً ، ويؤثّر عن المهلب أنه كان يقول : « عجبت لمن
يشترى الممالك بماله ولا يشتري الأحرار بمعرفة^(٩) » ونرى الشعراء مصطفين

- | | |
|-------------------------------------|---|
| (١) الديوان ص ٧٠٠ . | (٦) أغاني (دار الكتب) ٣٧٩/١٥ ، ٣٨٥ . |
| (٢) الديوان ص ٣٩ ، ١٢٥ ، ٢٥١ . | (٧) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة ساسي) ١٥٢/١٩ . |
| (٣) أغاني (ساسى) ١٤٥/١٨ وما بعدها . | (٨) أغاني (دار الكتب) ٥٦/٦ . |
| (٤) انظر فهرس ديوانه . | (٩) البيان والتبيين ٢٠٥/٣ . |
| (٥) المحبر ص ١٥١ . | |

ببابه يمدحونه مدائح رائعة ، وفي مقدمتهم كعب^(١) الأشقرى وزباد^(٢) الأعجم
وحمزة^(٣) بن بيض والمغيرة^(٤) بن حبشنة التميمي ونهار^(٥) بن توسعة ، وله يرثيه حين
توفي بمرو الروذ :

ألا ذهبَ الغزو المقرب للغنى ومات الندى والحزم بعد المهلب
أقاما بمرو الروذ رهنَ ضريحه وقد غيبا عن كل شرقٍ ومغرب
وكان ابنه المغيرة على شاكلته جوداً ونوالاً غمراً ، وتوفى قبله بقليل ، فبكاه
الشعراء طويلاً على شاكلته قول زياد الأعجم في مراثية بديعة له^(٦) :

إن السباحة والمروعة ضُمَّنا قَبْرًا بمروَ على الطريق الواضح
ولا يكاد يوجد شاعر في العراق وخراسان لأيام أخيه يزيد إلا مدحه ونوه
به تنويهاً بعيداً ، ومن مدّاحه الفرزدق^(٧) ونهار^(٨) بن توسعة وحمزة^(٩) بن
بيض وحاجب^(١٠) الفيل والعُدَيْل بن الفرخ العجلي وفيه يقول^(١١) :

يداه يَدُ بالعُرف تَنْهَب مَاحَوَتُ وَأُخْرَى عَلَى الْأَعْدَاءِ تَسْطُو وَتَجْرُحُ
وكان كعب الأشقرى وثابت قُطَيْبَةُ لا يفارقان مجلسه^(١٢) ، وفيه يقول ثابت
حين خذله أهل العراق في ثورته على بني أمية وفرّ واعنه ، فقتل قَعَصاً بالرماح^(١٣) :

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَإِنَّ قَتْلَكَ لَمْ يَكُنْ عَارًا عَلَيْكَ وَبَعْضُ قَتْلِ عَارُ

- | | |
|---|---|
| (١) طبري ٢٢/٥ ، ٧٧ ، ١٥٩ وأغانى
(دار الكتب) ١٨٧/١٤ وما بعدها . | (١٩٨/٢ وفهرس الطبرى والأغانى . |
| (٢) أغانى (دار الكتب) ٣٨٣/١٥
وما بعدها . | (٦) ذيل الأمانى ص ١٠ وأغانى (دار الكتب)
٣٨١/١٥ . |
| (٣) أغانى (ساسى) ٢٤/١٥ . | (٧) ديوان الفرزدق ص ٤٦ ، ٣٧٤ . |
| (٤) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ٣٦٧/١٠
وأغانى (دار الكتب) ٨٤/١٣ والخزانة ٦٠١/٣ | (٨) الشعر والشعراء ٥٢٢/١ . |
| وفهرس الطبرى ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٧٣
والمؤتلف ص ١٠٥ والاشتقاق ص ٢٢٠ حيث
يقول ابن دريد إله استشهد بخراسان وكان شاعر
ميم فى عصره . | (٩) أغانى (ساسى) ١٨/١٥ . |
| (٥) انظر فى ترجمة نهار بن توسعة وأخباره
الشعر والشعراء ٥٢١/١٠ والمؤتلف ١٩٣ والأمانى | (١٠) أغانى (دار الكتب) ٢٦٤/١٤ وما
بعدها . وانظر فيه الشعر والشعراء ٦١٣/٢
وفهرس الطبرى والبيان والتبيين والحيوان وأمانى
المرتضى (طبعة الحلبي) ١٠٥/٢ . |
| | (١١) أغانى (ساسى) ١٣/٢٠ . |
| | (١٢) أغانى (دار الكتب) ٢٦٦/١٤ . |
| | (١٣) أغانى ٢٧٩/١٤ |

وكان أخوه المفضل ممدّحاً ومن أشادوا به كعب^(١) الأشقرى وثابت^(٢) قطنة ، وكذلك كان مخلد بن يزيد بن المهلب وكان يخلف أباه على خراسان ، هو ممدوح حمزة^(٣) بن بيض والكميت^(٤) . وفي المهالبة وكرمهم الفياض يقول^(٥) بكير بن الأخنّس :

نزلتُ على آل المهلب شاتيا فقيراً بعيدَ الدار في سنةٍ محلّ^(٦)
فما زال بي إلطافهم وافتقادهم وإكرامهم حتى حسبتهم أهلي^(٧)

ومن ولاية خراسان الممدّح حين قتيبة بن مسلم الذي وليها للحجاج بعد المهالبة سنة ٨٦ ، وهو أكبر قائد تولى لبنى أمية حربَ الترك ، وقد فتك بهم فتكاً ذريعاً ، وشقّ الطريق إلى بلاد الشاش وسمرقند. وقد تغنّى كثير من شعراء خراسان بانتصاراته الباهرة من أمثال المغيرة^(٨) بن حبيبنا وكعب^(٩) الأشقرى ونهار بن تَوْسعة وفيه يقول^(١٠) :

وما كان مذ كُنّا ولا كان قبلنا ولا كائنٌ من بعدُ مثل ابن مسلم
أعمّ لأهل الشُّرك قتلاً بسيفه وأكثر فينا مغنماً بعد مغم

وليها لعهد عمر بن عبد العزيز الجراحُ بن عبد الله الحكمي ممدوح الفرزدق^(١١) . ومن الأجواد الممدّحين الذين ولوها لخالد القسري الجُنَيْد بن عبد الرحمن المرّي ممدوح جرير^(١٢) ، وأسد القسري وكان بحراً فياضاً ، وقد نوه

(١) طبري ١٩٤/٥ . عن كثرة سؤالهم عنه واهتمامهم بأمره .

(٢) انظر مرثية بديعة له فيه بالأغاني (٨) طبري ٢٤٠/٥ .

(٣) طبري ٢٤٧/٥ وأغاني (دار الكتب) ٢٧٥/١٤ .

(٤) أغاني (سأى) ١٩/١٥ .

(٥) نفس المصدر ١٠٨/١٥ ، ١٢٢ .

(٦) البيان والتبيين ٢٣٣/٣ .

(٧) محل : مجدبة .

(٨) الديوان ص ٢٢٨ .

(٩) الديوان ص ٥١ .

(١٠) الافتقاد : طلب الشيء عند غيبته كناية

به الفرزدق طويلاً^(١) . ووليها ليوسف بن عمر الثقفي نصر بن سيار ، وكان شاعراً وبطلا مغواراً وغنياً مدبراً ، وهو آخر ولايتها للأُمويين ، ومن مدحوه قبل ولايته عليها الفرزدق^(٢) وثابت^(٣) قُطْنَة ومن مدّاحه في ولايته أبو عطاء^(٤) السَّندى . ومن قُوداد الجيوش في خراسان هلال بن أَحْزُوز المازني الذي أبلى في حرب المهالبة مع مسلمة بن عبد الملك وهو قاتل جَتهُم بن صفوان متكلم المرجئة في ثورتهم بخراسان ، ومن أشادوا به طويلاً الفرزدق^(٥) وجريـر^(٦) .
ويلقانا في سجستان من الممدّحين عبد الله بن الحشّـرج ، وكان واسع العطاء وفيه يقول زياد الأعجم^(٧) :

إِنْ السَّحَابَةُ وَالشَّجَاعَةُ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ
ومنها طلحة بن عبد الله الخُزَاعِي الملقب بطلحة الطلحات ، وهو أجود أهل البصرة في عصره غير مدافع ، ومن مدحوه أبو حُرْزَابَة^(٨) وعُويْـفُ^(٩) القوافي والمغيرة^(١٠) بن حَبْنَاء ، ونوّه به ابن قيس الرقيات طويلاً حتى إذا توفّي رثاه بقصيدة بديعة^(١١) ومنها عبيد الله بن أبي بكرة ممدوح الفرزدق^(١٢) وابن مفرّغ^(١٣) ، ومسمع بن مالك بن مسمع ممدوح أبي جليدة اليشكري ، وفيه يقول حين وافاه الموت^(١٤) :

كنت الشهاب الذي يُرْمَى العدو به والبحر منه سجال الجود نغترف
ومن ولاية الحجاز الممدّحين سعيد بن العاص وإلى معاوية على المدينة ، وكان يستنحر

-
- | | |
|---------------------------------|---|
| (١) الديوان ١٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، | (٨) أغاني (ساسي) ١٥٣/١٩ . |
| ٥٢٦ ، ٥٨١ ، ٥٩٢ ، ٦٢٣ ، ٨٧٥ . | (٩) انظر في ترجمة عويـف أغاني (ساسي) |
| (٢) الديوان ص ٣٤٧ ، ٤١١ ، ٥١١ . | ١٠٥/١٧ والخزاة ٨٧/٣ ومعجم الشعراء ص ١٢٧ . |
| (٣) طبري ٣٩٩/٥ . | (١٠) أغاني (دار الكتب) ٨٥/١٣ . |
| (٤) أغاني (ساسي) ٨١/١٦ . | (١١) ديوان ابن قيس الرقيات بتحقيق محمد |
| (٥) الديوان ص ٥٥ ، ٦٠ ، ٢٢١ ، | يوسف نجم (طبع بيروت) ص ٢٠ . |
| ٥٠٧ ، ٥٤٨ ، ٥٧٤ . | (١٢) الديوان ص ٥٧ . |
| (٦) الديوان ص ٥٣ ، ٢٤٠ ، ٥٣٧ . | (١٣) أغاني (ساسي) ٧٠/١٦ وما بعدها . |
| (٧) أغاني (دار الكتب) ٢٣/١٢ . | (١٤) أغاني (دار الكتب) ٣١٣/١١ . |

في كل يوم جَزَوراً يطعمه الناس^(١)، ومن نوهوا به الخطيئة^(٢) والفرزدق^(٣). وكان ابن الأزرق المخزومي والي ابن الزبير على اليمن جواداً معطاءً، وهو ممدوح أبي دَهْشَل^(٤) الجمحي. ولعل واليا لم يُمدح كما مدح عبدالعزيز بن مروان في ولايته على مصر، وكان بحراً سيالاً من بحور العرب، ومن مدَّأحه نَصِيْب^(٥) وابن قيس^(٦) الرقيات وكثير^(٧) وعبد الله^(٨) بن الحجاج والأحوص^(٩) وأيمن^(١٠) بن خُرَيْم وأمية^(١١) بن أبي عائد. ومن ولايتها بعده عبد الله بن عبد الملك ممدوح الخزين^(١٢) الكناني.

ويلمع بجانب هؤلاء الولاة والعمال أسماء كثيرين من الأجواد، وفي مقدمتهم عبد الملك بن بشر بن مروان ممدوح ابن عَبْدَل^(١٣)، وعبد الواحد بن سليمان ممدوح القطامي^(١٤)، وعبد الرحمن بن محمد بن مروان ممدوح عُوَيْف^(١٥) القوافي ومعاوية بن هشام بن عبد الملك ممدوح جرير^(١٦)، وأسماء بن خارجة ممدوح القطامي^(١٧) وأعشى شيبان^(١٨)، وعكرمة بن رِبعِيّ الفياض ممدوح الأخطل^(١٩) والعُدَيْل^(٢٠) بن الفرخ العجلي، والمنذر بن الجارود ممدوح الفرزدق^(٢١) وأبي الأسود^(٢٢) الدؤلي، وزكريا بن طلحة الفياض ممدوح الأفيشر^(٢٣) الأسدي. ومالك بن مسمع ممدوح العُدَيْل^(٢٤)، وكانت قبائل ربيعة في البصرة تجتمع عليه

(١٢) أغاني (دار الكتب) ٣٢٣/١٥.

(١٣) أغاني ٤٢٥/٢.

(١٤) أغاني (سأسي) ١١٩/٢٠.

(١٥) أغاني (سأسي) ١١٧/١٧.

(١٦) الديوان ص ١٥٢، ١٨٢.

(١٧) ابن سلام ص ٤٥٥.

(١٨) أغاني (سأسي) ١٥٧/١٦.

(١٩) ابن سلام ص ٤١٧.

(٢٠) أغاني (سأسي) ١٨/٢٠.

(٢١) الديوان ص ٢٢٠.

(٢٢) أغاني (دار الكتب) ٣٢١/١٢.

(٢٣) أغاني ٢٥٥/١١.

(٢٤) أغاني (سأسي) ١٩، ١٧/٢٠.

(١) المخبر لابن حبيب ص ١١٥.

(٢) ابن سلام ص ١٠٠، ١٠١ وأغاني

(سأسي) ٣٨/١٦.

(٣) ابن سلام ص ٢٧١ والديوان ص ٦١٥.

(٤) المخبر ص ١٥٢.

(٥) أغاني (دار الكتب) ٣٢٤/١ وما بعدها.

(٦) أغاني ٨٧/٥.

(٧) البيان والتبيين ١٢/٣ وأغاني (دار

الكتب) ٣٣/٩.

(٨) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب)

١٥٨/١٣ والبيان والتبيين ٣٩٠/١.

(٩) ابن سلام ص ٥٤٣، ٥٤٦.

(١٠) أغاني (سأسي) ٧/٢١.

(١١) أغاني (سأسي) ١١٥/٢٠.

في الإسلام اجتماعها على كليب في الجاهلية . ومن كان لا يبارى في جوده عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وله في كرمه أخبار وأحاديث يقصها الرواة ، ومن مدّاحه ابن^(١) قيس الرقيات . وكان يجرى على مثاله في الجود بالمدينة عروة ابن الزبير ممدوح لإسماعيل^(٢) بن يسار النسائي ، وحمزة بن عبد الله بن الزبير ممدوح موسى^(٣) شهوات ، وفيه يقول^(٤) :

حمزةُ المبتاعُ بالمالِ الثَّنا ويرى في بيّعه أن قد غَبَنَ
وهو إن أعطى عطاءً فاضلاً ذا إخاءٍ لم يكدره بِمَنٍ
وظلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ممدوح الحزين^(٥)
الكناني . ولعل من الخير أن نقف عند نثر من الشعراء الذين أحسنوا فن المديح
لهذا العصر ، وقد اخترنا من بينهم نُصَيْباً من الحجاز والقطامي من الجزيرة وكعباً
الأشقرى وزياداً الأعجم من خراسان .

نُصَيْبُ^(٦)

شاعر حجازي نوبى الأبوين كان شديد السواد ، وجعله ذلك يحتجّ للونه
كثيراً على شاكلة قوله في بعض شعره :
فإن يك من لَوْنِي السَّوَادُ فإنني لكالمسك لا يروى من المسك ذائقة
وكان مُستَرَقّاً لرجل من كنانة من أهل ودّان بالقرب من مكة ، وتيقظت
فيه موهبة الشعر مبكرة ، فكاتبَ مولاة ، وفزع إلى عبد العزيز بن مروان
بمصر ، فردّ إليه حرّيته ، وكان لذلك أثر عميق في نفسه . فلبّج فيه مدائح
رائعة من مثل قوله :

- | | |
|--|--|
| (١) أغاني (دار الكتب) ٧٩/٥ ، ٨٦ . | (٥) المحبر ص ١٥٢ . |
| (٢) أغاني ٤٠٨/٤ . | (٦) انظر في ترجمة نصيب أغاني (دار الكتب) |
| (٣) انظر ترجمة موسى شهوات في الأغاني | ٣٢٤/١ وراجع فهرسه والشعر والشعراء |
| (طبع دار الكتب) ٣٥١/٣ والشعر والشعراء | ٣٧١/١ وابن سلام ص ٥٤٤ والاشتقاق لابن |
| ٥٥٨/٢ والخزانة ١٤٤/١ ومعجم الشعراء للمرزباني | دريد ص ١٤٦ ومعجم الأدباء ٢٢٨/١٩ |
| ص ٢٨٦ . | وشواهد العيني ٥٣٧/١ والموشح ص ١٨٩ . |
| (٤) أغاني ٣٥٧/٣ والمبرد ص ٣٦٧ . | |

فبَشِّرْ أَهْلَ مِصْرَ فَقَدْ أَتَاهُمْ مع النَّيْلِ الَّذِي فِي مِصْرَ نَيْلٌ
يَقُولُ فَيَحْسِنُ الْقَوْلَ ابْنُ لَيْلٍ ويفعل فوق أحسن ما يقول^(١)
وقوله :

لَعَبْدَ الْعَزِيزِ عَلَى قِسْمِهِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ غَامِرِهِ
فَبَابِكَ أَسْهَلُ أَبْوَابِهِمْ وَدَارِكَ مَأْهُولُهُ عَامِرِهِ
وَكُفُّكَ حِينَ تَرَى السَّائِلَ بَيْنَ أَنْدَى مِنَ اللَّيْلَةِ الْمَاطِرَةِ
وما زال مع عبد العزيز حتى توفي سنة ٨٥ للهجرة ، فبكاه بكاء حاراً ،
وأوصى به من بعده سليمان بن عبد الملك ، فلزمه ، ومن قوله فيه :

قِفُوا خَبْرُونِي عَنْ سُلَيْمَانَ إِنْ نِي لمعرفه من أهل ودَّانَ طَالِبُ
فَعَاجُوا فَأَتْنُوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ولوسكتوا أثنت عليك الحقائق^(٢)
وله مدائح في يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام مما يدل على أنه عاش إلى
أوائل القرن الثاني ، وله مدائح في بعض ولادة الحجاز من مثل إبراهيم بن هشام
الخزومي وإلى مكة وعبد الواحد النصري وإلى المدينة ، وبعض ولادة العراق وقواده
مثل بشر بن مروان وعمر بن عبيد الله بن معمر . وكان يعنى بشيابه وطيبه ،
وكان كبير النفس ، فلم يتورط في هجاء ، كما كان عفيفاً ، وله غزل نقي
طاهر ، وهو لذلك يُسَلِّكُ في العذريين .

القطامي^(٣)

لقب غَلَسَبَ عَلَى عُثْمَيْرَ بْنِ شَيْبَةَ التَّغْلَبِي ، وهو من بني الفلدوكس عشيرة
الأخطل ، ومن تسم نشأ نصرانياً ، غير أنه فيما يظهر دخل في الإسلام . وقد
اشترك في الحروب التي نشبت بين قبيلته تغلب وقيس في أثناء فتنة ابن الزبير ،

(١) ليلي : أم عبد العزيز بن مروان وهي بنت زبان بن الأصم الكلبية .
(٢) عاجوا : وقفوا .
(٣) راجع في ترجمة القطامي أغاني (ساسي)
١١٨/٢٠ وابن سلام ص ٤٥٢ والشعر والشعراء
٧٠١/٢ والخزاعة ٣٩١/١ والاشتقاق ص ٣٣٩
ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٤٧ ومعاهد
التنخيص ١٨٠/١ والموشح ص ١٥٨ . وقد
نشر ديوانه في ليدن سنة ١٩٠٢ ونشرته دار
الثقافة ببيروت ، ونشر نشرة محققة ببغداد .

وأسرّه أحد القيسيين في يوم ماكّسين ، غير أن زُفَر بن الحارث حين عرفه
افتكّه من الأسر ، وردّ عليه ما سُلِب منه ، وأعطاه مائة من الإبل مما جعله
ينوّه به وبصنيعه معه طويلاً ، على شاكلة قوله :

ومن يكن استلام إلى ثوىً فقد أحسنت ، يا زُفَر ، المتاعا ^(١)
أأَكْفَرُ بعد ردّ المسوت عني وبعد عطائك المائة الرّثاعا ^(٢)
ولم أر مُنعمين أقلّ منّا وأكرمَ عندما اصطنعوا اصطناعا ^(٣)
من البيض الوجوه بنى نُفَيْلٍ أبْت أَخلاقهم إلا اتساعا ^(٤)

وفي هذه القصيدة يتّأسى للحروب الناشبة بين تغلب وقيس على ما بينهما من
صلات وأسباب ، ويدعو مخلصاً للصلح ووقف هذه الحروب المبيّرة التي
لا تتوقف رحاها حيناً إلا لتعود أشدّ التهاماً لأبناء القبيلتين ، يقول :

ألم يحزنك أن جبال قيس وتغلب قد تباينت انقطاعا
وكُنّا كالحريق أصاب غاباً فيخبو ساعة ويشبّ ساعا
أمورٌ لو تدبرها حلیمُ إذن لنهَى وهيب ما استطاعا

ووفد على الوليد بن عبد الملك ، وقيل على عمر بن عبد العزيز ، فقيل له
إن الشعر لا ينفق عنده ، وهذا عبد الواحد ^(٥) بن سليمان سيّبرك إن مدحته ،
فدحه ، وأضفى عليه كثيراً من بیره ونواله . وكان أول ما مدحه به قصيدته :
إنا محيوك فاسلمَ أيها الطلّل وإن بليت وإن طالت بك الطيّل ^(٦)

- (١) استلام : أتى ما يلام عليه . الثوى : الضيف المقيم . المتاع : الزاد .
(٢) يريد بالكفر كفر التهمة وجحدها . الرّثاع : جمع راتعة .
(٣) المن : الفخر بعمل الخير . يقول إنهم لا يمتنون بما يصنعون .
(٤) بنو نفيل : عشيرة زفر وهم من بني عامر ابن صعصعة ، ويريد باتساع الخلق الكرم وغيره
من الشيم الفاضلة .
(٥) انظر في تحقيق نسب هذا الممدوح وهل هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك أو عبد الواحد بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص الخزاعة ١٢٤/٣ وقارن بأخبار القطامي في الأغاني وبالقصيدة الأولى في الديوان .
(٦) الطيل هنا : الأزمنة .

ونراه يضمّنها نظرات في الحياة وفي الناس وأخلاقهم ، وهو يقترب في ذلك من ذوق المتنبي في مدائح كما نرى في مثل قوله :

والعيش لا عيش إلا ما تَقَرُّ به عَيْنٌ : ولا حال إلا سوف تنتقل
والناس من يَلْقَ خيراً قائلون له ما يَشْتَهَى ولأَمِّ المخطيء الهبل
قد يُدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

وتُشيد في القصيدة بقريش وتُصَرِّتها للرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيتها لدعائم الدين الحنيف مما يدل أكبر الدلالة على أن الله أتمَّ عليه نعمة الإسلام : يقول :
قومٌ همُ ثَبَّتُوا الإسلامَ وامتنعوا قومُ الرسول الذي ما بعده رسل
ومن أشاد بهم ونوّه بذكركم أسماء بن خارجة القزاري . وله فيه أمداح رائعة على شاكلة قوله :

إذا مات ابنُ خارجة بن حصنٍ فلا هطلت على الأرض السماء
ولا رجع البريد بغنمٍ خيرٍ ولا حملت على الطُهر النساء
ومن أهم ما يميزه في شعره صفاء موسيقاه وحلاوة ألفاظه وعذوبة أنغامه وتمكن قوافيه وجودة مطالعه والمظنون أنه توفي في أوائل القرن الثاني للهجرة .

كعب^(١) بن معدان الأشقري الأزدي

من شعراء خراسان الذين برعوا في المديح ، وهو فارس شجاع له آثار في حروب المهلب للأزارقة في فارس والترك في خراسان . وله في المهلب ووصف حروبه قصائد كثيرة ، منها قصيدة طويلة في حروبه للأزارقة تشبه أن تكون ملحمة ، وقد روى منها أبو الفرج أطرافاً ، وروى منها الطبري ثلاثة وثمانين بيتاً^(٢) وهو في شعره يحسن حوكم اللفظ والمعنى جميعاً على شاكلة قوله يمدح المهلب وأبناءه :

وراجع الجزء الخامس من الطبري في مواضع متفرقة .
(٢) طبري ١٢٢/٥ .

(١) انظر في ترجمة كعب الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٣/١٤ وما بعدها والشعر والشعراء ٣٩٧/١ وما بعدها ومعجم المرزباني ص ٢٣٦

بَرَكَ اللهُ حينَ بَرَكَ بَحْرًا وفَجَّرَ مِنْكَ أَنهَارًا ^(١) غَزَارًا
 بَنُوكَ السَّابِقُونَ إِلَى المَعَالَى إِذَا مَا أَعْظَمَ النَّاسُ الخِطَارَا ^(٢)
 كَانَهُمْ نَجُومٌ حَوْلَ بَدْرِ دَرَارِيٌّ تَكْمَلُ فاستَدَارَا ^(٣)
 مَلُوكٌ يَنْزِلُونَ بِكُلِّ دَفْعٍ إِذَا مَا ألْهَمَ يَوْمَ الرُّوعِ طَارَا ^(٤)
 رِزَانُ فِي الْأُمُورِ تَرَى عَلَيْهِم مِنَ الشَّيْخِ الشَّمَائِلَ والنَّجَارَا ^(٥)
 نَجُومٌ يُهْتَدَى بِهِمْ إِذَا مَا أَخُو الظُّلَمَاءِ فِي الغِمَرَاتِ جَارَا
 وَتَوَقَّى المَهْلَبُ ، فَلَزِمَ ابْنَهُ يَزِيدَ . يَمْدَحُهُ وَيَصِفُ حُرُوبَهُ مَعَ التُّرْكِ وَبِرَّهُ
 وَنَائِلَهُ الجَزَلَ ، وَمِنْ بَدِيعِ مَا قَالَهُ فِيهِ :
 يَدَاكَ إِحْدَاهُمَا تَسْقَى العَدُوَّ بِهَا سَمَاءٌ وَأُخْرَى نَدَاهَا لَمْ يَزَلْ دِيمَا
 وَلَمَّا عَزَلَ يَزِيدُ عَنْ خِرَاسَانَ لِعَهْدِ الحِجَاجِ وَلِوَلِيهَا قَتِيبَةَ بْنِ مُسْلِمِ البَاهِلِيِّ وَانْتَصَرَ
 عَلَى التُّرْكِ انتصاراتَهُ الرَّائِعَةَ مَضَى يُشِيدُ بِهِ وَيَا نَتِصَارَاتِهِ بِمَثَلِ قَوْلِهِ ^(٦) :
 دَوَّخَ السُّغْدَ بِالْكَتَائِبِ حَتَّى تَرَكَ السُّغْدَ بِالعِرَاءِ قَعُودَا
 فَوَلِيدٌ يَبْكِي لِفَقْدِ أَبِيهِ وَأَبٌ مُوجِعٌ يَبْكِي لِوَلِيدَا
 وَجَرَّهَ ذَلِكَ إِلَى التَّخَلُّصِ مِنْ عَصِيَّتِهِ لِقَبِيلَتِهِ وَصَاحِبِهَا يَزِيدَ بْنِ المَهْلَبِ ،
 وَيُقَالُ إِنَّهُ نَالَ مِنْهُ وَثْلَهُ . وَكَانَ قَبْلَ هَذِهِ الفَتْرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ يَسْتَشْعِرُ عَصَبِيَّةَ حَادَّةٍ
 لِلأَزْدِ ، وَهِيَ عَصَبِيَّةٌ جَعَلَتْهُ يَتَهَاجَى هَجَاءَ مَرِيْرًا مَعَ شعْرَاءِ قَبِيلَةِ عَبْدِ التَّمِيمِ
 وَعَلَى رَأْسِهِمْ زِيَادُ الأَعْجَمِ ، كَمَا تَهَاجَى مَعَ شعْرَاءِ رُبَيْعَةٍ . وَكَانَ مَوْقِفُهُ مَعَ قَتِيبَةَ
 سَبِيًّا فِي غَضَبِ يَزِيدَ بْنِ المَهْلَبِ عَلَيْهِ غَضَبٌ شَدِيدٌ ، فَلَمَّا وَلِيَ العِرَاقَ وَخِرَاسَانَ
 لِعَهْدِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ طَلَبَهُ ، فَهَرَبَ إِلَى عُثْمَانَ ، وَظَلَّ بِهَا إِلَى أَنْ ثَارَ يَزِيدُ
 عَلَى الأُمَوِيِّينَ سَنَةَ ١٠٢ فَاتَّبَعَهُ مِنْ قَتْلِهِ .

(٥) رِزَانُ : جَمْعُ رَزِينٍ . وَيُرِيدُ بِالشَّيْخِ
 المَهْلَبِ . الشَّمَائِلُ : الطَّبَاعُ . النَّجَارُ : الْأَصْلُ
 وَالْحِسْبُ .
 (٦) طَبَرِي ٢٤٤/٥ والسُّغْدُ : جَنْسٌ مِنَ
 التُّرْكِ .

(١) بَرَكَ : خَلَقَكَ .
 (٢) الخِطَارُ : المَرَاغَةُ .
 (٣) نَجُومٌ دَرَارِيٌّ : مُضِيَّةٌ .
 (٤) ألْهَمَ : الرُّعْسُ ، يَوْمَ الرُّوعِ : يَوْمُ
 الْحَرْبِ وَالْخَوْفِ .

زياد^(١) الأعجم

مولى لقبيلة عبد القيس ، أصله ومولده ومنشؤه بأصبهان ، وكانت فيه
لثغة شديدة سبق أن تحدثنا عنها ، وكان يُحَسِّنُ فَنَّ المديح إحساناً رائعاً ،
ومن ظلَّ يمدحهم طويلاً عمر بن عبيد الله بن معمر وإلى فارس ، وفيه يقول :

سألناه الجزيلَ فما تَأَبَّى وأعطى فوق مُنَيَّتِنَا وزادا
وأحسنَ ثم أحسنَ ثم عُذْنَا فأحسنَ ثم عُذْتُ له فعادا
أخُ لك لا تراه الدهرَ إلا على العِلَّاتِ بساماً جوادا

ويُروى أن ابن مَعْمَرٍ عدَّ أبيات هذه القصيدة ، فأعطاه على كل بيت
ألفاً . وما زال يلزمه حتى توفَّى ، فولى وجهه نحو خراسان ، فمدح عبد الله بن
الحشرج وإلى سجستان ، وتوفَّى فرثاه رثاء حاراً ، تمثلنا فيما سلف بيت منه ،
وحَدَّث أن مدح المهلب وعنده كعب الأشقرى والمغيرة بن حَبْنَاء ، فأمر
لهم بجوائز ، وفضل زيادا ، ولاحظ — كما أسلفنا — لُكْنَتَهُ في قوله :

فَتَى زاده السُّلطان في الخير رفعةً إذا غَيَّرَ السُّلطانُ كلَّ خليلٍ
إذ نطق السُّلطان « الشلتان » بإبدال السين شيئاً والطاء تاء ، فوهب له
غلاماً فصيحاً ينشد شعره . وغاز صنيع المهلب بزياد المغيرة بن حَبْنَاء وكعباً ،
وانتدب له المغيرة ، فهاجيا طويلاً . ولم يلبث أن تهاجى مع كعب ، وتفوق
عليه في عدة قصائد يقول في إحداها هاجيا قبيلته :

قُبَيْلَةُ خَيْرُهَا شَرُّهَا وأصدقها الكاذبُ الآثِمُ
وضيفهمُ وَسَطُ أبياتهم وإن لم يكن صائماً صائماً
وهاجى قتادة بن مغرب اليَشْكُرى : وفي قبيلته هو الآخر يقول :

ويشكر لا تستطيع الوفاء وتعجز يشكر أن تغدرا

ص ٣٣٣ وراجع أغاني (دار الكتب)
٨٩/١٣ وما يملها وذييل الأمل ص ١٠ والخز
الخامس من الطبرى في مواضع متفرقة .

(١) انظر في ترجمة زياد أغاني (دار
الكتب) ٣٨٠/١٥ وابن سلام ص ٥٥٧
والشعر والشعراء ٣٩٥/١ ومعجم الأدباء
٢٢١/١١ والخزانة ١٩٣/٤ والاشتقاق

وكان مُغَرَّرَى بهجاء الوعاظ والفقهاء والنُّسَّاك، ويقال إن الفرزدق همَّ بهجائه حين رآه يُكثَّر من هجاء المغيرة بن حَبِيبٍ وأُقْبِلْتِه تميم ، فبادره بقوله :

وما ترك الهاجون لي إن هجوته مصحاً أراه في أديم الفرزدق
ولنا وما تُهْدَى لنا إن هجوتنا لكا لبحر مهما يُلْقَى في البحر يَغْرَقِ

فتوسل الفرزدق إليه أن يكفَّ عنه . وفي ذلك ما يدل على أنه كان يتقن الهجاء كما كان يتقن المديح والرثاء ، ومرثيته للمغيرة بن المهلب من روائعه . وقد توفِّي في حدود المائة الأولى للهجرة .

٢

شعراء الهجاء

احتدم الهجاء في هذا العصر احتداماً شديداً ، بتأثير العصبية القبلية التي اشتعلت — كما مرَّ بنا — نيرانها في كل مكان ، ومعروف أن الإسلام دعا إلى نَيْبِ هذه العصبية وحاربها حرباً عنيفة ، غير أن هذا — فيما يظهر — كان مثلاً أعلى لم يستطع العرب تحقيقه إلا إلى فترة محدودة ، فلم تكد نيرانها تتحول إلى رماد ، حتى عادت إلى الظهور ، إذ نشبت حرب الردّة وأُشْرِعَ فيها الشعراء ألسنتهم صادريين عن روحهم القبلية ، على نحو ما يروى عن أبي شجرة الأسلمي وانتصاره للمرتدين من قبيلته سُلَيْمٍ ، وكأن من دخلوا هذه الحرب أرادوا أن يخلعوا عنهم سلطان قريش . وقضى أبو بكر الصديق قضاء مبرماً على هذه الفتنة ، ودفع العرب إلى الفتوح ، ولكنهم لا يكادون يهدأون ، حتى تحدث فتنة عثمان وتنشب الحروب بين عليٍّ وخصومه : طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية . وكانت كثرة جيشه من النمانية وربيعة ، ونزاهما تتنافسان في قيادة حربه بموقعة الجمل ، كما تتنافسان في موقعة صفين ضد معاوية ، ويتبادل شعراؤهما الطعن والتجريح كلُّ بَصُور حسن بلاء قومه في الحرب . والتقت بهذه الأصوات أصوات مُضَرِّيَّة كثيرة . وحدث هذا نفسه في صفوف خصومه ، مما نجد آثاره في الطبري وفي

وقعة صفيّين لنصر بن مزاحم . وبعثاً حاول على أن يُعلّي كلمة الإسلام الذي حاول أن يمحو الدعوات الجاهلية وما اتصل بها من عصبية ، إذ لم تلبث طائفة كبيرة في جيشه بعد قبوله التحكيم أن نظرت في تولّي قريش تدبير الأمور في الأمة ، وأن من حقها جميعاً أن يكون لها الحكم والسلطان . وبسرعة تكونت جماعة الخوارج وشهّرت سيوفها في وجهه مما اضطره أن يجار بها ويذيقها وبال انتكاسها وخروجها على الجماعة .

وما لا شك فيه أن موقف معاوية كان سبباً قوياً من أسباب استئثار جماعته للعصبية القبلية ، فقد مضى يطالب بحق عشيرته الأموية في الأخذ بثأر عثمان ، وكأنه أحسّ قاصداً أو غير قاصد الفكرة القديمة التي كانت تجعل حق الثأر للقبيلة والعشيرة . ومعروف أن الإسلام هدم هذا الحق وحولّه من القبائل والأفراد إلى الدولة ، فهي التي تعاقب عليه بما يفرضه دستور القرآن الكريم . وزاد في استئثار العصبية في صفوفه أنه كان يعتمد على قبيلة كلب اليمنية ، وكان بينها وبين الأمويين مصاهرات مختلفة ، فإن عثمان تزوج منها ببنت بنت الفرافصة . وتزوج معاوية من ميسون بنت بحدل ، وهي أم ابنه يزيد ، وكذلك تزوج مروان بن الحكم ليلي بنت زبّان بن الأصبع الكلبيّة ، وهي ابنة عم نائلة . وقد استغل معاوية في حربه لعلّ ذلك ، لأن الصّهر عند العرب كالنسب ، ووسّع استغلاله ، إذ ضمّ تحت لوائه جميع القبائل اليمنية الشامية .

وعلى هذا النحو كانت العصبية القبلية تسرى في أحداث هذه الفترة ، وهدأت الأمور نحو ربع قرن ، حتى إذا توفّي يزيد وجدنا العصبية تستعر بين القبائل في الشام والجزيرة وفي البصرة وخراسان . أما في الشام والجزيرة فاندلعت بسبب نزول قيس فيها واصطدامها في أولاهما بـكلب والقبائل اليمنية وفي ثانيتهما بتغلب الرّبعية . وكانت وفاة يزيد بن معاوية إشارة الوقت لهذا الاندلاع ، فقد بايعت قيس ابن الزبير وبايعت اليمنية وتغلب مروان بن الحكم ، وسلّ الطرفان سيوفهما في معارك حامية تحدثنا عنها في غير هذا الموضع ، وانبعث شعراء كل طرف يفتخرون ويهجون ، بالضبط ، كما كان يفتخر آباؤهم في الجاهلية ويهجون .

وفي نفس الوقت نجد الحلفين الكبيرين في البصرة : حلف تميم وقيس من جهة وحلف الأزد وربيعة واليمية من جهة أخرى يستشعران العصبية القبلية استشعاراً حاداً . ومرّ بنا في غير هذا الموضع كيف اصطدم الحلفان بعد فرار عبيد الله بن زياد عن العراق ، وكيف أفضى الاصطدام إلى القتال ، لولا أن تدارك الأمر الأحنف بن قيس فرّتح الفتق . وقد ظلت نفوس الحلفين تغلّ طوال العصر ، وظل الشعراء يتصايحون صياحهم القبلي حتى لنجد أبا نُخَيْلة ، وهو ممن أدركوا الدولة العباسية ينظم أرجوزة طويلة يذكر فيها حرب قومه التميميين مع الأزد وربيعة مفاخرًا بانتصارهم على شاكلة قوله (١) :

نحن ضربنا الأزد بالعراق والحى من ربيعة المراق
ضرباً يُقيم صعر الأعناق بغير أطماع ولا أرزاق (٢)
إلا بقايا كرم الأعراق

ولم تحتدم العصبية القبلية في البصرة فحسب ، فقد انتقلت إلى خراسان لسبب طبيعي ، وهو أن أكثر جيوشها كانت تتألف من جنود البصرة ، إذ هم الذين ابتدؤوا فتحها منذ عهد عمر ، وتوالى بعد ذلك كتائبهم وفرقهم هناك ، فكان طبعياً أن تنعكس بها نيران هذه العصبية ، وقد أخذت تزداد تأججاً واشتعالًا بعامل المنافسة على قيادة الجيوش وولاية الثغور ، إذ كان الولى هناك يولّى عماله وقواده من قبيلته وأحلافها ، فإذا تولّى المهالبة مثلاً قدّموا رجال الأزد وربيعة واليمن وانتكست قيس وتميم ، وإذا تولّى قتيبة بن مسلم الباهلي مثلاً رفعت قيس وتميم رءوسهما وانتكست الأزد وأحلافها . ولم تقف المسألة عند ذلك فإن القبائل في الحلف الواحد كثيراً ما اختلفت وتحاربت وتطاحنت بسبب الاختلاف على المغانم وطمعاً في اكتنازها ، وقرأ في أى شاعر ممن عاشوا هناك وترجم له صاحب الأغاني فستراه دائماً يذود عن قبيلته بلسانه ، سواء كان من أصولها أو من موالها ، على نحو ما مرّ بنا من استعار المهجاء بين زياد الأعجم مولى

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٣ .
عن الكبر والنفطوسة ، وأصله ميل العنق والنظر عن الناس تهاوناً واستكباراً .

(٢) الصعر : الميل ، وصعر الأعناق كناية

عبد القيس وكعب الأشقرى الأزدي ، وكان زياد يهاجى أيضاً المغيرة بن حَبْناء التميمي وقتادة بن مغربّ اليشكري وابن عمه أبا جِلْدَة^(١) . وقد يرتفع صوت في أثناء هذا الضجيج باعترال هذه الحرب اللسانية وما تطوى من عصبيات عنيفة على شاكلة قول نهار بن تَوْسعة^(٢) :

أبى الإسلامُ لا أَبَ لى سواه إذا هتفوا ببكر أو تميم

ولكن مثل هذا الصوت كان يضيع في غمار هذه العصبيات التي استعلت سلطانها في العصر استعلاء شديداً ، وهو استعلاء سقطت منه آثار مختلفة في جميع البيئات .

وقد قلنا فيما أسلفنا إن الكوفة شغلت عن العصبيات القبلية بتشيعها وخصومتها للأمويين ، ومع ذلك فإننا نجد هناك الكميت بن زيد الأسدي يثير معركة حامية مع حَكِيم^(٣) بن عياش الكلبي وهرون^(٤) مولى الأزدي ، وكثيراً ما كانت تُثار معارك بين شعراء العشائر والبطون ، ولكنها على كل حال لم تحتدم هناك على نحو ما احتدمت في خراسان والبصرة . وإذا ولّينا وجوهنا نحو المدينة وجدنا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يتهاجى مع عبد الرحمن بن الحكم الأموي هجاء مريراً^(٥) ، ويقال إنه هجأ يزيد بن معاوية وشبّب بأخته رملة تشبيهاً أحفظه ، فأغرى الأخطل بهجائه ، فجهاه وهجأ قومه الأنصار ، وأغضب ذلك النعمان ابن بشير ، فتعرض للأخطل بهجاء عنيف^(٦) :

ويلقانا في نجد هجاء كثير دار على ألسنة شعراء القبائل ، وأهل من خير ما يمثله تهاجى المرار بن منقذ الأسدي ومُساوِر بن هند العبسي . ومن طريف ما للمرار قوله^(٧) :

- | | |
|--------------------------------------|--|
| (١) أغاني (دار الكتب) ٣٢١/١١ . | (٦) انظر في ترجمة النعمان بن بشير أغاني |
| (٢) الشعر والشعراء ٥٢١/١ . | (سامي) ١٤٧/١٣ ، ١١٤/١٤ وما بعدها |
| (٣) أغاني (سامي) ١٢/١٥ ومعجم الأدباء | والشعر والشعراء ٤٥٦/١ وقد طبع له ديوان على |
| ٢٤٧/١٠ . | الحجر في دهلي ونشره كرنكو مع ديوان أبي |
| (٤) الحيوان ٧٥/٧ . | بكر بن العزيز . |
| (٥) أغاني (سامي) ١٤١/١٣ والمبرد | (٧) أغاني (دار الكتب) ٣١٨/١٠ . |
- ص ٢٨٩ .

شقيت بنو عبس بشعر مساورٍ إن الشقي بكل حبلٍ يُخنقُ

ومرّ بنا ما كان من مهاجاة شبيب بن البرصاء الديباني وابني عمه عقيل بن علفة وأرطاة بن سهيلة ومهاجاة ابن ميادة والحكم الخضري ، وكان في ابن ميادة (١) شر كثير جعله يهاجى كثيرين من مثل عقبة بن كعب بن زهير وعقال بن هاشم اليمني وشُقْران مولى بني سلامان .

وعملت بجانب هذه العصبية أسباب شخصية كثيرة على اندلاع نيران الهجاء ، فمن ذلك أن ينتصر أحد الشعراء لزميل في تهاجيه مع زميل آخر ، حينئذ يرميه بسهام هجائه ، على نحو ما هو معروف عن جرير في تهاجيه مع الفرزدق إذ كان كثير من الشعراء يقفون مع خصمه ضده . فكان ينصب عليهم شواظ نار . وقد يفاضل أحد الولاة أو الأجواد بين من يمدحونه من الشعراء فيزيد شاعراً في جائزته على زميله أو زملائه ، فيغضب المفضل ، ويسقط بغضبه على من فضله كما مر بنا في تهاجى المغيرة بن حبيب ، وزياد الأعجم . وقد يبطئ الممدوح على مادحه بمكافأته ، فيتحول إلى هجائه على نحو ما هجا الحزین الكنانی عمرو بن عمرو بن الزبير بقوله (٢) :

مواعيدُ عمرو تُرهاتُ ووجهه على كل ما قد قلتُ فيه دليلُ
جبانٌ وفحاشٌ لثيمٌ مذممٌ وأكذبُ خلق الله حين يقول

وقد يحرم ممدوح مادحاً له من نواله فيسرع إلى هجائه على نحو ما كان من عكرمة بن ربیع مع المتوكل (٣) اللبثي ، وقد لا تقوم مكافأة الممدوح في

ص ٥٥١ وما بعدها وأغانى (دار الكتب)
١٥٩/١٢ ومعجم الشعراء ص ٣٣٩ وهو صاحب
البيت المشهور :
لاتنه عن خلق وتأتى مثله
عار عليك إذا فملت عظيم

(١) انظر في ترجمة ابن ميادة الشعر والشعراء .
٧٤٧/٢ والمؤلف ١٧٤ والأغانى (طبع دار
الكتب) ٢٦١/٢ وما بعدها والاشتقاق ص ٢٨٧
والخزانة ٧٦/١ والموشح ص ٢٢٨ .
(٢) أغانى دار الكتب ٣٣٨/١٥
(٣) انظر في ترجمة المتوكل ابن سلام

رأى المادح بما قَدَّم له من مديحه . فبهجوه ويسرف في مَهْجُوهُ على نحو ما صنع
الشَّمْرَدَلُ بهلال^(١) بن أحوز المازني فارس تميم في عصره غير مدافع . وقد
يحجب الممدوح مادحه فلا يأذن له ببلقائه ، فيصبُّ عليه نار هجائه ، على نحو
ما روى الرواة عن حَجَّابٍ مقاتل بن مسمع بن مالك لأبي جيلدة الشكري ،
فقد تولَّى بهجوه بمثل قوله^(٢) :

فَرَى ضَيْفَهُ الْمَاءَ الْقَرَّاحَ ابْنَ مِصْمَعٍ وَكَانَ لَثِيماً جَارُهُ يَتَذَلَّلُ

وقد يمتدح الشاعر أحد العمال ويطلب إليه حاجة فلا يقضيها ، حيثئذ
ينتقم منه بهجائه ، على نحو ما كان من زياد الأعجم مع عبَّاد بن الحصين ،
وكان على شرطة القُبَاعِ والي ابن الزبير على البصرة ، فسأله حاجةً فازور عنه
فهجاه وهجا عشيرته الحَبَطَاتِ طويلاً . وفيها يقول^(٣) :

رَأَيْتَ الْحُمْرَ مِنْ شَرِّ الْمَطَايَا كَمَا الْحَبَطَاتُ شَرُّ بَنِي تَمِيمٍ

وعلى هذا النحو أصبحنا نجد الأجواد والقواد والولاة الذين مرت بنا أسماؤهم
والذين طالما مدحهم الشعراء يُهَجَّجُونَ كثيراً أو قليلاً ، فزياد وبنو زياد بهجوه
ابن مفرغ ، والحجاج بهجوه العُدَيْلِ^(٤) بن الفرخ العجلي ومالك^(٥) بن الربيع
القيمي . وفيه يقول^(٦) :

وَلَوْلَا بَنُو مِرْوَانَ كَانَ ابْنُ يَوْسُفٍ كَمَا كَانَ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِ إِيَادٍ
زَمَانَ هُوَ الْعَبْدُ الْمَقْرُؤُ بِذُلِّهِ يِرَاوِحُ صَبِيَّانَ الْقُرَى وَيَغَادِي

وكان الفرزدق مولعاً بهجاء كثير من الولاة والعمَّالِ عصبيةً لقييلته تميم

(١) أغاني (دار الكتب) ٣٥٨/١٣ .
(٢) أغاني ٣٣١/١١ .
(٣) البيان والتبيين ٣٧/٤ والخزانة ٢٨٠/٤ .
(٤) أغاني (سامي) ١٣/٢٠ .
(٥) انظر في ترجمة مالك الشعر والشعراء ٢١٢/١ وأغاني (سامي) ١٩/١٦٣ والخزانة ٣١٧/١ ومعجم الشعراء ص ٢٦٥ .
(٦) المبرد ص ٢٩٠ .

أو لأسباب شخصية ، ومن أكثر من هجأهم عمر^(١) بن هبيرة الفزاري وخالد القسري^(٢) ، وفيهما يقول إسماعيل بن عمار^(٣) :

بكت المنابر من فزارة شجوها فالآن من قسر تضج وتجزع
وكان المهالبة مدحاً حين كما قدمنا . ومع ذلك لم يسلموا من هجاء الشعراء
وعلى رأسهم الفرزدق^(٤) . ومن ولاية الشرق الذين هجأهم غير شاعر قتيبة بن
مسلم الباهلي والي خراسان ، وسرى عما قليل هجاء ثابت قطنة له ، ومنهم عبد الله
العيشي مهجراً أبي حزابة^(٥) . ونرى أعشى همدان يهجو خالد بن عتاب بن
ورقاء والي الرى وأصحابه حين جفاه بمثل قوله^(٦) :

ويركب رأسه في كل وحلٍ ويعثر في الطريق المستقيم
ويهجو أبو نضيلة المهاجر بن^(٧) عبد الله والي اليمامة . وفي الحجاز نجد
الأحوص مشغوقاً بهجاء ابن^(٨) حزم والي المدينة لعمر بن عبد العزيز كما نجد
العرجي مشغوقاً بهجاء محمد بن هشام المخزومي والي مكة هشام بن عبد الملك .
ونحن نقف قليلاً عند ثلاثة من المهاجرين هم ابن مفرغ البصري والحكم بن عبيد
الكوفي وثابت قطنة الخراساني .

ابن^(٩) مفرغ

هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري نشأ بالبصرة ، ويقال إنه كان
حليفاً لقريش ، وقيل بل كان مسترقاً للضحاك الهلالي فأعتقه . وكان يتقن
الفارسية كما أسلفنا في غير هذا الموضع ، ولعل في ذلك ما يدل على أنه
يرجع إلى أصول إيرانية ، أما لقبه الحميري فلعل منشأ أنه كان من حنيفة
الفرس الذي نزلوا اليمن قبل الإسلام ، أو لعله يرجع إلى وضعه سيرة لتبع .

- | | |
|-------------------------------------|--------------------------------------|
| (١) الديوان ص ٢٨٢ ، ٦٤٧ . | (٧) أغاني (سأسي) ١٤٥/١٨ . |
| (٢) أغاني (سأسي) ٢٣/١٩ . | (٨) أغاني (دار الكتب) ٢٣٧/٤ . |
| (٣) أغاني (دار الكتب) ٣٧٩/١١ . | (٩) انظر في ترجمة ابن مفرغ ابن سلام |
| (٤) انظر الديوان ص ١٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٢ . | ص ٥٥٤ والشعر والشعراء ٣١٩/١ وأغاني |
| (٥) ٢٦٢ ، ٤١٢ . | (سأسي) ٥١/١٧ والطبري ٢٣٥/٤ والاشتقاق |
| (٦) أغاني (سأسي) ١٥٢/١٩ . | ص ٥٢٩ ومعجم الأدباء ٢٠ / ٤٣ والخزانة |
| (٧) البيان والتبيين ٥٠/٤ . | ٥١٤ ، ٢١٢/٢ |

ويظهر أن موهبة الشعر تيقظت عنده مبكرة ، وطبيعي وهو قد نشأ في البصرة أن يتجه بشعره إلى المديح والهجاء اللذين كانا شائعين فيها على ألسنة الشعراء من حوله ، غير أن الهجاء هو الذي غلب عليه ، وقد صبه صباً على أسرة زياد بن أبيه ، وكان الذي دلح لسانه فيها أن سعيد بن عثمان وإلى معاوية على خراسان أراد استصحابه فأثر عليه عبّاد بن زياد وإلى سجستان ، وصحبه فلم يحمده ، وكان عباد طويل اللحية عريضها ، فركب ذات يوم وابن مفرغ يسير معه في موكبه ، فهبت ريح ، فنفشت لحيته . فقال ابن مفرغ توا :

أَلَا لَيْتَ اللَّحَى كَانَتْ حَشِيشًا فَذَعْلَفَهَا دَوَابُّ الْمُسْلِمِينَ
وعلم عباد بما قال ، فأخذ يحفوه ويتنكر له ، وأخذ ابن مفرغ يظهر ندمه على مُحِبَّتِهِ وتركه لسعيد بن عثمان ، وفي ذلك يقول :

إِنْ تَرَكْنِي نَدَى سَعِيدِ بْنِ عَثْمَانَ فَنَاقِي الْجُودِ نَاصِرِي وَعَدِيدِي
وَاتَّبَاعِي أَخَا الْوَضَاعَةِ وَاللُّؤْمِ لِنَقْصِ وَفَوْتُ شَأْوٍ بَعِيدِ
وكان على ابن مفرغ دين ، فاستعدى عليه دائنوه عبّادا ، فأمر ببيع ماله في دينه . وكان فيما بيع عليه عبد يقال له بُرْدٌ وجارية تسمى أراكة ، فبكاهما طويلا بمثل قوله :

وَشَرِيتُ بُرْدًا لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَةً (١)
يَا هَامَةً تَدْعُو صَدِّي بَيْنَ الْمُشَقَّرِ فَالِيَامَةِ (٢)
الرَّيْحُ تَبْكِي شَجْوَهُ وَالْبَرْقُ يَلْمَعُ فِي الْغَمَامَةِ (٣)

وأخذ يهجو عبّادا وأخاه عبيد الله وإلى العراق وأباهما زيادا هجاء مقذعا ، وكان مما وقف عنده طويلا استلحاق معاوية لزياد ، معلناً نكيره على هذا الاستلحاق بمثل قوله :

(١) يقال فلان هامة اليوم أو الغد أي أنه يموت في يومه أو غده . وشريت هنا : بعت .
(٢) كانت العرب تزعم أن الهامة والصنى يطيران من رأس الميت . المشقر : حصن بين البحرين ونجران .
(٣) يقول إن البرق يبكيه لامعاً في الغمامة .

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغللة عن الرجل اليماني
 أتغضب أن يقال أبوك عَفٌّ وترضى أن يقال أبوك زاني
 وأشهد أن إلك من زياد كإلّ الفيل من ولد الأتان^(١)
 وكان أهل البصرة يتغنّون بهجائه لتلك الأسرة، مما أثار عليه حفيظة عبيد الله،
 فطلبه وألحّ في طلبه . وحدث أن قدم البصرة وعبيد الله غائب عنها في وفادة
 على معاوية أو على ابنه يزيد ، فاستجار بالمنذر بن الجارود ، وكان عبيد
 الله مُصْهِراً إليه ، فأجاره . وعاد عبيد الله فلم يَسْرَعْ جوار المنذر ، وأخذ ابن
 مفرغ وسجنه . ورأى أن ينكّل به ، فأمر — كما مر بنا في غير هذا الموضع —
 أن يُسْتَقَى نبيذاً ويُحْمَل على بعير مقروناً إلى هِرةٍ وخنزير ويُطَاف به في أزقة
 البصرة بتلك الصورة المزرية ، واجتمع الصبية حوله في طوافه يخاطبونه بالفارسية
 ما هذا ، وهو يرد عليهم بلغتهم هاجياً عبيد الله وجدته مُسمّية هجاء مقدعاً .
 وردّ إلى السجن ، ويقال بل أرسله عبيد الله إلى أخيه عباد لينزل به عقاباً
 ألياً ، فألقى به في غيابات السجون . وشفعت فيه اليمينية عند يزيد بن معاوية ،
 وألحت في شفاعتها ، حتى أمر بإطلاقه ، وقد مضى يهجو عبّاداً وأخاه عبيد الله،
 وخاصة حين خلا له الجوّ بفرار عبيد الله إلى الشام عقب وفاة يزيد بن
 معاوية ، فقد ظلّ يَسْقُط عليه بهجاء مريّر . ، وقد توفّي سنة تسع وستين .

الحكم^(٢) بن عبدل

من بني أسد ، نشأ بالكوفة ، يمدح ويهجو ، وكان هواه مع بني أمية ،
 فلما دخل العراق في طاعة ابن الزبير أمر بنفيه إلى الشام ، فقدمها على عبد الملك
 وحظي عنده ، وله في تحريضه على قتال مصعب بن الزبير وهجائه هو وأسرته
 أشعار كثيرة من مثل قوله :

يا ليت شعري وليت ربما نفعت
 بالذلّ والأسر والتشريد إنهم
 هل أبصرت بني العوام قد شملوا
 على البرية حتفٌ حيثما نزلوا

الأدباء ٢٢٨/١٠ وما بعدها وفهرس البيان
 والتبيين والحيوان .

(١) الإل : القرابة .
 (٢) انظر في ترجمة الحكم بن عبدل أغاني
 (دار الكتب) ٤٠٤/٢ وما بعدها ومعجم

ولما دخلت العراق في طاعة عبد الملك رجع إلى وطنه وأخذ يمدح بشر بن مروان وابنه عبد الملك وكثيراً من أجواد بلدته ، وكانت فيه فكاهة جعلته يتصعلك في بعض مدائحه ، إذ نراه يصف للمدوحيه بؤسه وما يملأ بيته من عناكب وحشرات وجردان^(١) . وبذلك كان مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهروا في العصر العباسي ، وكانوا سبباً في نشوء فن المقامات عند بديع الزمان ثم الحريري . وكان هجاء خبيث اللسان ، ومن هجاهم طويلاً محمد بن حسان بن سعد ، وكان يتولّى خراج الكوفة ، فكلمه في شخص ليضع عنه ثلاثين درهماً من خراجه فردّه ردّاً قبيحاً جعله يسئل لسانه عليه بقصيدة طويلة يقول فيها :

رَأَيْتَ مُحَمَّدًا شَرِّهَا ظُلُومًا وَكُنْتُ أَرَاهُ ذَا وَرَعٍ وَقَصْدٍ
يَقُولُ : أَمَاتَنِي رَبِّي خِدَاعًا أَمَاتَ اللَّهُ حَسَّانَ بْنَ سَعْدٍ
وَذَاعَتِ الْقَصِيدَةُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْكُوفِيِّينَ ، حَتَّى كَانَ الْمُسْكَرِيُّ يَسُوقُ بَغْلَهُ
أَوْ حِمَارَهُ فَيَقُولُ : عَدَّ ، أَمَاتَ اللَّهُ حَسَّانَ بْنَ سَعْدٍ . وَحَدَّثَ أَنَّ خُطْبَ ابْنِ حَسَّانَ
فَتَاةً مِنْ وَلَدِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ وَسَمِعَ بِذَلِكَ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، فَأَخَذَ يَعْمَلُ عَلَى إِفْسَادِ
هَذِهِ الْخُطْبَةِ بِأَشْعَارٍ كَثِيرَةٍ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

وَمَا كَانَ حَسَّانُ بْنُ سَعْدٍ وَلَا ابْنُهُ أَبَوَ الْمُسْكَرِ مِنْ أَكْفَاءِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ^(٢)
خَذَى دِيَةً مِنْهُ تَكُنْ لَكَ عُدَّةً وَجِئْتُ إِلَى بَابِ الْأَمِيرِ فَخَاصِمِي
وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَقْضِ هَذَا الصُّمْرِ ، إِذْ أَنْفَتَ لِلْفَتَاةِ عَشِيرَتُهَا وَرَدَّتْ ابْنَ
حَسَّانَ رَدًّا قَبِيحًا . وَمِنْ هَجَاهِمُ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَمْرُ بْنُ يَزِيدَ الْأَسَدِيُّ صَاحِبُ شَرْطَةِ
الْحِجَابِ ، وَلَهُ يَصِفُ شُحَّهَ وَتَقْتِيرَهُ :

جِئْنَا وَبَيْنَ يَدَيْهِ التَّمْرُ فِي طَبَقٍ فَمَا دَعَانَا أَبُو حَفْصٍ وَلَا كَادَا
وَوَلَّى إِمَارَةَ الْكُوفَةِ لِمُسْلِمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي وَلايَتِهِ عَلَى الْعِرَاقِ عَبْدُ الْحَمِيدِ
ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَكَانَ أَعْرَجٌ ، وَتَصَادَفَ أَنَّ كَانَ
صَاحِبُ شَرْطَتِهِ مِثْلَهُ أَعْرَجٌ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْحَكَمُ ، وَكَانَ هُوَ الْآخِرُ أَعْرَجٌ ،
فَأَنشَدَهُ فِي أَبْيَاتٍ :

(١) انظر الحيوان ٢٩٧/٥ وفي مواضع متفرقة . (٢) يكنى ابن عبد الله بالمسك عن ذكر ابن حسان .

أَلْقَى الْعَصَا وَدَعَرَ التَّخَامُعَ وَالتَّمَشَّ عَمَلًا فَهَازَى دَوْلَةَ الْعُرْجَانِ^(١)

فأعطاه عبد الحميد مائتي درهم وسأله أن يكف عنه ، ويقول الجاحظ :
« لما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدي لمحمد بن حسان بن سعد وغيره من
الولاة والوجوه هابه أهل الكوفة : واتقوا لسانه الكبير والصغير ، وكان الحكم
أعرج لا تفارقه عصاه ، فترك الوقوف بأبوابهم ، وصار يكتب على عصاه حاجته .
ويبعث بها مع رسوله ، فلا يُحْسِبُسُ له رسول وتأتيه الحاجة على أكثر مما قدروا وأوفر
مما أمل ، فقال يحيى بن نوفل^(٢) :

عَصَا حَكَمٍ فِي الدَّارِ أَوَّلُ دَاخِلٍ وَنَحْنُ عَلَى الْأَبْوَابِ نَقْصَى وَنُحْجَبُ^(٣)

وللحكم هجاء فكه في زوجة همدانية كرهها ونفر منها ، ونراه يصورها
متغضنة الجلد قبيحة قبحاً شديداً . والمظنون أنه توفي في مطلع القرن
الثاني للهجرة .

ثَابِتٌ^(٤) قُطْنَةُ

هو ثابت بن كعب من بني العتبيك الأزدية ، وقيل بل هو مولى لهم ،
ولقب قُطْنَةُ لأن سهماً أصابه في إحدى عينيه في بعض حروب الترك ، فذهب
بها ، فكان يجعل عليها قُطْنَةَ . وهو من فرسان المهلب المبرزين وقد علا نجمه في
ولاية يزيد بن المهلب الأزدى على خراسان إذ كان يوليّه أعمالاً في الثغور ،
فيعحسنها وتظهر كفايته وبسالته . وكان قوم من المرحنة هناك يجتمعون ويتجادلون
فقال إلى قومهم واعتنقه أشد اعتناق ، وقد مرت بنا أبياته في الإرجاء في تضاعيف
حديثنا عن الثقافة .

(١) التخامع : العرج .

(٢) انظر في ترجمة ابن نوفل الشعر والشعراء

٧١٧/٢ وأغانى (دار الكتب) ٢٧/٤ والطبرى

٤٥٧/٥ وفهارس البيان والتبيين والحيوان والمبرد .

وكان مولماً بهجاء خالد القسرى وعبد الملك بن

عمير قاضى الكوفة .

(٣) البيان والتبيين ٧٤/٣ .

(٤) راجع في ترجمة ثابت الشعر والشعراء

٦١٢/٢ وأغانى (دار الكتب) ٢٦٣/١٤

والخرافة ١٨٤/٤ والاشتقاق ص ٤٨٣ .

ويلتئم في ثابت هجاء العصبيات وهجاء الأسباب الشخصية ، إذ كان يتعصب لقومه من الأزد تعصباً شديداً . وكان أقل حادث يثيره . ونراه مع المهلب في حروب الأزارقة . ويتعرض بعض بني الكواء اليشكريين للمهلب والأزد بالهجاء ، فينبى هاجياً له ولعشيرته بمثل قوله :

كل القبائل من بكر نعدهم واليشكريون منهم ألام العرب
ويتضى مع المهلب إلى خراسان ، فيظل بها بقية حياته غازياً مجاهداً في سبيل الله . ولما وليها يزيد بن المهلب أخلص له ودّه ، فكان يمدحه ، وكلما شغبت عليه قبيلة صبّ عليها هجاءه . وكانت قبائل ربيعة لما حالفت الأزد في البصرة كما قدمنا تعينها وتشدّ من أزرها لا في البصرة فقط ، بل أيضاً في خراسان حين وليها المهلب ثم ابنه يزيد ، ولكن حدث أن استبطأت يزيد في بعض الأمر ، وهى تنزل مع الأزد حواله ، فشغبت عليه حتى أرضاها ، وأغضب ذلك ثابت ، فهجاها بأشعار كثيرة يقول فيها :

عصافير تنزّو في الفساد وفي الوغى إذا راعها روع جماميح بروق^(١)
وأنتم على الأدنى أسود خفية وأنتم على الأعداء خزان سملق^(٢)

وحين ولي قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان بعد عزل الحجاج ليزيد بن المهلب أخذ يزور عنه امتعاضاً لابن المهلب . ولم يلبث أن هجاء هو وقبيلته باهلة حين هزمت في بعض حروب الترك وثبتت تميم ، فقال :

توافت تميم في الطعان وعردت بهيلة لما عاينت معشراً غلباً^(٣)
تسامون كعباً في العلا وكلابها وهيئات أن تلقوا كلاباً ولا كعباً

وأهم شاعر اعظم به حاجب بن ذبيان المازني التميمي ، وكان قد أعطاه يزيد بن المهلب جائزة كبيرة لبعض مديحه فيه ، فغبطه عليها ، وأساء له

(١) تنزو : تثب . الروع : الفرع . جمع خمرز وهو ذكر الأرناب وهي معروفة بالجن .
الجماميح : ما ثبت على زروس القصب مما إذا دق
تطايير . بروق : ثبت ضعيف .
(٢) خفية : أجمة في سواد الكيفة . خزان :
(٣) عردت : فرت . بهيلة : تصغير باهلة .
جمع خمرز وهو ذكر الأرناب وهي معروفة بالجن .
والسملق : الأرض الجرداء لا شجر بها .

ببعض القول ، فهجاه حاجب ، وبادله الهجاء ، ولقبه في هجائه بالفيل ، فأصبح ذلك علماً عليه فسماه الناس حاجباً الفيل ، وله يقول في بعض أهاجيه :

أحاجبُ ! لولا أن أضلك زَيْفُ وأنتك مطبوعٌ على اللؤم والكفر
وأننى لو أكثرْتُ فيك مقصراً رميتُك رمياً لا يبيد يدَ الدهر

وله أشعار كثيرة في مدح المهالبة وراثتهم ، وقد بكى يزيد حين قُتل في معاركه مع بنى أمية طويلاً ، وهو في مديحه وراثته لهم يستشعر عصبية القبيلة استشعاراً قوياً . وأكبر الظن أنه توفى قبل نهاية العقد الأول من القرن الثاني .

٣

شعراء النقائض

هياً استعار العصبية في البصرة وخراسان لاشتعال الهجاء طوال هذا العصر ، كما دياً لنوف النقائض نمواً واسعاً ، وقد أعدت لهذا النمو أسباب كثيرة ، يرجع بعضها إلى عوامل اجتماعية وبعضها إلى عوامل عقلية . أما العوامل الاجتماعية فردّها إلى حاجة المجتمع العربي خاصة في البصرة إلى ضرب من الملاحى يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة . ودائماً حين تنشأ المدن تنشأ معها أوقات فراغ تبعث أهلها على أن يملئوها إما بالدرس والنظر العقلى وإما بلهو يختلفون إليه . وفعلاً نهضت — كما رأينا في غير هذا الموضع — دراسات دينية وعقلية مختلفة ، وكان لا بد أن ينشأ بجانبها نوع من أنواع الملاحى يجد فيه الفارغون من العمل تسليتهم : وقد رأينا المدينة ومكة تُقبِلان على الثناء وتعجدان فيه حاجة أهلها من التسلية واللهو . ولم تتجه قبائل العراق هذا الاتجاه ، إذ كانت شديدة الصلة بحياتها البدوية القديمة ، وأخذت نيران الهجاء تشتعل فيها اشتعالاً شديداً . حينئذ انبرى الهجاءون يملأون أوقات الناس هناك بأهاجيهم ، وسرعان ما تحولوا بها إلى نقائض مثيرة ، فشاعروُ قبيلةٍ من القبائل ينظم قصيدة من القصائد في الفخر بقبيلته وأمجادها ويتعرض لخصومها من القبائل الأخرى فينبى له شاعر

من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة على وزن قصيدته ورَويَّها، وكأنه يريد أن يظهر تفوقه عليه من ناحية المعاني ومن ناحية الفن نفسه ، ويتجمع الناس من حوالهما يصفقون ويهتفون ويصيحون^(١) . وبذلك تحولت النقائض من غاية الهجاء الخالص إلى غاية جديدة هي سدُّ حاجة الجماعة الحديثة في البصرة إلى ضرب من ضروب الملاحى .

وتدخلت في صنع النقائض بجانب هذه العوامل الاجتماعية عوامل عقلية مردُّها إلى نمو العقل العربي ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة في النحل السياسية والعقيدية وفي الفقه وشتون التشريع . وعلى ضوء من ذلك كله أخذ شعراء النقائض يتناظرون في حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها ، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث في أدلته ليوثقها وفي أدلة خصمه لينقضها دليلاً دليلاً ، وكأننا أصبحنا بإزاء مناظرات شعرية ، وهي مناظرات كانت تتخذ سوق المِرْبَدِ مسرحاً لها ، فالشعراء يذهبون هناك ، ويذهب إليهم الناس ويتحلقون من حولهم ، ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه .

وأهمُّ من وقفوا حياتهم على تنمية تلك النقائض القبلية مستلهمين فيها ظروف العصر وأحداثه السياسية جرير والفرزدق التميميان^(٢) . وكان أولهما من عشيرة كَلْبِيبِ اليربوعية ، والثاني من عشيرة مجاشع الدارمية ، وقد ظلا يتناظران نحو خمسة وأربعين عاماً في عشيرتهما من جهة وفي قيس وتيم من جهة ثانية ، فإن ظروفهما كثيرة جعلت جريراً يقف في صفوف قيس محامياً عنها ضد خصومها ، وذلك أن عشيرته اليربوعية أسرعت بالبيعة لابن الزبير ، فاتفق هوى عشيرته مع هوى قيس ، وتصادف أن كان قد قتل مجاشع الزبير بن العوام حين لحاً بعد موقعة الجمل إلى مجاشع ، وأيضاً تصادف أن لحأت النوار زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير ، فأعانها عليه ، مما جعل الفرزدق يهجو^(٣) .

(١) أغاني (دار الكتب) ١٥٢/١٠ أجزاء ضخمة . ونشر الشرح نشرة ناقصة بتحقيق الصاوي سنة ١٩٣٥ .
 (٢) شرح أبو عبيدة نقائض الشعراء ، وطبعة ساسي ١٠٣/١٩ .
 (٣) أغاني (دار الكتب) ٣٢٤/٩ وما بعدها . وحقق الشرح ونشره بيغن سنة ١٩٠٥ في ثلاثة

ونحن لا نصل إلى حكم القُبَاع وإلى ابن الزبير على البصرة سنة ٦٦ حتى نجد الشاعرين التميميين ملتحمين في تلك المناظرة ، يدل على ذلك أننا نجدهما في نقيضتين لهما يُعلنان تنكيرا على هذا الوالي ، إذ أمر بهدم بيتيهما لما يثيران من ضغائن بين القبائل^(١) . ويقول الرواة إن سبب النحامهما أن شاعراً من عشيرة سليط البربوعية يسمى غساناً هجا جريراً فسقط عليه بهجاء جرير ، فاستعاث منه بالسبعيث^(٢) المَجاشعي ، فأغاثه بمثل قوله في جرير وعشيرته :

أترجو كُليبُ أن يجيء حديثها بخيرٍ وقد أعيا كليباً قديمُها
فانصبَّ جرير عليه وعلى مجاشع شواظ نار . وأفحش بنسائهم إفحاشاً
شديداً جعلهن يستغن منه بالفرزدق . وكان معروفاً بإقذاعه في الهجاء ، وقصته مع زياد بن أبيه وهربه منه لهجائه بنى فقَيمُ التميميين معروفة ، ووجدته عاكفاً على حفظ القرآن الكريم ، يريد أن يبدأ سيرة جديدة : فما زلن به يستتره قائلات إن جريراً هتك عورات نسائك ، وظللن يوردن عليه ذلك حتى أحفظنه ، فهجا جريراً ، واستطار الهجاء بينهما وامتدأ به لا إلى عشيرتهما فحسب ، بل أيضاً إلى قيس وتغلب وتميم .

وبذلك تكاملت حلقات هذه المناظرة العنيفة بين الشعارين . وكان كثير من الشعراء ينزلق فيها متحيزاً للفرزدق على جرير ، فكان يسئوى وجوههم ووجوه عشائهم بنيران هجائه ، فينسحبون مهزمين على شاكلة الراعي^(٣) ، وكان من سوء حظّه أن فضّل الفرزدق على جرير بقوله :

يا صاحبيّ دنا الرّواحُ فيميرا غلب الفرزدقُ في الهجاء جريراً
وهجاءه بقصيدة بائية ، فنظم جرير قصيدة هجاه بها كما هجا الفرزدق ، ويقول الرواة إنه ما زال يُعيدّها « حتى عرف أن الناس قد جلسوا مجالسهم

(١) شرح النقااض لأبي عبيدة (طبعة بيّش)
ص ٦٠٧ ، ٦٨٣ وانظر أنساب الأشراف
للبلاذري ٢٧٨/٥ .
(٢) انظر في ترجمة البعيث ابن سلام
ص ٣٢٦ وما بعدها وفي مواضع متفرقة والشعر
والشعراء ٤٧٢/١ والاشتقاق ص ٢٤١ وابن
عساكر ١٢٢/٥ ومعجم الأدباء ٥٢/١١ .
(٣) انظر في ترجمة الراعي ابن سلام
ص ٢٧٢ ، ٤٣٤ وفي مواضع متفرقة والشعر
والشعراء ٣٧٧/١ وأغانى (سأسي) ١٦٨/٢٠ وفي
ترجمة جرير، وفي الخزائن ٥٠٢/١ والنوشع
ص ١٥٧

بالمربد ، وكان له مجلس ، وللفرزدق مجلس ، فدعا بدهن^١ (طيب) فادهن وكف^(١) رأسه ، وكان حسن الشعر ، ثم قال : يا غلام أسرج لي ، فأسرج له حصاناً ، ثم قصد مجلس الفرزدق والراعي ، فتوجه للراعي يقول له : أبعتك نيسوتك تكسبهن المال بالعراق ، أما والذي نفس جرير بيده لترجعن إليهن يميني^(٢) يسوءهن ولا يسرن^(٣) ، ثم اندفع فأنشد قصيدته ، وفيها يقول للراعي بيته المشهور :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً
ولم يلبث الراعي أن انصرف من مجلس الفرزدق يعلوه الخيزي والصغار ، واتجه توا إلى منازل قبيلته نمر في نجد ، وهو يردد : فضحنا والله جرير ، وهم يقولون : هذا شؤمك .

وإنما أطلنا في هذا الخبر لنعطى صورة عن شاعر النقائص في المربد ، وكيف كان يحتفل بشيابه وزينته . وكيف كان له مجلس يتحلق فيه الناس من حوله ليستمعوا إلى شعره بين الصباح والتهليل ، وأيضاً لندل على قدرة جرير في الهجاء وكيف كان يفصح من يتعرضون له ففضيحة الأبد . ويقال إنه أسقط في الهجاء ثلاثة وأربعين شاعراً ، ويقال بل ثمانين ونيفاً ، كانت أقواسهم أضعف من أن ترميه بمثل سهامه المصمية ، ومن ثبت له قليلاً ثم اندحر عمر بن لجا التميمي^(٤) : وله يقول :

أتوعدنا ونمنع ما أردنا ونأخذ من ورائك ما نريد
ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود
لثام العالمين كرام تيم وسيدهم - وإن رغموا - مسود

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .
(٢) المير : جلب الطعام للأهل والعشيرة .
(٣) انظر في هذا الخبر أغاني (دار الكتب) ٢٩/٨ .
(٤) انظر في ترجمة عمر بن لجا ابن سلام ص ٣٦٣ وما بعدها وص ٤٩٩ وما بعدها وفي مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٢/٦٦٢ والاشتقاق ص ١٨٥ والخزانة ١/٣٥٩ وفهرس الجزء الثامن من الأغاني والموشح ص ١٢٧ وما بعدها .

(٤) انظر في ترجمة عمر بن لجا ابن سلام

وقد جعله دفاعه عن قيس يصطدم بالأخطل شاعر تغلب. وسنعرض لذلك عما قليل . وفي الحق أن الفرزدق أهم شاعر اشتبك معه ، إذ كان على شاكلته يعرف كيف يتبرى نبال الهجاء المصممية ، وقد تبادل معه نقائض كثيرة ، وظلاسين طويلة يتحاوران ويتجادلان وكل منهما يغترف من نبع لا ينضب في نفسه .

ومن يرجع إلى شرح أبي عبيدة لنقائضهما يجده يستعين على شرحه لها بأيام العرب ، ذلك لأن الشاعرين لم يتركا يوماً للقبائل التي يتحدثان عنها دون أن يذكرها . فجيرير يتحدث عن أيام يربوع وقيس ، والفرزدق يتحدث عن أيام مجاشع وتميم ، وقد يضيف إلى ذلك حديثاً عن أيام تغلب انتصاراً للأخطل . وهما لا يتحدثان عن أيام الجاهلية فحسب ، بل يتحدثان أيضاً عن أيام الإسلام ، وخاصة ما كان بين تميم وقيس في خراسان ، إذ دفعت تهما الحوادث هناك لكي تنكّل بعبد الله بن خازم السكسسي وإلى ابن الزبير حين ثار على عبد الملك بعد قتل مصعب ، كما نكلت بعد ذلك بقتيبة بن مسلم الباهلي حين ثار على سليمان ابن عبد الملك .

ومعنى ذلك أن جريراً والفرزدق درسا دراسة عميقة تاريخ القبائل العربية في الجاهلية والإسلام واستلهما هذا التاريخ في نقائضهما ، بحيث تُعدّ وثائق تاريخية طريفة . وكان ذلك من غير شك يصعب عمل النقيضة ، لأنها لم تكن هجاء فحسب ، بل كانت أيضاً دراسة ، ولم يكن الشاعر يدرس تاريخ القبائل التي كان يحامي عنها فحسب ، بل كان يدرس أيضاً تاريخ القبائل التي يهجوها ليقف على الأيام التي انهزمت فيها ، حتى ينشر مخازيها في الناس .

وواضح أن أساس الهجاء في النقائض كان يقوم على العصبية القبلية ، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع أن هذه العصبية اختلطت في العصر الأموي بالسياسة ، وهياً ذلك النقيضة لأن تخوض في مديح الخلفاء والولاة ، بحيث أصبحت لا تحتوى فخراً وهجاء فحسب ، بل تحتوى كذلك مديحاً ، كما تحتوى نسبياً وغزلاً . والشاعر في كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام في معانيه ، كما يستلهم قدرة العقل العربي الجديدة على الجدال ونقض الدليل بالدليل ، وقدرته أيضاً على التوليد في المعاني . وبذلك كله أصبحت النقيضة

عند الفرزدق وجريرو عملاً فنياً معقداً . ولعل من الخير أن نقف عند نقيضتين للشاعرين نرى فيهما جملة ما كانا يعرضان له من المعاني ، ونحن نختار للفرزدق لنقيضته :

نحنُ بزوراء المدينة نأقّي حزينَ عَجُولٍ تبتغي البؤ رائم^(١)

وهو في عجزها يستشعر الإسلام خائفاً وجلالاً من يوم الحساب . ونراهم يعتذر بما قد يندرونه من أشعار تصوره فاسقاً ، ويدعوها لغواً من القول ، وإنه ليقول :

ولست بمأخوذ بذنوبي نقوله إذا لم نعمد عاقدات العزائم

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) ويغضى فيمدح سليمان بن عبد الملك بعقل قوله :

جعلت لأهل الأرض نوراً ورحمةً وعدلاً وعيشت المغيرات القوائم^(٢)

وكان الحجاج ليح في البيعة لعبد العزيز بن الوليد من دون سليمان ، وتوفي قبل خلافته ، فنكّل بمن لحوا معه من ولاته على المشرق . ونرى الفرزدق يهجو الحجاج هجاء مرّاً صورته فيه طاعياً باغياً ، لقي جزاء بغيه وطغيانه من ربه ، فأصابه بما أصاب به ابن نوح حين ارتقى إلى جبل فغرق مع العارقين وما أصاب به أصحاب القيل إذ ترميهم طير أباييل . ولم يزل به حتى جعله من أهل النار . ومن يتلقون كتابهم بالشمال . ويخرج الفرزدق من ذلك إلى قتيبة بن مسلم الباهلي وثورته على سليمان بن خراسان ، وافتحرياً بأن تمها بزعمه وكيع بن أبي سئود هي التي قصت عليه . ويغضى يسكيل لقيس وشاعرها جريرو هجاء مريراً ، متعرضاً لثورة ابن حازم وقضاء تميم عليه ولأيام تغلب على قيس في الجزيرة . ويتجسم له جريرو كأنه قيس نفسه فيقول :

(١) البؤ : جلد ولد الناقة يحشى ، ويعرض على أمه فترأيه أي تحن إليه فلما منها أنه ولد لها .
(٢) المغيرات القوائم : السنوات المجيدة . حقيقة .

وَأَلْقَيْتَ مِنْ كَفِّكَ حَبْلَ جَمَاعَةٍ وَطَاعَةَ مَهْدَى شَدِيدِ النَّقَائِمِ^(١)

وَيُسَمَّى أَصْحَابُ قَتِيْبَةِ مُشْرِكِينَ ، يَضْرِبُونَ فِيهِمْ بِسَيْفِ سُلَيْمَانَ الَّذِي ضَرَبَ اللَّهُ بِهِ مُشْرِكِي قَرِيْشٍ فِي يَوْمِ بَدْرٍ . وَيَعْبُرُ جَرِيرًا بِمَا يَأْخُذُ مِنْ هَذَا قَيْسٍ ، وَيَعْتَذِرُ عَنْ حَادِثِ نُبُوِّ السَّيْفِ فِي يَدِهِ مِمَّا سَنَعَرَضَ لَهُ عَمَّا قَلِيلٍ . وَيَفْتَخِرُ عَلَى صَاحِبِهِ فَخْرًا عَارِمًا بِتَمِيمٍ وَأَيَّامَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَجَادَهَا الْعَرِيقَةُ فِي الْحُرُوبِ ، وَيَهْجُو عَشِيرَتَهُ بِرَعِيَّهَا الْحَمِيرِ ، وَمَنْ ثُمَّ يَسْمِيهِ ابْنَ الْمَرَاغَةِ (الْأَنَانَ) فَهُمْ لَيْسُوا فَرَسَانًا وَلَا أَهْلَ خَيْلٍ وَحُرُوبٍ ، وَيَقُولُ :

فِيَا عَجَبًا حَتَّى كَلَيْبٌ تَسْبِيْ وَكَانَتْ كَلَيْبٌ مَدْرَجًا لِلشَّتَائِمِ
وَدَائِمًا يَصِفُ كَلَيْبٌ بِاللُّؤْمِ وَالْذَّنَاءَةِ ، وَيُفْخَشُ فِي النَّيْلِ مِنْ نِسَائِهَا وَمِنْ أُمِّ
جَرِيرٍ خَاصَّةٍ ، وَلَا يَتْرَكُ مَذْمُومَةً إِلَّا وَيَلْفَحُ بِهَا جَرِيرًا وَعَشِيرَتَهُ ، وَفِيهَا يَقُولُ مِنْ
نَقِيضَةٍ أُخْرَى :

وَلَوْ تُرْمَى بِلُؤْمٍ بَنَى كَلَيْبٌ نَجُومُ اللَّيْلِ مَا وَضَحَتْ لَسَارِ
وَلَوْ يُرْمَى بِلُؤْمِهِمْ نَهَارٌ لِلنَّاسِ لَوْهُمْمْ وَضَحَ النَّهَارِ
وَمَا يَغْدُو عَزِيزُ بَنَى كَلَيْبٍ لِيَطْلُبَ حَاجَةً إِلَّا بِجَارِ
وَوَقَفَ جَرِيرٌ فِي الصَّفِّ الْمَقَابِلِ يَرُدُّ عَلَيْهِ نَقِيضَتَهُ الَّتِي لَحَصَنَاهَا آتَفًا ،
فَقَضَى بَعْدَ غَزَاهَا بِتَحَدُّثٍ عَنِ الْفَرَزْدَقِ وَفَسَقَهُ الَّذِي اشْتَهَرَ بِهِ ، يَقُولُ :

لَقَدْ وَلَدْتُ أُمَّ الْفَرَزْدَقِ فَاجْعَا وَجَاعَتِ بَوْرُؤَاذٍ قَصْمِيرِ الْقَوَائِمِ^(٢)
وَمَا كَانَ جَارٌ لِلْفَرَزْدَقِ مُسَلِّمٌ لِيَأْمَنَ قَرْدًا لَيْلَهُ غَيْرِ نَائِمِ
أَتَيْتَ حُدُودَ اللَّهِ مَدَّ أَنْتَ يَا فَعُ وَشَبَّتَ فَمَا يَنْهَاكَ شَيْبُ الْهَازِمِ^(٣)
تَسْبَعُ فِي الْمَآخُورِ كُلِّ مَرْبِيَّةٍ وَلَسْتَ بِأَهْلِ الْمُحَصَّنَاتِ الْكَرَائِمِ^(٤)

(١) المهدي هنا سليمان بن عبد الملك ، لقبه

بالمهدي كما يلقب الشيعة أئمتهم .

(٢) الوزواز : الخفيف ، كناية عن قصوره .

(٣) الهازم : أصول اللحية .

(٤) المحصنات : السفيفات .

ومضى يَصِمُّهُ بأخته جِعْثَيْن . وكانت سيدة طاهرة ، ولكنه المهجاء . كما وصمه بأنه قَيْن ابن قَيْن : فهو ليس شريف الأصل كما يزعم . وكان بلحده قيون ، فرمى جَدَّتَهُ بهم ، كي يغيظه ويُسْحَنَفْظَه . ودائماً يردد له جرير ذلك كما يردد قذفه في أخته ، وأيضاً فإنه كان يردد كما في هذه النقيضة أن مجاشعاً لم تحفظ للزبير حق جواره ، ولو أنه كان جاراً لقيس أو ليربوع لحفظا له جواره ، كل ذلك ليضرب من حواله نطاقاً من الذل . وكان الذي قَتَلَ قَتِيبة بن مسلم الباهلي وكيعُ بن أبي سُود اليربوعي : فهو ليس مجاشعياً ؛ إنما هو من قوم جرير ، ومن ثَمَّ يقول له :

فَغَيْرُكَ أَدَى لِلْخَلِيفَةِ عَهْدُهُ وَغَيْرُكَ جَلَى عَنْ وَجْهِ الْأَهَاتِمِ^(١)
فَإِنْ وَكَيْعاً حِينَ خَارَتْ مَجَاشِعُ كَفَى شَعْبَ صَدْعِ الْفَتْنَةِ الْمُتَفَاقِمِ
لَقَدْ كُنْتُ فِيهَا يَا فَرَزْدَقُ تَابِعَا وَرِيْشُ الذَّنَابِي تَابِعُ لِلْقَوَادِمِ^(٢)

وبذلك استلَّ منه الفخر بحادثة وكيع . وجعلها لقومه اليربوعيين ، لا لمجاشع وشاعرها الفرزدق . وأخذ يفخر بباهلة قبيلة قَتَيْبَةَ القيسية وأيامها في الجاهلية . وعمَّم الفخر بقيس وأيامها ضد تغلب في الجزيرة . وغير تغلب بمسيحيها وما تدفع من خراج لخليفة المسلمين ، وكان عمر قبيلَ منها أن تدفع صدقة كالعرب لاجزية ، ولكن جريراً يأبى إلا أن يسمى ما تدفعه جزية . ثلثاً وتغييراً . ويعود إلى أيام قيس في الجاهلية ، يعددها . ويعدد ما لها من انتصارات على تميم وخاصة على دارم .

وتصادف أن كان جرير والفرزدق يصحبان سليمان بن عبد الملك في أثناء حِجَّةَ له . وجاءوه بأسرى من الروم . فأمر بحَزِّ حِلَاقِمِهِمْ : وَأُعْطِيَ لِبَعْضِ مِنْ صَحْبِهِ أَسْيَافٌ يَضْرِبُونَ بِهَا رُءُوسَ هَؤُلَاءِ الرُّومِ . وعرف بعض القيسيين أن سيِّطُلِبَ إلى الفرزدق أن يضرب أحدهم ، فدَسَّوْا له سيفاً كايلاً لا يقطع . فلما ضرب به لم يصنع شيئاً في الروم . وانتهزها جرير ، فكان يكرر له هذا

(١) الأهاتم : من أشراف تميم
(٢) القوادم : الريشات الطويلة في مقدمة
جناح الطائر ، والذنابي ما خلفها من ريشات
قصيرة .

الحادث ليضحك أهل المربد عليه، بما يصور من خوره وجبته، ومن ثم يقول له الفرزدق في تقيضته السالفة :

فهل ضربة الرومي جاعلة لكم أبا عن كليب أو أبا مثل دارم
ونرى جريرا يرد عليه بمثل قوله :

بسيف أبي رعوآن سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم^(١)
ضربت به عند الإمام فأرعشت يداك وقالوا مُحدث غير صارم
ضربت به عرقوب ذاب بصوَار^(٢) ولا تضربون البيض تحت الغماغم^(٣)
عنيف بهز السيف قين مجاشع رفيق بأخرات الفتوس الكرازم^(٤)

وكان الفرزدق كثير الافتخار بيوم صوعر، وهو يوم نحر فيه أبوه غالب للناس مائة بعير وقيل أربعمائة، فجعل له جرير هذه المكرمة بعار الجبن، فأبوه وهو إنما يضربان، بمثل هذا السيف الذي نبا في يده، عراقيب الإبل لا صدور الفرسان. ويقول له إنك قين لا تحسن الضرب بالسيف، بل تفرع وتملع حين تمسك به، إنما تحسن الإمساك بالفتوس فهي صناعتك.

وواضح أن جريراً لم يقف بنو السيف في يد الفرزدق ووصفه بأنه قين ابن قين عند حد الثلب، بل لقد تحول بهما إلى عنصرين من عناصر الإضحاك على الفرزدق. واستخرج من الوصف الأخير أبياتاً مضحكة كثيرة تدل أبلغ الدلالة على ما أصاب العقل العربي عند جرير من قدرة على التوليد في المعاني، كما نرى في مثل قوله :

إذا آباؤنا وأبوك عُدوا أبان المَقْرِفات من العراب^(٥)
فأورثك العلالة وأورثونا رباط الخيل أفنية القباب^(٥)

(٣) أخرات : جمع خرت وهو الثقب في أعلى الفأس. الكرازم : الفتوس ضخمة الزروس.
(٤) المقرفات : الهجينات التي لا يخلص نسبها. العراب : الأصيلات في المروبة.
(٥) العلالة : سندان الحداد.

(١) ابن ظالم : هو الحارث بن ظالم المري أحد فرسان قيس في الجاهلية.
(٢) الناب : الناقة المستنة. البيض : خوذ المحاربين. الغماغم : أصوات الجيوش، جمع غمغم.

وقوله :

هو القَيْنُ وابن القين لا قينَ مثله لَفَطَحِ المساحيْ أو لَجَدَلِ الأَداهِمِ^(١)

وقوله :

ورَقَّعَ لَجَسَدَكَ أَكْيَاسَهُ وَأَصْلَحَ مَتَاعَكَ لَا تُفْسِدِ
وَأَدْنِ الْعَلَاةِ وَأَدْنِ الْقَدُومِ وَوَسَّعَ لَكَبِيرِكَ فِي الْمَقْعَدِ

وكان جرير يعرف كيف يستخرج من كل شيء هذا العنصر من عناصر الإضحاك ، وقد غاظه من الفرزدق انضمامه إلى الأخطل النصراني ضده ، فأخذ يُضْحِكُ عليه سامعيه في المربد بمثل قوله :

وإنك لو تعطى الفرزدق درهمًا على دين نصرانيَّةٍ لتَنَصَّرَا
وقوله :

يحبُّك يوم عيدهمُ النَّصارى ويومَ السَّبْتِ شِيعَتُ الْيَهُودِ

ولعل في هذا ما يدل أكبر الدلالة على أن التناقض عند الشاعرين الكبيرين : جرير والفرزدق إنما كان يُقْصَدُ بها قبل كل شيء إلى تسليمة الجماعة العاطلة التي تكونت في المدينتين الكبيرتين : البصرة والكوفة . وقد بدأت بأسباب قبلية ، ولكنها تطورت إلى مناظرة يُرَادُ بها ملء أوقات العاطلين ، وهي مناظرة كانت تقاطع بالتهليل والتصفيق . ومن ثم لم تأخذ شكلا جادا من أشكال الهجاء المعروفة عند العرب . ولو أنها أخذت شكلا من هذه الأشكال لشهرت معها السيوف ، وخاصة حين يأخذ جرير والفرزدق في قذف نساء العشائر والأمهات والأخوات . إنها لم تعد هجاء بالمعنى القديم . بل أصبحت فنًّا يُقْصَدُ به إلى إمتاع الناس في البصرة وقطع أوقات فراغهم . ولذلك كان الخلفاء والولاة يستقدمون شاعريها المبرزين . ليتناشدا أمامهم ابتغاء اللهو والتسلية^(٢) . وكل الأخبار تؤكد أن جريرا والفرزدق كانا متصافيين متواديين لا متخاصمين متباغضين ، فهما يجتمعان

(١) فطح المساحي : تسويتها وتعريفها وهو القيد .

الجدل أيضاً : التسوية . الأدهم : جمع أدهم ، (٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٧٦ ، ٣٧ / ٨ .

عند الخلفاء والولاة ، وهما يرحلان إلى دمشق سوياً ، وإذا نزلت بأحدهما شدة
أو حُرْبُهُ أمر وقف الآخر معه يمدُّ له يَدَ العون ، فإذا طلب جرير الحرب الأزارقة
تشقَّع له الفرزدق ^(١١) ، وإذا هجا الفرزدق خالدا القسريَّ وحبيه تشقَّع له
جرير عنده ^(١٢) ، وما يزال به يستعطفه ويسترحمه ، لعله يلين له قلبه
ويطلقه ^(١٣) . ونراه حين يُلْسِي القدر قبله يرثيه رثاء حاراً بمثل قوله :

ولا حملتُ بعد الفرزدق حُرَّةً ولا ذاتُ حملي من نِفايسٍ تعلَّتْ ^(١٤)
هو الوافد المحبُّ والرائق الثَّأى إذا التَّعلُّ يوماً بالعشيرة زلَّتْ ^(١٥)

فلم تكن المسألة مسألة هجاء حادٍّ إنما كانت مسألة مناظرة غنية بالشعر في
عصبيات القبائل والعشائر ، على نحو ما كان يتناظر في عصرنا أصحاب الصحافة
الجزية في آرائهم السياسية مدافعين مهاجمين ، وتظل لهم في أثناء ذلك صداقتهم .
وواضح مما قلنا أن نقائض جرير والفرزدق نشأت تلبية لحاجة أهل البصرة
إلى ما يستفراغهم ويشغل أوقاتهم ، ولم يلبث الشاعران أن حققا لهم كل ما
كانوا ييغون من ذلك ، إذ تحولوا بفن الهجاء القديم إلى هذه النقائض الجديدة
التي استضاء فيها بقدرة العقل العربي الحديديَّة على الجدل والتوليد في
المعاني . وارجع إلى أي فكرة عندهما كذكورة أن الفرزدق قَيَّن أو فكرة ذل
بني كليب فسرى كلا منهما يعرض الفكرة التي يعف عندها في صور كثيرة ،
إذ ما يزال يولِّد فيها ، وما يزال يستبطن ويفرِّغ ويشعِّب ، وكأنما يريد أن لا يُسقى
فيها بقية . وانظر في أي تقيضة يردُّ بها أحدهما على خصمه ، فستراه يعف بإزاء
كل بيت قاله صاحبه ويردُّ عليه صنَّع المتناظرين من أهل اللِّهَاد والخصومة في
المسائل العقيدية ، فهو يحاول جاهداً أن يطل كل فكرة اعتمد عليها صاحبه
في هجائه وأن ينتفضها نقضاً . ومن ثمَّ كما نرى أن نقائض جرير والفرزدق
فن جديد ، وهي ككل فن يتصف بهذه الصفة ، سبقها مقدمات في العصور

(١) أغاني (سلي) ٢٨/١٩ .

(٤) نعلت : تطهرت .

(٢) أغاني ٤٢/١٩ .

(٥) الثأى : الفساد والضعف . زلت : عثرت .

(٣) الديوان ص ١٧٨ .

السالفة ، ولكنها استوت عند الشاعرين في صورة جديدة ، وهي صورة معقدة ، إذ اعتمدت على دراسة التاريخ القديم والحديث للقبائل ودراسة مفاخرها ومثالبها . كما اعتمدت على استيحاء روح الإسلام وما شاع في العصر من قدرة على الجدل والحوار ، وأخذت تظهر فيها ظاهرة لم تكن شائعة في انجاء القديم ، وهي ظاهرة التندير على المهجو وقبيلته : حتى تُضْحَك المستمعين في المربد ، وحتى تمدهم بما يريدون من التسلية ومن التهليل والصباح والصفير والتصفيق . ومن ثم لم يترك كل من الشاعرين شيئاً يثير الضحك في خصمه إلا أثاره ، كأن يقول الفرزدق في جرير :

يُهِدِي الوعيدَ ولا يحوطُ حريمَهُ كالكلبِ يَنْبَحُ من وراء الدار
أو يقول في كليب عشيرته :

يستيقظون إلى نُهاقِ حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار^(١)
أو يقول :

أتعدل أحساباً لثاماً أدقَّةً بأحسابنا إني إلى الله راجعُ
وكان جرير يلقيه بمثل قوله :

زَعَمَ الفرزدق أن سيقتلُ مِرْبَعاً أبشُرُ بطول سلامةٍ يا مِرْبَعُ
وقوله :

خذوا كُحْلاً ومِجْمَرَةً وعِطْراً فلستم يا فرزدقُ بالرجالِ
وهو يتفوق على الفرزدق في هذا الجانب تفوقاً واضحاً ، ومن ثم كان هجاؤه أكثر مرارة وأشد نكاية .

وساقت الظروفُ الأخطلَ شاعر تغلب ليصطدم بجرير شاعر قيس ومحاميه المناضل عنها . وكان الأخطل — كما قدمنا — يهاجى قيساً في الحروب التي

(١) الأوتار : جمع وتر وهو النّار .

نشبت بينها وبين قبيلته منذ موقعة مَرَج راحط سنة ٦٥ وكان شعراؤها يردُّون عليه ، فُيُنْجِمُهُمْ بِأَهَاجِيهِ الْمَقْدَعَةِ .

وشاءت المقادير أن يلمَّ بالعراق في ولاية بشر بن مروان ، فاصطدم هناك بجريير ، ويقول الرواة إنه أحفظه إذ فضل الفرزدق عليه ^(١) وطبيعي أن يفضل الأخطل الفرزدق وينحاز له ضد شاعر قيس بل يُجْتَلَبُ عليه ، فلم يكن منشأ التفضيل الحكم الفني من حيث هو ، إنما كان منشؤه الخصومة العنيفة بين تغلب وقيس . وسرعان ما استطار الهجاء بين الشاعرين . وإذا هما يَخْلُفَان طائفة كبيرة من النقائض ، جمعها أبو تمام ^(٢) . وقد ظلا ينظمانها منذ سنة ٧٣ إلى أن توفي الأخطل حوالي سنة ٩٢ . وهو يُعَدُّ مع جرير والفرزدق فحول الشعر في هذا العصر . يقول الجاحظ : « والذين هجوا فوضعوا من قدر مَن هجوه ، ومدحوا فرفعوا مَن قدر مَن مدحوا ، وهجاهم قوم فردوا عليهم ، فأفحموهم ، وسكت عنهم بَعَثُ مَن هجاهم مخافة التعرض لهم ، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبةً بأنفسهم عن الرد عليهم ، وهم إسلاميون . جرير والفرزدق والأخطل ^(٣) »

وجميع الظواهر التي لاحظناها في نقائض جرير والفرزدق نجدناها مجسمة في نقائض جرير والأخطل ، فهما جميعاً يُعْنَتِيَان بتاريخ القبائل في الجاهلية والإسلام . وهما يخلطان العصبية بالسياسة . وقد ساقَت الظروف تغلب لتقف في صفوف بني أمية ضد قيس ، على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، كما ساقَت الأخطل التغلبي ليكون شاعر بني أمية منذ عصر معاوية ولسانهم الناطق في الجزيرة والعراق . وربما كانت قصيدة « خَفَّ القطين » للأخطل أروع نقائضه مع جرير ، ونراه يستلمها بالنسيب ووصف حزنه لفراق أحبته ، وهو يُتَّبِعُهُمْ طرفه مولَّها ، حتى يشبَّه نفسه بالسكران المنتشى ، ويصف الخمر وصفاً قصيراً ، وهو موضوع لم يكن جرير ولا الفرزدق يلمَّان به ، لتحريم الإسلام للخمر ، وكان الأخطل نصرانياً ، فانفرد بهذا الموضوع في شعره .

(١) ابن سلام ص ٣٨٧ ، ٤٠٨ وأغاني ٣١٥/٨ ونقائض جرير والفرزدق ص ٨٧١ .
(٢) نشر صالحاني هذه النقائض في بيروت سنة ١٩٢٢ عن مخطوطة في الآستانة ، وقد اشتملت هذه المخطوطة على بعض نقائض الشاعرين ، ومن الممكن أن يستخرج من ديوانيهما نقائض أخرى لها .
(٣) البيان والتبيين ٤/٨٣ .

على أنه لم يُطْطَب فيه هنا ، فقد تركه إلى وصف طُغْء الحبيبة . مستلهماً
 زهيراً في هذا الوصف ومضيفاً إليه تصويراً لأخلاق النساء ، وإقباضاً على الشباب
 وانصرافهن عن الشيوخ . وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فمدحه من حيث
 هو خليفة ، منوهاً بجوده ، ومشبهاً له في هذا الجود بالفرات ، وهي صورة يتأثر
 فيها تأثراً واضحاً بصورة النابغة للنعمان بن المنذر في معلقته . ويمضي فيفصل
 الحديث عن حربه لمصعب بن الزبير ومهارته في قيادة الحيوث والظفر بخصومه .
 ويمدح أسرته الأموية منوهاً بشرفها العريق وأنفها وحمايتها عن الحقوق وبأسها
 وقوة مراسها وحلمها وصلابتها . ويشيد بوقوفه في صفوف بني أمية ونضاله
 أعداءهم ، كما يشيد بنصر قبيلته لهم ، ويحمل على زُفَر بن الحارث زعيم قيس .
 وكان قد دخل في طاعة عبد الملك ، وكأنه يعني أن يحفظه عليه وعلى قبيلته . يقول :

بني أمية إني ناصح لكم فلا يهين فيكم آمنة زُفَر

ويستطرد إلى انتصارات تغلب على قيس في حروبهما بالجزيرة ، ويزعم
 أنه لولا هذه الانتصارات ما دخلت قيس في طاعة بني أمية ! وقد مر بنا أنها
 نكلت بتغلب بعد موقعة الحشاك التي قتل فيها فارسها غير بن الحباب وأن
 زُفَر بايع عبد الملك قبل قدومه بميوشة لحرب مصعب ، لا قهراً من تغلب ، ولكن
 بُعْثَ نظر . ومضى الأخطل بهجو قيسا حتى إذا بلغ من ذلك كل ما يريد انقل
 إلى جرير وعشيرته كليب ، فأفزع في هجائها إقذاعاً شديداً بمثل قوله :

أما كُليبُ بن يربوع فليس لهم	عند التقارط إيراد ولا صَدَرُ ^(١)
مخلفون ويقضي الناس أمرهم	وهم يغيب وفي عمياء ما شعروا ^(٢)
ملطمون بأعقار الحياض فما	ينفك من دارهم فيهم أثر ^(٣)
قوم أنابت إليهم كل مخزبة	وكل فاحشة نسبت بها مَصْر ^(٤)
على العيارات هذاجون قد بلغت	نَجْرَانِ أو حُدَّتْ سَوْدَتُهُمْ هَجْر ^(٥)

لعزها وشرفها .

(١) التقارط : التقدم للاستقاء من الآبار ،

والإيراد : ورود الماء ، والصدر : الصدور عنه .

(٢) يريد أنهم لا يستشارون ولا يعبأ بهم .

(٣) يقول إنهم ملطمون حيث يكونون في

مؤمرات الحياض ، ملطمهم دارم عشيرة الفرزدق

(٤) أنابت : رجعت ونشأت .

(٥) العيارات : جمع عير وهو الحمار .

يهجوا بأنهم أصحاب حمير لا أصحاب خيل .

الهجج : تقارب الخطو .

ويأخذ في هجاء جرير هجاء عنيفاً يُقنّذع فيه إقذاً شديداً. وعلى هذه الشاكلة لا يزال الأخطل في نقائضه لجرير يذمُّ عشيرته. رامياً لها بكل ما يستطيع من نبال الذل والخسّة والدناءة ، وهو يتحدث فيها عن مواقع تغلب مع قيس في الإسلام وما حققت من بعض الانتصارات، وكثيراً ما يضمُّ إلى ذلك فخراً بأيامها في الجاهلية ، كما يضمُّ انتصاراً للفرزدق وعشيرته دارم . حتى يبلغ من جرير كل ما يريد من هجاء مرير .

وكان جرير ينقضُّ عليه كالصّقر الجارح ، فيضع تحت عينه مخازي تغلب وهزائمها في حروبها مع قيس سواء في يوم ما كَسَيْنَ الذي نكّل بها فيه عمير بن الحُباب أو في يوم الكُحَيْل الذي نكل بها فيه زفر بن الحارث أو في يوم البِشْر الذي نكّل بها فيه الجَحَاف السُّلَمِيّ ، ضامّاً إلى ذلك انتصارات قبيلته : يربوع في الجاهلية وملججا في هزائم تغلب قبل الإسلام، مفتخراً عليه افتخاراً عنيفاً بمثل قوله يردُّ عليه نقيضته السالفة :

نحن اجْتَبَيْنَا حِيَاضَ الْمَجْدِ مُتْرَعَةً من حَوْمَةٍ لَمْ يَخَالِطْ صَفْوَهَا كَدْرٌ^(١)
لَمْ يُخْزِرْ أَوْلَ يَرْبُوعٍ فَوَارِسُهُمْ وَلَا يُقَالُ لَهُمْ كَلَا إِذَا افْتَخَرُوا
هَلْ تَعْرِفُونَ بَذَى بَهْدَى فَوَارِسَنَا يَوْمَ الْهُذَيْلِ بِأَيْدِي الْقَوْمِ مُقْتَسَرٌ^(٢)
خَابَتْ بَنُو تَغْلِبٍ إِذْ ضَلَّ فَارِطُهُمْ حَوْضَ الْمَكَارِمِ إِنْ الْمَجْدُ مُبْتَدَرٌ^(٣)
الظَّاعِنُونَ عَلَى الْعَمِيَاءِ إِنْ ظَعَنُوا وَالسَّائِلُونَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مَا الْخَبِيرُ^(٤)
الْأَكْلُونَ خَبِيثَ الزَّادِ وَحَدَّهُمْ وَالنَّاسِزُونَ إِذَا وَارَاهُمُ الْخَمِيرُ^(٥)
إِنِّي رَأَيْتَكُمْ وَالْحَقُّ مُغْضَبَةٌ تَخْزُونَ أَنْ يُذْكَرَ الْجَحَافُ أَوْ زُفَرٌ
كَانَتْ وَقَائِعُ قَلْنَا لَنْ تُرَى أَبَدًا مِنْ تَغْلِبٍ بَعْدَهَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ
حَتَّى سَمِعْتُ بِخَنْزِيرٍ ضَغَا جَزَعًا مِنْهُمْ فَقُلْتُ أَرَى الْأَمْوَاتَ قَدْ نُشِرُوا^(٦)

(١) الحومة : معطم الماء .

(٢) ذو بهدى : يوم ليربوع على تغلب وفيه

أسرت فارسها الهذيل بن هيرة .

(٣) الفارط : الذي يتقدم قبل الإبل يملأ لها

الحوض .

(٤) يريد أنهم لا يعرفون الأمر إلا تدبراً، فهم

لا يُسألون في شيء وهم يسألون عن أخبار الناس .

(٥) الخمر : الموضع المستتر ، يقول إنهم

ينزلون به فراراً من الضيفان والحقوق التي تلزمهم .

(٦) نشروا : حيوا وبعثوا .

وواضح أنه يردُّ على معانيه معنىً معنىً ، وقد لقيه في البيت الأخير بأنه خنزير إشارة إلى أنه نصراني ، وكان يسقط عليه من هذا الجانب دائماً ، وهو يمضي في نفس هذه النقيضة . فيقول .

رِجْسٌ يَكُونُ إِذَا صَلَّوْا : أَذَانُهُمْ قَرَعُ النُّوَاقِيسِ لَا يَدْرُونَ مَا السُّورُ^(١)
وما لتغلبَ إنْ عَدَّتْ مَسَاعِيَهَا نَجْمٌ يَضِيءُ وَلَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ
الضاحكين إلى الخنزير شهوته يَا قُبْحَتْ تِلْكَ أَفْوَاهَا إِذَا كَشَرُوا^(٢)
والمقرعين على الخنزير ميسرهمُ بئسَ الجُزُورُ وبئسَ القومُ إِذِيسَرُوا^(٣)
جاءَ الرسولُ بدين الحق فانتكثوا وهل يضيرُ رسولَ الله أَن كَفَرُوا

وكان الأخطل إذا سمعه يقول ذلك وشبهه أن يجحّر ، ولم يستطع له جواباً ، ومن ثم كان جرير يقول إنني أُعِنتُ عليه بكفره . وأُعين عليه أيضاً بمهارته في التندير على خصمه ، وما يجمع الجانبين جميعاً قوله في نقيضة ثانية :

قَبَحَ الْإِلَهُ وَجْوهَ تَغْلِبَ كُلَّمَا شَبَحَ الْحَجِيجُ وَكَبَّرُوا إِهْلَالًا^(٤)
عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ وَبَجَبْرَتِيلَ وَكَذَّبُوا بِمِكَالَا
المُعْرَسِينَ إِذَا انْتَشَوْا بِبَنَاتِهِمُ وَالْدَائِبِينَ إِجَارَةً وَسُؤَالًا^(٥)
والتغلبُ إِذَا تُنَبِّحُ لِلْقَرَى حَكَّ أَسْتَه وَتَعَثَّلَ الْأَمْثَالَا^(٦)
ولو أَنَّ تَغْلِبَ جَمَعَتْ أَحْسَابَهَا يَوْمَ التَّفَاضُلِ لَمْ تَزَنْ مِثْقَالَا
نُبِّئْتُ تَغْلِبَ يَنْكَحُونَ رِخَالَهُمُ وَتَرَى نَسَاؤَهُمُ الْحَرَامَ حِلَالَا^(٧)
لَا تَطْلُبْنَ خَوْلَةً فِي تَغْلِبَ فَالزَّنَجُ أَكْرَمُ مِنْهُمْ أَخْوَالَا

(٤) شبح : رفع يديه بالدعاء . الإهلال :

رفع الصوت .

(٥) يقول إنهم بين أجير وسائل .

(٦) تنبج : كانوا ينبجون في الظلام إذا

ضلوا ليرد عليهم كلاب الحى ، فيستهدون بها للقرى وهو الطعام والضياقة .

(٧) الرخال : أولاد الضأن .

(١) يريد سور القرآن الكريم .

(٢) يريد أنهم إذا نظروا إلى الخنزير

ضحكوا شهوة للحمه .

(٣) الميسر : اللعب بالقداح على الجزور

وهو ما يذبحونه من بعير أو ناقة . يقول إنهم نصارى ولذلك ييسرون ويقامرون على

الخنزير .

ويقول في نقيضة ثالثة :

إن الذى حَرَمَ المكارمَ تَغَلَّبَا جعل الخلافة والنبوة فينا
مُضَرُّ أبى وأبو الملوكِ فهل لكم يا خُزَرَ تغلبَ من أبِ كائينا^(١)
هذا ابنُ عمى في دمشق خليفة لو شئتُ ساقكمُ إلى قطينا^(٢)
وما زالاً يتهاجيان حتى حضر الأخطل الموت ، فقليل له ألا توصى ؟
فقال تَوَّأ :

أوصى الفرزدقَ عند المماتِ بِأُمِّ جريرٍ عيارها^(٣)
ولم يكده يسمع بذلك جرير ، حتى نظم فيه هجاء عنيفاً من وزن هذا البيت
وقافيته يقول فيه :

وزار القبورَ أبو مالكٍ فأصبحَ ألامَ زوارها^(٤)
والحق أن جريراً كان يتفوق على خصميه جميعاً في الهجاء، وقد شهد له
الأخطل بذلك ، إذ قال للفرزدق فيما يَروى الرواة : «إن جريراً أُوتى من سير
الشعر ما لم نُؤتِه ، قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحداً قال أهجى منه ، قلت :
قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كَلَبَهُمْ قالوا لأهمهم بُولى على النار
فلم يرووه إلا حكماءُ أهل الشعر ، وقال هو :

والتغلبى إذا تُنَبَّحَ للقصرى حَكَ أَسْتَه وتَمَثَّلَ الأمثالا
فلم تبق سقاةٌ ولا أمثالها إلا رَوَّه^(٥) . ولعل من الخير أن نلجأ بحياة هؤلاء
الشعراء الثلاثة وأشعارهم ، إذ عدَّهم الرواة والنقاد فحول هذا العصر ومبرزيه في
الهجاء والمديح جميعاً .

(١) الخزر : ضيق في مؤخر العين ، يكنى

به جرير عن اللؤم .

(٢) القطين هنا : الخدم والعبيد .

(٣) أعيار : جمع غير وهو الحمار .

(٤) أبو مالك : كنية الأخطل .

(٥) أغاني ٣١٨/٨ .

الأخطل (١)

واضح مما قدمنا أن الأخطل من قبيلة تغلب ، وهي إحدى القبائل العربية الكبيرة التي كانت تكون مجموعة قبائل ربوعة ، وكانت تنزل في الجزيرة ، وتمتدُّ بعض عشائرها جنوباً إلى الحيرة وغرباً إلى الشام ، وشرقاً إلى أذربيجان . وكان لها قديماً حروب مع أختها بكتر جملتي فيها المهلهل . وأخرى مع أمراء كندة وأمراء الحيرة ، وقصة قتْل فارسها وشاعرها عمرو بن كلثوم وعمرو بن هند صاحب الحيرة مشهورة . وقد اعتنق جمهورها في الجاهلية النصرانية على مذهب اليعاقبة ، ولما فتحت الفتوح لجست في أول الأمر مع الفرس والروم ، وسرعان ما اضطرت إلى الدخول في طاعة الخلافة الإسلامية لعهد عمر بن الخطاب ، واستغاثت به أن يضع عنها الجزية ، فوضعها عنها ، وقبيل منها أن تؤدّي الصدقة أسوةً ببقية العرب . ودخلت طائفة منها في الإسلام ، ولكن كثرتها ظلت نصرانية . ونرى فريقاً منها يُعين معاوية في حروبه مع علي بصيفيين ، ويلمع من بينهم اسم كعب بن جُعَيْل ، وهو شاعر مجيد ، اعتنق الإسلام ، وكان أحد الألسنة في جيش معاوية على خصومه (٢) :

وقد مضت تغلب بعد صيفيين تسخطب في جبل الأمويين ، من سفيانيين ومروانيين ، فإن قبائل قيسية كما قدمنا نزلت إلى منازلها مع الفتوح وزاحمتها في

أشعاره نقائض جرير والأخطل وديوانه نشر صالحاني .

(٢) انظر في أشعار كعب بصيفيين واقعة صيفين لنصر بن مزاحم ص ٥٦ وفي مواضع متفرقة . وانظر في ترجمة كعب ابن سلام ص ٤٥٨ وما بعدها وفي مواضع مختلفة (انظر الفهرس) والشعر والشعراء ٣١/٢ ومعجم الشعراء ص ٢٣٣ والخزانة ٤٧/١ وراجع فهرس الطبري والأغاني .

(١) انظر في ترجمة الأخطل أغاني (دار الكتب) ٢٨٠/٨ وكذلك في ترجمة جرير ٣/٨ وما بعدها وفي خبر الجحاف ويوم البشر ١٩٨/١٢ وما بعدها ، وراجع الشعر والشعراء ٤٥٥/١ وابن سلام ص ٣٨٦ وما بعدها وفي مواضع متفرقة وخزانة الأدب ٢٢٠/١ والموشح ص ١٣٢ والاشتقاق ص ٣٣٨ وكتاب الأب لامانس: Le Chantre des Omiades والأخطل شاعر بني أمية للسيد مصطفى غازي وانظر في

مواردها الاقتصادية ، ولم تلبث بعد وفاة يزيد بن معاوية أن بايعت ابن الزبير فاصطدمت مصالح الطرفين الاقتصادية والسياسية . ولم تكد تتقدم بهما الأيام في أثناء فتنة ابن الزبير ، حتى سَلَّ سَيُوفُهُمَا ، واحتدمت المواقع بينهما ، إلى أن دخلت قيس في طاعة عبد الملك وتكافأت القبيلتان عن المغازى في الجزيرة .

وفي هذه القبيلة وفي فرع منها يسمى جُسَّـم بن بكر وفي عشيرة من هذا الفرع تسمى بنى الفَدَّـوْ كَس وُلِدَ الأَخْطَلُ في بادية الحيرة حوالي سنة ٢٠ للهجرة . وكانت أمه مثل أبيه نصرانية ، وهي من قبيلة إِيَاد ، ومن ثَمَّ نشأ نصرانياً ، وظل حياته على دينه ، فلم يدخل في الإسلام . وفي أخباره أنه كان يُكثِرُ الشَّجَارَ في صباه مع زوج أبيه فلقبته دَوْبِلَا ، والدوبل الحمار الصغير . وتزوج أبيه بامرأة غير أمه مخالفاً بذلك العقيدة المسيحية يدل على أن نصرانيته كانت رقيقة ، وكذلك كانت نصرانية ابنه ، فإننا نراه يطلق زوجته ، ويتزوج بأخرى ، كما نراه يتردد على دور القيان . وقد استيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، واقرن بها سَفْسَفَةً شديدة ، فكان يُكثِرُ من هجاء الناس ، ولذلك لقبوه أو لقبه شاعر عشيرته كعب بن جُعَيْلٍ الأَخْطَلِ ومعناه السفيف . أما اسمه فغياث ، وكان يكنى بأبي مالك وهو أكبر أبنائه .

ويحاول الاتصال بمعاوية وابنه يزيد ، لينال جوائزهما وتواتيه الفرصة ، فإن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كان يهاجى عبد الرحمن بن الحكم الأموي ويتعرَّضُ لنساء بني أمية . وكان ممن تعرض لهن رملة بنت معاوية إذ تغزل بها غزلاً مفتحاً ، وبذلك كان أول من اتخذ الغزل سلاحاً للهجاء السياسي ، ومعروف أن الأنصار كانوا مغاضبين لبني أمية منذ وقوفهم مع علي في صفين . وحاول يزيد بن معاوية نفسه أن يردَّ عليه ، فاستعلاه ابن حسان ، فقال يزيد لكعب بن جُعَيْلٍ : أَجِبْنِي عَنِّي وَأَنْهَجْنِي ، فقال : « أَرَادَتِي أَنْتَ إِلَى الْإِسْرَاقِ بعد الإيمان ، لا أهجو قوماً نصرُوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ولكني أدلك على غلام منا نصراني ، كأن لسانه لسان ثَوْرٍ ، يعنى الأَخْطَلُ » . فأرسل إليه يزيد ، فقدم عليه ، فقال له : اهجهم ، فقال له كيف أصنع بمكانهم وسابقتهم

في الإسلام ؟ أخافهم على نفسى ، فقال يزيد : لك ذمة أمير المؤمنين وذمتى ،
فنظم في هجائهم قصيدته التى يقول فيها :

ذهبت قريش بالمكانم والعُلا واللُّؤم تحت عمائم الأنصارِ

وغضب النعمان بن بشير الأنصارى ، وكان ممن صحبوا معاوية فى حروبه
ضد على وولاءه الولايات وأكرمه ، فجاء إليه يشكو له هجاء الأخطل لقومه ،
فقال ما حاجتك؟ قال لسانه ، فقال معاوية ذلك لك . وعلم الأخطل ، فاستغاث
بيزيد ، فدخل على أبيه ، وقال له : إني جعلتُ له ذمتك وذمتى ، إذ ردّ عني ،
فقال معاوية للنعمان : لا سبيل إلى ذمة يزيد . وردّ النعمان على الأخطل
— كما أسلفنا — ولكن الهجاء لم يستطر بينهما ، وكأن الأخطل انسحب
من المعركة سريعاً خوفاً على نفسه . ومنذ هذا التاريخ يصبح الأخطل شاعر بني
أمية ، فهو يعيش لهم يمدحهم ، وهم يُغذقون عليه . وليس فى ديوانه مديح
لمعاوية ، ويظهر أن مديحه له سقط من الديوان ، فإن المرتضى فى أماليه روى
له فيه هذين البيتين ^(١) :

إذا متّ مات العزّ وانقطع الغنى فلم يبق إلا من قليلٍ مصرّد ^(٢)
ورُدّت أكفُّ الراغبين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلفٍ مجدّد ^(٣)

وفى ديوانه مدائح مختلفة ليزيد وأخيه عبد الله ولابنه خالد ، ونحسّ فى قصائده
الأولين ضرباً من الدعوة السياسية لبني أمية ، إذ لا ينسى أن ينوّه بانتصار معاوية
فى صفّين وأن الله اختار بيتهم للخلافة ، على شاكلة قوله :

تمّت جدودهم والله فضلهم وجَدّ قوم سواهم خاملٌ نَكِدُ
ويوم صفّين والأبصارُ خاشعةٌ أمدّهم — إذ دعوا من ربهم — مَدَدُ
وأنتم أهلُ بيتٍ لا يوازنهم بيئتٌ إذا عُدّتِ الأحسابُ والعُدَدُ

(١) أمالى المرتضى (طبعة الحلبي) ٢٤/٢ . (٢) الخلف : واحد أخلاف الناقة ، ويقال
تجددت أخلافها إذا ذهب لبنها . (٣) مصرّد : مقلل .

ويظهر أنه لم يكن يقيم بدمشق طويلاً ، فقد كان يفد عليها وفوداً ، وسرعان ما يعود إلى منازل قومه في الجزيرة ، يدلُّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجده في الفترة التي احتدمت فيها المعارك بين تغلب وقيس واقفاً في صفوف قومه يناضل عنهم الراعي وابن الصَّفَّار المحاربي وابن الصَّعق وغيرهم من شعراء قيس . ومراً بنا أن القبائل اليمنية في الشام وعلى رأسها كلب بايعت مروان بن الحكم . بينما نشزت عليه القبائل القيسية إذ كان هواها مع ابن الزبير ، وسرعان ما اصطدم الطرفان في موقعة مَرَجٍ راهط . وانتصرت كلب وأخواتها انتصاراً حاسماً . وكانت تغلب قد أعانتها في تلك الموقعة ، ومضت تعلن ولاءها لمروان ثم لابنه عبد الملك ، وأخذت تتحرش بها قيس في الجزيرة ، فنشبت بينهما سلسلة معارك حَسَمِيَّ فيها وطيس الحرب ، وأُشْرِعت فيها ألسنة الشعراء على نحو ما أشرعت ألسنة الشجعان ، وكان الأخطل أهم لسان أُشْرِع في تغلب على نحو ما أسلفنا في الحديث عن نقائضه .

وما زال عبد الملك يستنزل زُفَرَ بن الحارث وغيره من زعماء قيس ، ليأمن طريقه إلى مصعب بن الزبير . ويُدْعَون ويدخلون في طاعته ، فتهدأ الحروب الناشبة بين قيس وتغلب ، وتمر بهما فترة سلام . ويعود عبد الملك إلى دمشق مظفراً ، ويحاول في سنة ٧٣ أن يصلح بين الفئتين ، فيستقدم زعماءهما إلى دمشق ويختصمون عنده ، ويلمع اسم الأخطل في هذا الاختصام ، إذ يدخل على عبد الملك بن مروان وعنده الجَحَافُ السُّلَمِيَّ ، فينشد :

ألا سائل الجحاف هل هو ثائرٌ بقتلى أصيبت من سُلَيْمٍ وعامرٍ
أجحاف إن نهبط عليك فتلتقي عليك بحور طاميات الزواجر

ووثب الجحاف يَجْرُ مُطَرِّفَهُ غضباً ، وذهب تَوّاً إلى قومه في الجزيرة ، فجمع فرسانهم وأغار بهم على تغلب ليلاً فقتل فيها مقتلة عظيمة ، وبَقَرَ من النساء من كانت حاملاً . ومن كانت غير حامل قتلها . وتسمى تلك المعركة معركة «البشر» باسم جبل وقعت بجواره . وقد قتل فيها ابن للأخطل ، ووقع هو نفسه أسيراً ، غير أنه ضلَّك من أسروه إذ قال لهم إنه عبد ، فأطلقوه . وهرب

الجحاف بعد تلك الوقعة إلى الروم ، إلى أن سكن غضب عبد الملك وأمنته ، فعاد على أن يؤدّي الحملات عما سفك من دماء . ونرى الأخطل يتصور من هذه الوقعة تضجوراً شديداً ، حتى لنراه يهدد بني أمية بانصراف تغلب عنهم ، إن لم يأخذوا لهم بثأرهم ، يقول :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعةً إلى الله منها المشتكى والمعولُ
فسائلُ بني مروان ما بال ذمةٍ وجبلٍ ضعيفٍ لا يزال يوصلُ
فإلا تغيّرَها قريشُ بملكها يكنُ عن قريشٍ مُسترداً ومزحلُ^(١)

واستطاع عبد الملك أن يرمّ الفتق ويحكم الصلح بين الفئتين . ويعود الأخطل إلى رحابه ويحلّ منه منزلاً علياً ، إذ يصبح شاعره الأثير على الرغم من نصرانيته ، ويقول الرواة إنه كان يستلّ بين يديه « وعليه جبة خزر وحُرُز خزر ، في حنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفض لحيته خمرًا^(٢) »

وعصرُ عبد الملك يُعَدُّ العصر الذهبي للأخطل ، فقد نزل منه منزلة الشاعر الرسمي للدولة ، وآثره على جميع معاصريه من الشعراء ، وأمر من يعلن بين الناس أنه شاعر بني أمية وشاعر أمير المؤمنين ، وفي الأغاني أخبار كثيرة تصور ذلك . ونرى مدائح الأخطل لعبد الملك حينذاك تمتلئ بالفخر بقومه وما قدّموا من خدمات لبني أمية ، كما تمتلئ بالدعوة السياسية للأمويين ، وهي دعوة ينال فيها من خصومهم أمثال الزبيريين ، كما ينال من قيس وشاعريهم جرير ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته « خَفَّ القَطِينُ » التي أسلفنا الحديث عنها ، وقد أضحكم نسجها حتى لتوهج بعض أبياتها توهجاً على مثال قوله في الأمويين :

حُشدٌ على الحق عَيَافو الخنا أنفُ إذا أَلَمَّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
وإن تدجّت على الآفاق مظلمةٌ كان لهم مخرجٌ منها ومُعْتَصِرُ^(٣)

(١) بملكها : بقدرتها . مسترد : مرعى .
(٢) أغاني (دار الكتب) ٢٩٩/٨ .
(٣) تدجّت : أظلمت . معتصر : ملجأ .
مزحل : من زحل إذا زال عنه وتنهى .

أَعْطَاهُمُ اللَّهُ جَدًّا يُنْصَرُونَ بِهِ لَا جَدًّا إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدُ مُحْتَقَرٌ^(١)
 شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسَ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا^(٢)
 وَالْأَخْطَلُ فِي مَدِيحِهِ لَا يَقِلُّ بَرَاعَةً وَمَهَارَةً عَنِ الْفَرَزْدَقِ وَجَرِيرٍ ، بَلْ لَاشْكُ
 فِي أَنَّهُ يَتَقَدَّمُ أَوْلَمَّا إِذْ كَانَتْ نَفْسُهُ صَلْبَةً ، وَكَانَ يَعْتَزُّ بِآبَائِهِ اعْتِزَّازًا شَدِيدًا ،
 فَلَمْ يَبْرَعْ فِي الْمَدِيحِ ، إِنَّمَا بَرَعَ فِي الْفَخْرِ . أَمَّا جَرِيرٌ فَكَانَتْ نَفْسُهُ لَيِّنَةً ،
 وَمِنْ ثَمَّ يُعَدُّ هُوَ وَالْأَخْطَلُ فِي الْمَدِيحِ فَرَسِي رَهَانَ . وَإِنْ كُنَّا نَلَاخِظُ فِي الْوَقْتِ
 نَفْسَهُ أَنْ مَدَائِحَ جَرِيرٍ أَكْثَرُ عَذُوبَةً ، إِذْ كَانَ يَنْفُوقُ عَلَى خَصْمِيهِ جَمِيعًا فِي
 حُلَاوَةِ الْأَلْفَاظِ وَجَمَالِ النِّخَمِ وَرَشَاقَةِ اللَّفْظِ وَنَعُومَتِهِ . أَمَّا الْأَخْطَلُ فَيَمْتَنِزُ
 بِرِصَانَةِ الْأَلْفَاظِ وَفَخَائِصِهَا وَجِزَالَتِهَا ، وَمَدَائِحِهِ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ تُعَدُّ دَرَرَهُ الشَّعْرِيَّةُ ،
 وَهُوَ فِيهَا يَكْثُرُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ لِأَمْتِهِ عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ :

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ بِأَبْيَضٍ لَا عَارِيَ الْخِيَانِ وَلَا جَدْبٍ
 وَلَكِنْ رَأَى اللَّهُ مَوْضِعَ حَقِّهَا عَلَى رِغْمِ أَعْدَائِهِ وَصَدَادَةِ كُذْبِ^(٣)
 وَنَرَاهُ يُلِمُّ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ بِالْكَوْفَةِ وَالْبَصْرَةِ كَثِيرًا يَمْدَحُ وَلَا تَهْمَا
 وَأَجْوَادَهُمَا مِنْ مِثْلِ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَسِيدِ الْأَمْوِي ، وَبِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ
 وَالْحِجَاجِ ، وَسَمَّاكَ الْأَسَدِيِّ ، وَهُوَ مِنْ أَجْوَادِ الْكَوْفَةِ . وَنَرَاهُ يَنْوُوهُ بِمَصْقَلَةِ بْنِ هُبَيْرَةَ
 الشَّيْبَانِي أَحَدِ قَوَادِ طَبَرِسْتَانَ ، كَمَا يَنْوُوهُ بِعُكْرَمَةَ بْنِ رَبِيعِ الْفَيَاضِ وَجُودِهِ الْغَمَمَرِ ،
 وَمِنْ قَوْلِهِ فِيهِ :

إِنْ ابْنُ رَبِيعٍ كَفَانِي سَيْبُهُ ضِغْنُ الْعَدُوِّ وَعِذْرَةُ الْمُخْتَالِ^(٤)
 وَإِذَا عَدَلْتَ بِهِ رَجَالًا لَمْ تَجِدْ فَيَضُ الْفَرَاتِ كَرَّاشِحَ الْأَوْشَالِ^(٥)
 وَمِنْ نَوْهِ بِهِمْ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ السَّبْجَلِيُّ وَجِدَارُ بْنُ عَتَّابِ التَّغْلِبِيِّ وَهَامُ بْنُ
 مَطْرَفٍ .

(٤) السَّيْبُ : الْعِطَاءُ . الْعِذْرَةُ : الْإِعْتِذَارُ ،

يُشِيرُ إِلَى مَنْ يَسْأَلُهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ .

(٥) عَدَلْتُ : وَزَنْتُ . الْأَوْشَالُ : جَمْعُ وَشَلٍ

وَهُوَ الْمَاءُ الْقَلِيلُ . وَالرَّاشِحُ : الَّذِي يَسِيلُ فِي قَلَّةٍ .

(١) الْجَدُّ : الْخَطُّ .

(٢) شَمْسُ : جَمْعُ شَمْسٍ وَهُوَ الْعَسِيرُ فِي

عِدَاوَتِهِ . اسْتِقَادَ لَهُ : أَعْطَاهُ مَقَادَتَهُ وَذِمَامَهُ ،

فَخَضَعَ وَذَلَّ .

(٣) كَذَبٌ : جَمْعُ كَذُوبٍ .

وتُطَوَّى صفحة حياته الزاهية إذ يتوفى عبد الملك، ويخلفه ابنه الوليد، فيأفل نجمه، إذ يُقَصِّيه عنه، ويقرب منه شاعراً شامياً مسلماً هو عدى بن الرِّقَاع العاملي، وبذلك انزوى الأخطل، ولم يعد له كبير شأن. وقد مدح الوليد، ومدائح فيه فاترة.

وعلى نحو ما كان الأخطل يجيد المديح كان يجيد نعت الخمر ودنانها وتذامها، ويطلق المديح في عتقها والسرور بشرها، يقول:

صهباء قد كلفت من طول ما حُبِسْتُ في مخدع بين جنات وأنهار^(١)
عذراء لم يَجْتَلِ الخطَّابُ بهجتها حتى اجتلاها عبادي بدينار^(٢)
واقراً له القصيدة الأولى في ديوانه، فستراه يصور فيها زقاق الخمر تصويراً بديعاً، إذ يقول،

أناخوا فجزوا شاصيات كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا^(٣)
ويصف تمشيتها في دمه وجسمه وعظامه، فيقول:

تدب ديبسا في العظام كأنه ديبب نيمال في نقا يتهيل^(٤)
ويترسم صورة المنتشى بها نسوة تفقده حسه ووعيه، على هذا النحو:
صريع مُدام يرفع الشرب رأسه ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل
نهاديه أحيانا وحيثما نجره وما كاد إلا بالحشاشة يعقل^(٥)
إذا رفعوا صدرا تحامل صدره وآخر مما نال منها مخبل
وكان الأخطل شغوفاً بالخمر شغفاً شديداً، حتى لراه يذكر في حديث له مع عبد الملك أنها هي التي تمنعه من إعلان إسلامه^(٦). وفي أخباره وأشعاره ما يدل على انصياعه لدينه أحيانا، فقله كان يتمسح بالقساوسة تبركاً، وكانوا إذا أنزلوا به عقاباً خضع لهم واستكان. ونراه يذكر الصليب في ديوانه كما يذكر قدس قبيلته مار سرجيس، ويُنقِّس بالمسيح والرهبان. وقد ظل يهاجى جريراً إلى أن توفي سنة اثنتين وتسعين للهجرة.

- (١) الصهباء: الخمر. كلفت: تغير لونها.
(٢) عذراء: لم تفص. العبادي: نسبة.
(٣) الشاصيات: المثلثة.
(٤) النقا: الكتيب من الرمل.
(٥) نهاده: نسوقه. الحشاشة: بقية النفس.
(٦) أغاني (دار الكتب) ٢٩٠/٨.

إن قوم في الحيرة كانوا يتجرون في الخمر، وهم نصارى، سمو العباد.

الفرزدق^(١)

شاعر تميمي ، وكانت تميم تنزل في الجاهلية بشرق الجزيرة ، وتمتد عشائرها ويطونها من اليمامة إلى شواطئ الفرات ، وتتغلغل في نجد . مما جعلها تصطدم بالقبائل النخبية والمضربة والربيعة في أيام كثيرة ، كما اصطدمت بالحيرة وملوكها المناذرة . وتعدّ أكبر القبائل المضربة ، وهي في حقيقتها مجموعة من القبائل ، تنتسب إلى أب واحد . وعلى نحو ما كانت تصطدم بجيرانها كانت تصطدم قبائلها بعضها ببعض ، ومن أشهر هذه القبائل دارم ويزربوع ومازن ومنقر وبنو الحسيم وبنو أنف الناقة . ويُفيض كتاب شرح نقائض جرير والفرزدق في الحديث عن أيامها وحروبها القديمة ، ومن أهمها «أؤارة» بين دارم وعمرو بن المنذر ملك الحيرة و«الرَّحْرَحان» بين دارم وعامر و«ذو نجب» بين يزربوع وعامر و«النَّجَّاج» بين منقر وبكر و«إراب» بين يزربوع وتغلب و«جسيلة» بين تميم ومعها ذبيان ، وعامر ومعها عبس و«طَخْخفة» بين دارم ويزربوع . وكانت وثنية إلا نفرًا قليلًا تنصروا ، وهم يسمّون في الحيرة بالعباديين . ومن أشهر شعرائها الجاهليين أوس بن حنجر وسلامة بن جندل وعلقمة الفحل وعدي بن زيد العبادي ، ومن شعرائها في صدر الإسلام عبدة بن الطبيب ومتمم

ص ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٢٨٣ ، ٣٠٦ والمبرد
ص ٦٩ وما بعدها ، ١٢٨ ، ٢٠٨ ، ٢٨٨ ،
٢٩٢ والأماي ٥٣/٣ وكذلك الاستيعاب لابن
عبد البر ص ٤٦٩ ومعجم الشعراء للمرزباني
ص ٤٦٥ والاشتقاق ص ٢٣٩ وما بعدها . وقد
طبع ديوانه طبعا مختلفة ، طبع بوشيه جزءاً
كبيراً منه وأكمله هل . وطبع في مصر وبيروت
طبعا مختلفة ، أهمها طبعة الصاوي . ونشر
بيفن كما قدمنا نقائضه مع جرير بشرح أبي
عبدة ، والديوان والنقائض جميعاً في حاجة
إلى نشرة علمية محققة .

(١) انظر في ترجمة الفرزدق الأغاني (طبع
ساسي) ٢/١٩ وما بعدها وأخبار مع ابن الزبير
وزوجه النوار في أغاني (دار الكتب)
٣٢٤/٩ وما بعدها وراجع فيه الشعر والشعراء
٤٤٣/١ وابن سلام ٢٤٩ وما بعدها والموشح
ص ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت
٢٩٧/١٩ وخزانة الأدب ١٠٥/١ ورملة
الحنان للياقوت ٢٣٨/١ وأما المرتضى
٥٨١ وما بعدها . وله أخبار متفرقة
في الأغاني انظر الفهرس ، وراجع الإصابة
٣٣٠/٥ والطبري ١٨٠/٤ وما بعدها و

ابن نويرة . وقد دخلت في الإسلام بعد فتح مكة ، وكانت من أسرع القبائل إلى الردة ، إذ ظهرت فيها متبينة تسمى سجاح . وتبعها كثيرون ، فجمع لها أبو بكر الجموع بقيادة خالد بن الوليد . وسرعان ما عادت تميم إلى الإسلام ، مستضيئة بنوره ، وشاركت مشاركة ضخمة في فتوح إيران وخراسان . ونجدها بارزة في معارك صفين ، كما نجد فئات كثيرة منها تنضم إلى الخوارج في زمن علي بن أبي طالب ، ثم فيما تلاه من أزمته ، وخاصة في صفوف الأزارقة . وقد مر بنا أنها تحالفت في البصرة مع قيس ضد الأزدي وربيعة ، وظهرت نتيجة هذا الحلف عقب وفاة يزيد بن معاوية ، فقد اصطدمت بالأزد ، وظلتا متنافرتين طول العصر لا في البصرة فحسب ، بل أيضاً في خراسان .

وكانت دارم تشعب شعباً أهمها بنو فُقَيْم وبنو تَهْشَل وبنو مجاشع ، وفي بيت نبيل من بيوت العشيرة الأخيرة ولد الفرزدق وهو لقب لقّب به لجهامة وجهه وغلظه ، فإن الفرزدقة الحُبْرَة الغليظة التي يتخذ منها النساء التفتوت . واسمه هَمَّام ابن غالب بن صَعْصعة بن ناجية بن عِقَال ، وجميعهم في ذروة الشرف والسيادة من دارم . وقد اشتهر جده صعصعة بأنه كان ممن فدّى الموءودات في الجاهلية ونهى عن قتلهن ، ويقال إنه فدّى أربعمائة منهن ، وقيل دون ذلك ، ونوّه الفرزدق في شعره بهذه المكرمة لجده طويلاً ، من مثل قوله :

أَبَى أَحَدُ الْغَيْثِينَ صَعْصَعَةُ الَّذِي مَتَى تُخْلَفُ الْجُوزَاءُ وَالنَّجْمُ يَمْطُرُ
أَجَارِبْنَاتِ الْوَائِدِينَ وَمَنْ يُجَرُّ عَلَى الْقَبْرِ يُعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ مُخْفِرٍ
وكان لصعصعة قيون منهم جُبَيْسِرُ وَقُبَانُ وَدَيْسَمُ ، ومن ثم جعل جرير مجاشعا قيوناً كذباً وبهتاناً . وصعصعة أحد من أتوا النبي صلى الله عليه وسلم في وفد تميم . وعلى نحو ما كان صعصعة عظيم القدر في الجاهلية كان ابنه غالب في الإسلام وأمه ليلي أخت الأقرع بن حابس ، وكان بحراً فياضاً ، ومما يروى من جوده السّيال أن نفراً اختاروه بين طائفة من الأجواد يسألونهم ليعرفوا مدى جودهم ، فما كاد يسمع مسألتهم حتى أعطاهم مائة ناقة دون أن يعرفهم . ويروى أن دارما ويزبوعاً أصابتهما سنة مجدبة ، فعقر لعشيرته ناقة ، وبادر سيد يزبوع سُهَيْم بن وُثَيْل فصنع صنعه ، فنحر عشرا من الإبل ، فنحر سُهَيْم مثله عشرا .

فلما رآه ينافسه نحرَ إبله كلها في مكان يسمى صَوَّعَر ، وقيل لأنها كانت مائة ، وقيل بل كانت أربعمائة . وافتخر الفرزدق بالحادثين كثيراً في شعره . ولم يكن يتلفع بالشرف من قبل أبيه وحده فقد كانت أمه من أسرة شريفة من قبيلة ضبة . وكانت له أخت تسمى جِعْثَن ، وتصادف أن أحد أشرار بني مَنَقَر رآها فضرب بيده على نحرها . فصرخت ومضى ، وقد عيرَ جرير الفرزدق بذلك كثيراً حتى لئراه يرميها بالفحشاء افتراء ، إذ كانت سيدة فاضلة .

وليس بين أيدينا ما يدل على السنة التي وُلد فيها الفرزدق ، وأغلب الظن أنه وُلد حوالي سنة عشرين للهجرة ، ففي أخباره أنه قال « : كنت أهاجي شعراء قومي وأنا غلام في خلافة عثمان » وخلافته امتدت من سنة ثلاث وعشرين إلى خمس وثلاثين للهجرة . وفي أخباره أيضاً أن أباه قدَّمه إلى علي بن أبي طالب بعد موقعة الجمل سنة ٣٦ ، وقال له إن ابني هذا شاعر ، فنصحه أن يعلمه القرآن .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق نشأ في بيت كريم ، مآثره ومفاخره لا تُدْفَعُ ، وكان لذلك أثر عميق في نفسه إذ كان يعتدُّ بآبائه اعتداداً شديداً ، كما كان يعتد بعشيرته وقبيلته ، حتى إنه يُعَدُّ أضخم صوت لتميم في هذا العصر ، وجعله ذلك يتمسك بمآثر أهله وكرمهم المسرف ، فإذا باع إبله نثر أموالها على الناس ، لينتسب فيهم ، وظل يُجير على قبر أبيه غالب ، على نحو ما كان أجداده يُجiron . ولما توفى صديقه بشر بن مروان نحر ناقته على قبره كما كان يصنع الجاهليون . وأخلاقُ الفرزدق من هذه الناحية تتصل بالأخلاق الجاهلية ، وبكل ما ينطوي في هذه الأخلاق من إثم ، فقد عُرف بفسقه وشربه للخمر التي حرَّمها الإسلام ، وأيضاً بكل ما ينطوي في هذه الأخلاق من عصبية وغلظة . وهو من هذه الناحية يمثل البدوى التيمى شديد الشكيمة الذى لا يدين بالطاعة للسلطان ، ولعله من أجل ذلك ظل طويلاً بعيداً عن قصر بني أمية في دمشق ، وكأنه كان يحسُّ أنه من أسرة لا تقل عن أسرة بني أمية شرفاً وسيادة . ونرى هذا الإحساس واضحاً حين ألمَّ عم له يسمى الحُتات بمعاوية مع وفد من تميم ، فقد تصادف أن توفى قبل مغادرة الوفد دمشق ، فأمر معاوية بأخذ ما كان أعطاه من مال ، ولم يكده يسمع بذلك الفرزدق حتى نظم قصيدة في معاوية يقول فيها :

فما بال ميراث الحُثَات أَخَذْتَه وميراثُ حَرْبٍ جامدٌ لك ذائِبَةٌ^(١)
 فلو كان هذا الأمرُ في جاهليَّةٍ علمتَ من المرء القليلُ حلائِبِه^(٢)
 ويقول بعض الرواة إن أول شعر قاله الفرزدق نظمته في ذنبٍ ذهب بكبش
 من غم لأهله ، وهو يستهله بقوله :

تلوم على أن صَبَّحَ الذنبُ ضَانُهَا فَأَلَوَى بكبشٍ وهو في الرِّغَى راتِعٌ
 وهي أبيات جيدة الصياغة . وفي أخباره كما مر بنا ما يدل على أنه نشأ حديد
 اللسان محبا للخصومات ، يهجو من حوله من قومه وغير قومه ، وكان ممن
 هجأهم وأسرف في هجائهم بنو فُتَيْمٍ وذلك أنهم خرجوا يطلبون دماً لهم في قوم ،
 فصالحوا منه على دية ، فقال حين رجعوا :

لقد آبَتْ وفودُ بني فُتَيْمٍ بِآلِهم ما تُؤوبُ به الوفودُ
 ومضى يهجوهم هجاء كثيراً ، فاستغاثوا منه بالأشهب بن رُمَيْلة الشَّهْشَلِي ،
 واستعر الهجاء والتفاخر بينهما ، حينئذ رفعوا أمره إلى زياد بن أبيه . وكان ذلك
 في سنة خمسين للهجرة ، فطلبه ، وخافه الفرزدق ، فهرب منه متجهاً نحو
 البادية ، وأخذ يستجير ببعض شيوخ القبائل ، فأجاره قوم من بكر بن وائل ،
 وأعانوه على الفرار ، فولَّى وجهه نحو المدينة وعليها سعيد بن العاص من قَيْسَلِ
 معاوية ، وكان سيِّداً ممدّحاً ، فأمنته وأجاره ، ومدحه مدائح رائعة من مثل قوله :
 ترى الغُرَّ الجَحَاجِجَ من قريشٍ إذا ما الأمرُ في الحَدَثَانِ غَلا^(٣)
 قياماً ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به هِلاَلا
 وسمعه الخطيئة وهو ينشد سعيداً هذه القصيدة . فقال : هذا والله الشعرُ
 لا ما نعلَلُ به منذ اليوم . وبلغه أن زياداً رَقَّ له وقال : لو أتاني لآمنتُه وأعطيته ،
 فقال في كلمة :

دعاني زيادٌ للعطاء ولم أكنْ لآتيه ، ما ساق ذو حَسَبٍ وَفَرَا^(٤)

(١) حرب : جد معاوية .
 (٢) الحلائب : الجماعات وأبناء العم في القبيلة .
 (٣) الفر : جمع أغر وأصله أبيض الغرة
 ويريد به الشريف . الجحاجج : جمع جحاجج
 (٤) الوفير : المال الكثير . وأراد التأبيد أي
 لا آتيه أبداً .

وهو السيد الكريم . الحدثان : حوادث الدهر
 ونوائبه . وغال : أصاب بشر .

ومضى في المدينة ينفق أيامه ولياليه في اللهو والاختلاف إلى دور القيان ،
وذكر ذلك في شعره بمثل قوله :

إذا شئتُ غنَّائي من العاج قاصفٌ على معصمٍ ريانٍ لم يتخذد^(١)
وقوله :

هما دلتاني من ثمانين قامةً كما انقضَّ بازٍ أقتمُ الريش كاسرهُ

وقد أتاه جرير كثيراً من هذه الثغرة في خلقه وسلوكه . وكان معاوية يجعل
المدينة تارة لسعيد بن العاص وتارة لمروان بن الحكم ، فولى مروان ، وكانت فيه
شدة على أصحاب اللهو ، فترك الفرزدق المدينة إلى مكة ، وفي طريقه إليها
أتاه نعي زياد فتأبى إليه نفسه ، ومضى إلى البصرة ، وهناك وجد ابن عمه
مسكين الدارمي يتفجع على زياد بمثل قوله :

رأيت زيادةً الإسلام ولئتُ جهاراً حين ودَّعها زيادُ
فحنق عليه حقاً شديداً ، وهجاه بقصيدة يقول فيها :

أمسكينُ ! أبكى الله عينك إنما جرى في ضلالٍ دمُعها فتحدَّرا

وهجاه مسكين ، وأمسك الفرزدق عنه ، حتى لا يهتدم شطر حسبه . ونراه
يمدح عبيد الله بن زياد ويوسع له في مجالسه . ولا يفارقه شره ، فيهجو بني
مُنقر ، ويغضب لهم مرةً بن محكان^(٢) شاعر بني ربيع التميميين وسيدهم ،
فيهجوه وعشيرته بكلمة يقول في تضاعيفها :

ترجى ربيعٌ أن يجيء صغارها بخيرٍ وقد أعيا ربيعاً كبارها

ويشتعل بينهما الهجاء . وندخل في فترة فتنة ابن الزبير ، وتتبعه العراق كما
تبعته الحجاز ، ويحدث أن يقتل مصعب بن محكان . ونرى الفرزدق في هذه الأثناء

(١) أراد بالعاج أساور العاج . قاصف :
من القصف وهو الجلبة ، يشير إلى وسوسة
الأساور . زيان : ممتلئ . يتخذد : يتجمعد .
(٢) انظر في ترجمة مرة ابن سلام ص ٢٧٥
والشعر والشعراء ٦٦٧/٢ وأغانى (ساسى)
٩/٢٠ ومعجم الشعراء ص ٢٩٥ .

بدخل — كما مر بنا — مع جرير في معركة الهجاء التي استمر شررها يتطاير حتى توفي ، والتي أورثتنا نقائضهما آنفة الذكر . وينشب شجار بين الفرزدق وبين زوجه النوار وهي ابنة أعين بن ضبيعة المجاشعي ، وكان قد تزوجها راعمة ، إذ خطبها خاطب من قريش فجعلته وليها ، فأنهز الفرصة : وأشهد أنها جعلت أمرها إليه وأنه يتزوجها على مائة ناقة حمراء سوداء الحديق . فغضبت من ذلك وما زالت تغاضبه ، وادّعت عليه طلاقاً ، ونازعته ، وخرجت إلى عبد الله بن الزبير ونزلت على زوجته خولة بنت منظور بن زبّان الفزاري ، وتشفّعت إليها . وتبعها الفرزدق فنزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فكان حمزة إذا أصلح شيئاً من أمر الفرزدق قلبته عليه خولة ، فقال الفرزدق :

أما البنون فلم تُقبلْ شفاعتهم وشُفّعتْ بنتُ منظور بن زبّانا
ليس الشفيعُ الذي يأتيك مُؤتِزراً مثلَ الشفيعِ الذي يأتيك عُريانا
وأمرهما ابن الزبير أن يحتكما إلى عامله في العراق فضت معه النوار مغاضبة له ، ويقال : بل اصطلحا في مكة ، غير أنها ظلت تشاره وتشاجره ، إذ كانت تكره كثيراً من أمره ، وكانت صالحة حسنة الدين . وخطب حدراء بنت زيق بن بسطام الشيبانية وكانت نصرانية وأخذ يمدحها ويعرض بالنوار ، فاستغاثت منه بجرير ، فأغاثها وأخذ يهجو حدراء وقومها معها ، وتصادف أن ماتت حدراء قبل أن يبنى بها ، ويظهر أنه كان مزواجا ، فقد تزوج زنجية أعقب منها ابنته مكية ، وتزوج رهيمة النمرية وطيبة المجاشعية ، ونشزتا منه فطلقهما ، وما زالت النوار تغاضبه حتى طلقها وندم ندماً شديداً ، يقول في كلمة له يصور ندمه :

ندمتُ ندامةَ الكُسعيِّ لما غَدَتُ مني مطلقَةً نواراً^(١)
وكانتُ جنةً فخرجتُ منها كآدم حين أخرجهُ الضَّرار^(٢)

ويذكر ابن قتيبة أنه وُلد له لبطة وسبطة وخبطة وركضة من النوار ووُلد له أيضاً زمعة . وكان شاعراً وإن لم يبلغ مبلغ أبيه في الشعر . وفي تسميته

(١) الكسعي : شخص يضرب به المثل في الندم . (٢) الضرار : العصيان والمخالفة .

لأبنائه هذه الأسماء ما يدل من بعض الوجوه على غِلَظ نفسه ولاشك في أن فشله المبكر في حياته الزوجية يدل على جفوته . ونراه مقرباً من بشر بن مروان الذي ولي العراق لأخيه عبد الملك ، حتى ليستثير الشعراء لمناقضة جرير وهجائه ، وفيه يقول :

يا بِشْرُ إنك سيف الله صِيلَ به على العدو وغيثٌ يُنبت الشَّجَرَا
وولَّى العراقَ الحجاجُ ، وكانت فيه قسوة ، فخشى بطشه ومضى يمدحه
مدائح رائعة من مثل قوله :

إن ابن يوسفَ محمودٌ خلَّاتقُهُ سيانٌ معروفُهُ في الناس والمطرُ
هو الشهابُ الذي يُرمَى العدوُّ بهِ والمشرقيُّ الذي تَعَصَّى به مُضَرٌ^(١)
ونوّه طويلاً بسيرته وقضائه على الرشوة والثوار وإقامته لموازن العدل : حتى
إذا توفى رثاه رثاء حاراً ، يقول فيه :

ومات الذي يرعى على الناس دينهم ويضرب بالهندي رأس المخالف^(٢)

وسرعان ما نجده يثوب إلى نفسه وعصبيته التيمية ضد قيس وزعيمها الحجاج وخاصة حين رأى سليمان بن عبد الملك يلي الخلافة ، وكان أخوه الوليد حاول أن يخلعه من ولاية العهد ، واجتمع معه الحجاج وولائه في المشرق ، وتصادف أن توفي الحجاج قبل خلافة سليمان ، فلما ولي لم يكن له هم إلا تحمّل الحجاج وثار عليه قتيبة بن مسلم الباهلي القيسي بخراسان ، فقتلته تميم وردت الأمر إلى نصابه . حينئذ نرى الفرزدق يهجو الحجاج ويقذع في هجائه ، مستشعراً عصبية عنيفة تميم . وكان يستشعر هذه العصبية دائماً إلا أن يضطرّ اضطراراً للتزول عنها . وبتأثيرها نجده يشذ على ذوق مواطنيه ، فيهجو المهلب الأزدي السيد الجواد والفارس الشجاع الذي لهج الشعراء باسمه ، ويحاول ابنه يزيد حين صار إليه الأمر بعد أبيه أن يستقدمه إليه في جرجان ، ليضيق عليه من نواله ، فيأبى قائلاً :

(١) تعصى هنا : تضرب ، من العصا . (٢) الهندي : السيف .

دعاني إلى جُرجان والرّى دونه لآتيه ، إلى إذن لزعمور^(١)
 سآني وتآني لي تميم وربما أبيت فلم يقدر على أمير
 حتى إذا ولي يزيد العراق لعصر سليمان بن عبد الملك مضى بمدحه مسرفاً
 في مدبحه على شاكلة قوله :

إني رأيتُ يزيدَ عند شبابه لبسَ التَّقَى ومهابة الجبارِ
 وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتهم خضعَ الرُّقابَ نواكسَ الأبصارِ

ودار الزمن فثار ابن المهلب على يزيد بن عبد الملك ، وقضى على ثورته
 سلسلة تُعينه تميم وفارسها المغوار هلال بن أحوز المازني الذي تعقب آل المهلب
 في قنديل وقضى عليهم قضاء مبرماً ، حينئذ نجد الفرزدق يفتخر بهلال وصنيع
 تميم ، هاجياً يزيد بن المهلب وأسرته هجاء مرا^(٢) .

وقد قلنا نفاً إنه ظل طويلاً لا يفد على قصر بني أمية في دمشق ، وأول
 من وفد عليه من خلفائهم سليمان بن عبد الملك ، وله يقول :

تركتُ بني حَرْبٍ وكانوا أئمةً ومروانَ لا آتية والمتخيراً
 أباك وقد كان الوليدُ أرادني ليفعل خيراً أو ليؤمن أو جراً^(٣)
 فما كنتُ عن نفسي لأرحل طائعا إلى الشام حتى كنت أنت المؤمناً

ومنذ هذا التاريخ يصبح من شعراء بني أمية الذين يدعون لهم ويدافعون
 عن خلافتهم ، مضافين عليهم هالة قدسية من التقوى والبر ، تحفها المبالغة
 المسرفة من مثل قوله في سليمان :

أنت الذي نعت الكتابُ لنا في ناطق التوراة والزُّبرِ
 كم كان من قسٍ يخبرنا بخلافة المهدي أو حبر
 جعل الإله لنا خلافته بُرء القروح وعصمة الجبر

(٣) الأوجر : الخائف .

(١) زعمور : كثير الزيارة .

(٢) الديوان ص ٥٧٥ .

وقوله في يزيد بن عبد الملك ، وهو مجونه معروف :

ولو كان بعد المصطفى من عباده نبيُّ لهم منهم لأمر العزائم
لكنت الذي يختاره الله بعده لحمل الأمانات الثقال العظام
ورثم خليل الله كل خزانة وكل كتاب بالنسوة قائم
ولعل في هذه الأبيات ما ينقض قول من زعموا أنه كان شيعياً مائلاً إلى
بنى هاشم وإنهم ليسرسلون في ذلك فينسبون إليه قصيدة في علي بن الحسين
وهي القصيدة ذات البيت المشهور :

هذا الذي تعرف البطحاء وطائهُ والبيت يعرفه والحلُّ والحرمُ
وقد أنكر أبو الفرج الأصبهاني نسبة القصيدة إليه^(١) ، والذي لا شك فيه
أنها تخالف نسجه كما تخالف نفسيته إذ كان لا يتعصب لشيء سوى قبيلته
وأبائه ، وقد مدح بنى أمية بأخرة ، أما ولاية العراق فكان إذا خاف بطشهم
مدحهم ، فإذا اطمأن وسكن روعه هجاهم ، وخاصة إذا أظهروا عصبية ضد
تميم ، ومن أسرع إلى هجائه منهم عمر بن هبيرة الفزاري وإلى يزيد بن عبد الملك ،
وفيه يقول :

أمير المؤمنين وأنت عف كريم لست بالطيع الحريص^(٢)
أوليت العراق ورافديه فزارياً أحذ يد القميص^(٣)

وولّى بعده خالد القسري لحشام بن عبد الملك ، وكان شديد العصبية لليمنية ،
وكانت أمه مسيحية ، فبنى لها كنيسة بالكوفة ، وسخر الناس في شق نهر
المبارك ، وانتهز الفرصة الفرزدق ، فأخذ يهجو به العملين جميعاً ، يقول :

بنى بيعة فيها الصليب لأُمَّه وهدم من كُفّر منار المساجد
ويقول

أهلك مال الله في غير حقّه على نهرك المشثوم غير المبارك

(٣) أخذ : سريع ، يصفه بالسرقة وأنه غير
أمين على أموال الأمة .

(١) أغاني (سامي) ٧٥/١٤ .

(٢) الطبع : اللثم الذي .

وأمر خالد صاحب شرطته مالك بن المنذر بن الجارود أن يحبسه ، فألقى به في السجن ، فانقلب يستعطف مالكا وخالداً وهشام بن عبد الملك وبعض مقربيه من الكلبيين بمدائح كثيرة ، واستعان بخصومه من القيسية وأعانه شاعرهم جرير . وتصادف أن حج خالد وأتاب عنه أخاه أسدا ، فرد إليه حريته ، ومن ثم نراه يمدحه مدائح كثيرة .

وكل شيء يؤكد أنه أناب إلى ربه في سنيه الأخيرة فقد أخذ يندم على ما اقترف من آثام ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته في إبليس ، وفيها يقول :
أطعتك يا إبليس سبعين حجةً فلما انتهى شئبي وتمّ نمامي
فررتُ إلى ربي وأيقنت أنني مُلاقٍ لأيام المَنونِ حمّامي
وأخيراً وافاه القدر سنة ١١٤ للهجرة .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق أمضى حياته في المديح والهجاء ، وهو في مديحه يتخلف عن الأخطل وجرير جميعاً لما قدمناه من خشونة نفسه وصلابتها ، وهو كذلك يتخلف عن جرير في الهجاء ، لأن نفس جرير كانت محملة بمرارة مسرفة . إذ لم يكن له ما للفرزدق من شرف المحدث ، فكان ينصبُّ عليه وعلى غيره من مهجوييه كالصقر الجارح . وهذه النفس الخشنة الصلبة للفرزدق جعلته لا يبرع في الغزل ، يقول الجاحظ : « وهذا الفرزدق وكان مستهتراً بالنساء وكان زير غَوَانٍ وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسب مذكور ، ومع حسده لجرير . وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا » (١) . وكان جرير يتقدمه كذلك في الرثاء ، إذ كانت نفسه لينة رقيقة . والموضوع الذي يتفوق فيه الفرزدق على الأخطل وجرير ، بل على جميع شعراء عصره ، هو الفخر ، إذ كان يعتدُّ بآبائه وقبيلته اعتداداً لاهد له ، ومن ثم بلغ في الافتخار بهما الغاية القصوى على شاكلة قوله :
وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ضَرْبِنَاهُ حَتَّى تَسْتَقِيمَ الْأَخَادِعُ (٢)

(١) البيان والتبيين ٢٠٨/١ .

(٢) صعر خده : أماله كبراً وغلظة .

صفحة العنق . واستقامة الأخادع كناية عن الخضوع والذل .

الأخادع : جمع أخدع وهو العرق البارز في

وقوله :

تري الناس ماسرنا يسرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا^(١)

وقوله :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول^(٢)
حلل الملوك لباسنا في أهلنا والسباغات إلى الوغى نتسربل^(٣)
أحلامنا تزن الجبال رزاة وتخالنا جنا إذا ما نجهل^(٤)
فادفع بكفك - إن أردت بناعنا - ثلن ذا الهضبات هل يتحلحل^(٥)

والحق أن الفرزدق كان نبعا كبيرا من ينابيع الشعر ، وهو نبع كان يتدفق من نفس صلبة ، ولعل ذلك ما جعل الالتواء والشذوذ يكثر في أساليبه ، من مثل قوله المشهور في مديح إبراهيم بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله في الناس إلا مُملَكاً أبو أمه حتى أبوه يُقاربه
فإن البيت لا يفهم إلا إذا رتبنا كلماته ترتيباً طبيعياً على هذا النحو :
« وما مثله (الممدوح) في الناس حتى يقاربه إلا مملكا أو ملكاً (هو هشام بن عبد الملك) أبو أمه أبوه . وكان يضيف إلى ذلك شواذ نحوية كقوله :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتاً أو مجرف^(٦)

وكان القياس أن يقول مجرفاً بالنصب ، ولكنه رفع على الاستئناف تمشياً مع روى قصيدته . وكان ابن أبي إسحق الحَضْرَمي يراجع في ذلك ومثله كثيراً ، فكان يستسخر منه . وقد عده اللغويون أحد مصادر اللغة ، حتى قالوا : « لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب » ومن ثم دارت أشعاره في كتب اللغويين والنحاة كما دارت في كتب التاريخ والأخبار لحديثه عن أيام العرب ومناقبهم ومثالبهم

(١) وقفوا : وقفت ركائبهم لا يتقدمون .
(٢) سمك : رفع .
(٣) السباغات : الدروع الكاملة . نتسربل : نتسربل .
(٤) نجهل هنا : نهضب حمية .
(٥) ثلن : جبل . يتحلحل : يتحرك .
(٦) المسحت والمجرف : المهلك المستأصل .
نلبس ..

حتى قالوا : « لولا شعره لذهب نصف أخبار الناس » . وواضح مما قدمنا أن شعره لا يشتبك بأحداث البصرة وحدها ، بل يشتبك أيضاً بأحداث الخوارج وأحداث خراسان ، وله مدائح وأهاج مختلفة في ولائها وولاية فارس ، أمثال عبيد الله بن أبي بكر وأبي بكر الخراساني وعمر بن عبيد الله بن معمر والحنيني ابن عبد الرحمن المُرِّي . وقد نوّه طويلاً بأسد بن عبد الله القسري وهلال بن أخوز المازني . وأشعاره رغم فسقه مطبوعة بروح الإسلام ، فهو يكثر فيها من ذكر الصلاة والتقوى والبعث والحساب ، كما يكثر من الإشارة إلى قصص الأنبياء . وهو يضمن ذلك مدائح وأهاجيه جميعاً . وتمتاز أساليبه بجزالة اللفظ وقوة الرصف ، مما جعل تراكيبه ضخمة ، وهو ضخم ناشيء من طوايا نفسه الضخمة الصلبة التي قلما تعرف الرقة واللين .

٦

(١) جرير

شاعر تميمي من عشيرة كُليب اليربوعية ، ولم يكن لآبائه ولا لعشيرته ما لآباء الفرزدق وعشيرته مجاشع من المآثر والأجساد ، أما العشيرة فعرفت بأنها كانت ترعى الغنم والحُمير . وقد دعا ذلك جريراً إلى أن يرتفع بشعره إلى يربوع وكان لها أيام كثيرة في الجاهلية ، فأشاد بأيامها وفسادها طويلاً . وكان أبوه عطية متخلفاً في المال مبخلًا ، أما جدّه الخطّمي فكان كثير المال من الغنم والحُمير ، وقد أتاه من قبيلة الشعر ، ومما يروى من شعره قوله :

عجبتُ لإِزراءِ العَيِّ بنفسهِ وصمّتِ الذي قد كان بالقول أعلمًا
وفي الصمتِ سترُ العَيِّ وإنما صحيفةٌ لبُّ المرء أن يتكلما

وراجع فهرس الأغاني في مواضع متفرقة والاشتقاق ص ٢٣١ وما بعدها . وقد نشر ديوانه في القاهرة سنة ١٣١٣ للهجرة ونشره الصاوي بتعليقات مختصرة عن مخطوطة تقتل روايتها بابن حبيب . ونشر بيقر نقائضه مع الفرزدق بشرح أبي عبيدة ، ونشر صالح نقائضه مع الأخطل برواية أبي تمام .

(١) انظر في ترجمة جرير الأغاني (طبع دار الكتب) ٣/٨ وما بعدها والشعر والشعراء ٤٣٥/١ وابن سلام ص ٣١٥ والموشع للمرزباني ص ١١٨ وخزانة الأدب ٣٦/١ والعي ٩١/١ وراجع فهرس الكامل للمبرد والبيان والتبيين - وانظر ذيل الأمل ص ٤٣ والطبري ٢٧٣، ٢٦٧/٥

وكانت أمه تسمى أم قيس، وهي من نفس عشيرته، وقد ولدت جريراً في بادية
الحامة حوالي سنة ثلاثين للهجرة، وكان له أخوان هما عمرو وأبو الورد، كانا
ينظمان الشعر.

فجرير إن لم يكن نشأ في بيت مجد فقد نشأ في بيت شعر، وظل الشعر
يتوارث في أبنائه، وأشعرهم بلال. وحفيده عمارة من الشعراء المشهورين في
العصر العباسي، وعنه أخذ الرواة شعر جده وأكثر أخباره، ويقول ابن قتيبة
كان لجرير عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور.

ويظهر أن موهبة جرير الشعرية تفتحت مبكرة. وقد وجد في جده الخطابي
خير من يلقنه الشعر، ويقال إن من أوائل ما نظمه مما رواه له الرواة أبياتاً غاتبه
بها، وذلك أنه كان ذا مال كثير، وكان يتحلّ أبناءه وأحفاده من ماله،
فاستحلّه جرير، فأعطاه بعض ماله، ثم رجع فيه، وقيل بل أعطاه قليلاً فاستزاده
فلم يزد، فتسخطه، ونظم فيه طائفة من الأبيات يحاتبه بها، وقد وصلها بعد
ذلك بسنوات بأبيات نظمها في الفرزدق وغسان السليطي. وفيها يقول معاتباً
جده :

ولاني لمغرورٌ أعللُ بالمُنَى ليلى أرجو أن مالك ماليا
ولاني لعفُ الفخر مُشترِكُ الغنى سريعٌ— إذا لم أرض دارى— انتقاليا

ويقال إنه وفد بعد ذلك إلى يزيد بن معاوية وهو خابئة، فأشده هذه
الأبيات، فقال له: كذبت إنما لجرير، فقال له: أنا جرير. ومن قوله فيها:

وليسنَّ لسبي في العظام بقيةٌ وللسيف أشوى وقعةٌ من لسانيا

وواضح أنه يجعل لسانه أقطع من السيف، فالسيف إنما يقطع الشوى
أى الأطراف، فيبقى على من طعنه، أما لسانه فلا يبقى بقية فيمن يقطعه.
وهو استهلال لحياته الشعرية، يدل على أنه مقتحم بها فن الحجاج، وقد ظل
يحول ويصوّل في هذا الفن منذ خلافة يزيد إلى وفاته سنة ١١٤ إذ توفى بعد
الفرزدق بنحو ستة أشهر. وقرأه بها جى غساناً السليطي، ويعينه البعيت، فيطعنه
ويطعن نساء عشيرته بجاشع طعنات نجلاء، فيضطّر الفرزدق أن يمارل،

ويستخدم بينهما الهجاء طوال حياتهما ، ويقال إنه ظل يهجو وهو مقيم بالمرُوت من بادية السماة بضعة سنوات ، فأرسلت بنو يربوع إليه : إنك مقيم بالمرُوت ، ليس عندك أحد يَرَوِي عنك . والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك ، فأنحدر إلى العراق ، فأقام بالبصرة ، منشدا :

وإذا شهدت لِثَغْرِ قَوْمٍ مشهداً آثرتُ ذاك على بَنِيٍّ ومالي

ويظهر أن إقامته بالبصرة بدأت مع دخول العراق في طاعة ابن الزبير إذ نجد واليه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة الملقب بالقُبَاع (٦٥ - ٦٦ هـ) يأمر - حين رآه يتواقف مع الفرزدق بالمرُبَد - صاحب شرطته عَبَّاد بن الحُصَيْن بهدم داريهما ، فيهدم الدارين جميعاً ويطلبهما ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

أحارثُ داري مَرَّتَيْنِ هدمتها وكنت ابنُ أُخْتٍ لا تُخافُ غوائله

ويقول جرير :

وما في كتاب الله هَدْمُ بيوتنا كتهديم ماخورٍ خبيثٍ مَدْاخِلُهُ

ولم يتهاج جرير مع الفرزدق وحده ، فقد تهاجى - كما أسلفنا - مع كثير من الشعراء ، ويقول صاحب الأغاني نقلاً عن الأصمعي إنه كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً ، فينبذهم وراء ظهره ، ويرى بهم واحداً واحداً ، ويقول في موضع آخر إنه كان يهاجيه ثمانون شاعراً أغلبهم جميعاً وكان يقول : إنهم بيدعوني ثم لا أعفو ، كما كان يقول : إنني لا أبتدىء ولكن أعتدى ، ويُرَوَى أن الراعي سمع راكباً يتغنى :

وعاؤٍ عَوَى من غير شَيْءٍ رميته بقافيةٍ أنفاذها تقطر الدِّمَا^(١)
خروجٍ بأفواه الرواة كأنها قرأ هُنْدُوَانِيَّ إذا هُزَّ صَمِّمَا^(٢)

(١) أنفاذ : جمع نفذ وهو الكلم الذي تحدثه الطلعة .
(٢) خروج : كثيرة الخروج ؛ يريد أنها كثيرة الإنشاد . قرأ : متن وظهر . الهندواني : السيف ؛ كانوا يجلبون سيوفهم الجيدة من الهند . صمم : قطع اللحم وبرى العظم .

فسأل عن صاحب البيتين ، فقيل له جرير ، فقال : والله لو اجتمع
الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنوا فيه شيئاً ، هل أُلَام على أن
يغلبني مثل هذا الشاعر ؟ . وكان لا يزال بخصومه يطعنهم طعنات مسمومة في
نساء عشائريهم ، كقوله في نساء عشيرة سُراقَة البارقي ، وكان ممن رفعوا الفرزدق
عليه :

يُعْطَى النساءُ مهورهن كرامةً ونساءُ بارقٍ مالهن مهورُ

ولم يثبت له — كما أسلفنا — سوى الفرزدق والأخطل ، وثبت له عمر بن لُجْأ
التَّيْمِيُّ إلى حين ويقال لهما وفدا على المدينة ، وعليها عمر بن عبد العزيز ، وقيل
ابن حزم ، وتصادف أن حجَّ الوليد بن عبد الملك ، فسمع بأنهما يتهاجيان ، فأمر
بأن يُضْرَبَا تأديباً ، فضربا وأقيما على البُلُس^(١) مقرنين . وعادا إلى العراق ،
وجرير يرميه وعشيرته بمثل قوله :

قومٌ إذا حَضَرَ الملوكَ وفودُهم نُتِفَتْ شواربهم على الأبوابِ

واستغاثت تَيْمٌ بجريـر وتوسلت إليه وتضرَّعت أن يكفَّ عنها ، فكفَّ بعد
أن تَلَبَّيْهَا وشاعرها ثلَباً قبيحاً . وويل للعشيرة التي كانت تتعرض له ، روى الرواة
أن الفرزدق أتى مجلس بني الهُجَيم في مسجدهم ، فأنشدهم ، وبلغ ذلك جريراً ،
فأتاهم من الغد لينشدهم كما أنشدهم الفرزدق ، فتعرض له شيخ منهم قائلاً له :
اتَّقِ الله ، فإن هذا المسجد بُني لذكر الله والصلاة ، فانصرف عنهم مغضباً ،
وهو يقول :

إن الهُجيمَ قبيلةٌ ملعونةٌ حُصَّ اللَّحَى متشابهو الألوانِ^(٢)
لو يسمعون بأكلةٍ أو شربةٍ بَعُمان أصبح جمعهم بَعُمان
متوركين بنيتهم وبنيتهم صُغَرَ الأنوفِ لريح كلِّ دُخانِ^(٣)

(٣) متوركين : يريد أنهم يحملون بناتهم
وبنيتهم ويذهبون يسألون بهم . صعر : جمع
أصعر وهو الذي ينتظر بوجهه لاويأ عنته .

(١) البلس : غرائر كبار تحشى تبناً ،
كان يرفع عليها الجناة تشهيراً لهم وتأديباً .
(٢) الأحص : قليل الشعر في ذقنه وعارضيه .

وظل جرير إلى أوائل عصر الحجاج (٧٥ - ٩٥هـ) لا يعرف من الشعر سوى الفخر والهجاء وما يقدم لهما من الغزل ووصف الصحراء، حتى إذا أطلته هذا العصر، وصار حكم العراق لقيس وصاحبها الحجاج رأيناه يتقدم على صهره وابن عمه الحكم بن أيوب الثقفي نائبه على البصرة، فيمدحه برجز، يقول فيه:

خليفة الحجاج غير المتهم في معقِد العزِّ وبؤبؤ الكرم^(١)

واستنطقه فأعجبه طُرفه وشعره، فكتب إلى الحجاج يخبره عنه، فكتب إليه أن ابعث به إلىَّ، فقدم عليه، فأكرمه. وسرعان ما عاش له جرير يمدحه مدائح رائعة من مثل قوله:

مَنْ سَدَّ مُطْلَحَ النِّفْسِاقِ عَلَيْكُمْ	أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحَجَّاجِ ^(٢)
أَمْ مَنْ يَغَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِظَةً	إِذَا لَا يَثِقْنَ بِغَيْرَةِ الْأَزْوَاجِ ^(٣)
إِنَّ ابْنَ يَوْسُفَ فَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا	مَاضِيَ الْبَصِيرَةِ وَاضِحِ الْمِنْهَاجِ
مَاضٍ عَلَى الْغَمَرَاتِ يُنْضِي هَمَّهُ	وَاللَّيْلُ مُخْتَلِفُ الطَّرَائِقِ دَاجِي ^(٤)
مَنْعَ الرُّشَا وَأَرَاكُمُ سُبُلَ الْهَلْدَى	وَاللَّصَّ نَكْلَهُ عَنِ الْإِدْلَاجِ ^(٥)
وَإِذَا رَأَيْتَ مُنَافِقِينَ تَخَيَّرُوا	سَبِيلَ الضَّجَّاجِ أَقَمْتَ كُلَّ ضَجَّاجِ ^(٦)
دَاوَيْتَهُمْ وَشَفَيْتَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ	غِبْرَاءَ ذَاتِ دَوَاخِنٍ وَأُجَاجِ ^(٧)
وَلَقَدْ كَسَرْتَ سِنَانَ كُلِّ مُنَافِقٍ	وَلَقَدْ مَنَعْتَ حَقَائِبَ الْحُجَّاجِ

وهو يمدحه بالصفات التي يجلُّها العرب من قديم، وبصفات أخرى تتصل بسياسته وولايته لعراق، إذ يقول إنه سدَّ ثغور النفاق، مع شجاعة فائقة وحافضة على الذمام. ويقول إنه نافذ البصيرة واضح السياسة، يعرف كيف يخرج من الغمرات والشدائد، ويصوِّر كيف أقام العدل في الناس ومنع

(١) بؤبؤ: أصل.

(٢) المطلق: المنفذ من أعلى، أو المصدر.

(٣) الحفيظة: الغضب.

(٤) الغمرات: الشدائد. داجي: مظلم.

(٥) الإدلاج: السير ليلاً.

(٦) الضجج: الباطل.

(٧) الأجاج هنا: من أجرة النار. والدواخن: جمع دواخن وهو الدخان.

الرشوة وقضى على اللصوص وقطّاع الطرق في الليل المدلم . ويقول إنه قوم كل مائل وباطل ، وإنه داوى النفوس المريضة وحطم أسنة المشركين عن الدولة ولم يعد هناك أحد ممن يعيشون في الأرض فساداً . ويقضى الحجاج على ثورة ابن الأشعث سنة ٨٢ فينوّه بانتصاره عليه قائلاً :

دعا الحجاجُ مثلَ دُعاءِ نوحٍ فأسمع ذا المعارج فاستجاباً^(١)
صبرتَ النفسُ يابنَ أبي عقيلٍ محافظةً فكيف ترى الثواب
ولو لم يرُضَ ربُّك لم ينزلْ مع النَّصرِ الملائكة الغضاب
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ رأى الحجاجُ أثْقَبَها شهاب
وكان عبد الملك بن مروان في دمشق يفسح في مجالسة للأخطى شاعر تغلب
النصراني ، ويُسَمِّلُ إليه شعر جرير في الحجاج فيسغبه عليه لروعة شعره ومهارته
في المديح . ورأى الحجاج أن يهديه إليه ، ويوجد عند جرير رغبة صادقة في
أن يَسْمُلَ بمدح به بين يديه ، فصاحبه معه في وفادته التي وفدها على عبد الملك ،
ويقال : بل بعث به إليه مع ابنه محمد ، فأذن له في النشيد ، فبدأ فأنشد مدائحه
في الحجاج واحدة بعد واحدة ، ثم أنشده قصيدته التي يقول في اسمها :
تعزّت أم حَزْرَةَ ثم قالت رَأَيْتُ المُرْدِينَ ذوى لِقَاحِ^(٢)
تعلّل ، وهى ساعبة ، بَنِيها بِأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّيْمِ القَرَّاحِ^(٣)
سَأَمَتِاحَ البَحُورِ فَجَنَّبَنِي أَذَاةَ اللّومِ وانتظري امتياحي^(٤)

وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فقال

وإني قد رَأَيْتُ عَلَى حَقًّا زيارتيَ الخليفةَ وامتياحي^(٥)
أَلَسَمَ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحِ^(٥)

- (١) كان دعاء نوح : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً)
ذو المعارج : الله جل جلاله .
(٢) المردون : أصحاب الإبل يوردونها الماء .
ولقاح : جمع لقحة وهي الناقة في أول نتاجها .
(٣) تعلل أبناءها : تشغلهم . ساعبة : جائعة .
النفس من الماء : الحرقة . الشيم : البارد .
القراح : الصافي .
(٤) أمتاح : استقى من المصح وهو العطاء .
(٥) أندى : أجود .

ولم يلبث أن أخذ يهاجم من ثار على عبد الملك مثل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص . ووقف عند عبد الله بن الزبير يصورُ فتنته وكيف قضى عليه عبد الملك قضاء مبرماً . ومضى يمدح عبد الملك وأسرته وأنهم الجديرون من بين القرشيين بالخلافة ، منوها بانقياد الأمة له واجتماعها تحت لوائه ، يقول :

وقومٍ قد سموتَ لهم فدانوا يدَهمُ في مُلَمِّمةٍ رَدَّاحٍ^(١)
أَبَحْتَ حِمَى تَهَامَةٍ بَعْدَ نَجْدٍ وما شَيْءٌ حَمِيَتْ بِمَسْتَبَاحٍ^(٢)
دَعَوْتَ الْمُتَحِدِينَ أَبَا خُبَيْبٍ جَمَاحًا ، هَلْ شَفِيَتْ مِنَ الْجَمَاحِ^(٣)
فَقَدْ وَجَدُوا الْخَلِيفَةَ هِرْزِيًّا أَلْفَ الْعَيْصِ لَيْسَ مِنَ النَّوَاجِي^(٤)
فَمَا شَجَرَاتُ عَيْصِكَ فِي قُرَيْشٍ بِعَشَّاتِ الْفُرُوعِ وَلَا ضَوَاحِي^(٥)
رَأَى النَّاسُ الْبَصِيرَةَ فَاسْتَقَامُوا وَبَيَّنَّتِ الْمِرَاضُ مِنَ الصُّحَاكِ^(٦)
وَأُعْجِبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بِجَرِيرٍ لِعَجَابٍ شَدِيداً فَأَعْطَاهُ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ وَثَمَانِيَةَ
مِنَ الرَّعَاةِ وَمِحْلَباً مِنْ فِضَّةٍ . وجريروا في هذه القصيدة ليس مادحاً فحسب ، بل
هو محام عن عبد الملك وحكمه ، يدافع عن حقه في الخلافة ، ويهاجم خصومه
هجوماً عنيفاً ، وقد مضى بقية حياته يقرر في مدائحه لعبد الملك ومن خلفوه حقهم
في الخلافة على الناس ، وهو من هذه الناحية يُعَدُّ شاعراً سياسياً بالمعنى التام ،
شاعراً يحامى عن نظرية الأمويين في الحكم ويناضل عنهم وما يزال يسدُّ سهامه
إلى خصومهم ، وهو في تضاعيف ذلك يحفُّهم بإطار رائع من التقوى والعمل
الصالح ، مقررّاً أن شيعتهم على الحق ، وأن من يخالفهم من الشيعة أهلُ باطل
وضلال وأهواء ويدَّعٍ ، يقول في عبد الملك :

لَوْلَا الْخَلِيفَةُ وَالْقُرْآنُ نَقَرُوهُ مَا قَامَ لِلنَّاسِ أَحْكَامٌ وَلَا جُمُعُ

- (١) دانوا : أطاعوا . الدم : الجيش الكثير .
ملممة : مجتمعة . رداح : ضنخة . يتقصد
من ثاروا عليه .
(٢) يريد عبد الله بن الزبير وغلبة عبد الملك
على ما كان في يديه من نجد والحجاز .
(٣) أبو خبيب : ابن الزبير : الجماع :
العناد والخلاف .
(٤) هيرزيا : نافذاً في الأمور ماضياً .
ألف : ملتف . العيص : الشجر . يريد أنه
في صميم الغز وليس في نواحيه .
(٥) الشجرة عشة الفروع : دقيقة الأغصان .
والضاحية : بادية العيدان ولا ورق عليها .
(٦) بينت : تبينت .

أَنْتَ الْأَمِينُ أَمِينُ اللَّهِ لَا سَرِفٌ فِيمَا وَلَيْتَ وَلَا هَيَّابَةٌ وَرَعٌ^(١)
 أَنْتَ الْمُبَارَكُ يَهْدِي اللَّهُ شِيعَتَهُ إِذَا تَفَرَّقَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ
 فَكُلُّ أَمْرٍ عَلَى يُمْنٍ أَمَرْتُ بِهِ فِينَا مُطَاعٌ وَمَهُمَا قَلْتَ مُسْتَمَعٌ
 يَا آلَ مَرْوَانَ إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَكُمْ فَضْلاً عَظِيماً عَلَى مَنْ دِينُهُ الْبِدْعُ

وواضح أنه يُزرى على أصحاب الأهواء الذين يحادون بني أمية من الزبيريين والخوارج والشيعة ، ويسمهم أهل بدع وضلالة . ويتوفى عبد الملك ، فيلزم ابنه الوليد ، ويظهر أنه كان يجفوه في أول الأمر ، فقد مرّ بنا أنه أمر واليه على المدينة أن ينزل به وبابن لحاء عقوبة صارمة . غير أن هذا لم يصرف جريرا عنه ، فقد كان يلمُّ به في دمشق ، وكان يراه يقرب عدى بن الرقاع ، فهجاه ، وحاول أن يستثيره ، ولكن عديا آثر العافية . واستطاع جرير أن ينفذ إلى الوليد وأن يقع منه بعد ذلك موقعا حسنا بما دبّجه فيه من مدائح رائعة على شاكلة قوله :

إِنَّ الْوَلِيدَ هُوَ الْإِمَامُ الْمَصْطَفَى بِالنَّصْرِ هُزَّ لَوَاؤُهُ وَالْمَغْنَمِ
 ذُو الْعَرْشِ قَدَّرَ أَنْ تَكُونَ خَلِيفَةً مُلْكْتَ فَاغْلُ عَلَى الْمَنَابِرِ وَأَسْلَمِ

وفراه يلزم ابنه عبد العزيز ، ويقدم له مدائح كثيرة . حتى إذا عزم الوليد على تنحية سليمان أخيه عن ولاية العهد وتوليها عبد العزيز رأيناه يحطّط في حبله بمثل قوله :

إِذَا قِيلَ أَيْ النَّاسِ خَيْرٌ خَلِيفَةً أَشَارَتْ إِلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأَصَابِعُ

وسرعان ما تتطور الظروف ، ويتوفى الوليد ويتولى سليمان ، فينفذ عليه مادحا ، محاولا أن يستنزل عطفه عليه ، بما يصور من تقواه ومن عدله وكيف أطلق مَنْ سَجَنَهُمُ الْحِجَاجُ وكيف ردّ مظالمه عن أهل العراق وأحسن

(١) الهيابة : الجبان وكذلك الورع بفتح الراء .

إلى الناس ، وهو في تضاعيف ذلك ينوّه بأن الله اختاره للأمة ناعماً له بأنه المهدي المنتظر ، يقول (١) :

سليمانُ البِـسارِكُ قد علّمتم هو المهديُّ قد وضح السبيلُ
أجرتَ من المظالمِ كلَّ نفسٍ وأدّيتَ الذي عهَدَ الرسولُ
صَفَتْ لك بيعةُ بثباتِ عهدٍ فوزنُ العدلِ أصبحَ لا يميلُ
وتدعوكُ الأَرامِلُ واليتامى ومن أَمسى وليس به حَوِيلُ^(٢)
ويدعوكُ المكَلَّفُ بعدَ جَهدٍ وعانٍ قد أَضرَّ به الكِبُولُ^(٣)

ونراه يمدح ابنه أبوب ، ويرشحه لولاية العهد . غير أن سليمان رأى أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان يتأله في دينه ويزهد في الدنيا ، فأوصد أبوابه من دون الشعراء سوى جرير ، وكأنه قرّبه لما عرف فيه من عفنة وحسن دينه ، ومعرفته به ترجع إلى أيام ولايته على المدينة ، وله فيه مدائح مختلفة ، يصوّر فيها تقواه وأن الله اصطفاه للناس من مثل قوله :

أنتَ المباركَ والمهديُّ سِـيرَتُهُ تَعْصِي الهوى وتقوم الليل بالسُّورِ
نالَ الخلافةَ إذ كانتَ له قَدَرًا كما أتى ربّه موسى على قَدَرِ
ويشير إلى سياسة عمر في طرح العشور عن الرعية وكل ما كان يُسجّبي منها غير الخراج^(٤) ، فيقول في مدحة أخرى :

إن الذي بعث النبيَّ محمّداً جعل الخلافة في الإمام العادلِ
ولقد نفعت بما منعتَ تحرّجاً مكّسَ العُشور على جسور الساحلِ^(٥)

طاقتَه . والعافى هنا : السجين . والكبول : القيود . وهو يشير هنا في وضوح إلى عسف الحجاج وظلمه ؛ غير أنه لم يتناول به بالهجوم على نحو ما صنع الفرزدق في ميميته .

(٤) انظر الطبري ٣٢١/٥ .

(٥) موضع المكس حيث طريق المارة في قنطرة أو جسر .

(١) جرير هنا يرسم فعلاً سياسة سليمان فإنه لما ولي الخلافة أطلق الأسارى وأهل السجون وأولى الناس بإحسانه . انظر الطبري ٣٠٤/٥ وراجع ميمية الفرزدق التي نظمها في قتل قتيبة بن مسلم ، وقد تحدثنا عنها في الكلام على النقائض .

(٢) حويل : حيلة وقوة .

(٣) المكلف بعد جهد : الذي كلف فوق

وسرعان ما توفى عمر ، فندبه ندباً حاراً ، يصور فجيعته الأمة فيه حتى
ليقول إن الشمس تبكيه مدى الدهر :

تَنَعَى النُّعَاةُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِنَا يَا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ وَاعْتَمَرَ
حُمِلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبَرَتْ لَهُ وَقَمَتَ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عُمَرَا
فَالشَّمْسُ كَأَسْفَعُ لَيْسَتْ بِطَالِعَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا^(١)

ويتولّى يزيد بن عبد الملك ، ويشور عليه في العراق يزيد بن المهلب ،
ويُثَقِّضِي على ثورته مسلمة ، ويصيح به جرير مراراً في قصائده مدح بها يزيد
ابن عبد الملك ، بنفس الصورة المثالية التي صور بها سابقيه من الخلفاء ، من
مثل قوله :

زَانَ الْمَنَابِرَ وَاخْتَالَتْ بِمَنْتَجَبٍ مَثَبَتْ بِكِتَابِ اللَّهِ مَنْصُورٍ
وَيَصِفُهُ بِالْعَدْلِ وَأَنَّهُ وَرَثَ الْمَلِكِ عَنْ آبَائِهِ بَعْدَهُ مِنْهُمْ . ودائماً ينوّه في مدح
لهم بهذا العهد ، فليست الخلافة عامة في الأمة ولا في قريش ، بل هي وراثية
في بني أمية تتوالى فيهم بعهود موثقة . وآخر من مدحهم منهم هشام بن عبد
الملك ، وفيه يقول في آخر قصيدة مدحه بها ، وقد أرسلها إليه مع ابنه عكرمة :
إِلَى الْمَهْدِيِّ نَفَزَ إِنْ فَرَعْنَا وَنَسْتَسْقِي بَغْرَتَهُ الْغَمَامَا
وَحَبْلُ اللَّهِ يَعْصِمُكُمْ قُوَاهُ فَلَا نَخْشَى لَعْرُوتَهُ انْفِصَامَا^(٢)

ومدح جرير بجانب الخلفاء كثيراً من أبنائهم ، فهو يمدح مسلمة بن عبد الملك
وعبد العزيز بن الوليد وأخاه العباس وأيوب بن سليمان ومعاوية بن هشام ،
ودائماً ينوّه بالأسرة وأن الله اختارها للأمة ، فإذا قلنا بعد ذلك إنه عاش منذ
عرف عبد الملك داعية للأمويين لم نكن مبالغين . وليس له في سواهم إلا مدائح
قليلة فقد مدح الحجاج وصهره الحكم بن أيوب كما قدمنا ، ومدح خالد القسري
مستشفعا للفرزدق كي يُطْلَقَهُ ، ومدح بعض أشراف قيس وتيم مثل المهاجر بن

(١) يريد بقوله نجوم الليل والقمر أبد

(٢) قوى الحبل : طاقاته .

الآبدين .

عبد الله الكلاني والجنيد بن عبد الرحمن المري وهلال بن أحوز المازني الذي نكل بال المهلب في ثورتهم . ويظل أضخم صوت في ديوانه تغنى به مادحاً صوته في الأمويين . ولعل فيما قدمنا ما يدل على أنه لم يكد يلم بهذا الفن من فنون الشعر حتى برز فيه على أقرانه ، وبدون شك كان يسبق فيه الفرزدق ، وفي رأينا كما قدمنا أنه كان فيه مع الأخطل فرسي رهان ، بل لقد كان يتقدمه في كثير من الأحيان بعذوبة لفظه ، وأيضاً بما كان يضع حول ممدوحيه من إطار الإسلام ومثاليته الكريمة .

ودائماً يتقدم جرير الأخطل والفرزدق جميعاً في الموضوعات التي تتطلب دقة في الإحساس ورقة في الشعور ، إذ كان الأخطل متكلفاً يصطنع الوقار ، وكان الفرزدق - كما أسلفنا - صاحب نفس خشنة صلبة ، ولذلك تفوق في الفخر وساعده أن وجد مادة غزيرة من مناقب عشيرته وآبائه هيأته ليرسل كلماتها كأنها العواصف القاصفة والصواعق المدمرة . أما جرير فلم يكن لعشيرته ولا لآبائه شيء من المآثر الحميدة ، فانطوت نفسه على حزن عميق صقى جوهرها ، وزاد في هذا الصفاء تأثره بالإسلام إذ كان ديناً عفيفاً طاهر النفس . وقرأ رثاءه لزوجته أم حنزة ، إذ يقول :

لولا الحياء لعادني استعبارُ ولُزرتُ قَبْرَكَ والحبيبُ يُزَارُ
ولَهتْ قلبي إذ علتنى كِبَرَةٌ وذوو التائم من بَنِيكَ صِغارُ
ولقد أراك كُسيَتِ أجملَ منظرٍ ومع الجمال سَكِينَةٌ ووقارُ
صَلَّى الملائكة الذين تُخَيَّرُوا والصالحون عليكِ والأبرارُ

فإنك تحس تفجعه المرير، لقيام سور الموت الصفيق بينها وبينه هو وأولادها، وهو يدعو لها دعاء المسلم المؤمن قلبه، محيياً فيها جمالها وخلقها الرفيع . وتدل دلائل كثيرة على أن علاقاته بزوجاته : أم حنزة هذه وأمامة التي أهداها إليه الحجاج وأم حكيم الديلمية أم ابنيه بلال ونوح ، كانت علاقات وُدٍّ ومحبة . ولم تنشز عليه سوى جارية اشتراها بأخيرة ، وقد عابت عليه عيشه وكبيرة سنه ، ففارقها راضياً . أما زوجاته المذكورات فكان يبادلنه ودّاً بود ، وقد اتخذهن

موضوعاً لغزله الرقيق الذى كان يقدّم به بين يدى قصائده ونقائضه . وأتاح له صفاء نفسه وانطواؤها على الحزن أن يبلغ من هذا الغزل كل ما يريد من تصوير الحب الخالص الطاهر ، إذ ما يزال فيه يتألف ويستعطف ويشكو ويتضرّع على شاكلة قوله :

بنفسى من تجنّبهُ عزيزٌ علىّ ومنّ زيارته لمأم^(١)
ومن أُمسى وأصبح لا أراه ويَطْرِقنى إذا هَجَعَ النَّيَّامُ
وقوله :

لقد كُتِمْتُ الهوى حتى تَهَيَّمْنِى لا أَسْتَطِيعُ لهذا الحب كِتْمَانَا
إن العيون التى فى طرفها مرضٌ قَتَلْنَنَا ثم لم يُخَيِّن قَتْلَانَا
يَضْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَأَحْرَاكَ بِهِ وَهْنٌ أَضْعَفُ خَلْقَ اللَّهِ أَرْكَانَا
أَتَبْعْتَهُمْ مُقَلَّةً إِنْسَانُهَا غَرِقٌ هل ما ترى تاركٌ للعَيْنِ إِنْسَانَا^(٢)
وكان إذا هجا نساء من يهجوهُ أصبح سما ذعافاً لا يطاق ، فإذا أشاد بنساء عشيرته أو بنساء عشيرة النّوّار زوجة الفرزدق إغاظه له وكيداً نثر فوقهن زهور شعره ، واصفاً خلقهن الكريم وجمالهن الباهر الذى يَشْغَفُ القلوب ، ومن بارع قوله فى نساء عشيرة النّوّار :

وهنّ كماءُ المَزْنِ يُشْفَى بِهِ الصَّدَى وكانت ملاحاً غيرهن المشارب^(٣)
ولعل شاعراً قديماً لم يستطع أن يصف عواطف الأبوة وحنانها تلقاء الولد على نحو ما صوّر ذلك فى هذه المقطوعة التى يصور فيها حبه لابنه بلال :

إن بلالاً لم تَشْنِهْ أُمُّهُ يَشْنِى الصُّدَاعَ رِيحُهُ وَشَمُّهُ^(٤)
ويُذْهِبُ الهمومَ عَنى ضَمُّهُ يَنْفَحُ رِيحَ الْمَسْكِ مُسْتَحَمُّهُ
يُنْظِى الْأُمُورَ وَهُوَ سَامٍ هَمُّهُ بَحْرُ الْبَحُورِ وَاسِعٌ مَجْمَعُهُ^(٥)
يُفْرِجُ الْأَمْرَ وَلَا يَغْمُهُ فَنَفْسُهُ نَفْسِي وَسَمِي سَمُّهُ^(٦)

(١) يريد أن طيفها يزوره وهو نائم فى الحين بعد الحين .

(٢) إنسان العين . سواد حدقتها .

(٣) المزن : السحاب . الصدى : العطش .

(٤) يشير إلى أن أمه أعجمية ، ولم تشنه عجمتها .

(٥) المجم : الصدر .

(٦) يغمه : يهيمه ويستره .

وواضح أن جريراً كان لا يبارى في جميع الموضوعات التي تتصل بدقة الأحاسيس ورقة الشاعر ، وهو لذلك يسبق الأخطل والفرزدق في الرثاء والغزل وعواطف الزوجية والأبوة ، وهو كذلك يسبقهما في الهجاء الخالص إذ كان يعرف كيف يرش سهامه ويسدّ دها إلى نخور خصومه ، محمّلاً لها كل ما يمكن من سخر . وليس لأحدهما موضوع يتقدم به عليه سوى ما كان من فخر الفرزدق إذ لم يكن لجرير مادة يبنى منها فخره ، إلا أن يرتفع عن عشيرته إلى ربوع أو إلى تميم عامة ، حينئذ تستدّ عنه أبيات رائعة كقوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلّهم غضابا

ولكنه على كل حال يقصر عن الفرزدق في هذا المجال . ومن الحق أن الفرزدق كان نسبياً ثراً من ينابيع الشعر ، ولذلك استطاع الصمود لجرير ، والأخطل — مع أنه استطاع أن يثبت له — يأتي دون الشاعرين جميعاً ، إلا ما يسوقه في التذرة من قطع مديح متوهجة . وساق نفس هذا الحكم عليهم قديماً بشار ، فقال حين سأل سائل عنهم : « لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربعة تعصبت له وأفرطت فيه » ومضى يفضل جريراً على الفرزدق فقال : « كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد مات النّوار (زوجه) فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير : إذ لم يجدوا للفرزدق شعراً يصلح . فقال له السائل : وأي شيء لجرير من المراثي إلا التي رثى بها امرأته : أم حنّرة ، فأورد عليه بشار مرثيته في ابنة سودة التي يقول فيها :

فأرقتني حين كفّ الدهر من بصري وحين صرّت كعظم الرّمة البالي

فاقتنع سائله (١) .

وإذا رجعنا إلى أساليب الثلاثة وجدنا الأخطل يُعنى أشد العناية بصقل ألفاظه وتنقيحها ، وكأنه من ذوق مدرسة زهير الجاهلية ، ولم يكن الفرزدق يُعنى بصقل ألفاظه كل هذه العناية ، ومن ثم ظهر فيها كثير من صور الانحراف والشذوذ على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وقد أتاه ذلك — كما أسلفنا — من

(١) ابن سلام ص ٣٩١ .

خشونة نفسه وصلابتها ومن تمرده الطاغى . وما لا شك فيه أنه كان قوى البصيرة
 فى نقد الشعر وتمييز جيله من رديئه ، حتى قالوا إنه كان يَسْطُو على بعض أبيات
 معاصريه ، حين يهره حسنًا ويفرط بها إعجابه . وهو بعامة يمتاز فى شعره
 بمجازلة لفظه وشدة أسرّه . أما جرير فإنه لا يبارى فى عذوبة كلمه وحلاوة نغمه ،
 فإذا قرأته أحسست الذوق المهذب المصافى ، وقد جاءه ذلك من تأثره بالقرآن
 الكريم وأساليبه ، وكانت نفسه لينة رقيقة لا تشوبها شوائب من تمرد ، فجرت
 أشعاره صافية ، كأنها الجداول الرقاق ، أشعار تلذُّ الأذن بكمال جرسها وتلذ
 النفوس والأفئدة .

الفصل الرابع

شعراء السياسة

١

شعراء الزبيريين

رأينا في غير هذا الموضع كيف أخذت تظهر في صفوف الأشراف من أبناء كبار الصحابة معارضة حادة لأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد بولاية العهد واستخلافه له من بعده ، وكيف قاد الحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير هذه المعارضة . وحدث أن دعا بعض أهل الكوفة الحسين ليبايعوه ، ومضى إليهم غير أنه قُتل دون غايته ، فخلا الجوّ لابن الزبير الذي عاذَ بمكة ، وقد اتخذ من قَتْل الحسين أداة للتشجيع على يزيد وعمّاله ، وثارَت المدينة ، وأوقع بها يزيد وقعة الحرّة المشهورة . فانتسعت الجروح في الحجاز ، وبدا للعيان أن الأمويين ، وإن كانوا قرشيين ، يحكمون بسيوف كتّلب وغيرها من قبائل الشام اليمنية ، وكأنه لم يَعدْ لقريش ولا للحجاز عامة شيء في الحكم . وحقاً أن الأمويين قرشيون ولكنهم حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها في الحجاز إلى دمشق ، ولم يعودوا يستندون في حكمهم على قريش ، بل أصبحوا يستندون على قبائل الشام اليمنية ويحكمونها في رقاب الناس ، بل لقد استباحوا بها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضوا يتدّون الخلافة كما ولها يزيد ، لا بسلطان شرعى ، وإنما بسلطان السيف والقوة ، إذ أن يزيد لا يأتي أولاً بين أبناء كبار الصحابة فينبههم من يفضّلونه بسابقة آبائهم في الإسلام وبسيرتهم الفاضلة . واتجه الجيش الذي نكسب المدينة في وقعة الحرّة إلى مكة حيث يعوذ ابن الزبير ، وهب كثير من العرب حتى من الخوارج للدّؤد عن البلد الحرام . وضُرب من حوله حصار ،

غير أن الأنباء جاءت بموت يزيد ، فرفع الحصار ، وعاد الجيش أدرجه .
وبدا حينئذ كأن ابن الزبير هو القرشي الذي اختير للجماعة ، فأبوه من
كبار الصحابة المقدّمين وأمه أسماء أخت السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله
عليه وسلم . وكان قوى الشخصية تقياً وشارك في فتوح إفريقية ، وسرعان ما
انضمت تحت لوائه قيس في الشام والجزيرة وتبعته العراق ومصر ، وكذلك تبعته
خراسان بقيادة عبدالله بن خازم السلمي القيسي . وولى بعد يزيد ابنه معاوية
بعهد منه ، ولكنه توفّي سريعا ، وبدا كأن حكم بني أمية قد انتهى ، حتى ليقول
ابن عرادة بخراسان^(١) :

أَبْنَى أُمِيَّةَ إِنَّ آخِرَ مُلْكِكُمْ جَسَدٌ بِحُورَيْنِ ثُمَّ مَقِيمٌ^(٢)
طَرَقَتْ مِنْيَتُهُ وَعِنْدَ وَسَادِهِ كُوبٌ وَزِقٌ رَاعِفٌ مَرثُومٌ^(٣)
وَمُرْنَةٌ تَبْكِي عَلَى نَشْوَانِهِ بِالصَّنَجِ تَقْعُدُ تَارَةً وَتَقُومُ^(٤)

وظل ابن الزبير يقود الولايات التي تبعته من مكة ، ولم يلبث مروان بن
الحكم أن ظهر بالشام تستنده كلب والقبائل اليمنية، وأوقع بقيس الشام وقعة
مَرَجٍ راهط المشهورة، فخلصت له الشام ، ولم تلبث مصر أن استجابت له ،
وولّى عليها ابنه عبد العزيز . وبذلك تحولت الخلافة من بيت السفينيين إلى
بيت المروانيين ، فإن مروان لم يلبث أن توفّي وخلفه ابنه عبد الملك ، وكان
سياسيا أريباً ، يعرف كيف يستخدم المال في جمع الناس من حوله ، وكان في
ابن الزبير بخل وحرص شديد جعل كثيراً من العرب ينصرفون عنه ، ويضرب
الرواة لذلك مثلاً هو أن فضالة بن شريك الأسدي، وقيل بل ابنه، وقد عليه^(٥)

(١) طبري ٤/٤٢١ .

(٤) مرنة : مغنية .

(٢) حوارين : قرية من قرى حمص توفى بها

(٥) انظر في هذه الوفادة ترجمة فضالة بن

يزيد .

شريك في الأغاني (طبع دار الكتب) ٧١/١٢

(٣) راعف : سائل . مرثوم : انكسر حتى

وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٧/٤٢٤ والإصابة

تقطرت منه الخمر .

٢٢٤/٣ ومعجم الشعراء ص ١٧٦ .

فقال له: إن ناقتي قد نَقِبتَ^(١) وَدَبَرَتْ^(٢) ، فقال: ارقعها بجلد^(٣) ، واخصفها بهُلْبٍ^(٤) ، وسِرَ البرَدَيْنِ^(٥) بها تصحّ ، فقال فضالة : إني أتيتك مُسْتَحِمّاً ولم آتِكَ مستوصفاً ، فلعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال له ابن الزبير : إن^(٦) وراكها . وانصرف فضالة من عنده ، وهو يقول :

شكوتُ إليه أنْ نَقِبتَ قُلوصي فردَّ جوابَ مشدودِ الصَّفادِ^(٧)
يَضُنُّ بناقةٍ ويروم مُلْكاً محالً ، ذلکم غیرُ السِّدادِ

ومضى يُشيدُ بنبي أمية وكرمهم الفياض ، ويقول إنه صائر إليهم . ولعل في هذا الحادث ما يفسر السبب في قلة الشعراء الذين صدروا عن رأي ابن الزبير في الخلافة مدافعين عنه بنبال شعرهم ، وكأنما لم تكن تعنيه هذه النبال . وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك شعراء يقفون في صف ابن الزبير ، وإنما معناه أنه رغب بنفسه عن هذا اللون من الدعاية ، أو قل رغب به شُحُّه عنه ، ومع ذلك فقد وقف في صفِّه كثير من الشعراء ، لا في الحجاز حيث كان يدعو لنفسه بل بين قيس في الشام والجزيرة ولدن أخيه مصعب وإلى على العراق . ومَرَّ بنا في غير هذا الموضع أن العصبية والوقائع الحربية اشتعلت بين القبائل القيسية من جهة والقبائل اليمنية وتغلب من جهة ثانية ، وأن الشعراء في الطرفين جميعاً سَكُّوا ألسنتهم مدافعين عن قبائلهم ومهاجمين ، أو بعبارة أخرى مفاخرين ومهاجين هجاء مريراً . ولم يكن الطرفان يتناقضان في العصبية القبلية فحسب ، بل كانا أيضاً يتناقضان في السياسة ، إذ كان هوّى قيس مع ابن الزبير وهوّى القبائل اليمنية وتغلب مع بنى أمية ، ومن ثم اختلطت في أشعارهم العصبية بالسياسة ، ومن خير ما يمثل ذلك قصيدة «خَفَّ القَظَيْنِ» التي ضمنها الأخطل هجاء قيس ومديح عبد الملك مصوراً موقف قبيلته من الخلافة الأموية وما قدمته لها من

(١) نَقِبت : من نَقَب البعير إذا حَنَى ورقت
أخفافه .
(٢) دَبَرَتْ : أصابها جرح في ظهرها .
(٣) ارقعها بجلد : يريد أن يجعل لها خفاً من جلد .
(٤) هُلْب : الشعر . الخصف : الحرز . يريد
(٥) البردين : الغداة والعشي .
(٦) إن هنا بمعنى نعم .
(٧) القلوص : الناقة . الصفاد : ما يشد به الأسير من قيد ونحوه .

مساعدات حربية ولسانية . وحين نتصفح أشعار زُفَر بن الحارث نجدتها تقطر عصبية^(١) عنيفة ، فهو دائماً يتهدد تغلب وكلبا وأخواتها من القبائل اليمنية ، وهو في تهديده لا ينسى ابن الزبير وأنه يقف من دونه ضد قبيلة كلب وزعيمها ابن بَحْدَل الذي بناصر بنى أمية ، يقول^(٢) :

أَفَى اللَّهِ أَمَا بَحْدَلُ وابْنُ بَحْدَلِ فَيَحْيَى وَأَمَّا ابْنُ الزَّبِيرِ فَيُقْتَلُ
كذبتُم وبیتِ اللَّهِ لا تَقْتُلُونَهُ ولا یکن یومٌ أغرُّ محجَّلُ^(٣)
ولا یکن للمشرقیة فوقکم شعاعٌ كَقَرْنِ الشمسِ حينَ تَرَجَّلُ^(٤)
وعلى هذا النحو كانت تختلط في أشعار الطرفين الذحول والثارات بالسياسة . وظلوا يجترئون ذلك طويلاً ، إذ نرى جريراً لسان قيس ومحامياً يشنُّ هجوماً قاسياً على تغلب وشاعرها الأخطل الذي انبرى له يردُّ كيده على نحو ما مرَّ بنا في النقائص . وكان مصعب بن الزبير من فتیان قریش شجاعة وسخاء ، فلما ولي العراق لأخيه انهلت غيـوـثـه على الشعراء ، فدحه منهم كثير ونـمـثـل أعشـى همدان ودكـيـن الفـقـيـمـي ، ولكن المدح من حيث هو لا يهمننا ، إنما يهمننا الشعر السياسي الذي كان يدافع عن نظرية ابن الزبير في الخلافة ، هاجياً ابني أمية مؤلباً عليهم القبائل . ولعل شاعراً لم يبلغ من ذلك ما بلغه ابن قيس الرقيات ، فهو شاعر الزبيريين ونظرية السياسية غير مدافعٍ ، ومن ثمَّ ينبغي أن نقف عنده قليلاً .

ابن^(٥) قيس الرقيات

اختلف الرواة في اسمه هل هو عبيد الله أو عبد الله ، والأول أرجح ، لأن في أخباره أنه كان له أخ يسمى عبد الله . وعلى نحو ما اختلفوا في اسمه اختلفوا في

- | | |
|---|--|
| (١) انظر الجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلاذري في مواضع متفرقة والأغاني (سأسي) ١١٢/١٧ ، ١٢٤/٢٠ . | ٥٢٣/١ وابن سلام ص ٥٣٠ وخزانة الأدب |
| (٢) طبری ٤/١٩٩ . | ٢٦٥/٣ والموشح ص ١٨٦ وشواهد المغني ص ٢١١ وحديث الأربعا، لطف حسين (طبعة الحلبي) |
| (٣) يزيد يوماً مشهوراً يبير كلباً ولا يبي ولا يذر | ٣١٦/١ وكتابتنا الشعر والغناء في المدينة ومكة ولعصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص ٢٧٥ . |
| (٤) المشرقية : السيوف . تـرـجـل : ترتفع . | وله ديوان نشره رودكناكس في فينا سنة ١٩٠٢ وحققه تحقيقاً علمياً وأعاد نشره في بيروت محمد يوسف نجم . والرقيات إما صفة لابن قيس فينون قيس وإما مضافة . راجع في ذلك الخزانة . |
| (٥) انظر في ترجمة ابن قيس الأغاني (طبع دار الكتب) ٧٣/٥ وما بعدها والشعر والشعراء | |

سبب نعته بالترقيّات ، وأصوب الآراء أنه كان يشبّب بغير فتاة تسمى رقية ، فنُعت بالرقيات إشارة إلى ذلك . وهو قرشي من بنى عامر بن لؤى ، وُلد بمكة في العقد الثالث للهجرة لقيس ابن شريح بن مالك بن ربيعة (النويعم) بن أُمّ هَيْب بن ضِيَاب بن حُجَيْث بن عَبْد بن مَعِيص بن عامر بن لؤى . وأقدم أخباره تشير إلى ملازمته لبعض المغنين وتصفحه لبعض النساء في الحج ، ولم تكد تقع عينه على رقية بنت عبد الواحد بن أبى سعد أحد أفراد عشيرته الذين هاجروا مع طائفة منها إلى الجزيرة سنة سبع وثلاثين حتى شُغف بها ، وسرعان ما أخذ ينظم فيها أشعاره .

ويظهر أنه تحول عن مكة إلى المدينة وأقام بها طويلا ، ولعل الذى دفعه إلى ذلك تعلقه بالمغنين والمغنيات . ويسوق صاحب الأغاني أخباراً له مع سائب خاثر وبُدَيْح وفيند ، وهم من مغنى المدينة المشهورين ، ونراه يذكر فى بعض شعره داراً له بها ^(١) ، ويبدو أنه لم ينزلها وحده ، بل نزلها مع أخيه عبد الله ونفر من عشيرته . وفى اختلاطه بالمغنين ما يدل على أنه كان يحيا حياة لاهية فى المدينة ، ونراه يشكو من مروان بن الحكم الذى كان يُعقّب معاوية بينه وبين سعيد بن العاص فى حكمها ، إذ كان كل منهما يليها فترة وكانت فى مروان شدة وغلظة فكان إذا ولى يأخذ المغنين ودورهم بالضبط الشديد، ومن ثمّ تعرّض له ابن قيس يصف شدته وقسوته ^(٢) ، وهو فى أثناء ذلك ينظم مقطوعاته فى الغزل ، ويترنّم بها المغنون والمغنيات ، ويستحسنها الناس استحساناً شديداً . ونراه يرحل إلى الجزيرة فى أثناء حكم يزيد بن معاوية ، ويظهر أنه أراد الابتعاد عن المدينة فى تلك الفترة التى ثارت فيها على يزيد . وهناك جاءته الأنباء بموقعة الحرة وأن طائفة من أهل بيته قُتلوا فيها من بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله، فهزته تلك الأنباء هزاً عنيفاً، فإذا هو يبكى من ماتوا من أهله بكاء حاراً ، يقطر بالثورة على يزيد وبنى أمية ، يقول :

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعننى وقسرعن مروية ^(٣)

(١) الديوان (طبعة بيروت) ص ٢٤ . (٢) المروة : حجر أبيض تقدح منه النار .
(٢) الديوان ص ١٧٧ والأغاني ٧٢/٥ وما بعدها . وهو مثل يضرب لمن نزل به شر .

يُنْعَى بنو عَبْدِ وإخوتهم حَلَّ الهلاك على أَقَارِبِهِ ^(١)
 وَنُعَى أسامةُ لى وإخوته فَظَلَّتْ مُسْتَكًّا مَسَامِعِهِ ^(٢)
 تَبْكِي لهم أساءُ مَغُولَةً وتقول ليلي : وَارْزَيْتِيَهُ
 وَاللَّهُ أَبْرَحُ في مَقْدَمِهِ أَهْدَى الجيوشِ ، على شِكَّتِيهِ ^(٣)
 حَتَّى أَفْجَعَهُمْ بِإِخْوَتِهِمْ وَأَسْوَقَ نِسْوَتِهِمْ بِنِسْوَتِيهِ

ولم يلبث يزيد أن توفي ، وتحولت الجزيرة إلى ميادين حروب بين قيس وتغلب على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، واصطدمت عشيرته بعمير بن الحُبَاب بطل قيس في بعض حروبه ، مما جعله يؤثر التحول عن الجزيرة إلى فلسطين ، ولم يلبث أن تركها إلى العراق ، حيث مصعب بن الزبير . وكان طبيعياً أن يجذبه إليه ، فقد رأيناه حنقاً على بنى أمية منذ موقعة الحرّة ، يريد أن يقود الجيوش ضدهم ، فيثأر لابنى أخيه ، ويسبى نساءهم . وجعله ذلك يستشعر عقيدة الزبيريين ، فالخلافة ينبغي أن تكون في قریش روحاً واقعاً عملياً ، بحيث تكون حاضرتها في الحجاز ، وبحيث تعتمد على القرشيين لا على كُتَلب وأخواتها من قبائل الشام اليمنية التي أوقعت بأهل المدينة وقعة الحرّة المشنومة . وهو يصدر في ذلك عن قرشيته من جهة وعن الكلوم التي أصابت فؤاده من أهل الشام من جهة أخرى ، ومن ثَمَّ كان اعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقاً مخلصاً ، وهو اعتناق يشوبه الحقد على بنى أمية والرغبة الشديدة في أن ينقض حكمهم في الشام انقضاضاً ، ولعل خير ما يصور ذلك قصيدته الحمزية التي يفتتحها بقوله :

أَفْقَرْتُ بَعْدَ عَبْدِ شَمْسٍ كَدَاءُ فَكُدَى فَاالرُّكْنُ فَالْبَطْحَاءُ ^(٤)
 وَمَضَى يَطِيلُ فِي ذِكْرِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي هَجَرَهَا الْأُمُيُوتُ إِلَى دِمَشْقَ وَرَبُوعَ

(١) بنو عبد: عشيرته نسبها إلى جده السابع .
 (٢) استكت المسمع : صمت وضاعت ، هو مثل يضرب للنبا الشديد يعرك سامعه .
 (٣) مقدمة : يريد مقدمة الجيش . الشكة :
 السلاح التام .
 (٤) كداء وكدى : جبلان بمكة . والركن : ركن البيت الحرام . والبطحاء : حيث كان ينزل أشراف مكة حول البيت في الجاهلية .

الشام منوهاً برجالهم وحسانهم من النساء ، وكأنه يأسى لهذا المصير الذى انتهت إليه قريش . فقد تفرقت بُلْدَانًا وَشِيْعًا ، حتى طمع فيها الطامعون ، ويصرح بذلك فيقول :

حَبَّذَا الْعَيْشُ حِينَ قَوَى جَمِيعٌ لَمْ تَفَرَّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقَبَائِلُ فِي مُذْكِ قَرِيْشٍ وَتَشْمَتَ الْأَعْدَاءُ
وَيَمْضَى فِيرِدَ عَلَى الْخَوَارِجِ وَأَشْبَاهِهِمْ مِمَّنْ كَانُوا يَرُونَ أَنْ تُنْزَعَ الْخِلَافَةُ مِنْ
قَرِيْشٍ وَتُرَدَّ إِلَى الْعَرَبِ ، بَلْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا ، يقول :

أَيُّهَا الْمُشْتَهَى فَنَاءَ قَرِيْشٍ بِيَدِ اللَّهِ عُمرُهَا وَالْفَنَاءُ^(١)
إِنْ تَوَدَّعَ مِنَ الْبِلَادِ قَرِيْشٌ لَا يَكُنْ بَعْدَهُمْ لَحَى بَقَاءُ
فَقَرِيْشٍ هِيَ عَمُودُ الْخِلَافَةِ ، وَلَوْ أَنَّهَا زَالَتْ عَنْهَا لَسَقَطَ رَكْنُهَا سَقُوطًا لَا
يَرْتَفِعُ بَعْدَهُ . وَلَا يَلْبِثُ أَنْ يَتَوَجَّهَ بِخَطَابِهِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ هَاجِيًا :

قَدْ عَمِرْنَا فَمَتَّ بِدَائِكَ غِبْطًا لَا تَمْتِنَنَّ غَيْرَكَ الْأَذْوَاءُ^(٢)

وَيَأْخُذُ فِي الْفَخْرِ بِقَرِيْشٍ وَفَضْلِهَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْخِلَافَةِ ، فَيَذْكُرُ الرَّسُولَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُلَفَاءَهُ الرَّاشِدِينَ وَحِمَزةَ عَمِ الرَّسُولِ وَجَعْفَرَ الطَّيَّارَ وَالزُّبَيْرَ بْنَ
الْعَوَّامِ حَوَارِيَّ النَّبِيِّ وَأَبَا عَبْدِ اللَّهِ وَمَصْعَبًا . وَيُشِيرُ إِلَى انْتِصَارِ مَصْعَبٍ عَلَى
الْمُخْتَارِ الثَّقَفِيِّ ، وَيَعْرِضُ لِمَا كَانَ يَزْعَمُ مِنْ أَنَّهُ يُوْحَى إِلَيْهِ ، وَيَمْدَحُ مَصْعَبًا ، فيقول :

إِنَّمَا مَصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ الْأَلَاهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مَلِكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبَرِيَاءُ

وَيَعُودُ إِلَى الْاِفْتِخَارِ بِقَرِيْشٍ وَرِجَالِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَيَفْتَخِرُ بِبَيْتِهَا
الْحَرَامِ الَّذِي يَحْجُّ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، وَيَأْسَى لِحَرْقِ جِيُوشِ الشَّامِ
هَذَا الْبَيْتِ حِينَ حَصَارِهَا لِابْنِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ مَوْقِعَةِ الْحَرَّةِ ، وَيُشِيدُ بِنَاءَ ابْنِ
الزُّبَيْرِ لَهُ بَعْدَ هَذَا الْحَصَارِ ، وَلَا يَلْبِثُ أَنْ يَدْعُو دَعْوَةَ عَنِيفَةٍ لِحَرْبِ عَبْدِ الْمَلِكِ

خِلَافَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَأَنَّهَا اسْتَقَرَّتْ لَهُ أَعْوَامًا .

(١) عَمَرُهَا : يَرِيدُ بَقَاءَهَا .

(٢) عَمِرْنَا : عَشْنَا زَمَنًا طَوِيلًا ، يُشِيرُ إِلَى

وبنى أمية الذين استباحوا المدينة والبيت الحرام ، وقتلوا الحسين فى كربلاء يقول :

كيف نوى على الفراش ولما تَشْمَلِ الشَّامَ غارةً شَعْوَاءُ
تُذهِلُ الشَّيْخَ عن بَنِيهِ وتُبْسِدِي عن بُراها العَقِيلَةَ العَذْرَاءُ^(١)
أنا عنكم بنى أمية مُزَوِّرٌ وأنتم فى نفسى الأعداءِ
إنَّ قَتْلِي بِالطُّفِّ قد أوجعتنى كان منكم لئن قُتِلْتُمْ شفاءً^(٢)

وهذه هى الأنغام السياسية التى كان يوقِّعها على قيثارته الشجية ، وكان يضيف إليها مديحاً لعبد الله بن الزبير وبيان أنه أحق قرشى بالخلافة . وكان لا يزال يذكر وقعة الحرة مضيفاً إليها وقعة مَرَجٍ راهط التى هُزِمَ فيها أنصار ابن الزبير من القبائل القيسية متوعداً عبد الملك بالغارات الميبرية . ومُشيداً بمصعب وشجاعته وكرمه وتقواه . وكان قد رأى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين لجَّ الهجاء بينه وبين يزيد بن معاوية يتخذ الغزل الفاضح برملة أخته وسيلة إلى الهجاء المقذع ، فحاكاه فى هذا الاتجاه بغزله بعاتكة زوجة عبد الملك وأم البنين زوجة ابنه الوليد . وفى الوقت نفسه كان يشبب بزوجتى مصعب : عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين تشبيهاً كله وقار ، وكأنه أزهار ثناء . يريد أن يرضى بها مصعباً . ونحن لا نقرن الصورتين من الغزل بعضهما إلى بعض حتى نرى خبثه ومكره ، وكيف استطاع أن يتخذ من الغزل أداة لشعره الزبيرى السياسى ومن قوله فى عائشة ، وقد بعث به مصعب إليها وهى غاضبة عليه ليرضّاها^(٣) :

جَنِيَّةٌ برزت لتقتلنى مَطْلِيَّةُ الأَصْدَاغِ بِالْمِسْكِ
عَجَباً لِمَثَلِكِ لا يكون له خَرَجُ العِرَاقِ وَمِنْبَرُ المُلْكِ^(٤)
تَرْمِي لتقتلنا بِأَسْهَمِها وَنَزْنُها بِالْحَلَمِ والنُّسْكِ^(٥)

القطعة بأبيات فى أم البنين لاشك فى أنها ملأت صدر عبد الملك موجدة .

(٤) يريد بمنبر الملك الخلافة وكأنه يتمناها لمصعب .

(٥) نزنها : نسبها إلى .

(١) البرى : الخلاخيل . وقد كنى بذلك عما يصيبهن من فزع شديد .

(٢) الطف : من ضواحي الكوفة حيث كربلاء التى قتل فيها الحسين .

(٣) انظر الأغاني (طبع دار الكتب)

١٧٦/١١ وقارن بالديوان ص ١٤١ وقد وصل

وواضح أنه يحوطها بالنسك والطهارة والعفاف ، واقرن هذه الصورة إلى غزله بعاتكة وأم البنين الذي كان يسوقه في مقدمة مدائحها لمصعب ، فإنك ستراه يعرضهما في صورة تؤذيها كقوله في عاتكة :

بَدْتُ لِي فِي أَتْرَابِهَا فَقَتَلَنِي كذلك يقتلن الرجال كذلك
وقالت لو أَنَا نَسْتَطِيعُ لَزَارَكُم طبيين منا عالمان بدائكما^(١)

ويتخيل أم البنين جاءت في الحلم ، فنال منها كل ما أراد ، وكانت امرأة مبتذلة ، لا يمسكها طهر ولا عفاف ، فهي تمنع معه في اللهو إلى طلوع الفجر ، يقول :

أَتَتْنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ تَ هَذَا حِينَ أُعْقِبُهَا^(٢)
فَلَمَّا أَنْ فَرِحْتُ بِهَا وَمَالَ عَلَى أُعْذِبُهَا^(٣)
شَرِبْتُ بِرِيقِهَا حَتَّى نَهَلْتُ وَبِتُ أَشْرِبُهَا^(٤)
وَبِتُ ضَجِيعُهَا جَذَلًا نَ تَعَجِبُنِي وَأَعْجِبُهَا^(٥)
وَأَيَقُظُنَا مَنَادٍ فِي صَلَاةِ الصَّبْحِ يَرْقُبُهَا^(٦)

وظل على هذا النحو يصول ويجول بشعره ضد عبد الملك وبنى أمية ونسائهم ، معلناً أن صلاح الأمة لا يتم إلا باجتماعها على ابن الزبير الذي يمثل الحكم القرشي الصحيح . وما نصل إلى سنة ٧١ للهجرة حتى يقدم عبد الملك بجيش ضخم إلى العراق لحرب مصعب ، فيلقاه في دَيْرِ الجاثليق ، وقد انفض عنه أكثر أنصاره ، ولم تبق معه سوى بقية قليلة بينها ابن قيس . ويُقتل مصعب ويفرُّ ابن قيس إلى الكوفة متفجعاً على صاحبه آسياً لا نفصاض العراقيين عنه ، ويطلبه عبد الملك ، فيستتر منه عند امرأة أنصارية تسمى كثيرة نحو عام ، ونظن ظناً

(١) طبيان : يريد رسولين ، ويريد بالداء (٤) نهلت : رويت . أشربها : أسقيها .
الحب الذي سرى في نفس عاتكة له . (٥) جذلان : فرح .
(٢) أعقبها : صارت عقبها لى أى صارت إلى . (٦) يرقبها : أى يرقب الصلاة .
(٣) أعذبها : فها .

أنها زوجة^(١) على بن عبد الله بن العباس ، وكان ممن يجيرون على عبد الملك ، ولكن يظهر أنه لم يستطع أن يطلب العفو منه على ابن قيس الرقيات لأن ذنبه كان عظيماً . ومن ثم رأيناه يخرج من مخبئه ، ميمماً وجهه شطر عبد الله بن جعفر في المدينة ، ويقال إنه راسل عبد العزيز بن مروان كى يشفع له عند أخيه ، ولبناه عبد العزيز ، فأرسل إلى ابنته أم البنين ، وكان عبد الملك لا يرد لها طلباً ، أن تشفع فيه ، وقُبِلت شفاعتها ، وقيل بل راسلها ابن جعفر وفي رواية أن ابن جعفر هو الذى شَفَعَ له عند عبد الملك ، ولم يلبث أن مثل بين يديه ينشده باثيته التى يقول فيها :

ما نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ لَأَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهُمْ مَعْدِنُ الْمُلُوكِ فَلَا تَصْلَحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ
إِنَّ الْفَنَيْقَ الَّذِي أَبَوْهُ أَبَوَا عَاصَى عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحُجُبُ^(٢)
خَلِيفَةُ اللَّهِ فَوْقَ مَنْبَرِهِ جَفَّتْ بِذَلِكَ الْأَقْلَامُ وَالْكَتَبُ
يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرَقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

ويظهر أن عبد الملك لم يَطِيبْ نفساً له ، ومن ثم نرى ابن قيس يولى وجهه شطر العراق فيمدح أخاه بشراً ، ويُعْطِيهِ الْجَزِيلَ . ويعود من لدنه إلى الحجاز فيعيش في ظل ابن جعفر يُغْدِقُ عليه من بَرِّهِ ونواله ، ويجذبه جود عبد العزيز بن مروان بمصر ، فيرحل إليه ، ويمكث عنده طويلاً ، حتى إذا فكر عبد الملك في صَرْفِ ولاية العهد عنه إلى ابنه الوليد رأيناه يثور معه على أخيه ، إذ يقول في بعض مدائحه له ، مبشراً له بالخلافة وأنها ستصير إليه وإلى بنيه :

لَتَهْنَهُ مِصْرُ وَالْعِرَاقُ وَمَا بِالشَّامِ مِنْ بَزَّةٍ وَمِنْ ذَهَبِهِ^(٣)
يَخْلُفُكَ الْبَيْضُ مِنْ بَنِيكَ كَمَا يَخْلُفُ عَوْدُ النَّضَارِ فِي شُعْبِهِ^(٤)
نَحْنُ عَلَى بَيْعَةِ الرَّسُولِ وَمَا أُعْطِيَ مِنْ عُجْمِهِ وَمِنْ عَرَبِهِ

(١) انظروفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة

أوربا) ص ٤١٢ .

(٢) الفنيق : أصله الفحل من الإبل الكريم

على أصحابه .

(٣) البز : الثياب والمتاع .

(٤) النضار : يريد الشجر النضر ، ويخلف

الثانية : ينبت عوداً بعد عود .

وبلغت القصيدة عبد الملك فتروعه ، وعرف ذلك ابن قيس ، فلم يقر له
قرار وضافت الدنيا في عينيه فنظم قصيدة بديعة يذم فيها من يغتابونه عند
عبد الملك رياء له ونفاقاً افتتحها بقوله :

بَشَّرَ الظُّبْيُ والغُرَابُ بسُعدى مرحباً بالذى يقول الغرابُ

وهو فيها يصور ما يلزمه من نَحَسٍ رمز له بالغراب . ويظهر أنه كان يفد
على عبد الملك من حين إلى حين في ديوانه مدائح له مختلفة ، والطريف أنه
يستهل بعضها بغزله بأَم البنين لا على شاكلة غزله القديم الذى كان يريد به أن
يؤذى عبد الملك ، ولكن على شاكلة غزله بعائشة بنت طلحة ، فهو يصف
جمالها وقارها متلفظاً . وليس في ديوانه مدائح في الوليد مما يدل على أنه إن
كان لحق عصره فإنه لم يعيش فيه طويلاً . وفي ديوانه قصائد مختلفة مدح بها
عبد الله بن جعفر ، وهو يشيد به وبجوده إشادة رائعة على شاكلة قوله :

أَتَيْنَاكَ نُثْنِي بالذى أَنْتَ أَهْلُهُ عليك كما يُثْنِي على الروض جارُها
إِذَا مُتَّ لَمْ يُوصَلْ صَدِيقٌ وَلَمْ تَقُمْ طَرِيقٌ مِنَ المعروف أَنْتَ مَنَارُها

ومن مدحهم ونوه بهم طويلاً طلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان ، وهو
يثنى على كرمه وشجاعته ، وفيه يقول حين توفى بيته المشهور من مرثية
فيه بديعة :

نَضَّرَ اللهُ أَعْظَمًا دَفَنُها بِسِجِسْتَانَ طَلْحَةَ الطَّلِحَاتِ

وليس له وراء هجائه السياسى سوى قطعة هجا بها عبد العزيز بن عبد الله
ابن خالد حين هُزِمَ في حربه للأزارقة ، وهو لا يقسو فيها قسوة الهجائيين في
عصره .

وحتى الآن لم نتحدث عن غزله ، وهو في الطليعة من شعراء الغزل المكيين ،
ولو أنه لم يشغل نفسه بالمديح والدعاية للزبيريين وخُلصَ للغزل على شاكلة
عمر بن أبى ربيعة لما قصر عنه في هذا الفن ، وقد رأيناه في مطلع حياته يلزم

المغنين والمغنيات ، وكان لذلك أثر واسع في موسيقى شعره ، إذ تمتاز بالنقاء والصفاء والعذوبة حتى في مدائحه ومراثيه . وليس ذلك فحسب ، فإنه من أكثر الحجازيين عناية بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة ، وهو من هذه الناحية يُطَبِّع شعره بطوايع الغناء التي عاصرتة ، إذ نجد عنده حلاوة النغم وخفة الأوزان بحيث تحمل كل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام وترنيمات على مثال قوله :

رُقِيَّ بِعَيْشِكُمْ لَا تَهْجُرِينَا وَمَنْبِنَا الْمُنَى ثُمَّ امْطَلِينَا
عِدِينَا فِي غَدٍ مَا شَتَّ إِنَّا نُحِبُّ - وَإِنْ مَطَلَتْ - الْوَاعِدِينَا
فَلَمَّا تُنْجِزِي عِدَّتِي وَإِنَّمَا نَعِيشُ بِمَا نُوْمِلُ مِنْكَ حِينَا

وقوله :

رُقِيَّةٌ تَيَمَّتْ قَلْبِي فَوَاكَبْدِي مِنَ الْحَبِّ
وَقَالُوا اِدَاوُهُ طَبُّ أَلَا بَلْ حُبُّهَا طِبِّي

وقوله :

حَبٌّ ذَاكَ الدَّلُّ وَالْغُنْجُ وَالَّتِي فِي عَيْنِهَا دَعَجٌ (١)
وَالَّتِي إِنْ حَدَّثَتْ كَذِبَتْ وَالَّتِي فِي وَعْدِهَا خَلَجٌ (٢)
خَبِرُونِي هَلْ عَلَى رَجُلٍ عَاشِقٍ فِي قُبْلَةٍ حَرَجٌ

ودائماً يجرى غزله على هذه الصورة من عذوبة الألفاظ ورشاقة الألحان . وهو لا يتغزل بمن سُمِّيَ باسم رقية فحسب ، إذ نراه يتغزل بكثيرات ، غزلاً يملؤه بالصباغة واللوعة . وخاصة حين يكون غزله صادقاً لا يريد به سياسة ولا ما يشبه السياسة .

(١) الدل : الدلال . الغنج : حسن الدل
والمزح . الدعج : شدة سواد العين .
(٢) الخلع : الاضطراب وعدم الثبات على حال .

شعراء الخوارج

رأينا في غير هذا الموضع كيف أن الخوارج بفرقهم المختلفة من أزارقة وُصْفَرِيَّة ونبجاء وإباضية ظلوا يحاربون الجيوش الأموية طوال العصر، وكلما قضوا على جماعة منهم هبَّت جماعة أخرى تطلب الاستشهاد في سبيل عقيدتها في ولاية الأمة وأنه ينبغي أن لا تكون قاصرة على قريش ، بل يتولاها خير المسلمين ورعاً وتقوى ولو كان عبداً حبشياً . وقد أخذوا يتصورون الجماعة الإسلامية ضالة عن الطريق الديني الصحيح ، ومضوا يرون جهادها فريضة دينية .

وعلى هذا النحو عاش الخوارج في هذا العصر للحرب ، مستحلين دماء إخوانهم المسلمين ، وهي معيشة طبعت شعرهم بطوايع ميزته من شعر الفرق السياسية الأخرى ، فهو شعر ثوار ترافقهم السيوف في غدوهم ورواحهم وفي استقرارهم وترحالهم . وقد استعذبوا الموت غير آبهين بالحياة الدنيا، ومن ثمَّ كان شعرهم في جملته حماسياً ، وهي حماسة لا تحركها العصبية القديمة ، عصبية القبيلة التي كانت تقوم على الأخذ بالثأر ، وإنما تحركها عصبية حديثة لعقيدتهم السياسية التي تعمقهم مؤمنين بأنها تطابق تعاليم الدين الحنيف وأن عليهم أن يجاهدوا في سبيلها مخلصين ، حتى يفوزوا برضا الله وثوابه .

وكان إخلاصهم لدينهم عظيماً ، غير أنهم ضلوا عن المحجة ، إذ مضوا يشرعون سيوفهم ويسلُونها على المسلمين ، كأن الإسلام لا يحيا إلا في معسكراتهم ، وبذلك مزقوا الجماعة الإسلامية ، إذ ظلوا ثائرين ، وظلت عقيدتهم كأنها مبدأ ثوري يدعوهم دائماً إلى الحرب والقتال . وكانوا أتقياء ، ولكنهم من غير شك كانوا غالبين في نضالهم ، فقد رفضوا الدنيا واستحلوا دماء إخوانهم المسلمين ، وأخذوا يجاهدونهم جهاداً عنيفاً موطنين أنفسهم على طلب الشهادة في ميدان هذا الجهاد ، حتى كان بينهم من إذا طعن فأنفذه الرمح جعل يسعى فيه إلى

قاتله ، وهو يقول : (وعجلتُ إليك ربَّ لترضى)^(١) وكأنا وهبوا أنفسهم للموت . ولهم في ذلك أخبار وأشعار كثيرة يستصغرون فيها الحياة ويهونون من شأنها . من ذلك أن رجلا منهم قدَّمه الحجاج إلى القتل ، فأشدد^(٢) :

ما رغبة النفس في الحياة وإن عاشت قليلا فالموت لاحقها
وأيقنت أنها تعود كما كان براها بالأمس خالقها^(٣)
يوشك من فرَّ من منيته في بعض غراته يوافقها
من لم يمت عبطة يمت هـرما والموت كأمس والمرء ذائقها^(٤)
وعلى هذه الشاكلة كان الموت أمنية كل خارجي ، الموت قعصا بالرماح ،
حتى يفوز بالاستشهاد وبما عند الله من الثواب ، يقول يزيد بن حبشاء وكان
من الأزارقة :

أبيت وسربالى دلاص حصينة ومغفرها والسيوف فوق الحيازم^(٥)
أريد ثواب الله يوما بطعنة غموس كشدق العنبري بن سالم^(٦)
فهم يطلبون الموت ويستعذبونه ابتغاء ثواب الله والفوز برضوانه وجناته ،
وإنهم يستعجلونه تعجلا ، يقول قطري بن الفجاءة^(٧) :

إلى كم تعاريني السيوف ولا أرى معاراتها تدعو إلى جمايا^(٨)
أثارع عن دار الخلود ولا أرى بقاء على حال لمن ليس باقيا
ولو قرب الموت القراع لقد أنى لموق أن يدنو لطول قراعا^(٩)

(٧) انظر في ترجمة قطري وأشعاره وفيات
الأعيان لابن خلكان والملل والنحل ص ٩٠
وأمالى المرتضى ١/٦٣٧ وفهارس الكامل للمبرد
والطبري والبيان والتبيين .

(٨) تعاريني : تطلبني عارية . الحمام :
الموت .

(٩) القراع : مضاربة السيوف في الحرب .
أنى : آن .

(١) المبرد ص ٥٦٤ .

(٢) المبرد ص ٤٣ .

(٣) براها : خلقها .

(٤) عبطة : شابا .

(٥) الدلاص : الدرع الملساء اللينة .

المغفر : زرد يلبس تحت القلنسوة أو حلق

يتقنع به المتسلح .

(٦) غموس : واسعة . العنبري بن سالم :

رجل من الأزارقة كان يقال له الأشدق لسعة فقه .

فهو يريد أن يتخلص من الحياة الزائلة ويترج عنها إلى الحياة الباقية التي لا تزول ، وهو لذلك يستبطن الموت ، وكأنما ملّ دنياه . وتصور لنا هذا الملل إحدى نسايم المقاتلات ، وهي أم حكيم ، إذ تقول ^(١) :

أَحْمَلُ رَأْسًا قَدْ سَمْتُ حَمَلَةً وَقَدْ مَلَلْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
أَلَا فَتَى يَحْمِلُ عَنِّي ثِقْلَهُ

وكانما أصبح الموت شعارهم ، بل قل الاستشهاد ، حتى يلحقوا بالملأ الأعلى ويمن سبقهم إلى جنات ربهم ونعيمه ، يقول أبو بلال مرداس في خروجه ^(٢) :

أَبْعَدُ ابْنِ وَهْبِ ذِي النَّزَاهَةِ وَالتُّقَى وَمَنْ خَاضَ فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ الْمَهَالِكَا
أَحِبُّ بَقَاءٍ أَوْ أَرْجَى سَلَامَةٍ وَقَدْ قَتَلُوا زَيْدَ بْنَ حِصْنٍ وَمَالِكَا
فِيَارِبُ سَلِّمْ نَبِيَّ وَبَصِيرَتِي وَهَبْ لِي التُّقَى حَتَّى أُلَاقِيَ أَوْلَشْكََا

فهو يخرج طلباً للاستشهاد حتى يلحق بعبد الله بن وهب الراسبي والسابقين من رفاقه ، وهو يدعو ربه صادقاً أن ينيله طلبته ، فيقتل في سبيل عقيدته ، وكأن الحياة حجاب صفيق يريد أن يجتازه إلى ربه وإلى رفاقه .

وقد جعلهم ذلك لا يبكون قتلاهم ولا يرثونهم بالصورة التي نجدها عند شعراء الفرق الأخرى ، إذ كان قتلهم يحقق في رأيهم السعادة المنشودة ، وهي سعادة يطلوها كل خارجي لنفسه ، لذلك مضوا يمجدون قتلاهم على شاكلة قول أم عمران الراسبي حين قُتل ابنها في يوم دولاب ^(٣) :

اللَّهُ أَيَّدَ عِمْرَانًا وَطَهَّرَهُ وَكَانَ عِمْرَانُ يَدْعُو اللَّهَ فِي السَّحَرِ
يَدْعُوهُ سِرًّا وَإِعْلَانًا لِيَرْزُقَهُ شَهَادَةً بِيَدِي مِلْحَادَةٍ غُدْرٍ ^(٤)

ودائماً نجد هذه الصورة من الرثاء، إذ يصورون استشهاد قتلاهم زُلفى إلى الله راسمين فيهم مثلاً أعلى للتقوى والصلاح والانكباب على عبادة الله خوفاً من

(١) أغاني (دار الكتب) ١٥٠/٦ وتريد .
أم حكيم يدهن شعرها ما تدهنه به من الطيب .
(٢) المبرد ص ٥٨٦ .
(٣) أغاني ١٤٥/٦ .
(٤) ملحادة : من الإلحاد والناء للمبالغة .
غدر : كثير الغدر .

عذاب ربهم ، يقول عمرو بن الحصين في رثاء عبد الله بن يحيى وقائده أبي حمزة ومن قُتل من أصحابهما ^(١) :

ياربُّ أَسْلَكْنِي سَبِيلَهُمْ ذَا الْعَرْشِ وَاشْدُدْ بِالتَّقَى أَزْرَى
فِي فَتْيَةٍ صَبَرُوا نَفْسَهُمْ لِلْمَشْرِفِيَّةِ وَالْقَنَا السُّمْرِ ^(٢)
مَتَأَهِّبِينَ لِكُلِّ صَالِحَةٍ نَاهِينَ مِنْ لِقَاوَا عَنْ النُّكْرِ
وما يزال يصور خشوعهم وخشيتهم من النار وانكبابهم على العبادة انكباباً
لا ينامون فيه إلا اختلاصاً وآونة بعد آونة إلى أن يقول :

كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ قَدْ فُجِّعَتْ بِهِ قَوَامِ لَيْلَتِهِ إِلَى الْفَجْرِ
مَتَاوَهُ يَتْلُو قَوَارِعَ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ مَفْزَعِ الصَّدْرِ

ويمضي فيصور انصرافهم عن الدنيا ولذاتها واحتسابهم أنفسهم لربهم حتى
إذا أشرعت الرماح وسلَّت السيوف ورعدت الحرب بصواعق الموت تهافتوا
على الموت شوقاً إلى الجنة . ولا ريب في أن هذه صورة جديدة في الرثاء ،
تخالف ما نألفه عند غيرهم من الشعراء ، فهم لا يكون فيمن يرثونهم خلال
الكرم والمروءة ، وإنما يكون فيهم المثل الأعلى للخارجي من التقوى ورفض الحياة
الدنيا وزهرتها ومتاعها ، مصورين إقبالهم على الموت الذي يتمنونه لأنفسهم ،
الموت الذي يفتح لهم أبواب الفرديس والجنان ، فهو موت موصول بآمالهم في
حياة الخلد والرضوان . وهو رثاء حماسي ، فيه دعوة قوية لمنازلة خصومهم رثاء
يفيض بالحنين إلى القتال والمضي قدماً حتى تفيض أرواحهم على أعناق أفراسهم ،
وتتخضب بالدماء صدورهم وصدورهم .

وعلى هذه الشاكلة دائماً رثاؤهم وحماسهم ، فهم يتعطشون للموت ، حتى
القصيدة منهم ، فقد كانت فرقههم سوى الأزارقة تُجيز القعود عن الحرب . ولكن
نحسُّ دائماً كأن هذا القعود هدنة مسلحة إلى حين ، وبذلك نفسر كثرة ثورات
الصفيرية بالموصل ، مع أنهم كانوا أكثر الخوارج تحمساً للقعود ، فهم يقعدون

(١) أغاني (سأى) ١١١/٢٠ وما بعدها . (٢) المشرية : السيوف .

انتظاراً للحوادث وتهيؤاً للقتال ، إلا نفرأ منهم ، أبوا حمل السلاح وتعلقوا بالحياة ، وهو تعلق يُرَدُّ في أكثر الأمر إلى إشفاقهم على بناتهم وأبنائهم أن يقلب لهم الدهر المِجَنَّ من بعدهم ، وكان لا يزال ثُوَّارهم يحمسونهم ، ويدعونهم إلى الخروج عن دار المسلمين الباغين في رأيهم ، ويصور ذلك ما رواه المبرد ^(١) من أن أبا خالد القناني استحبَّ القعود ، فلامه قَطَرِيَّ بن الفُجاءة بمثل قوله :
أبا خالد يا انفِرْ فلستَ بخالد وما جعل الرَّحْمَنُ عُدْرًا لقاعدٍ ^(٢)
أترجم أن الخارجيَّ على الهدى . وأنت مقيمٌ بين لُصٍّ وجاحِدٍ
فكتب إليه أبو خالد .

لقد زاد الحياة إلى حُبِّا بناني لإنهن من الضعافِ
أحاذر أن يرَيْنَ الفقر بعدى وأن يَشْرَبْنَ رَنَقاً بعد صافي ^(٣)
ولا يتحول مثل هذا الاختلاف في الرأي بينهم إلى هجاء حاد ، بل يقف عند هذا اللون من اللوم والاعتذار . وكانوا يحسون حقاً بتعاطف وتراحم قويين بينهم ، فهم أصحاب مقالة واحدة ، وجمهورهم يدافع عنها بأرواحه حتى الدماء الأخير . وعلى نحو ما يقطر شعرهم تعاطفاً وحماسة يقطر زهداً في الدنيا ورفضاً لها طلباً لما عند الله من حسن المثوبة . ومن المحقق أنهم أوغلوا في مقالاتهم دون رفق ودون تفكير عميق في المصلحة الحقيقية للأمة وأن من الخير لها أن تجتمع لا أن تتنازعا فرقا وتتقطع شيعاً ويسفك الأخ دم أخيه .

وملاحظة أخيرة في أشعارهم ، هي أنهم يُبدئون ويعيدون في معانيهم التي صورناها ، ولولا ما يلقانا فيها دائماً من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسنا في أثناء قراءتها بغير قليل من الملل والسأم . ولعل هذا هو السبب في أن شخصياتهم الشعرية قلما تمايزت أو تباينت ، وكأنما هي صور متعددة من نمط واحد ، صور متشابهة ، ومن ثمَّ أشكلت نسبة كثير منها إلى أصحابها الحقيقيين على الرواة ، فتارة ينسبونها إلى هذا الخارجي أو ذاك . وارجع إلى يوم « دولاب »

(١) المبرد ص ٥٢٩ . منادى مثل يا أخى .

(٢) يا انفِرْ يا للتنبيه أو في تقدير حذف (٣) الرنق : الكدر .

في الأغاني فسترى فيه مقطوعة حماسية رائعة من مقطوعاتهم ، اختلف الرواة في ناظمها ، أما المبرد فنسبها إلى قطري بن الفجاءة ، ونسبها المدائني إلى صالح بن عبد الله العَبْشَمِيّ . وقال خالد بن خِدَاش : بل قائلها عمرو والقنّاء ، وقال وهب بن جرير : بل هو حبيب بن سهم ^(١) . ونقف الآن عند شاعرين من شعرائهما هما عمران بن حِطَّان والطَّرِمَّاح .

عمران ^(٢) بن حِطَّان

بَصْرِيٌّ سَدُّوسِيٌّ من شيبان ، نشأ على الفقه والورع ، وقد أدرك صدرًا من الصحابة وروى عنهم ، وروى عنه أصحاب الحديث قبل أن يدخل في مقالة الخوارج . وولقاه في عصر زياد خطيباً يروع من يستمعون إليه ^(٣) . ولا يلبث قلبه أن يتعلق بابنة عم له تسمى جمرة ، كانت خارجية ، فتزوجها ، وأراد أن يردّها عن مذهبها فأغوته وأدخلته فيه ، ويقال إنها كانت ذات جمال ، وكان قبيحاً دميماً ، ويُروى أنها قالت له يوماً : أنا وأنت في الجنة ، قال : ومن أين علمت ذلك ؟ قالت : لأنك أُعْطيت مثلي فشكرت ، وابتليت بمثلك فعصبرت ، والشاكر والصابر في الجنة .

وقد تعمّقت مقالة الخوارج حتى أصبحت جزءاً من نفسه ، فهو يعيش لها ويعيش بها ، ويُشيد بأصحابها حتى بأشقاها عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبي طالب ، وفي طعنته له يقول ^(٤) :

يا ضربةً من تَقَى ما أراد بها إلا ليلغ من ذى العرش رضوانا
إني لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا
ونراه يتأثر تأثراً بليغاً حين قُتل أبو بلال مرداس سنة ٦١ للهجرة ، حتى ليفكر في الخروج وامتشاق الحسام ، يقول :

(١) أغاني ١٤٧/٦ وما بعدها .
(٢) انظر في ترجمة عمران الأغاني (سأسي)
١٤٦/١٦ وما بعدها والمبرد ص ٥٣٠ وما
بعدها والإصابة ١٨١/٥ وخزانة الأدب ٤٣٦/٢
وما بعدها والاشتقاق ص ٣٥٣ وهامش أمالي
المرتضى ص ٦٣٥ .
(٣) البيان والتبيين ١١٨/١ .
(٤) انظر في نقض هذا الشعر المبرد ص ٥٣١
والخزانة ٤٣٦/٢ .

لقد زاد الحياة إلى بُغْضاً وحُباً للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذُرَى العوالى^(١)
ولو أنى علمت بأن حَتَنِي كحتف أبي بلال لم أبال
فمن يك هَمُّه الدنيا فإني لها والله رب البيت قالى^(٢)
فهو يخشى أن يموت على فراشه حتف أنفه ، ولا يموت ميتة الخوارج
الشريفة قعصاً بالرماح ، ميتة أبي بلال ، وقد ظلت ذكره عالقة بنفسه طويلاً ،
حتى ليقول :

أنكرتُ بعدك من قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يامرداس بالناس
وكان الناس جميعاً ما توافيه . ولم يخرج عمران ، فقد كان يؤمن بالقعود ،
ومن ثم اعتنق مذهب الصُّفْرى ودعا إلى القعود ، حتى عدَّ رئيس قَعَدَتِهِمْ . ولم
تقعد به بناته على نحو ما رأينا عند أبي خالد^(٣) ، إنما قعد به — فى أغلب الظن —
حبه لزوجته جمرة ، فقد كان يُشغف بها شغفاً شديداً ، ويعلّل أبو الفرج
ذلك علة أخرى فيقول إنه إنما صار من القعدة ، لأن عمره طال وعجز عن
الحرب وحضورها ، وكأنه يرى أنه اعتنق المذهب فى سن عالية . على أنه إن
كان قعد فقد مضى فى شعره يصور كرهه للحياة وأنها عبء ثقيل كما مضى
يحسّن لغيره الخروج ويزينه ، وكذلك كان قعدتهم فهم لا يشتركون فى
الحروب ويُنغرون بها رفاقهم . ويظهر أنه تمادى فى ذلك لعهد الحجاج ، فطلبه ،
ولم يلبث شبيب الصُّفْرى وزوجته غزالة أن هجما على الكوفة فى بعض أصحابهما ،
فهلّم الحجاج وتحصّن فى قصره ، فكتب إليه عمران :

أسدٌ على وفى الحروب نعامة رِبْداء تنفر من صَفِير الصافر^(٤)
هلا برزت إلى غزالة فى الضحى بل كان قلبك فى جناحى طائر^(٥)

(١) العوالى : الرماح .

(٢) قال : كاره .

(٣) نسبت أبيات أبي خالد إلى عمران فى ترجمته بالأغاني ، والأرجح أنها لأبي خالد كما

جاء عند المبرد .

(٤) رِبْداء : من الربدية وهو لون إلى الغبرة .

(٥) هذا مثل ضربه عمران لتصوير فزع الحجاج ورعبه .

وغضب الحجاج واشتد في طلبه بعد قضائه على شبيب وصاحبته سنة ٧٧ للهجرة ففر منه على وجهه يتنقل في القبائل منتسباً في كل حي نسباً يقرب منه ، وما زال يتنقل شاعراً بمرارة الحياة وما يحتمل في سبيل عقيدته من خطوب حتى انتهى إلى روح بن زنباع الجذامي بالشام . فانتسب له أزدياً فأنزله منزلاً آمناً نحو عام وبالف في إكرامه ، وكان روح سميراً لعبد الملك أثيراً عنده ، فذكر له صاحبه وحسن حديثه وروى له بعض أشعاره ، فرأى عبد الملك فيها ما شككه في أن صاحبه هو عمران ، وذكر ذلك لروح وطلب منه أن يجيئه به ، ونقل روح إليه رغبة عبد الملك ، فقال له : ذلك ما كنت أريد ، وإني تابعك إليه على الأثر ، ولم يلبث أن ارتحل مخلفاً لروح رقعة يقول فيها :

قد كنتُ جاركَ حَوْلاً ما تروّعني فيه روائع من إنسٍ ومن جانٍ^(١)
حتى أردتَ بيَ العظمى فأدركني ما أدرك الناس من خوف ابنِ مروان
ومضى حتى نزل بزفر بن الحارث في قرقيسيا ، فانتسب له أوزاعياً ، وتصادف أن رآه رجل عنده كان قد رآه من قبل عند روح ، فلما قال له زُفَرُ هل تعرفه ؟ قال : نعم أزدى رأيته عند روح ، حيثئذ قال له زفر يا هذا أزدياً مرة وأوزاعياً أخرى ؟ إن كنت خائفاً أمناك وإن كنت فقيراً جبرناك ، فلما أمسى هرب وخلف في منزله رقعة كتب فيها مقطوعة بديعة يستهلها بقوله :

إن التي أصبحتَ يَغِيى بها زُفَرُ أعيتُ عيائَ على رُوحِ بنِ زنباعِ
وارتحل حتى أتى عمان ، وهناك أخذ يثير الناس للخروج والثورة على الحجاج ، فطلبه ، فارتحل حتى أتى قومياً من الأزد في روزميسان بالقرب من الكوفة ، فأقام بينهم حتى توفي سنة ٨٤ .

ولعمران أشعار كثيرة تروى كتب الأدب والتاريخ ، وهو فيها جميعاً يصدر عن إيمان عميق بمقالة الخوارج ، إيمان جعله يزدري الحياة ويزهدها لولا جمرة ، ومن ثم نشأ في نفسه صراع عنيف بين الرغبة في الحياة الكريمة التي يحياها

(١) روائع هنا : من الروع وهو الخوف والفرع .

وما يحتمل فيها من أذى ومكروه وبين الرغبة في الموت ، وعبر عن ذلك في صور مختلفة ، كأن يصوّر تهالك الناس على الدنيا ، وهى ليست بدار قرار ، على شاكلة قوله :

أرانا لا نملُّ العيش فيها وأولعنا بحرصٍ وانتظارٍ
ولا تَبْقَى ، ولا نَبْقَى عليها ولا فى الأمر نأخذ بالخيارِ
كركبٍ نازلين على طريقٍ حثيثٍ رائجٍ منهم وسارى^(١)

ويقف كثيراً عند هذا المعنى ، فالناس يتعلقون بالدنيا حتى جياعهم وعُراتهم فأفَّ لهم من أشقياء لم يتبينوا الطريق السوى . ولا يُحْثَى أنه يسير على كره منه فى نفس الركب ، وأن قلبه هو الآخر ينطوى منها على شئ من الحب والحرص ، وحرى به أن يرفضها رفضاً ، يقول :

أرى أشقياء النَّاس لا يسأمونها على أنهم فيها عُرَاةٌ وجُوعُ
أراها وإن كانت تُحَبُّ فإنها سحابة صَيْفٍ عن قليلٍ تَقْشَعُ^(٢)
وعلى هذا النحو كان لا يزال يردد أن الموت سيأتى على كل الأحياء وأن لا مفر منه لكائن ، فالكُل فان حتى الموت نفسه ، يقول :

لا يُعْجز الموتُ شئٌ دون خالِقِه والموتُ فانٍ إذا ما ناله الأَجَلُ
وكلُّ كَرْبٍ أمام الموت متَضِعٌ للموت ، والموت فيما بعده جَلَلُ^(٣)
فالموت سيموت فى النهاية . وهو بذلك كله يعبر عن فكرة الموت التى تلقانا دائماً فى شعر الخوارج ، إنه موت ينقل إلى دار الخلود ، ولذلك ينتظره هائناً به مغتبطاً . وهذا هو شعر عمران دائماً فليس فيه سوى عقيدته . وكان لا يزدري شيئاً ازدراءه المديح ، وقد سمع الفرزدق مرة ينشد بعض مدائحهم ، فتعرض له يقول :

أيها المادح العبادَ لِيُعْطَى إن لله ما بأيدي العبادِ

(١) حثيث : سريع . وسارى : يسير ليلاً . (٢) جَلَل : عظيم .

(٢) تَقْشَعُ : تزول .

إنه لا يسأل ولا يمدح سوى ربه ، ولا يفكر إلا في عقيدته ، فهو مثال دقيق للخارجي الذي تعمقته مقالته حتى الشغاف .

الطَّرمَاح^(١)

شاعر طائى نشأ في الشام ، وانتقل إلى الكوفة مع من صار إليها من جيوش الشام . فنزل في بني تميم اللات بن ثعلبة ، وكان فيهم شيخ من الخوارج له سميت وفيه وقار ، فكان الطرماح يجالسه ويسمع منه ، فرسخ كلامه في قلبه ، ودعاه الشيخ إلى مذهبه ، فقبله واعتقده أشد اعتقاد وأصحّه حتى مات عليه . واختلف الرواة في الفرقة التي دخل فيها ، فقال أبو الفرج إنه دخل في فرقة الأزارقة ، وقال الجاحظ : هو من الصفورية ، وقول الجاحظ هو الصحيح ، لأنه كان من القعدة ولو كان من الأزارقة ما استحل القعود ، إذ كانوا يجرّمونه ولا يجيزونه . ولم يُمنّص قعوده في مقاومة المسلمين والدعوة إلى الخروج ضدهم على نحو ما صنع عمران بن حطان . فهو صُفُرىٌ مسالم . ويظهر أنه كان يمتضى في السلم إلى أبعد حد ، فلم يكن يكفّر المسلمين كمتطرفة الخوارج ، بل كان يعاشرهم ويوادّهم ويصادقهم ، حتى لراه يعقد صداقة شديدة بينه وبين الكميت ، يقول الجاحظ : « لم ير الناس أعجب حالا من الكُمَيْتِ والطَّرمَاح ، كان الكميت عدنانياً عصبياً ، وكان الطرماح خارجياً من الصفورية ، وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجزّ بينهما صرْمٌ ولا جَفْوَةٌ ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الخصال إليه » . وأكبر الظن أن الذى وثّق بينهما هذه الصلة احترامهما مهنة واحدة ، هي تعليم الناشئة ، فقد كانا معلمين ، يعلمان أولاد العامة ، وكانا خطيبين كما كانا شاعرين . ويُروى عن الطرماح أنه ترك الكوفة حيناً إلى الرى بفارس حيث عُنى بتأديب الناشئة

(١) انظر في ترجمة الطرماح أغاني (دار الكتب) ٣٥/١٢ والشعر والشعراء ٥٦٦/٢ والعيون ٢٧٦/٢ والاشتقاق ص ٣٩٢ والموشح للمرزبانى ص ٢٠٨ والبيان والتبيين ٤٦/١ ، ٣٢٣/٢ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥٢/٧ والخزانة ٤١٨/٣ وله ديوان نشره كرككو في لندن سنة ١٩٢٧ . والطرماح : الطويل القامة .

فيها ، ويَروى الجاحظ عن عبد الأعلى أنه قال : « رأيت الطرماح مؤدباً بالرّئي فلم أر أحداً أخذ لعقول الرجال ولا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده ، وكأنهم قد جالسوا العلماء » .

ويظهر أنه لم يكن يكفيه ما تدرّهُ عليه هذه المهنة ، إذ نراه يحمل مديحه إلى أبواب الأمراء والولاة ، ففي أخباره أنه قدم مع الكميث على محمد بن يزيد ابن المهلب ، وأراد أن يمدحه قاعداً ، فنحاه محمد ، ودُعي الكميث فأنشده قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرجا شاطره الكميث ما أخذه . وفي أخباره أيضاً أنه مدح خالد بن عبد الله القسري الذي ولي العراق سنة ١٠٥ للهجرة ، فأعطاه كل ما بعث به إليه واليه على سجستان ، وهو من هذه الناحية يختلف عن عمران اختلافاً بعيداً ، إذ يطلب الدنيا والمال ملحاً في طلبه ، وأيضاً فإننا نراه يستشعر عصبية شديدة لقبيلته ، بل لكل أخواتها من القبائل القحطانية وخاصة الأزدي قبيلة المهلب بن أبي صفرة ، ودفعه ذلك إلى أن يدخل في معركة حادة مع الفرزدق شاعر تميم عدوة الأزدي والقبائل القحطانية عامة . ومرةً بنا حديثنا عن هذه العداوة وكيف احتدمت في البصرة وخراسان . ونعجب للطرماح حين تتعمقه هذه العداوة وما يُطَوّي فيها من عصبية وهو خارجي ، والخوارج لا يعتدون بالعصبية القبلية ، إنما يعتدون بالعصبية المذهبية ، وكأنما كان مذهبه الخارجي يأتي على هامش حياته . ونعجب حين نقرأ هجاء الفرزدق وغيره من شعراء القبائل الذين اصطدم بهم إذ نراه يُقذع فيه إقذاعاً شديداً ، ومن طريف هجائه قوله في تميم :

لو حان وِرْدُ تميم ثم قيل لها حَوْضُ الرسول عليه الأزدُ لم تَرِدْ
أو أنزل الله وخياً أن يعذبها إن لم تعدْ لقتال الأزد لم تعدِ
لا تأمننَّ تميمياً على جسدٍ قد مات ما لم تُزَايل أعظمُ الجسدِ

ونراه يسوق بجانب هجائه مديحاً مفرطاً بنفسه ، لا يتحدث فيه عن بلائه في الحروب على شاكلة قطري إنما يتحدث فيه عن خلقه معتدلاً بشائله اعتداداً مسرفاً ، يقول :

لقد زادني حُباً لنفسى أننى بغيضٌ إلى كل امرئٍ غير طائل^(١)
 وأنى شقياً باللثام ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الشمالك
 والطرماح بذلك كله يبتعد عن روح الخارجى الذى ازدرى الدنيا وكل
 ما فيها من منازعات قبلية ومفاخرات شخصية فهو يعيش معيشة الناس من
 حوله ، ويضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات ومن طلب للدنيا ، ولعله
 من أجل ذلك أكثر التنقل فى العراق وفى فارس وخراسان . ومع ذلك فقد كان
 يستشعر عقيدته أحياناً ، حتى ليتمنى الخروج ، يقول :

وإنى لمقتادُ جَوادى وقاذفٌ به وبنفسى العامَ إحدى المقاذفِ
 لأَكسبَ مالا أو أوولَ إلى غنى من الله يكفينى عِداتِ الخلائفِ^(٢)
 فياربِّ إن حانتُ وفاقى فلا تكن على شَرِّجٍ يُعَلِّى بخُضرِ المطارفِ^(٣)
 ولكن أحنُ يومى سعيداً بعُصبةٍ يصابون فى فِجٍّ من الأرضِ خائفِ
 فوارسُ من شيبانِ أَلَفَ بينهم تُقى الله نزالون عند التزاحفِ
 إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا إلى موعود ما فى المصاحفِ

فهو يسأل ربه أن يموت فى ميدان الحرب مستشهداً ، غير أنه يسوق فى
 تضاعيف أبياته ما يدل على أنه لم يكن خالص النية فى أمنيته ، إذ نراه فى
 البيت الثانى يفكر فى الدنيا والمال ، فهو يحارب إما ليقتل شهيداً وإما ليصبح
 غنياً ثرياً . ومن طريف وصفه للخوارج قوله :

لله درُّ الشِّراءِ إنهم إذا الكرى مال بالطلا أرقوا^(٤)
 يرجعون الحنين آونةً وإن علا ساعةً بهم شهقوا
 خوفاً تبيتُ القلوب واجفةً تكاد عنها الصدور تنفلق

(١) غير طائل : خيس .

(٢) عِدات : جمع عدة ويريد بها الصلة .

الخلائف : جمع خليفة .

(٣) الشرج : النمش .

(٤) الطلى : الأعناق ، مفردها طلية .

كيف أرجى الحياة بعدهمُ وقد مضى مؤنسي فانطلقوا
قومٌ شحاحٌ على اعتقادهمُ بالفوز مما يخاف قد وثقوا

وعلى قَبَسٍ من زهد الخوارج في الدنيا ومتاعها الزائل وما جاء في القرآن
الكريم من ذم الشحيح الذي يجمع مالا ويدّخره دون أن ينفقه على المحتاجين
والمساكين ، وما جاء فيه أيضاً من أن كل إنسان مسئول يوم القيامة عما قدمت
يده يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، يوم تشهد عليه جوارحه بما عمل ، فمن عمل
صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، يقول :

كلٌ حَيٌّ مُستكملٌ عِدَّةُ الْعُمِّ رِ ومودٍ إذا انقضى عَدَدُهُ^(١)
عجباً ما عجبتُ للجامع الما ل يباهى به ويرتَفِدُهُ^(٢)
ويُضِيعُ الذي يصيرُهُ الا ه إليه فليس يعتقده
يوم لا ينفع المخولُ ذا الثر وة خِلَاتُهُ ولا وَلَدُهُ^(٣)
يوم يُؤْتَى به وخصمه وسط ال جِنَّ والإنس رِجْلُهُ ويده
خاشعَ الصَّوْتِ ليس ينفعه ذُ مَّ أمانِيُّ ولا لَدَدُهُ

وكل من يقرأ شعر الطرماح يلاحظ أنه لا يجرى على وتيرة لغوية واحدة ،
فهو حين يصدر عن عقيدته ، أو يمدح أو يهجو لا يغرب على سامعيه ، ولكن
حين يصف الصحراء يحاول بكل ما يستطيع أن يجمع أوابد الألفاظ ووحشيَّتها ،
وهو جانب دفعه إليه تعليمه الناشئة ، وكأنما شعره ينقسم قسمين : قسماً أراد
به أن يدور في أفواه الناس ، وقسماً أراد به أن يدور في أفواه المتأدبين
حتى يقفوا على الألفاظ اللغوية الغريبة ، فهو قسم تعليمي محض . ويصور
اللغويون مدى إغرابه في شعره ، فيقولون إن ابن الأعرابي العالم اللغوي المشهور
سُئل عن ثمانٍ عشرة كلمة أبدت في أشعاره ، فلم يستطع تفسيرها ، وورّ بنا
في غير هذا الموضع أن حِسَّة اللغوى لم يكن دقيقاً وأنه كان مشغولاً بإدخال
الألفاظ النبطية في كلامه . وقد مات حوالى سنة ١٠٥ للهجرة .

(١) مود : ميت .

(٢) يرتفده : يكتسبه .

(٣) المخول : الثرى .

شعراء الشيعة

رأينا التشيع ينمو في الكوفة منذ اتخذها على حاضرة لخلافته . وقد مضى كثير من أهلها بعد وفاته يؤمنون بأن أبناءه وأحفاده أهلُ الخلافة الحقيقيون وأصحابها الشرعيون ، وأن الأمويين اغتصبوها منهم ، وينبغي أن تُردَّ عليهم . وتكوّنت في أثناء ذلك فرقة الكيسانية التي دعت لابن الحنفية ، وقد تأثرت بغير قليل من آراء ابن سبأ ، فذهبت تزعم أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر ، وأنه ورث عن عليٍّ علمَ الباطن وأن به قبساً من روح الله ، وهو قبس ينتقل في أئمة الشيعة إماماً بعد إمام ، حتى إذا توفى قالوا يرجعته ، وأنه سيعود فيملاً الأرض علماً ونوراً . ونمضى إلى أواخر العصر الأموي فتظهر فرقة الزيدية ، ولم تكن غالبية غلو فرقة الكيسانية ، وقد صورنا ذلك في حديثنا عن السياسة . وعلى نحو ما كثر شعراء الخوارج في هذا العصر كثر شعراء الشيعة يتقدمهم كثيرٌ شاعر الكيسانية والكميت شاعر الزيدية ، ولعل من الطريف أننا نجد عند أولهما عقيدة الكيسانية ماثلة في أشعاره بكل ما أوغلت فيه من تطرف في العقيدة الشيعية ، كما نجد عند ثانيهما عقيدة الزيدية بكل أصولها المذهبية .

وإذا أخذنا نقرأ في أشعارهما وأشعار غيرهما من شعراء الشيعة وجدناهم محزونين على أئمتهم الذين سفك الأمويون دماءهم ، لا يَرَعُونَ فيهم إلاَّ ولا ذِمَّة ، وقد تحولوا ييكونهم ويندبونهم بدموع لا تَرَفَقاً ولا تجفُّ . وربما كان هذا الطابع أهمُّ ما يميّز الشعر الشيعي في هذا العصر ، فهو دموع وبكاء وزفرات على الحسين أولاً ثم على زيد بن علي وابنه يحيى ، زفرات ودموع سخينة من مثل قول سليمان بن قسَّة يرثي الحسين (١) :

(١) مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني (سأى) ١٥٨/١٤ وما بعدها والمبرد ص ١٢٧ (طبعة الحلبي) ص ١٢١ وانظر أيضاً في - والاستياب ص ١٤٦ .
مراثي الحسين الطبري ٢٠٩/٤ وما بعدها وأغاني

مررتُ على أبيات آلِ مُحَمَّدٍ فلم أرها كمهدما يوم حُلَّتِ
وكانوا رجاء ثم صاروا رَزِيَّةً وقد عظمتُ تلك الرزايا وجَلَّتِ
ألم تر أن الشمس أضحَّتْ مريضَةً لفَقْدِ حُسَيْنٍ والبلادُ اقشعرتِ
وقد أعولتُ تبكي السماء لفقدِهِ وأنجُمُها ناحَتْ عليه وصَلَّتِ

ولم يكونوا يرثونه ويبكونه فقط ، إذ كان كثير منهم يضيف إلى رثائه
وبكائه تحريضاً على الأخذ بثأره وثأر من دافعوا عنه من رفاقه ، وهو تحريض
يتحول إلى رغبة شديدة في سفك الدماء ، حتى يغسل الشيعة عنهم عار القعود عن
نصرته . ويتحول ذلك عند طائفة منهم إلى ما يمكن أن نسميه غريزة الدم المسفوح
ومن خير من يصورها عوف^(١) بن عبد الله بن الأحمر الأزدي ، وله في
الحسين قصيدة طويلة رثاه بها وحضَّ الشيعة على الطلب بدمه ، وفيها يقول :

لَيْلِكَ حُسَيْنًا كلما ذَرَّ شارقٌ وعند غسوق الليل من كان باكياً
وباليتنى إذ كان كنتُ شهيدته فضاربته الشانئين الأعاديا
ودافعت عنه ما استطعت مجاهداً وأعملتُ سِنِي فيهم وسِنانيا

ومرّ بنا أن كثيرين أخذوا يتلاومون في الكوفة على خذلانه ، وهم جماعة
التوابين ، ومن خير من يمثلهم عبيد الله بن الحرّ ، ويروى أنه خرج في جماعة
من أصحابه حتى أتى كَرْبَلَاءَ ، فنظر إلى مصرع الحسين ورفاقه فاستغفر لهم ،
ثم مضى وهو ينشد^(٢) :

ويا ندمي أن لا أكون نصرته ألا كل نفس لا تسدّد نادمه
ولاني لأنني لم أكن من حُماته لدو حسرة ما إن تفارق لازمه
ويُقتلُ زيد بن علي بن الحسين ، فيبكيه الشيعة معولين منذرين لبني
أمية ومهددين من مثل قول المفضل المطلبي^(٣) :

(١) انظر ترجمة عوف في معجم الشعراء . (٢) طبري ٤/ ٣٦٠ .
(٣) مقاتل الطالبين ص ١٤٩ .

ألا يا عينُ لا تَرَقِيْ وَجُودِي بدمعك ليس ذا حينَ الجمود^(١)
وكيف تَضُنُّ بالعَبَرَاتِ عيني وتطمع بعد زَيْدٍ في الهجود^(٢)
وكيف لها الرُّقَادُ ولم تَرَأِيْ جِيَادَ الخيلِ تَغْدُوْ بِالْأَسودِ
بأيديهم صفائحُ مرهفاتُ صوَارِمُ أُخْلِصَتْ من عهد هودِ
بها نَسَقِيْ النفوسِ إِذَا التَقِينَا ونقتل كلَّ جبارٍ عنيدِ
ونُحْكِمُ في بني الحَكَمِ العوَالِي ونجعلهم بها مثلَ الحَصِيدِ^(٣)

وعلى هذا النحو كان كل شاعر شيعي يَطْوِي في نفسه حزناً عميقاً على أئمة
المستشهدين ورغبة عنيفة في سفك دماء من قتلوهم ، ولكن أنَّى ذلك وسيوف
بني أمية بالمرصاد لكل من يخرج عليهم . ولأنهم ليتعقبون هم وولاتهم أحياءهم
ويعدون أنفاسهم عداءً . ومن ثم نشأت بين الشيعة نظرية مشهورة هي نظرية
التقية ، فن حق الشيعي أن يخفي عقيدته ويكتتمها ، حتى لا يعرض نفسه للخطر
بل لا مانع من مصانعة خصومه أحياناً على نحو ما سئرى عند كثيرٍ والكميت
عما قليل ، إذ مدحا بني أمية ، وهما يكتنآن لهم العدواة والبغضاء .

وهذان المنزعان من بكاء الشهداء والتحريض على قتل من قتلوهم كان
ينطوي فيهما حقد شديد على الأمويين ، وهو حقد ينتهي أحياناً إلى دعوة
الناس شيعيين وغير شيعيين للثورة عليهم على نحو ما نجد عند الكميت حين
ولى خالد القسري أخاه أسداً على خراسان سنة ١١٧ فإنه أرسل إلى أهل مَرَوَ
يستحثهم على الثورة بأبيات ، يقول فيها^(٤) :

ألا أبلغُ جماعةَ أهلِ مَرَوَ على ما كان من نَأْيٍ وبُعْدِ
رسالةَ ناصحٍ يَهْدِي سَلاماً ويأمر في الذي ركبوا بعِجْدَ
فلا تَهْنُوا ولا تَرْضُوا بخُسْفِ ولا يَغْرُرْكُمْ أَسَدُ بَعْدِ
وإلا فارفعوا الراياتِ سُوداً على أهل الضلالة والتعدّي

(١) ترقى : من رقا الدمع إذا جف وسكن .
جمود العين : يجلها بالدمع .
(٢) الهجود : النوم .
(٣) بنو الحكم : بنو مروان بن الحكم .
العوال : الرماح . الحصيد : الزرع المحصود .
(٤) طبري ٥/٤٣٣ .

وإذا كانت قلوب الشيعة على هذا النحو تمتلئ بالحقد والغیظ على بنی أمیه فقد كانت تمتلئ بالحب لآل البيت حباً يملك على نفوسهم أهواءها وعواطفها وإحساساتها ومشاعرها، على شاکلة قول أبي الأسود الدؤلی وقد عابه قوم بتشيعه: ^(١)

أحبُّ محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصياً ^(٢)
أحبهمُ لحب الله حتى أجىء إذا بُعثتُ على هویاً ^(٣)
هوى أعطيته منذ استدارت رَحَى الإسلام لم يعدل سويّاً ^(٤)
بنو عم النبي وأقربوه أحبُّ الناس كلهم إليّاً
فلان يك حبهم رُشداً أصبه ولست بمخطئ إن كان غيّاً
ويقول عبد الله بن كثير السهمي في نفس المعنى ^(٥):

إن امرأة أمتت معايبه حب النبي لغير ذی ذنب
وبني أبي حسن ووالدهم من طاب في الأرحام والصليب
أيعدُّ ذنباً أن أحبهم بل حبهم كفارة الذنب

فهم يحبون آل البيت لخدمهم صلوات الله عليه ، وهو حب دفعهم دفعاً إلى استشعار التقوى وعبادة الله حق عبادته ، بل لقد دفع نفرًا منهم إلى الزهد في الحياة ومتاعها الزائل ، على نحو ما سئى عند أبي الأسود الدؤلي في حديثنا عن شعراء الزهد ، ومما يصور ذلك قول حرب بن المنذر بن الجارود ، وكان يتشيع ، في كلمة له ^(٦) :

فحسبي من الدنيا كفافٌ يُقيمني وأثوابُ كتانٍ أزورُ بها قبري ^(٧)
وحبي ذوی قُرْبى النبي محمدٍ فما سألنا إلا المودة من أجرٍ ^(٨)

(١) المبرد ص ٥٥٤ .

(٢) يريد بالوصي على بن أبي طالب ، إذ كان الشيعة كما قلنا مراراً يمتقدون أن النبي أوصى له بالخلافة .

(٣) على هوياء : على هواي .

(٤) لم يعدل سويّاً : لا مثيل له .

(٥) البيان والتبيين ٣/ ٣٦٠ .

(٦) البيان والتبيين ٣/ ٣٦٥ .

(٧) الكفاف : القوت القليل لا فضل فيه .

(٨) سالنا بالتخفيف : لغة في سأل . وهو

يشير إلى الآية الكريمة : (قل لا أسألكم عليه

أجرًا إلا المودة في القربى) .

وواضح من كل ما سبق أن الشيعة كانت تستغرق أشعارهم في عصر بني أمية منازع قوية من حب آل البيت حباً قد ينتهي إلى الزهد في الدنيا ، ومنازع أخرى من الثورة على بني أمية ، ثورة تطوى في داخلها رغبة شديدة في أن تُسْفَلَ دماؤهم كما سُفِكَت دماء شهدائهم : الحسين وزيد بن علي ، ومن قبلهما على نفسه. ودائماً سيكون هؤلاء الشهداء الذين استأثروا بهم وملكوا عليهم كل شيء ، وإنهم ليدلّعون في قلوبهم ناراً لا تُطْفَأ من الأسى والحزن العميق . ويحسن بنا أن نقف قليلاً عند كثير شاعر الكيسانية ، والكميت شاعر الزيدية .

كُثَيْرٌ (١)

هو كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة ، شاعر حجازي من نخزاعة كان ينزل المدينة كثيراً ، وكان قميئاً شديد القصر محمّلاً في الأغاني أخبار كثيرة عن حمقه وعبث الناس به لهذا الحمق . وكان أول ما ساق فيه شعره الغزل ، إذ كان راوية لحميل بن معمر العنزي ، وهو في جمهور غزله يترنم بعزة بنت حميل الضميرية ، وقد اشتهر بغزله فيها حتى سُمي كثير عزة ، وأروع أشعاره فيها تائيته التي يقول في تضاعيفها :

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت
وهو يلتزم في رويها التاء واللام جميعاً ، مما يدل من بعض الوجوه على أنه كان متكلفاً في غزله ، ويقول ابن سلام : إنه كان يقول ولم يكن عاشقاً ولا صادق الصبابة .

ولا نصل إلى سنة ٦٥ للهجرة ودعوة المختار الثقفي لابن الحنفية ، وتكوينه حوله نظرية الكيسانية ، حتى يصبح أكبر بوق لهذه النظرية ، فهو يعتنقها اعتناقاً بكل ما يداخلها من غلو ومن أفكار متطرفة ، كفكرة التناسخ وأن

والخزاعة ٣٧٦/٢ و امرأة الجنان ٢٠٢/١ ومعاهد التنصيص وابن خلكان والملل والتحل ص ١١١ وحديث الأريباء ٣٥٨/١ وما بعدها . وقد نشر بيريس ديوانه في الجزائر .

(١) انظر في ترجمة كثير أغاني (دار الكتب) ٢/٩ وما بعدها و ١٧٤/١٢ وفي مواضع متفرقة ، وابن سلام ص ٤٥٧ وما بعدها والشعراء ٤٨٠/١ والفرق بين الفرق ص ٢٨ والموشع ص ١٤٣ ومعجم الشعراء ص ٢٤٢

قبس النبوة لا يزال ينتقل في على وأبنائه ، وكفكرة أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر وفيه يقول :

هو المهديُّ خبَرناه كعبٌ أخو الأَحبار في الحَقَبِ الأوَّلى^(١)

ونراه يمتلئُ حقدًا على ابن الزبير حين رآه ينزل غضبه على إمامه ويحبسه في سجن عارم بمكة ، لدعوة المختار الثقفي له في الكوفة وإخراجه وإليه منها . وكان ابن الزبير كما مرَّ بنا قد عاذ بالبيت الحرام لعهد يزيد بن معاوية ، فتوجه إليه كثيرٌ يقول :

نخبرُ من لا قيت أنكَ عائدٌ بل العائدُ المظلومُ في سجنِ عارمِ
وصىُّ النبيِّ المصطفى وابنُ عمِّه وفكَّاكُ أغلالِ ونفَّاعُ غارمِ
أبي فهو لا يَشْرى هُدًى بضلالةٍ ولا يَتَّقِي في الله لومةَ لائمِ
ونحن بحمد الله نتلو كتابه حلولا بهذا الخيف خيف المحارم^(٢)
بحيث الحمامُ آمنُ الرُّوع ساكنٌ وحيث العدوُّ كالصديق المُسلمِ
وما فَرَحُ الدنيا بباقي لأهله ولا شِدَّةُ البلوى بضربةٍ لازمِ

وواضح أنه يسجلُ على ابن الزبير خرقه لما فرض الإسلام من أمن لكل من لاذ بالحرم ، حتى الحمام فإنه لا يحل صيده ولا التعرض له ، ومع ذلك يتعرض ابن الزبير لابن الحنفية وصى على أو بعبارة أخرى وصى الرسول الكريم الذي يأخذ بأيدي العُناة ، والذي يتقى الله حق تقواه .

ويردُّ ابن الزبير لابن الحنفية حريته ، فيخرج عن جواره ، ويلحق بعبد الملك في دمشق ، وكثيرٌ في رِكا به ، فيكرمه وينزله منزلا عليًّا هو وشاعره . ومن هنا نفهم الصلة التي انعقدت بين كثير وعبد الملك ، فقد أصبح من مداحه ،

(١) كعب : هو كعب الأَحبار ، كان من (٢) الخيف : ناحية من مِكة .
يقصون في العهد الأول .

وأخذ يثيره على ابن الزبير متمنياً لو انتصر عليه وأزال سلطانه عن الحجاز والعراق جميعاً ، حتى إذا أراه يعدُّ جيشه لحرب مصعب أخذ يحثه على المبادرة لحربه بمثل قوله :

إِذَا مَا أَرَادَ الْغَزْوُ لَمْ تَشْنْ هَمَّهُ حَصَانٌ عَلَيْهَا عَقْدُ دُرٍّ يَزِينُهَا^(١)
نَهْتَهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ بَكَتْ فَبَكَتْ مِمَّا شَجَاهَا قَطِينُهَا^(٢)

وظل يمدح عبد الملك . وارتحل إلى مصر يمدح أخاه عبد العزيز واليهما وطن بعض المعاصرين في مديحه لبني أمية ضرباً من النفاق^(٣) ، وهو لم يكن في مديحه لهم منافقاً ، إنما كان تابعاً في ذلك لإمامه الذي رآه يمنح عبد الملك ولاءه . وحتى لو لم يدخل ابن الحنفية في بيعة عبد الملك لكان مدحه له تقية لا نفاقاً ، ومروءة بنا أن الشيعة كانوا يجيزون التقية خشية على أنفسهم ، وبين أيدينا أخباره مع عبد الملك وهي تقطع بأنه كان يكرمه مع معرفته بتشيعه وأنه بصر عليه إصراراً . على أنه كان يحمل مديحه له كثيراً من السموم ، كتصويره له بأنه حية ما تزال تلدغ ، يقول :

يَقْلَبُ عَيْنِي حَيَّةً بِمَحَارَةٍ إِذَا أَمَكْنَتْهُ شِدَّةٌ لَا يُقِيلُهَا^(٤)

ونراه حين يعرض لخلافته يسلكه من طرف خفي في مجموعة الخلفاء الذين لا تُقر غالبية الشيعة خلافتهم وترى أنهم اغتصبوها اغتصاباً من ورثتها الشرعيين ، إذ كان يجعله سابع الخلفاء مسقطاً خلافة علي ، لأنها الخلافة الصحيحة في رأيه بين تلك الخلافات الظالمة : يقول :

وَكُنْتُ الْمُعَلَّى إِذْ أُجِلْتُ قَدْ أَحْبَبْتُهُمْ وَجَالِ الْمَنِيحُ وَنُطْطُهَا يَتَقَلَّقُلُ

والمعلّى هو القندح السابع من قنداح الميسر ، وهو أعلاها نصيباً ، أما المنيح فلا نصيب له . وواضح أنه لم يرد أن عبد الملك أعلى الخلفاء الذين سبقوه كعباً ، بل موه بذلك في الظاهر ، وعنى في الباطن أنه السابع بين الخلفاء الذين لا

(١) الحصان : المنيحة .

(٢) القطين ، الخدم والوصفاء .

(٣) انظر حديث الأربعاء لطلح حسين (طبعة

الخلي) ٣٦٣/١ .

(٤) المحارة هنا : جحر الحية . الشدة :

المجمة على العدو . بقيلها : يفسخها . أراد أنه

يهرم عزيمته ولا يتردد .

ترتضى الشيعة إمامهم . ومن ثمَّ يقابل عبد الملك في ترتيب هؤلاء الخلفاء القدح السابع بين القداح وهو المعلى ، وقد صرح بذلك في مدحة له أخرى ، إذ يقول :

وكان الخلائف بعد الرسو ل الله كلهم تابعاً
شهيدان من بعد صديقهم وكان ابن حَرْب لهم رابعاً^(١)
وكان ابنه بعده خامساً مطيعاً لمن قبله سامعاً
ومروان سادس من قد مضى وكان ابنه بعده سابعاً

وعلى هذا النحو لم يتخلَّ عن عقيدته في مديحه لعبد الملك . وربما كان عمر بن عبد العزيز أهم من أخلص له في مديحه لبنى أمية ، وهو لإخلاص مرجعه في رأينا إلى موقفه من آل البيت فإنه بالغ في إكرامهم ومنع عماله منعاً باتناً من سبهم على المنابر ، وكان صالحاً تقياً ، وفيه يقول كثير مشيراً إلى هذه المكرمة :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتَمَ عَلَيَّ وَلَمْ تُخَفِّ بَرِيًّا وَلَمْ تَتَبَلَّ إِشَارَةَ مجرم-
وَصَدَّقْتَ بِالْفِعْلِ الْمَقَالَ مع الذي أَتَيْتَ فَأَمْسَى رَاضِيًّا كُلُّ مُسْلِم-
وَقَدْ لَبِسْتَ لُبْسَ الْهَلُوكِ ثِيَابَهَا تَرَاءَى لَكَ الدُّنْيَا بِكَفٍّ وَمَغْصَمٍ^(٢)
وَتَوَضَّضَ أَحْيَانًا بِعَيْنٍ مَرِيضَةٍ وَتَبَسَّيْتُ عَنْ مِثْلِ الْجُمَانِ الْمُنْظَمِ^(٣)
فَأَعْرَضْتَ عَنْهَا مَشْمُوزًا كَأَنَّمَا سَقَتَكَ مَدُوفًا مِنْ سِيَامٍ وَعَلَقَمٍ^(٤)
تَرَكْتَ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مُونِقًا وَآثَرْتَ مَا يَبْقَى بَرَأً مَصْمُومًا
وَأَضْرَرْتَ بِالْفَانِي وَشَمَّرْتَ لِلَّذِي أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْهَوْلِ مَظْلَمًا

والحق أن كثيراً ظل مخلصاً لعقيدته الشيعية ، وهو لإخلاص لا يقف عند إشادته بابن الحنفية ووصفه بأنه مهدي أو وصي ، أوصى له على . بل يتجاوز ذلك إلى استشهاده ما كان يؤمن به الكيسانية من رجعة أئمتهم بعد

(١) الشهيدان : عمر وعثمان . الصديق : أبو بكر . ابن حرب : معاوية .
(٢) الهلوك : المرأة تشغف بالرجال .
(٣) الجمان : اللؤلؤ .
(٤) المدوف : المخلوط . السام : جمع سم .

ماتهم ، فهم لا يموتون ، بل يغيبون مدة من الزمن ثم يعودون ، يقول في ابن الحنفية حين لبيَّ نداء ربه :

ألا إن الأئمة من قريشٍ ولاية الحق أربعة سواهُ
على والثلاثة من بنيهِ هم الأسباط ليس بهم خفاءُ
فسيبُطُ سيبُطُ إيمانٍ وبرٍ وسيبُطُ غيبته كربلاءُ
وسيبُطُ لا تراه العينُ حتى يقود الخيلَ يقدّمها اللّواءُ
تغيّب لا يُرى عنهم زمانا برضوى عنده غسلٌ وماءُ

فالأئمة الحقيقيون أصحاب الولاية الشرعية على المسلمين هم على الحسن والحسين وابن الحنفية ، وهم متساوون في هذه الولاية . ويأتى إلا أن يسمى قَتْلُ الحسين في كربلاء غيبة ، أما ابن الحنفية فهو غائب بجبل رضوى يطمعهم العسل والماء ، وسيعود في جيش كثيف يقوِّض الحكم الأموى ويرد الأمر إلى نصابه . وما زال يؤمن بعقيدته حتى إذا حضرته الوفاة سنة ١٠٥ ، وقيل سنة ١٠٧ ، رفع صوته ينشد :

برئتُ إلى الإله من ابن أروى ومن دين الخوارج أجمعينا^(١)
ومن عمرٍ برئتُ ومن عتيقٍ غداة دُعِيَ أمير المؤمنين^(٢)
وواضح أنه يجعل لعلى وبنيه وحدهم الحق في لقب أمير المؤمنين ، أما من حملوا هذا اللقب قبلهم من الخلفاء الراشدين فهم في رأيه يُعدُّون مغتصبين . وعلى هذا النحو كان يغلو في تشييعه غلوًّا قبيحاً حتى أنفاسه الأخيرة .

الكُمَيْت (٣)

هو الكُمَيْت بن زيد الأسدى ، وُلد بالكوفة سنة ٦٠ للهجرة ، ولم يكد

- | | |
|--|--|
| (١) ابن أروى : عثمان بن عفان ، وأروى : أمه . | للجاحظ (انظر الفهرست) وأمالى المرتضى (طبعة الحلبي) ٦٦/١ ، ٩٩ ، ٨٠/٢ ، ومعجم الشعراء |
| (٢) العتيق : أبو بكر الصديق . | للمرزبانى ص ٢٣٨ ومعاهد التنصيص |
| (٣) انظر في ترجمة الكيت وأخباره أغاني (ساسى) ١٠٨/١٥ والشعر والشعراء ٤/٦٢٢ | وكتابتنا التطور والتجديد في الشعر الأموى (طبع دار المعارف) ص ٢٩٢ . وقد طبعت مدائحه في بنى هاشم مراراً باسم الهاشميات . |
| والموشع ص ١٩١ وابن سلام ص ٢٦٨ وخزانة الأدب ٦٩/١ ، ٨٦ والبيان والتبيين والحيوان | |

يشبّ حتى أخذ يختلف إلى دروس العلماء يتلقن الفقه والحديث النبوي وأنساب العرب وأيامها ، ولم يلبث أن تحوّل معلماً ، يعلم الناشئة في مسجد الكوفة . ونراه يشتد الشعر ، وتنعقد مودة بينه وبين الطيرمّاح على نحو ما تحدثنا عن ذلك آنفاً .

ولا يلبث أن يبرع في الشعر ، فيطلب به جوائز الأشراف والولاة والخلفاء في أخباره أنه وفد على محمد بن يزيد بن المهلب حين كان أبوه يوليه أعمالاً في مدة إمارته على خراسان لعهد سليمان بن عبد الملك . ويقال إنه لقي على بابه أربعين شاعراً ، كلهم ينتظر الإذن له ، وتروى كتب الأدب له مدائح مختلفة فيه . ونراه في مطالع القرن الثاني يفد على يزيد بن عبد الملك .

ويظهر أن صلته بالهاشميين بدأت مبكرة ، ففي أخباره أنه امتدح على بن الحسين الملقب بزين العابدين . ومعروف أنه توفي سنة تسع وتسعين . ونمضي معه إلى ولاية خالد القسري على العراق (١٠٥ - ١٢٠ هـ) فنجد أنه أصبح شيعياً خالصاً ، وقد استخلصه لنفسه زيد بن علي بن الحسين إمام فرقة الزيدية فإذا هو يناضل عنه ويدافع ، ويعيش لهذا النضال والدفاع ، إذ أشرب قلبه حبه وحب الهاشميين ، حتى لينكر من نفسه مديحه القديم ، وحتى ليقول :

طَرَبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ ولا لِعَباً مني وذر الشيب يلعبُ
ولم تُلْهِنِي دارٌ ولا رَسَمَ منزلٍ ولم يتطربنني بَنَانٌ مُخَضَّبُ
ولكنْ إلى أهل الفضائل والنهي وخير بني حواء والخير يُطْلَبُ
بني هاشم رهط النبي فإني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ

فلم يعد فيه شيء للغزل ولا للحب سوى حب بني هاشم ، وينصرف إلى هذا الحب ، وينقطع له ، ويشتهر بإحسانه فيه ، حتى ليقول الفرزدق المتوفى سنة ١١٠ وقد ذُكر له : إنه وجد أجراً وجِصّاً فبني ، أي أنه وجد مادة غنية لأشعاره ، فأحسن في نظمه . ونراه في تصويره لهذا الحب ثائراً ثورة عنيفة على بني أمية ووالهم خالد القسري . إذ كان ما بني يؤلَّب عليه وعليهم الناس . داعياً لزيد دعوة صريحة ، حتى لراه يكتب - كما أسلفنا - إلى أهل مرو أن يثوروا في وجه أسد القسري حين ولاه أخوه خالد على خراسان .

وكانت أشعاره الثائرة لا تصل إلى سمع خالد فحسب ، فقد وصلت إلى سمع هشام بن عبد الملك ، فأمر خالداً بحبسها ، فألقاه في غياهب السجن . وكانت امرأته تدخل عليه في ثياب وهيئة حتى عرفها الحرّاس ، فدخلت في غفلة منهم يوماً ، فلبس ثيابها وتهايا بهيئتها ، ومضى على وجهه إلى الشام ، فضرب قببته على قبر معاوية بن هشام فجاءه أولاده ، فربطوا ثيابه بشياهم ، حتى دخلوا به على جدّهم ، فاستعطفوه حتى ألانوا قلبه وعفا عنه . ويقال بل الذي توسط له بالشفاعة مسلمة بن هشام ، وله فيه وفي بني أمية مدائح نظمها حينئذ ، من مثل قوله :

الآن صرْتُ إلى أُمِّيَّة والأُمُور لها مصائرُ
أهلِ التجاوب في المحا فل والمقاويل بالمخاصر^(١)
أنتم معادنٌ للخلافة كابرًا من بعد كابر

وهي مدائح تُحمِّل على التقيّة، إذ اضطر إلى مديحهم مداراة لهم . وعاد إلى الكوفة وقد رُدَّت إليه حرّيته ، فعاد إلى نضاله مع إمامه زيد . ونعجب إذ نراه على هاشميته وتشيعه يفتسح لأشعار ، يفخر فيها بمضريته ويهجو اليميني هجاء شديداً ، ولكن إذا عرفنا السبب زال العجب كما يقولون ، فقد تصدى له شاعر يمني هو حَكِيم بن عِيَّاش الكلبي كان يتعصب للأُمويين ويهجو الهاشميين وزيد بن علي هجاء^(٢) مرّاً ، فرأى الكميّة أن يصرفه عن ذلك بفتحة معركة معه في اليمنية والمضرية . وبذلك دفعه عن هجاء بني هاشم وشغله بقومه والنضال عنهم . ويقول الرواة إنه كان يُمكر به فيفخر عليه ببني أمية المضريين حتى يسكته ويغلبه ، وقد ظهر عليه فعلاً لا بذلك فحسب ، بل بما نظم في عصبية المضري وهجائه لليمن من قصائد دوت بعيداً ، وعلى رأسها مذهبته^(٣) : (ألا حبيبت عنا يا مدينا) ويقال إنها بلغت ثلاثمائة بيت لم يترك فيها مثلبة لليمن إلا سجلّها ووصمه بها وصماً .

(١) المقاول : جمع مقول ، وهو المقول .
والمقاول بالمخاصر : الخطباء لاتخاذهم لها في الخطابة
(٢) انظر في ذلك ترجمته في الأغاني والإصابة
والمسمودى (طبعة دارالرجاء بمصر) ١٦٢/٣ .
(٣) في خزائن الأدب ٨٦/١ بعض أبيات من هذه القصيدة وانظر الأغاني (طبع السامي) ١١٢/١٥

وحتى الآن لم نتحدث عن هاشمياته ، وهي تمتاز بصدق العاطفة وبراعة
الحجاج والاستدلال في بيان حق الهاشميين الشرعى في الخلافة ، وهو استدلال
وحجاج جعل الأقدمين يلاحظون أنه في شعره وفي هاشمياته خاصة يخرج على
المألوف من ذوق الشعراء ، إذ كانوا لا يعرفون في الشعر هذه الصورة من الجدل ،
إنما كانوا يعرفونها للخطباء وأصحاب المقالات ، ومن ثم قالوا إن شعره أشبه بالنثر ،
كما قالوا إنه خطيب وليس بشاعر . ومن غير شك كان شاعراً مبدعاً ، فقد
هيج شعره نهجاً جديداً ، إذ أخضعه لصورة المقالة المعاصرة له وما تُشَفِّعُ به
من براهين وأدلة . وهو في ذلك يُعَدُّ صَدَقَى قَوِيّاً لما شاع في عصره من الجدل
بين المتناظرين في مسائل العقيدة ، فقد مثَّل هذا الجدل تمثيلاً باهراً . ومن
غير شك كان يختلف إلى حلقات هذا الجدل ، فقد كان إمامه زيد يتلمذ
لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وتبعه الكميت في هذه التلمذة ، فهو الآخر
تلميذ لواصل ، تلقَّن منه الكلام والجدل في المسائل العقيدية ، وتحول يستخدمه
في هاشمياته ، فإذا هي ليست أشعاراً في مديح زيد إمامه ، إنما هي مقالة
الزيدية بكل أصولها العقيدية . وبكل ما تستخدمه من أسلحة العقل في دعم
هذه الأصول . ومرت بنا أبياتة التي يعلن فيها أنه لن يقف بالرسوم والأطلال
يتحدث عن حبه ، فحبه جميعه منصبٌ على بنى هاشم ، وبذلك كان أول
شاعر دعا إلى نبذ الوقوف على الديار سُنَّةً من سبقوه ، وهو يمضى ، فيسوق
الأدلة الناصعة على حق البيت الهاشمي من سلالة فاطمة رضى الله عنها في
الخلافة على شاكلة قوله متحدثاً عن اغتصاب الأمويين لهذا الحق الشرعى :

بَخَاتَمِكُمْ غَضَباً تَجُوزُ أُمُورَهُمْ	فَلَمْ أَرَ غَضَباً مِثْلَهُ يُتَغَضَّبُ
وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمٍ آيَةً	تَأَوَّلَهَا مِنَّا رَقِيٌّ وَمُعَرَّبُ
وَفِي غَيْرِهَا آيَا وَآيَا تَتَابَعَتْ	لَكُمْ نَصَبٌ فِيهَا لَذَى الشَّكِّ مُنْصَبُ
وَقَالُوا وَرَثَتْنَاهَا أَبَانَا وَأَمْنَا	وَمَا وَرَثَتُهُمْ ذَاكَ أُمَّ وَلَا أَبُ
وَلَكِنْ مَوَارِيثُ ابْنِ أَمْنَةَ الَّذِي	بِهِ دَانَ شَرْقُكُمْ لَكُمْ وَمُعَرَّبُ
يَقُولُونَ لَمْ يُورَثْ وَلَوْلَا تَرَاثُهُ	لَقَدْ شَرِكْتَ فِيهِ بِكَيْلٍ وَأَرْحَبُ ^(١)

(١) بكيل وأرحب : عثرتان من هذان .

وَعَكَ وَلَخْمٌ وَالسَّكُونُ وَجَمِيرٌ وَكُنْدَةٌ وَالْحَيَّانُ بَكْرٌ وَتَغْلِبُ
 وَمَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ فِيهَا أَذْلَةً وَلَا غُيْبًا عَنْهَا إِذِ النَّاسُ غُيِّبُ
 فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلَحْ لِحَى سَوَاهُمْ فَإِنْ ذُو الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ
 وواضح أنه بنى احتجاجه على أقيسة عقلية ، فهو يستدل بآى القرآن
 الحكيم فى سُوْر « حَامِيْم » وَغِيْرَهَا الَّتِي تُشِيْدُ بِأَهْلِ الْبَيْتِ وَقَرَابَتِهِمْ مِنَ الرَّسُولِ ،
 مَقْرَرَةٌ حَقٌّ ذُو الْقُرْبَى مِنْ مِثْلِ : (وَأَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) وَمِثْلِ : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ
 عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) وَيُنَاقِشُ الْأُمَوِيَّيْنَ فِي نِظَامِهِمُ الْوَرَاثِيَّ ، وَأَنَّهُمْ لَا
 يَسْتَدِلُّونَ لِلرَّسُولِ كَمَا يَدُلُّ آلُ بَيْتِهِ ، فَهَمَّ وَرِثَتُهُ الشَّرْعِيَّوْنَ ، وَإِلَّا لَوَرِثَتُهُ الْقَبَائِلُ جَمِيعًا
 وَعَلَى رَأْسِهَا الْأَنْصَارُ الَّذِينَ أَعَزَّ اللَّهُ بِهِمُ الْإِسْلَامَ . وَهُوَ يَسْتَدِلُّ بِالنِّصْوَصِ الْقُرْآنِيَّةِ
 تَارَةً وَيَحْكُمُ الْعَقْلَ تَارَةً أُخْرَى .

ودائمًا يعرض هذه الأدلة مجادلا . محاولا الظفر بخصومه ، فإن ترك ذلك ليج
 فى عقيدته الزيدية وأصولها المذهبية ، ومعروف أنها كانت - فى أصلها - من
 أكثر العقائد الشيعية اعتدالا وإن داخلها فيما بعد التطرف والمغالاة ، إذ كان
 زيد بن على لا يؤمن بتناسخ ولا ببداة ولا بـرجعة على نحو ما كان يؤمن الكيسانية ،
 وكان لا يدخل فى عقيدته أى شعوعة أو غلو مسرف ، إنما كان يثبت نظرية
 الوصاية ، وما تؤمن به الشيعة جميعاً من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى يوم
 غدير خم^١ . وفى ذلك يقول الكمي :
 وَيَوْمَ الدُّوْحِ دَوَّحَ غَدِيرِ خُمٍ أَبَانَ لَهُ الْوَلَايَةَ لَوْ أُطِيعَا^(١)

وكان زيد كما قدمنا يرى جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك
 صحح خلافة أبى بكر وعمر ولم يطعن فيهما ، ولا دفع إلى شتمهما كما تصنع
 الرافضة ، وفى هذا يقول الكمي :
 أَهْوَى عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَرْضَى بِشَتْمِ أَبِي بَكْرٍ وَلَا عَمْرَا
 ومعروف أن زيدا كان يشترط فى الإمام أن يكون من أبناء فاطمة ، ويحتسب
 أن يكون عالماً زاهداً شجاعاً سخياً^(٢) ، ويؤرد الكمي فى هاشمياته هذه
 الصفات ، يقول فى مدح الأئمة من الهاشميين :

(١) غدير خم : بين المدينة ومكة ، نزل فيه الرسول . (٢) انظر الملل والنحل ص ١١٥ .
 وخطب فيه .

الحُمَاة الكُفَاة في الحرب إن لُ
والغِيُوثُ الذين إن أَمَحَلَ الذَّا س فَمَاوَى حَوَاضِنُ الْأَيْتَامِ
غَالِبِيَّيْنِ هَاشِمِيَّيْنِ فِي الْعِلْ م رَبَّوَا مِنْ عَطِيَةِ الْعَلَامِ^(١)
وَهُمُ الْآخِذُونَ مِنْ ثِقَةِ الْأَمِّ رِ بَتَقَوَاهُمْ عُرَى لَا انْفِصَامَ^(٢)

ويضيف الكميّات إلى هذه الصفات صفة العدل ، فهم عدول إن حكموا
الناس لم يظلموهم نقيراً . وكثيراً ما يقف في تقريره لهذه الصفة عند جور بني
أمية وظلمهم للناس . وأنهم لا يتقون الله في رعايتهم لهم ، بل يعاملونهم كأنهم
أغنام ، مبتدعين دائماً بدعاً لم يحيى بها الإسلام ، يقول

لَهُمْ كُلٌّ عَامٍ بَدْعَةٍ يُخَدِّثُونَهَا أَزَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْحَلُوا
ودائماً يجارل ربّه أن يكشف غُصَمَتَهُمْ عن صدر الأمة ، فقد بغوا فيها وطغوا ،
وساموها كل ما استطاعوا من ألوان الخسف والعذاب . وإنه ليسأل الله أن يُحِلَّ
الأسرة الهاشمية محلهم ، يقول :

أَجْسَاعُ اللَّهِ مِنْ أَشْبَعْتَمُوهُ وَأَشْبَعُ مَنْ يَجْوِرُكُمْ أَجِيعَا
بِمَرْضَى السِّيَاسَةِ هَاشِمِيٍّ يَكُونُ حَيًّا لِأَمَّتِهِ رَبِيعَا^(٣)

ووقف الجاحظ عند أبيات مدح بها الرسول ، فقال : « ومن غرائب الحمق
المذهب الذي ذهب إليه الكميّات في مديح النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

إِلَى السُّرَاجِ الْمُنِيرِ أَحْمَدًا لَا تَعْدَلُنِي رَغْبَةً وَلَا رَهَبُ
عَنهُ إِلَى غَيْرِهِ وَلَوْ رَفَعَ الِ نَأْسٌ إِلَى الْعَيُونِ وَارْتَقَبُوا
وَقِيلَ أَفَرَطْتَ بَلْ قَصَدْتُ وَلَوْ عَنَّفَنِي الْقَاتِلُونَ أَوْ ثَلَبُوا

(١) ربوا : نموا من التربية .
الوُثَى لا انفصام لها) .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : (فمن يكفر

(٣) الحيا : المطر .
بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة

ففى رأى شاعراً مدح النبى صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس ، حتى يزعم هو أن ناساً يعيبونه ويثلبونه ويعنفونه^(١) . ويقول المرتضى إن ظاهر الخطاب للنبي والمقصود أهل بيته^(٢) . وقد مضى الكميت يناضل عن إمامه مؤيداً مقالته إلى أن رأى الخروج ، فمعد عن نصرته ، وفى هاشمياته ما يدل على أنه كان يكره الخروج ولا يراه . من مثل قوله :

تجود لهم نفسى بما دون وثبةٍ تظلُّ لها الغربان حولي تحجلُ
وخرج زيد وقتل ، فجزع الكميت ، وذهب يبكيه معلناً سخطه على الأمويين وعاملهم يوسف الثقفى محمّساً الناس أن ينفضوا عنه وعنهم . وضيق عليه يوسف الخناق ، وظلَّ يتحين له الفرص ، حتى إذا وفد عليه مادحاً سنة ١٢٦ للهجرة يريد أن يستلَّ ضمّنه دَسَّ إليه من قتله .

٤

شعراء ثورة ابن الأشعث

مرّ بنا فى حديثنا عن الكوفة أن أشرافها كانوا يضطغنون على بنى أمية منذ قوّضوا دولتها ، واتخذوا دمشق حاضرة للخلافة ، بل لقد كان العراقيون جميعاً يشعرون بهذا الضغن والحقد ، سواء منهم الكوفيون وغير الكوفيين ، فإنهم فقدوا السيادة ، وأصبحوا خاضعين لعرب الشام ، ولم يعد لهم من الأمر شىء . وسلّط عليهم الأمويون ولايةً يعنفون بهم عنفاً شديداً ، وكان ذلك يزيد فى حقدهم وألمهم ، فتعلقوا بكل ثائر على الأمويين . وسرعان ما كانت جيوش أهل الشام تغلب عليهم ، فيخضعون على مضض ، ويمضون منتظرين للحوادث .

ويتولى الحجاج ، ويأخذهم بسياسة قاسية لارحمة فيها ولا شفقة ، ويُحسُّ كثير منهم ، وخاصة أشرافهم أنه يستذلهم ، فيأنفون لأنفسهم أنفة شديدة ،

(٢) أمالى المرتضى ٨٠/٢ .

(١) البيان والتبيين ٢/٢٣٩ .

ويودون لو استطاعوا نقض هذا الضيم والخلوص من هذا الذل . وكان ممن تجسّدت فيه هذه المشاعر من أشرف الكوفة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذي يرجع في نسبه إلى ملوك كندة الأقدمين ، وكان من أشد العرب إحساساً بشرفه وإعجاباً بنفسه وتبهاً وخيلاء . وواتته الفرصة كي يقود هذه الثورة التي كانت تغلوها نفوس الأشراف في الكوفة ، ذلك أن عبيد الله بن أبي بكر عامل سجستان أخفق في حملة قادها إلى زنبيل ملك الترك ، إذ استدرجه إلى داخل بلاده ثم أطبق عليه فنكل بجيشه حتى يقال إنه مات كمدأ .

وفكر الحجاج في قائد محنك بوليه سجستان ، ويقود الحرب فيها ، وهده تفكيره إلى عبد الرحمن ، وكان في كرمّان ، فأمدّه بجيش عظيم كان يسمى «جيش الطواويس» ، لتمام أهنته وعُدته . والتقى بجيوش الترك وانتصر عليها انتصارات عظيمة ملأت يده بالغنائم ، غير أنه رأى - خشية على جيشه - أن لا يتوغل وراء الترك ، حتى لا يصنعوا به ما صنعوه بابن أبي بكر . ولم يكد يعرف الحجاج ذلك حتى كتب إليه يتهمه بالخور والضعف ، وهدّده إن لم يمض في القتال بعزله . فثار عبد الرحمن لكرامته ، وجمع قادة الجيش ، وحدّثهم بكتب الحجاج وكانوا مثله ينطوون على بغضه ، ويتمنون لو عادوا إلى أهلهم ، فأظهروا الثورة عليه ، وقالوا إنه لا يبالي بموتنا ، ويريد أن يعرضنا للخطر ، حتى نسوق له وخليفته الغنائم . ولم يلبثوا أن بايعوا عبد الرحمن ، وصمموا على حرب الحجاج حتى يخرج من العراق .

ووادع عبد الرحمن ملك الترك وعاهده أنه إن ظفر بالحجاج لم يسأله خراجاً أبداً ، وإن هزمه الحجاج لجأ وأصحابه إليه ، ففنعهم . واتجه بجيشه إلى العراق ، وانضم إليه في طريقه كثير من جند الكوفة والبصرة المقيمين بخاميات الأمصار ، ولما صار في فارس خلع عبد الملك بن مروان وخلعه جنده ، وبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الجيش «مثل السيل المنحط» من عمل ، ليس يردّه شيء حتى ينتهي إلى قراره «وأعشى همدان وأبو جليدة الشكري في مقدمته يثيران الناس ويحمتسانهم للقاء الحجاج ومن يستعين بهم من عرب الشام ، الذين نزلوا منازلهم وحلّوا دورهم بينا أخرجوا منها

للحرب والموت في سجستان وخراسان على نحو ما نرى في قول أبي جهم (١) :

أيا لهفى ويا حُزنى جميعاً ويا غمَّ الفُؤادِ لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعاً وخلينا الحلال والحلالين (٢)
فما كنا أناساً أهل دينٍ فنصبر للبلاء إذا بلينا
ولا كنا أناساً أهل دُنيا فنمنعها وإن لم نرج دينا
تركنا دورنا لطفام عكٍّ وأنباط القرى والأشعرينا (٣)
وتقدم الحجاج بجيشه، فالتقى بجيش ابن الأشعث على نهر دُجَيْل في ذي
الحجة سنة ٨١ وانتصر ابن الأشعث وتقدم بجنوده، فاستولى على البصرة،
ومضى الحجاج فتزل بجيشه في ضاحية من ضواحيها تسمى الزاوية، وحدثت فيها بين
الطرفين معركة عنيفة كان فيها أبو جهم يجرى على قتال الحجاج بمثل قوله (٤) :
نحن جلبنا الخيل من زرنجا مالك يا حجاج منا منجى (٥)
لتبجج بالسيوف بعجاً أو لتفرن فذاك أحجى (٦)
وما زال أبو جهم يحبس الجنود ويبيت الغيرة فيهم لنسائهم حتى شددوا
على عسكر الحجاج شدة ضعفته، وثبت الحجاج وصاح بأهل الشام،
فترجعوا وثبتوا، وكانت الدائرة له. وانسحب ابن الأشعث بمن معه إلى الكوفة
وهناك حدثت بينه وبين الحجاج موقعة دير الجماجم، وفيها هُزم هزيمة ساحقة.
ولم يلبث أن جمع للحجاج جموعاً جديدة، والتقى به في «مسكن» فحالفته
الهزيمة، فولّى وجهه نحو المشرق إلى أن وصل إلى سجستان، فالتجأ إلى زنبيل،
وبعد محاولات منه لرجع سلطانه أسلمه الزنبيل لجيوش الحجاج، وقُطعت رأسه،
وقيل بل مات انتحاراً. ويلقانا بجانب أبي جهم شعراء كثيرون لحنوا في هذه
الثورة لعل أهمهم أعشى همدان، وهو بحق يعد شاعر هذه الثورة.

(١) مرت في الفصل السالف مصادر الشام اليمنية. ومنها الأشعرية اليمنية. وسماه
ترجمته وانظر في الأبيات أغاني (دار الكتب)
٣١٢/١١ (٤) أغاني ٣١٢/١١.
(٥) زرنج : قصبة سجستان
(٦) البعج : الشق. أحجى : أخلق وأجدر
(٢) الحلائل : الزوجات.
(٣) الطغام : الأوغاد وعك : من قبائل

أعشى^(١) همدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله الحمداني القحطاني، نشأ في الكوفة، وعُني في أول نشأته بالفقه وقراءة القرآن حتى لئرى الشعبي فقيه الكوفة المشهور يُصْهِرُ إليه ، فيتزوج أخته ويزوجه أخته . وتيقظت فيه موهبة الشعر فترك القرآن ورواية الحديث النبوي ، وأقبل عليه ، وآخى أحمد النَّصَّبي مغني بلده ، فكان إذا قال شعراً غنّى له فيه . وأول ما بين أيدينا من أشعاره يتصل بمديح النعمان بن بشير الأنصاري الذي ولي على الكوفة سنة تسع وخمسين ، وفيه يقول :

متى أَكْفَرِ النعمانَ لم أَلْفَ شاكراً وما خيرُ من لا يقتدى بشكور
وله أشعار ينزع فيها منزع زهد في الدنيا ، فهو ينفر منها ومن التعلق بمتاعها ، وأكبر الظن أنه كان ينظم هذه الأشعار في أول عهده بالنظم حين كان يختلف إلى مجالس صهره الشعبي وغيره من وعّاظ الكوفة ، ومن أطرفها قوله :

وبينما المرء أمسى ناعماً جَدِلاً في أهله مُعْجَباً بالعَيْشِ ذا أَنْقِ^(٢)
غِراً ، أُنْبِيعَ له من حَيْنِهِ عَرَضُ فما تَلَبَّثَ حتى مات كالصَّعِقِ
فما تزوّد مما كان يجمعه إلا حَنُوطاً وما واره من خِرَقِ^(٣)
وغيرَ نَفْحَةٍ أَعْوَادٍ تُشَبُّ له وقلّ ذلك من زادٍ لمنطلق

ونراه حين هُزِمَ التوابون بقيادة سليمان بن صرد سنة خمس وستين يبيكهم بقصيدة كانت إحدى المكتّمات التي كتبت في ذلك الزمان^(٤) . ويتولّى مصعب البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير فيلزمه في سلمه وحربه للمختار الثقفي ناظماً أشعاراً كثيرة ، رواها الطبري ، يصور فيها شعوزة المختار الثقفي وما كان يتخذ من

بديوان أعشى قيس .

(٢) أنق : فرح وسرور .

(٣) الحنوط : طيب يتخذ للميت خاصة .

(٤) طبري ٤/٤٧٢ .

(١) انظر في ترجمة أعشى همدان الأغاني

(طبع دار الكتب) ٢٣/٦ والاشتقاق

ص ٤٢٣ والمؤتلف ١٤ والموشح ص ١٩١

وراجع فهرس الطبري والجزء الخامس من أنساب

الأشراف للبلاذري وله ديوان نشره جابر ملحفاً

كُرْسَى وَحَمَامَاتٍ بِيضَاءَ تَمْوِيهَاً عَلَى جَنْدِهِ^(١) . وَيُذَالُ لِلْبَصْرَةِ مِنَ الْكُوفَةِ ،
وَيَفْتَحِرُ الْبَصْرِيُّونَ بِانْتِصَارِهِمْ ، فَيَغْضَبُ لِبَلَدَتِهِ ، وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ بِالْخَطَابِ قَائِلًا :
وَلَمَّا فَاخَرْتُمُونَا فَادْكُرُوا مَا فَعَلْنَا بِكُمْ يَوْمَ الْجَمَلِ^(٢)

ونراه يخرج مع جيوش مصعب لحرب الخوارج محارباً تحت لواء المهلب
وغیره من القواد أمثال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويظهر أنه ظل يشهر
سيفه ضدهم حتى عهد بشر بن مروان على العراق إذ نراه في موقعة جملاء . وقد
انتصر الخوارج ، فضى يهجو قائد الحملة هجاء مرا . ويتولى خالد بن
عتاب بن ورقاء أصبهان ، وكان صديقه ، فيمدحه مدائح رائعة ، غير أنه
يحفوه ، فيهجوه . ونراه في شعره يتحدث عن طلاقه لامرأة من قومه بسبب بئذائها .
ويشكو من أخرى تنكرها له ، مع شغفه بها .

ويبعث به الحجاج مع بعض جيوشه إلى مكّران ، فيمرض هناك . وينظم
قصيدة طويلة يصور فيها حنينه إلى بلده وأهله وأنه خرج إلى الحرب على رغبة ،
خوفاً من سيف الحجاج وبطشه . ويتوغل مع بعوث الحجاج في بلاد الديلم ،
فيقع أسيراً ، وتهواه بنت للعلاج الذي أسره وتحلّ قيوده ، وتأخذ به طرقاً تعرفها ،
وبذلك تخلصه وتهرب معه . ويظهر أنه لم يؤلّ وجهه إلى العراق ، بل اتجه إلى
سجستان حيث كان ينازل عبيد الله بن أبي بكر زنبيل ملك الترك ، ولما دارت
على جيشه الدوائر بكى هذا الجيش مضمناً بكاءه هجاء شديداً لابن أبي بكر
سواء في قيادته غير الحكيمة أو في إهداره لمسؤولياته ، إذ انتهز ما كان فيه جيشه
من ضيق ، فباع القفيز من الشعر بدرهم ، كما باع لهم العنب الحصرم ، وهم
يتساقطون جوعاً ، يقول :

أَسْمَعَتْ بِالْجَيْشِ الَّذِينَ تَمَزَّقُوا وَأَصَابَهُمْ رَيْبُ الزَّمَانِ الْأَعْوَجِ
حُبِسُوا بِكَابُلَ يَأْكُلُونَ جِيَادَهُمْ بِأَضْرَ مَنْزِلَةٍ وَشَرُّ مُعَرَّجٍ^(٣)
لَمْ يَلْقَ جَيْشٌ فِي الْبِلَادِ كَمَا لَقُوا فَلَمَثَلَهُمْ قُلُوبٌ لِلنَّوَاحِ تَنْشِجُ

بأهل الكوفة على أهل البصرة .

(٣) كابل : قصبة زنبيل ملك الترك .

(١) انظر الطبري ٤/ ٥٥٠ ، ٥٦١ .

٥٦٥ .

(٢) يشير إلى وقعة الجمل وانتصار علي فيها

ثم اتجه بخطابه إلى عبيد الله فقال :

وُلِّيتَ شَأْنَهُمْ وَكُنْتَ أَمِيرَهُمْ فَأَضَعْتَهُمْ وَالْحَرْبُ ذَاتُ تَوَهُجٍ
وَتَبِيعَهُمْ فِيهَا الْقَفِيزَ بِدَرَاهِمٍ فَيُظَلُّ جَيْشُكَ بِالْمَلَامَةِ يَنْتَجِي^(١)
وَمَنْعَتَهُمْ أَلْبَانَهُمْ وَشَعِيرَهُمْ وَتَجَرَّتْ بِالْعَنْبِ الَّذِي لَمْ يَنْضَجْ
وَمَاتَ ابْنُ أَبِي بَكْرَةَ كَمَا قَدَمْنَا ، فَوَلَّيْتُ سَجِسْتَانَ ابْنَ الْأَشْعَثِ ، فَسَأَلَهُ أَنْ
يَزِيدَ فِي عَطَائِهِ ، فَلَمْ يُلَسِّبْ سَوْأَلَهُ ، فَضَيَّ يَعَاتِبُهُ فِي قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ ، يَقُولُ لَهُ فِي
تَضَاعُيفِهَا :

مَالِكَ لَا تَعْطَى وَأَنْتَ امْرُؤٌ مُثَرٍّ مِنَ الطَّارِفِ وَالنَّالِدِ
تَجْبِي سَجِسْتَانَ وَمَا حَوْلَهَا مَتَكُثًّا فِي عَيْشِكَ الرَّاغِدِ

وتتطور الظروف ، ويشور ابن الأشعث على الحجاج ، فيضع الأعشى
يده في يده وكأنه صدَّرَ في ثورته عن أمنيته ، فقد وقف من قديم في صفوف
المعارضة الأموية ، وقف كما قدمنا مع التوابين من الشيعة ثم وقف مع مصعب بن
الزبير . وكان دائماً لا يرضى عن ولاية بني أمية ، ويراهم ظالمين لارعية يسومونها
العذاب على نحو ما رأينا في هجائه لابن أبي بكر . وهذا الحجاج على العراق
قد بغى وطفى ، ولا يعرف أحد طغيانه وبغيه مثله ، فقد أمره بالخروج في
بعوث الشرق ، وخرج كارهاً مُرْغَمًا ، لا يعرف متى يأذن له في العودة لتقر عينه
بأهله وولده . لذلك حين أعلن ابن الأشعث الثورة على الحجاج لزمه ينظم الشعر
محمّساً لجنده ، فلما توجه مقبلاً إلى العراق سار بين يديه على فرس وهو يقول :

إِنَّا سَفَوْنَا لِلْكَفُورِ الْفَتَانَ حِينَ طَفَى فِي الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ^(٢)
بِالسَّيِّدِ الْغَطْرِيفِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ سَارِ يَجْمَعُ كَالدَّبْيِ مِنْ قَحْطَانِ^(٣)
أَمْكَنَ رَبِّي مِنْ ثَقِيفٍ هَمْدَانِ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ يُسَلِّي مَا كَانَ
إِنْ ثَقِيفًا مِنْهُمْ الْكَذَّابَانِ كَذَّابُهَا الْمَاضِي وَكَذَابُ ثَانِ

(١) ينتجى : يتسار ، من التجوى وهي السر .

(٢) الدبى : الجراد .

(٣) سقا : خف وأسرع .

وأخذ ينظم أشعاراً كثيرة ، يثير بها الجند ويحرّضهم على القتال ، ونجده في هذه الأشعار يتحدث عن مجد ابن الأشعث القديم : وما كان لآبائه من مُلك وشرف وسيادة في الجاهلية ، وهو بذلك يضع في يدنا وثيقة سياسية لهذه الثورة ، فهي كما قدمنا ثورة أشراف الكوفة الذين انحدروا من أُسَرِ العصر الجاهلي النبيلة ، يقول :

يأبى الإله وعزة ابن محمد وجدود مَلِكٍ قبل آل ثمود^(١)
 أن تأنسوا بمُدَمِّمين عُروُقهم في الناس إن نُسبوا عروقُ عبيدٍ
 كم من أب لك كان يعقد تاجه بجبين أبلجٍ مقولٍ صنديد^(٢)
 ما قصرّت بك أن تنال مدى العُلا أخلاقُ مكرمة وإرثُ جدودٍ

وانتهت الحرب وانتصر الحجاج ، وأتى إليه بأعشى همدان أسيراً ، فأخذ يستعطفه ويسترحمه ويحاول أن يُلين قلبه له بقصيدة رائعة يقول فيها مشيداً بانتصاره :

أبى الله إلا أن يتمّم نوره ويطنى نار الفاسقين فتحمداً
 ويُنزل ذلاً بالعراق وأهله لما نقضوا العهد الوثيق المؤكداً
 وما نكثوا من بيعة بعد بيعة إذا ضمّنها اليوم خاسوا بها غداً^(٣)
 وما أحدثوا من بدعة وعظيمة من القول لم تصعد إلى الله مصعداً
 وما زاحف الحجاج إلا رأيت معاناً ملقى للفتوح معوداً
 ليهنئ أمير المؤمنين ظهوره على أمة كانوا بغاة وحسداً
 ولكن ذنبه عند الحجاج كان عظيماً فازبدّ وجهه واهتز منكباها ، وأمر الحرسيّ فضرب عنقه سنة ٨٣ للهجرة .

(٢) أبلج : طلق الوجه . مقول : خطيب .
 صنديد : الجواد الشجاع
 (٣) خاس : غدر ونكث

(١) ابن محمد : هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويريد بال ثمود قبيلة ثقيف قوم الحجاج ، وكان هناك من يقول إنهم بقايا ثمود .

شعراء بنى أمية

لا نريد هنا أن نتحدث عن مُدَّاح بنى أمية ، فالمدح شئ والشعر السياسى شئ آخر. المدح ثناء يقدمه الشاعر ابتغاء النوال والعطاء ، أما الشعر السياسى فنضال عن الحكم وعن نظرية معينة فيه ، فهو ليس مجرد مدح ، إنما هو دفاع من جهة وهجوم من جهة ثانية ، دفاع عن نظرية ، تعتنقها جماعة من الجماعات أو فرقة من الفرق ، وهجوم على خصومها ومن يقفون فى الصفوف المعارضة لها .

وأول صورة تلقانا للشعر السياسى المناصر لبنى أمية ما أخذ ينظمه الأمويون أنفسهم من مثل الوليد بن عقبة عقب مقتل عثمان ، إذ مضوا بها جمون الثوار ، الذين قتلوه ، جاعلين أنفسهم أصحاب الحق فى الثأر من قتلته ، فهم أهله الأقربون ، ومن ثمَّ فهم أولياء دمه . وكان علىَّ قد بُويع بالخلافة وانشق عليه طلحة والزبير والسيدة عائشة ، كما انشق زعيم بنى أمية معاوية أمير الشام يسنده جيش يمنى موال له تمام الولاء . وبذلك انقسمت الجماعة الإسلامية شيعاً ، وأخذت كل شيعه تحاول أن تفرض رأيها السياسى باللجوء إلى السيف والقوة . ومضى الثلاثة الأولون إلى العراق ونزلوا البصرة فتبعهم على ونزل الكوفة ، وبذلك خرجت الخلافة من المدينة ، ولم يلبث طلحة والزبير أن سقطا فى وقعة الجمل ، فخلا الجو لمعاوية ومطالبته بالثأر من قتلة ابن عمه عثمان . وأسرع على بعد أن بايعه أهل العراق جميعاً قاصداً معاوية فالتقى به عند صِفِّين على حدود الفرات . ونشبت معركة عنيفة كاد ينتصر فيها علىَّ انتصاراً حاسماً لولا ما لحأ إليه معاوية من رفع المصاحف وطلب الاحتكام إلى القرآن لا إلى السيف . وفى هذه الموقعة نُظِم شعر كثير تبادل فيه الفريقان الهجاء ، وكل منهم يدافع عن نظريته فى الحكم وعن إمامه الذى ارتضاه مستلهماً خصومة الشام والعراق فى الجاهلية وما كان من تنافس على سلطان القبائل العربية بين الغساسنة والمناذرة ، على شاكلة قول كعب بن جُعَيْل التغلبى :

أرى الشام تكبره مُلكَ العراق وأهلُ العراق لهم كارهونا
وقالوا على إمام لنا فقلنا رضينا ابنَ هِنْدٍ رضينا
وردَّ عليه بعض شعراء العراق ، فقال ينقض ما زعمه ، مشيراً إلى ما بين
الطرفين من عداوات قديمة :

أتاكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا
فإن يكره القومُ مُلكَ العراق فَقَدْ مَا رَضِينَا الَّذِي تَكْرَهُونَا^(١)

وتطورت الظروف وقُتل على بعد التحكيم ، وبإيع الناس معاوية ، ودخلت
العراق في طاعته وطاعة من خلفوه من الأمويين ، ولكنها ظلت تعارضهم خفية ،
وكلما استطاعت أن تجهر بمعارضتها نهضت إلى ذلك تارة مع الخوارج ، وتارة
مع الشيعة ، وتارة مع ابن الأشعث أو يزيد بن المهلب . وعارضتهم الحجاز في
عهد يزيد بن معاوية وتجسمت معارضتها في عبد الله بن الزبير .

وقد رأينا شعراء مختلفين يقفون في هذه الصفوف المعارضة يناضلون عن
نظرياتهم السياسية ، وكان الأمويون يستظهرون عليهم بشعرائهم طوال العصر .
وكان أول ما استخدموا فيه هؤلاء الشعراء هجاء عبد الرحمن بن حسان والآنصار
حين اشتبك مع يزيد بن معاوية ، وفي رواية مع عبد الرحمن بن الحكم ،
فاستعان عليه يزيد بالأخطل النصراني التغلبي ، على نحو ما مر بنا في غير هذا
الموضع ، ومنذ هذا التاريخ أصبح الأخطل شاعراً أمويّاً يناضل عن السياسة
الأموية . ويحاول معاوية أن يجعل الخلافة وراثية في بيته ، وأن يأخذ البيعة
لابنه يزيد في حياته . وكان ذلك في رأى كثيرين بدعة منكرة ، إذ تَخْرُجُ
الخلافة به عن الشورى وتصبح إرثاً من الأب لابنه ، على نحو ما هو معروف عند
الروم وما كان معروفاً عند الفرس ، وعرف معاوية نفور المسلمين من ذلك ،
فدفع بعض الخطباء إلى الدعوة لفكرته ، كما دفع بعض الشعراء ، وكان أسرع
من لبّاه منهم مسكين الدارمي فأنشأ يقول في كلمة له^(٢) :

(١) انظر الأخبار الطوال للدينوري (طبع) (٢) الأغاني (ساسي) ٧١/١٨ .

ليدن (ص ١٧٠ .

بني خلفاء الله مهلاً فإنما يُبَوِّثُهَا الرَّحْمَنُ حَيْثُ يَرِيدُ^(١)
 إِذَا الْمُنْبِرُ الْغَرْبِيُّ خَلَّى مَكَانَهُ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ
 عَلَى الطَّائِرِ الْمَيْمُونِ وَالْجَدُّ صَاعِدٌ لِكُلِّ أَنْاسٍ طَائِرٌ وَجَدُودٌ^(٢)
 وَيُقَالُ إِنَّ مَعَاوِيَةَ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : نَنْظُرُ فِيمَا قُلْتَ يَا مُسْكِينُ وَنَسْتَخِيرُ
 اللَّهَ ، وَوَصْلُهُ هُوَ وَابْنُهُ يَزِيدُ وَأَجْزَلَا صَلَاتُهُ .

ومن شعراء آل أبي سفيان المتوكل^(٣) الليثي وعبدالله^(٤) بن همام السلولي
 « وكان مكيناً حظيًّا فهمم وهو الذي حدّا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية »
 في أشعار يرويها الرواة ، كان يرثي فيها أباه ويحضره على البيعة لابنه من مثل قوله^(٥) :
 اضْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ دَامِقَةً وَاشْكُرْ حِبَاءَ الَّذِي بِالْمُلْكِ حَابَا كَا
 لَا رُزْءَ أَعْظَمُ فِي الْأَقْوَامِ نَعْلَمُهُ كَمَا رُزِئْتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَا كَا
 أَصْبَحْتَ رَاعِيَ أَهْلِ الدِّينِ كُلِّهِمْ فَأَنْتَ تَرْعَاهُمْ وَاللَّهُ يَرْعَا كَا
 وَفِي مَعَاوِيَةَ الْبَاقِي لَنَا خَلَفٌ إِذَا نُعِيتَ وَلَا نَسْمَعُ بِمَنْعَا كَا
 ونمضي إلى عصر المروانيين ، وأول من تلقاه من شعرائهم أبو العباس^(٦)
 الأعمى الشاعر المكي مولى بني الدثئل يقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان من
 شعراء بني أمية المعدودين المقدّمين في مدحهم والتشجيع لهم وانصباب الهوى إليهم »
 ونراه حين غلب ابن الزبير على الحجاز ونفى عنه الأمويين وعلى رأسهم مروان
 ابن الحكم يبيكهم بأشعار كثيرة من مثل قوله :

وَلَمْ أَرْ حَيًّا مِثْلَ حَيٍّ تَحْمَلُوا إِلَى الشَّامِ مَظْلُومِينَ مِنْذُ بُرِيتَ^(٧)
 أَعَزُّ وَأَمْضَى حِينَ تَشْتَجِرُ الْقَنَا وَأَعْلَمَ بِالْمُسْكِينِ حَيْثُ يَبِيتُ

(١) يبوتها : ينزلها .
 (٢) الجدد : الحظ .
 (٣) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ٥٧/١٥ ونكت الحميان للصفدي ص ١٥٣ ومجمع الأدباء ١٥٩/١٢ .
 (٤) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٦٣٣/٢ ٢٣٢/١ ، ٢٣٣ .
 (٥) ابن سلام ص ٥٢٢ والخزائن ٦٣٨/٣ . (٧) تحملوا : ارتحلوا . برئت : خلقت .
 (٥) البيان والتبيين ١٣٢/٢ والمبرد ص ٧٨٥

إذا مات منهم سيّد قام سيد بصيرُ بعَوَرات الكلام زَميت^(١)
وقوله :

لبت شعري أفراح رائحة المسك وما إن أخال بالخيْف أنبي^(٢)
حين غابت بنو أميّة عنه والبهاليلُ من بنى عبد شمس
خطباء على المنابر فُرسا ن عليها وقالة غير خُرس
لا يُعابون صامتين وإن قا لوا أصابوا ولم يقولوا بلبس
وبلغ ابن الزبير نُبّه من كلامه وأنه يمدح عبد الملك ويرسل له بجوائزه
وصلاته ، فنفاه إلى الطائف ، وهناك أخذ يهجوّه وآله هجاء مرّاً ، محرضاً عبد
الملك على حربهِ . وعلى نحو ما كان ينحرف عن ابن الزبير كان ينحرف عن
بنى هاشم ، وفي ذلك يقول لأبي الطفيل عامر بن واثلة وكان شيعياً :

لعمرك إنني وأباطفيل لمختلفان واللهُ الشهيد
لقد ضلُّوا بحب أبي تُراب كما ضلّت عن الحق اليهود
ويقال إنه أدرك دولة بنى العباس ، وتُروى له أشعار مختلفة — إن
صحت — في بكاء الأمويين ، يتفجع فيها عليهم ويتحسر تحسراً شديداً من
مثل قوله :

خلت المنابر والأسرة منهم فعليهم حتى الممات سلام
ومن كان يلهج بهم ويقف في صفوفهم نابعة بنى شيبان^(٣) عبد الله بن المخارق ،
ويستظهر أبو الفرج أنه كان نصرانياً ، لحلفه بالإنجيل والرهبان والأيمان التي
يخلف بها النصارى ، وفي ديوانه أشعار كثيرة تدل أنه اعتنق الإسلام من مثل
قوله :

ويزجرني الإسلام والشَّيبُ والتُّقى وفي الشَّيب والإسلام للمرء زاجرٌ

(٣) انظر في ترجمته الأغاني (طبع دار
الكتب) ١٠٦/٧ وقد نشرت دار الكتب ديوانه.

(١) زميت : وفور .

(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .

وكان منقطعاً إلى عبد الملك ، فلما همَّ بخلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد العهد مثَّل بين يديه ينشده قصيدة طويلة يقول في تضاعيفها :

لَا بُشْكَ أُولَى بِمُلْكٍ وَالِدِهِ وَنَجْمُ مَنْ قَدْ عَصَاكَ مَطْرَحُ
فَعَلِمَ النَّاسُ أَنَّ هَذَا هُوَ رَأْيُ عَبْدِ الْمَلِكِ . وظل من بعده يمدح أبناءه ، وله تهنئة طويلة ليزيد حين قضى أخوه مسلمة على ابن المهلب . ولزم بعده ابنه الوليد ، وله فيه مدائح كثيرة ، وكان من هواه في الخمر والشراب ، وله فيها أشعار طريفة . وعلى شاكلته في الانتصار لبني مروان أعشى قبيلته عبد^(١) الله بن خارجة ، وكان شديد التعصب لهم ، وله في عبد الملك مدائح كثيرة ، يحضه فيها على حرب ابن الزبير والقضاء عليه من مثل قوله :

أَلُ الزَّبِيرِ مِنَ الْخِلَافَةِ كَالْتِي عَجَلَ النَّجَاجُ بِحَمْلِهَا فَأَحَالَهَا^(٢)
قَوْمُوا إِلَيْهِمْ لَا تَنَامُوا عَنْهُمْ كَمْ لِلْغَوَاةِ أَطْلَمُ إِمَهَالِهَا
إِنَّ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ لَا فِيهِمْ مَا زَلْتُمْ أَرْكَانَهَا وَثِمَالَهَا^(٣)
أَمْسُوا عَلَى الْخَيْرَاتِ قَفْلاً مَغْلَقاً فَانْهَضْ بِيَمْنِكَ فَافْتَتَحْ أَقْفَالَهَا

ومن شعراء بني أمية أبو عطاء^(٤) السَّندِيّ مولى بني أسد ، وكانت فيه لُكْنَةٌ سبق أن تحدثنا عنها وكان من شعراء يزيد بن عمر بن هبيرة آخر ولاية الأمويين على العراق ، ولما قتله العباسيون رثاه مرثئاً بديعة . وقد عاش إلى أيام المنصور ، ونراه يبكي بني أمية حين سقطت دولتهم هاجياً العباسيين في أشعار كثيرة من مثل قوله :

يَا لَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ عَادَ لَنَا وَأَنَّ عَدَلَ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي النَّارِ
وقوله :

بَنِي هَاشِمٍ عُودُوا إِلَى نَخْلَاتِكُمْ فَقَدْ قَامَ سِعْرُ التَّمْرِ صَاعاً بِدَرَاهِمٍ
فَإِنَّ النَّصَارَى رَهْطُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ فَإِنَّ النَّصَارَى رَهْطُ النَّبِيِّ وَقَوْمُهُ

(٤) انظر في ترجمة أبي عطاء أغاني (ساسي) ٧٨/١٦ والشعر والشعراء ٧٤٢/٢ والخزانة ١٧٠/٤ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٤٥٦ والعين ٥٦٠/١ .

(١) انظر ترجمته في الأغاني طبع (ساسي) ١٥٥/١٦ وقد نشر جابر ديوانه ملحقاً بديوان أعشى قيس .
(٢) أحالها : جعلها لا تنتج .
(٣) النمال : الغمائم التي يقوم بأمر قومه .

وبجانب هؤلاء الشعراء كثيرون كانوا لا ينقطعون لبنى أمية ، ولكنهم كانوا يمدحونهم من حين إلى حين ، منوهين بأن الأمة لا تصلح إلا عليهم ، ولا تتم لها سعادتها إلا بهم ، وكانوا لا يزالون يقولون إنهم المختارون للأمة على شاكلة قول الأحوص في الوليد بن عبد الملك (١) :

تَحْيِرُهُ رَبُّ الْعِبَادِ لَخَلْقِهِ وَلَيْسَا وَكَانَ اللَّهُ بِالنَّاسِ أَعْلَمًا
وقد يصعدون بهم فيشبهونهم بالأنبياء ، يقول يزيد بن الحكم في سليمان (٢) :
سُمِّيَتْ بِاسْمِ امْرِئٍ أَشْبَهَتْ شَيْمَتَهُ عَدْلًا وَفَضْلًا سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ
أَخِيْدَ بِهِ فِي الْوَرَى الْمَاضِينَ مِنْ مَلِكٍ وَأَنْتَ أَصْبَحْتَ فِي الْبَاقِينَ مَحْمُودًا
وكان في زهد عمر بن عبد العزيز مدد لهم لا ينفد في تصوير تقواه وانصرافه عن الدنيا ومتاعها الزائل على نحو ما أسلفنا عند كثير ، ويقول العبدلي في هشام بن عبد الملك وأسلافه (٣) :

يَقْطَعُونَ النَّهَارَ بِالرَّأْيِ وَالْحَزْمِ وَيُحْيُونَ لَيْلَهُمْ بِالسَّجْدِ
والغريب أن نجد هذا التصوير يمتد حتى إلى من عرفوا منهم بالمجون مثل الوليد بن يزيد ، وفيه يقول يزيد بن ضبة (٤) :

إِمَامٌ يُوضِحُ الْحَقَّ لَهُ نَوْرٌ عَلَى نَوْرِ
ولما اضطربت الدولة في عهده وعهد خلفائه ، وأخذوا يجترّبون ويقتل بعضهم بعضاً ، وبدت في الأفق النذر بزوال حكمهم كتب نصر بن سيار واليهم على خراسان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة واليهم على العراق يستنصره وينبئه عن تحرك الشيعة في دياره قائلًا (٥) :

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِضَّ جَمْرٍ فَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ اضْطِرَامُ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شَعْرَى أَأَيْقَاطُ أُمِيَّةٌ أَمْ نِيَامُ
فَإِنْ كَانُوا لَحِينَهُمْ نِيَامًا فَقُلْ قَوْمُوا فَقَدْ طَالَ الْمَنَامُ

(١) أغاني (دار الكتب) ٢٩٨/١ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٢٨٨/١٢ .

(٣) أغاني ٣٠٦/١١ .

(٤) انظر ترجمته في الأغاني ٩٥/٧ وما بعدها .

(٥) البيان والتبيين ١٥٨/١ .

ولم تلبث الثورة عليهم أن اندلعت ، وقوّضت حكمهم سنة ١٣٢ للهجرة بين عويل كثير من الشعراء وبكائهم ، على نحو ما أسلفنا عند أبي عطاء السندی ونقف الآن عند شاعر ين مهمين من شعرائهم .

عبد الله^(١) بن الزبير

كوفي المنزل والمنشأ ، بنى أسد « كان من شيعة بنى أمية وذوى الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدوهم » ونراه يلهج بالشعر منذ خلافة معاوية ، وحدث أن فسد ما بينه وبين عبد الرحمن بن أم الحكم واليه على الكوفة فأخذ يهجو ، ويقال إن يزيد بن معاوية هو الذى كان يغريه على ذلك ، إذ كان يبغض ابن أم الحكم ، ولما طلبه استجار منه بمروان بن الحكم وهو على المدينة فأجاره ، ومدحه . ونراه يمدح عمرو بن عثمان مديحاً رائعاً ، إذ يقول :

سأشكر عمراً إن تراخت منيتي أبادى لم تُمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت^(٢)
ويمدح أسماء بن خارجة ، ويقال إنه شفع له عند ابن أم الحكم ، فعفا عنه ، ولم يكتف أسماء بذلك فقد وصله وجعل له ولعياله عطاء دائماً ، مما جعله يشيد به بمثل قوله :

ولا مجد إلا مجد أسماء فوقه ولا جرى إلا جرى أسماء فاضله
فتى لا يزال الدهر ما عاش مخصباً ولو كان بالمؤماة تخلى رواحله^(٣)
وعزل ابن أم الحكم عن الكوفة وضمت إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة ، فلزمه يمدحه وينوه به فى قصائد كثيرة ، ومن قوله فيه :

نصافى عبيد الله والمجد صفوة الـ حليفين ما أرسى ثبير ويثرب^(٤)
وأنت إلى الخيرات أول سابق فأبشر فقد أدركت ما كنت تطلب

(١) انظر فى ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ٢١٧/١٤ وما بعدها والخزانة ١/٣٤٥ وماهده
(٢) المومة : المفازة . تخلى الناقة : تسرع فى سيرها .

(٣) (٤) ثبير : جبل بظاهر مكة . يثرب : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .
(٢) الخلة : الحاجة والخصاصة . والقذى : ما يقع فى العين .

ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتموج الفتنة بالعراق ، فيفر ابن زياد إلى الشام وتخلص الكوفة للمختار الثقفي فيتحول إليه ابن الزبير يتوعده ويهدده بكتائب المروانيين . ويغلب مصعب على الكوفة ويؤفى به أسيراً ، فيمن عليه ويصله ويحسن إليه ، فيمدحه ، ولكنه لا ينتقل بولائه إلى أخيه عبد الله ، إذ نراه يهجوّه حين يبلغه قتله لبعض شيعة بنى أمية ، وله يقول :

أهبا العائدُ في مكة كم من دمٍ أهرقته في غير دم
أيدُ عائدة معصمة ويدُ تقتل من حلّ الحرم
ولما قضى عبد الملك على مصعب ، وخلص له العراق ، وأرسل الحجاج للقضاء على ابن الزبير بمكة مضى ينذره بسوء المصير قائلا :

كأنى بعبد الله يركب ردعه وفيه سنان زاعجٍ مُحرب^(١)
وقد فر عنه الملاحدون وحلقت به وبمن آساه عنقاء مغرب^(٢)
تولوا فخلّوه فشال بشلوه طويل من الأجذاع عارٍ مشدّب^(٣)
بكفى غلام من ثقيف نمت به قريش وذو المجد التليد معتب
ويلزم بشر بن مروان في ولايته على العراق ، ويمدحه مدائح كثيرة وقد توفى في خلافة عبد الملك ، ويظهر أنه لم يعيش طويلا بعد بشر ، ويقال إنه عمى بأخرة ، ويقول أبو الفرج إنه كان هجاء يُرهبُ شره .

عدى^(٤) بن الرقاع

من عاملة إحدى قبائل قُضاعة ، كان منزله بدمشق ، وهو بذلك يُسلك في حاضرة الشعراء . وكان مقدماً عند بنى أمية — كما يقول أبو الفرج مدحاً

- (١) يقال ركب ردعه : إذا سقط قتيلا يتشخب دمه . والزاعجة : ضرب من الرياح . محب : محدد .
(٢) يقال عنقاء مغرب على الوصف وبالإضافة يقصد حوم الطير على أشلائهم .
(٣) الشلو : الجسد . شال به : رفعه أى أنه صلب على جذع طويل . مشدّب : مصلح مقوم .
(٤) انظر في ترجمة عدى وأخباره وأشعاره
- أغانى (طبع دار الكتب) ٢٩٩/١ وما بعدها
و ٣٠٧/٩ وما بعدها و (طبع الساسي)
١٦٥/١٧ والطبرى ٢/٥ والشعر والشعراء
٦٠٠/٢ وابن سلام ص ٣٢٤ ، ٤٣٥ ،
٥٥٨ ، ٥٥١ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٨٦
والاشتقاق ص ٣٧٥ والموشع ص ١٩٠ والطرائف
الأدبية (طبع لجنة التأليف) ص ٨١ .

لهم، خاصاً منهم بالوليد بن عبد الملك . ونراه يشترك في محاصمات أشرف قبيلته لعهد يزيد بن معاوية . ولما أشرعت الأسنة بين القبائل اليمنية وقيس في الشام ناصر قومه وبنى أمية . ونراه مع عبد الملك في حربه لمصعب بن الزبير ، وله يمدحه مفاخرأ بنصرتهم له :

لعمري لقد أضحرتُ خيَلنا بأكنافِ دجلة للمُصْعَبِ^(١)
 يَهْزُونُ كُلَّ طَوِيلِ القَنَا ة ملتئم الذُّفُلِ والثَّغْلَبِ^(٢)
 تقدّمنا واضحُ وجهه كريمُ الضرائبِ والمنصبِ^(٣)
 أَعَيْنَ بِنَا وَنُصِرْنَا بِهِ وَمَنْ يَنْصُرِ اللهَ لَمْ يُغْلَبْ

ولا نكاد نمضي في عصر الوليد بن عبد الملك حتى نجده يقربه مند ويتخذهُ شاعره الرسمي ، حتى لُيَسَّعِلِيهِ على جرير في بعض مجالسه ، ويشور جرير ، ويهجوهُ ، فيتدخل الوليد ويتهدده إن عاد إلى هجائه . ويظل في رعايته يصفّيه مداًمحه ، ويتغنى له فيها المغنون ، وما غنّى له ابن سُرَيْج فيه قوله :

صَلَّى الذِي الصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ لَهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِذَا مَا جَمَعُوا الْجُمُعَا
 هُوَ الذِي جَمَعَ الرَّحْمَنُ أُمَّتَهُ عَلَى يَدَيْهِ وَكَانُوا قَبْلَهُ شِيعَا
 إِنْ الْوَلِيدَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ مُذْكَ عَلَيْهِ أَعَانَ اللهُ فَارْتَفَعَا

وقوله :

صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى أَمْرِي وَدَعْتُهُ وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ وَزَادَهَا
 أَوْ لَا تَرَى أَنَّ الْبَرِّيَّةَ كُلَّهَا أَلْقَتْ خِزَائِمَهَا إِلَيْهِ فَقَادَهَا^(٤)
 وَلَقَدْ أَرَادَ اللهُ إِذْ وَلَّاكَهَا مِنْ أُمَّةٍ لِصَلَاحِهَا وَرَشَادَهَا
 أَعْمَرَتْ أَرْضَ الْمُسْلِمِينَ فَأَقْبَلَتْ وَنَفَيْتَ عَنْهَا مَنْ يَرُومُ فَسَادَهَا

(٤) الخزائم : جمع خزيمة . وهي البرة يحزم بها البعير في أنفه . كنى بذلك عن الانقياد والطاعة .

(١) أصحرت : برزت

(٢) الثعلب : رأس الرمح

(٣) الضرائب : الطباع

وَأَصَبَتْ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ مَصِيبَةً عَمَّتْ أَقَاصِي غَوْرِهَا وَنِجَادَهَا
ظَفَرًا وَنَضْرًا مَا تَنَاوَلَ مِثْلَهُ أَحَدٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ كَانَ أَرَادَهَا
وَإِذَا نَشَرْتُ لَهُ الشَّنَاءَ وَجَدْتُهُ جَمَعَ الْمَكَارِمَ طَرْفَهَا وَتِلَادَهَا^(١)

وعلى هذا النحو كان يمدح الوليد مدحاً مبالغاً فيه مفرطاً ، محاولاً بكل ما
يستطيع أن يخلع عليه هالة من القداسة ، فهو قد اصطفاه الله للأمة واختاره
لسياستها وصلاح شئونها ورشاد أمورها والتثام شعنها ، وقد انقادت إليه بأزمته ،
والله يتم عليه نعمته ، وهي تصلي له وتدعو بالتوفيق بل إن الله في علاه ليصلي
عليه كما يصلي على نبيه محمد المصطفى . ويصور حسن سياسته الداخلية ،
وكيف أعمار أرض المسلمين حتى ازدهرت وآتت أكلها ، وإنه ليحوطها بجنده
منزلاً على أعدائها صواعقه ، فتمحتهم محققاً .

وفي أشعاره ما يدل على أنه كان يُعَسِّنِي بها عناية شديدة إذ ما يزال يَصْقُلُهَا
ويشذبها حتى تلين له متونها ، مردداً فيها نظره مجيلاً عقله ، يقول :

وَقَصِيدَةٍ قَدْ بَتُّ أَجْمَعُ بَيْنَهَا حَتَّى أَقُومَ مِثْلَهَا وَسِنَادَهَا^(٢)
نَظَرَ الْمُثَقَّفِ فِي كُعُوبِ قَنَاتِهِ حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافَهُ مَنَادَهَا^(٣)

واشتهر بين القدماء بأنه كان يحسن وصف الإبل وحُمر الوحش والظباء ،
ومن بديع وصفه لظبية ترتعي ومعها شادنها أو ابنها قوله :

تُرْجَى أَغْنَى كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا^(٤)
ويشبه امرأة بجوذر ، فيقول :

وَكَأَنَّهَا وَشَطَطُ النِّسَاءِ أَعَارَهَا عَيْنِيهِ أَحْوَرُ مِنْ جَاذِرِ جَاسِمٍ^(٥)
وَسَنَانُ أَقْصَدِهِ النُّعَاسُ فَرَنْقَتُ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ^(٦)

(١) طرفها : حادتها . تلادها : قديمها .

(٢) السناد : من عيوب الروى .

(٣) المثقف : الذي يشحذ الرماح والسيوف
ويقوؤها . منادها : معوجها .

(٤) ترجى : تسوق . الأغنى : الشادن في

صوته غنة . الروق : القرن . إبرته : طرفه
المحدد .

(٥) الجاذر : جمع جوذر وهو واء البقرة .
جاسم : من قرى دمشق .

(٦) آقاص : صرعه . رنقت : خالطت .

ونراه يصف سنابك حمارى الوحش حين يعدوان فى الصحراء وينيران من
حولهما الغبار وصفاً طريفاً إذ يقول :

يتعاوران من الغبار مُلاعةً غبراء محكمةً هما نسجاها
تُطَوَى إذا علّوا مكاناً ناشزاً وإذ السنابكُ أسهلتُ نشرها

وله فى النسيب أبيات تدل على دقة حسّه من مثل قوله :

ولقد تببت يدُ الفتاة وسادةً لى جاعلاً يُسرَى يديَّ وسادها

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أنه كان شاعراً بارعاً ، وأنه كان يطلب
فى شعره أن يأتى بالصور الطريفة والأخيلة المبتكرة والأحاسيس الدقيقة .

الفصل الخامس

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل الصريح

رأينا في حديثنا عن مراكز الشعر لهذا العصر كيف تحضرت المدينة ومكة وغرقتا إلى آذانهما في الرفق والنعم ، بتأثير ما صبَّ فيهما من أموال الفتوح والرقيق الأجنبي ، وكيف أخذ هذا الرقيق يسدّ حاجة الشباب المتعطّل من اللهو بما كان يقدم له من غناء وموسيقى ، وقد استطاع من خلال ملاءمته بين الغناء العربي القديم وما ثقفه من غناء الفرس والروم أن ينفذ إلى نظرية جديدة وضع على أساسها الألحان والأنغام التي وقّع عليها الشعر ، وظلت هذه النظرية مسيطرة على غنائنا العربي قروناً طويلة .

ويجيئ إلى الإنسان كأنما فرغت المدينتان الكبيرتان في الحجاز للغناء ، فالناس يختلقون فيهما إلى المغنين والمغنيات ، حتى النِّسّاك والفقهاء ، فليس هناك من لا ينعم بالغناء ، حتى النساء كن يتخذن الأسباب لسماعه في مجالسهن . وفي كتاب الأغاني أخبار كثيرة تصور كلف سكان المدينتين به وأنه أصبح شغلهم الشاغل^(١) . وقد شاعت في هذا الجو المعطرة أنفاسه بالموسيقى موجة واسعة من المرح ، ورقيت الأذواق ودقت الأحاسيس وعاش الشعراء للحب والغزل فهو الموضوع الذي كان يطلبه المغنون والمغنيات ويسموى الناس من رجال ونساء . وبذلك كادت تخفى من المدينتين الموضوعات الأخرى للشعر ، فقلما نجد فيهما مديحاً أو هجاء ، إنما نجد الغزل يشيع على كل لسان . وأخذ يتطور بتأثير الغناء الذي عاصره تطوراً واسعاً ، إذ أصبحت كثرته مقطوعات قصيرة ، وعدل الشعراء إلى الأوزان الخفيفة من مثل الرَّمَل والسريع والخفيف والمتقارب والهجج

والوافر ، كما عدلوا إلى محزوءات الأوزان الطويلة من مثل الكامل والبسيط والرجز ، بل لقد مالوا إلى تجزئة الأوزان الخفيفة من مثل الخفيف والرمل والمتقارب ، حتى يعطوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كي يلائموا بين أشعارهم وألحانهم وأنغامهم التي يوقعونها على آلاتهم الوترية وطبولهم الموسيقية ، فيطيلوا أو يقصروا ويجهروا في مواضع الجهر ويهمسوا في مواضع الخمس . وليس ذلك فقط ما أثر به الغناء الأموي في الغزل الذي عاصره ، فقد دفع الشعراء إلى اصطناع الألفاظ العذبة السهلة ، حتى يُرضوا أذواق المستمعين في هذا المجتمع المتحضر الذي يخاطبونه . وكانت هذه أول دفعة قوية نحو تصفية الشعر العربي من ألفاظه البدوية الجافية .

ولم يختلف هذا الغزل الجديد عن الغزل الجاهلي القديم في صورته الموسيقية والأسلوبية فحسب ، فقد أخذ يختلف أيضاً في صورته المعنوية ، إذ لم يعد تشبيهاً بالديار وبكاءً على الأطلال ، كما كان الجاهليون يصنعون في جمهور غزلهم ، بل أصبح غالباً تصويراً لأحاسيس الحب التي سكبها المجتمع الجديد في نفوس الشعراء . وهو مجتمع ظفرت فيه المرأة العربية بغير قليل من الحرية ، فكانت تلتقي الرجال وتحدثهم ، وكانت - شأن المرأة في كل عصر - تُعجَبُ بمن يصف جمالها وتعلق القلوب بها . وينبغي أن نفرق بين الحرية والإباحية ، ففي الأولى يبقى للمرأة وقارها وعفافها ، وفي الثانية تصبح ممتنة تقبل على اللهو والعبث والمجون ، لا يردُّها وقار ولا حشمة ولا خلق .

وحقاً برزت المرأة في مكة والمدينة للشباب في هذا العصر ، ولكنها ظلت تحتفظ بحجاب من الوقار ، كانت فيه لا تضيق بما يقال فيها من غزل ، بل لعلها كانت تحبُّ فيه أن يحظى بغير قليل من الحرارة . وبذلك نفهم إقبال الشَّريِّ بنت علي بن عبد الله الأموية في مكة وسُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في المدينة على هذا الغزل ، بل لقد مرَّ بنا أن ابن قيس الرقيات كان يتغنى بنساء ممدوحه مصعب بن الزبير ، وتغنَّى بأُم البنين في مدائحها لعبد الملك ، ولم يجد أحدهما في ذلك حرجاً .

وعلى هذا النحو كان الناس رجالاً ونساءً في مكة والمدينة يقبلون على شعر

الغزل، وأخذ الشعراء يُخضعون ملكاتهم وعواطفهم له ، منهم من يتحفظ ، فيكظم حبه في نفسه ، فإذا هو حب عذرى نقي طاهر ، وهم أصحاب التقوى والورع مثل عبد الرحمن بن أبي عمّار الجُشَمي ناسك مكة وعروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة فقيهي المدينة . ومنهم من لا يتحفظ ، بل يصرح بحبه وزياراته لمحباته ، وهم الجمهور الأكثر ، وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة والأحوص والعَرَجِيّ ، فهم جميعاً يطلبون المرأة ويلحون في الطلب ، وهم جميعاً يُلْقون من حولها شباك الإغراء ، ولا بأس أحياناً من أن يستفزوا أهلها بما يثيرون في نفوسهم من رغبة ، وبلغ من تبه عمر في ذلك أن رأيناه يصورها متهاكة عليه تتضرع إليه وتستعطفه ، ونحن نقف قليلاً عنده وعند صاحبيه ، لتتضح لنا صورة هذا الغزل الصريح .

عمر^(١) بن أبي ربيعة

في بيت قرشي واسع الثراء ، هو بيت بني مخزوم ، ولد عمر في سنة ٢٣ للهجرة ، لأبيه عبد الله بن أبي ربيعة ، ولأم يمنية أوحضرمية تسمى مجداً . وكان أبوه في الذروة من قومه ثراء ، واستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم والياً على إقليم من اليمن يسمى الجند ، وظل عليه في عهد عمر وعثمان ، حتى إذا حُصر الأخير جاء لينصره فسقط عن راحلته قرب مكة فمات سنة خمس وثلاثين . وهو أحد من نزل بأهله في مكة بعد هجرتهم^(٢) ، وفيها وُلد له عمر ، وبها نشأ ، ترعاه عين أمه الغريبة ، وكان جميلاً فدلته ، يؤازرها في ذلك ما ورثه عن أبيه من أموال وفيرة .

وإذن فعمر شاعر مكّي ، وليس بصحيح أنه من أهل المدينة كما توهم

(١) انظر في ترجمة عمر الأغاني (طبع دار الكتب) ١/١ وما بعدها ، ٢٣٩/٩ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/٥٣٥ والموشح ص ٢٠١ والخزاعة ٢٣٨/١ ومراة الجنان للياقبي ١/١٨٢ وابن خلكان وشذوات الذهب ١/٤٠ وأمالى القالي ٢/٥١ ، ٣٠٩ ، وذيل الأمالى ص ٦٨ ، وحديث الأربعاء (طبعة الحلبي) ١/٣٧٢ وما بعدها

وشاعر الغزل (في سلسلة اقرأ) لعباس محمود العقاد وكتابيننا : التطور والتجديد في الشعر الأموي (طبع دار المعارف) ص ٢٣٩ والشعر والغناء في المدينة ومكة ص ٢٣٩ . وقد نشر شفارتس ديوانه وألحق به دراسة عن حياته وشعره ولغته وأوزانه . ونشر الديوان بمصر وفي بيروت . (٢) ابن سعد ٥/٣٢٨ .

بعض المعاصرين ، وبنوا دراستهم له على هذا الوهم^(١) ، وفي الكامل للمبرد إشارات لذلك كثيرة تنقض هذا الوهم نقضاً^(٢) وما يشهد لذلك شهادة قاطعة قوله :

وأنا امرؤُ بِقَرَارٍ مَكَّةَ مُسْكِنِي ولها هوايَ فقد سَبَتَ قَلْبِي
وقد عاش حياته للغزل الصريح ، ويسر له ثراؤه هذه المعيشة ، فالدنيا دائماً مشرقة باسمه من حوله ، والمغنون والمغنيات من أهل مكة مثل ابن سُرَيْج وابن مِسْجَع والغريض يلزمونه ويغنون في شعره ، حتى لنظن أنهم كانوا يقياسونه حياته ، فضلاً عما كان يعطيهم من عطايا جزيلة^(٣) . ويقول الرواة إنه كان بيته مغنيتان تغنيانه في أشعاره هما بَغُوم وأسماء . وسرعان ما يطير غزله إلى المدينة ، فإذا مغنوها ومغنياها من مثل مَعْبُد وجميلة يغنون فيه ، ويلم بالمدينة كثيراً ، ويصبح أكبر غَزَلٍ في عصره ، ولهذا لم يكن غريباً أن يخلف أضخم ديوان لا في عصره فحسب ، بل في جميع العصور العربية .

وهو في غزله يُخَضِّع ملكاته لفن الغناء الذي عاصره ، إذ يستخدم الأوزان الخفيفة والمجزوءة ، حتى يحملها المغنون والمغنيات ما يريدون من ألحان وإيقاعات كما يستخدم لغة سهلة ، فيها عذوبة وحلاوة ، حتى تَفْسَح لهم في روعة النغم . ونراه لا يصطنع أى ثوب من ثياب التكلف ، بل يُظْهِرنا على حقيقته في غزله وأنه لا يزال يتخذ الشباك لكل امرأة جميلة في مكة ، وتحوّل إلى مواسم الحج ، يعلن حبه إعلاناً لكل امرأة ذات حسن يلقاها ، يقول :

يَقْصِدُ النَّاسَ لِلطَّوْفِ احْتِسَاباً وَذُنُوبِي مَجْمُوعَةٌ فِي الطَّوْفِ
وتذهب مواسم الحج ، فيتصدّى لكل فتاة جميلة بمكة ، وخاصة الثريا بنت علي الأموية . وينزل المدينة فيتصدى للقرشيات الحميلات بها من مثل سَكِينَةَ بنت الحسين وزينب الجُمَحِيَّة . وعلى هذا النحو كان لا يزال يتغزل في فتيات قریش النبيلات ، ومن ثم وصفَ ترفهن وما كنَّ فيه من نعيم ، وديوانه من خير الدواوين التي تصوّر ما غرقت فيه القرشيات لهذا العصر من حضارة

(١) انظر عمر بن أبي ربيعة حياته وشعره

(٢) انظر الأغاني (طبع دار الكتب)

(٣) ٣٥٩/١ ، ٣٢٢/٣ ، ٢٩٦/٤ ، ٢٠٨/٨

(١) انظر عمر بن أبي ربيعة حياته وشعره
لجبور طبع بيروت .

(٢) الكامل ص ٣٧٤ ، ٥٧٠ وراجع

وحُلبي وطيب ، على نحو ما نرى في قوله :

قالتُ ثُرَيَّا لِأَتْرَابٍ لَهَا قُطْفُ قُسْنٍ نُحَيِّي أَبَا الْخَطَّابِ مِنْ كَثَبٍ^(١)
فَطِرْنُ طَيْرًا لَّا قَالَتْ وَشَايِعَهَا مِثْلُ التَّمَاثِيلِ قَدْ مُوْهِنَ بِالذَّهَبِ
يَرَفْلَنُ فِي مُطَرَفَاتِ السُّوسِ آوَنَةً وَفِي الْعَتِيقِ مِنَ الدُّبَاكِ وَالْقَصَبِ^(٢)
تَرَى عَلَيْهِنَ حَلَى الدَّرِّ مَتَسِقًا مَعَ الزَّبْرِجَدِ وَالْيَاقُوتِ كَالشَّهْبِ
وَنَرَاهُ أَحْيَانًا يُلْهَجُ بِصَبَابَتِهِ وَجْهَهُ وَمَا يَذُوقُ مِنْ وَجْدٍ وَأَلَمٍ ، مُتَلَطِّفًا لِمَصَاحِبَتِهِ ،
مُلَحًّا عَلَى أَنْ تَوَاصِلَهُ بِوَدْعِهِ ، مُسْتَعِظَفًا ، مُتَضَرِّعًا ، بِمِثْلِ قَوْلِهِ :

مَا كُنْتُ أَشْعُرُ إِلَّا مَذْعَرَتِكُمْ أَنْ الْمَضَاجِعَ تَمْسَى تُنْبِتُ الْإِبْرَا
قَدْ لَمْتُ قَلْبِي وَأَعْيَانِي بِوَاحِدَةٍ فَقَالَ لِي : لَا تَلُمْنِي وَادْفَعْ الْقَدْرَا
وَلَكِنْ هَذَا يَأْتِي نَادِرًا فِي غَزَلِهِ ، إِذْ قَلَّمَا يَشْكُو مِنْ هَجْرٍ أَوْ يَتَأَلَّمُ لَصَدٍّ ،
فَقَدْ تَحَوَّلَ بِشَعْرِهِ يَمْلُؤُهُ تَبَاهً بِنَفْسِهِ . وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ جَمِيلًا ، وَكَأَنَّمَا انْعَكَسَتْ
فِيهِ صُورَةُ الْحُبِّ ، فَهُوَ لَا يَشْكُو الْغَرَامَ وَالْعَشْقَ ، بَلْ مَحْبُوبَتُهُ هِيَ الَّتِي تَشْكُو مِنْ
ذَلِكَ ، فَهِيَ الَّتِي تَحِيطُهُ بِشَبَاكِ التَّضَرُّعِ وَالِاسْتِعْطَافِ ، وَهِيَ الَّتِي مَا نَفَى
مُسَهَّدَةً تَتَعَذَّبُ فِي حُبِّهِ وَتَتَمَنَّى لَوْ تَرَاهُ . وَاسْمَعْنِي يَقُولُ عَلَى لِسَانِ إِحْدَى صَوَاحِبِهِ :
تَقُولُ إِذْ أَيْقَنْتُ أَنِّي مَفَارِقُهَا يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ الْيَوْمِ يَا عَمْرَا
وَيَقُولُ عَلَى لِسَانِ ثَانِيَةٍ :

مَا وَافَقَ النَّفْسَ مِنْ شَيْءٍ تُسَرُّ بِهِ وَأَعْجَبَ الْعَيْنَ إِلَّا فَوْقَهُ عُمَرُ
وَيَقُولُ عَنْ ثَالِثَةٍ :

قَدْ حَلَفْتُ لَيْلَةَ الصُّورَيْنِ جَاهِدَةً وَمَا عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا الْحَلْفُ مُجْتَهِدًا^(٣)
لَأُخْتَهَا وَلِأُخْرَى مِنْ مَنَاصِفِهَا لَقَدْ وَجَدْتُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي وَجَدَا^(٤)
لَوْ جُمِعَ النَّاسُ ثُمَّ اخْتِيرَ صَفْوُهُمْ شَخْصًا مِنَ النَّاسِ لَمْ أَعْدِلْ بِهِ أَحَدًا

(١) قطف : جمع قطوف وهي بطيئة الخطو .

كثب : قريب .

(٢) مطرفات : ثياب نفيسة . السوس : بلد

بالمغرب . القصب : الحرير .

(٣) الصوران : موضع قرب المدينة .

(٤) مناصف : جمع منصف ككثير ، وهو الخادم .

وَيَصُورُ شُغْلَ ثَلَاثِ أَخَوَاتٍ بِهِ ، فَيَقُولُ :

قَالَتِ الْكُبْرَى أَتَعْرِفَنَ الْفَتَى قَالَتِ الْوُسْطَى نَعَمْ هَذَا عُمَرُ
قَالَتِ الصُّغْرَى وَقَدْ تَيَسَّمْتُهَا قَدْ عَرَفْنَاهُ وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَرُ
وَلَمْ يَقِفْ بِإِعْجَابِ الْمَرْأَةِ بِهِ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَدِّ ، فَقَدْ أَخَذَ بِصُورِ كَلْفِهَا بِهِ وَتَصَدَّقَ بِهَا
لَهُ ، وَأَنَّهَا تَدُورُ حَوْلَهُ لَعَلَّهَا تَجِدُ سَبِيلًا إِلَيْهِ ، وَهُوَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَتَدَلَّلُ وَيَتَمَنَعُ ،
وَهِيَ تَسْعَى إِلَى الْوَصُولِ مُنْتَهِزَةً كُلَّ فُرْصَةٍ ، حَتَّى بَيْنَ مَشَاعِرِ الْحُجِّ ، يَقُولُ :
قَالَتْ لِيَتَرَبَّ لَهَا تَحَدُّثُهَا لِنُفْسِدَنَّ الطَّوْفَ فِي عُمَرِ
قَوْمِي تَصَدَّقْ لِي لَعَرَفْنَا ثُمَّ اغْمِزِيهِ يَا أُخْتَ فِي خَفَرِ
قَالَتْ لَهَا قَدْ غَمَزْتُهُ فَأَبَى ثُمَّ اسْبَطَرْتُ تَسْعَى عَلَى أَثَرِي^(١)
وَعَلَى هَذَا النُّحُونِ نَرَاهُ فِي غَزَلِهِ ، يُوَقِّدُ قُلُوبَ الْفَتَيَاتِ حُبًّا ، وَهُنَّ يَتَمَنِينَ عَطْفَهُ
وَحَنَانَهُ ، وَبِذَلِكَ يَعْكُسُ الصُّورَةُ الْمَأْلُوفَةُ فِي الْغَزْلِ الْعَرَبِيِّ ، إِذْ لَا يَزَالُ الشَّاعِرُ
يَطْلُبُ وَيَأْمُلُ وَيَتَضَرَّعُ وَيَرْجُو الْعَطْفَ وَالْحَنَانَ ، بَلْ لَا يَزَالُ يَعلنُ الْعَشْقَ وَالْهَيْبَامَ
مُسْتَرْحِمًا مُسْتَغْطَفًا ، أَمَّا عِنْدَ عَمْرِ فَهَذَا كُلُّهُ مَوْجُودٌ وَآكِنٌ لَا فِي تَصْوِيرِ حُبِّهِ
هُوَ وَإِنَّمَا فِي تَصْوِيرِ حُبِّ الْفَتَيَاتِ وَالنِّسَاءِ لَهُ وَمَا يُوَقِّدُ بِهِ قُلُوبَهُنَّ مِنَ الْعَشْقِ وَالصَّبَابَةِ .
فَعَمْرُ فِي غَزَلِهِ مَعْشُوقٌ لَا عَاشِقٌ ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَى فِي جَمْهُورِ هَذَا الْغَزْلِ ،
وَيَسْتَمُ خُطُوطُ هَذِهِ الصُّورَةِ لَا بِإِعْلَانِ الْفَتَيَاتِ وَالنِّسَاءِ حُبَّهُنَّ لَهُ فَحَسْبُ ، بَلْ
أَيْضًا بِمَا يَصِفُنَّ مِنْ خُطُوبِ هَذَا الْحُبِّ ، فَهُنَّ يَتَحَدَّثْنَ عَنْ هَجْرَانِهِ ، وَهُنَّ يَذْقْنَ
مِرَارَةَ الْغَيْرَةِ وَيَصْطَلِبْنَ بِنَارِهَا الْمُحْرِقَةَ ، وَهُنَّ يَتَأَلَّمْنَ مِنَ الْوَشَاةِ وَمَنْ فَقَدَ حَنَ
لِعَطْفِهِ وَأَنْهَنَ لَا يَجِدُنَّ عِنْدَهُ إِلَّا الْإِعْرَاضَ وَالصَّدُوفَ ، يَقُولُ عَلَى لِسَانِ إِحْدَاهُنَّ :
أَمِنْ أَجْلِ وَاِشْ كَاشِحٍ بِنَيْمِيَّةٍ سَشَى بَيْنَنَا صَدَقَّتْهُ لَمْ تَكْذِبِ
وَأَتَانِجَ لَهُ ذَلِكَ أَنَّ يَصُورُ عَوَاطِفَ الْمَرْأَةِ وَنَفْسِيَّتَهَا وَمَا يَتَعَمَّقُهَا مِنْ دَقَائِقِ
الْحُبِّ وَمَا يَثِيرُ فِي قَلْبِهَا مِنَ الْمَشَاعِرِ الرَّقِيقَةِ ، وَكَيْفَ تَتَخَذُ الْأَسْبَابَ لِاسْتِرْضَاءِ
عَاشِقَتِهَا حِينَ تَرَاهُ يَنْصَرِفُ عَنْهَا ، وَكَيْفَ تَتَقَدَّمُ لَهَا بِعُضْصِدَيْهَا تَحَاوُلُ
أَنْ تَعِيدَ الصَّفَاءَ بَيْنَهُمَا ، يَقُولُ :

(١) اسبطرت : أسرع

قالت على رقية يوماً لجارتها ما تأمرين فإن القلب قد سُغِلَا^(١)
 فجوابتها حصانٌ غير فاحشةٍ يرجع قولٍ وأمرٍ لم يكن خطلاً
 أقنئ حياءك في سترٍ وفي كرمٍ فلست أول أنثى علقت رجلاً^(٢)
 لا تظهرى حبه حتى أراجعه إني سأكفيكه إن لم أمت عَجْلاً
 وترضى خطتها وتوصيها أن تكذب عنده الوشاة ، وتتوسل إليها أن لا تسرف
 في لومه وعذله :

فإن عهدي به والله يحفظه وإن أقي الذنب ممن يكره العذلا
 وتكثر الرسل بينه وبين محبوباته في ديوانه . ونراه يعمد إلى مراسلة بعضهن ،
 على شاكلة هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الثريا ، وقد سار عنها أو سارت عنه :
 كتبت إليك من بلدي كتاب مولد كمد
 كئيب واكف العيد ين بالحسرات منفرد^(٣)
 يؤرقه لهيب الشوق بين السحر والكبد^(٤)
 فيمسك قلبه بيد ويمسح عينه بيد

وترد عليه الثريا شعراً^(٥) ، وهو يعد أول من اتخذ هذا الأسلوب من
 تبادل الرسائل بينه وبين صواحيبه ، وقد تبعه فيه العباسيون .
 ومن أهم ما يطبع غزله هذا الحوار القصصى الذى رأيناه على لسان محبوباته
 يصفن فيه لجاراتهن وأخواتهن وجواريهن حبين له وهيامهن به . ونراه يعمد أحياناً
 إلى تصوير اقتحامه لليل والأهوال والأحراس على بعض صواحيبه على نحو ما
 نعرف في قصيدته :

أمن آل نعيم أنت غاد فمبكرُ غداة غد أم رائح فمهجّر^(٦)

(٦) غاد : من الغدة وهى البكرة أو أول
 النهار ، رائح : من الرواح وهو العشى أو من
 الزوال إلى الغروب . مهجر : من الهجرة وهى
 نصف النهار . وانظر فى هذه القصيدة وشرحها
 المبرد ص ٣٨١ ، ٥٧٠ .

(١) رقية : انتظار .
 (٢) اقنئ حيامك : احتفظى به .
 (٣) واكف العيدين : سائل الدموع .
 (٤) السحر : الرقة .
 (٥) أغاني (دار الكتب) ١/٢٣٥ وما بعدها .

ويعمضي فيصور قضاءه الليل في الحديث معها حتى تباشير الصباح ، وكأنه في ذلك يحاكي امرأ القيس في معلقته إذ يصف بعض مغامراته ، ولكن خلافاً واضحاً يقوم بينهما ، فامرؤ القيس يغامر مع نساء متزوجات ، أما عمر فيغامر مع فتيات نبيلات ، وهي عنده مغامرات لا تتعدى اللقاء والمتعة بالحديث . وعمر من هذه الناحية صريح ولكنها صراحة لا تنتهي إلى إباحية ولا إلى إثم . ومن ثمَّ كُنَّا ننفي القِصَصَ التي تزعم أن بعض الخلفاء حين حج نفاه إلى الطائف أو إلى دهلك إحدى جزر البحر الأحمر ، ونظن ظناً أن هذا من انتحال الرواة . ويقولون إنه مات وقد قارب السبعين أو جاوزها^(١) ، وإذا صح ذلك يكون قد توفى حوالى سنة ثلاث وتسعين للهجرة .

الأحوص^(٢)

أوسى من الأنصار من أهل المدينة ، اسمه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم ابن ثابت ، وجده عاصم حمى الدبر أى النحل ، إذ بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بنى لحيان في نقر ، فحاربوهم في يوم يسمى يوم الرجيع . ولما قتلوه أرادوا أن يصلبوه ، فحمته الدبر منهم نهراً حتى إذا جنَّ الليل أمطرت السماء فاحتلمه السيل ، فسمي حمى الدبر . وخال أبيه حنظلة بن أبي عامر الذي قُتل يوم أحد وقال عنه الرسول إن الملائكة لتغسله ، وقد افتخر بهما الأحوص جميعاً ، فقال :

غَسَلَتْ خَالِي الْمَلَائِكَةُ الْأَبْرَارُ مَيْتاً طُوبَى لَهُ مِنْ صَرِيحٍ

وَأَنَا ابْنُ الَّذِي حَمَتَ لَحْمَهُ الدَّبْرُ قَتِيلُ اللَّحْيَانِ يَوْمَ الرَّجِيعِ

وإنما لقب الأحوص لحوص كان في عينيه ، وهو ضيق في مؤخرهما . ويقال إنه كان أحمر شديد الحمرة . وهو مثل ابن أبي ربيعة عاش للحب

سلام ص ٥٣٤ والشعر والشعراء ٤٩٩/١
والموشح ص ١٨٧ والاشتقاق ص ٤٣٧ والخزاعة
٢٣١/١ وحديث الأربعاء ٣٢٩/١ وكتابتنا
الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية
ص ١١٤ .

(١) أغاني (دار الكتب) ٧١/١
(٢) انظر في ترجمة الأحوص وأخباره
الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٩٤/١ ،
٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٢٢٤/٤ وما بعدها ،
٢٥٤/٦ وما بعدها ، ٦٤/٩ وما بعدها وابن

والغزل، غير أنه فيما يظهر لم يكن ثرياً، ومن ثمَّ كان يرحل كثيراً إلى دمشق بمدح خلفاء بني أمية وينال عطاياهم الجزيلة ، يقول :

وما كان مالى طارفاً من تجارةٍ وما كان ميراثاً من المال مُتَلَدَا
ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ مَلَأَ الأرضَ معروفاً وجوداً وسُوددا
وله مدائح مختلفة في الوليد بن عبد الملك وعبد العزيز بن مروان وعمر ابنه
وزيد بن عبد الملك . وأخباره تدل على أنه كان فيه طيش شديد ، ولعله من
أجل ذلك كان يصطدم بكثير من معاصريه ، فيهجوم هجاء قبيحاً . وهو
في غزله شديد الصبابة ، يستأثر الحب بقلبه ويملك عليه كل شيء ، حتى
ليقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تدّر ما الهوى فكن حَجَرًا من يابس الصَّخْر جَلَمَدَا
فالحب الحياة ومن لم يعشق عُدَّ من الأموات ، بل من الجماد ، بل من
الحجارة أو أشد قسوة . وهو يعلن حبه إعلاناً ، يعلن صبوته وثورة نفسه . وكان
فاسد الخلق ، فانصرفت الفتيات والنساء عنه ، إذ رأينه يذهب بعيداً في
التصريح ، على شاكلة قوله :

تعرّضُ سلماك لما حرم تَضَلَّ ضلالُك من مُحرّمٍ^(١)
تريد به البرَّ يا ليتَهُ كفافاً من البرِّ والمأثمِ^(٢)
وأشعاره في أم جعفر الأوسية أنقى غزلياته ، وكانت تدفعه عنها دفعاً شديداً ،
وكذلك كان يدفعه عنها أخوها أيمن ، حتى ليرَوَى أنه أصلاه يوماً سيّاطاً حامية ،
وفيها يقول :

أدورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدورُ
أزورُ البيوتَ اللاصقاتِ ببيتها وقلبي إلى البيت الذي لا أزورُ
وما كنتُ زوّاراً ولكن ذا الهوى إذا لم يزُرْ لا بد أن سيزور

(١) حرمت : دخلت الحرم مثل أحرمت .

(٢) يقول : ليتني تعادل إثمى وبرى ،

فخرجت غير بار ولا آثم .

ويقول :

وما هو إلا أن أراها فجاءةً فَأُبْهِتَ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ
لَكَ اللَّهُ إِنِّي وَاصِلٌ مَا وَصَلْتَنِي وَمُثْنٍ بِنَا أُولَيْتَنِي وَمُثِيبُ
أَبْشُكَ مَا أَلْتَنِي وَفِي النَّفْسِ حَاجَةٌ لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْعِظَامِ دَكِيبُ
ومضى ينظم فيها أشعاره ، وهي تزداد كرهاً له وازوراراً عنه . ونراه مشغولاً
بجميلة المغنية وناديبها المشهور في المدينة ومن كنَّ فيه من الإماماء مثل الذَّلْفَاءِ
وَعَقِيلَةَ وَسَلَامَةَ الْقَسِّ وَلَهُ فِيهِنَّ غَزَلٌ كَثِيرٌ ، كُنَّ يَغْنَيْنَ فِيهِ ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ
فِي الذَّلْفَاءِ :

إِنَّمَا الذَّلْفَاءُ هُمِّي فليدعني من يلومُ
حَبِّ الذَّلْفَاءِ عِنْدِي مَنْطِقُ مِنْهَا رَخِيمُ
حُبُّهَا فِي الْقَلْبِ دَائِمٌ مُسْتَكْنٌ لَا يَرِيمُ^(١)

وكانت سلامة القس أكثرهن عطفاً عليه وبراً به ، فنظم فيها غزلاً كثيراً ،
يصورُ كلفه بها أشد الكلف وتهالكه عليها أشد التهالك على شاكلة قوله :

يَا دِينَ قَلْبِكَ مِنْهَا لَسْتُ ذَاكِرُهَا إِلَّا تَرْقُرُقُ مَاءُ الْعَيْنِ أَوْ دَمْعَا^(٢)
لَا أَسْتَطِيعُ نَزْوَعًا عَنْ مُحَبَّتِهَا أَوْ يَصْنَعُ الْحُبُّ بِي فَوْقَ الَّذِي صَنَعَا
وَزَادَنِي كَلْفًا فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعْتُ وَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنَعَا
وهو في هذا الغزل بالإماماء والحواري يختلف عن ابن أبي ربيعة الذي كان
لا يتغزل كما مرَّ بنا إلا بالحرائر النيبيلات من القرشيات والعربيات . وهو يختلف
عنه أيضاً في بعده في التصريح ، إذ كان لا يتحرج أحياناً من إباحة ، ومن
ثمَّ شكاه أهل المدينة لأبي بكر بن حزم عامل سليمان بن عبد الملك ، فأقامه على
البُلس للناس . ولما ولي عمر بن عبد العزيز أمر بنفيه إلى دهلك ، فظل بها طوال
خلافته ، وولى يزيد بن عبد الملك ، فشفعت له سلامة — وقد صارت إليه —
عنده فعفا عنه . ولما رُدَّتْ إليه حريته زار دمشق ، وتغنَّى بيزيد وانتصاراته على
ابن المهلب طويلاً . ويقال إنه توفى حوالى سنة ١١٠ للهجرة .

(٢) دين هنا : داء .

(١) لا يريم : لا يبرح .

المرجى^(١)

لُقِّبَ هذا اللقب لضبيعة له قرب الطائف تسمى العَرْج كان ينزل بها ، وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، من أهل مكة . ويقول الرواة إنه كان أشقر جميل الوجه ، وإنه شُهر بالغزل ونحا فيه نحو عمر بن أبي ربيعة وتشبه به فأجاد .

وهو يختلف عنه من وجوه كثيرة ، إذ لم تكن له نباهته في أهله ، وكان مشغولاً باللهو والصيد ، وكانت فيه فتوة وفروسية ، حتى عُدد في الفرسان ، ومن ثمَّ اجتذبت حروب مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، إذ كان من أفرس الناس وأرماهم وأبراهم لسهم . وهو لا يختلف في ذلك عن عمر فحسب ، بل هو يختلف معه أيضاً في أنه كان يسرف في فتوته ، حتى ليخرج إلى شيء من الإباحية ، على شاكلة قوله :

قالت رضية ولكن جئت في قمر هلاً تلبثت حتى تدخل الظلم
وقوله :

باتا بأنعم ليلة حتى بدا صبح تلوح كالأغر الأشقر
فتلازما عند الفراق صباية أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر^(٢)
وهو لا يقف بمثل هذه المعاني عند نفسه ، بل يرى بها حتى الحواج الناسكات ، يقول في إحداهن وقد سمرت عن وجه جميل :

أماطت كساء الخز عن حر وجهها وأدنت على الخدين برداً مهلهلاً
من اللاء لم يخرججن يبعين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلاً
ونجده يختلف إلى دار جميلة في المدينة ، ويبدو منه ما يجعلها تقسم أن لا تدخله منزلها لكثرة عبثه وسفهه ، ويشفع له الأحوص عندها ، فتستقبله وتغنيه في قوله :

والشمر ٢٠/٥٥٦ والاشتقاق ص ٧٨ وحديث
الأربما ٣١٦/١ وقد طبع ديوانه في العراق .
(٢) تلازما : تماقفا . الغريم هنا : الدائن .

(١) انظر في ترجمة المرجى وأخباره
الأغاني (طبع دار الكتب) ٣٨٣/١ وما
بعدها ١٨٤/٨ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ والشمر

أَلَا قَاتِلَ اللَّهِ الْهُوَى كَيْفَ أَخْلَقَا فَلَمْ تُلْفَهُ إِلَّا مَشُوبًا مَذَقًا^(١)
 وَمَا مِنْ حَبِيبٍ يَسْتَزِيرُ حَبِيبَهُ يَعَاتِبُهُ فِي الْوَدِّ إِلَّا تَفَرَّقَا
 لَقَدْ سَنَّ هَذَا الْحَبَّ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا وَقَادَ الصَّبَا الْمَرْءَ الْكَرِيمَ فَأَعْنَقَا^(٢)
 وَكَانَ يَمْضِي فِي التَّغْنَى بِهَذَا الْغَزَلِ لَا يَنْجَلِ وَلَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْجُمُوحِ فِيهِ ،
 إِذْ كَانَ جَرِيثًا ، بَلْ كَانَ عَنِيفًا ، وَهُوَ عَنَفَ نَرَاهُ فِي تَتَبِعِهِ لِلنِّسَاءِ الْمُتَزَوِّجَاتِ
 يَتَغَزَلَ بِهِنَ ، كَمَا نَرَاهُ فِي ظَلَمِهِ لِمَوْلَى لِأَبِيهِ قَتْلَهُ وَاسْلُطَ عِيْدَهُ عَلَى امْرَأَتِهِ ، وَأَيْضًا
 فَإِنَّا نَرَى هَذَا الْعَنَفَ فِي هِجَائِهِ لِحَمْدِ بْنِ هِشَامِ الْخَزَوِيِّ ، إِذْ أَخَذَ يَتَغَزَلَ بِزَوْجِهِ
 جَبْرَةَ الْخَزَوِيَّةِ وَأُمَّهُ جَبْدَاءَ بِنْتَ عَفِيفٍ لِيَفْضَحَهُ بِمَثَلِ قَوْلِهِ :

عُوجِي عَلَى فُسْلَمَى جَبْرُ فِيمَ الصَّدُودُ وَأَنْتُمْ سَفَرُ
 وَقَوْلُهُ :

عُوجِي عَلَيْنَا رَبَّةَ الْهَوْدَجِ إِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلِي تَخْرَجِي
 أَيْسَرُ مَا نَالَ مُحِبُّ لَدَى بَيْنِ حَبِيبٍ قَوْلُهُ عَرَّجِ
 نَقْضُ إِلَيْكُمْ حَاجَةً أَوْ نَقْلُ هَلْ لِي مِمَّا بِي مِنْ مَخْرَجِ
 فَلَمَّا وَلِيَ مُحَمَّدٌ إِمَارَةَ مَكَّةَ لَهُشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَقَامَهُ عَلَى الْبُلُوسِ وَجَسَّهُ ،
 وَظَلَّ فِي سِجْنِهِ تِسْعَ سِنِينَ إِلَى أَنْ مَاتَ ، وَلَهُ أَشْعَارُ كَثِيرَةٌ يَأْسَى فِيهَا عَلَى مَا صَارَ
 إِلَيْهِ مِنْ عَذَابِ السَّجْنِ ، يَقُولُ فِيهَا بَيْتَهُ الْمَشْهُورُ :
 أَضَاعُونِي وَأَيُّ فِتْنَى أَضَاعُوا لِيَوْمَ كَرِيهَةٍ وَسِدَادٍ ثَغْرِ^(٣)
 وَمَا يَسْتَجَادُ لَهُ قَوْلُهُ :

ارْجِعْ إِلَى خُلُقِكَ الْمَعْرُوفِ دَبْدُنُهُ إِنْ التَّخَلَّقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ
 وَيُقَالُ إِنَّ الْوَلِيدَ بْنَ يَزِيدَ اقْتَصَصَ^(٤) لِلْعَرَجِيِّ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ هِشَامِ الْخَزَوِيِّ حِينَ
 صَارَتْ الْخِلَافَةُ إِلَيْهِ ، إِذْ لَمْ يَسْرَعْ حَرَمَةَ قَرَشِيَّتِهِ وَنَسَبِهِ فِي بَنِي أُمِيَّةَ .

(١) أخلق : بلى . مذكأ : مشوباً ومخلوطاً . ميدانه .

(٢) أعنق : سارسيراً منبسطاً ، يريد أن الصبا إذا قاد المرأة الكريم أنقاد له وجرى في

(٣) السداد : ما يسد به الخلل . وسداد الثغر : ما يسده من الخيل والشجعان .

شعراء الغزل العذري

الغزل العذري غزل نقي طاهر ممن في النقاء والطهارة ، وقد نُسب إلى بني عُدرة إحدى قبائل قضاة التي كانت تنزل في وادي القُرَى شمالى الحجاز ، لأن شعراءها أكثروا من التغنى به ونظمه ، ويروى أن سائلاً سأل رجلاً من هذه القبيلة ممن أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، ويروى أيضاً أن سائلاً سأل عروة بن حزام العذري صاحب عَفراء : أصحح ما يُروى عنكم من أنكم أرق الناس قلوباً ؟ فأجابه : نعم والله لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموت وما لهم داء إلا الحب .

ولم تقف موجة الغزل العذري لهذا العصر عند عُدرة وحدها ، فقد يشاع في بوادي نجد والحجاز ، وخاصة بين بني عامر ، حتى ليصبح ظاهرة عامة تحتاج إلى تفسير ، ولا شك في أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذي طهر النفوس ، وبرآها من كل إثم . وكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة في مكة والمدينة ولا ما يُطوى فيها من هو وعبث ومن تحلل أحياناً من قوانين الخلق الفاضل على نحو ما مرّ بنا عند الأحوص والعرجي ، وهي من أجل ذلك لم تعرف الحب الحضري المترف ولا الحب الذي تدفع إليه الغرائز ، فقد كانت تعصمها بداوتها وتديتها بالإسلام الحنيف ومثاليته السامية من مثل هذين اللوين من الحب ، إنما تعرف الحب العفيف السامي الذي يصلّي الحب بناره ويستقر بين أحشائه ، حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه ولا الانصراف عنه .

وفي كتاب الأغاني من هذا الغزل مادة وفيرة نقرأ فيها لوعة هؤلاء المحبين وظمأهم إلى رؤية معشوقاتهم ظمأ لا يقف عند حد ، ظمأ نحس فيه ضرباً من التصوف ، فالشاعر لا يني يتغنى بمعشوقته ، متذللًا متضرعاً متوسلاً ، فهي ملاكة السماوى ، وكأنها فعلاً وراء السحب ، وهو لا يزال يناجيا مناجاة شجية ، يصور فيها وجده الذي ليس بعده وجده وعذابه الذي لا يشبهه

عذاب . وتمضى به الأعوام لا ينساها ، بل يذكرها في يقظته ويحلم بها في نومه ، وقد يصبح كهلاً أو يصير إلى الشيخوخة ، ولكن حبها يظل شاباً في قلبه ، لا يؤثر فيه الزمن ولا يرق إليه السلوان ، حتى ليظل يُغشَى عليه ، بل حتى لِيُسَجَنُ أحياناً جنوناً .

وتقترن بأشعار هذا الغزل أسماء كثيرة ، كما يقترن به قصص غزير ، وهو قصص فيه بساطة وسداجة حلوة ، قصص يصور لنا حياة هؤلاء العشاق العذريين المتبدلين ، وقد أحكم الرواة نسجه ، إذ مضوا يلفقون فيه عقدة نفسية ، خيلوا لسامعهم أنها عقدة حقيقية ، وذلك أنهم زعموا أنه كان من تقاليد العرب أن لا يزوجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهن ، لما يجلبن لهن من فضيحة بين العرب . وهو تقليد لم يُعرف في جاهلية ولا إسلام . وقد مضوا يقولون إن السلطان كان يهدر دماء هؤلاء الغزلين ، كأنهم أتوا جناية عظيمة ، ولو قتل السلطان في الغزل لقتل أمثال الأحوص ، لا هؤلاء المتعفين أصحاب الحب الطاهر الشريف ، وقد حرم القرآن الكريم والحديث النبوي قتل النفس بغير حق . ولا شك في أن هذا كله قصص لفق الرواة كي يوجدوا لهذا الغزل عقدة ، بعثت على ما أحسوه عند هؤلاء العشاق من إحساس بالحرمان الشديد . وإذا كان خيال الرواة لعب في أخبارهم فإنه لعب أيضاً في أسمائهم ، إذ اخترع من لدنه لبعض هذه الأخبار وما طوى فيها من أشعار أشخاصاً لعلهم لم يوجدوا أبداً .

وارجع إلى أخبار مجنون بنى عامر وأشعاره التي احتلت في الجزء الثاني من كتاب الأغاني تسعين صحيفة ونيفاً فستجد الأصمعي يقول : « رجلاً ما عرفنا في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القيرية وإنما وصفهما الرواة » ، ويقول ابن الكلبي : « حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بنى أمية كان يهوى ابنة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون ، وقال الأشعار التي يروها الناس له ونسبها إليه » .

وقد يكون اسم العاشق من هؤلاء العذريين حقيقة ، غير أن الرواة أضافوا إليه أشعاراً وأخباراً كثيرة ، ومن خير من يمثل ذلك قيس بن ذريح ، يقول أبو الفرج في ترجمته لمجنون بنى عامر نقلاً عن الجاحظ : « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل في ليل إلا

نسبوه إلى المجنون ، ولا شعراً هذه سبيله قيل في لُبْنَى إلا نسبوه إلى قيس بن ذَرِيح . وقد تُفْصَح القصة المضافة إلى بعض هؤلاء العشاق عن انتحالها وأنها من صنع الرواة وإن لم ينصّ على ذلك القدماء ، وخير ما يمثل ذلك قصة^(١) وضَّاح اليمَن التي تذهب إلى أنه عشق أم البنين زوجة الوليد ، وأنها هويته ، فكانت تدخله عندها وتخفيه في صندوق ، وعرف ذلك زوجها ، فحفر بئراً عميقة ، رماه فيها ، وهبيل عليه التراب وسويت الأرض .

وعلى هذا النحو تلقانا في هذا الغزل العذري أسماء وأخبار خيالية من صنع الرواة ، غير أن وراءها أسماء وأخباراً كثيرة ، لا يرقى إليها الشك . والمهم أن الظاهرة صحيحة ، فقد وُجد هذا الغزل العذري في العصر الأموي بنجد وبوادي الحجاز ، وكثُر أصحابه وكثرت أشعاره ، حتى غدت لوناً شعبياً عاماً ، ولعل شعبيتها هي التي أكثرت من القصص حولها ، كما أبهت بعض من نظموها . وقد اختار الرواة أشخاصاً ، جعلوا منهم أبطالاً ونسبوا إليهم كثيراً من تلك الأشعار . وخاصة إذا اتفق أن كان فيها اسم محبوبة هذا البطل ، على نحو ما صنعوا بالأشعار التي وجدوا فيها اسم لُبْنَى ، فلأنهم أضافوها — كما لاحظ الجاحظ — إلى قيس ابن ذَرِيح .

ومن الأشخاص الحقيقية في هذا الغزل عُرْوَة بن حزام العُدْرِي وصاحبته عَقْرَاء ، وقد ترجم له صاحب^(٢) الأغاني وروى له أشعاراً رقيقة من مثل قوله :

وإني لتَعْرِونِي لذكركَ رِغْدَةً لها بين جلدِي والعظام دَبِيبُ
فوالله لا أنساكَ ما هَبَّت الصَّبَا وما أعقبَتْها في الرياح جَنُوبُ
ومنها الصَّمَّة^(٣) القُشَيْرِي ، وكان من فتيان بني عامر وشجعانهم ، وأحب ابنة عم له تسمى رَيْثاً ، وخطبها من أبيها فأثر عليه شاباً موسراً ، فزاد

الشعر والشعراء ٢/٦٠٤ وذيل الأمل ١٥٧
والخزانة ١/٥٣٣ .
(٣) ترجمته في الأغاني (طبع دار الكتب)
٢/٦ وما بعدها وانظر قصيدته العينية في
الطوائف الأدبية ص ٧٦ .

(١) انظرها بترجمته في الأغاني (طبع دار
الكتب) ٢١٨/٦ وما بعدها وراجع أيضاً
تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٢٩٥
وحدّث الأربعماء ١/٢٩٣ .
(٢) أغاني (سأى) ١٥٢/٢٠ وانظر

شغفه بها ، وأخذ ينظم الأشعار فيها . ثم رأى أن يغزو في طبرستان لعله ينساها ، فخرج وذكرها لا تفارقه حتى قتل في غزوة واسمها على شفتيه ، ومن قوله في عينية له بديعة :

وأذكر أَيْامَ الْحِمَى ثم أنثنى على كَبْدِي من خشية أن تصدعا
ومهم كثير عَزَّة ، وقد مضت ترجمته ، وذو الرمة وسنترجم له في شعراء
الطبيعة . ويدخل فيهم جماعة من أتقياء مكة والمدينة ، على رأسهم عبد الرحمن
ابن أبي عَمَّار الجُشَمِي وعروة بن أَذْيَنَة وخبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وكان
عبد^(١) الرحمن من نُسَّاك مكة ، ولقب بالقَسّ لنسكه ، وتصادف أن استمع يوماً
إلى سَلَامَة ، فشغف بها ، وشاع ذلك ، فلقبها الناس بلقبه وسموها سلامة
القَسّ ، وفيها يقول :

سَلَامُ هل لي منكم ناصرُ أم هل لقلبي عنكم زاجرُ
قد سمع الناسُ بوجدى بكم فمنهم اللائمُ والعاذرُ
وكان عروة^(٢) من فقهاء المدينة ومحدثيها ، ومن الطريف أنه كان يوقع شعره
ويضع له الألحان بنفسه ، وبذلك نفهم وفرة الموسيقى في غزله ، فهو ألحان
وأنغام على شاكلة قوله :

إن التي زعمتُ فؤادك ملها جُعلتُ هواك كما جُعلتَ هوى لها
فيك الذي زعمتُ بها وكلاكما يُبْدَى لصاحبه الصَّباةَ كلها
بيضاء باكرها النعيمُ فصاغها بلباقه فآدقها وأجلها
منعتُ تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها
أما ابن^(٣) عَتْبَة فكان أحد الفقهاء السبعة المقتدئين في المدينة الذين حُمل
عنهم الفقه والحديث ، وكان ضريراً ، كما كان رقيقاً مرهف الإحساس ، وله

(١) انظر في حبه لسلامة الأغاني (طبع دار

الكتب) ٣٣٤/٨ وما بعدها .

(٢) راجع في ترجمته الأغاني (طبعة ساسي)

١٠٥/٢١ والشعر والشعراء ٥٦٠/٢ والموشع

ص ٢١١ .

(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبع دار

الكتب) ١٣٩/٩ وما بعدها وصفة الصفوة

٥١/٢ وتهذيب التهذيب ونكت الهميان ١٩٧ .

غزل كثير في زوجته عَشْمَة بعد طلاقه لها يصور فيها حبه وندمه وألمه من مثل قوله :

لعمري لئن شطَّتْ بعْثَمَة دارُها لقد كدتُ من وَشكِ الفراقِ أُلْبِحُ^(١)
أروح بِهِمْ ثُمَّ أَغْدُو بِمِثْلِهِ وَيُحْسَبُ أَنِّي فِي الثِّيَابِ صَحِيحُ

ومن طريف ما يلقانا في هذا الحب العذري بكاء المعشوقات لمن حُرِّموا منهن، وماتوا على حُبِّهن ، ولعل أكثرهن بكاء على معشوقها ليلي^(٢) الأَخْيَلِيَّة الخفاجية العامرية ، وكان قد تعلق بها من قومها فتى شاعر شجاع يسمى تَوْبَة ابن الحُمَيْر ، وشُغِف بها شغفاً ، والتاع قلبه ، وهام بها هياماً شديداً ، حتى ليقول :

ولو أَنَّ لِيلى الأَخْيَلِيَّةَ سَلَّمْتُ عَلَى ودونى تُرْبَةٍ وَصَفَائِحُ
لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ البَشَاشَةِ أَوْزَقَا إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ^(٣)

وظل يلهج باسمها إلى أن قُتِلَ في بعض الغارات سنة ٨٥ للهجرة فبكته ليلي بقصائد كثيرة تصوّر ما أوقده في فؤادها من جذوة الحب ، من مثل قولها :

أَيَا عَيْنُ بَكَّى تَوْبَةَ بْنَ حُمَيْرٍ بِسَحِّ كَفَيْنِضِ الْجَدُولِ الْمُتَفَجِّرِ
لَتَبْكُ عَلَيْهِ مِنْ خَفَاجَةٍ نِسْوَةٍ بِمَاءِ شَثُونِ الْعَبْرَةِ الْمُتَحَدِّرِ

وقولها :

وَأَلْبِتْ لَا أَنْفَكَ أَبْكِيكَ مَا دَعَتْ عَلَى فَتَنِ وَرَقَاءٍ أَوْ طَارِ طَائِرُ
وَكُلْ شَبَابٍ أَوْ جَدِيدٍ إِلَى بَلِيٍّ وَكُلْ أَمْرِيَّ يَوْمًا إِلَى اللَّهِ صَائِرُ

١١/٢٠٤ وما بعدها والشعر والشعراء ١٦/٤
والأمال للقالى ١/٨٦ وما بعدها .
(٣) زقا : صاح .

(١) ألبح : أشفق وأجزع .
(٢) انظر في ليلي الأَخْيَلِيَّة وأخبارها مع
توبة ترجمتها في الأغاني (طبع دار الكتب)

ويقال إنها ماتت في إحدى زياراتها لقبره ، فدفنت إلى جنبه . ونقف قليلا عند بطلين من أبطال هذا الحب العذرى ، هما : قيس بن ذريح عاشق لبني وجميل عاشق بثينة .

قيس^(١) بن ذريح

من قبيلة كنانة ، كانت عشيرته تسكن في ضواحي المدينة ، وعُرف بأنه رضيع الحسين بن علي ، ولا نعرف شيئاً عن نشأته ، بل تُساق لنا قصة حبه ، كأنها هي كل حياته . وهي قصة محبوكة الأطراف ، إذ يُروى أنه مر في رحلاته بديار لبني الخزاعية ، فرآها ، ووقعت في قلبه ووقع في قلبها . وذهب إلى أبيه ، وكان كثير المال موسراً ، يعرض عليه أن يخطبها له ، فأبى ، وحاول أن يجد عند أمه معونة على أبيه ، فلم يجد عندها ما أراد ، فلجأ إلى رضيعه الحسين بن علي ، فتوسط له عند أبيه وأبى لبني ، وأعظما هذه الوساطة ، وتزوج العاشقان ، غير أنهما لم يُرزقا الولد ، وداخلت أم قيس الغيرة من كلف ابنها بلبنى . ومرض قيس ، فأوعزت إلى أبيه أن يغريه بطلاقها والزواج من أخرى ، رجاء أن يرزقه الله الولد . وأخذ الأبوان يُليحّان عليه بعد شفائه من علته أن يفارقها وصدع لمشيتهما . وتولاه جزع شديد ، حتى قبل أن تبرح دارها إلى دار أبيها ، فقد تصادف أن نزع غراب قبل رحيلها ، فتشام تشاؤماً شديداً ، ونظم في نعيقه أشعاراً كثيرة ، من مثل قوله :

لقد نادى الغرابُ ببني لبني فطار القلبُ من حذر الغرابِ
وقال : غداً تباعدُ دارُ لبني وتناي بعد وُدِّ واقترابِ
فقلت: تعستَ ويحك من غراب وكان الدهرَ سعيك في تبابِ

ورحلت لبني ، فاضطربت جذوة الحب في نفس قيس اضطراباً ، ووجد بلبني وجداً ليس مثله وجد ، ومضى لا ينعم بطعام ولا بشراب ، يذكرها

(١) انظر في قصة قيس الأغاني (طبع دار الكتب) ١٨٠/٩ وما بعدها والشعر والشعراء ص ٢٠٦ وحديث الأربعاء ٢٥٦/١ . وأما القائل ٣١٨/٢ وراجع الموشح ٦١٠/٢

مستيقظاً ويطوف به خيالها نائماً ، ويقول في غرامه بها الشعر من مثل قوله :

لقد لاقيتُ من كلِّى بلُبنى بلاءٌ ما أُسِغَ به الشرابا
إذا نادى المنادى باسم لُبنى عَييتُ فما أُطيق له جوابا

وقوله :

وإني لأهوى النومَ في غير حِينه لعل لقاءَ في المنام يكونُ
تحدثني الأحلامُ أني أراكمُ فياليت أحلام المنام يقين
وكانت لبنى تسمع بوجده وشعره ، فلا يهنا لها عيش ، وتبكي مصيرها
ومصيره . ويُرَوَى أن غلاماً أتاها يوماً بأربعة غربان ، فذكرت أشعار قيس
في غراب البَيْن ، وأخذت تنتف ريشها وهي تصيح بأشعار مختلفة من مثل
قولها :

ألا يا غرابَ البَيْن لونك شاحبٌ وأنت بلوعات الفراق جديرُ
فلا زلت مكسوراً عديماً لناصِرٍ كما ليس لي من ظالمٍ نصير
ولا أضنى الحب قيساً رقى له بعض رفاقه ، فواعدوه أن يخرجوا معه إلى ديار
لبنى لعله يحظى برؤيتها ، فضى معهم وهو ينشد :

لقد عذبتني يا حبَّ ليلى فقَعَّ إما بموتٍ أو حياةٍ
فإن الموتَ أروحُ من حياةٍ تدوم على التباعد والشَّتاتِ
ووقعت عينه عليها ، فخر مغشياً عليه ، وعادوا به ، وهو لا يكاد يفيق
من غشيته . وأشار عليه نفر أن يحجَّ لعله يسلوها ، فحج وراها هناك ، فعادوه
فُتُونه ، وأخذت تسيل عبراته ، وهو يُنشد فيها أشعاره . ولقيها فعرف أنها ما زالت
تحفظ له العهد ، وعاد من الحج يتغنى بحبه ، على شاكلة قوله :

تعلقَ روحى روحها قبل خَلْقنا ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المَهْدِ
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا متنا بمُنْصَرَمِ العهدِ
ولكنه باقٍ على كلِّ حادث وزائرنا في ظلمة القبر واللَّحْدِ

وما زال به أبوه يلحُّ عليه أن يتزوج من أخرى ، لعله ينسى صاحبه .
وتمضي القصة فتزعم أنه رأى في بعض أحياء العرب فتاة تسمى لبنى فيها
مخايل صاحبه ، فتزوجها ، ولكن حنينه إلى صاحبه الأولى عاوده ، وكأنما لم
يكن هناك سبيل إلى إطفاء جذوة هذا الحب . وتزعم القصة أيضاً أن أباه شكاه
إلى معاوية فأهدر دمه إن تعرض لها ، وأرسلت إلى حبيبها بالخبر مشفقة عليه ،
ويروون أنها تزوجت من غيره ، عله ينساها ، ولكن أننى له ؟ لقد أمضه الغرام ،
ومضى إلى ديار قومها فوجدها قد رحلت مع زوجها ، فوضع خده على التراب ،
وبكى أحراً بكاء منشداً :

وإن تك لُبْنَى قد أتى دون قربها حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
فإن نسيمَ الجوِّ يجمع بيننا ونُبصر قَرْنَ الشمس حين نزول
وأرواحنا بالليل في الحَيِّ تلتقى ونعلم أنا بالنهار نَقِيل^(١)
وتجمعنا الأرضُ القَرَارُ وفوقنا سماءُ نرى فيها النجومَ تجول
واشتدت به المحنة ، واشتد به الوجد والهيام ، والحياة من حوله وحول معشوقته
تعمن في القسوة ، وهو لا يزال ينشد فيها الأشعار من مثل قوله :

إلى الله أشكو ما ألاق من الهوى ومن حُرِّ تعادنى وزفير
ومن ألمٍ للحب في باطن الحشما وليلٍ طويل الحزن غير قصير
وقوله :

وبين الحشما والنَّحر منى حرارة ولوعةٌ وجَدٍ تترك القلبَ ساهيا
تمرُّ الليالي والشهور ولا أرى ولوعى بها يزداد إلا تماديا
وقوله :

ألا ليت أياماً مَضَيْنَ تعودُ فإن عُدُن يوماً إننى لسعيدُ

(١) نفيل : من القيلولة وهي نصف النهار .

وظل قيس على هذا النحو يشكو حبه وندمه على فراق صاحبه ، حتى رأى رضيعه الحسين بن علي وفقر من قريش تعمقهم التأثر له أن يكلموا زوج لبي في شأنه لعله يردها عليه . وصدع لمشيئهم راضياً ، فعادت لبي إلى قرة عينها وظلت عنده حتى ماتت ، فأكبَّ على القبر يبكيها ، ولم يزل عليلاً إلى أن لحق بها ، فدفن إلى جنبها .

جميل^(١) بن معمر

لعل حياة جميل أوضح حياة بين الشعراء العذريين ، فقد نشأ في منازل عذرة بوادي القرى ، وأخذ يختلف إلى المدينة ، وربما إلى مكة ، فقد كان يلقي ابن أبي ربيعة كثيراً ويتناشدان الشعر ، ويقال إنه حدا يوماً بمروان بن الحكم . ويظهر أنه كان يتصل ببني أمية كثيراً ، ففي أخباره أنه رحل إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ولقيه لقاء كريماً .

وكان كثير عزة راوية له . وشعره لذلك أوثق شعر العذريين ، وفي أخباره أنه تلقن الشعر عن هذبة بن الحشرم تلميذ الخطيئة ، ونعرف أن الخطيئة تلميذ زهير ، وكأنه يمت بأسباب قوية إلى هذه المدرسة التي كانت تُعنى بصقل الشعر وتجويده . ونجد له أخباراً أخرى تتصل بتهاجيه مع بعض الشعراء الحجازيين مثل الخزيم الكنانى .

نحن إذن أمام شاعر واضح الشخصية ، عنى الرواة والناس بأشعاره ، كما عنى بها مغنو المدينة ومكة ، وهي أشعار يمضى جمهورها في التغنى ببشينة معشوقته ، إحدى نساء قبيلته ، تحاباً صغيرين ، ولم تلبث أن ألهمته الشعر ، إذ أحبا حباً انتهى به إلى الهيام بها ، وعرفت ذلك فنحتت حبها وعطفها ، وأخذت تلتقي به حين شباً في غفلات من قومهما ، ونحشى أهلها مغبة هذا اللقاء ، فضيقوا عليها الخناق ، على الرغم مما عرفوا من أن الحب بينها وبين جميل حب نقي برىء ،

وحديث الأربعماء ٢٤٩/١ ، ٢٨٧ .. وطبع ديوانه بشير يموت في بيروت ونشره حسين نصار بالقاهرة وانظر في بعض قصائده الأمانى ٨٧/٢ ، ٣٠٣ .

(١) انظر في جميل وأخباره وأشعاره الأغاني (طبع دار الكتب) ٩٠/٨ وما بعدها وابن سلام ص ٤٦١ ، ٥٤٣ والشعر والشعراء ٤٠٠/١ وما بعدها والخزانة ١٩٠/١ والموشح ص ١٩٨ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣٩٥/٣

وأخذت الألسنة في الحى لا تكفُّ عن التعريض بالمتحابين ، فهجرتة ، واحتجبت من دونه راغمة ، وهو على ذلك لا يسلوها ، يقول :

وإني لأرضى من بُشِينَةٍ بالذى لو أبصره الواشى لقرت بَلابِلُهُ^(١)
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آملُهُ
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى وأخرُهُ لا نلتقى وأوائله
وكانت تلتمس فرصة من أهلها أحياناً فتلقاه ، فتشرق الدنيا في عينه ،
ويسعد سعادة لا حد لها . وخطبها من أبيها فردّه ، لكرامة العرب أن يزوجوا
فتياتهم ممن يتغزلون بهم ، هكذا تزعم القصة ! . ويزوجها أبوها من فتى في
القبيلة يسمى بُسَيْيْهاً ، فتسودُّ الدنيا في عين جميل ، ويلتاع لوعة شديدة ، ويصبح
حبها كل حياته ، فهو يملك عليه كل شيء ، ويأخذ عليه كل طريق ،
يقول :

ولو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى
خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبل
فلا تقتلبنى يا بُشَيْنُ فلم أُصب من الأمر ما فيه يحلُّ لكم قتلى
ويقول :

لها في سواد القلب بالحب مِيعَةٌ هي الموت أو كادت على الموت تُشرفُ^(٢)
وما ذكرتك النفس يا بَشْنَ مرّة من الدهر إلا كادت النفس تتلفُ
ولمّا اعترتنى زفرة واستكانة وجاد لها سَجَلٌ من الدمع يذرفُ^(٣)
وما استطرفت نفسى حديثاً لخلّة أُسرُّ به إلا حديثك أطرفُ

ويمضى يشكو حبه ، ويحاول أن يلقاها ، وتنبئه في بعض الأحيان
أمنيته فيثور به أهلها ويتوعدونه . ويعنف به حبها ، ويشقى به . ويرحل إلى

(١) البلايل : الوسوس . قرت : سكنت . (٢) السجل : الدلو العظيمة مملوءة ماء .

(٢) يقصد بالمِيعَة حرارة الحب وقوته .

المدينة وغير المدينة يتغنى باسمها وحبها متحملاً من الجهد في عشقها ما يطيق
وما لا يطيق ، وتمضى الأعوام وصبوتها إليها تزداد به حدة وعنفاً ، وذكرها
لا تبرح مخيلته ، بل تعيش في قلبه كأنها دينه ، وهو يرتل غزله كأنه صلوات
يسودها عبادته على شاكلة قوله :

ألا أليت شعري هل أبين ليلةً بوادي القرى إني إذن لسعيد
وهل ألقين فرداً بشينة مرة تجود لنا من ودها ونجود
علقت الهوى منها وليداً فلم يزل إلى اليوم ينحني حبها ويزيد
وأفانيت عمري في انتظار نوالها وأبليت فيها الدهر وهو جديد
إذا قلت ما بي يابشينة قاتلي من الحب قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردى بعض عقلي أعش به مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت طالباً ولا حبها فيما يبید يبید
يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقتها فيعود

وشعر جميل كله في بشينة على هذا النحو يمتاز بصدق اللهجة وحرارة
العاطفة . وقد ظلت بشينة تحفظ له حبه ، إلى أن وافاه القدر بمصر في ولاية
عبد العزيز بن مروان عليها ، فبكته ، ويقول الرواة إنها ظلت تبكيه إلى أن
لحقته به .

شعراء الزهد

تردد في القرآن الكريم دائماً الدعوة إلى الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها
الزائل ، وهي دعوة تحدى في تضاعفها الحث على التقوى والعمل الصالح ،
فالمسلم الحق من عاش للآخرة ، ورفض عرض الدنيا ، فلم يأخذ منه إلا بحظ
محدود ، حظ يقيم أوده ، ويعدّه للكفاح في سبيل الله ، ومن ثم كان زهد

الإسلام لا يعنى الانقطاع تماماً عن الدنيا كزهد الرهبانية ، بل هو زهد معتدل ، زهد فيه قوة ودعوة إلى العمل والكسب ، يقول جلّ وعز : (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) وهو نصيب ينبغي أن لا يصرف المسلم عن الآخرة ونعيمها الخالد . .

وزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، وُِرْوَى أن رجلاً جاءه فقال : يا رسول الله دُلّني على عمل إذا عملته أحببني الله وأحبنى الناس ، فقال : « ازْهَدْ في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس ^(١) » . وقد اندفع وراءه كثير من الصحابة يحيون حياة زاهدة متقشفة ، وعلى رأسهم أهل الصُّفَّة ، وهم نفر من فقراء المسلمين اتخذوا صُفَّة ^(٢) المسجد منزلاً لهم ، وعاشوا على صدقات الرسول والمُترين يعبدون الله حق عبادته مرتلين آى الذكر الحكيم . وكان وراءهم كثير من أخلصوا أنفسهم لتقوى الله حق تقواه ، وعلى رأسهم أبو بكر وعلى وعمر وعبد الله ابن عمر وأبو الدرداء وأبو ذر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان يقطع النهار صائماً والليل قائماً يصلى لربه . وفي ابن سعد وغيره صور كثيرة من هذه المجاهدات والرياضات للنفس ^(٣) .

وجاء عصر الفتوح وجاءت معه الغنائم الوفيرة ، فاقتنى العرب الضياع وشيدوا القصور ، وهم في ذلك لا ينسون تعاليم الإسلام ، بل إننا نجد بينهم في كل مصر كثيرين يعيشون للحياة التقية الصالحة ، وسرعان ما تكونت في كل بلد أقاموا فيه جماعات القراء الأتقياء ، بالإضافة إلى من كان منهم يعيش في مكة والمدينة ، وأخذ كثير منهم يعيش حياته للنسك والعبادة . وأكبر إقليم نلتقى فيه بهؤلاء النُسَّاك والقراء إقليم العراق ، وربما كان لكثرة الحروب فيه أثر في ذلك ، وكأن قوماً انصرفوا عن الفتن ، خشية على أنفسهم من التورط في الإثم ، إلى النسك والعبادة ، كما انصرف إلى ذلك كثيرون ممن لم يستطيعوا الانتصار على الأمويين ، فتركوهم وديارهم ، ومضوا يتعبّدون ، وكان الخوارج في

(١) انظر في هذا الحديث رقم ٣١ في الأربعين

النوعية والبيان والتبيين ١٦٦/٣ .

(٢) الصفة : موضع مظلل من المسجد .

(٣) انظر في ذلك كتابنا التطور والتجديد في

الشعر الأموى ص ٦٠ وما بعدها .

جملتهم جماعة كبيرة من الأتقياء ، ضلّت في اجتهداتها وما زعمته من كفر
الأمويين وجمهور المسلمين ، ولكنها لم تضل يوماً في تقواها .

لذلك كله عمّت في العراق موجة واسعة من التقوى والزهد في الدنيا ونعيمها
المادى زهداً كثيراً ما تطرّفوا فيه ، إذ أخذت تدخل في ثنایا هذا الزهد
تأثيرات مسيحية وغير مسيحية ، بحكم ما دخل في الإسلام من الموالى
والشعوب الأجنبية . على أن المصدر الأساسى لهذا الزهد كان الإسلام نفسه
وما دعا إليه من رفض الدنيا والابتهاال إلى الله وانتظار ما عنده من النعيم الحق .
وسرعان ما وجدنا طائفة كبيرة من الوعاظ ، تعيش حياتها تعظ الناس
وتدعوهم إلى أن يجعلوا العبادة والنسك قرة أعينهم ، وهى لذلك مانتى تحدثهم
— مستلهمة القرآن الكريم — عن قدرة الله في خلقه السموات والأرض ، وعن
الموت وما ينتظرهم من الحساب يوم القيامة . والحسن البصرى أشهر هؤلاء الوعاظ
وهو في وعظه دائماً يذكر الموت ، ويذكر النار حتى لكأنه يشاهدها بين عينيه ،
ويحض حاضاً قوياً على الزهد في الدنيا وحطامها . وكان هو وغيره من الوعاظ
لا يزالون يستشهدون في وعظهم بأشعار لسييد والنابعة الجعدي وغيرهما تلك التى
تدعو إلى خشية الله وتقواه ، بل ربما استشهدوا بأبيات لبعض الجاهليين ، وخاصة
تلك التى تصور فناء الدول أو تدعو إلى خلق فاضل .

وطبعى أن تترك مواعظهم أثراً عميقاً في نفوس الشعراء الذين كانوا يختلفون
إلى مجالسهم ، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع مدى تأثير الإسلام ومثاليته
الروحية في الشعراء ، كما مرّت بنا في مواضع مختلفة من هذا الكتاب أشعار
زاهدة لنفر منهم . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الرجاز مثل أبى النجم
العجلى والعجاج يبدؤون أراجيزهم بالحمد لله والثناء عليه ، وكثيراً ما تتحول
الأرجوزة عند ثانيهما إلى موعظة خالصة . وتلقانا عند بعض الشعراء أدعية
وابتهالات لله من مثل قول ذى الرمة ينادى ربه قبل موته ^(١) :

يَا رَبِّ قَدْ أَشْرَفْتُ نَفْسِي وَقَدْ عَلِمْتُ علماً يقيناً لقد أحصيت آثارى
يَا مَخْرَجَ الرُّوحِ مِنْ جَسْمِي إِذَا احْتَضَرْتُ وفارجَ الكربِ زحزحني عن النار

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريدج)

ونريد الآن أن نقف عند نقر منهم تمثلوا في أشعارهم فكرة رفض الحياة داعين للتفرغ إلى العبادات وإلى الأخلاق الرفيعة التي يدعو إليها الإسلام . وأول من نقف عنده عروة بن أذينة فقيه المدينة الذي رُوِيَ له - كما أسلفنا - مقطوعات في الغزل العفيف ، وله أبيات تصور مبدأ مهما شاع بين الزهاد في هذا العصر ، وهو مبدأ التوكل على الله والثقة في أنه لا يترك أحداً بدون رزق يكفيه ، وبلغ من مبالغة بعضهم في هذا المبدأ أن رأوا في السعي والكد نقصاً في التوكل والثقة بربهم . ولا شك في أن هذا المبدأ يفضي إلى طمأنينة نفسية قوية ، كما يفضي إلى طرح الدنيا طرحاً تاماً ، وفي تقريره يقول عروة :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أَسْعَى له فيعنيني تَطْلُبُهُ ولو قعدتُ أتاني لا يُعنيني
خِيمي كريمٌ ونفسي لا تحدثنِي إن الإله بلا رزقٍ يخلِّيني
ومن اشتهروا بكثرة أشعارهم في الزهد عبد الله بن عبد الأعلى ، ويظهر أنه كان يستمد في زهده من منابع بعيدة عن الإسلام ، إذ نرى من كتبوا عنه يتهمونهم في دينه ، ويقولون إنه كان سيئ العقيدة^(١) ، وهو في أشعاره يقف كثيراً عند فكرة الفناء من مثل قوله :

يا وَيَجْ هذي الأرض ما تصنع أكلٌ حَيٌّ فوقها تَصْرَعُ
تَزْرَعهم حتى إذا ما أتوا عادتُ لهم تَحْصِد ما تزرع
وقوله :

مَنْ كان حين نُصِيب الشمسُ جَبْهته أو الغبارُ يخافُ الشَّيْن والشَّعْثَا
ويألفُ الظِّلَّ كي تَبْقَى بشاشته فسوف يسكن يوماً راغماً جَدَثَا^(٢)
وفي تضاعيف هذا الشعر الزاهد تلقانا دعوة إلى مكارم الأخلاق يستضيء أصحابها بما جاء في الذكر الحكيم من مثالية خلقية نبيلة ، وأكثر من هجوا بهذه

(١) لسان الميزان ٣/٣٠٥ والمجرد ص ٢٩٤ (٢) الجدلث : القبر .

وما بعدها وانظر أمالي القالي ٢/٣٢٣ .

الدعوة مسكين^(١) الدارمي القائل :

وُسِّمْتُ مُسْكِينًا وَكَانَتْ لِحَاجَةٍ وَإِنِّي لِمُسْكِينٍ إِلَى اللَّهِ رَاغِبٌ
ويقول صاحب الخزانة إن له قصيدة ، ذكر فيها طائفة من الشعراء ،
ناسباً قبر كل منهم إلى بلده ومسقط رأسه ، متخذاً من ذلك العبرة ، ومصغراً
أمر الدنيا ومهوناً من شأنها ، وقد ذكر له منها عشرة أبيات . وما يتردد في كتب
الأدب من شعره قوله يعلن رضاه بالقضاء وما قد رله ، وأن الله لا بد أن يكشف
غمته :

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فَأَكْرَهَهُ إِلَّا سَيَجْعَلُ لِي مِنْ بَعْدِهِ فَرْجًا
ومن مستحسن شعره قوله :

وَلَيْسْتُ إِذَا مَا سَرَّنِي الدَّهْرُ ضَاحِكًا وَلَا خَاشِعًا مَا عَشْتُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ
أَعِفُّ لَدَى عُسْرِي وَأُبْدِي تَجَمُّلاً وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَعِفُّ لَدَى الْعُسْرِ
وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي إِذَا كُنْتُ مُعْسِرًا صَدِيقِي وَإِخْوَانِي بَأَن يَعْلَمُوا فَقْرِي
وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعْلَمُ مَكَانَ صَدِيقِهِ وَمَنْ يَغْنُ لَا يَعْدَمُ بَلَاءٌ مِنَ الدَّهْرِ
وهو القائل :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنْ مِنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بِغَيْرِ سِلَاحٍ
وله أشعار طريفة في الغيرة^(٢) وأن على الزوج أن لا يبالغ في اتهم زوجته ،
حتى لا يغر بها بما يخاف منه . على أننا نلاحظ عنده أنه كان يستشعر عصبية
القبلية في فخره بخصاله ؛ وقد مر بنا موقفه من تولية معاوية لابنه يزيد ، وما نظمه
في ذلك من شعر . وهو في الحق لم يكن زاهداً بالمعنى الدقيق لكلمة زاهد ،
إنما كان متأثراً تأثراً عميقاً بالروح الإسلامية ، ومن ثم استلهمها في إشدته
بشيمه ، ونحن نتركه إلى أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري .

(١) انظر في ترجمته الأغاني (ساسي) المرتضى ٤٧٢/١ وابن عساكر ٣٠٠/٥ .
(٢) أمالي المرتضى ٤٧٥/١ وما بعدها .
٦٨/١٨ والشعر والشعراء ٥٢٩/١ ، والخزانة ١١٦/٢ ومعجم الأدباء ١٢٦/١١ وأمال

أبو الأسود الدؤلي^(١)

اسمه ظالم بن عمرو من بني كنانة ، ولي قضاء البصرة في ولاية عبد الله ابن عباس عليها لعل بن أبي طالب ، ولما خرج على إلى العراق لزمه في حروبه ، ودخل بعد وفاته فيما دخل فيه الناس من بيعة معاوية ، ولكنه ظل يعلن تشيعه لآل البيت . وهو أول من وضع النقط في المصاحف لتصوير حركات الإعراب . وهو يُعَدُّ من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدثيهم . وله مدائح وأهاج في معاصريه وأشعار في أزواجه ، ويقال إنه كان بخيلاً شحيحاً ، وهو مع ذلك كان تقيماً صالحاً ، وله أشعار كثيرة في الزهد من مثل قوله :

وإذا طلبتَ من الحوائج حاجةً فاذعُ الإله وأحسن الأعمالا
فليعطينك ما أراد بقُدرةٍ فهو اللطيف لما أراد فعلا
ودع العباد ولا تكن بطلاهم لهجاً تضعضُ للعباد سؤالا^(٢)
إن العباد وشأنهم وأمورهم بيد الإله يقلب الأحوال
وهو في زهده لا يدعو إلى الخمول بل يدعو إلى السعي في الدنيا والمشى في مناكبها ، حتى يكسب المرء لنفسه ما يحيا به حياة كريمة ، يقول لابنه :

وما طلبُ المعيشة بالتمنى ولكن ألقِ ذلوك في الدلاء
تَجِثْ بملئها يوماً ويوماً تجثك بِحَمَاةٍ وقليلِ ماء^(٣)
ولا تقعد على كسلٍ تمنى تحيل على المقادر والقضاء

على أنباء النحاة ١٣/١ وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٠٤/٧ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٦٧ . وله ديوان نشره عبد الكريم الدجيل ببغداد .

(٢) تضعض : تذلل وتخضع .

(٣) الحمأة : الطين الأسود .

(١) انظر في ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٩٧/١٢ والشعر والشعراء ٧٠٧/٢ وأخبار النحويين البصريين ص ١٣ وطبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٧٠ وأسد الغابة ٦٩/٣ والإصابة ٣٠٤/٣ والخزانة ١٣٦/١ وروضات الجنات ص ٣٤١ وطبقات القراء لابن الجزري ٣٤٥/١ ومعجم الأدباء ١٢/٣٤ وإنباء الرواة

وكثيراً ما يتحدث عما ينبغي من الربط بين العلم الديني والعمل ، فالعلم
إن لم يُقَرَّن بالعمل لم يكن علماً ، بل كان لهواً وعبثاً ، بل كان خيانة للعهد
ونقضاً ، يقول :

وما عالمٌ لا يقتدى بكلامه بموفٍ بميثاقٍ عليه ولا عهدٍ
ونراه ساخطاً سخطاً شديداً على من يتعلقون بالدنيا محيطين أنفسهم بمظاهر
الثراء متناسين الشريعة الغراء ، على شاكلة قوله :

قد يجمع المرء مالا ثم يُحرَّمهُ عما قليل فيلقى الذلَّ والحرباً^(١)
وجامعُ العلم مغبوطٌ به أبداً ولا يحاذرُ منه الفوتَ والسلبا
وتوفى أبو الأسود سنة ٦٩ للهجرة ، وقيل بل سنة تسع وتسعين ، والقول
الأول هو الصحيح .

سابق^(٢) البربري

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن سابق ، وكل ما نعرف عنه أنه كان
قاضي الرقة بالموصل وإمام مسجدتها وأنه كان يفد على عمر بن عبد العزيز
يعظه . فهو من وعاظ العصر ، وشعره يفيض تقوى وورعاً ودعوة إلى التقشف
والفرار إلى الله من الدنيا ومتاعها الزائل ، ونراه يثور على الأغنياء الذين يعيشون
لجمع المال ثورة عنيفة ، يقول :

فحتى متى تلهو بمنزل باطلٍ كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطنٌ
وتجمعُ ما لاتأكل الدهرُ دائباً كأنك في الدنيا لغيرك خازنٌ
ويقول :

أموالُنا لذوى الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نَبْنِيها
والنفس تكلفُ بالدنيا وقد علمتُ أن السلامةَ منها ترك ما فيها

(١) الحرب : سلب المال .

(٢) انظر في سابق تاريخ ابن عساكر

٣٨/٦ والخزانة ١٦٤/٤ والبيان والتبيين
٢٠٦/١ والمبرد ص ٢٥٣ .

وكان لا يزال يكثر من حديث الموت ، وأنه نازل عما قريب ، فينبغي لكل إنسان أن يعدَّ العُدَّةَ للرحيل ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من عمل عملاً صالحاً ، ومن قوله في ذلك :

إذا الجسدُ المعمور زایلَ روحه خَوَى وجمالُ البيتِ يانفسُ أهله
وقد كان فيه الروح حيناً يزينه وما الغمدُ لولا نَصْلُهُ وحمائله
إذا الأرضُ خَفَّتْ بعد ثِقَلِ جبالها وخَلَّى سبيلَ البحرِيا نفسُ ساحله
فلا يرتجى عَوْناً على حَمَلِ وزره مُبَيِّئُ وأولى الناس بالوزرِ حامله

ونراه يدعو إلى الرضا بقضاء الله ، فلا مَعْدَى عنه ، ولا منصرف إلا إليه ، وأولى بنا أن نصبر وأن لا نجزع ، وهو يردد ذلك في أشعاره على شاكلة قوله :

وإن جاء مالا تستطيعان دفعه فلا تجزعا مما قضى الله وأصبراً

ويظهر أنه كان شاعراً مكثراً ، يدل على ذلك قول الجاحظ واصفاً زهدياته : « لو أن شعر سابق البربرى كان مفرقاً في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عايه بطبقات . . ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر . ومتى لم يخرج السامع من شئ إلى شئ لم يكن لذلك عنده موقع » .

٤

شعراء اللهو والمجون

رأينا في غير هذا الموضع كيف تحضر العرب في هذا العصر ، وكيف أن كثيرين منهم اُتُرفوا ترفاً شديداً ، إذ أحاطوا بأنفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس أنيقة ، وجوار ورقيق . ودائماً حين تغرق الأمم في الترف يتورط كثير من أبنائها في آثام مختلفة من اللهو والمجون ، وإذا كنا لاحظنا فيما أسلفنا انتشار موجة من الزهد في العصر كان لها آثار عميقة في

الشعر والشعراء فإن هذه الموجة انحسرت عن كثير من الأفراد إذ الناس ليسوا سواسية ، منهم من يجد في الدين ومثاليته الروحية متاعه ، ومنهم من ينحرف عن الدين إلى حياة ماجنة يتمالك فيها على اللهو والخمر .

ومعروف أن الإسلام حرّم الخمر ، وأن عمر شدّد في عقابها حين وجد بعض المسلمين يقرّفونها من مثل أبي مخجن الثقفي ، وقصة صلاة الوليد بن عقبة وإلى الكوفة لعمان بالناس وهو سكران مشهورة . غير أن أمثاله وأمثال أبي مخجن في عصر الخلفاء الراشدين كانوا قليلين . ونحن لا نمضي في عصر بني أمية ، حتى تظهر آثار الفتوح وما حملت من أموال وحضارات وصور من الترف إلى العرب ، فتحضرت مكة والمدينة ، بل أنشرفت ، وتحضر العرب الذين خرجوا في الفتوح واستقروا في البيئات الجديدة ، وأخذ كثير منهم يندفع في الاستمتاع بالحياة ، وبالغ نفر في هذا الاستمتاع ، متحرراً من قوانين الدين . وكلما تقدمنا في العصر ازداد ذلك قوة وحدة ، وخاصة في البيئات البعيدة التي رحل إليها العرب ، وظهروا على ما فيها من خمور ، وأقصد بيئة خراسان ، حيث كانت تزخر بالخمر وبالطبول والمزامير ، وقد مرّ بنا كيف أن والياً عليها — هو قتيبة بن مسلم — اضطرّ حين وجد تفشي الخمر في جنده أن يعاقب على احتسائها بالقتل .

والحق أنها كانت تنتشر في كل البيئات ، وقلنا نجدها في مكة والمدينة حيث كانت تنتشر دور الغناء . ومن الشعراء الذين هلّوا من كئوسها في هذه البيئة لعهد معاوية ابن أُرطاة^(١) ، وعبثا حاول مروان بن الحكم وإلى المدينة أن يردّه عنها ، وفيها يقول :

إِنَّا لَنَشْرِبُهَا حَتَّى تَمِيلَ بِنَا كَمَا تَمِيلُ وَسَنَانُ بَوَسْنَانِ
ومنهم عبد الرحمن بن الحكم^(٢) الذي كان يهاجى عبد الرحمن بن حسان ، وفيها يقول :

(١) راجع في ابن أُرطاة الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٤٢/٢ وما بعدها .
(٢) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب) ٢٥٩/١٣ وراجع المبرد ص ٥٢ والبيان والتبيين ٣٤٨/٣ .

ترى شاربَيْهَا حين يَعتورانها يَميلان أحياناً ويعتدلان
ومن كانوا يحتسونها في هذه البيئة لأواخر العصر ابن ميادة^(١) مَدَح الوليد
ابن يزيد بن عبد الملك ونديمه ، وهو من مخضرمي الدولتين ، وفيها يقول :

ومعتقٍ حُرِّمَ الوقودَ كرامةً كدم الذَّبِيحِ تمجُّهُ أوْدَاجُهُ^(٢)
ضمنَ الكرومُ له أوائلَ حَمَلِهِ وعلى الدُّنانِ تمامُهُ ونتاجُهُ^(٣)
ومثله ابن هرمة^(٤) ، وكان مشغوقاً بها كلفاً ، وهو القائل :

أَسْأَلُ اللهَ سَكْرَةً قَبْلَ مَوْتِي وصِيَاخَ الصُّبَّيَّانِ يَا سَكْرَانُ
وإذا تركنا الحجاز إلى العراق وجدنا كثيرين يقبلون على الخمر في غير
حياء ولا استخفاء ، وكأنما كانت الفتن هناك وما حملتهم من الخطوب باعثاً لهم
على المجون ، حتى ينسوا به عنائهم ، ومن ثم مضى نفر منهم يعلن معاقرة
لها ، وأنه لن ينصرف عنها ، على شاكلة سُحَّيم^(٥) بن وثيل الرياحي التميمي ،
وكان فيه غير قليل من بقايا الجاهلية ، وأكبر الدلالة على ذلك معاقرة لغالب
أبي الفرزدق التي مرت بنا ، والتي مضى فيها ينافس في نحر إبله لقومه ،
ويظهر أنه كان يكثر من الشراب كثرة جعلت امرأته حذراً تراجعته وتكثر من
مراجعته ، فقال :

تقول حذراء ليس فيك سوى الـ خَمَرِ معيبٌ يعيُّهُ أَحَدُ
فقلت: أخطأتِ بل مُعَاقِرَتِي الـ خَمَرِ وبَدَلَتِي فيها الذي أَجِدُ

(١) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب) ٢٦١/٢ والشعر والشعراء ٧٤٧/٢ والخزاعة ٧٢٩/٢ والشعر والشعراء ٣٦٧/٤ والموشح ص ٢٢٣ .
(٢) البيان والتبيين ٣/٣٤٣ .
(٣) المعتنق : الشراب القديم . حرم الوقود : لم يطبخ بالنار . الأوداج : جمع ودج وهو عرق في العنق .
(٤) تمامه : يقصد تمام مدة حملهِ .
(٥) انظر في ترجمته ابن سلام ص ٤٨٩ والإصابة ٣/١٦٤ والخزاعة ١٢٣/١ والشعر والشعراء ٦٢٦/٢ .

هو الثناء الذى سمعت به لا سبداً مُخلدى ولا لبداً^(١)
ويحك لولا الخمر لم أخفيل الـ عيش ولا أن يضمنى لحد^(٢)
هى الحيا والحياة واللّهو لا أنت ولا ثروة ولا ولد
ويقف السرايق الذّهلى هذا الموقف نفسه من ابنته ، فيعلن أنه لن يكف
عنها ، إذ صارت له غذاء لا يستطيع الصبر عنه^(٣) . ويلقانا فى عهد زياد بن
أبيه حارثة^(٤) بن بدر أحد عماله وخلصائه ومُدّ آخه ، كلفاً بها كلفاً شديداً ، وله
فيها أشعار كثيرة رواها أبو الفرج فى ترجمته يماهر فيها بأنه لن يكف عنها ،
مهما أكثر لائموه ، على شاكلة قوله :

يعيب على الرّاح من لو يذوقها لجنّ بها حتى يغيب فى القبر
علام تدمّ الرّاح والراح كاسمها تريح الفتى من همّه آخر الدهر
فلمّنى فإنّ اللوم فيها يزيدنى غراماً بها إن الملامة قد تُغري
وكان يذهب مذهبه فى الإدمان عليها مالك بن أسماء صهر الحجاج الثقفى
والليه على أصبهان ، وله فيها أشعار ساقها أبو الفرج فى ترجمته^(٥) . ولعل
عراقياً لم يشتهر بها كما اشتهر الأقيشر^(٦) الأسدى وكان كوفياً خليعاً ماجناً ،
وفيها يقول :

أفنى تلادى وما جمعت من نشب قرع القواقيز أفواه الأباريق^(٧)
ويقول :

كُميت إذا فُضّت فى الكأس وردة لها فى عظام الشاربين دبيب

ص ٢٦٦ والموشح ص ٢٢٠ والشعر والشعراء
٧٥٦/٢ .

(٦) انظر فى ترجمة الأقيشر أغاني (دار الكتب)
٢٥١/١١ والشعر والشعراء ٥٤١/٢ ومعجم
الشعراء ص ٢٧٣ والخزانة ٢٧٩/٢ والموشح
ص ٢٢١ .

(٧) التلاد : المال القديم . النشب : الفقار
والضياح . القواقيز : الكنوس وأواني الخمر التى
تشرب فيها .

(١) لا سبد ولا لبدا : مثل أى لا قليل
ولا كثير .

(٢) اللحد : شق للميت فى جانب القبر .

(٣) الشعر والشعراء ٦٧٠/٢ .

(٤) انظر ترجمته فى الأغاني (طبع السامى)

١٣/٢١ وأمالى المرتضى ٣٨٠/١ وما بعدها

وراجع فهرس الكامل للمبرد والبيان والتبيين

والطبرى .

(٥) انظر ترجمته فى الأغاني (سامى)

٤٠/١٦ والخزانة ٤٨٥/٢ ومعجم الشعراء

ولإذا مضينا إلى خراسان وسجستان وجدنا كثيرين يتورطون فيها ، وكأنما كان تغلغلهم في الشرق دافعاً لهم إلى الإمعان في المحن والتحرر من قوانين الدين ، أو لعلهم كانوا يريدون أن يزيجوا بها عن كواهلهم ما كانوا يحسون به من آلام الغربة وعناء الحروب. ويروى البلاذري أن ثلاثة نفر من أهل الكوفة كانوا في جيش الحجاج الذي وجهه إلى الديلم ، وكانوا يتنادمون ، فمات أحدهم ، فدفنه صاحبه ، ومضيا يشربان عند قبره ، فإذا بلغت الكأس أراقها على القبر ، وبكى . ومات الثاني فدفنه صاحبه ، وظل عند قبرهما يشرب ويبكى إلى أن لحق بهما ، وقبورهم هناك تعرف بقبور الندماء^(١). ومن الشعراء الذين اشتهروا بمعاقرتها والنظم فيها هناك الشَّهْرَدَل^(٢) بن شَرِيك ، وكان قد خرج للغزو في تلك الديار مع ثلاثة من إخوته . فماتوا جميعاً ورثاهم رثاء حاراً ، وكأنه كان يفرق فيها حزنه . ومنهم أبو جليدة اليشكري الذي سبق أن عرضنا له في شعراء ثورة ابن الأشعث ، وكان يُدَمِّنُها إدماناً ثم تاب عنها ، فقال^(٣) :

سَارَسُ فِي التَّقْوَى وَفِي الْعِلْمِ بَعْدَمَا رَكَضْتُ إِلَى أَمْرِ الْغَوَى الْمَشْهُرِ

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى تشتد موجة المحن في خراسان والعراق جميعاً ، وخاصة الكوفة ، حيث تنشأ جماعة كبيرة من المجان على رأسها مطيع وحمام الراوية وحمام عَجْرَدٍ ويحيى بن زياد ، وهم جميعاً ممن عاشوا في الدولتين الأموية والعباسية ، وهم من هذه الناحية أكثر صلة بالعصر العباسي منهم بالعصر الأموي ، ولذلك رأينا أن نؤخر الحديث عنهم . على أنهم يلفتوننا في قوة إلى تهالك الناس على المحن في الكوفة في أواخر العصر ، تهالكاً تحرروا فيه من كل خلق وعرف ودين . ولعل مما هياً لهذا الانحلال الخلقي على الأقل عند بعض الأفراد في هذا العصر أن بعض خلفاء بني أمية المتأخرين جعلوا يقبلون على اللهو ، يتقدمهم في ذلك يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد الذي أكبَّ على الخمر والمجون لإكباباً ، كما أكبَّ على نظم الحمريات وهو وأبو الهندي شاعر سجستان أهم من عاشوا هذه الحياة الماجنة .

٦٨٥/٢ ٣٥١/١٣ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٨٥/٢

(١) فتوح البلدان ص ٣٢٠ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ١١/٣٣٠ .

(٣) أغاني (دار الكتب) ١١/٣٣٠ .

الوليد^(١) بن يزيد

وُلد لأبيه يزيد بن عبد الملك في سنة ٨٨ للهجرة ، فتفتحت عينه على النعيم والترف ، بل على اللهو والمجون ، إذ كان أبوه كلفاً بالخمير والغناء ، حتى في خلافته ، إذ كان يستقدم مغني مكة والمدينة ومغنياتها ، واشترى سلامة القس وحبابه ، وانصرف عن شئون الدولة إليهما وإلى الغناء والطرب والقصف . وقد نشأ ابنه الوليد على مثاله ، بل لقد أخذ يسرف في المجون واللهو إسرافاً شديداً ، حتى فكر هشام بن عبد الملك الذي خلف أباه أن يصرف ولاية العهد عنه لفساد خلقه ، ولكنه توفى سنة ١٢٥ قبل أن يحقق فكرته . واستوى الوليد على عرش الخلافة ، فإذا هو يحول قصره ببادية شرق الأردن مقصفاً كبيراً للخمير والعزف والغناء ، إذ لم يترك مغنياً في مكة والمدينة دون أن يستقدمه ، وأخذ يعب من كنوس المجون عباً ، جعل أهله يتنكرون له ، ويقتله ابن عمه يزيد بن الوليد في جمادى الآخرة سنة ١٢٦ توازره اليمانية ثاراً لخالد القسري وما كان من تعذيبه له وقتله .

وعلى هذا النحو يذهب ضحية مجونه ، وما لا شك فيه أنه كان ماجناً يعكف على الخمير والغناء ، ويعيش للهو والصيد والقنص ، حتى بعد خلافته ، فقد ظل في نفس الجلو الماجن ، الذي كان يتنفسه قبل اعتلائه عرش الخلافة ، ومن ثم آثر قصره ببادية شرق الأردن على دمشق مستقر الخلافة الأموية ، ومضى يجلب إليه المغنين والمغنيات وآلات اللهو والطرب لا من الحجاز فقط ، بل أيضاً من خراسان ، فقد أسلفنا في غير هذا الموضع أنه كلّف نصر بن سيار أن يبعث إليه بما في ولايته الخراسانية من الخيل والبراذين الفارهة وآلات الصيد ، ومن أباريق الذهب والفضة وتماثيل السباع والظباء ، ومن البرابط والطنابير والوصيفات والصنّاجات ، فجمع له نصر من ذلك أشياء

٣١٨ وحديث الأربعاء ١٦٩/١ وقد نشر ديوانه في مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق .

(١) انظر في ترجمة الوليد أغاني (دار الكتب) ١/٧ وما بعدها والطبري في سنتي ١٢٥ و ١٢٦ وكتابنا التطور والتجديد في الشعر الأموي ص

كثيرة ، كانت موضع التندر بين الشعراء والأتقياء .

وينبغي أن لا نمضى مع الرواة فى كل ما تحدثوا به عن مجونه ، إذ نراهم يجعلونه مانوياً زنديقاً ، يسخر بالقرآن الكريم بل يمزقه تمزيقاً^(١) ، وفى الوقت نفسه تذكر بعض الروايات أنه قُتل وهو يقرأ القرآن ويقول : يوم كيوم عثمان^(٢) . وفى الحق أن أبناء عمه من الأمويين كانوا أول من بالغ فى وصفه بالمجون ، ثم جاء العباسيون بعدهم ، فاستغلوه فى التشنيع على خلفاء بنى أمية ، وأنهم انزلقوا إلى الدرك الأسفل من انتهاك ما حرّم الله ومن شرب الخمر وإتيان الفسق ، بل الكفر جملة والخروج من حدود الدين . ونحن مع تحييتنا لهذه المبالغات التى لعبت فيها السياسة دوراً كبيراً نحتفظ للوليد بمجونه وعكوفه على اللهو والصيد والقنص وإدمانه للخمر ولهجه بالغناء لهجاً مسرفاً .

وكان الوليد شاعراً مبدعاً ، فأنفق شعره فى الخمر ، وله أشعار فى الغزل والحب ، ولكنها دون أشعار الخمر فى الإبداع والروعة ، ويظهر أنه ثقف كل ما نُظِم فيها قديماً ، وخاصة عند عدى^(٣) بن زيد العبادى ، وقد مضى ينمسيه ويضيف إليه من مواهبه ومشاعره وملكاته ما أتاح لفن الخمرىات أن يأخذ طريقه إلى الظهور ، إذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع فى ثنایا قصيدة أو فى مقدمتها كما كان الشأن عند عدى وعند الأعشى ، بل أصبحت تُنظَّم فى مقطوعات ، لها وحدتها الموضوعية والمعنوية ، تنبض بالحياة وتخفق بالجلذل والسرور ، لسبب طبيعى ، هو أن ناظمها عاشق للخمر ، وهو ينظمها فى غمرة عشقه ، وكأنما تفجر له ينابيع الفرح تفجيراً . وقرأ له هذه الحميرية :

أَصْدَعُ نَجِيَّ الْهَمومِ بِالطَّرَبِ وَأَنْعَمُ عَلَى الدَّهْرِ بِابْنَةِ الْعِنَبِ
وَأَسْتَقْبِلُ الْعَيْشَ فِي غَضَارَتِهِ لَا تَقْفُ مِنْهُ آثَارَ مُعْتَقَبِ
مِنْ قَهْوَةٍ زَانِهَا تَقَادُمُهَا فَهِيَ عَجُوزٌ تَعْلُو عَلَى الْحَقَبِ

(١) راجع الأغاني ٦/٧ وما بعدها ، ٧٢/٧ .

(٣) انظر الأغاني ٦/٧ .

(٢) انظر الطبري ٥٥١/٥ .

أشهى إلى الشرب يومَ جلّوتها من الفتاةِ الكريمةِ النَّسبِ
فقد تجلّت ورقٌ جَوْهرُها حتى تبدّت في منظرٍ عجبِ
كانها في زُجاجها قَبَسٌ تذكو ضياءً في عَيْنِ مُرتقبِ

فهى فرحة الحياة ونعيمها، بل هى قيس سماوى يهبط برداً وسلاماً على قلوب
الحزونين ، فيزيل ما فيها من أحزان وهموم ، ويردها إلى نشوة الفرح والمسرة .
واقراً أيضاً هذه الحمزية :

علّاني واسقياني من شرابٍ أصبها في
من شراب الشيخ كسرى أو شراب القيروان
إن في الكأسِ لِنسكا أو بكفى من سقاني
أو لقد غودرَ فيها حين صُبّت في الدنانِ
كلّاني تَوجاني وبشعري غنياني
إنما الكأسُ ربيعٌ يُعطى بالبَنانِ
وحُمياً الكأسُ دبّت بين رجلي ولساني

وهى تجرى أيضاً في نطاق الفرحة العميقة بالخمير ، بل لعلها أقوى
من سابقتها تعبيراً عن فرحته بها، فهى في رأيه عطر الوجود بل ربيعها، وهو يتلظى
بنشوتها التى تسرى في جسده من قرّعه إلى قدمه . وهو بحق يُعَدُّ رائد العباسيين
من أمثال أبى نواس في هذا الفن من فنون الشعر ، ولاحظ ذلك النقاد قديماً
فقال أبو الفرج : « ولوليد في ذكر الخمر وصفها أشعار كثيرة ، قد أخذها
الشعراء فأدخلوها في أشعارهم ، وسلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فإنه
سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره » .

ولم تستم الحمزية عنده وحدتها الموضوعية والمعنوية وهذا الحب الذى
يجعلها كاللهب المتدلّع فحسب ، فلئلا استتمت عنده أيضاً التفاعل الحميم
بين المعانى والألفاظ ، بل بين المعانى والإيقاعات إذ كان عازفاً محسناً ،
يحسن اللعب على أوتار العبدان والتوقيع على الطبول والدفوف ، وله أصوات

مأثورة في بعض أشعاره^(١) . ومن ثمّ اجتمع للخميرية عنده طرافة المعنى وحلاوة النغم ، وقد مضى يؤثر الأوزان الخفيفة والمجزوءة من مثل التهجيز والرمز ، بل لقد هداه ذوقه الموسيقى إلى اكتشاف وزن المجتث ، فكان أول من نظم فيه^(٢) . وإذا صحت الخطبة الشعرية التي يقال إنه خطب بها في يوم جمعة — وهي موعظة^(٣) طويلة — كان أول من أعدّ لصورة المزدوجات التي شاعت بين أصحاب الشعر التعليمي في العصر العباسي

أبو الهندي^(٤)

هو غالب بن عبد القدوس بن شيبث بن ربيعة الرياحي التميمي ، وقيل اسمه عبد الله وقيل بل عبد المؤمن ، أدرك دولة بني العباس ومات في خلافة المنصور . وكان رحل إلى خراسان واستوطن في أواخر عمره سجستان ، واشتهر منذ مطالع حياته بالفسق وفساد الأخلاق ومعاقرة الشراب . ويقال إنه كان بخراسان يشرب على قارعة الطريق ، فرّ به نصر بن سيار واليها للأمويين ، فقال له : ويحك يا أبا الهندي ألا تصون نفسك ؟ قال : لو صُنْتُها لما وليت أنت خراسان . ولما انتقل إلى سجستان نزل بموضع يقال له بالفارسية : « كوى زيان » وتفسيره بالعربية سكة الخسران . كانت تباع فيه الخمر وتُتَرَفُّ الفواحش .

وكان شاعراً بارعاً ، وقد وهب شعره جميعه للخمر ، وهو من هذه الناحية يعد متمماً للوليد بن يزيد ، إذ دفع معه الشعر العربي إلى تمثل الخميرية بكل شياتها المعنوية والموسيقية ، وشهد له بذلك غير ناقد ، حتى لرى إسحق الموصلي يقول إن معاني أبي نواس وطبقته في الخمر مستمدة من أشعاره فيها ، ويقول ابن المعتز : « كان جماعة مثل أبي نواس والخليع وأبي هفان وطبقته إنما اقتلدوا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبي الهندي وبما استنبطوا من معانيه » . وله في مداومة سكره وعدم إفاقته منه قصة تشبه قصة أبي نواس مع البية . إذ يقال إنه

(١) الأغاني ٢٧٤/٩ و ٣٢/٧ ، ٤٤ . (٤) انظر في ترجمته أغاني (س) ١٧٧/٢١

(٢) انظر كتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي والشعر والشعراء ٦٦٣/٢ وطبقات الشعراء لابن

(٣) طبع دار المعارف ص ٥٩ . المعتز (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ .

(٣) الأغاني ٥٧/٧ .

شرب عند خمار ونام ، ودخل جماعة فسألوا عنه ، فعرفوا خبره ، فشربوا وناموا
وانتبه ، فرآهم ، فسأل عنهم ، فعرف أنهم مصرعون من الخمر ، فشرب ،
حتى سكر ونام ، وانتبهوا فصنعوا صنيعه ، وأقاموا جميعاً كذلك عشرة أيام ،
يفيقون ثم يشربون وينامون ، وروى قصته معهم في بعض شعره . إنه يعيش
للخمر ويعيش بالخمر ، يصف سُقَاتِها ودِنَانِها وأَبَارِيقَها وزِقَاقَها مثل قوله :

يَمِجُّ سُلَافًا مِنْ زِقَاقٍ كَأَنَّهَا شِيُوخُ بَنِي حَامٍ تَحَنَّتْ ظُهُورُهَا

وقوله :

وإِذَا صُبِّتَ لِشَرْبٍ خِلَتِهَا حَبِشِيًّا قُطِعَتْ مِنْهُ الرُّكْبُ

ونراه يصف القيان اللأثى يسمعهن في أثناء شربها ، كما يصف من تنصرعهم
وصفاً فيه براعة ، فقد أخلص لها نفسه ، ووجد فيها طمأنينة ، بل فرحته ومسرته
حتى ليتمنى أن يضمها إلى صدره في قبره ، فلا تزاله حياً ولا ميتاً ، يقول :

اجْعَلُوا - إِنْ مِتُّ يَوْمًا - كَفَنِي وَرَقَ الْكَرْمِ وَقَبْرِي مَعْصَرَةً
وَادْفِنُونِي وادْفِنُوا السَّرَّاحَ مَعِيَ واجْعَلُوا الْأَقْدَاحَ حَوْلَ الْمَقْبَرَةِ

وعلى هذا النحو مضى أبو الهندي في سكة الحسran إلى الأنفاس الأخيرة
من حياته ، يَصْدَحُ بِخَمْرِيَّاتِهِ ، ويتخذ الخمر وحي إلهامه .

٥

شعراء الطبيعة

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الطبيعة دائماً كانت ملهماً بالغ التأثير في نفسية
الشاعر العربي ، وقد مضى أسلافه في الجاهلية يَصْدُرُونَ عنها في أشعارهم ، فلم
يركوا كبيرة ولا صغيرة في صَمَتِها ولا في حركتها دون أن يرسموها في أشعارهم ، فهم
يصورون فلكواتها بكُثْبَانِها ورمالها وغُدْرَانِها وغَيَيشِها وسيولها وخِصْبِها وجَدَبِها
ونباتاتها وأشجارها وحيوانها وطيورها وزواحفها وهواجرها وما قد ينزل ببعض
مرتفعاتها وأطرافها من البرد وقوارصه .

ومضى شعراء العصر الأموي - على سُنَّة آبائهم - يستلهمون صحراءهم ، مزاجين على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة ، إذ يفتتح الشاعر غالباً مطولاته بوصف أطلال الديار التي قضى بها شبابه مع بعض صواحيبه ، ويسترسل في الحديث عن ذكريات حبه . ولا يلبث أن يتحدث عن رحلته في الصحراء ، وما قطع فيها من مفاوز على ناقته التي يُسهب في وصفها لما لها من جمال في نفسه ، كما يُسهب في وصف فرسه إن كان فارساً ، وهو في ثنايا ذلك يحدِّثنا عن كل ما تقع عليه عينه في صحرائه ويخلف أثراً في ذهنه من طير وحيوان في الأرض ونجوم وكواكب في السماء .

وعلى الرغم من أن جمهور الشعراء لهذا العصر عاش في بيئات متحضرة ، فإن الصحراء لم تجفّ ينائيعها في نفوسهم ، بل لقد ظلت ملهمهم الأول في أشعارهم ، على نحو ما نجد عند مبرِّزيهم من أمثال الفرزدق والأخطل وجريز ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات للفرزدق يوازن فيها بين طبيعة الصحراء ونُهيئِر دُجَيْل وما يجري فيه من سفن ، موازنة يُعلّي فيها الطبيعة الأولى علواً كبيراً ، يقول (١) :

لَقَدْ جُئْتُ وَصَحْرَاوَاهُ لَوْ سَرْتُ فِيهِمَا أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ دُجَيْلٍ وَأَفْضَلُ (٢)
وراحلة قد عودوني ركوبها وما كنت ركباً لها حين تُرحل (٣)
قوائمها أيدى الرجال إذا انتحت وتحمّل من فيها قعوداً وتحمّل (٤)
إذا ما تلقّتها الأواذي شقّها لها جُؤْجُؤٌ لا يستريح وكلّكل (٥)
إذا رَفَعُوا فِيهَا الشُّرَاعَ كَأَنَّهُا قَلُوصُ نَعَامٍ أَوْ ظَلِيمٌ شَمَرْدَل (٦)

وواضح أنه يؤثّر الطبيعة الصحراوية البدوية على طبيعة البيئات الجديدة وما فيها من أنهار وسفن تحمل الناس في رحلات نهريّة ممتعة . وهو يعبر بذلك

(١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي) ص ٦٢٦ .
(٢) فلج : واد من أودية تميم بين البصرة وحمى ضريبة . ودجيل : من أنهار دجلة .
(٣) ترحل : تهيأ للرحيل .
(٤) القوائم هنا : المهاذيف بأيدي الملاحين .
(٥) الأواذي : الأمواج . الجؤجؤ : بطن السفينة من أمام ، الكلّكل : الصدر .
(٦) قلووص النعام : طويلة القوائم ، الظليم : ذكر النعام ، الشمردل : الطويل تام الخلق .

عن شعوره وشعور مَنْ حوله من الشعراء الذين فُتِنُوا مثله بالصحراء ومناظرها الطبيعية أمثال ذى الرُّمَّة، وسنعرض له عما قليل . وكان يعاصره العَجَّاج وغيره من الرِّجَّاز . أمثال رُوْبَة الذى يقول (١) :

إِنْ الرَّدَافِى وَالكَرِىِّ الْأَرْقَبَا يكفيك دَرَّةَ الْفِيلِ حَتَّى تَرْكَبَا^(٢)
فهو يفضل ركوب الإبل على ركوب الفيل الذى يحتاج إلى الدفع قبل اعتلائه .

وليس معنى ذلك أن الشاعر الأموى لم يَفْهَمْ لطبيعة البيئات الجديدة في شعره ، إنما معناه أن الطبيعة الصحراوية هى التى كانت تستولى على ملكاته ، أما بعد ذلك فقد كانت تنفذ طبيعة الأقاليم الجديدة إلى حواسه ، فيصور ما يراه بها من جبال وثلوج . وقد صور الفرزدق نفسه فى بعض رحلاته إلى دمشق ما كان ينزل عليه وعلى صحبه فى طريقه شتاءً من نثير الثلج ، يقول (٣) :

مستقبلين شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُهُمْ بحاصِبٍ كَنَدِيفِ الْقُطْنِ مَنْشُورٍ^(٤)
على عَمَائِمِنَا يُلْقَى ، وَأَرْحَلُنَا على زَوَاحِفَ نَزْجِيهَا مُحَاسِرٍ^(٥)
وكان جرير على شاكلته لا يزال يبدئ ويعيد فى وصف المناظر الصحراوية ومع ذلك تلقانا فى ديوانه قطعة صور فيها نُهَيَّيرَات شَقَقَهَا هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ نَهْرِ الْفُرَات ، وخاصة نهير الهنيء ، وما نبت على ضفافها من زرع وزيتون وأعناب ونخيل ومن كل الثمرات ، وهى تطَّرد على هذا النمط (٦) :

شَقَقْتَ مِنَ الْفُرَاتِ مِبَارِكَاتٍ جَوَارِيَّ قَدْ بَلَغْنَ كَمَا تَرِيدُ
وَسَخَّرْتَ الْجِبَالَ وَكُنَّ خُرْسًا يَقْطَعُ فِي مَنَاكِبِهَا الْحَدِيدُ

(٤) شَمَالَ الشَّامِ : رِيح شَمَالِيَّة . الْحَاصِبُ :

مَا تَحْمِلُهُ الرِّيحُ مِنْ دَفَاقِ التُّرَابِ أَوْ التَّلْجِ .

النَّدِيفُ : نَثِيرُ التَّلْجِ وَالْبَرْدِ .

(٥) نَزْجِيهَا : نَسَوْقُهَا وَنَدَفُهَا ، مُحَاسِرٍ : كَلِيلَةٌ .

(٦) دِيْوَانُ جَرِيرٍ (طبعة الصاوى) ص ١٥٠ .

(١) الْحَيَوَانُ ٩٠/٧ .

(٢) الرَّدَافِى : الْحَادِى . الْكَرِى : الَّذِى

يَكْرِى دَابَّتَهُ وَيُوجِرُهَا . وَالْأَرْقَبُ : غَلِيظُ الرِّقْبَةِ .

دَرَّةُ الْفِيلِ : دَفْعُهُ وَكَفُّهُ .

(٣) الدِّيْوَانُ ص ٢٦٢ .

بلغت من الهنيء فقلت شكرا هناك ، وسهل الجبل الصلود^(١)
 بها الزيتون في غللي ومالت عناقيد الكروم فهن سود^(٢)
 فتمت في الهنيء جنان دنيا فقال الحاسدون هي الخلود
 يعضون الأنامل أن رأوها بساتينا يؤازرها الحصيد^(٣)
 ومن أزواج فاكهة ونخل يكون لحمله طلع نصيد^(٤)

وجريير يحدثنا عن شق الطرق للنهيرات في الجبال وتحطيم ما يعترض من
 الصخور ، كما يحدثنا عن المناظر الطبيعية في تلك البيئة وما حفا بها من
 أشجار فاكهة وغير فاكهة وزروع مختلفة .

فالشاعر الأموي مع استغراق مناظر الصحراء له لم يغمض عينيه عن مناظر
 البيئات الجديدة ، فقد كان يسجلها من حين إلى حين ، وخاصة منهم من
 كانوا يلهجون بالصيد وكلابه وصقوره وفهوده ، وسنعرض لذلك في حديثنا عن
 الرُّجَّاز ، وقد تعرضت طائفة منهم لوصف الفيل ، على شاكلة قول رؤبة
 يصفه^(٥) :

أجرّد كالحصن طويل النابيين مشرف اللحي صغير الفقمين^(٦)
 عليه أذنان كفضل الثوبين

واشتهر في هذا المجال هرون مولى الأزدي^(٧) . فالطبيعة الجديدة المتحركة
 والصامته ألهمتهم كثيراً من الشعر والرجز ، ولكن من الحق أن بيثتهم الصحراوية
 كانت ملهمهم الأول في هذا العصر .

(٤) الطلع : ثمر النخل في إبانته . نصيد : منتظم .

(٥) الحيوان ٧/٧٩ .

(٦) الفقان : اللحيان .

(٧) الحيوان ٧/١١٤ وما بعدها .

(١) الصلود : اليابس .

(٢) الغلل : الماء الجاري تحت الشجر على

وجه الأرض . الكروم : الأعناب .

(٣) الحصيد : الزروع التي تحصد ثمارها

كالقمح .

ذو الرُّمَّة (١)

هو غَيْلَان بن عقبة من بني عدي بن عبيد مَنَاة ، لُقِّبَ بذى الرمة لقوله في بعض شعره يصف الوتدَ : « أشعث باقى رُمَّة التقليد » والرُّمَّة : القطعة البالية من الحبْل ، وأضيفت إلى التقليد لأن الوتد يتقلد بها . وقيل : لُقِّبَ بذى الرمة لأنه كان — وهو غلام — يتفزع ، فأنت به أمه مقرئ قبيلته ، فكتب له معاذة في جلد غليظ ، وعلقتها أمه على يساره برُمَّة من حبل فسمي ذا الرمة . وقيل إن مية التي شغفت قلبه حباً هي التي لقبته بذلك حين ألمَّ بخبائها وطلب منها أن تسقيه ماء ، وكان على كتفه رمة ، فلما أتته بالماء ، وكانت لاتعرفه ، قالت له : اشرب يا ذا الرمة . وقد وُلد بصحراء الدهناء بالقرب من بادية اليمامة ، لأم من بني أسد تسمى ظبية . وكان له ثلاثة إخوة كلهم شعراء . هم مسعود وأوفى وهشام ، وفي بعض الروايات أن أوفى ابن عمه ، أما أخوه الثالث فاسمه جرفاس . وقد ولد حوالى عام ٧٧ للهجرة . وتلقن الكتابة ، وليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن نشأته الأولى ، ونراه ينظم الشعر في خلاف نشب بين قبيلته وعتية بن طرثوث بسبب بثر كانت لقومه ، ومن ثم مضى يمدح المهاجر بن عبد الله وإلى اليمامة مثنياً على حكومته العادلة في هذا الخلاف . ومن أخباره المتصلة بقبيلته أيضاً أنه نزل مع نفر منها على عشيرة امرئ القيس بن عبد مَنَاة . فلم يكرمهم ، فانطلق يهجوهم ، وكان ذلك سبباً في اصطدامه بشاعرهم المسمى هشاماً المرثى ، ولم يستطع هشام أن يثبت له لضعف شاعريته ، على الرغم مما أمدّه به جرير من بعض الأشعار .

وتدل أخباره على أنه كان ينزل الكوفة والبصرة — ويطيل النزول فيهما — منذ مطلع القرن الثاني للهجرة مادحاً رجالاً لهما ، وأول ما نستقبله من ذلك مديحه

والبيان والتبيين والحيوان والكامل للمبرد وأمالى المرتضى ، وكتابنا « التطور والتجديد في الشعر الأموى » ص ٢٦٥ وقد نشر مكارتنى ديوانه في كبريدج سنة ١٩١٩

(١) انظر في ذى الرمة ابن سلام ص ٤٦٥ وما بعدها والشعر والشعراء ٥٠٦/١ وأغانى (سامى) ١٠٦/١٦ وابن خلكان في غيلان والموشح للمرزبانى ص ١٧٠ والخزائن ٥٠/١ وبنو الجنان لليانى ٢٥٣/١ وفهارس الأغاني

لهلال بين أحوز المازني في انتصاراته على المهالبة سنة ١٠٢ وقضائه على من بقي منهم بعد معارك مسلمة بن عبد الملك قضاء مبرماً . وقد مدح عبد الملك بن بشر بن مروان نائب مسلمة على البصرة . وتولّى على العراق في سنة ١٠٣ عمر بن هبيرة الفزاري فاتصل به ومدحه ، حتى إذا خلفه خالد القسري منذ سنة ١٠٥ رأيناه يمدح نوابه ومن ولاهم الشرطة والأحكام ، وعلى رأسهم نائبه أبان بن الوليد البجلي ، ومالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطته . وأهم من مدحهم بلال ابن أبي بردة الأشعري الذي ولي شئون الشرطة لخالد في البصرة سنة ١٠٩ ، ثم ولي منذ سنة ١١٠ أمور البصرة كلها : القضاء والصلاة والأحداث ، وظل يليها إلى أن توفي الشاعر . وقد امتدت رحلاته في طلب النوال إلى دمشق وخاصة في عهد هشام بن عبد الملك ، فله فيه غير قصيدة ، كما امتدت إلى مكة حيث مدح واليها إبراهيم بن هشام المخزومي ، ولما ولي فارس أبان بن الوليد قصده ومدحه . وقد هجا في بعض شعره حكيم بن عياش الكلبي الكوفي الذي كان يتعصب لليمن تعصباً مسرفاً .

والعناصر الإسلامية واضحة في شعر ذى الرمة ، فهو يمدح بالتقوى ويهجو بالفضلال ، ودائماً يذكر في رحلاته الصحراوية التيمم والقصر في الصلاة وتلاوة آي الذكر الحكيم ، ويظهر أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالس الوعظ والمتكلمين في عصره ، حتى لراه يعتنق مذهب القندرية في العدل على الله جلّ جلاله وفي حرية الإرادة ، ويناقش رؤية في ذلك ويعلو عليه في نقاشه^(١) ، وما صدر فيه عن مذهبه قوله في الغزل :

وَعَيْنَانِ قَالَ اللَّهُ كَيْنَا فَكَانَتَا فَعَوْلَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ

وقد تعرض له بعض من سمعوه ينشده ، يقول : هلا قلت : فعولين ، وكأنه لم يلتفت إلى أنه يتحرّز بذلك من القول بخلاف العدل وأن عمل الإنسان وعمل جوارحه بإرادته . ويجمع معاصروه على أن كان ذكياً ذكاء حاداً وأنه كان كنزاً من كنوز الفطنة وذخائرها الدقيقة ، كما كان كنزاً من كنوز العلم بالشعر القديم واللغة ، وقد شُغف بشعر الراعي ، حتى قالوا إنه كان راويته

(١) أُمّال المرتضى ١٩/١

ولعله هو الذى ألهمه عنايته بالصحراء ووصف مناظرها الطبيعية ، وقد مضى
يتغناها إلى أن دُفن في أحضانها سنة ١١٧ للهجرة .

وذو الرمة يتخلف في المديح والهجاء جميعاً عن فحول عصره أمثال الفرزدق
وجرير ، وكأن الطبيعة وما اقترن بها من حبه لم يُبقيا فيه بقية . ومُلهمته الأولى
في الديوان مَيَّة بنت طُلُبَّة بن قيس بن عاصم ، فقد رآها في بعض رحلاته ، فشغفت
قلبه حباً ، وظل يتغنى باسمها وحبها في كل مكان . وفي الديوان أخرى تسمى
خرقاء ، ولعله كان يكنى بها عن مية ، وإن كان من الرواة من زعم أنها امرأة
أخرى . وحبُّ ذى الرمة حب عفيف كله أنين وزفرات ودموع وحنين بالغ
من مثل قوله :

وقفتُ على رُبْعٍ لَمِيَّةٍ ناقتي فمازلتُ أبكى عنده وأخاطبه
وأُسقيه حتى كاد مما أبثُّه تكلمنى أحجارُه وملاعبه^(١)

وقوله :

وحبُّها لى سوادَ الليل مرتعداً كأنها النار تحبوثم تلتهب

وقوله :

أداراً بِحُزْوَى هِجَتِ للعَيْنِ عبرةً فماءُ الهوى يرفضُ أو يترقرقُ^(٢)

وقوله :

أَجَلْ عِبْرَةٌ كَادَتْ لِعِرْفَانٍ مَنْزِلِ لَمِيَّةٍ لو لم تُسهلِ الماءَ تَذَبَحُ

ولعل شاعراً عربياً لم يكثر من وصف دموعه كما أكثر ذو الرمة ، وعبثاً
كان يطنى بها نيران الحب المندلعة في قلبه لمية ، وقد مضى يتعزى عنها بمحراها
الذى كانت تعيش فيه ، فإذا هو أكبر شاعر يتغنى بالصحراء العربية ، وحقاً
كان الشعراء قبله وحوله يصفونها ، ولكنه امتاز منهم بأنه عشقها ، عشق أيامها
ولياليها ورمالها وكتبانها وآجامها وأعشابها وأشجارها وحيوانها الأليف والوحشى

(١) أسقيه : أدعوه له بالسقيا . يسيل . يترقرق : يسكن في العين جانلاً .

(٢) حزوى : موضع بديار تميم . يرفض :

وكل ما يُطَوَّى فيها من آبار وسمايم وسراب وطير ورياح وكل ما يلعب في سمائها من كواكب ونجوم وسحاب وغيوم .

وكأنما وجد ذو الرمة عشقه الحقيقي في الصحراء ، فإذا هو ينقل مناظرها إلى شعره في لوحات رائعة ، وارجع إلى القصيدة الأولى في ديوانه التي يفتتحها بوصف دموعه التي تسيل دائماً ولا تفر ، إذ يقول :

ما بال عينك منها الماء ينسكب

كأنه من كل مفرية سرب^(١)

فإنك ستراه يخلص محبوبته بنحو عشرين بيتاً ، ثم يمضي في نحو مائة بيت يصور ثلاثة مشاهد رائعة من مشاهد الصحراء التي كانت تهيج نفسه ، أولها مشهد أتت الوحش وحمارها ، وهو يقودها في يوم حار إلى ماء بعيد ، تصل إليه ، وتهوى عليه تريد أن تشفى غلتها ، فيتعرض لها صائد مختف وراء الأشجار بسهامه ، فتفر على وجهها ، وتطيش سهامه ، ودائماً تطيش هذه السهام في شعر ذي الرمة حباً للحيوان . والمشهد الثاني مشهد ثور الوحش في كناسه مكتنئاً من المطر ، وقد ترامت حوله حنادس الليل وسواسه ، وتفتلت أضواء الصباح فيخرج من كناسه للرعى وإذا بصائد قد أرسل عليه كلابه ، فيمزقها إرباً ، وينكشف عنه همه وروعه . والمشهد الثالث مشهد الظليم وصاحبه يريان بعيداً عن أفراخهما ، ويكفهر الجو ، فيسرعان إليها خيفة أن يسقط عليها برْدُ السماء أو بعض السباع . وذو الرمة في المشاهد الثلاثة يشبه الرسامين الذين يحشدون في لوحاتهم جميع الجزئيات والتفاصيل ، فهو يحسم صورة الحيوان وصورة الصحراء من حوله برمالها ومفازاتها وأعشابها ونباتاتها وغدائها ، وهو إلى ذلك يبت في الحيوان مشاعر الإنسان وما يعتريه من وساوس وهواجس . وقد صور في الثور حين هاجمته الكلاب شعوره بعزته وكأنه يمثل فيه البدوي وإحساسه بكرامته ، كما صور في الظليم وصاحبه عاطفة الأبوة والأمومة الرحيمة . ولعل هذه أهم خاصية تميز وصف الحيوان الوحشي عند ذي الرمة إذ يحمله

(١) الكل: الرقع في عروة المزادة. مفرية : الجالية التي لا تني ترسل الماء . مقطوعة ، يشبه عينه التي يسيل دمعها برقع المزادة

عواطف الإنسان ومشاعره ، ومن أروع ما يصور ذلك عنده قوله في ظيية وابنها أو خشفها :

إذا استودعته صمغاً أو صرمةً تنحّت ونصّت جيدها بالمناظر^(١)
حذاراً على وسنان يضرعه الكرى بكل مقيل عن ضعاف فواتر^(٢)
وتهجره إلا اختلاسا نهارها وكم من محب رهبة العين هاجر
حذار المنايا رهبة أن يفتننها به وهى إلا ذاك أضعف ناصر^(٣)

وواضح أنه صور محبة الطبيعة لابنها وكيف تخشى عليه السباع ، فهي تبعد عنه حتى لا تدهس عليه ، وعينها مشدودة إليه ، وقد امتلأ قلبها بالحنان والحب والشفقة . وعلى هذا النحو كان يبت في الحيوان مشاعر الإنسان وأحاسيسه .

وبجانب هذه الخاصة في وصف الطبيعة الحية نجد خاصة أخرى في وصف الطبيعة الصامتة : إذ ملأها بالحياة والحركة ، ولكن كيف يأتي بذلك في خمود الصحراء وهمودها ؟ لقد استعان في النهار بالسراب ، فإذا ذرى الجبال تتحرك كأنها خيل ظالعة أو إبل تهدى للنحر عند البيت الحرام ، أو لعلها سفن تجرى في الفرات ، أما إذا جنّه الليل فحسبه النجوم التي يرى فيها صورة بقر الوحش والظباء . وجعله هذا التمثل لما يجري في الأرض والماء والسماء يقع على صور فريدة من مثل قوله في وصف ظباء تبدوله من آفاق بعيدة :

كأن بلادهن سماء ليل تُكشّف عن كواكبها الغيوم
وقوله في ظباء أخرى :

كأن أذمانها والشمس جانحةً ودّع بأرجائها فض ومنظوم^(٤)

وقوله في وصف الإبل ورحلتها في الصحراء :

كأن مطايانا بكل مفازة قراقير في صحراء دجلة تسبح^(٥)

(١) الصفصف : الأرض المستوية . صرمة : (٢) يفتن . يسبقها .

رمة . نصت : نصبت مستقصية . (٤) الأدمان : الظباء ، فض : متفرق .

(٢) الكرى : النوم . المقييل : وقت القيلولة . (٥) القراقير : السفن .

وفى الحق أن مخيلته كانت حاملة، إذ ما تزال تبدو له الطبيعة فى رؤى غريبة، وهى رؤى ملأت جوانب ديوانه بتجسيمات وتشخيصات بديعة من مثل قوله :

وريجُ الخُزَامى رَشَّها الطَّلُّ بعدما دَنَا الليلُ حتَّى مَسَّها بالقَوادم^(١)
وقوله :

أَلَا طَرَقَتْ مَيَّ هَيُومًا بِذِكْرِهَا وَأَيْدَى الثَّرِيَّا جُنْحٌ فى المِغَارِبِ^(٢)
ومن صوره الطريفة صورته للحرباء ووصفه لما اشتهر به من استقبال الشمس لاجئاً بظهره إلى بعض العيدان ماداً يديه كأنه مصلوب، يقول :

إذا جَعَلَ الحَرْبَاءُ يَغْبِرُ لـونَه وَيَخْضِرُ من لَفْحِ الهَجِيرِ غَبَاغِبُهُ^(٣)
وَيَشْبَحُ بالكَفَّينِ شَبْحًا كَأَنَّهُ أَخُو فَجْرَةٍ عَالَى بِهِ الجِدْعُ صَالِبُهُ^(٤)

وعنى طويلاً بوصف همس القلوات وما يُسمع فى حنادسها من أصوات مدوية كانوا ينسبونها إلى الجن، ونراه يشبها بتراطن الروم وتَضْرِبُ الطَّبْلُ وصياح الضرائر وأصوات السم^(٥). ومن أهم ما يميزه عنصر المفاجأة فى صوره، وهو عنصر جعله يقرن الأشياء المتباعدة بعضها إلى بعض، فنصبح وكأننا حقاً فى عالم من عوالم الرؤى والأحلام.

٦

الرُّجَّاز

الرَّجَزُ من البحور القديمة فى الشعر العربى، فقد كان يُسْتَعَدُّ بِكَثْرَةٍ فى العصر الجاهلى، وهى كمرّة توكّد أنه كان الوزن الشعبيّ العام الذى يدور على

- (١) القوادم : الريش الطويل فى جناح الطائر .
(٢) الهيوم : ذاهب العقل ، وأراد بأيدى الثريا أوائلها .
(٣) النباغب : الجلد أسفل الخنك ،
(٤) يشبح : يمد يديه .
(٥) الحيوان ٦/١٧٥ وما بعدها ، ٢٤٧ ، ٣٦٣ .

كل لسان ، ومن ثمّ قلما وجدنا شعراءهم المبرزين ينظمون فيه وكأنما تركوه للجمهور يتعهده ويرعاه .

وليس ذلك كل ما نلاحظ في شعبيته الجاهلية ، فقد دخلت فيه صور كثيرة من الزحاف ، لا تلقانا في أى وزن آخر ، فكثُر فيه المشطور والمهوك ، وأيضاً فإنه لم يَطُلْ إذ كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادراً ، فهو مقطوعات قصار ، ينظمها كثيرون معروفون ومجهولون ، حين يحدون بعبير وحين يحاولون في ميادين الحروب ، وحين يتناولون أى عمل كحَقَر بئر أو مَنَعَ منها .

وعلى هذا النحو كان أبياتاً قليلة تُنظَّم بديهة وارتجالاً مقترنة بأعمالهم وحركاتهم السريعة والبطيئة ، ومن ثمّ قيل إنهم حاكوا به وقع أقدام إبلهم في سيرها وسراها ، وهيأه ذلك لأن يكون من أكثر الأوزان وأوفرها لحناً ونغماً لاقتراحه بالحركة الدائبة . وأول من أطاله وجعله كالقصيد شاعر مخضرم استشهد بموقعة نهاوند سنة ٢١ للهجرة هو الأغلب^(١) العجلى ، ولا نتقدم في عصر بنى أمية ، حتى يتكاثر من يحاكيه . وحتى يقتصر بعض الشعراء النابيين حياتهم على تجويده وتحبيره ، وهم في ذلك فريقان : فريق يجمع بينه وبين القصيد ، وفريق لا يجاوزه ، ولسنا نقصد بالفريق الأول من نظموا بعض أراجيز قليلة مثل جرير وذى الرمة ، إنما نقصد من أكثرها منها . ونظموا بين الحين والحين بعض القصيد . وقد أخذت الأرجوزة - حين طالت - تتناول كل أغراض القصيدة وتجرى على نمطها من الحديث عن الأطلال ووصف الرحلة في الصحراء والمديح والهجاء والفخر ، فهي لا تختلف غالباً عنها في النظام وسرّد الموضوعات المتنوعة . ومضت تنزحسها حتى غلبتها في باب الصيّد بالجوارح ، إذ نجد غير شاعر ينظم في هذا الباب أراجيز كثيرة ، منهم الشَّـمـرْدل بن شريك التميمي الذي عرضنا له بين شعراء اللهو والمجون وفيه يقول صاحب الأغاني : « كان الشَّـمـرْدلُ صاحب قَنَص وصيد بالجوارح وله في الصَّقَر والكلب أراجيز كثيرة^(٢) » ويسوق له أرجوزة يستهلها على هذا النمط :

ص ٥٧١ وما بعدها والموشح ص ٢١٣ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٣٦١/١٣ .

(١) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٥٩٥/٢

والأغاني ١٦٤/١٨ والخزانة ٣٣٢/١ وأسد

الغابة ١٠٥/١ والإصابة ٥٦/١ وابن سلام

قد أغتدى والصبحُ في حِجابِهِ والليلُ لم يَأُوْ إلى مآبِهِ
وقد بدا أبلقَ من مُنْجابه بتوجيٍّ صاد في شِبابِهِ^(١)
مُعَاوِدٍ قد ذلَّ في إصعابه قد خرق الضُّفَارَ من جذابه^(٢)
وعرفَ الصوتَ الذي يُدْعَى بِهِ ولعةَ المُلمعِ في أنْوابِهِ^(٣)

ويلقانا بأخرة من العصر أبو نُخَيْلَةَ^(٤) ، وهو مثل الشمر دل كان يجمع بين
الرجز والقصيد ، ويقول ابن المعتز : « له في الطَّرْدِ أراجيز كثيرة مشهورة ...
وأعاجيبه في القَسْنَصِ وغيره كثيرة » وقد ساق له أطرافاً من تلك الأراجيز ،
ولعل في هذا ما يوضح الفكرة التي كانت تزعم أن أبا نواس أول من فتح هذا
الباب . وربما كان أهم من جمع بين الرجز والقصيد في هذا العصر أبو النجم
العجلي ، وسنعرض له عما قليل .

ويلقانا كثيرون لا يتجاوزون الرجز إلى القصيد ، منهم دُكَيْنُ^(٥) بن رجاء
الفُقَيْمِيُّ ودُكَيْنُ^(٦) بن سعيد الدارمي ، وقد خلط بينهما ابن قتيبة كما لاحظ
ياقوت في معجمه ، ومنهم الزَّفْيَانُ^(٧) السعدي التيمي ، وأبرزهم جميعاً العَجَّاجُ
وابنه رُوْبَةُ اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز ، ونقول صناعة ، لأن الرجز تحول
عندهما إلى صناعة لغوية ، فلم يعد يُقْصَدُ به إلى التعبير عن الأغراض الوجدانية
وحدها ، بل أصبح يُقْصَدُ به أيضاً إلى التعبير عن غرائب اللغة ، وشركتهما في
ذلك من بعض الوجوه أبو النجم ، ولكنه لم يُبْعَدَ في الإغراب إبعادهما .

(٥) انظره في معجم الأدباء (طبع مصر)
١١٣/١١ والشعر والشعراء ٥٩٢/٢ وتهذيب
ابن عساكر ٢٤٧/٥ .

(٦) راجع معجم الأدباء ١١٧/١١ وابن
عساكر ٢٤٨/٥ والشعر والشعراء ٥٩٢/٢
وانظر الهامش .

(٧) راجع معجم المرزباني ص ١٤٩ وقد نشر
الوارد ديوانه في مجموع أشعار العرب ، الجزء
الثاني .

(١) أبلق: فيه سواد وبياض. منجابه: مكان
انكشافه. التوجي: الصقر ينسب إلى توج
من قرى فارس .

(٢) خرق: شق. الضفار: الجبل يشد به .

(٣) الملمع: المثير بثوبه .

(٤) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٥٨٣/٢

والأغاني (سأسي) ١٣٩/١٨ والخزانة ٧٨/١

وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف)

ص ٦٢ وما بعدها والموضح ص ٢١٩ .

ونحن نجد هذه الرغبة في العناية بالغريب عند كثير من الشعراء ، مثل الطَّرِمَّاح والكُمَيْت ، وقد عرضنا لهما في غير هذا الموضع . واشتهر شُبَيْل بن عَزْرَةَ الضُّبَيْعِيّ بأشعار له بناها على اللفظ الغريب ^(١) . وهو اتجاه تعليمي نظن ظناً أن الذى دعا إليه عناية الأجانب بتعلم العربية فهو ض طائفة من العلماء بجمع اللغة وشواردها ، وقد انبرى العَجَّاج وابنه رُوْبَة يجمعان لهم في شعرهما هذه الشوارد حتى تحوّل ديوانهما إلى معجمين للغرائب اللغوية ، وهما بحق يُعَدَّان أهم من هَيَّيَّا لتحول الرجز من شعبيته القديمة إلى بيئة المثقفين ، وسرعان ما استغله العباسيون في شعرهم التعليمي الذى صنفوا فيه أهل المقالات وتحدثوا عن عجائب الخلق وقصّوا وساقوا الحكم والأمثال ^(٢) .

أبو النجم ^(٣) العِجْلِيّ

من أهل الكوفة ، وكانت فيه فكاهة ، فقرب من نفوس الولاة والأمراء والحلفاء ، وله فيهم أمداح كثيرة ، إذ نراه يمدح الحجاج وغيره من ولاة العراق كما يمدح سليمان بن عبد الملك وهشاماً ، وقد أقطعه الأخير بالكوفة أرضاً تسمى الفِرْك ، كان ينزل بها . وفي أخباره أنه قدم على زياد بن أبيه فرهبه رهبة شديدة ، وخرج من عنده ، وهو يقول ^(٤) :

أَقْبَلْتُ من عند زيادٍ كالخَرْفِ تَخْطُ رِجْلَايَ بَخْطٍ مُخْتَلَفٍ
تَكْتَبَانِ في الطريق لَامَ أَلْفٍ

وفي ذلك ما يدل على أنه كان كاتباً . ويُجمَع الرواة على أنه كان سريع اليدوية في صنع الشعر ونظمه ، ومن ثَمَّ كان يغلب الشعراء والرجّاز حين

والموشع ص ٢١٣ والشعر والشعراء ٥٨٤/٢
وأغاني دار الكتب ١٥٠/١٠ والخزانة
٤٨/١ ، ٤٠١ والمبرد ص ٤٨٥ وما بعدها
ومعجم الشعراء ص ١٨٠ .
(٤) الخصائص لابن جني (طبع دار الكتب)
٢٩٧/٣ .

(١) البيان والتبيين ٣٤٣/١ وانظر كتاب
المكاثرة عند المذاكرة للطلياسي (فشر
جاير) ص ٤٠ .
(٢) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر
العربي (طبع دار المعارف) ص ١٣٩ وما بعدها .
(٣) راجع في أبي النجم ابن سلام ص ٥٧٦

يَسْتَبِقُونَ فِي مَوْضُوعٍ يَطْرَحُهُ خَلِيفَةُ أَوْ وَالٍ ، وَيُظْفَرُ بِالْجَائِزَةِ مِنْ دُونِهِمْ ، وَيَقُولُ
ابن سلام : إِنَّهُ أَبْلَغُ فِي النَّعْتِ مِنَ الْعَجَاجِ . وَأَمَّا أَرَاغِيزُهُ لِامِيَّتِهِ الَّتِي يَسْتَهْلِكُهَا
بِقَوْلِهِ (١) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَهَّابِ الْمُجْزِلِ أَعْطَى فَلَمْ يَبْخُلْ وَلَمْ يُبْخَلْ

وَالْأَرْجُوزَةُ بَعْدَ ذَلِكَ تَفِيضٌ بِالْغَرِيبِ فِي وَصْفِ الْإِبِلِ وَمَرَاعِيهَا ، وَكَانَ
رُؤْيَا يَسْمِيهَا أُمُّ الرِّجْزِ اسْتِحْسَانًا لَهَا وَإِعْجَابًا بِهَا . وَيُرْوَى أَنَّ الْعَجَاجَ غَدَا عَلَى
النَّاسِ بِالْمِرْبَدِ يَنْشُدُهُمْ أَرْجُوزَتَهُ الْمَشْهُورَةُ « قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الْإِلَهَ فَجَبَرَ (٢) » وَقَدْ
ضَمَّنَهَا هِجَاءَهُ لِرَبِيعَةٍ ، فَاسْتَعَدْتُ عَلَيْهِ رَاجِزَهَا أَبَا النِّجْمِ ، فَبَادَرَهُ يَنْشُدُ أَرْجُوزَتَهُ
« تَذَكَّرَ الْقَلْبُ وَجْهَهَا مَا ذَكَرَ » حَتَّى إِذَا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ : « شَيْطَانُهُ أَثْنَى وَشَيْطَانِي
ذَكَرَ » تَعَلَّقَ النَّاسُ هَذَا الشَّطْرَ وَهَرَبَ الْعَجَاجُ عَنْهُ . وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُرْوَى مِنْ
أَرَاغِيزِهِ أَرْجُوزَتَهُ فِي وَصْفِ فَهْرٍ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ بَشْرِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَهُوَ يَسْتَهْلِكُهَا
بِقَوْلِهِ :

إِنَّا نَزَلْنَا خَيْرَ مَنَزِلَاتٍ بَيْنَ الْحُمَيْرَاتِ الْمُبَارَكَاتِ
فِي لَحْمٍ وَحَشٍ وَحُبَارِيَّاتٍ وَإِنْ أَرَدْنَا الصَّيْدَ ذَا اللَّذَاتِ (٣)
جَاءَ مُطِيعًا لِمَطَاوِعَاتِ عُلْمَنَ أَوْ قَدْ كُنَّ عَالِمَاتِ
فَهَى ضَوَارٍ مِنْ مَضَرِّيَّاتِ تُرِيكَ آمَاقًا مَخْطَطَاتِ
سُودًا عَلَى الْأَشْدَاقِ سَائِلَاتِ تَلَوَى بِأَذْنَابِ مَوْقِفَاتِ

وَكَثِيرٌ مِنْ رَجْزِهِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ لَا يُبْعَدُ فِيهِ وَلَا يَغْرِبُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ
الْحَقِّ أَنَّهُ « كَانَ يَتَوَسَّعُ فِي الْكَلَامِ وَيَحْمِلُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ وَيَشْتَقُّ بَعْضُهُ مِنْ
بَعْضٍ (٤) » ، وَلَكِنَّهُ يَظَلُّ قَرِيبًا مِنَّا فِي جَمْهُورِ رَجْزِهِ ، وَخَاصَّةً حِينَ يَعْمَدُ إِلَى
التَّنْدُرِ وَالِدَعَابَةِ ، عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ يَوْصِي ابْنَتَهُ « بَرَّةَ » عِنْدَ زَوَاجِهَا :

(١) نُشِرَ هَذِهِ اللَّامِيَّةُ عَبْدَ الْعَزِيزِ الْمِصْنِيَّ فِي « الطَّرَائِفِ الْأَدَبِيَّةِ » طَبَعَ لَجْنَةُ التَّأْلِيفِ وَالتَّرْجُمَةِ وَالنَّشْرِ ص ٥٥ .
(٢) جَبَرَ الثَّاقِفَةُ بِمَعْنَى الْفَجَرَ .
(٣) حُبَارِيَّاتٍ : جَمْعُ حُبَارَى وَهُوَ طَائِرٌ .
(٤) الْخَصَائِصُ ١ / ٢٣٠ .

أوصيتُ من بَرَّةٍ قلباً حُرّاً بالكلب خيراً والحماة شراً
لا تسأى ضَرْباً لها وجراً حتى ترى حُلُوَ الحياة مُراً
وإن كستك ذهباً ودُراً والحي عُميهم بشرٌ طراً

وكان يمثل هذه الدعابة يخف على قلوب الولاة والخلفاء ، فيفسحون له
في مجالسهم ويجزلون له العطاء .

العَجَّاج^(١)

هو عبد الله بن رُوْبَة التميمي ، نشأ في البادية ونزل البصرة ، وكان دائب
الرحلة إلى منازل قومه في الصحراء ، وقد سَخَّرَ أراجيزه منذ يزيد بن معاوية في
مديح الخلفاء ، وخاصة سليمان . وفراه ينظم بلسان قومه في خصومتهم للأزد عقب
وفاة يزيد بن معاوية ، ولما ولي مصعب العراق لأخيه عبد الله بن الزبير لزمه
ومدحه وهجا المختار الثقفي ، حتى إذا قتله عبد الملك بن مروان رأيناه يسارع إلى
صفوف المروانيين ، فيمدح بشر بن مروان وإلى العراق وأخاه عبد العزيز وإلى
مصر ، كما يمدح عمر بن عبيد الله بن معمر مشيداً بانتصاره على أبي فُدَيْك زعيم
النَّجْدَات من الخوارج ، ويمدح أيضاً الحجاج ويهجو خصومه من مثل ابن
الأشعث . وكانت فيه عصبية لقومه جعلته يضطرب فيما يضطربون فيه من
خصومات قبلية ، ومراً بنا وقوفه بالمربد يهجو ربيعة ، وكيف اقتص منه
أبو النجم . واشتهر بأنه لا يحسن الهجاء ، وسُئِلَ في ذلك فقال : هل في الأرض
صانع إلا وهو على الإفساد أقدر .

وأراجيزه مليئة بأوايد اللغة وشواردها التي ينثرها ، بل يضمها بعضها إلى
بعض ، في وصف الطبيعة الصحراوية بمناهلها وغدرانها ورمالها وكُثْبَانِها ونباتاتها
وحيوانها الوحشي والأليف ، وكل ما يجري في أرضها من رياح وسموم وطير وفي

٣٩٤/٧ وفهارس البيان والتبيين والخصائص لابن
جني والمزهر السيوطي (طبعة الحلبي) وقد نشر الوارد
ديوانه في مجموع أشعار العرب ، الجزء الثاني .

(١) انظر في العجاج الشعر والشعراء ٥٧٢/٢
والموشح للمرزباني ص ٢١٥ وما بعدها وشرح
شواهد المغني ١٨ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر

سمائها من كواكب ونجوم . وهو يُعمَدَ بحق أول من فسح طاقة الرجز وجعله يخوض في كل ما تخوض فيه القصيدة العربية الطويلة . وهو أيضاً أول من دفعه بقوة من الميادين الشعبية إلى ميدان الغرابة اللفظية ، ولم يكتف بذلك ، فقد أخذ يقيس في اللغة ويكثر من القياس ، ويتصرف حسب ذوقه وإرادته الفنية . ولم يقف في ذلك عند ألفاظ اللغة العربية وحدها ، إذ كان يعتمد إلى بعض الألفاظ الفارسية فيعرّبها ، وقد يصرف منها أفعالا ، على نحو ما صنع في أرجوزته الجيمية ، إذ يلقانا فيها هذا الشطر : « كما رأيت في الملاء البرّ دجّاً » يريد الرقيق ، وقال : « كالحبشي التفّ أو تسبّجاً » يريد لبس قميصاً ، وهو بالفارسية شبي ، فعربّه بسبيجة ، ثم صرف منه فعلا في بعض أبياته (١) .

ونراه يلتزم في أرجوزته الموقوفة أو المختومة بالسكون أن يكون موضع الروي في الإعراب واحداً ، بحيث لو أُطلقت قوافيها تحركت جميعاً بحركة واحدة ، على نحو ما يلاحظ ذلك في أرجوزته الطويلة « قد جبر الالين الإله فجبر » ، وهي في نحو مائتي بيت ، ولو أُطلقت قوافيها كانت كلها منصوبة (٢) . ومن طريف ما كان يأخذ به نفسه أحياناً أن نراه يعدل عن افتتاح بعض أرجوزته بذكر الأطلال ووصف الصحراء إلى الحمد والثناء على الله ، وقد يسترسل في ذلك استرسالاً ، فتصبح الأرجوزة موعظة تامة ، على شكلة أرجوزته :

الحمدُ لله الذي استقلّتْ بإذنه السماءَ واطمأنّتْ

وقد تحدّث فيها عن خلق السموات والأرض ، والبعث والنشور ، وما أفاء الله عليه من نعمه ، وقلقه على مصيره ورجائه في ثوابه . وهو في ذلك يتأثر مباشرة بمواعظ الوعاظ من حوله أمثال الحسن البصري وغيره وقد توفي سنة ٩٧ للهجرة . وتُنسَبُ له أرجوزة في مديح يزيد بن عبد الملك ، وإن صحت يكون قد لحق أوائل القرن الثاني حين كان يزيد خليفة ، وهو على كل حال مات عن سن

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه (طبعة الحلبي) (٢) انظر الأغاني (طبع ساسي) ١٨/٦٠

والخصائص ٢/٢٦٠ .

ص ٤٦١ وما بعدها .

عالية . ونراه في أراجيزه يكثر من بكاء الشباب وتصوير شيخوخته وضعفه ،
من مثل قوله :

إِذَا تَرِينِي أَصِلُ الْقُعَادَا وَأَتَقِي - أَنْ أَنْهَضَ - الْإِرْعَادَا^(١)
مَنْ أَنْ تَبَدَّلْتُ بَادِي آدَا لَمْ يَكْ يَنْآدَ فَأَمْسَى اِنْآدَا^(٢)
وَقَصْبَا حُنِّيَ حَتَّى كَادَا يَعُودُ بَعْدَ أَغْظُمِ أَعْوَادَا^(٣)

والجناس واضح في البيت الثاني ، وهو يشيع في أراجيزه ، لكثرة ما كان
يُعْنِي به من الإتيان بالمصادر وأفعالها ومشتقاتها ، على نحو ما صنع هنا في
الآد وانآد ، وقد جانس في البيت الثالث بين يعود وأعواد . وكثيراً ما نراه يشتق
من الأسماء الجامدة أفعالا ومشتقات ، أو يأتي ببعض المزيادات من الحروف ،
وكل ذلك بقصد الإغراب ، كأن الإغراب أصبح عنده يُقْصَد لذاته ، فإن
فاته في اللفظ نفسه أتى به فيما يضعه من صيغ جديدة .

رُؤْيَا^(٤)

سمّاه أبوه العجاج باسم جدّه ، وقد وُلد له حوالي عام ٦٥ للهجرة ،
ويظهر أنه عُنِيَ به منذ صغره ، وأنه ما زال به حتى استيقظت شاعريته مبكرة ،
إذ نراه يفد معه على الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) ، ونراه في رفقة
الشعراء الذين حجوا مع سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين^(٥) . ويظهر
أنه كان يولع بالرحلة منذ شبابه إلى الشرق ، فينزل تارة السند وتارة خراسان .

١٢٤/١٨ وما بعدها و ٥٧/٢١ والخزانة
٤٣/١ ومعجم الأدباء ١١/١٤٩ وابن خلكان
وتهذيب التهذيب ٣/٢٩٠ ولسان الميزان ٢/٤٦٤
والموشح ص ٢١٩ وابن عساكر ٥/٣٢١ وكتابتنا
« التطور والتجديد في الشعر الأموي » ص ٣٤٠ .
وقد نشر ديوانه آلوارد ونحسه بالجزء الثالث
من مجموع أشعار العرب .
(٥) طبري ٥/٣٠٥ .

(١) القعاد : جمع قاعد ، يريد أنه يكون
منهم ويفعل فعلهم .

(٢) الآد : القوة كالآيد . انآد : اعوج
وانحنى .

(٣) القصب : كل عظم ذي مخ . حتى :
دق ، يريد أن عظمه ومن .

(٤) انظر في ترجمة رؤْيَا الشعر والشعراء
٥٧٥/٢ وابن سلام ص ٥٧٩ والأغاني (ساسي)

ومنذ أوائل القرن الثاني يلزم ولاية العراق يمدحهم ، يمدح أولا مسلمة بن عبد الملك ويشيد بانتصاراته على الأزدي وصاحبهم يزيد بن المهلب ، ويحتز في هذه الإشادة عصبية عنيفة لقومه تميم ، وقد مضى يمدح هريم بن أبي طحمة المجاشعي أحد قوادهم الذين أبلوا في القضاء على يزيد وثورته . وتلقانا في ديوانه أراجيز كثيرة في مديح خالد القسري وولاته وفي مديح كثير من رجالات العراق أمويين وغير أمويين ، نذكر منهم المهاجر بن عبد الله وإلى اليمامة، وبلال بن أبي بردة الأشعري نائب خالد على البصرة، وأبان بن الوليد البجلي نائبه في شئون الحجاج ثم وإلى فارس ، والحكم بن عبد الملك بن بشر بن مروان، وحرب بن الحكم بن المنذر بن الجارود، وعمر بن عتبة بن سعيد بن العاص . ويقدم على الوليد بن يزيد بن عبد الملك فيمدحه ، ويمدح مروان ابن محمد آخر خلفائهم ويلج في هجاء خصومه المارقين . وينزل خراسان . فيمدح نصر بن سيار ويحذره من أبي مسلم الخراساني في غير أرجوزة .

وجعله هذا الموقف من مناصرة الأمويين يستشعر غير قليل من الخوف والوجل حين تحولت مقاليد الأمور إلى العباسيين ، ويحاول أبو مسلم الخراساني أن يذهب عنه روعه . وكذلك يصنع أبو العباس السفاح . وله في مديحه أرجوزة طويلة إذ امتدت إلى أربعمئة بيت ، ويمدح من بعده أبا جعفر المنصور . وهو في أثناء ذلك كله مقيم بالبصرة ، حتى إذا ثار بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رأيناه يخاف على نفسه ، ويخرج إلى البادية ، ليتجنب الثورة ، وسرعان ما يلبي نداء ربه سنة ١٤٥ للهجرة .

ومر بنا أنه كان جبرياً ، يؤمن بأن عمل الإنسان قدره مقدور عليه لا مفر منه ، مما جعله يناقش ذا الرمة في مذهبه القدرى على نحو ما أسلفنا . والروح الإسلامية قوية في شعره ، ويقول بعض من ترجموا له إنه كان يتأله . وعنده انتهى فن الرجز إلى كل ما كان ينتظره من وعوثة وصعوبة لغوية ، إذ تحول به يرضى اللغويين من حوله ويقدم لهم كل ما كانوا يطلبونه من الشواذ اللغوية في الألفاظ وأبنيها وهيئاتها وما قد يحدث في بعض الحروف كالهزمة من إعلال ، وكأنما تحول معيناً لا ينفد للأوابد والشوارد ، ومن ثم غدت الأرجوزة

عنده وكأنها متن لغوى معقد ، أو قل مستغلق ، تستغلق ألفاظه ، إذ يختارها من وحشى الكلام ، بحيث لا يفهمها إلا خاصة الخاصة من اللغويين الذين كانوا يأخذون عنه أمثال يونس وأبي عبيدة وخلف الأحمر وأبي عمرو بن العلاء . وهو لا يكتفى باستغلاق اللفظ من حيث وحشيته وغرابته ، فقد كان يضيف إلى ذلك زوائد تزيد استغلاقا ، زوائد من تغيير فى الحركات أو إعلال فى الحروف أو إتيان بصيغ جديدة فى التصريف بواسطة المصادر والجموع والأفعال ، كأن يقول فى مطلع قافيته المشهورة :

وقاتمِ الأعماقِ خاوى المُخترَقِ مُشتَبِهِ الأعلامِ لَمَاعِ الخَفَقِ^(١)

فقد حرك فاء الخفق الساكنة وجعلها مفتوحة للإتباع . ومن ذلك إضافة النون الساكنة إلى بعض قوافيه مثل « يا أبتا علك أو عسا كن » والإتيان بصيغة فيعمل بفتح العين فى قوله : « ما بال عيني كالشعيب العين » والقياس العين بكسر الياء مع التشديد^(٢) . وقرأ قوله فى وصف الليل :

وجلُّ ليلٍ يُحسبُ السَّدوسُ يَسْتَسْمَعُ السَّارى به الجُرُوسُ^(٣)
هَمَاهِمًا يَسْمَهَنُ أَوْرَسِيْسَا علوثٌ حين يخضع الرُّعُوسُ^(٤)
قَرَعُ يَدِ اللَّعَابَةِ الطَّسِيْسَا^(٥)

فإنك تراه يجمع جرساً على جروس ، فيغرب شيئاً ما ، ويعمد عمداً إلى ألفاظ غريبة يحشو بها وصفه من نحو السدوس والريسيس والرُعوس ، وجاء بالطست لا بصيغته المألوفة ، وإنما بصيغة الطسيس . وعنى بأن يلائم بين الروى

(٣) جل الليل : معظمه . السدوس : الطيلسان الأخضر . جروس : جمع جرس وهو الصوت

(٤) همام : جمع غمهمة وهى الصوت الخفى ، الرسيس : الحديث غير البين . الرعوس : الذى يهز رأسه فى نومه .

(٥) الطسيس : الطست ، يريد أن النوم يميل رأسه ويلعب به كايلاعب اللاعب بالطست .

(١) يتحدث رؤية عن فلاة . قاتم : أسود ، أعماق المغازة : أطرافها البعيدة . مخترق الرياح : مهبطها . خواؤه : خلوه . الأعلام : الجبال يهتدى بها ، يقول إنها متشابهة . لماع الخفق : السراب ، وخفقه : اضطرابه وتحركه .
(٢) راجع الخصائص ٣/ ٢١٤ ، وسيبويه ٢/ ٣٧٢ . الشعيب : المزادة والسقاء البالى . العين : سائل الماء .

والكلمات الداخلية في البيت ، إذ اختارها من ذوات السين . وهو مثل أبيه كان يُعْنَى بالجناس كثيراً في نظمه ، وخاصة جناس الاشتقاق .

واقراً في أراجيزه فإنك لا تستطيع أن تخرج من بيت إلى بيت إلا بعد أن تَعَكِّسه على فهمك مراراً ، وتعود إلى معاجم اللغة تكراراً ، وتنظر في سيبويه وغيره ممن عنوا بتوجيه الصيغ في شعره . ومن المؤكد أن أباه هو الذي فتح له هذا الباب ، ولكنه هو الذي انتهى به إلى هذه الصورة المتعمقة في الإغراب ، إذ كان يُكْثِر من القياس في اللغة والتصرف فيها بالتفريع والتوليد ، محاولاً أن يأتي بكل شاذة . وبذلك تحولت أراجيزه إلى متون لغوية كاملة ، وأخذ يفرع إليه الشعراء الذين كانوا يُعْنُونَ بإدخال الغريب من مثل الطَّرِمَّاح والكُمَيْت ، يأخذون منه الشيء بعد الشيء ليدخلوه في أشعارهم^(١) . وتحول إليه يونس وأضرابه من علماء النحو يسجلون رجزه وما يأتي به من مستغلاقات لغوية ، كان يحشدها في أراجيزه من أجلهم ، ونراه يصرح بذلك ، إذ يقول في أرجوزة له « يلتمس النحوى فيها قصدى » .

وعلى هذه الشاكلة اقترنت الأرجوزة عند رؤية بغاية تعليمية واضحة ، وهي غاية لم تلبث أن تحولت بها كما قدمنا إلى الشعر التعليمي الذي أخذ ينظمه الشعراء في العصر العباسي ، وكأنهم وجدوا في وفرة موسيقاها ما يتلافون به نقص المعاني الشعرية في هذا الضرب الجاف من ضروب الشعر . ومضى العباسيون يولدون من اتحاد مصاريعها صوراً جديدة من المزدوج والخمس . ونرى الأندلسيين حين يمتدحون الموشحات ويزاوجون فيها بين الأوزان ويخالفون بين القوافي يعتمدون في هذا الصنيع على نظام الأرجوزة في التصريح ، فيجعلون الشطر وحدة في الموشحة ، على نحو ما صنع رؤبة ورُجَّاز هذا العصر في أراجيزهم . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن الأراجيز وخاصة عند رؤبة هي التي ألهمت ابن دريد حكاياته في تعليم اللغة كما ألهمت بعد ذلك بديع الزمان الهمذاني والحريري صنع مقاماتهم المعروفة .

(١) الحصائص ٣/ ٢٩٧ .

الفصل السادس

الخطابة والخطباء

١

ازدهار الخطابة

أسهمت عوامل كثيرة في ازدهار الخطابة لعصر بني أمية ، إذ كانت لا تزال للعرب سلاقتهم اللغوية ولم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يَبْلُغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع .

وقد وقف الجاحظ طويلاً في كتابه البيان والتبيين يُشيد بقدرتهم الخطابية ، وبلغ من إشادته بهذه القدرة أن رفعهم في الخطابة على جميع الأمم ، حتى الفرس واليونان ، وهو محق في تقديمه لهم على الفرس ، أما اليونان فمن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً ، وأنه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين ، وتُوجَّ هذا النشاط بكتاب الخطابة لأرسططاليس . ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ومن ثم مضى يقدم الفرس على اليونان في الخطابة ، ومما لا شك فيه أنهم يتخلَّفون عنهم وعن العرب جميعاً في مضمار هذا الفن من فنون النثر القولي .

وعواملٌ مختلفة هيأت للخطابة العربية أن تبلغ في هذا العصر كل ما كان يُستَظَرُّ لها من نشاط وازدهار ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية ، ومن الممكن أن نردها إلى السياسة والمحافل والدين ، فأما من حيث السياسة فإن هذا العصر امتاز بظهور معارضة حادة فيه للدولة الأموية ، وهي معارضة كانت تدور كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع على الخلافة وهل تُقَصِّرُ على بني أمية أو

تكون حقاً شائعاً للمسلمين جميعاً ، أو تُردّ إلى بني هاشم وأبناء علي خاصة ، أو تكون حقاً للعرب ، فلا تختص بها قريش .

وكان الأمويون ولأنهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقرّون أنها حق لهم وأن الله اصطفاهم ليقودوا العرب والمسلمين ويحكموهم بشريعته . وانبرى لهم الخوارج يصيحون منذ خروجهم على علي بن أبي طالب بأن الخلافة حق عام للمسلمين ، يتولّاها خيرهم زهداً وتقوى وورعاً ، ولو كان غير قرشي ، بل لو كان غير عربي . ومضوا يحاجّون في أول الأمر عليّاً وابن عباس ، ثم أخذوا يحاجّون ابن الزبير ، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قِدَداً ، فكان منهم الأزارقة والنّجدات والصّفرية والإباضية ، وأخذ كل فريق يحتاج لرأيه مستعيناً بدقة مداخله في حجته .

ومنذ قيام علي بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناءه أصحاب الحق الشرعي في الخلافة . ويتوفّى علي ، فيدعون للحسن ، ويخيب ظنهم فيه حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية . ولا تهدأ ثائرتهم ، فيطلبهم زياد بن أبيه ، وقصته مع حُجْر بن عدى مشهورة . ويتوفّى معاوية ، فتكتب شيعة الكوفة إلى الحسين ، ويتجه إليهم ، ولكنه يُقْتَلُ بكرّ بلاء دون غايته . ويتوفّى يزيد ابن معاوية ، فتتشب حركة التوابين ، يقودها سليمان بن صُرْد : وتبوء بالخذلان . حينئذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثقفي ، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع عليه خلق كثير ، ويتجرد له مصعب بن الزبير : فيتّفى عليه قضاء مبرماً . وتمضى إلى القرن الثاني فيظهر زيد بن علي بن الحسين ، ويثور ، وسرعان ما يُقْتَضَى عليه .

ويتكون في هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير ، ويظل نحو ثمانى سنوات ، وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولّاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش ، لا هؤلاء الأمويون الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا هناك يحكمون الناس مستندين إلى القبائل الجنية الشامية . وبذلك ضاع الحكم من قريش ومن الحجاز جميعاً .

وكان كثير من سادة العرب وأسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغي أن لا تُقَصَّر على قريش وأن تُرَدَّ إلى العرب قاطبة ، وبلغ هذا الشعور قمته في الكوفة ، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكِنْدِي يعبر عنه في ثورته على الحجاج ، تؤيده بلده ، ولكن ثورته باءت بالفشل . ولا نصل إلى أوائل القرن الثاني حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب ، وتدور عليه الدوائر .

ودائماً تلقانا في صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة ، إذ يمتشق الخطباء ألسنتهم في تصوير مذاهبهم السياسية . يدعون لها ، كما يدعون للانتفاض على بني أمية . وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشغبهم وأنهم يتضلون الطريق . وكل ذلك هياً في قوة لنشاط الخطابة السياسية ، ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد في الجيوش الغازية شرقاً وغرباً ، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة . ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين على نحو ما مرَّ بنا في خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة ثانية سواء في الشام أو في الجزيرة . وكذلك خصومات تميم والأزد في البصرة ، وما اندلع من ألسنة هذه الخصومات جميعاً في خراسان . وهي — كما قدمنا — خصومات كانت تختلط فيها العصبية القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بني أمية ونُصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم .

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها إلى المحافل ووفودها وجدنا لذلك آثاراً قديمة منذ الجاهلية ، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وخاصة بعد فتح مكة . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار واستبحرت الدولة واتسعت كان يقدم على الخلفاء الراشدين من يبنونهم بالفتح ، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم في المصر الجديد . وندخل في عصر بني أمية ، فتتحول هذه الوفود إلى سيول ، تنقصد قصور الخلفاء وقصور الولاة ، متحدثة في شئون قومها ، واشتهر معاوية باستقدامه الوفود من الأمصار حين تمنع له فكرة سياسية كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده . وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها

في بيعة الخليفة الجديد وفي بَثَّ شكواها حين يلمَّ بها ما يوجب الشكوى. وانبثقت في هذه الأثناء خطب التهنة والتعزية . وكانوا يُسمَّون محافل هذه الوفود باسم المقامات ، وفي العادة كان ينوب عن القوم في هذه المقامات سيدهم الذي يصدر عن رأيه . ويتصادف في بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة ، حينئذ يتبارى خطباؤها ، ويحاول كل منهم أن يكون له قَصَبُ السبق في البيان والفصاحة .

وبجانب المحافل والسياسة دفع الإسلامُ إلى نشاط واسع في الخطابة ، إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين ، فأَيَّانَ ركَّزَ الإسلامُ أعلامه انتصبت المنابر في المساجد كي يعظ الخطباء الناس بالمواعظ الحسنة ، يُسمُّهم في ذلك الخلفاء والولاة ، وجمهور كبير من الخطباء . ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مستلهمة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكثر أفراد هذه الجماعة في كل مصرٍ ، وكثر بجانبهم جماعة من القصَّاص ، كانوا يقصون على الناس مازجين قصصهم بتفسير آي الذكر الحكيم وبكثير من مَخْلَفَات أهل الكتب السماوية وتراثهم الديني . وكانوا يستهون الناس بما يوردون عليهم من أخبار عجيبة ، وكان نفر منهم يقزى في هذه الأخبار تزييداً شديداً ، مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونسائها ينفرون منهم ، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفاءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والإضرار على خصومهم^(١) ، فارضين لهم رواتب ومكافآت شهرية^(٢) . ولعل من الطريف أن هؤلاء القصَّاص كانوا ينبئون في الجيوش لتحسيس الجند على القتال ، كما كان ينبث معهم جماعة من الوعاظ ، وفي الطبرى نصوص تدل على ذلك كثيرة ، إذ نجد عَتَّاب بن وَرْقَاء حين نازل شبيباً الخارجي يقصُّ على جنده محمداً لهم^(٣) كما نجد قتيبة بن مسلم في خراسان يسأل عن واعظ بجنده محمد بن واسع الأزدي الناسك المشهور^(٤) . ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة ، فقد كان الخوارج يذهبون نفس المذهب ، ومن كبار قصَّاصهم صالح بن مسرَّح الصنفرى ،

(١) انظر حاشية الولاة والقضاة للكندى ص ٣٠٤ وخطط المقرئى (طبعة بولاق) ٢٥٣/٢ (٤) البيان والتبيين ٣/٢٧٣ .
(٢) الولاة والقضاة ص ٣١٧ .
(٣) طبرى ٨٩/٥ .

وفي الطبري طَرَف من قصصه^(١) ، وكذلك كان يصنع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جَهَنَّم بن صفوان وصنيعه في فتنة الحارث بن سريج بخراسان^(٢) . وفي هذه البيئة الدينية ، بيئة الوعظ والقصص ، أخذ يتضح رُقُّ العقل العربي بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية ، فإذا جدل كثير ينشأ في مسائل العقيدة ، كمسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وهل يُعَدُّ المسلم مؤمناً وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية ، ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان مخيرٌ في الحياة أو مسيرٌ لا حول له ولا قوة . ومثل مسألة صفات الله ، هل هي عين الذات الإلهية أو غيرها ، وسرعان ما تكونت فرق الجسَّيرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع .

والمهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً في هذه المسائل العقيدية وهو جدال رَشَّح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، وهي مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة عقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقي . ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب ، بل كانت تُجادل أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية ، وكانوا يرونهم في جدالهم يستعينون بالمنطق اليوناني وبشعب مختلفة من الفلسفة والثقافات الأجنبية ، فطلبوا الوقوف على ذلك كله . وهم من هذه الناحية يُعَدُّون أسبق الطوائف العربية في معرفة شئون الفكر الأجنبي ودقائق احتجاجاته .

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام في عصر بني أمية ، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هي صور المناظرة والمحاورة ، وهي صور جديدة ضُمَّت إلى صور الخطابة السياسية والحفلية والدينية ، صور كانت تسعى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم مخدوعون فيما يذهبون إليه من آراء . وكان الناس يَحْشِدُونَ من حول أصحاب هذه الصور في حلقات ، يقف فيها المناظر ومعه أصحابه ، فيعلن رأيه ويدعمه بكل دليل ، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدَّمه ، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين . وسنرى مدى ما كان لهذه المناظرات من أثر في رُقِّ الخطابة رُقياً بعيداً .

(٢) طبري ٣/٦ وما بعدها .

(١) طبري ٥٠/٥ .

خطباء السياسة

نمت الخطابة السياسية في هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيماً ، إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة ، فأبان وليت وجهك في السلم والحرب وجدت الخطباء متراسين في صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم . وتموج كتب الأدب والتاريخ بما نشره من خطبهم وأقوالهم وارجع إلى الطبرى فستراه لا يعرض عليك أى رأى دون أن يشفعه غالباً بما خطب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده ، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما في رأيه من تمويه .

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينبرون للترويج لهذا الحزب ، أو تلك الثورة ، فللخوارج خطباؤهم ، وكذلك للشيعة وللزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار . وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بنى أمية من ذات أنه منهم أو من ولائهم وقوادهم . وهناك في أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء مفوهون يستحثون الجيوش على الجهاد في سبيل الله والتنكيل بأعدائهم تنكيلاً شديداً . وبذلك انتشرت الخطابة السياسية في كل مكان وعلى كل لسان .

ولعل حزباً لم يكثر خطباؤه كما كثروا في الخوارج ، إذ كانوا شديدي الحماسة لعقيدتهم : ولم يدعوا لها سراً كما دعا الشيعة في أكثر الأمر ، بل دعوا لها جهاراً ، شاهرين سيوفهم في وجوه بنى أمية وولاتهم . على أنه ينبغي أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا ، لأن الناس من غير بيتهم كانوا يتحرجون من روايتها ، إذ كانوا يرون فيهم ثواراً خارجين على الجماعة ، ويظهر أنهم أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها . ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ ، وأيضاً فإنها احتفظت ، وخاصة كتاب البيان والتبيين ، بأسمائهم ^(١) .

(١) البيان والتبيين ٢٤٣/١ وما بعدها

و ٣٦٤/٢ وما بعدها .

وأول من يلقانا من خطبائهم حَيَّان بن ظُبَيَّان السُّلَمي والمستورد بن عُلْفَة لعهد المغيرة بن شعبه في ولايته على الكوفة لمعاوية . ولا نلبث أن نلتقي بنافع ابن الأزرق وطائفة من زعمائهم لدى عبد الله بن الزبير يناظرونه حتى إذا لم يجدوه على رأيهم انصرفوا عنه إلى البصرة ، وهناك انقسموا — على نحو ما مرَّ بنا — إلى أزارقة ونسجديات وصُفْرِيَّة وإباضية ، وأسرع الأزارقة فأعلنوا ثورتهم وشهروا سيوفهم في وجوه ولاية ابن الزبير ثم من خلفهم من ولاية بني أمية ، وتصدَّى لهم المهلب ابن أبي صُفْرَة وقواد آخرون ، ومزَّقوهم شرَّ ممزَّق .

وقد ظلت نيران هذه الحروب مع الأزارقة مستعرة نحو خمسة عشر عاماً كانت تحدثم فيها المعارك الحربية واللسانية من الشعر والخطابة ، ومن أهم خطبائهم نافع بن الأزرق والزبير بن علي الذي وليهم بعد نافع وابن الماحوز ، وله خطب مختلفة يحرضهم فيها على القتال والاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . وتلقانا في خطبائهم نفس الروح التي وصفناها في أشعارهم ، إذ نراهم يدعون للترامي على الموت ترامي الفراش على النار غير آبهين بالحياة الدنيا ، لأنها حياة زائفة ، وهم يريدون الحياة الخالدة في الدار الآخرة . وهم إنما يحاربون في سبيل الحق ، يحاربون تلك الفئة التي ضلت في رأيهم ، وكل منهم يلتمس الشهادة ، يقول الزبير في بعض خطبه^(١) : « إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر ، وهو على الكافرين عقوبة وخزي » . وثقوا بأنكم المستخلصون في الأرض والعاقبة للمتقين » . فهم في رأيهم الفئة المحقة وخصومهم الفئة المبطلّة ، وهم المؤمنون حقّاً وغيرهم الكافرون ، وقتلاهم في الجنة أما قتلى غيرهم في النار ، وهم لذلك يطلبون الاستشهاد ، بل يطلبون العجلة إليه ، حتى يتخلصوا من الدنيا ومتعها الزائلة ، وكأنما يرون في الموت نفسه ضرباً من الغلبة على خصومهم الذين غلبوا على الدنيا ، ولا يريدون أن يغلبوهم أيضاً على الآخرة .

وإذا كنا لاحظنا في شعرهم تنفيراً من الدنيا ، حتى ليتحول في بعض جوانبه إلى موعظة خالصة فكذلك الشأن في خطبهم ، على نحو ما يلقانا في خطبة قَطَرِيّ ابن الفُجاءة قائدهم بعد الزبير بن علي ، وهو يستهلها على هذا النمط^(٢) :

(١) الكامل للمبرد ص ٦٤٠ . ٢٥٠/٢ والعقد الفريد ١٤١/٤ .

(٢) البيان والتبيين ١٢٦/٢ وعيون الأخبار

« أما بعد فإني أحدى ركم الدنيا فإنها حلوة خَضِرَة ^(١) ، حُفَّتْ بالشهوات ... مع أن امرأ لم يكن منها في حَبِيرة ^(٢) ، إلا أعقبته بعدها عِبْرَة ، ولم يلق من سَرَّائها بطناً ، إلا منحت من ضَرَّائها ظهراً ، ولم تَطْلُغْ غَبِيَّة ^(٣) رخاء ، إلا هطلت عليه مُزْنَة ^(٤) بلاء ، وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تسمى له خاذلة متنكرة ، وإن جانب منها اعذوب واحلّولى ^(٥) أمر عليه منها جانب وأوئى ^(٦) ، وإن آتت امرءاً من غضارتها ^(٧) ورفاتها نِعَمًا أرهقته من نوائبها نِقَمًا ، ولم يُمَسَّ امرؤ منها في جنتاح أمنٍ إلا أصبح منها على قِوادم ^(٨) خوف ، غَرَارَة غرور ما فيها ، فانية ، فان من عليها ، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى » .

وتمضى الخطبة وهي طويلة على هذا النحو من الوعظ والترغيب والترهيب ، وواضح ما فيها من جمال اللفظ وروعة أسره ، وقد اختار لها قطري السجع حتى يؤثر في نفوس سامعيه أقوى تأثير ، ولم يكتف بالسجع ، بل أضاف إليه التصوير ، كما أضاف الطباق ، حتى يبلغ كل ما يريد من تنميق معانيه . ومن اشتهر من خطباء الأزارقة عُبَيْدَة بن هلال اليَشْكُرى وزيد بن جُندب الإيادي وعبد ربّ الصغير .

ويلقانا بين خطباء الصُفْرى عمران بن حِطَّان وصالح بن مسرّح الذى كان يعظهم ويقص فيهم قصصاً كثيراً وكان في وعظه وقصصه يحمل على بنى أمية ومن معهم من الجماعة الإسلامية حملات شعواء ، حتى إذا بلغ من إثارة أصحابه في الجزيرة والموصل ما أراد خرّج على الحجاج ، وقتل ، فخلفه شبيب الذى دوّخ مجيوش الحجاج طويلاً ، ومن قول صالح في بعض مواعظه ^(٩) :

« أوصيكم بتقوى الله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وكثرة ذكر الموت ، وفراق الفاسقين وحب المؤمنين ، فإن الزهادة في الدنيا ترغّب العبد فيما عند الله وتفرّغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تُخيف العبد من ربه ، حتى

(١) خضرة : ناضرة .

(٥) احلّولى : صار حلواً .

(٢) حبرة : سرور .

(٦) أوئى : من الوباء .

(٣) الطل : المطر القليل . الغيبة : المطرة القليلة .

(٧) الغضارة : النضارة : الحصب .

(٤) المظل : المطر الكثير . المزنّة : السحابة .

(٨) القوادم : الريش في مقدم جناح الطائر .

(٩) تاريخ الطبرى ٥٠/٥ .

المطرّة .

يَجْأَرُ^(١) إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين : قال الله في كتابه : (وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَتَقَرَّبْ عَلَى قَبْرِهِ لَإِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) وإن حبَّ المؤمنين للسبب الذي يُنال به كرامة الله ورحمته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين .

ومضى على هذه الشاكلة يعظ من حوله من الصُّفْرية ويحرضهم على قتال بني أمية أئمة الضلال الظلَّة كما يقول ، حاثاً لهم أن يلحقوا بإخوانهم المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ابتغاء رضوان الله . ومن اشتهر بين الصُّفْرية بالخطابة الطرمّاح بن حكيم وشُبَيْل بن عَزْرَةَ الضُّبَيْعِي والضحاك بن قيس الذي خرج لعهد مروان بن محمد وغلب على العراق فترة من الوقت .

ولم تحدثنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء النجّادات ، أما الإباضية فقد اشتهر من بينهم بالخطابة عبد الله بن يحيى الكندي الملقب بطالب الحق ، وقد دعا إلى الثورة على الأمويين في سنة ١٢٩ واستطاع أن يستولى على حضرموت واليمن ، واتجهت جيوشه بقيادة أبي حمزة قائده إلى الحجاز فاستولت عليه . ولم تلبث جيوش مروان بن محمد أن ردت الأمر إلى نصابه . ولأبي حمزة خطب مأثورة تدل دلالة بينة على أنه كان من راضة الكلام ، وربما كان أروع خطبه كلمته التي ألقاها في مكة ، ويقال بل ألقاها في المدينة^(٢) ، وهو يستهلها بالثناء على أبي بكر وعمر ولا يلبث أن يطعن في عثمان ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية ، مصوراً تعطيلهم لحدود الله وأحكامه وأخذهم للرعية بالبطش والظلم ، مندداً بمن اشتهروا منهم باللهو والحجون مثل يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك . وينتقل إلى تصوير الخوارج وإخلاصهم لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم في الدنيا وجهادهم في سبيل الله مستعدين للاستشهاد إذ يرون فيه الحياة كل الحياة ، الحياة الباقية التي لا تَفْنَى ، يقول متحدثاً عن شبابهم :

« شبابٌ والله مكتهلون^(٣) في شبابهم غَضِيضَةٌ عن الشرِّ أعينهم ، ثَقِيلَةٌ عن

(١) يجأر : يضرع ويستغيث .

(٢) انظر البيان والتبيين ١٢٢/٢ وعيون

الأخبار ٢٤٩/٢ والعقد الفريد ١٤٤/٤

والأغاني ١٠٤/٢٠ .

(٣) مكتهلون : يريد أن لهم رزاة الكهول .

الباطل أرجلهم ، أنفضاء^(١) عبادة وأطلاح^(٢) سهر ، ينظر الله إليهم في جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرَّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شهِق شهقةً كأنَّ زفير جهنم بين أذنيه . موصولٌ ككَلالهم^(٣) بكَلالهم ، كالال الليل بكلال النهار . . حتى إذا رأوا السَّهام قد فُوقَتْ^(٤) والرماح قد أُشْرِعت^(٥) والسيوف قد انتَضِيت^(٦) ، ورَعَدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعْد الله ، ومضى الشباب منهم قدُمًا ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخصَّبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء . فكم من عينٍ في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كفٍ زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله .

وهي صورة رائعة لشباب الخوارج أحكم أبو حمزة إخراجها في ألفاظ طلية تستميل القلوب بعذوبتها ، ومعان تحيط بكل ما أراد من تمثيل تقوى الخوارج وإيثارهم لما عند الله من النعيم ، وتمثيل اندفاعهم على حياض الموت كلُّ يود أن يكون السابق إلى دار الخلود وأن يموت قَتْعُصاً بالرماح ، وأن تنوشه سباع الحيوان والطير ، حتى يستحقَّ رضوان ربه .

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعية خطباء كثيرون ، وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج ينددون دائماً ببني أمية ، وأنهم اغتصبوا الخلافة ، وساروا فيها سيرة جائرة عطَّلوا فيها أحكام الشريعة وما رسمه القرآن ورسوله الكريم . وكانوا لا يزالون يردُّون أن أبناء على هم أصحاب الخلافة الشرعيون بغى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم . وتداول هذه الأفكار دائماً في خطاباتهم وخطابة أئمتهم ، على نحو ما نجده عند الحسين حين اقترَب من الكوفة واجتمع

(١) أنفضاء : مهزولون .

(٢) أطلاح : مكدودون .

(٣) الكلال : التعب والإعياء .

(٤) فوق السهم : جعل له فوقاً وهو موضع

الوتر من السهم يصنع به ذلك إذا أعد للرى .

(٥) أشرعت : سددت .

(٦) انتضيت : استلت .

الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذى أرسله له عبيد الله بن زياد ، فقد انصرف إلى القوم بوجهه ، يقول فى كلمة له ^(١) .

« أما بعد أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكنّ أَرْضَى الله . ونحن — أهل البيت — أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجرور والعدوان » .

وتتطور الأمور ويؤتئمل الحسين ، ويتخذ الشيعة من مقتله دليلاً واضحاً على ظلم بنى أمية وأنهم يسوسون الأمة سياشة جائرة ، فقد استباحوا دم حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويتوقّى يزيد بن معاوية فيجتمع كثير من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صرّد ، فيعلنون توبّتهم من السكوت عن الثأر للحسين وما كان من القعود عن نصرته . ويخطب سليمان وكثيرون غيره محرضين على الثورة ، وهم فى تضاعيف ذلك يقررون حق آل البيت فى الخلافة لقربانهم من الرسول مستثيرين الناس على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين الطاهر ابن بنت الرسول ، من ذلك قول سليمان بن صرّد فى إحدى خطبه ^(٢) :

« قتل فينا ولدينا ولد نبينا وسلالته وعصارته وبضعة ^(٣) من لحمه ودمه . . اتخذوه الفاسقون غرضاً للنّسب . ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل ^(٤) والأبناء حتى يَرْضَى الله . والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا مَنْ قتلته أو تبيراوا ^(٥) » .

وكان من زعماء التّوابين معه عبيد الله بن عبد الله المُرّى ، وكان خطيباً لا يبارى ، ففضى يعظ الناس ويحرّضهم على الانتفاض على الأمويين بمثل قوله ^(٦) :

« هل خلق ربكم فى الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيّها ؟ وهل ذُرّية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، ألم تروا ويبلغكم ما اجتّرم ^(٧) إلى ابن بنت نبيكم . . وترميلهم ^(٨) إياه بالدم وتجرارهموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم

(٥) تبيراوا : تهلّكوا .

(١) طبرى ٣٠٣/٤ .

(٦) طبرى ٤٣٣/٤ .

(٢) طبرى ٤٢٨/٤ .

(٧) اجتّرم : اقترف وارتركب .

(٣) بضعة : قطعة .

(٨) ترميلهم : من رمله إذا لطمه بالدم .

(٤) الحلائل : جمع حليلة ، وهى الزوجة .

ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم . . ابن أول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول رب العالمين ، قتله عدوه وخذله وليه ، فويل للقاتل وملامة للخاذل .. إلا أن ينصح لله في التوبة ، فيجاهد القاتلين . . وعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقيل العثرة .. إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المُحِلِّين والمارقين .

وخرج التوابون من الكوفة إلى الشمال فالتقوا بجيش أموى نكّل بهم وفرق جموعهم ، فارتدوا إلى الكوفة ، وهناك تلقّاهم المختار الثقفي ، زاعماً أن ابن الحنفية — على الرغم من تبرئه منه — بعثه على الشيعة أميراً وأمره بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته . وهو يُعدُّ المؤسس الحقيقي لفرقة الكيسانية المشهورة في تاريخ الشيعة ، وقد مرّ بنا تصوير عقيدتها ومدى ما ذهبت إليه من غلو وإسراف ، وكيف أنها كانت تدعو لابن الحنفية محمد بن علي ، وتعهده وصيه والإمام المهدي المنتظر . وكان المختار خارجياً ثم صار زبيرياً ثم صار كيسانياً^(١) وكان لسنافصيحاً ، من أهل الدهاء ، فجمع الشيعة حوله ، ووجههم بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام فالتقوا بهم في « خازر » وعصفوا بهم عصفاً . ولم يلبث مصعب بن الزبير وإلى البصرة لأخيه عبد الله أن قضى عليه بعد معارك طاحنة . وكانت في المختار شعوذة كثيرة ، جعلته يتأثر في خطابته كهنة الجاهلية ، حتى كان يزعم — على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، أنه يُوحى إليه ، مصوراً هذا الوحي في فقرات من السجع يوشىها بالأيمان واللفظ الغريب على شاكلة قوله^(٢) :

« أما وربّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهاجمه^(٣) والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كل جبّار ، بكل لبدن خطّار^(٤) ، ومهنّد بتّار^(٥) ، في جموع من الأنصار ، ليسوا بميل أغمار^(٦) ، ولا بُعزل^(٧) أشرار ، حتى إذا أقمتُ عمود الدين ورأيتُ شعب^(٨) صدّع المسلمين ، وشفيت

(١) الملل والنحل ص ١٠٩ .
 (٢) طبرى ٤/٤٥٠ .
 (٣) المهاجمه : الفيافي .
 (٤) اللدن : الرمح ، الخطار : الضارب .
 (٥) المهند : السيف ، البتار : القاطع .
 (٦) الميل : جمع أميل وهو الجبان ،
 الأغمار : جمع غمر وهو ناقص التجربة .
 (٧) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .
 (٨) رأب : أصلح . الشعب : الفتق والصدع .

غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت لنا المعاني التي كان يردّها خطباء الشيعة ، وهي معان تُردُّ إلى بيان حقوق آل البيت في الخلافة ، وأن على المسلمين أن ينصروهم ، وأن يأخذوا بثأر من قتلهم الأمويون منهم . وفي تضاعيف ذلك يحمل خطبائهم على بني أمية حملات عنيفة مصورين ظلمهم ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة . ومن أعلام الخطابة الشيعية زيد بن علي وابنه يحيى ، وإن كانت كتب الأدب والتاريخ الوثيقة لم تحتفظ بشيء من خطبتهما ، وكذلك هي لم تحتفظ بشيء من خطابة بني صوحان : صَعَصَعَة وزيد وسَيْحَان وكانوا شيعة وفي الذروة من البيان والفصاحة . وقد احتفظ ابن أبي الحديد بكثير من المحاضرات والمحاورات بين الحسن بن علي وعمرو بن العاص وبعض بني أمية ، وهي محاضرات يغلب عليها الانتحال ، ومثلها المحاضرات التي دارت بين ابن عباس ومعاوية وبعض أصحابه مما احتفظ به ابن أبي الحديد والعقد الفريد والمسعودي .

ولم يعش حزب الزبيريين طويلاً ، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه ، وعبد الله ابن الزبير خطيب هذا الحزب ، وكان مفوهاً بليغاً يعرف كيف يخلب الألباب بكلامه ، ويستولى على النفوس بحلاوة منطقته ، وهو في خطابته يتناول الأمويين بالقدح والتجريح ، وقد استغل مقتلهم للحسين ليبين غدرهم وما يتورطون فيه من آثام . وله مناظرة مع الخوارج تدل على قوة منطقته وحدة ذكائه^(١) ، وأيضاً له خطبة مشهورة خطبها حين جاءه نعي أخيه مصعب واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وهي تصور رباطة جأشه وصدق يقينه ، وفيها يقول^(٢) :

« إِنْ يُقْتَلْ فَقَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَعَمَهُ وَابْنُ عَمِهِ^(٣) ، وَكَانُوا الْخِيَارَ الصَّالِحِينَ ، إِنْ أَوَّلَهُ لَا نَمُوتَ حَتَّى نَفْ أُنُوفَنَا^(٤) ، وَلَكِنْ قَعَصْنَا^(٥) بِالرَّمَاكِ وَمَوْتاً تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ ،

(١) طبري ٤/٤٣٧ وما بعدها

(٢) العقد الفريد ٤/١٢٢ وعيون الأخبار

(٣) ٢٠/٢ .

(٤) أبو الزبير قتل عقب موقعة الجمل

وعنه عبد الرحمن بن العوام قتل يوم اليرموك

وابنه عبد الله قتل يوم الدار . انظر أسد الغابة

٢١٣/٣ .

(٤) يقال مات حتف أنفه إذا مات على الفراش .

(٥) قعصاً : موتاً سريعاً .

وليس كما يموت بنو مروان، والله ما قُتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط . ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه ، ولا يبید ملكه ، فإن تُقبِل الدنيا على لم آخذها أخذ الأشر^(١) البَطير ، وإن تُدبر عنى لم أهلك عليها بكاء الخَرِق المَهِين^(٢) . «
ولأخيه مصعب خطب مدونة ، وقد جعل إحداها آيات قرآنية خالصة^(٣) ، ولأمهما أسماء مع ابنها عبد الله محاورة^(٤) طريفة حين حاصره الحجاج في مكة وتخاذل عنه الناس .

ولإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء الثورات كان أول من نلقاه منهم عبد الله بن حنظلة زعيم ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لبلاغته في خطابته ، وقد ثار على عبد الملك بالشام سنة ٦٩ للهجرة وقضى عليه . ويلقانا بعد ذلك عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث في ثورته على الحجاج ، وكان مِدْرَهًا مَفْوَهًا ، ومن خطباء ثورته عامر بن واثلة الكنانى وعبد المؤمن بن شُبث بن رِبْعَى . ولا نصل إلى عصر سليمان ابن عبد الملك حتى يثور عليه قتيبة بن مسلم الباهلى في خراسان حاضاً الجند على متابعته . ونستقبل مع أوائل القرن الثانى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد ابن عبد الملك ، وكان خطيباً بليغاً ، وطالما خطب في جنوده يحرضهم على أهل الشام .

وكل من سميناهم من هؤلاء الثوار تتناثر خطبهم في الطبرى وكتب الأدب ، وهى كلها تدور على إثارة الناس ضد بنى أمية وبيان ما فى حكمهم من ظلم وما يأخذهم به ولاتهم من عَسَف وكيف أنهم جميعاً عطَّلوا أحكام الشريعة واستأثروا بالفتىء ، حتى لئرى يزيد بن المهلب فى بعض خطبه يجعل جهادهم أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم^(٥) .

وكان يقف فى الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين خطباء بنى أمية ، يتقدمهم الخلفاء ، ثم الولاة والقواد ، ومن اشتهر من الخلفاء بإحكام الصنعة فى

(١) الأشر : البطر .

١٣٥/٤ .

(٢) الخرق : الدهش خوفاً . المَهِين : الحقيق . (٤) طبرى ٣٠/٥ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ والعقد الفريد (٥) طبرى ٣٣٥/٥ .

الخطابة مع جهازة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز
ويزيد الناقص ، وقد وصف بعض الشعراء مهارة معاوية في خطابته فقال ^(١) :

رَكوبُ المنابر وثأبها مَعْنٌ بخطبته مِجْهَرُ ^(٢)
تَرِيْعٌ إليه هَوَادى الكلامِ إِذَا ضَلَّ خُطْبَتَهُ المِهْدَرُ ^(٣)

ونخطبته قسمان : قسمٌ سياسةٌ خالصة ، وقسمٌ مواعظٌ وترغيبٌ وترهيبٌ ،
وهو في القسم الأول يدعو إلى الطاعة ملوِّحاً بما في يديه من قوة ومن عطايا
وهبات ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته في عام الجماعة سنة ٤١ للهجرة
بالمدينة ^(٤) . وهو في القسم الثاني ينفر من الدنيا والتعلق بمتاعها الزائل ،
ومن خير ما يمثل هذا القسم خطبة رواها له الجاحظ ^(٥) ، وقد اتهم نسبتها إليه
وقال إنها حرية بأن تنسب إلى علي بن أبي طالب . والجاحظ بهذا الاتهام يقسو
على معاوية ، وكأنه نسي أنه من كُتَّاب الوحي وأنه من جِلَّة الصحابة . وتتردد في
خطابة عبد الملك مطالبة الرعية بالطاعة لخليفتهم ، مع التهديد والوعيد لمن تحدّثهم
نفوسهم بالخروج عليه ^(٦) ، أما عمر بن عبد العزيز فخبطه مواعظ خالصة ،
يتحدث فيها عما ينتظر الإنسان من الموت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على
ما قدّم من يده على شاكلة قوله في كلمة له ^(٧) :

« أيها الناس ! إنكم لم تُخْلَقُوا عَبَثاً وَلَنْ تُتْرَكُوا سُدىً ، وإن لكم معاداً يُحْكَمُ
الله نبيّكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء
وحُرِمَ الجنة التي عرّضها السموات والأرض . واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف
الله اليوم وباع قليلاً بكثير وفائتاً بيباق ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ،
وسيقلفها من بعدكم الباقيون ، كذلك حتى تُرَدُّوا إلى خير الوارثين » .

ولييزيد الناقص حين ولى الخلافة بعد قتله ابن عمه الوليد بن يزيد خطبة

(١) البيان والتبيين ١/١٢٧ .
(٢) من : تمن له الخطبة فيخطبها مقتضياً لها .
(٣) تريع : ترجع . هوادى الكلام :
(٤) البيان والتبيين ٢/١٢٠ وعيون الأخبار
أوائله .
(٥) العقد الفريد ٤/٨١ .
(٦) العقد الفريد ٤/٨١ .
(٧) البيان والتبيين ٢/١٢٠ وعيون الأخبار
أوائله .

بديعة^(١) يصور فيها سياسته ودستوره في الحكم معلناً أنه إن وفى بما عاهد عليه الله فعلى الناس السمع والطاعة وإلا فلهم أن يخلعوه ، ويقول إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وكان ولاية بنى أمية وقوادهم لا يزالون يستوجبون على الناس الطاعة والولاء لخلفائهم ، نجد ذلك عند عتبة بن أبى سفيان وإلى مصر وعند ولاية العراق من أمثال زياد والحجاج وخالد القسرى ، وكانوا يضيفون إلى ذلك وعيداً وتهديداً باستخدام القوة . ولعل أحداً لم يبلغ من ذلك ما بلغه الحجاج ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته في الكوفة حين قدم على العراق والياً من قبل عبد الملك ، وفيها يقول^(٢) :

« إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها ، وإني لأنظر إلى الدماء تفرق بين العمام واللحى . إني والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ما أغمز تغمز التين ولا يقهقهق لي بالشنان^(٣) ، ولقد فررت^(٤) عن ذكاء وفئتشت عن تجربة . إن أمير المؤمنين كتب كينانته^(٥) ثم عجم^(٦) عيدياتها ، فوجدني أمرها عوداً ، وأصلبها عموداً ، فوجهني إليكم ، فإنكم طالما أوضعتم^(٧) في الفتن واضطجعت في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي . أما والله لألحقونكم^(٨) لحجوا العصا ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل^(٩) .. أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده » .

وهو يفتتح هذه الخطبة بأشعار تمتلئ باللفظ الغريب ، حتى يأخذ على سامعيه أنفاسهم . وقد زحرت خطبته بأسلوب تصويرى قوى ، وهو يعدد في الذروة من أهل الخطابة والبيان في العصر ، حتى ليوضع مع زياد بن أبيه في طبقة واحدة ، وإن فضله زياد بحلاوة منطقه ، فقد كان يمتاز بجزالة اللفظ وفخامته ،

- | | |
|--|---|
| (١) البيان والتبيين ١٤١/٢ . | (٤) فررت : اختبرت . |
| (٢) البيان والتبيين ٣٠٧/٢ وعيون الأخبار ٢٤٤/٢ . | (٥) الكنانة : جمعة السهام . |
| (٣) القمعة : التحريك ، الشنان : جمع شن وهو القرية البالية كانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل للسير . مثل يضرب لمن يروعه ما لا حقيقة له . | (٦) عجم : اختبر . |
| | (٧) أوضع : أسرع في سيره أو سار بين القوم . |
| | (٨) لحا العصا : قشرها . |
| | (٩) قال الجاحظ : تضرب عند الحرب وعند الخلاط على الحوض إذ تختلط بغيرها فتضرب وتبعد . |

ولعل من الطريف أن كتب الأدب احتفظت له بمواعظ كثيرة ، ويُروى أن الحسن البصري كان يقول عنه إنه « يعظُ عظة الأزارقة ويبتطش بطش الجبَّارين »^(١) ومن قوله في بعض مواعظه : « اللهم أرني الهدى هدى فأتبعه وأرني الغي غياً فأجتنبه ولا تتكلفتني إلى نفسي فأضلَّ ضلالاً بعيداً »^(٢) .

وكان خالد القسري خطيباً مفوهاً ، مع لحن كان فيه ، وكان إذا تكلم ظنَّ الناس أنه يصنع كلامه لجمال لفظه وبلاغة منطقته ، وله خطب كثيرة يحث فيها على طاعة الخلفاء منذراً متوعداً من ينقض حبْل الجماعة . وأكثر في خطب أجمع من المواعظ ، حتى سُمي خطيب الله^(٣) ، ويُروى أنه كان يخطب يوماً فسقطت جرادة على ثوبه ، فقال^(٤) :

« سبحان من الجرادة من خلقه ، أدمج قوائمها ، وطوّقها جناحها ، ووشّى جلدها ، وسلّطها على ما هو أعظم منها » .

وإذا كان قواد المعارك الدامية من خوارج وشيعة وثائرين مختلفين حاربوا بني أمية غَضَباً لدينهم كما دار على ألسنة خطبائهم فإن قواد بني أمية في الصفوف المقابلة كانوا يزعمون نفس الزعم ، على نمط قول مسلم بن عقبة قائد أهل الشام في وقعة الحرّة : « يا أهل الشام أهدأ القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا عن دينهم وأن يُعزّوا به نصّر إمامهم »^(٥) وقول المهلب بن أبي صفرة في حث جنده على قتال الأزارقة : « يا أيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج وإنهم إن قدروا عليكم فتعنوكم في دينكم وسفكوا دماءكم »^(٦) . فقواد بني أمية في هذه الحروب الداخلية كانوا مثل خصومهم يرون أن الحق في جانبهم وأن أعداءهم أهل غيٍّ وضلال .

وكان قواد الفتوح شرقاً وغرباً وفي بلاد الروم لا يزالون يحشّون جنودهم على الاستشهاد في سبيل الله مقتبسين من آي الذكر الحكيم ما يُشعل حماسهم ،

(٤) عيون الأخبار ٢/٢٤٧ .

(٥) طبري ٤/٣٧٥ .

(٦) الكامل للمبرد ص ٦٣٠ .

(١) البيان والتبيين ٣/١٦٤ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٣٧ والعقد الفريد

٤/١١٥ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٧٥ .

ويذكرى جذوة شجاعهم وبسالهم ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبة قتيبة بن مسلم الباهلي وقد تهباً لغزو طُخارستان سنة ٨٦ للهجرة وفيها يقول ^(١) :

« وعَدَّ الله نبيه صلى الله عليه وسلم النصرَ بحديث صادق وكتاب ناطق ، فقال : (هو الذي أرسل رسولَه بالهدى ودين الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذُّخر عنده ، فقال : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ ولا نصبٌ ولا نَحْمَصَةٌ في سبيل الله ولا يَـطْـئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ ولا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وأخبر عن قُتْلٍ في سبيله أنه حتى مرزوق فقال : (ولا تحسبنَّ الذين قُتِلُوا في سبيلِ اللَّهِ أمواتًا بل أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقُونَ) فتنَجَّزُوا موعود ربكم . »

واشتهر في خراسان بعد قتيبة غير قائد بالخطابة مثل أسد القسري ونصر ابن سيَّار ، ويلقانا في الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وخطبته في جنده حين دخلها مشهورة ^(٢) ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند زياد بن أبيه حتى نتمثل تمثلاً واضحاً ما أصاب الخطابة السياسية في هذا العصر من نهوض ورفق .

زياد ^(٣) بن أبيه

وُلِدَ في عام الهجرة أو قبله بقليل لِسُمَيَّةَ جارية فارسية كانت للحارث بن كَلْدَةَ الثَّقَفِيِّ المشهور بطبِّه ، ويقال إنه زوجها ثَقَفِيًّا يسمَّى عُبَيْدًا ، ومن ثم كان يسمَّى في بعض الروايات زياد بن عبيد . ويذهب بعض الرواة إلى أنه إنما وُلِدَ على فراش الحارث وأن عبيدًا كان عبدًا روميًّا ، ولم يكن ثَقَفِيًّا ،

٢٥٩/١ والأغاني (طبعة الساني) ٣/١٦

وما بعدها وابن عساكر ٤٠٦/٥ والعقد الفريد ٤/٥ (راجع الفهرس) ومروج الذهب للمسعودي (طبعة مصر) ٥٥/٢ والطبري في مواضع متفرقة وكتاب تاريخ الدولة العربية لقلهوزن ص ١١٣ وما بعدها .

(١) طبري ٥ / ٢١٤

(٢) انظر نفع الطيب ١١٢/١

(٣) انظر في ترجمة زياد وتحقيق نسبته طبقات ابن سعد ج ١ ص ٧٠ وأسد الغابة ٢١٥/٢ والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ١٧٦ وتهذيب الأسماء واللغات للذوي

وما نتقدم معه إلى عهد عمر ، حتى نجد أبا سفيان ينسبه إلى نفسه مدعياً أبوته ، وقد تكون نسبة صحيحة ، وإن تضمنت أنه لم يولد لرشدة . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته . ونراه يخرج مع الجيوش الغازية في الشرق ، وسرعان ما يعهد إليه عتبة بن غزوان قائد عمر في فتوح الأبلّة تسجيل الغنائم وقسّمها في الناس ، مما يدلّ على إتقانه الكتابة والحساب . ويلزم ولاية البصرة يكتب لهم . ويوفده إليها أبو موسى الأشعري إلى عمر ، فيُعجب بذكائه ولأسنه ، ولكنه يأمر بعزله ، فيقول له : يا أمير المؤمنين أعنّ عجز أم عن خيانة صرفتني . فيرد عليه : لا عن واحدة منهما ولكني أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك ^(١) .

ويعود إلى البصرة حتى إذا كان عهد عثمان اتخذه عبدالله بن عامر وإليها كاتباً له ، ويفسد ما بينهما فيعزله ، حتى إذا صار العراق لعلّى وولّى على البصرة ابن عباس جعله على خراجها . وأتابه عنه أحياناً ، وأظهر في أثناء نيابته له حنكة ، ذلك أن معاوية دسّ إلى تميم بعض من أفسدها على عليّ ، فاستجار زياد بالأزد واستطاع بما أوقع بينهما أن يعيد الأمر إلى نصابه ، وأن يعود بتميم إلى طاعة إمامه . ولما فسدت فارس على عليّ أرسل به إليها وإلياً عليها ، فرمّ الفساد وأصلح الشعث ورأب الصدع متوسلاً إلى ذلك بمهارة سياسية فائقة ، إذ « بعث إلى رؤسائها ، فوعد من نصره ومنه ، وخوف قوماً وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودلّ بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة ، وقتل بعضهم بعضاً ، وصدّت له فارس فلم يلق فيها جَسَماً ولا حرباً ، وفعل مثل ذلك بكُرمان ^(٢) . ويقال إن أهل فارس كانوا يقولون : « ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمدارة ^(٣) » . ولما قُتِل عليّ ظلّ على عهده لابنه الحسن . حتى إذا تحولت مقاليد الأمور إلى معاوية اعتصم بفارس ، فكاتبه معاوية متوعداً ، ثم أخذ يتلطف له ووسّط لديه المغيرة بن شعبه الثقفي ، ذاكرًا ما بينهما من الرّحم . وما زال به ، حتى دخل في طاعته . وفرح به فرحاً عظيماً . إذ كان يعرف فضله ، وأنه لا غنى له عنه في استصلاح العراق ، ولما صار إليه

(١) البيان والتبيين ١/٢٦٠ .

(٣) طبري ٤/١٠٥ .

(٢) طبري ٤/١٠٦ .

جمع الناس وصعد المنبر ، وأجلسه بين يديه ، وأشهد الحاضرين على نسبته لأبيه ، وشهدت بذلك منهم جماعة . غير أن كثيرين ظلوا يشكّون في هذا النسب ويتهمونهم . ولم يلبث معاوية أن ولّاه البصرة وخراسان وسجستان سنة ٤٥ للهجرة . فأظهر من الخزم وحسن التدبير ما جعل معاوية يضم إليه الكوفة حين مات واليها المغيرة بن شعبة ، وبذلك أصبح والياً على العراق جميعه حتى وفاته سنة ٥٣ للهجرة . وقد أخذ الفساق والجنّة بالعنف والشدة ، وكذلك صنع بالخوارج والشيعة وقصّته مع حُجْر بن عدى مشهورة ، فقد أرسل به إلى معاوية ، وهناك لقي حتفه . على أنه كان يخلط سياسته باللين ، ولم يكن يعمد إلى سفك الدماء إلا حين تُعجزه الحيلة ، وقد اتبع سياسة ضرب القبائل بعضها ببعض حتى يشغلهم عنه وعن الدولة . ومن المحقق أنه كان سياسياً ماهراً بعيد النظر يحسن تصريف الأمور إلى أبعد غاية .

وكان خطيباً لا يبارى في جودة خطابه ، يعرف كيف يصوغ كلامه صوغاً تَهشُّ له الأسماع وتُصغى له القلوب والأفئدة ، وقد نوّه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشعبي : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يُسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً^(١) » . وخطبه مثل خطب الحجاج تدور في موضوعين هما السياسة والمواظف الدينية ، وقد بقيت من خطبه الأولى شظايا وفقر وخطبة طويلة هي أروع خطبة سياسية خَلَفها هذا العصر ، وهي الملقبة بالبِترَاء^(٢) ، سُميت بذلك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد^(٣) ، وقد أدخله عليها بعض الرواة .

والخطبة تُجمل سياسة زياد التي اشتهر بها والتي رَدَّتْ إلى البصرة أمّنها بعد أن عاث فيها الفُسَّاق واللصوص واضطرب حبْلُ النظام ، وقد بدأها بتصوير ما صار إليه أهلها من الفساد وشيوع الفسق والانحراف عما رَسَم الله للمسلمين في كتابه من السيرة المستقيمة الطاهرة ، يقول :

(١) البيان والتبيين ٦٥/٢ .
 (٢) افظرها في البيان والتبيين ٦٢/٢ وعيون
 الأخبار ٢٤١/١ والعقد الفريد ١١٠/٤ .
 (٣) البيان والتبيين ٦/٢ وانظر ٦٢/٢ .

« أما بعد فإن الجهالة الجهلاء^(١) والضلالة العمياء والغنى الموقى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا ينحاش^(٢) عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرم^(٣) الذى لا يزول . أتكونون كمن طرقت^(٤) عينيه الدنيا وسدّت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذى لم تُسبقوا إليه من ترككم الضعيف يُقهر ويُؤخذ ماله وهذه المواخير^(٥) المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نهاية تمنع الغواة عن دلج^(٦) الليل وغارة النهار ؟! قربتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر وتغضضون على المختلس . أليس كل امرئ منكم يذب عن سفهه صنّع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلمااء ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرّم الإسلام . »

وعلى هذا النحو استهل خطبته بتجسيم صور الفساد التي انتهت إليها حياة الناس في البصرة ، وهو في أثناء ذلك يقرّع سامعيه بأنهم انتبذوا كتاب الله وراء أظهرهم مؤثرين الفانية على دار الخلود ، وكأنما عادوا يجترئون حياتهم الوثنية القديمة وكل ما كان فيها من إثم . حتى إذا بلغ من ذلك كل ما أراد انتقل بصور خطبته في حكمهم وما أعدّه لهم من ضرور العقوبات ، يقول :

« إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، وإني أقسم بالله لآخذنّ الولي بالمولي^(٧) والمقيم بالظاعن والمقبل بالمُدبر والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلتقي الرجل منكم أخاه فيقول : (انجُ سَعْمَد فقد هلك سَعْمَيْد) أو تستقيم لي قناتكم . . من نُقِب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له ، وإياي ودلج الليل فلإني لأؤتى بمُدلج إلا سفكت دمه . . وإياي ودعوى^(٨) الجاهلية فلإني لا آخذ

(١) الجهلاء: وصف مؤكد كما تقول أيلة إيلاء .

الريية .

(٢) ينحاش : ينفر .

(٣) السرم : الدائم .

(٤) الولي : السيد ، المولى : العبد .

(٥) المواخير : جمع ماخور ، وهو بيت

(٦) دلج : دعى الجاهلية : قولهم يالتميم مثلاً ، إثارة

(٧) من الشخص لقومه .

(٨) دعوى الجاهلية : قولهم يالتميم مثلاً ، إثارة

داعياً بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه . ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنناه فيه حياً ، فكفّوا عني أيديكم وألستكم أكف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين أقوام إحن^(١) جعلتها دبر^(٢) أذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم مسيئاً فليترع عن إساءته . إني والله لو علمت أن أحدكم قتله السُّلّ من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له سترًا ، حتى يبدى لي صفحته^(٣) ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأرعوا^(٤) على أنفسكم ، فربّ مسوءٍ بقدمونا سنسره ، ومسرورٍ بقدمونا سنسوءه .

وهذه الفقرة من الخطبة تصور بجلاء سياسة زياد ودستوره في حكم البصرة ، وهو دستور أوضح فيه موادّ العقوبة وأنه سيأخذ بالظنّة ويعاقب على الشبهة ، وأنه قد جرد سيفه لقتل من لا يترعوى ، وأن من عاد إلى العصبية الجاهلية يستنير قومه سيقطع لسانه . ونجحت هذه السياسة في إعادة الأمور إلى نصابها في ولايته واستقرار الأمن ، حتى قالوا إن المرأة كانت تتبیت وبابها مفتوح عليها لا تخشى لصاً ، وكان الشيء يستقط فلا يعرض له أحد حتى يرجع إليه صاحبه ، فيأخذه ، وقالوا أيضاً إن الناس هابوه هيبة لم يهابوها أحداً من الولاة قبله . وفي نفس هذه الفقرة ما يصور رفق زياد برعيته ، فهو لا يبطش للبطش ، وإنما يبطش على الجرم ، أما بعد ذلك فليمن رقيق بالناس ، وهو يجهر بذلك حين يلخص خطته في الحكم بأنها لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، وأيضاً حين يجهر في ختام الفقرة بأنه سيصانع الناس حتى أعداءه ما صانعوه . ويمضي في فقرة ثالثة ، يبين ما يجب على الناس من الطاعة للخليفة وولاته ، يقول :

« أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونلدودعنكم بيفتى^(٥) الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة

(١) إحن : جمع إحنة ، وهي الحقد والضغينة . (٤) أرعوا : أبقوا وأرفقوا .
(٢) دبر : خلف . كناية عن أنه لا يهتم بها . (٥) الفئء هنا : الخراج وغنائم الحروب .
(٣) أبدى صفحته : جاهر بعداوته .

فما أحببنا، ولكم علينا العدلُ والإنصافُ فيما وُلِّينا، فاستوجبوا عدلنا وفَيْسَتْنا بمناصحتكم لنا .. وادعوا الله بالصَّلاح لِأَنَّكُمْ فَإِنَّهُمْ سَاسَتُكُمْ المؤدَّبونَ وَكَهَفُكُمْ الذى إِلَيْهِ تَأَوُّن، ومتى يَصْلُحُوا تَصْلُحُوا، ولا تُشْرِبُوا قلوبكم بَغْضَهُمْ، فيشتدَّ لذلك غيظكم، ويطولَ له حزنكم، ولا تدركوا به حاجتكم، مع أنه لو استُجيب لكم فيهم لكان شراً لكم. أسأل الله أن يُعَيِّنَ كلاًَّ على كلِّ. وإذا رأيتُمونى أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أَذْلاله^(١)، وأيمُّ الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئٍ منكم أن يكون من صرعاى .

وزياد فى هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض الإلهى المعروفة عند الفرس، إذ كانوا يؤمنون بأن ملوكهم مفوضون لحكمهم من قِبَلِ ربهم، وفى ذلك دلالة واضحة على تأثر الخطباء بالأفكار الأجنبية. وهو يلوح لسامعيه بما فى يد الدولة من أموال الخراج ومغانم الحروب وأنها ستنتشرها على رعاياها المطيعين الموالين لها نشرًا، ولا يلبث أن يهدد من تحدَّهم أنفسهم بنقض الطاعة أنهم إن صنعوا فالسيف ينتظرهم وضرب الرقاب .

والخطبة على هذا النحو خطبة سياسية خالصة، إذ ترسم سياسة زياد وطريقته فى الحكم من جميع أطرافهما. وهى مقسَّمة إلى فقر تتسلسل فيها الأفكار تسلسلاً دقيقاً، وكل لفظة تقع فى مكانها وقرارها مع جمال الדיباجة ووضوح الدلالة، فلا توعر ولا تعقيد ولا كلم غريب.

وكان زياد بحكم خطابته فى الجمع والأعياد يعمد إلى الوعظ كثيراً، وهو فيه يُبدع، كما يبدع فى خطبه السياسية، ونسوق له من هذا الباب موعظة يقال إن عبد الملك بن مروان كتبها بيده، وهى تطرَّد على هذا السياق^(٢) :

« إن الله عز وجلُّ جعل لعباده عقولاً عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته، فالناس بين محسنٍ بنعمة الله ومسيءٍ بخذلان الله إياه . والله النعمةُ على المحسن والحجة على المسيء . فما أولى من تمت عليه النعمة فى نفسه ورأى العبرة فى غيره أن يضع الدنيا بحيث وضعها الله، فيُعْطى ما عليه منها ولا يتكشَّر

(١) اذلاله : وجوهه .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٨٧ .

مما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله عزَّ وجل ، فأخذَ رَكَمَ الله الذي حذَرَكم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العَجْزة ، قبل أن تُصيروا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقدروا فيها على توبة ، وليست لكم منها أوبة » .

وواضح ما في هذه الموعظة من حسن التقسيم ودقة التفكير وسلامة المنطق والقدرة على الإقناع بالحجة ، وحقاً ما قاله عنه بعض معاصريه ، وقد استمع إليه في بعض خطبه ، من أنه أوفى حُسْنِ البيان وبراعة الخطاب .

٣

خطباء المخافل

مَرَّ بنا أن العرب عرفوا من قديم هذا اللون من الخطابة ، إذ كانوا يَتَقَدُّمون على ملوكهم وأمرائهم ، فيخطبون بين أيديهم مُثْنين عليهم ، ومفاخرين بقبائلهم . وكانوا يخطبون في أقوامهم مصلحين بين العشائر أو منافرين أو حاثين على الحرب أو داعين لأن تضع أوزارها . وكثيراً ما خطبوا في الأسواق وفي عقد المصاهرات . ونراهم بعد فتح مكة يقدمون على الرسول زرافات ، يتقدمهم خطباؤهم وكانوا كثيراً ما يخطبون بين أيدي الخلفاء الراشدين . ولا نتقدم في عصر بني أمية ، حتى تنشط هذه الخطابة نشاطاً واسعاً ، وكان مما أذكى جذوتها في نفوسهم أن الأمويين وولاتهم فتحوا أبوابهم للعرب ، كي يطمئنوا إلى حسن ولائهم لدولتهم ، فكانت وفودهم تُمَثِّلُ بين أيديهم ، وكانوا يُغْدِقون عليها إغداقاً واسعاً . ومعاقبة هو أول من فتح أبوابه على مصاريعها لتلك الوفود ، فكانت تَرِدُ تبعاً إلى ساحته ، تعلن تارة ولاءها ، وتارة تعرض ظُلَّامة لها ، وهو دائم الحفاوة بها ، يُضَيِّقُ عليها من نواله الغنم ، وتبعه الخلفاء الأمويون من بعده يستنون سُنَّتَهُ . ومن اشتهر بالخطابة بين يديه سَحْبَان ، خطيب واثل ، وقد اشتهر بخطبته « الشَّوْهَاء » التي خطب بها عنده ، فلم يُنْشِدْ شاعر ولم يخطب خطيب ^(١) ،

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٤٨ .

ويقول الجاحظ : « إنه كان أذكر الناس لأول كلامه وأحفظهم لكل شيء سَلَف من منطقته ^(١) ». ومنهم الأحنف بن قيس خطيب تميم الذي لا يدافع وصُحار بن عِيَّاش العبدي ، الذي قال له معاوية : « ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ قال : شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا ^(٢) » ومعاوية يشير إلى ما اشتهر به قومه بنو عبد القيس من الخطابة . ويذكر الجاحظ من خطبائهم بنو صُوحان وكانوا شيعية ، ومَصْفَلَة بن رَقْبَة ورقبة بن مصقلة وكَرْب بن مصقلة ^(٣) ، ويقول إنه كان لهم خطبة تسمى « العجوز » ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها ^(٤) ويقابل آل رَقْبَة وصُوحان في بني عبد القيس آل الأهم في تميم ، وعلى رأسهم عمرو بن الأهم الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد استمع إلى بعض كلامه البليغ « إن من البيان لسحراً » وكان أخوه عبد الله على مثاله خطيباً رائعاً ، وله مقامات ووفادات ^(٥) ، ومثله ابنه صفوان وعبد الله ، وخالد بن صفوان وشبيب بن شَيْبَة بن عبد الله . ومن الخطباء الأبيناء عبد العزيز بن زُرارة الكلابي ، وهو الذي خاطب معاوية بقوله ^(٦) :

« يا أمير المؤمنين لم أزل أستدلّ بالمعروف عليك ، وأمتطي النهار إليك ، فإذا ألَوَى ^(٧) بي الليل فقُبِضَ البصر وعُفِّي الأثر أقام بدني وسافر أُملي ، والنفس تلوم والاجتهاد يعتذر ، وإذ قد بلغتك فقَطَطني ^(٨) » .

وواضح ما في هذه الخطبة القصيرة من دقة التعبير وجمال التصوير . وعلى هذا النحو تمضي خطابة المحافل ، إذ كان الخطيب يروى فيها طويلاً حتى يروق لفظه الخليفة ومنْ يحضرته ، وربما جعلهم ذلك يسجعون في خطابهم حتى يخلبوا الألباب بحسن بيانهم . وبلغ من إحسانهم لمنطقهم أن كان شباب الكتّاب في دواوين دمشق يحضرون مقاماتهم حريصين على استماعهم . وكانت هناك مواقف سياسية كثيرة تدعو هؤلاء الخطباء إلى المنافسة الحادة بينهم وأن يحاول كل منهم إحراز الغلبة على نحو ما كان من خطباء الوفود الذين تباروا يوم عقد معاوية

(٥) نفس المصدر ٣٥٥/١ .

(٦) البيان والتبيين ٧٥/٢ .

(٧) ألوى هنا : استأثر .

(٨) قطنى : يكفىني .

(١) البيان والتبيين ٣٣٩/١ .

(٢) البيان والتبيين ٩٦/١ .

(٣) نفس المصدر ٩٧/١ .

(٤) البيان والتبيين ٣٤٨/١ .

البيعة لابنه يزيد^(١)، وعلى نحو ما كان من عمران بن عَصَام العَسَنَزِيّ في خطبته التي صدر فيها عن رغبة عبد الملك في خلع عبد العزيز أخيه والبيعة لابنه الوليد^(٢). ومن ذلك الجمع بين التهنئة بالخلافة والتعزية، وكان أول من فتح هذا الباب عبد الله بن همام السلولى الكوفى، فقد دخل على يزيد بن معاوية حين استُخلف والناس مجموعون على بابهِ يَهَيِّبُونَ القول، فقال^(٣):

« يا أمير المؤمنين آجرك الله على الرِّزِيَّة، وبارك لك في العطية، وأعانك على الرعية، فلقد رُزئت عظيمًا، وأُعْطيت جَسِيًّا، فاشكر الله على ما أُعْطيت، واصبر له على ما رُزيت، فقد فقدت خليفة الله، ومُنحت خلافة الله، ففارقت جليلا، ووُهِبَتْ جزيلا... »

وبذلك انفتح باب الكلام للخطباء. وتلقانا من هذا التأبين المزوج بالتعزية نصوص متعددة في المناسبات الماثلة. ومن أشهر بكثرة الوفادات عليه من خلفاء بني أمية عبد الملك بن مروان، فكانت ترد على بابهِ الوفود من كل قطر، وكان الحجاج كثيرًا ما يستصحب معه طائفة من وجوه أهل العراق ويقوم خطباؤهم بين يديه. وكان سليمان ابنه يتأله فوفد عليه غير واعظ من مثل أبي حازم^(٤)، ولم يكثر الوعاظ على بابِ كثيرهم على باب عمر بن عبد العزيز^(٥)، منهم خالد بن صفوان وعبد^(٦) الله بن الأَهم ومحمد^(٧) بن كعب القرظي. وكان هشام بن عبد الملك يوسع لخالد بن^(٨) صفوان في مجالسه، ولما فتر الكمية من سجن خالد القسرى وضاق به الأرض بما رَحِبَتْ لجأ إلى ساحته متوسلا ببعض أهله، حتى إذا مثل بين يديه خطب خطبة طويلة^(٩) يستنزل بها عطفه عليه، فرق له وعفا عنه.

- | | |
|---|---|
| (١) البيان والتبيين ٣٠٠/١ وحيون الأخبار | (٦) البيان والتبيين ١١٧/٢ |
| (٢) ٢١٠/٢ والعقد الفريد ٣٦٩/٤ والأمالى | (٧) نفس المصدر ٣٤/٢ و ١٤٣/٣ |
| (٣) ١٧٧/٣، ٧٣/٢ | ١٧٠ وحيون الأخبار ٣٤٣/٢، ٣٧٠ |
| (٤) البيان والتبيين ٤٨/١ | (٨) البيان والتبيين ٣٥٥/١ وحيون الأخبار |
| (٥) ٤٩/١ | ٣٤١/٢ |
| (٦) البيان والتبيين ١٣٥/٣ | (٩) أغاني (سامي) ١١٣/١٥ |
| (٧) ٧/١ | |

ولم تكثر هذه الوفادات على أبواب الخلفاء فحسب ، فقد كان الخطباء يفدون على الولاة ، واشتهر عمران بن حِطَّان بوفادة له على زياد بن أبيه ، ألقي فيها خطبة رائعة^(١) . ومن وفدوا على الحجاج كثيرون ، منهم جامع المحاربين وقد تسخَّطه ببعض قوله^(٢) ، وكان قواده لا يَسْتَوْنَ يرسلون إليه من يخبره بانتصاراتهم على نحو ما أرسل إليه المهلب كعب بن مَعْدان الأشقري ينبئه بقضائه على الأزارقة^(٣) .

وتلقانا بجانب هذه الوفادات أخبار عن خطبهم في المصاهرات^(٤) وفي إصلاح ذات البين^(٥) . وهناك خطب تأخذ شكل المناشرات القديمة ، وهي تلك التي يقال إنها حدثت بين بعض بني هاشم وعمرو بن العاص وبعض الأمويين وقد سبق أن ضعفناها ، ورجَّحنا انتحالها ، ومثلها ما يُروى في بعض كتب الأدب من خصوصية أبي الأسود الدؤلي وزوجه وارتفاعهما إلى زياد . وربما كان أهم خطيب اشتهر في هذه المحافل الأحنف بن قيس ، ويحسن أن نقف عنده وقفة قصيرة .

الأحنف^(٦) بن قيس

اسمه صخر ، وقيل الضحاك ، من بني سعد إحدى عشائر تميم لُقِّب بالأحنف لحنف^(٧) كان في رجله جميعاً ، وكان دميم الهيئة تفتححه العين ، ولكنه كان يجمع خصال السيادة والشرف ، من حُنُكَة وحلم وحزم ومروءة وثقة بالنفس ومصارحة بالرأى مع حسن البيان وذلاقة اللسان . وقد نزل البصرة مع عشيرته لأول العهد بالفتوح مشاركاً فيها ، وأرسله بعض ولائها في وفد إلى عمر سنة سبع عشرة للهجرة ، وكان لا يزال في مطالع شبابه ، ليعرضوا عليه شئون بلدتهم وما يحتاجون إليه فيها من زيادة

(١) البيان والتبيين ١/ ١١٨ .

(٢) نفس المصدر ٢/ ١٣٥ .

(٣) الكامل للمبرد ص ٦٩٤ والأغانى (طبع

دار الكتب) ١٤/ ٢٨٣ .

(٤) البيان والتبيين ١/ ٤٠٤ ، ٤/ ٧٣ وعيون

الأخبار ٤/ ٧٢ والعقد الفريد ٤/ ١٤٩ .

(٥) البيان والتبيين ١/ ١٠٥ ، ١٧٣ ،

١٣٥/٢ .

(٦) انظر في الأحنف طبقات ابن سعد

ج ٧ ص ١ ص ٦٦ والاشتقاق ص ٢٤٩

والمعارف ص ٢٩ وزهر الآداب ١/ ٤٦ ووفيات

الأعيان لابن خلكان والبيان والتبيين والطبرى

(راجع فهرسهما) .

(٧) الحنف : الاعوجاج في الرجل .

الأرزاق ومن شقَّ بعض القنوات والأنهار، وتكلم الوفد، وهو ساكت، فطلب إليه عمر أن يتكلم، فما كاد يتم كلامه حتى أعجب بروعة منطقته إعجاباً شديداً، يقول الجاحظ: «نظر عمر إلى الأحنف وعنده الوفد، والأحنف ملتف في بيت^(١) له، فترك جميع القوم واستنطقه، فلما تبع^(٢) منه ما تبع، وتكلم بذلك الكلام البليغ المصيب وذهب ذلك المذهب لم يزل عنده في علياء، ثم صار إلى أن عقد الرياسة ثابتة له (في تميم) إلى أن فارق الدنيا^(٣). ويقولون إنه استبقاه عنده حولا كاملا ليبالغ في تصفح حاله. وعاد إلى البصرة وأخذ يقيد على عمر من حين إلى حين كما أخذ يسهم مساهمة قوية في فتوح فارس وخراسان لعهد عمر وعثمان، وأظهر براعة نادرة في قيادة الكتائب والجيوش، إذ كان النصر دائماً يرافقه.

ونراه في وقعة الجمل يقف موقف الحياد من خصومة علي والسيدة عائشة وطلحة والزبير، ومعه أربعة آلاف سيف من قومه أغمدت استجابة لرأيه، حتى إذا انتصر على دخل هو ومشايعوه من تميم في طاعته، وأصفاه ولاءه، حتى إذا كانت وقعة صفين أبلى فيها بلاء حسناً هو وقومه. وتذكر الروايات أنه كان ممن رأوا مواصلة القتال مع أهل الشام وأنه أشار على علي أن يحكم شخصاً آخر غير أبي موسى الأشعري ينهض أمام خبيث عمرو بن العاص ودهائه. وما زال على ولائه لعل إلى أن لبى ربه فدخل فيما دخل فيه الناس من البيعة لمعاوية. وكان معاوية وولاته وخاصة زياداً يكبرونه إكباراً عظيماً، ونراه يصبح سفيراً لقومه لدى معاوية، فهو يقيد عليه من حين إلى حين، ويوسع له في مجالسه، بل لقد كان يختصه بالجلوس في جواره على سريره.

وفي هذه الحقبة من حياته يصبح أكبر شخصية في البصرة، بعد ولاتها، وفي الحق أنه كان يجمع كل مزايا السؤدد من حلم وأناة وبعد نظر وعمل على مصلحة القبيلة، حتى قالوا إنه كان إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب. وبلغ من سؤدده أنه لم يكن يندارى، وأنه كان يجهر برأيه

(١) البت: كساء صوفي غليظ.

(٢) تبع المطر: تفجر وانسال.

(٣) البيان والتبيين ١/٢٣٧ وانظر ١/٢٥٤.

لا يخشى لومة لائم ، حتى الخليفة مع اصطناعه له وولائه كان إذا سأله في شيء يعرف رغبته فيه ، وهو لا يريد ، جاهره برأيه في رفق ، ومن خير ما يمثل ذلك كلمته عقب الوفود التي استقدمها معاوية للبيعة لابنه يزيد ، فإنه حين جاء دوره في الكلام قال ^(١) :

« يا أمير المؤمنين أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسرّه وعلايته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضا وهذه الإمامة فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » .

وكانه لم يكن يرضى خلافة يزيد ، فدخل إلى تصوير رأيه هذا المدخل الرفيق . ويتوفى يزيد ، ويضطر عبيد الله بن زياد إلى مغادرة البصرة ويُسلم أمورها إلى الأزدي وزعيمها مسعود ، وتثور تميم وتقتله ، وتنشب الحرب بينها وبين الأزدي ، ويقع بعض الصرعى ، فيتدخل الأحنف ، ويحقق الدماء بين الطرفين المتنازعين ، مؤدياً ديات القتلى من ماله . وتخضع العراق لابن الزبير ، وتدخل تميم بزعامه الأحنف في طاعته ، ويقرب مصعب ويصبح من خدّصائه ، فيقف معه في حرب المختار الثقفي ، ولا يمتد به أجله ، إذ يتوفى في أواخر العقد السابع من القرن الأول مبكياً من قومه وعارفيه ، ويروى أن فرغانة بنت أوس بن حنجر التميمية وقفت على قبره ، فأبنتته قائلة ^(٢) :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمك الله أبا بحر ^(٣) من عُجْن ^(٤) في جَنَنٍ ، ومُدْرَج في كَفَنٍ ، فوالذي ابتلانا بفقدك ، وأبلغنا يوم موتك ، لقد عشت حميداً ، ومِتَّ فقيداً ، ولقد كنت عظيم الحلم ، فاضل السلم ، رفيع العماد ، وارى الزناد ، منيع الحريم ، سليم الأديم ، وإن كنت في المحافل لشريفاً ، وعلى الأرامل لعطوفاً ، ومن الناس لقريباً ، وفيهم لغريباً ، وإن كنت لمسوداً ، وإلى الخلفاء لموفداً ، وإن كانوا لقولك لمستمعين ، ولرأيك لمتبعين » .

ومرّ بنا آنفاً كيف أن عمر بن الخطاب أعجب ببلاغته وحسن بيانه ، ووصفه الجاحظ فقال إنه « أنف مضر الذي تعطس عنه وأبين العرب والعجم

(٤) أجنه : ستره . تريد أنه ستر في الجنى أى وضع في القبر .

(١) العقد الفريد ٣٧٠/٤ .

(٢) البيان والتبيين ٣٠٢/٢ .

(٣) أبو بحر : كنية الأحنف .

قاطبة^(١) . ونحن لا نقرأ خطبه التي كان يلقيها بين أيدي الخلفاء ، حتى يروعا منطقته ، لقدرتة على حَوْك الكلام وتوشيته أحياناً بالسجع وأساليب التصوير . ولم يكن يُطيل في هذه الخطب ، بل كان يعمد إلى الإيجاز والكلم القصار ، فيبلغ بها كل ما يريد من حاجته وحاجة قومه ، ونسوق له كلمتين تصوران منطقته ، فقد وفد على معاوية مرة ، فقال يصف أهل البصرة وما يؤملونه في الخليفة من مَدَد يد العون والمساعدة^(٢) :

يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير ، مع تتابع من المُحول واتصال من الدُّحول^(٣) ، فالمكثُر فيها قد أُطْرَقَ^(٤) ، والمقلِّ قد أُمْلَقَ ، وبلغ منه المَحْنَقُ ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُشْعَشِعَ الفقير ، وَيَجْبِرَ الكسير ، ويسهل العسير ، ويصفح عن الدُّحول ويداوى المحول ، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ، ويزيل اللأواء^(٥) . وإن السيد من يعم ولا يخلص ومن يدعوالجَنَّةَ كَلَى^(٦) ، ولا يدعو النَّقَرَى^(٧) ، إن أحسن إليه شكر وإن أسىء إليه غفر ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عماداً يدفع عنها الملهمات ، ويكشف عنها المعضلات .

وبمثل هذا اللحن من القول كان يقدِّمه الخلفاء لبلاغته وحسن تأتيه في تصوير ما جاء من أجله ، إذ كان يسلك إليه المداخل الدقيقة ، فيُضمِّنونه في التَّو والساعة . ويظهر أنه قال هذه الكلمة عقب حروب على ومعاوية ولذلك مضى يطلب إليه الصَّفح الجميل ، يستعطفاً ، ولكنه الاستعطاف الذي يُبْقِي فيه الرجل الكريم على مروءته . ودائماً كلما قرأناه أحسنا عنده رجاحة العقل وأنه لا يرسل كلامه لإرسالاً ، بل ما يزال يتمهل فيه ، سواء عمداً إلى السجع أو لم يعمد ، مودداً من اللفظ ما يحيط بالمعاني التي يعبر عنها إحاطة تامة ، وتصور ذلك كلمته الثانية التي أشرنا إليها كما صورتها كلمته الآنفة ، وقد ألقى بها حين ادلهم الأمر بعد وفاة يزيد بن معاوية واصطدام الأزدي بقبيلة تميم ، فقد توجه إلى الأولين يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلَّى على نبيه^(٨) :

- | | |
|----------------------------|-------------------------------------|
| (١) البيان والتبيين ٦٠/١ . | (٥) اللأواء : الشدة . |
| (٢) زهر الآداب ٤٦/١ . | (٦) الدعوة الجفلى : الدعوة العامة . |
| (٣) الذحول : الثارات . | (٧) الدعوة النقري : الدعوة الخاصة . |
| (٤) أطرق : هزل وضعف . | (٨) البيان والتبيين ١٣٥/٢ . |

« يا معشر الأزد وربيعة أنتم إخواننا في الدين وشركاؤنا في الصَّهْرَ وأشقاؤنا في النسب وجيراننا في الدار، ويَدُّنا على العدو. والله لأزددُ البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحبُّ إلينا من تميم الشام، فلن استَشْرِى^(١) شَتَا نكم، وأبى حَسَك^(٢) صدوركم في أموالنا وأحلامنا سعة لنا ولكم ». .

ونزلت الكلمة على الأزد برداً وسلاماً ، فأغمدت الأسنة وحقت الدماء .

وعلى هذا النحو تُشَبَّط خطب الأحنف وسيرته صدق فِرَاسَة ابن الخطاب فيه ، إذ اعتبره سيد قومه وخطيب مِصْرَه .

٤

خطباء الوعظ والقصاص

نشط الوعظ والقصاص الديني في هذا العصر نشاطاً عظيماً، فقد كان الوعظ والقصاص في كل بلدة إسلامية لا يَسْتَوْن عن وعظ المسلمين، وقد أفرد لهم الجاحظ في بيانه صحفاً كثيرة ، أورد فيها أسماء طائفة من مبرزهم وكثيراً مما كانوا يعظون به الناس . ومن أشهر من وقف عندهم هو وغيره من أصحاب كتب الأدب والتاريخ الأسود بن سريع وهو أول من قصَّ بالبصرة^(٣)، وكان يقابله في الكوفة زيد^(٤) بن صُوحان في المدينة عُبَيْد بن عُمَيْر^(٥) وكان عبد الله بن عمر يتأثر بقصصه ووعظه حتى ليبيكى من شدة تأثره . ومن القصاص أيضاً إبراهيم^(٦) التميمي الكوفي وسعيد بن جبير ، وكان يقص بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر^(٧)، ومسلم^(٨) بن جندب قاصّ مسجد المدينة، وذَر^(٩) بن عبد الله، وكان بليغاً، وهو الذي كان يقصُّ في جند ابن الأشعث حاثاً الناس على حرب الحجاج، ومطرف

-
- (١) استشرى : تفاقم . الشَّتان : العداوة .
 (٢) حَسَك الصدور : الحقد .
 (٣) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٨ .
 (٤) ابن سعد ج ٦ ص ٨٤ .
 (٥) ابن سعد ج ٥ ص ٣٤١ والبيان والتبيين .
 (٦) ابن سعد ج ٦ ص ١٩٩ .
 (٧) ابن سعد ج ٦ ص ١٧٨ .
 (٨) البيان والتبيين ١/٣٦٧ .
 (٩) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٩٨ والعقد ٣/١٩٨ .

ابن عبد الله الشَّخِيرُ وكان يقصُّ في مكان أبيه بمسجد البصرة^(١)، ومنهم وهب^(٢) بن منبه ويزيد بن أبان الرِّقَاشِي ، ويذكر الجاحظ من وعظه^(٣) . « ليتنا لم نُخلَقْ ، وليتنا إذ خُلِقنا لم نَعصُ ، وليتنا إذ عَصِينا لم نمت ، وليتنا إذ متنا لم نُبعثْ ، وليتنا إذ بُعثنا لم نحاسبْ ، وليتنا إذ حوسبنا لم نعدَّبْ ، وليتنا إذ عُدِّبنا لم نخلدْ » .

فالقصاص كانوا وعَظاً في الوقت نفسه ، بل هم لا يقصُّون إلا من أجل الوعظ ، ومن اشتهروا بوعظهم عبد^(٤) الله بن عمرو بن العاص في مصر ورجاء^(٥) ابن حبيسة والأوزاعي^(٦) في الشام وسعيد^(٧) بن المسيب وأبي حازم الأعرج في المدينة ، ولثانيهما مواعظ كثيرة كان يعظ بها سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، ومن قوله في بعض هذه المقامات وقد سُئِلَ ما مالك ؟ قال : مالان : الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس^(٨) . ومن وعاظ المدينة أيضاً محمد^(٩) بن كعب القرظي واعظ عمر بن عبد العزيز . وكان العراق يروج بالوعاظ موجاً ، من مثل ابن^(١٠) شُبْرمة ومورق^(١١) العجلي وبكر^(١٢) بن عبد الله المرزقي والشَّعْبِي^(١٣) وأيوب^(١٤) السَّخْتِيَانِي ومحمد بن واسع الأزدي البصري ، وقد تولى الوعظ في جيش قتيبة بن مسلم بخراسان وفيه يقول إنه أحب إلى من مائة ألف سيف شهير وسمان طرير^(١٥) . ومن كبار الوعاظ والقصاص مالك^(١٦) بن دينار ، وكان يقول في قصصه : ما أشدَّ فِطام الكبير ، وينشد :

وتروض عِرْسك بعد ما هرمتُ ومن العناء رياضة الهَرَمِ

- | | |
|---|--|
| (١) البيان والتبيين ١/٣٦٧ وعيون الأخبار ١٤٣/٣ ، ١٧٠ . | (١٠) البيان والتبيين ١/٣٣٦ والعقد |
| (٢) ٢٨٩/٢ . | (١١) شُبْرمة ومورق ^(١١) العجلي وبكر ^(١٢) بن عبد الله |
| (٣) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٧٢ وما بعدها ، ٢٨١/٢ ، ٣٢٨ . | (١٣) البيان والتبيين ١/٢٦٢ . |
| (٤) البيان والتبيين ١/٢٦٢ . | (١٤) السَّخْتِيَانِي ومحمد بن واسع الأزدي البصري ، وقد |
| (٥) عيون الأخبار ٢/٢٩٤ . | (١٥) ألف سيف شهير وسمان طرير ^(١٥) . ومن كبار الوعاظ والقصاص مالك ^(١٦) بن |
| (٦) انظر طرفاً من مواعظه في صفة الصفوة ١٨٦/٤ . | (١٦) بن دينار ، وكان يقول في قصصه : ما أشدَّ فِطام الكبير ، وينشد : |
| (٧) انظره في صفة الصفوة ٢٢٨/٤ . | |
| (٨) راجع صفة الصفوة ٤٤/٢ . | |
| (٩) البيان والتبيين ٣/١٣٩ . | |
| (١٠) انظر البيان والتبيين ٢/٣٤ ، | |

ومنهم إياس بن معاوية قاضي البصرة، وكان يُضَرَّبُ به المثل في الذكاء وصدق الفِراسة^(١)، ومنهم خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه الأهمتيان التميميان، وفيهما يقول الجاحظ: « ما علمت أنه كان في الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه للذي يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلاهما^(٢) » ويقول في خالد: « ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدّمين في الخواص خالد بن صفوان . . . ولكلامه كتابٌ يدور في أيدي الورّاقين^(٣) » وقد لحق خالد عصر أبي العباس السفاح، وكان من سُمّاره، ويؤثّر عنه أنه كان يقول: « احذروا مجانيق الضعفاء يعني الدعاء^(٤) » ومن قوله: « بَيْتٌ لَيْلِي كلها أتمنى فمألت البحر الأخضر بالذهب الأحمر فإذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطِمْرَان^(٥) » وروى له ابن قتيبة موعظة طويلة وعظ بها سليمان ابن عبد الملك وأبكاه^(٦).

ومن كبار وعّاظ العصر وقُصّاصه الحسن البصري، وفيه يقول الجاحظ: « أما الخطب (الدينية) فإننا لا نعرف أحداً يتقدم الحسن البصري فيها^(٧) » ومن يأتي بعده في الوعظ عبد الله بن شداد، وهو القائل: « أرى داعي الموت لا يُقْلَعُ وأرى من مضى لا يرجع^(٨) ». ومن كبار القُصّاص والوعّاظ الفضل بن عيسى الرقاشي، وكان يسجع في وعظه^(٩)، ويقول الجاحظ إنه « كان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصّاً مجيداً^(١٠) » وهو الذي يقول في قصصه: « سَلَ الأَرْضُ فقل من شَقَّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً^(١١) ». ومن أشهر الوعاظ وأنبيهم واصل^(١٢) بن عطاء رأس المعتزلة، وكان أغزر خطباء عصره

- | | |
|--------------------------------------|---|
| (١) البيان والتبيين ١/٩٨ وما بعدها . | (٨) نفس المصدر ٢/١١٣ . |
| (٢) البيان والتبيين ١/٣١٧ . | (٩) البيان والتبيين ١/٢٩٠ . |
| (٣) نفس المصدر ١/٣٣٩ - ٣٤٠ . | (١٠) البيان والتبيين ١/٣٠٦ . |
| (٤) البيان والتبيين ٣/٢٧٤ . | (١١) نفس المصدر ١/٣٠٨ . |
| (٥) نفس المصدر ٣/١٦٤ والطمر : | (١٢) انظر في ترجمة واصل المملّي والنحل |
| (٦) عيون الأخبار ٢/٢٤١ . | لشهرستان ص ٣١ وما بعدها وأنساب السمعاني |
| (٧) البيان والتبيين ١/٣٥٤ . | وابن خلكان ولسان الميزان ٦/٢١٤ . |

وأبلغهم وأعجبهم وأبينهم ، ويُرَوَّى أنه حضر يوماً مجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في إمارته على العراق (١٢٦ - ١٢٩ هـ) وحضره معه خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى الرقاشي ، وتبارى الأربعة بين يديه في الخطابة ، ففضلهم بخطبته المشهورة التي جانب فيها الرأى ، إذ كان يلثغ فيها لثغاً فاحشاً ، ونوه بذلك بشار بن بُرْد طويلاً ، قبل أن يفسد رأى واصل فيه ، على شاكلة قوله ^(١) :

أبا حُذَيْفَةَ قَدْ أُوتِيَتْ مُعْجَبَةٌ فِي خُطْبَةٍ بَدَهَتْ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيرِ
وقوله :

تَكَلَّفُوا الْقَوْلَ وَالْأَقْوَامُ قَدْ حَفَلُوا وَجَبُّوا خُطْباً نَاهِيكَ مِنْ خُطَبِ
فَقَامَ مُرْتَجِلاً تَغْلَى بَدَاهَتُهُ كَمِيرُ جَلِ الْقَيْنِ لَمَّا حُفَّ بِاللَّهَبِ ^(٢)
وجانبَ الرأى لَمْ يَشْعُرْ بِهَا أَحَدٌ قَبْلَ التَّصَفِّحِ وَالْإِغْرَاقِ فِي الطَّلَبِ
ولا نستطيع أن نزعم كما زعم بشار أن واصلاً ألقي هذه الخطبة على البديهة فإن من يرجع إليها يحس أثر التروية والتحضير وأنه تأتت لها في أناة حتى اتسقت في نسقها البديع ، وهي من خير مواعظ العصر وأجملها وأبرعها ، وقد استهلها بتحميد وتمجيد أطنّب فيهما إطناباً لا نعرفه لأحد من رُصَفائه ، على هذا النمط ^(٣) :

« الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذي عكّأ في دنوّه ، ودنا في علوّه ، فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ، ولا يَشُودُه ^(٤) حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق ، بل أنشأه ابتداءً ، وعدّله اصطناعاً ، فأحسن كلَّ شيء خلقه ، وتمّم مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدلّ على ألوهيته ، فسبحانه لا معقّب ^(٥) لحكمه ولا دافع لقضائه ، تواضع كل شيء لعظمته ، وذلّ كل شيء لسلطانه ، ووسع كل شيء فضله ، لا يَعْزُبُ عنه مثقال حَبَّةٍ وهو السميع العليم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهاً تقدّست أسماؤه ، وعظمت آلاؤه ، وعلا عن صفات

(١) انظر في هذا البيت وما يليه البيان والتبيين الرسائل النادرة لعبد السلام هرون وجمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت ٢/ ٤٨٢ .

٢٤/١ .

(٢) القين : الحداد .

(٤) يشوده : يثقله .

(٣) انظر في هذه الخطبة الحلقة الثانية من (٥) لا معقّب : لا راد .

كل مخلوق ، وتنزّه عن شبيه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تُحيط به العقول والأفهام ، يُعَصِّى فَيَحْلُمُ ، وَيُدْعَى فَيَسْمَعُ ، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » .

وواضح أن واصلاً يستظهر في هذا التحميد والتمجيد آى القرآن الكريم في وصف عظمة الله وجلاله ، حتى ليستعين بلفظها . وأيضاً فإنه يستظهر ما كان يقرره من نفي التجسيم عن الله ، وأنه ليس كمثل شئ من مخلوقاته . وقد مضى يصلى على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مطيلاً في صلاته كما أطل في حمده . وبقية سِـ الرسل من صنيعه أخذ الكتّاب من أمثال عبد الحميد يطيلون في تحميداتهم وصلاتهم على الرسول . ويأخذ بعد ذلك في الحث على التقوى والعمل الصالح والتنفير من الدنيا ومتاعها الزائل ، يقول :

« أوصيكم عبادَ الله مع نفسى بتقوى الله والعمل بطاعته والمحاربة لمعصيته ، وأحضكم على ما يُدْثِيكم منه ويُزْلِفُكم لديه ، فإن تقوى الله أفضلُ زادٍ وأحسن عاقبة في معاد ، ولا تُلهيَنَّكم الحياة الدنيا بزينتها وخُدْعَها وفواتن لذاتها وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ومدة إلى حين ، وكل شئ فيها يزول . فكم عانيتم من أعاجيبها وكم نصبت لكم من حبالها ، وأهلكتم من جنبِ إليها واعتمد عليها ، أذاقتم حلواً ، ومزجت لهم سمّاً » .

وواصل في هذه الفقرة يردّ ما كان يتجسّر على لسان الوعاظ من الدعوة إلى تقوى الله حق تقواه ، ويحذر من الدنيا وبرقها الخلب وما يُطَوّى فيها من نعيم لا يلبث أن يزول ، وإنها لتحت أعينهم تمدُّ لهم في غوايات الشهوات ، والعاقل من ازور عنها وكبح جماح نفسه وردّها عن أهوائها ، فالموت بالمرصاد وعمماً قليل لا يكون للمرء سوى ما قدّم من عمل صالح ، فليتزود كلُّ لمعاده قبل فوات الفرصة وحلول الأجل . ويسترسل على هدى القرآن الكريم يتحدث عن الدول والأمم الغابرة ، متخذاً من ذلك العبرة يقول :

« أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيّدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحجاب ، وأعدّوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا التلّاد ، قبضتهم بمَحْمِلِهَا^(١)

(١) المحمل : الشقان على البعير يحمل فيها

شخصان . والمعنى احتوت عليهم .

وطحنهم بكسكسكلها^(١)، وعَضَتَهُم بِأَنْيَابِهَا، وعَاضَتَهُم من السَّعَةِ ضَيْقاً، ومن العِزَّةِ ذُلّاً، ومن الحَيَاةِ فَنَاءً، فسَكَنُوا اللَّحُودَ، وأَكَلَهُم الدُّودُ، وأَصْبَحُوا لَا تُرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ، وَلَا تَجِدُ إِلَّا مَعَالِمَهُمْ، وَلَا تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ، وَلَا تَسْمَعُ لَهُمْ نَبَساً.

وهذا الشطر من موعظة واصل يصور لنا كيف كان القصاص يتحدثون طويلاً عن الأمم الدائرة والدول الزائلة حديثاً أطالوا فيه مستوعبين لقَصَصِ الرسل وشعوبهم وخاصة تلك التي عصتْهم، وما صبَّ الله عليها من عذابه مما دفعهم دفعاً إلى جَنَلٍ ما ورثه أهل الديانات السماوية من أخبار عن الأنبياء، يقصدون بذلك إلى الموعظة الحسنة. ويعود واصل إلى الوصية بالتقوى والانتفاع بالقرآن وما به من أحسن القصص وأبلغ المواعظ، وكفى به واعظاً هادياً.

ويُشِيدُ الجاحظ ببلاغة واصل وأنه كان أحد الأعاجيب في بلاغته، إذ كان فاحش اللُّشَعَةِ في الرأى، فمُخَلَّصٌ كلامه منها تخليصاً، بحيث لم يكن أحد يفطن لذلك لبيان الرائع، يقول: إنه كان داعية ورئيس نحلة. وعرف أن يخرج لثغته شنيع وأنه يقارع أرباب النحل وزعماء الملل وأن لا بد له من حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة، ومن أجل الحاجة إلى ذلك «رام إسقاط الرأى من كلامه وإخراجها من حروف منطقته، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتَّى لستره والراحة من هُجْنَتِهِ حتى انتظم له ماحاول واتَّسَقَ له ما أمِّل. ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلاً ولطرافته معلماً لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له. ولست أعنى خطبه المحفوظة ورسائله المخلَّدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجةً الحُصُومَ ومناقلةً^(٢) الأكفَاءَ ومفاوضة الإخوان.. وذكر ذلك أبو الطُّرُوق الضَّبِّيُّ فقال

عَلِمْتُ بِإِبْدَالِ الحُرُوفِ وَقَامِعُ كُلِّ خُطِيبٍ يَغْلِبُ الحَقُّ بِاطْلُهُ^(٣)»

ولا شك في أن عدول واصل عن الكلمات ذوات الرأى في جميع محاوراته آية بيّنة على تمام آله في البلاغة وإحكام صنعته. وكان رأساً في الوعظ والاعتزال

(١) الكلكل: الصدر.

(٢) مناقلة: مدافعة.

(٣) البيان والتبيين ١/١٤ وما بعدها.

معاً ، وخرَج كثيرين على مذهبه ، طافوا البلاد يعظون الناس ويدعون إلى
مقاتلته ، وكان من أهم ما يدعو إليه حرية الإرادة ، وأن الفاسق في منزلة بين
منزلي المؤمن والكافر . والطريف أننا نجد صفوان الأنصاري يصف أتباعه
فيقول (١) :

له خلفَ شَعْبُ الصِّينِ في كل ثُغْرَةٍ إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر (٢)
رجالٌ دعاةٌ لا يَفْلُ عَزِيمُهُمْ تَهْكُمُ جَبَّارٍ ولا كِيدُ ماكِـرٍ
وأوتادُ أَرْضِ الله في كل بلدةٍ وموضعٌ فُتْيَاها وعلم التشاجر (٣)
وما كان سحبانٌ يشقُّ غبارَهُم ولا الشَّدَقُ من حَيٍّ هلالِ بن عامرٍ (٤)

وهو لا ينوّه بوعظهم فحسب ، بل ينوّه أيضاً بقدرتهم على الجدل والإقناع
وتقرير الأدلة في عقول الناس . ويمضي فيصور براعة واصل في هذا العلم
الجديد ، علم التشاجر ، وكيف كان يقتدر على إيراد الحجج ودفع الشبهة عند
خصومه من أرباب الملل والنحل ، مستطرداً من ذلك إلى وصف تقواه وتقوى
أتباعه ، يقول :

تلقَّب بِالغَزَالِ واحدٌ عصره فَمَنْ لليتامى والقَبيل المُكاثِرِ (٥)
وَمَنْ لِحَرُورِيٍّ وآخرَ رافضٍ وآخرَ مُرْجِيٍّ وآخرَ جائِرٍ (٦)
وأمرٍ بمعروفٍ وإنكارٍ منكِرٍ وتحصين دين الله من كل كافرٍ
يُصَيِّبونَ فَضْلَ القول في كل موطنٍ كما طبَّقَتْ في العظم مُدِيَّةُ جازِرٍ
وسياهمُ معروفةٌ في وجوههم وفي المشي حُجَّاجاً وفوق الأباعرِ
وفي ركعةٍ تَأْتِي على الليل كلُّه وظاهر قولٍ في مثال الضمائرِ

(٥) خير الأقوال في تلقيب واصل بالغزال

أنه كان يجلس في سوق الغزالين ليعرف المتحفظات
من النساء فيجمل صدقته هن . انظر المبرد

ص ٥٤٦ .

(٦) الحرورية : الخوارج

(١) البيان والتبيين ٢٥/١ .

(٢) السوس الأقصى : كورة بالمغرب كانت
حاضرتها طنجة .

(٣) علم التشاجر : يريد به علم الجدل في
المقيدة أو علم الكلام .

(٤) الشدق : البلغاء .

ويهمنا ما وقف عنده صفوان والجاحظ بعده من محاجة واصل لخصومه من أرباب الملل: من الحرورية ورافضة الشيعة والمرجئة، فقد اثبتت من الوعظ شعبة من الجدل في العقيدة، هيأت لظهور علم التشاجر كما يقول صفوان أو علم الكلام كما اصطلاح المتأخرون، فظهر القدرية بزعامه الحسن البصري، وظهر المرجئة بزعامه غيلان الدمشقي وغيره من دعاة هذا المذهب في العراق وخراسان. وفي كل مكان نسمع عن مجادلات أصحاب هذه الفرق بعضهم مع بعض، ومع الخوارج والشيعة وبعض خلفاء بني أمية^(١). واحتدمت هذه المجادلات احتداماً شديداً، وقد احتفظت الكتب ببقايا منها تدل دلالة بينة على أنها شحذت العقول كما شحذت الألسنة، ومن خير ما يصورها محاورة واصل بن عطاء مع عمرو ابن عبيد بمجلس الحسن البصري في مرتكب الكبيرة، وكان الحسن يراه مؤمناً فاسقاً، ويراه الخوارج كافراً، وتراه المرجئة مؤمناً غير فاسق ولا كافراً، لأنهم كما قدمنا كانوا يَفْصِلُونَ الإيمان عن العمل. ورأى واصل أن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين منزلي المؤمن والكافر، فهو ليس مؤمناً ولا كافراً. وكان عمرو بن عبيد من تلاميذ الحسن البصري، فجمع بينه وبين واصل لينظره في رأيه. ويقص علينا المرتضى هذه المناظرة^(٢)، ويقدم لها بأن واصل أقبل ومعه جماعة من أصحابه إلى حلقة الحسن وفيها عمرو بن عبيد، فحاوره في رأيه، ورد عليه واصل ردّاً مفحماً مستخدماً بعض آي الذكر الحكيم، شافعاً ذلك بقياس منطقي دقيق. واقتنع عمرو فترك مقالة الحسن إلى مقالة واصل، وأصبح بعد ذلك من رموس المعتزلة.

والحق أن واصل بن عطاء يُعَدُّ رمزاً لكل ما أصاب عقل الوعّاظ وأصحاب المقالات في هذا العصر من دقة لا في مناظراته ومحاوراته فحسب، بل أيضاً في آرائه، فإن فكرة المنزلة بين المنزلتين التي وضع فيها مرتكبي الكبائر فكرة لا يُؤْتَاهَا إلا من استبصر المعاني وعرف حدودها ومقاديرها ومدخلها ولطائفها، وكان واصل يجمع إلى ذلك قدرة واسعة في الجدل والظفر بخصومه، وهو ظفر

(١) انظر كتابنا «الفن ومذاهبه في النثر» (٢) آمال المرتضى ١/١٦٥.
العربي «طبع دارالمعارف» ص ٧٩.

لا يأتي عفواً، وإنما يأتي من تصفح الأدلة ومعرفة صحيحها من سقيمها وجيدها من زائفها .

فإذا قلنا إن الخطابة العربية تطورت تطوراً واسعاً بتأثير عقول هؤلاء المتكلمين لم نكن مغالين ، إذ دُعِمت فيها الأدلة ودقَّت المعاني ، واستتمت شعباً كثيرة من خفياتها ودفائنها . وليس هذا فحسب ، فإن هؤلاء الوعاظ المتكلمين وازنوا بين خطابتهم والجماهير التي كانت تستمع إليهم ، وكانت أخلاطاً من خاصة وعامة ومن عرب وموال ، ومن ثمَّ فتحو الأبواب واسعة للأسلوب المولّد الجديد ، وهو أسلوب لا يرتفع عن الموالى وفئات العامة بما قد يكون فيه من لفظ غريب ، ولا يهبط عن العرب وفئات الخاصة بما فيه من لفظ مبتذل ، أسلوب وسط ، عماده الفصاحة والوضوح .

ولم يكونوا يخطبون غالباً وقوفاً شأن خطباء السياسة والمحافل ، إنما كانوا يخطبون جلوساً ، ومن حولهم تلاميذهم ومستمعوهم في حلقات ، وهم من هذه الناحية يُعدّون محاضرين أكثر منهم خطباء بالمعنى الدقيق، وهياً لهم ذلك شيئاً من التروى والتهمل كان له أثره في روعة الأداء ، حتى لرى فريقاً منهم يعتمد إلى السجع في وعظه مثل أسرة الرقاشيين^(١) ، وكان بينها غير متكلم مثل الفضل ابن عيسى الرقاشي . ولكن هذا ليس الأسلوب الذي شاع في تلك البيئة ، إنما شاع أسلوب آخر كان يقوم على الازدواج والترادف ، وهو واضح في خطبة واصل التي مرّت بنا ، وفي خطابة الحسن البصري وغيّـلان^(٢) الدمشقي ، وإنما ألجأهم إليه ضيق معاني الوعظ ، فاضطروا إلى الترادف وترداد الكلام . ومن غير شك هم الذين أعدوا لهذا الأسلوب الذي نراه ينتقل منهم إلى عبد الحميد ومن تلاه من كتاب العصر العباسي أمثال الجاحظ : ولا أغلو إذا قلت منهم أعدوا لشيوع لون الطباق في كتابات العباسيين ، فقد جعلهم حديثهم عن الطاعة والعصيان والحياة والموت والجنة والنار يصوغون خطابهم على المطابقة والمقابلة بين المعاني .

(١) انظر في هذه الأسرة البيان والتبيين (٢) انظر في مواظمة عيون الأخبار ٢/٢٤٥ .
وما بعدها . ٣٠٦/١

وليس هذا كل ما أهدوه إلى النثر العربي، فإنهم أهدوا إليه أيضاً كثيراً من الوصايا البلاغية التي يموج بها كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ تحولوا يعلمون شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون خطابهم سواء من حيث إشاراتهم أم من حيث منطقتهم أم من حيث تنقيح معانيهم أم من حيث تصفية ألفاظهم، وكيف يلائمون بين اللفظ والمعنى وبين كلامهم ومستمعهم وطبقاتهم، ومتى يستحب الإيجاز ومتى يستحب الإطناب، وكيف أن المعول دائماً على وضوح الدلالة حتى يصنع الكلام في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة. وبذلك هيأوا لظهور قواعد البلاغة العربية، ولعل من الطريف أن أقدم النصوص المتصلة بماهيتها تضاف إلى أحد متكلميهم ووعاظهم، فقد روى الجاحظ أن سائلاً سأل عمرو بن عبَّيد ما البلاغة؟ فأجاب (١):

« ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشذك وعواقب غيئك، قال السائل: ليس هذا أريد، قال عمرو: فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ في حسن إفهام؟ قال: نعم، قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المثونة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونفسي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستحققت على الله جزيل الثواب ».

وعلى هذا النحو كان تلاميذهم لا يزالون يدفعونهم إلى الحديث عن آلات البلاغة، وكيف يحرزون لأنفسهم التفوق في الخطابة وفي المحاور والمناظرة، ويؤثر عن خالد بن صفوان أنه كان يقول: « اعلم - رحمك الله - أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجة » (٢) وكان شبيب بن شيبه يقول: « الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه، وحظ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت » (٣). ولم يكونوا يتفقدون

(١) البيان والتبيين ١١٤/١ وانظر المقد (٢) المقد الفريد ٢٦١/٢.

الفريد ٢٦٠/٢ وزهر الآداب ٩٣/١. (٣) البيان والتبيين ١١٢/١.

مطالع كلامهم ونحواته فحسب ، بل كانوا يتفقدون أيضاً ثنياه ومقاطعه . ونحن نتوقف قليلاً عند الحسن البصري وخطابته ، إذ يُعَدُّ أخطبَ خطبائهم وأبلغ بلغائهم .

الحسن (١) البصري

وُلد بالمدينة سنة إحدى وعشرين للهجرة لأب أعجمي يسمى يساراً من سبي ميسان بجوار البصرة استرقه رجل من الأنصار ، ثم أعتقه ، فكان ولاؤه فيهم ، وكانت أمه خيرة مولاة لأم سلمة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأُعتقت هي الأخرى . وكان له أخ يسمى سعيداً . وقد عاشت هذه الأسرة في وادي القرى ، وترددت على المدينة . ولم تتصل أمه بأم سلمة وحدها من أزواج الرسول ، فقد كانت تختلف إليهن جميعاً ، ويختلف معها الحسن ، فاقبسا معاً من نورهن ونور الرسالة النبوية ، وأعان أمه على هذا الاقتباس أنها استطاعت أن تحسن العربية ، فكانت تروى أحاديث عن أم سلمة وتدبجها بوعظ كثير ، مما كان له أثره العميق في نفس ابنها الحسن وسعيد . وأخذ الحسن منذ صباه يختلف إلى المسجد الجامع ، وفي أثناء ذلك حفظ القرآن وتعلم الكتابة ، وأخذ ينهل مما في المدينة من فيض الرسالة .

ولا نتقدم إلى خلافة عليّ حتى نجد أسرته تنزح إلى وطنه ، فينزل البصرة ، ونرى الحسن يمتنع عن المشاركة في الأحداث القائمة ، وهو مذهب اتبعه طول حياته أن لا يشارك في الأحداث والفتن ، وكأنما وهب نفسه للدين بمعناه الدقيق ، فهو يعيش لمدرسة القرآن الكريم ورواية الحديث محاولاً الوقوف على جوانب التشريع الإسلامي . ونراه يخرج بعد اجتماع الأمة على معاوية مع الجيوش الغازية في الشرق ، ويعمل كاتباً لبعض الولاة في خراسان ، ويظل هناك نحو عشر

والعقد الفريد وعيّن الأخبار انظر (فهارس تلك الكتب) والحسن البصري لابن الجوزي والحسن البصري لإحسان عباس (طبع دار الفكر العربي) .

(١) انظر في ترجمة الحسن طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١١٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان والمعارف لابن قتيبة ص ٢٢٥ وتهذيب التهذيب والملل والنحل ص ٣٢ وأمال المرتضى ١٥٢/١ والكامل للمبرد والبيان والتبيين

سنوات يعود بعدها إلى البصرة ويظل بها حتى وفاته سنة ١١٠ للهجرة ويخلص للدرس الديني ، ولا يترك نبأ من ينابيه دون أن يرثفه ارتشافاً ، وسرعان ما يصبح واعظاً كبيراً ويقبل عليه شباب البصرة إقبالا منقطع النظر . ولا نصل إلى عصر الحجاج حتى يصبح أكبر واعظ في مصره إذ كان لا يجارى في بلاغته وبيانه .

ويكبره عصره كما تكبره العصور التالية لزهده الذي لم يكن يتعمّل فيه ولا يتكلف ، زهد بناء على آداب الإسلام ، إذ استقاه من مناهله الحقيقية في المدينة دار النبوة ، ومن ثم أخذت الفرق الدينية تتنازع ، حتى تسوّغ آراءها في عقول الناس ، فكل فرقة تنسب إليه من عقائدها ما يجعله ينتظم بين رؤاها الأولين ، فالجسرية يقولون إنه كان ينفي حرية الإرادة ويذهب إلى أن كل شيء بقضاء من الله ، ويقول القدرية إنه من القائلين بحرية الإرادة وأن الإنسان حر مختار في أفعاله ، ويجعله الصوفية إمامهم .

ونستطيع أن نستخلص من النصوص المتضاربة أنه كان قَدَرِيّاً ، إذ كان يقول مَنْ زعم أن المعاصي من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه ، ولو كان من الجبرية ما نوه به الجاحظ المعتزلي هذا التنويه العريض الذي نلقاه دائماً كلما ذكره في صفحات كتابه البيان والتبيين . ويزعم صاحب « المنية والأمل » أن الحجاج كتب إليه يسأله عن رأيه في القدر ، فكتب إليه رسالة ضمنها ما كان يراه من حرية الإرادة والعدل على الله ^(١) ، وتلتقى بهذه الرسالة في نفس المعنى رسالة يقال إنه أرسل بها إلى عبد الملك ^(٢) .

والذي لا شك فيه أن الحسن كان أحد أئمة الزهاد في عصره وأنه كان يدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا دعوة واسعة ، ولكنه لم يكن متصوفاً ، فالتصوف شيء والزهد شيء آخر ، حقاً كل متصوف زاهد ، ولكن ليس كل زاهد متصوفاً ، ومعروف أن التصوف إنما نشأ بعد عصره . وقد صور إحسان عباس شخصيته الزاهدة تصويراً دقيقاً مبيناً كيف صرف نفسه عن متع الحياة وكيف تعمقته تجربة الزهد وكيف مضى يدعو إليه في مواعظه دعوة لا تفتر . وكانت

(١) المنية والأمل لابن المرتضى (طبع حيدر) (٢) انظر مصورة هذه الرسالة في دار الكتب المصرية برقم ٢٢١ هـ أدب . آباد) ص ١٢ .

خلافة عمر بن عبد العزيز الزاهد له عيداً، فوفد عليه واعظاً وراسله ، وقبيل أن يتولى القضاء إلى فترة في عهده . وكان بارع الفصاحة ، حتى ليصفه بعض من سمعه من الأعراب بأنه «عربي محكك»^(١) ويؤثر عن الحجاج أنه كان يقول : «أخطبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص»^(٢) البصرة إذا شاء خطب وإذا شاء سكت»^(٣) وهو إنما يعنيه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : «لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج»^(٤) . وكان يجمع إلى فصاحته حسناً لغوياً دقيقاً ، وما يصور ذلك ما يروى عن رجل من بني مجاشع قال : «جاء الحسن في دم كان فينا فخطب ، فأجابه رجل بأن قال : قد تركت ذلك لله ولوجوهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا ، بل قل : لله ثم لوجوهكم ، وآجرك الله»^(٥) .

وتنوع بعظاته كتب البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد كما تنوع بها ترجمته في الكتب المختلفة وكتب المتصوفة مثل اللمع للسراج وحلية الأولياء لأبي نعيم ، وقد نوه به الغزالي في الإحياء مراراً . وهو في مواعظه يستمد من القرآن الكريم وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الوريثين ، وخاصة عمر بن الخطاب ، فإنه يروى عنه كثيراً من أقواله وعظاته^(٦) .

وهو في وعظه ينفّر دائماً من الدنيا ومتاعها الزائل ، مذكراً باليوم الآخر وما ينتظر العصاة فيه من العقاب الزاجر حاثاً على التقوى والعمل الصالح والتأسي بالرسول وصحابته الذين رفضوا الدنيا وطلبوا الآخرة ، فكانوا كالكرممة التي حسن ورقها وطاب ثمرها . ومن مواعظه التي رواها له الجاحظ قوله^(٧) :

«يا بن آدم بيع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا بن آدم إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به . الشواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل . أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ولا نبي بعد نبيكم ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناس

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٥ .

(٤) نفس المصدر ١/١٦٣ .

(٢) الحص : البيت من قصب ، وكان في

(٥) نفس المصدر ١/٢٦١ .

البصرة طائفة من هذه البيوت كان يسكن فيها

(٦) البيان والتبيين ٣/١٣٧ وما بعدها .

الحسن زهداً وورعاً .

(٧) نفس المصدر ٣/١٣٢ وانظر عيون

(٣) البيان والتبيين ١/٣٩٨ ، ٢/٢٨٦ .

الأخبار ٢/٣٤٤ .

والساعة تسوقكم، وإنما يُنْتَظَرُ بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً^(١) لم يضع لَبِنَةً على لبنة ولا قصبة على قصبة . . (لقد كان لكم في رسول الله أسوةً حسنة) . يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قَبْرُكَ ، واعلم أنك لم تنزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلاً نظرت ففكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر . . يا ابن آدم اذكر قوله : (وكلَّ إنسان أَلْزَمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) عدلَ ، والله ، عليك مَنْ جَعَلَكَ حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذروا كدَرها ، دعوا ما يَربِّبكم إلى ما لا يَربِّبكم . لقد صحبت أقواماً^(٢) ما كانت صحبتهم إلا قُرَّةَ العين وجلاء الصدر ، ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفقَ مَنْ أن تُردَّ عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحلَّ الله لهم من الدنيا أزهَدَ منكم فيما حرَّم عليكم منها . . لو تكاشفتم ما تدافنتم^(٣) ، تهاديتم الأطباق ولم تهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوِيناً . أعيدوا الجواب فإنكم مسئولون . . يا ابن آدم ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى ، ولكنه ما وقَّرت في القلوب وصدَّقته الأعمال » .

وواضح كيف كان يمزج عظمته بآى الذكر الحكيم مستعيراً من أحاديث الرسول ما يضىء به كلامه من مثل قوله : « دعوا ما يَربِّبكم إلى ما لا يَربِّبكم » ففي الحديث النبوى : « دع ما يَربِّبك إلى ما لا يَربِّبك » واستعار قول الرسول : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » واستشهد بكلمة لعمر . واستشهاده بآيات القرآن كثير ، تارة يأتي بها في تضاعيف كلامه ، وتارة يتلو الآية ثم يعقب عليها بعظمته ، من ذلك أنه تلا يوماً قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) ثم عقب عليها بقوله^(٤) :

(١) يريد أنه كان يملو ويروح في كسب عيشه الضرورى .
(٢) يريد صحابة الرسول .
(٣) يريد لو تكشفت عيوب بعضكم لبعض لاستقلتم المشى في الجنائز .
(٤) أمال المرتضى ١٥٤/١ .

« إن قوماً غَدَوْا في المطارف ^(١) العتيق والعمائم الرقاق يطلبون الإمارات ويضيئون الأمانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه في عافية ، حتى إذا أخافوا مَنَ فوقهم من أهل العفة وظلموا من تحتهم من أهل الذمَّة أهلكوا دينهم وأسمنوا برآذينهم ^(٢) ووسعوا دورهم وضيمتوا قبورهم . ألم ترهم قد جندَّ دوا الثياب وأخلقوا الدين ، يتكئ أحدُهم على شماله ، فيأكل من غير ماله .. يدعو بحدوٍ بعد حامضٍ وبحارٍ بعد باردٍ وبرطبٍ بعد يابس ، حتى إذا أخذته الكظة ^(٣) تجشأ من البشَم ^(٤) ، ثم قال يا جارية هاتِي حاطوماً ^(٥) بهضم الطعام ، يا أحبيِّتي لا والله لن تهضم لإلادينك أين جارك ؟ أين يتيمك ؟ أين مسكينك ؟ أين ما أوصاك الله عزَّ وجل به ؟ »

وبمثل هذه العظة كان يحمل على من يطلبون الدنيا والظفر فيها بحكم الناس ، حتى إذا حكموهم ظلموهم وعاشوا للذاتهم يلبسون فاخر الثياب ويركبون أنفُس الدواب ، ويطعمون طعاماً مختلفة ألوانه ، غير مفكرين في حقوق الرعية بل طارحين وراء ظهورهم ما أوصى به الدين الخفيف من رعاية الجار واليتيم والمسكين . وكان يعنُف بالأغنياء عنفه بالحكام ، فقد شغلهم متاع الدنيا عن طلب الآخرة حتى أصبحوا كالشجرة التي قلَّ ورقها وكثر شوْكها ، ولأنه ليعجز عن انصرافهم إلى نعيم الحياة وسلعها البائرة وقعودهم عن الآخرة وسلعها الراجحة ، ومن قوله ^(٦) :

« رحم الله امرأً كسب طيباً ، وأنفق قَصْداً ، وقَدَّم فضلاً ، وجَهَّوا هذه الفضولَ حيث وجَّهها الله ، وضَمَعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضرَّ بالدنيا ، ففَضَحها ، فلا والله ما وجد ذو لُبٍّ فيها فرحاً ، فإياكم وهذه السبلَ المتفرقة التي جماعها الضلالة وميعادها النار . أدركتُ من صدَّ رَهْذه الأُمَّة قوماً كانوا إذا أجنَّهم الليل فقيامٌ على أطرافهم ، يفتشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم ^(٧) . . . يابن آدم إن كان لا يُغْنِيكَ

(١) المطارف : جمع مطرف هو ثوب من خز . (٥) الحاطوم : الهاضوم المهضم .

(٢) برآذينهم : دوابهم

(٣) الكظة : الشبع .

(٤) البشَم : الامتلاء .

(٦) البيان والتبيين ٣/ ١٣٥ .

(٧) يريد تخليصهم رقابهم من شهوات الدنيا أو من جزاء لا يرضونه .

ما يكفيك فليس ها هنا شيء يُغنيك ، وإن كان يُغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك .

ويكرر الحسن دائماً ذكر الموت والآخرة والإعراض عن الدنيا والخوف من الله وما أعدَّ للعصاة من العذاب المقيم ، ويجلّل الحزن مواعظه ، فهو دائماً مهموم لما يفكر فيه من مصيره ولقاء ربه يوم يفوز المحسنون ويخسر المبطلون ، فطوبى لمن قنع بالكفاف وذكر في غدوة ورواحه المعاد ، وأعدَّ عدته ليوم الحساب يوم موقفه بين يدي الله ، وهو لا يدري أيؤمّر به إلى الجنة أم إلى النار . وإن التفكير في ذلك حرّى أن يملأ نفس المؤمن بالحزن والهم آناء الليل وأطراف النهار .

ولعل في هذا كله ما يوضح المعاني التي كان يخوض فيها الحسن البصري ، وقد كان يختار لها كُسوة حسنة من هذا الأسلوب الذي يشيع فيه الازدواج ، كما يشيع فيه الطباق والتصوير ، وأيضاً فإنه كان يشيع فيه التقسيم من مثل قوله :

« لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث : شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين كسبه وفيما أنفقه . »

وهو بلا ريب أكبر من ثبتوا في هذا العصر ذلك الأسلوب المونق الذي تأثر به عبد الحميد ومن خلفوه من الكتاب إذ كان يقتدر على تصريح الكلم مع السلامة من التكلف والبراءة من التعقيد ، وليس ذلك فحسب بل أيضاً مع تحلية لفظه بالمزاوجات والمقابلات والتشبيهات والاستعارات والتقسيمات الدقيقة .

الفصل السابع الكتابة والكتاب

١

التدوين

كان العرب في الجاهلية أميين ، لا يعرف القراءة والكتابة إلا قليل منهم ، فلما جاء الإسلام أخذ يحضهم - كما مرّ بنا - على تعلم الكتابة وعلى العلم والتعلم . وكان اختلاطهم بعد الفتوح بالأعاجم مهيباً لهم أن يقفوا منهم على فكرة الكتاب وأنه صحف يُجمع بعضها إلى بعض في موضوع معين . وقد أخذوا يتحولون سريعاً من أمة أممية لا تعرف من المعارف إلا ما حواه الصدر ووعته الآذان إلى أمة كاتبة ، تدون معارفها العربية والإسلامية واضعة بعض المصنفات ومضيفة إلى ذلك بعض المعارف الأجنبية .

وكان من أوائل ما عُنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبار آبائهم في الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم ، ومن ثمّ كثر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار^(١) ومن أشهرهم دَغْفَل^(٢) بن حنظلة السدوسي المتوفى سنة ٧٠ للهجرة ، وله مجالس عند معاوية دُوِّنت في كتاب له اسمه « التضايف والتناصر »^(٣) وهي تدور بينهما في أسلوب حيّواري ، إذ يسأل معاوية عن قبائل العرب ويحييه دغفل بعبارات بليغة ، وقد احتفظ الجاحظ منها في بيانه ببعض إجابات طريفة.^(٤)

-
- | | |
|--|---|
| (١) انظر المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٦٥ والبيان والتبيين ٣١٨/١ وما بعدها | الاستيعاب لابن عبد البر ص ١٧٣ أن معاوية أمره أن يعلم يزيد ابنه العربية والأنساب . |
| (٢) راجع في ترجمة دغفل المعارف ص ٢٦٥ والفهرست (طبع مصر) ص ١٣١ وأمثال المهدي ٢٧٣/٢ والإصابة ، وفي | (٣) انظر التحفة الالهية (طبعة إستانبول) ص ٣٨ . |
| | (٤) البيان والتبيين ١٢١/١ ، ٢٤٧ ، ٨٠/٢ ، ٢٥٣ . |

وبجانب ذلك نجد القبائل تُعَنِّي بأخبارها في الجاهلية وأشعارها فتدونها، وتكاثُر هذا التدوين في الكوفة حيث كانت تعيش الأرستقراطية العربية ، مما أتاح الفرصة للرواة من أمثال حماد الراوية أن يحملوا مادة غزيرة من الشعر الجاهلي وكل ما يتصل به من أخبار وأيام^(١) . وبين أيدينا أخبار مختلفة تدل على أن الشعر الإسلامي كان يُكْتَبُ ويدوّن ، من ذلك ما يرويه الجاحظ عن ذي الرُّمَّة من أنه كان يقول لعيسى بن عمر : « اكتب شعري فالكتاب أحب إلى من الحفظ ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام »^(٢) ، وفي أخبار جرير أنه كان يأمر راويته حسيناً بإعداد ألواح ودواة ليُملَى عليه بعض أشعاره^(٣) وأنه كان يقول لسامعيه بالميربد قبدوا قبدوا أي اكتبوا^(٤) ، وفي الأغاني أن خالد بن كلثوم الكلبي كان يدوّن شعره وشعر الفرزدق^(٥) . ونحن لا نصل إلى عصرهما حتى يتكون بالبصرة والكوفة جيل من الرواة ، يُعَنِّي بتدوين أخبار العرب في الجاهلية وأشعارهم ، لعل خير من يمثله أبو عمرو بن العلاء ، وفيه يقول الجاحظ : « كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له ، إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ (تسك) فأحرقها كلها ، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظ بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية »^(٦) .

وعناية العرب في هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم لا تُقاس إلى عنايتهم بتدوين كل ما اتصل بدينهم الحنيف فقد تأسست في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عُنيبت بتفسير الذكر الحكيم ورواية الحديث النبوي وتلقيح الناس الفقه وشئون التشريع . وكان كثيرون من المتعلمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعون . وقد اشتهر ابن عباس في مكة بما كان يحاضر في تفسير القرآن الكريم ، وحمل عنه تفسيره نفر من التابعين

(١) أغاني (دار الكتب) ٩٤/٦ .

(٤) ابن سلام ص ٣٧٤ .

(٢) الحيوان ٤١/١ .

(٥) أغاني (سأسي) ١١/١٩ - ١٢ .

(٣) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيقن) .

(٦) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

ص ٣٠٤ وانظر أغاني (دار الكتب) ٣٢/٨ .

أمثال مجاهد وعطاء، ويقول ابن حنبل «مصر صحيفة في التفسير عن ابن عباس رواها علي بن أبي طلحة» لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً^(١). ولا يحمل تفسير الطبري تفسير ابن عباس وحده، بل يحمل أيضاً كل ما رواه الرواة عن معاصريه أمثال عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب. وقد أخذت تعظم هذه المادة بما أضاف إليها التابعون. وما نشك في أن كثيراً منها دون في هذا العصر، وإلا ما وصلت إلى الطبري. وكان الصحابة والجيل الأول من التابعين كما مر بنا في غير هذا الموضع يترددون في تدوين الحديث، غير أن بينهم قوماً كانوا لا يكتفون بالحفظ خشية النسيان، فعمدوا إلى كتابة ما سمعوه على نحو ما يصور لنا ذلك البغدادي في كتابه «تقييد العلم». ونحن لا نصل إلى عصر عمر بن عبد العزيز حتى نراه يأمر بتدوين الحديث، ويعتني بذلك كما مر بنا الزهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة فيدونه، ويتابع التدوين فيه. وعلى نحو ما أخذوا في تدوين الحديث والتفسير أخذوا في تدوين الفقه، وخاصة تلاميذ ابن مسعود كما يلاحظ ذلك ابن قيم الجوزية، فإنهم حرروا فتياه ومذهبه في التشريع^(٢). ويذكر جولدسبير أن عروة^(٣) بن الزبير كانت له كتب فقه احترقت يوم الحرة^(٤). ويظهر أن عناية الشيعة بكتابة الفقه كانت قوية لا اعتقادهم في أئمتهم أنهم المهادون المهديون الذين ينبغي أن يلتزموا بفتاواهم ومن ثم عنوا بفتاوى علي وأفضيته؛ ويظهر أن أول من ألف فيها سليم بن قيس الهلالي معاصر الحجاج^(٥)، وذكر جولدسبير أنه يوجد في المكتبة الأمروزية بميلانو مختصر في الفقه اسمه «مجموعة زيد بن علي»^(٦).

وأخذت تدون منذ القرن الأول مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم ومن عُنوا

- | | |
|--|---|
| (١) انظر النوع التاسع والسبعين في كتاب الإتيقان للسيوطي. | وصفة الصفوة ٤٧/٢ والمعارف لابن قتيبة ص ١١٤ |
| (٢) راجع تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لمصطفى عبد الرازق ص ١٩٢ وانظر إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية. | (٤) انظر مادة فقه في دائرة المعارف الإسلامية. |
| (٣) انظر في ترجمة عروة تهذيب التهذيب. | (٥) الفهرست ص ٣٠٧. |
| (٦) انظر في ترجمة عروة تهذيب التهذيب. | (٦) مادة فقه في دائرة المعارف الإسلامية. |

بها عروة بن الزبير وأبان^(١) بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ للهجرة ووهب^(٢) ابن منبّه المتوفى سنة ١١٤. وأخذت تنضم إليها مادة تاريخية إسلامية عن الفتوح وأخبار الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وخلافة ابن الزبير ومقتل الحسين، ومن كل ذلك ألف المؤرخون المخضرمون الذين عاشوا في العصرين الأموي والعباسي كتبهم التاريخية التي يُفِيضُ الفهرست لابن النديم في بيان أسماؤها، وعلى رأسهم محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦. وابن إسحق المتوفى سنة ١٥٠. ومنذ أوائل العصر نجد عناية بأخبار الأمم السالفة، وتمثلت هذه العناية في معاوية، إذ استقدم عبيد^(٣) بن شربة الجهمي اليمنى ليحدثه في مجالسه عن أخبار ملوك العرب الماضين، وأمر معاوية بعض غلمانه بكتابة ما كان يسرده من تاريخهم، فتألف من ذلك كتابه «أخبار الأمم الماضية» وكان متداولاً في عصر المسعودي^(٤). وقد طُبِعَ له في «حيدرآباد» كتاب باسم «أخبار عبيد بن شربة الجهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها» وهو يدور في أسلوب حوارى، إذ يسأل معاوية ويحيب عبيد، ويستهل بأخبار عاد ولقمان وثمود ثم يتحدث عن هجرة جرهم من اليمن وأخبار تُبَعِّع إلى زمان مملكة طسم وجديس، وتتخلله أشعار كثيرة. ومن نمطه كتاب التيجان لوهب بن منبه، وهو مطبوع معه، وهو يتحدث عن ملوك حمير والقرون الغابرة. ولوهب كتاب يسمى «المتبدأ في الأمم الحالية» ذكره المقدسى^(٥) وقال السخاوى إنه كثير الخرافات^(٦). وله في الإسرائيليات كتاب نقل عنه المفسرون كثيراً، وفي مكتبة بلدية الإسكندرية كتاب يُنسَبُ إليه باسم «قصص الأنبياء». ويلمع في هذا الاتجاه من أخبار أهل الكتب السماوية اسم كعب^(٧)

- | | |
|--|---|
| (١) انظر في ترجمة أبان المعارف ص ١٠١ وتهذيب التهذيب والفهرست ص ٤٥ وابن سعد ١١٢/٥ والنووى (طبعة وستفولد) ص ١٢٥. | (٢) راجع في ترجمته الفهرست ص ١٣٢ والمصيرين لأبي حاتم السجستاني ومعجم الأدباء ٧٢/١٢. |
| (٣) انظر ترجمته في كتاب المعارف ص ٣٠١، ٢٣٣ وطبقات ابن سعد ٣٩٥/٥ وميزان الاعتدال ٢٧٨/٣ وتهذيب ابن حجر وطبقات الحفاظ للسيوطى ١٧/١ وشذرات ابن الهادي ١٥٠/١. | (٤) مروج الذهب (طبعة أوربا) ٨٩/٤. |
| (٥) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١١٥. | (٦) الإعلام بالتوبيخ ص ٤٨. |
| (٧) انظر في ترجمة كعب الإصابة والمعارف ص ٢١٩ وابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ١٥٦. | |

الأخبار المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان من يهود اليمن وأسلم وقد طبع له في القرن الماضي كتاب بمطبعة بولاق « في حديث ذى الكِفْل » .

وتلقانا بجانب ذلك إشارات إلى مصنفات تاريخية وأدبية وعقيدية ، من ذلك وَضَعُ زياد بن أبيه لكتاب في المثالب ^(١) ووَضَعُ ابن مفرغ الشاعر قصة تَبَعُ وأشعاره ^(٢) وتأليف كل من علاقة الكلاني ^(٣) معاصر يزيد بن معاوية وصُحار ^(٤) العَبْدَى كتاباً في الأمثال . ومن ذلك كتاب ^(٥) في الوصايا والحكم للمستورد بن عُلْفَةَ الخارجي . ومن ذلك أيضاً تصنيف وهب بن منبّه لكتاب في القَدَر ^(٦) ، ويقول صاحب الفهرست إن لغيلان ^(٧) المرجيء رسائل في ألفى ورقة ^(٨) ، ومع أنها كانت تدور في المواعظ ^(٩) تؤمن بأنها حملت آراءه في الإرجاء . ويقول الجاحظ إن رسائل واصل بن عطاء رأس المعتزلة وخطبه كانت مدونة ^(١٠) . ومربنا في الفصل السابق ذكر رسالتين للحسن البصري أرسل بهما إلى الحجاج وعبد الملك يحتج لرأيه في القدر ، وهو ممن أملوا تفسيراً حُمِلَ عنه ^(١١) . ونجد يونس الكاتب يضع أول كتاب في الغناء ^(١٢) ، وقد نسب له صاحب الفهرست فيه ثلاثة كتب ^(١٣) .

وفي ذلك كله ما يدل على اتساع حركة التدوين في عصر بني أمية ، ولا نشك في أن القوم دونوا جملة رسائلهم السياسية ، وإلا ما استطاع الطبرى وغيره أن يرووها وكذلك قُلُ في رسائلهم الوعظية والشخصية فإنهم دونوا منها كثيراً . ويسوق لنا صاحب الفهرست أسماء طائفة من الكتّاب البلغاء لهذا العصر كانت رسائلهم مدونة ^(١٤) . وبالمثل كانوا يدونون كثيراً من خطبهم ، وخاصة خطب

- | | |
|--|---|
| (١) انظر الفهرست ص ١٣١ . | (٩) انظر عيون الأخبار ٢/٣٤٥ . |
| (٢) أغاني (سأى) ٥٢/١٧ . | (١٠) البيان والتبيين ١/١٥ . |
| (٣) الفهرست ص ١٣٢ . | (١١) مختصر جامع بيان العلم لابن عبد البر ص ٣٧ . |
| (٤) نفس المصدر ص ١٣٢ . | (١٢) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) |
| (٥) المبرد ص ٥٧٨ . | ٣٩٨/٤ . |
| (٦) انظر معجم الأدباء ١٩/٢٥٩ . | (١٣) الفهرست ص ٢٠٧ . |
| (٧) مضت مصادر ترجمته في الفصل الثاني من هذا الكتاب . | (١٤) الفهرست ص ١٧٠ وما بعدها . |
| (٨) الفهرست ص ١٧١ . | |

الخلفاء والخطباء النابهين وعظماؤا وغير وعظاظ ، من مثل الحسن البصرى وواصل ومثل خالد بن صفوان^(١) المتوفى سنة ١٣٥ وفيه يقول الجاحظ كما أسلفنا : «لكلامه كتاب يدور فى أيدى الوراقين»^(٢) ومرت بنا فى الفصل السالف موعظة لزياد بن أبيه كان يتداولها الناس وكتبها عبد الملك بن مروان بيده .

وأخذوا منذ أوائل هذا العصر ينقلون عن الموالى بعض معارفهم ، وقد مرّ بنا فى حديثنا عن الثقافة كيف كان خالد بن يزيد بن معاوية مشغولاً بكتب النجوم والكيمياء والطب . ويقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرات ، وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته فى الصنعة »^(٣) . ومرّ بنا أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أمر ماسرجويه بنقل كتاب القس أهرن فى الطب ، ويروى الرواة أن ثياذوق طبيب الحجاج ابن يوسف نظم فى علم الصحة قصيدة ظل الناس يتناقلونها حتى عصر ابن سينا^(٤) وذكرنا أيضاً أن سالماً مولى هشام نقل بعض رسائل أرسططاليس من اليونانية ، وقد اشتهر تلميذه عبد الحميد بنقل بعض رسائل الفرس السياسية^(٥) . ويقال إنه نقل لهشام كتاب عن الفارسية فى تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية^(٦) . ومعنى كل ما قدمنا أن التدوين أخذ يذيع وينتشر بين العرب لهذا العصر فى جميع فروع المعرفة دينية وغير دينية وعربية وغير عربية . ونقف الآن لتحدث عما خالف العصر من رسائل مختلفة .

٢

كثرة الرسائل المدونة

تزخر كتب التاريخ والأدب برسائل سياسية كثيرة أثرت عن هذا العصر .

- | | |
|---|--|
| (١) انظر فى خالد المارث ص ٢٠٦ | (٤) انظر طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٢١/١ وابن القفطى ص ١٠٥ . |
| والبيان والتبيين فى مواضع متفرقة (راجع الفهرست) وابن خلكان ومعجم الأدباء ٢٤/١٢ والفهرست ص ١٥١ ، ١٦٧ ، ١٨١ . | (٥) الصناعتين لأبى هلال العسكري (طبعة الحلبي) ص ٦٩ . |
| (٢) البيان والتبيين ١/٣٤٠ وانظر الفهرست ص ١٥١ . | (٦) انظر «صفحات عن إيران» لصادق نشأت ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو) ص ٨١ |
| (٣) الفهرست ص ٤٩٧ . | |

وَحَقًّا هُنَاكَ كُتِبَ تَزْيِيدٌ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَنَقَصِدُ كُتُبَ الشَّيْعَةِ مِنْ مِثْلِ شَرْحِ ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ عَلَى نَهْجِ الْبَلَاغَةِ وَكَذَلِكَ كِتَابُ الْإِمَامَةِ وَالسِّيَاسَةِ الْمُنْسُوبِ إِلَى ابْنِ قَتِيْبَةٍ. وَلَكِنْ إِذَا نَحْنُ هَذِينَ الْكُتَّابِينَ وَأَضْرَابَهُمَا وَاعْتَمَدْنَا عَلَى الْكُتُبِ الْوَثِيقَةِ مِنْ مِثْلِ الطَّبْرِيِّ وَالْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ وَالْكَامِلِ لِلْمُبَرِّدِ اسْتَقْبَلْتُنَا وَخَاصَّةً فِي الطَّبْرِيِّ سَيُولُ مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ كُتِبَتْهَا عَلَى مَرَّ الْعَصْرِ وَأَحْدَاثِهِ فَرَقَ الْخَوَارِجَ وَالشَّيْعَةَ وَالزُّبَيْرِيْنَ وَمَنْ ثَارُوا عَلَى الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ أَمْثَالُ ابْنِ الْأَشْعَثِ ، كَمَا كُتِبَتْهَا خُلَفَاءُ بَنِي أُمَيَّةٍ وَوَلَاتِهِمْ وَقَوَادِمُ .

وَلَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَعْرِضَ كُلَّ مَا رُوِيَ لِلْخَوَارِجِ مِنْ رِسَالَةٍ ، لَكثَرَتِهَا ، وَمِنْ ثَمَّ سَنَكْتَفِي بِالْحَدِيثِ عَنْ أَهَمِّ رِسَالَتِهِمْ ، وَمَعْرُوفٍ مَا شَتَّجَرَ بَيْنَهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَدَّى كَمَا مَرَّ بَنَا إِلَى تَفْرِقِهِمْ أَرْبَعَ فَرَقٍ ، هِيَ الْأَزَارِقَةُ وَالنَّجْدِيَّةُ وَالصُّفُورِيَّةُ وَالْإِبَاضِيَّةُ ، وَقَدْ مَضَى الْأَوَّلُونَ بِقِيَادَةِ نَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ بِحَرْمُونِ الْقَعُودِ عَنْ الْخُرُوجِ وَيَسْتَحَاوُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَقَتْلَ أَطْفَالِهِمْ ، وَخَالَفْتَهُمْ فِي ذَلِكَ الْفَرَقُ الْآخَرَى . وَيَسُوقُ الْمُبَرِّدُ فِي تَصْوِيرِ هَذَا الْخِلَافِ رِسَالَتَيْنِ ^(١) مُتَبَادِلَتَيْنِ بَيْنَ نَجْدَةَ بْنِ عَامِرِ الْحَنْفِيِّ زَعِيمِ النَّجْدَاتِ وَنَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ ، فَتَجِدُهُ يَرَاجِعُهُ فِي مَقَالَتِهِ ، وَنَافِعٍ يَحْتِجُ لَهَا . وَالرِّسَالَتَانِ وَثِيقَتَانِ طَرِيفَتَانِ فِي بَيَانِ مَقَالَتِي النَّجْدَاتِ وَالْأَزَارِقَةِ . وَمَرَّ بَنَا كَيْفَ قَادَ الْأَزَارِقَةُ مَعَ قَوَادِمِ مَصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ حَرْبًا عَنِيفَةً عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قَتْلِ قَائِدِهِمْ نَافِعٍ فِي وَقْعَةِ دَوْلَابٍ ، فَقَدْ ظَلَمُوا بِحَارِبُونَ قَائِدَهُ الْمُهْلَبَ ، حَتَّى إِذَا دَخَلْتَ الْعِرَاقَ فِي طَاعَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ مَضَوْا فِي ثَوْرَتِهِمْ ، وَظَلَّتِ الْجَيْشُ تَوَجُّهًا إِلَيْهِمْ ، يُوْجِّهُهَا وَلَاةَ الْعِرَاقِ وَخَاصَّةً الْحِجَاجَ ، وَكَانَ زَعِيمُهُمْ لِعَهْدِهِ قَطْرِي ابْنُ الْفُجَّاءِ ، وَنَرَى الْحِجَاجَ يَرِاسِلُهُ مَهْدَدًا مُتَوَعِّدًا ، وَيُرَدُّ عَلَيْهِ قَطْرِي بِنَفْسِ الصُّورَةِ مِنَ التَّهْدِيدِ وَالتَّوَعُّدِ ، وَنَحْنُ نَسُوقُ رِسَالَتَيْنِ ^(٢) لِهَمَا تَصَوُّرًا كَيْفَ كَانَ يَتَرِاسَلُ الْوَلَاةُ مَعَ الثَّائِرِينَ مِنْ خَوَارِجٍ وَغَيْرِ خَوَارِجٍ ، أَمَا رِسَالَةُ الْحِجَاجِ فَتَجْرَى عَلَى هَذَا النَّمَطِ .

«سَلَامٌ عَلَيْكَ . أَمَا بَعْدَ فَإِنَّكَ مَرَّقْتَ مِنَ الدِّينِ مَرَّوْقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، وَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ تَجَرَّعْتُمْ ، ^(٣) ذَاكَ أَنَّكَ عَاصٍ لِلَّهِ وَلَوْلَاةُ أَمْرِهِ . غَيْرَ أَنَّكَ أَعْرَابِيٌّ

(١) الْمُبَرِّدُ ص ٦١١ وَمَا يَعْدُهَا .

ص ٢١٤ .

(٢) الْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ ٣١٠/٢ وَانْظُرِ الْمُبَرِّدَ

(٣) تَجَرَّعْتُ الشَّيْءَ : أَخَذْتُ مَعْظَمَهُ .

جِلْفٌ^(١) أُمِّي تَسْتَطْعِمُ^(٢) الْكَيْسِرَةَ وَتَسْتَشْفِي^(٣) بِالْقَمَرَةِ، وَالْأُمُورَ عَلَيْكَ حَسْرَةً، خَرَجْتَ لَتْنَالِ شُبْعَةٍ^(٤)، فَلَحِقَ بِكَ طَعَامٌ^(٥) صَلَّوْا بِمَا صَلَّيْتَ بِهِ مِنَ الْعِيشِ، فَهَمَّ يَهْزُونَ الرِّمَاحَ وَيَسْتَنْشِثُونَ^(٦) الرِّيحَ، عَلَى خَوْفٍ وَجْهٍ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَمَا أَصْبَحُوا يَنْتَظِرُونَ أَعْظَمَ مِمَّا جَهِلُوا مَعْرِفَتَهُ، ثُمَّ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بَيْنَ زَحْتَيْنِ^(٧). وَالسَّلَامُ».

وأجابه قطري :

« سلام على الخُدَّاءِ مِنَ الْوَلَاةِ الَّذِينَ يَرْعَوْنَ حَرِيمَ اللَّهِ وَيَرْهَبُونَ نِقَمَهُ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَظْهَرَ مِنْ دِينِهِ، وَأُظْلِعَ بِهِ أَهْلَ السُّفَالِ^(٨) وَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالِ وَنَصَرَ بِهِ عِنْدَ اسْتِخْفَاكَ بِحَقِّهِ. كَتَبْتُ إِلَى تَذَكُّرِ أُنَى أَعْرَابِي جِلْفٌ أُمِّي أَسْتَطْعِمُ الْكَيْسِرَةَ، وَأَسْتَشْفِي بِالْقَمَرَةِ، وَلَعَمْرِي يَا ابْنَ أُمِّ الْحِجَااجِ^(٩) إِنَّكَ لَمَتَيْتَهُ فِي جَيْبِلَتِكَ^(١٠)، مُطْلَخِيمٌ^(١١) فِي طَرِيقَتِكَ، وَاهٍ فِي وَثِيقَتِكَ^(١٢)، لَا تَعْرِفُ اللَّهَ وَلَا تَجْزَعُ مِنْ خَطِيئَتِكَ، يَثُتَ وَاسْتِيَأَسْتَ مِنْ رَبِّكَ، فَالْشَّيْطَانُ قَرِينُكَ، لَا تَجَاذِبُهُ وَتَأَقَّكَ، وَلَا تَنَازَعُهُ خِنَاقُكَ. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَوْ شَاءَ أَهْرَزَ لِي صَفْحَتَكَ، وَأَوْضَحَ لِي صِلَتَكَ^(١٣)، فَوَالَّذِي نَفْسُ قَطْرِي بِيَدِهِ لَعَرَفْتُ أَنَّ مَقَارِعَةَ الْأَبْطَالِ لَيْسَ كَتَصْدِيرِ^(١٤) الْمَقَالِ، مَعَ أُنَى أَرْجُو أَنْ يَدْحَضَ اللَّهَ حُجَّتَكَ، وَأَنْ يَمْنَحَنِي مُهْنَجَتَكَ ».

وواضح أن كلا منهما يرى صاحبه بالضلالة والغواية، وقد عُنِيََا جَمِيعاً بِالتَّأْنِقِ فِي أَسْلُوبِهِمَا. وَمِنْ ثَمَّ زَيَّنَّا كَلَامَهُمَا بِالسَّجْعِ. وَإِذَا تَرَكْنَا الْأَزَارِقَةَ إِلَى الصُّفْرِيَّةِ وَجَدْنَا شَبِيهًا يَرِاسِلُ صَالِحَ بْنِ مَسْرَحٍ حَاضِئًا عَلَى الْخُرُوجِ^(١٥). وَلَمْ تَحْتَفِظِ الْمَصَادِرُ بِرِسَائِلِ لِلنَّجْدَاتِ وَالْإِبَاضِيَّةِ.

(٨) أظلع : من الظلع وهو العرج. السفال :

سفل الخلق.

(٩) يقولون ذلك إذا أرادوا الطعن في النسب.

(١٠) متيه : مضلل. الجيلة : السجية.

(١١) مطلق : متعجرف.

(١٢) الوثيقة : الثقة.

(١٣) كناية عن ذلته وانكشاف أمره.

(١٤) تصدير المقال : تسليطه وتحبيره.

(١٥) طبري ٥٢/٥.

(١) جلف : جاف.

(٢) تستطعم الناس : تسألهم أن يطعموك.

(٣) تستشفي : تطلب الشفاء.

(٤) الشبة : ما يشبع من الطعام.

(٥) طعام الناس : أرزاهم.

(٦) يستنشثون الرياح : يتنسمونها، كناية

عن جوعهم.

(٧) يشير الحجاج إلى هزيمتين هزمهما

الأزارقة أمام المهلب بن أبي صفرة.

ورسائل الشيعة في هذا العصر كثيرة ، وأول حادث تكثر رسائلهم فيه استدعاء أهل الكوفة للحسين وما كان بينه وبينهم من مراسلات (١) تحضُّ على الثورة على بني أمية لظلمهم الرعية واغتصابهم الخلافة من أصحابها الشرعيين. ونمضى بعد مقتله فتلقنا حركة التوَّابين ، وبصوِّ زعيمهم سليمان بن صُرَد في مكاتبتة لبعض أصحابه ندمهم على خيْد لان الحسين ، وأنه ليس لهم من مخرج ولا توبة إلا بالثأر من قاتليه (٢) . وسرعان ما تنشب حركة المختار الثقفي لعهد ابن الزبير ، ويستولى على الكوفة ، ويكثر من المكاتبة إلى شيعته وإلى ابن الحنفية ، ويكتب إلى بعض زعماء البصرة مهدداً متوعداً إن لم يتبعوه على شاكلة هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الأحنف زعيم تميم ، وفيها يقول (٣) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس ومن قبيله ، فسلم أنتم ، أما بعد فويل أم ربيعة من مضر (٤) ، فإن الأحنف مورد قومه سقر (٥) ، حيث لا يستطيع لهم الصدر (٦) ، وإني لأملك ما خُطَّ في القدر ، وقد بلغني أنكم تسمونني كذاباً ، وإن كُذِّبْتُ فقد كُذِّبْتُ رسل من قبلي ، ولست بخير من كثير منهم » .

وفي الرسالة خصائصه التي مرت بنا في خطابته ، إذ كان يُعنى باختيار ألفاظه والسجع في كلامه ، وفيها إيهاماته وادعاءاته إذ يشير من طرف خفي إلى أنه يوحى إليه . ومن ثم كان يستخدم السجع كثيراً في خطابته وأحاديثه كما استخدمه في الرسالة الآتية (٧) .

وأثرت عن ابن الزبير وولاته في العراق رسائل كثيرة احتفظ بها الطبرى ، كما احتفظ برسالة كتب بها إليه المختار (٨) الثقفي . ونرى وولاته يكتبون من وجهونهم إلى الخوارج (٩) . وملتقى في عصر الحجاج بثورة ابن الأشعث ومعروف أنه اتخذ كاتباً له أيوب بن القريظة المشهور بسجعه .

- | | |
|---|------------------------------|
| (١) طبرى ٢٥٧/٤ وما بعدها . | من قبائل مضر . |
| (٢) طبرى ٤٢٩/٤ . | (٥) سقر : جهنم . |
| (٣) طبرى ٥٣٩/٤ . | (٦) الصدر : الرجوع . |
| (٤) يقولون ويل أم فلان إذا أودوا التعجب منه . وكان المختار يعلى من شأن قبائل ربيعة التي آزرته ، ويقول إنها ستنكل بتميم وغيرها . | (٧) المبرد ص ٥٩٦ وما بعدها . |
| | (٨) طبرى ٥٤١/٤ . |
| | (٩) طبرى ٤٨١/٤ وما بعدها . |

وإذا كانت الكتابات السياسية قد كثرت في البيئات المعارضة للدولة فإن الدولة نفسها كانت تستخدمها استخداماً أكثر وأغزر ، إذ كان الخلفاء يكتبون بالعهد إلى من يتولون الخلافة بعدهم^(١) ، سُنَّة وضعها أبو بكر وعمر وسار عليها خلفاء بني أمية . وكذلك كانوا يكتبون بالعهد إلى من يولّونهم على الولايات^(٢) . وكانت الكتب لا تزال ذاهبة آية بينهم وبين ولايتهم في كل كبيرة وصغيرة . وكان قوادهم كلما فتحوا بلداً واستجاب إليهم أهلها عقدوا معهم المعاهدات .

ولا نستطيع أن نعرض بالتفصيل لكل ما دار بينهم وبين ولايتهم وقوادهم من مراسلات يطّنج بها الطبرى وغيره ، ويكفى أن نقول إنه ليس هناك حادث مهم ولا ثورة إلا والرسائل تتساقط كالغيث ، فزياد بن أبيه يكتب مراراً لمعاوية في شأن حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة^(٣) ، ويرد عليه . ويكتب يزيد إلى ولاته في الحجاز بشأن عبد الله بن الزبير والحسين بن علي^(٤) ، وتكثر الرسائل بينه وبين عبيد الله بن زياد في وفود الحسين على العراق وما كان من مصرعه^(٥) . ولم تكثر الرسائل السياسية بين الخلفاء وولايتهم كما كثرت في عهد عبد الملك وخاصة بينه وبين الحجاج لكثرة الفتن والثورات التي نشبت في العراق وخراسان . وكان الحجاج نفسه يكثر من الكتابة إلى قواده ، ويكثر من الرد عليه ، وكان يكتب أحياناً إلى الثوار أنفسهم على شاكلة رسالته الآنفة التي أرسل بها إلى قطرى . ولا بد أن نقف قليلاً عنده إذ كان يُعنى بتحرير رسائله على نحو ما كان يعنى بتحرير خطبه . ونراه يكثر من مراسلة المهلب وحثه على الفتك بالخوارج الأزارقة حتى لا تقوم لهم قائمة^(٦) ، كما يكثر من مراسلة قواده في حروب الخوارج الشيبية^(٧) وفي فتنة ابن الأشعث^(٨) وحروب خراسان^(٩) . ورسالته مثل سياسته التي اشتهر بها تقطر شدة وحدة ، حتى في مخاطبته لبعض الأمراء ، فقد كتب إلى سليمان بن عبد الملك — وهو لا يزال ولياً للعهد — من رسالة له : « إنما

- | | |
|-----------------------------------|--|
| (١) طبرى ٣٠٧/٥ . | والكتاب للجيشياري ص ٣١ . |
| (٢) الوزراء والكتاب ص ٣١ ، ٦٦ . | (٦) طبرى ١٢٠/٥ والمبرد ص ٦٦٧ وما بعدها . |
| (٣) طبرى ٢٠٢/٤ وما بعدها . | (٧) طبرى ٧٩/٥ وما بعدها . |
| (٤) طبرى ٢٥٠/٤ وما بعدها . | (٨) طبرى ١٤٩/٥ وما بعدها . |
| (٥) طبرى ٢٦٥/٤ وما بعدها والوزراء | (٩) طبرى ١٤٠/٥ ، ١٤٦ . |

أنت نقطة من مِداد ، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة فإن شئت محوتك وإن شئت أثبتك^(١) . وكان الخلاف دبَّ بينهما ، ومن ثمَّ حاول كما قدمنا أن يصرف ولاية العهد عنه ، ولكن الموت عاجله وعاجل الوليد بن عبد الملك قبل تنفيذ هذه المحاولة . ومعروف أنه كان صنيعه عبد الملك ، فهو الذي أظهره ، وما زال يرفع من أمره حتى ولاَّه العراق وخراسان ، وكان إذا كتب إليه تأتَّى ما استطاع في تعبيره ، ومن خير ما يصوِّر ذلك رسالة احتفظ بها الجاحظ ، يصف فيها لعبد الملك خِصْباً بعد جدِّب ومطرّاً بعد قسَحَط ، وهي تجري على هذا النمط^(٢) :

« أما بعد فلما نُخبر أمير المؤمنين أنه لم يُصب أرضنا وإبلٌ منذ كتبت أخبره عن سُقيا الله إيانا إلا ما بَلَ وجه الأرض من الطَّشِّ والرَّشِّ والرَّذاذ^(٣) ، حتى دَقَعَت^(٤) الأرض واقتشعرت^(٥) واغبرت^(٦) وثارت في نواحيها أعاصير تذرُّو^(٧) دُقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلأحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها^(٨) وامتناعها ، وأرضنا أرض سريعٍ تغيُّرها ، وشيكٌ تنكِّرها ، سَيَّءٌ ظنُّ أهلها عند قحوظ المطر ، حتى أرسل الله بالقبول^(٩) يوم الجمعة ، فأثارت زَبْرَجاً متقطعاً متمصراً^(١٠) ، ثم أعقبته الشَّمال^(١١) يوم السبت ، فطَحَطَحَتْ^(١٢) عنه جبهاهمه^(١٣) وألَّفت متقطعته ، وجمعت متمصَّره ، حتى انتضد فاستوى ، وطَما وطحا^(١٤) ، وكان^(١٥) جَيَّوناً^(١٦) مرثعناً^(١٧) ، قريباً رواعده ، ثم عادت عوائده بوابلٍ منهمل

(١٠) الزبرج : السحاب الرقيق ، والمتصمر :

المتقطع .

(١١) الشمال : الريح الشمالية .

(١٢) طحطحت : بددت وفقرت .

(١٣) الجهام : السحاب لأماء فيه .

(١٤) طما : امتلأ وزخر ، وطحا : انبسط

وملا الأفق .

(١٥) كان هنا بمعنى صار .

(١٦) الجون : الضارب إلى السواد

(١٧) مرثعنا : سائلا .

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٩٧ .

(٢) البيان والتبيين ٤/ ٩٩ .

(٣) الطش والرش والرذاذ : المطر القليل .

(٤) دقعت : خلت من النبات .

(٥) اقتشعرت : تقبضت من الجذب .

(٦) اغبرت : تربت من الغبار .

(٧) تذرُّو : تسقى وتحمل .

(٨) الاعتزاز : من العزاز ، وهي الأرض

الصلبة .

(٩) القبول : الريح الشرقية .

مُنسَجَل^(١) ، يردف^(٢) بعضه بعضاً ، كلما أردف شؤبوب أردفته شأبيب^(٣) لشدة وقعه في العراض^(٤) . وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وهي ترى بمثل قِطْعِ القُطُن ، قد ملأَ اليتاب^(٥) . وسدَّ الشَّعَاب^(٦) ، وسقَى منها كلُّ ساقٍ . فالحمدُ لله الذي أنزل غَيْثَهُ ونشر رحمته من بعد ما قَنَطُوا^(٧) ، وهو الوليُّ الحميد ، والسلام .

ويتضح في الرسالة ما اشتهر به الحجاج في خطبه من تزيينها بالصور الدقيقة والألفاظ الغريبة . وكان غيره من الولاة والقواد لا يزالون يحتالون لكلامهم ، وينمقونه صوراً مختلفة من التتميق ، وسرى عما قليل طبقةٌ من الكتاب المحترفين تتوفر على إدراك هذه الغاية بكل وسيلة ، وهم كتَّاب الدواوين .

وأخذت تشيع ، وخاصة منذ أواخر القرن ، كتابات وعظية كثيرة ، وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعَّاظ أن يرسلوا إليه بعضاتهم ، ويُرَوِّى أنه لما ولى الخلافة أرسل إلى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فدبَّج له رسالة طويلة استهلها بقوله^(٨) .

«اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قيام كل مائلة وقصد^(٩) كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفته^(١٠) كل مظلوم ، ومفرغ كل ملهوف . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على لبله ، الرفيق بها ، الذى يرتاد لها أطيب المراعى ، ويذودها عن مَرَاتِعِ الهلكة ، ويحميها من السَّبَاع ، ويكفيها من أذى الحَرِّ والقُرِّ^(١١) . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة بولدها ، حملته كرها ، ووضعت كرها ، وربته طفلاً ، تسهر به بصره ،

(١) منسجل : منصب .

(٢) يردف : يتبع .

(٣) الشأبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة

(٤) العراض : جمع عرض وهو الناحية .

(٥) اليتاب : الموضع الخالى لا نبات فيه .

(٦) الشَّعَاب : جمع شعاب وهو القاف .

(٧) قَنَطُوا : مثلث القاف .

(٨) الرسالة : مائة وثمانون .

(٩) قصد : هداه .

(١٠) نصفته : من الإنصاف .

(١١) القُر : البرد ، مثلث القاف .

وتسكن بسكونه، تُرَضِّعُه تارةً وتقطعه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايبته .
ومضى يذكر له حقوق الرعية عليه وحقوق الدين وما ينتظره من الموت
والبعث والوقوف بين يدي الله وما ينبغي أن يتزوَّدَ لذلك من التقوى والحكم الصالح .
والحسن في هذه الرسالة يستخدم نفس أسلوب خطابته الذي مرَّ بنا وصفه ،
والذي يقوم على الازدواج وتزيين المعاني بالصور حتى تتمكن في النفس ، وكان
يزيدها تمكيناً بمقابلاته وطبقاته الكثيرة . وكان يجاريه - كما قدمنا - في هذا
الأسلوب كثير من الوعاظ ، وعلى رأسهم غيَّيلان الدمشقي ، ويُروى أنه كتب
إلى عمر بن عبد العزيز يعظه في رسالة طويلة ، منها قوله (١) :

« اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خلةً بالياً ، ورَسَمًا عافياً ، فياميتُ
بين الأموات لا ترى أثراً فتتبع ولا تسمع صوتاً فتنتفع ، طَفَيْتُ أمر السنة ،
وظهرت البدعة ، أُخيف العالم فلا يتكلم ، ولا يُعطى الجاهل فيسأل . »

وقد أشاد الجاحظ ببلاغته (٢) ، مشيراً إلى أن أدباء العصر العباسي كانوا
يتحفظون كلامه وكلام الحسن البصري ، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة
البيانية (٣) . وما نشك كما أسلفنا - في أن بلغاء الكتاب في عصرهما كانوا
يجارونهما في أساليبهما هما وأضرابهما من الوعاظ ، فنحن لا نقرأ في
سالم وعبد الحميد الكاتب حتى نجد عندهما نفس هذا الأسلوب الذي يتحلى
بالبطاقة والتصوير والذي يقوم على التوازن في الكلام توازناً ينتهي به إلى الازدواج ،
حتى يؤثر في أنفس من يقرءونهما ويستوليا على ألبابهم .

وبجانب الكتابات الوعظية والسياسية شاعت في هذا العصر الكتابات
الشخصية ، بحكم تباعد العرب في مواطنهم ، وبتأثير بعض الظروف من موت
يقتضى التعزية أو ولاية تقتضى التهئة ، أو شفاعاة عند والٍ لقریب أو صديق ،
أو عتاب أو اعتذار . وطبيعي أن لا يُعنى أصحاب هذه الكتابات بتسجيلها ،
لأنها لم تكن تتصل بحياة الأمة ، ومن ثم سقط جمهورها من يد الزمن إلا بقية
قليلة ، فمن ذلك رسالة عقال بن شَبَّبة إلى خالد القسري في شفاعاة تجرى على
هذه الصورة (٤) :

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٦ .

(٢) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي

صفوت ٤١٦/٢ .

(٣) البيان والتبيين ٢٩/٣ .

(٤) نفس المصدر ٢٩٥/١ .

« إن الله انتجَبَكَ ^(١) من جوهرة كرم، ومنبت شرف، وقَسَمَ لك خَطَرًا ^(٢) شهرته العرب، وتحدثت به الحاضرة والبادية : وأعان خَطَرَكَ بقدرة مقسومة، ومتزلة ملحوظة، فجميعُ أكفائك من جماهير العرب يعرف فضلك، ويسرُّه ما خارَ ^(٣) الله لك، وليس كلهم أداله ^(٤) الزمان ولا ساعده الحظ. وأحقُّ مَنْ تعطفَ على أهل البيوتات، وعاد لهم بما يبقى له ذكره، ويحسن به نشره، مثلك. وقد وجَّهْتُ إليك فلانا، وهو من دَنِيَّة ^(٥) قرابتي، وذوى الهيئة من أسرتي، عرفَ معروفك، وأحببت أن تُنَبِّسَه نعمتك، وتصرفه إلى، وقد أودعتني وإياه ما تجده باقياً على النَّشْرِ، جميلاً في الغيب ^(٦) ».

وتدل هذه الرسالة دلالة واضحة على أن كتَّاب الرسائل الشخصية أو على الأقل طائفة منهم كانت تُعنى عناية شديدة باختيار ألفاظها وتنسيقها، متوسلة إلى ذلك بكل ما تستطيع من انتخاب الألفاظ الرشيقة وإحداث التوازن الموسيقي في الكلام، مع دقة التعبير وتجليته عن المعنى، والفقه الحسن بمدخل التأثير في نفس القارئ وما ينبغي أن يسلك إليه الكاتب من طرق كي يستولى على عقله، فيقضي له حاجته. ومن اشتهر في هذا اللون من الرسائل الشخصية عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الذي قُتل بخراسان بأخرة من هذا العصر، فقد كان لَسِيناً بليغاً، يعرف كيف يحولك الكلم ويصوغه صياغة باهرة على نحو ما نجد في هذه الرسالة التي كتب بها إلى بعض إخوانه معاتباً، إذ يقول ^(٧) :

« أما بعد فقد عاقني الشكُّ في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، ابتدأتني بلطف عن غير خِبرَةٍ، ثم أعقبني جفاء عن غير ذنب، فأطمعني أولئك في إخالك : وأيأسني آخرُك من وفائك، فلا أنا في اليوم مجمعٌ لك أطراحاً، ولا أنا في غدٍ وانتظاره منك على ثقة، فسبحان مَنْ لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة فيك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام ».

(١) انتجبك : اختارك .

(٥) دنية : لاصق .

(٢) خطراً : قدراً .

(٦) الغيب : العاقبة .

(٣) خار الله لك : جعل لك فيه الخير .

(٧) البيان والتبيين ٨٤/٢

(٤) أداله : نصره وأعانه .

وكل كلمة من هذه الرسالة تنبئ عن دقة الكاتب وحذقه ، وأنه يعرف كيف بتخير ألفاظه وكيف يصوغها وكأنها عقود جميلة تتألف من جواهر أنيقة . وهو لا يقتدر على اللفظ فحسب ، بل هو أيضاً يقتدر على جلب المعاني الطريفة ، التي تروع بما فيها من منطق عقلي دقيق ، وهو يعرضها في أسلوب من الازدواج الرشيق تزينه الاستعارات والطباقات .

وعلى هذا النحو أخذت الكتابة تترقى لافى الرسائل الشخصية فحسب ، فقد رأينا كتّاب العظات والسياسة يحققون نفس الرقى ، وحرى بنا الآن أن نتحول إلى كتّاب الدواوين ، لنرى ما أصاب الكتابة على أيديهم من تجويد وتسخير .

٣

كتّاب الدواوين

معروف أن عمر أول من دوّن الدواوين في الإسلام ، وتؤكد الروايات التي رافقت صنيعه بأنه استعار هذا النظام من الفرس الأعاجم^(١) ، إذ أحسّ حاجته إلى سجلات يدوّن فيها الناس وأعطياتهم وأموالهم والغنائم ، وبذلك وضع أساس ديوانى الخراج والجند ، حتى إذا ولى معاوية الخلافة وجدناه يتخذ ديوانين هما ديوان الرسائل ، وديوان الخاتم^(٢) ، وفيه كانت تُختم الرسائل الصادرة عنه ، حتى لا يغيّر فيها من يحملونها إلى الولاة . وظل ديوان الخراج يُكتب في الشام ومصر بالرومية وفي العراق بالفارسية إلى عصر عبد الملك ابن مروان ، إذ نراه يطلب إلى سليمان بن سعد الخُسّسى كاتبه على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان الشام الرومي^(٣) ، وفي الوقت نفسه يطلب الحجاج إلى صالح ابن عبد الرحمن كاتبه هو الآخر على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان العراق

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٦ . (٢) نفس المصدر ص ٤٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤ .

الفارسي^(١) ، ويظهر أن ديوان مصر تحول سريعاً إلى العربية ، أما ديوان خراسان فتأخر نقله إلى عصر^(٢) هشام بن عبد الملك .

وليس معنى ذلك أن الأجانب خرجوا من الدواوين منذ عصر عبد الملك ، فقد أخذوا يحسنون العربية ويشاركون فيها ، وكانت هذه المشاركة منذ أول الأمر داعية لأن يطلب العرب معرفة ما يتصل بهذه الدواوين من نظم ، وما تواصى به أهلها وخاصة من الفرس في إتقان العمل بها ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه « الوزراء والكتاب » بمقدمة طويلة عن نظم الدواوين الفارسية .

ونحن في الواقع إنما يهمننا ديوان الرسائل ، لأن أصحابه هم الذين كانوا يدبجون الكتب على السنة الخلفاء والولاة ، وبحكم وظيفتهم كانوا يُختارون من أرباب الكلام وأصحاب اللسن والبيان ، وكان كل منهم يحاول أن يظهر براعته ومهارته وحذقه في تصريف الألفاظ وصياغة المعاني ، حتى يروق من يكتب على لسانه ، وينال رضاه واستحسانه .

وعلى هذا النحو تكونت طبقة كبيرة من كتّاب محترفين ، تتابعت أجيالهم على مرّ الزمن في هذا العصر ، وكلُّ جيل سابق يُسلم إلى خلفه صناعته ، وكل جيل لاحق يحاول أن يضيف إلى براعة سلفه براعةً جديدة . وكانوا كثيرين ، إذ لم تختص بهم دمشق ، فقد كان لكل وال وقائد كاتب ، وأحياناً كان يتخذ الوالى في العمل الكبير أو الولاية الكبيرة طائفة من الكتّاب . وكثيراً ما كان يطمح كتّاب الولايات إلى أن يكتفوا ببلاغتهم من يكتبون إليهم من الخلفاء ، حتى يعينهم في دواوينهم . واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده ، حتى إذا لفتته رسالة ببلاغتها سأل عن كاتبها وطلب مشو له بين يديه^(٣) ، وكان إذا أعجبه كاتب وملاً نفسه ربما أرسل به إلى عبد الملك ابن مروان ليسلكه بين كتّابه ، على نحو ما صنع بمحمد^(٤) بن يزيد الأنصارى . ولم يعرض علينا الجهشيارى آثار هؤلاء الكتّاب إلا قليلاً ، فقد اكتفى بعرض أسمائهم موزعاً لهم على عهود الخلفاء ، وفي عهد كل خليفة يسرد أسماء

(١) الجهشيارى ص ٣٨

(٢) الجهشيارى ص ٦٧ .

(٣) البيان والتبيين ٢٨٧/١ والطبرى

١٨٧/٥ والمبرد ص ١٥٨ .

(٤) طبرى ٢٠٨/٥ .

كُتِّبَ الولاية . وإذا رجعنا فيه إلى أيام معاوية وجدناه يذكر بين كُتِّبِهِ عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشْدُق لفصاحته وروعة منطقته وجهارة صوته ، وكان خطيباً لا يبارى^(١) . ولم يُؤثِّرْ عنه شيء من الرسائل في عهد معاوية ، وقد روى له الجاحظ رسالة في عهد عبد الملك حين خرج عليه ، إذ كتب إليه عبد الملك يتوعده ، فأجابه عمرو^(٢) :

« أما بعد فإن استدراج النِّعَمِ إياك أفادك البَغْيُ ، ورائحة القدرة أورتك الغفلة . زجرت عما وقعت مثله ، وندبت إلى ما تركت سبيله ، ولو كان ضعفُ الأسباب يُؤيس الطلاب ما انتقل سلطان ولا ذلَّ عزيز . وعمّا قليل تبيّن من أسير الغفلة ، وصريع الخُدْع ، والرحيم تعطف على الإبقاء عليك ، مع دفعك ما غيرك أقومُ به منك والسلام . »

والرسالة على قصرها تصور مهارته البيانية وقدرته على التعبير الموجز السريع مع طلاوة اللفظ وحسن الديباجة . وكان يتولّى ديوان الرسائل لمعاوية وابنه يزيد عبيد^(٣) الله بن أوس الغَسَّانِي ، وروى له الجهمي رسالة على لسان يزيد إلى عبيد الله بن زياد ليتخذ العُدَّة في مقاومة الحسين بن علي حين نزوله العراق وهي تمضي على هذا النحو^(٤) :

« أما بعد فإن الممدوح مسبوبٌ يوماً ما ، وإن المسبوب ممدوح يوماً ما وقد انتميت إلى مَنَصَّبٍ كما قال الأول :

رُفِعَتْ فجاءت السحابَ وفوقه فما لك إلا مَرَقَبَ الشمسِ مرقبُ
وقد ابتلى بحسين زمانك دون الأزمان ، وبلدك دون البلدان ، ونُكِبَتْ
به من بين العُمَمال ، فلما تُعْتَقُ أو تعود عبداً ، كما يُعَبِّدُ العبيد ، والسلام .
والرسالة قصيرة ، ويظهر أنهم كانوا يستحبون القصر في الرسائل الديوانية حتى هذا العهد . وكان أول من أطال فيها كاتب لعبيد الله بن زياد يسمى عمرو^(٥) بن نافع ، ولا شك في أن هذا الطول رمز لما كان يأخذ به الكتاب أنفسهم في هذا التاريخ من التفنن في القول ، وهو تفنن كان يفتقر إلى ترتيب

(١) انظر البيان والتبيين ١/٣١٥ وراجع (٣) الجهمي ص ٢٤ ، ٣١ .

نهرسه . (٤) الجهمي ص ٣١ .

(٢) البيان والتبيين ٤/٨٧ . (٥) طبري ٤/٢٨٥ .

ورياضة في نسق الكلام وضبط أساليبه، حتى يخلبوا ألباب من يقرءونهم .
 ونغضى إلى عصر عبد الملك بن مروان ، فنجد بين كتّابه رَوْح بن
 زنباع الجُدَامِي ، وقد وصفه عبد الملك بأنه فارسي^(١) الكتابة ، وليس بين
 أيدينا رسائل مأثورة له ، وروى له الجهشيارى وغيره كلمة قالها لمعاوية وقد
 غضب عليه يوماً لأمر كان منه ، وهمّ به ، فقال له^(٢) :
 « لَا تُشْمِتَنَّ بِي عَدُوًّا أَنْتَ وَقَمَتَهُ^(٣) ، وَلَا تُسَوِّدَنَّ بِي صَدِيقًا أَنْتَ وَسِرَّتَهُ ،
 وَلَا تَهْدِمَنَّ مِنِّي رَكْنًا أَنْتَ بَنَيْتَهُ ، هَلَا أَتَى حَلْمُكَ وَإِحْسَانُكَ عَلَى جَهْلِي وَإِسَاعَتِي ؟ » .
 فعفا معاوية عنه .

ورأسُ كُتَّاب عبد الملك وأبنائه من بعده سليمان بن سعد الخُسَيْنِي كاتب
 رسائله الذى حوّل الدواوين من الرومية إلى العربية ، ولم تنصّ المصادر القديمة
 على ما كتبَ به بين يدي الخلفاء . وما لا ريب فيه أنه كان من أرباب البلاغة
 والبيان ، وفي الجَهْشِيَارِي أنه خلا بيزيد بن عبد الله كاتب يزيد بن عبد الملك
 قبل تولّيه الخلافة وكان يزيد حين ولى أزمة الأمور استدعى أسامة بن زيد
 وإلى الخراج على مصر ، فقال سليمان لابن عبد الله^(٤) : « لِمَ بَعَثَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
 إِلَى أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ؟ فَقَالَ : لَا أَدْرِي ، قَالَ : أَفَتَدْرِي مَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أَسَامَةَ ؟
 قَالَ : لَا . قَالَ : مَثَلُكَ وَمَثَلُهُ مِثْلُ حَيَّةٍ كَانَتْ فِي مَاءٍ وَطِينٍ وَبَرْدٍ ، فَإِنْ رَفَعْتَ
 رَأْسَهَا وَقَعَ عَلَيْهَا حَافِرٌ دَابَّةٌ ، وَإِنْ بَقِيَتْ مَاتَتْ بِرَدٍّ ، فَرَّ بِهَا رَجُلٌ ، فَقَالَتْ :
 أَدْخَلْتَنِي فِي كَمِّكَ حَتَّى أَدْفَأَ ثُمَّ أَخْرَجَ ، فَأَدْخَلَهَا ، فَلَمَّا دَفَنْتَ قَالَ لَهَا :
 اخْرُجِي ، فَقَالَتْ : إِنِّي مَا دَخَلْتُ فِي هَذَا الْمَدْخَلِ قَطُّ فَخَرَجْتُ حَتَّى أَنْقُرَ
 نَقْرَةً ، إِمَّا أَنْ تَسْلَمَ مِنْهَا ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوتَ ، وَاللَّهِ لَنْ دَخَلَ أَسَامَةُ لِيَسْنُقُرَنَّكَ
 نَقْرَةً إِمَّا أَنْ تَسْلَمَ مَعَهَا وَإِمَّا أَنْ تَمُوتَ » .

والكلمة تدل دلالة بيّنة على دقة مداخله ومسالكه إلى الإقناع ، وإن
 في نقله الدواوينَ ما يدل على سعة ثقافته وهي سعة كانت تقرن بعذوبة المنطق
 وتزبينه بالألفاظ المستحسنة السائغة على نحو ما توضّحه كلمته .

(٣) وقته : قهره وأذله .

(١) الجهشيارى ص ٣٥ .

(٤) الجهشيارى ص ٥٦ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٥٨ والجهشيارى

ص ٣٥ والأمالى ٢/٢٥٩ .

وإذا ولينا وجوهنا نحو العراق والشرق رأينا الكتاب يُعنون برسائلهم عناية لا تقل عن عناية كتاب دمشق ، ومما يؤثر من هذه العناية أن نجد عبد الرحمن ابن الأشعث يقول لابن القرية كاتبه حين ثار على الحجاج : « إني أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسجعاً أعرفه فيه سوء فعاله وأبصره قبح سريره » ويُنفذ ابن القرية مشيئته ، ويردُّ عليه الحجاج برسالة مسجوعة ^(١) . ولا تهمنا الرسلتان بقدر ما تهمنا رغبة ابن الأشعث في أن تكون الرسالة مسجوعة ، وكأنما يريد أن يضيف إلى حجته في الثورة حجة فنية من بلاغة كاتبه .

وفي ذلك ما يدل دلالة صريحة على أن الكتابة السياسية أصبحت تقترب بها غايات بلاغية ، وكلُّ كاتب يأتي من هذه الغايات بما يتفق وذوقه . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن يحيى بن يعمر - أحد علماء اللغة الأوائل - كان يكتب ليزيد بن المهلب في ولايته على خراسان للحجاج ، ولما انتصر يزيد على ملك الترك في « بادغيس » انتصاراً حاسماً أمره أن يكتب إلى الحجاج بالفتح فكتب ^(٢) : « إنا لقينا العدو ، فمَنَحنا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة ، وأسرنا طائفة ، ولحقنا طائفة بعرائر ^(٣) الأودية وأهضام ^(٤) الغيطان ، وبتنا بعرعر عرّة ^(٥) الجبل وبات العدو بِحَضِيضِهِ ^(٦) » .

وواضح أن ذوق يحيى بن يعمر اللغوي أدّاه إلى أن يسوق رسالته في هذه الألفاظ الغريبة ، وشجّعته على ذلك أنه كان يعرف ذوق الحجاج واستحسانه لأوابد الألفاظ ، على نحو ما قدّمنا في غير هذا الموضع . وفعلاً راعت الرسالة الحجاج ، فقد روى الرواة أنه حين قرأها قال : ما يزيد بأبي عُدّة هذا الكلام . فقيل له : إن معه يحيى بن يعمر ، فكتب إلى يزيد أن يُشْخِصه إليه ، فلما أتاه سأله عن مولده فقال له : الأهواز ، فسأله : أننى لك هذه الفصاحة ؟ قال : أخذتها عن أبي ^(٧) .

(١) الأخبار الطوال للدينوري (طبع ليدن)

ص ٣٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ٣٧٧/١ والمبرد

ص ١٥٨ والطبري ١٨٧/٥ .

(٣) عرائر الأودية : أسافلها .

(٤) أهضام الغيطان : مداخلها . والغيطان :

جمع غائط وهو المستوى من الأرض .

(٥) عرعر الجبل : أعلاه .

(٦) الحضيض : القرار من الأرض عند

منقطع الجبل .

(٧) البيان والتبيين ٣٧٨/١ .

وعلى هذا النحو كان كُتَّابُ الولاية والقواد في الشرق يحجبون رسائلهم، كلٌّ حسب فصاحته وذوقه وقدرته البيانية . وكان ديوانُ الحجاج نفسه أشبه بمدرسة كبيرة يتخرَّج فيها الكُتَّاب على يد رئيسه صالح بن عبد الرحمن الذي نَقَلَ الدواوين من الفارسية إلى العربية ، يقول الجهمشيارى : « كان عامة كُتَّاب العراق تلامذة صالح ، فمنهم المغيرة بن أبي قُرَّة كتب ليزيد بن المهلب (في ولايته لسليمان بن عبد الملك) ومنهم قُحْدُم بن أبي سُليم وشيبة بن أيمن كاتباً يوسف بن عمر ، ومنهم المغيرة وسعيد ابنا عطية ، وكان سعيد يكتب لعمر بن هبيرة ، ومنهم مَرْوان بن إياس كتب لخالد القسرى ، وغيرهم »^(١) .

وتلقانا نصوص تدل على أنهم كانوا يُعَنِّون بالطَّوامير والقراطيس^(٢) التي كانوا يكتبون فيها ، كما كانوا يعنون بنفس كتابتهم وخطوطهم ، وفي الجهمشيارى أن الوليد أول من كتب من الخلفاء في الطوامير وأنه أمر بأن تعظَّم كتبه ويجلَّل^(٣) الخط الذي يُكْتَبُ به ، وكان يقول : تكون كتبي والكتب إلى خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض^(٤) . ويظهر أن الكتاب غالوا في النفقة على كتبهم ، حتى لرى عمر بن عبد العزيز يأمر بالاقتصاد في القراطيس ، طالباً من الكُتَّاب أن يوجزوا^(٥) ، وكأنما أصبح الإطناب ظاهرة عامة .

ونحن لا نصل إلى ديوان هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤) حتى نحس أنه كان مدرسة كبيرة ، وهي مدرسة رَقِيَّ فيها النثر الفنى لهذا العصر إلى أبعد غاية كانت تنتظره ، إذ كان يتولَّى ديوان الرسائل سالم مولى هشام ، وأخذ يخرج غير كاتب ، وقد اشتهر له تلميذان أحدهما من بيته هو ابنه عبد الله والثاني من غير بيته ، هو صهره وختنه عبد الحميد .

وكان سالم يجيد اليونانية ، ونقل منها - كما مر بنا - بعض رسائل لأرسططاليس ، ونرى صاحب الفهرست يجعله أحد البلغاء العشرة الأول^(٦) ، ويقول عنه إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة^(٧) . ومن يرجع إلى الجهمشيارى

(٤) الجهمشيارى ص ٤٧ .

(٥) الجهمشيارى ص ٥٣ .

(٦) الفهرست ص ١٨٢ .

(٧) الفهرست ص ١٧١ .

(١) الجهمشيارى ص ٣٩ .

(٢) الطوامير والقراطيس : الصحف

الكبيرة .

(٣) مجلل : يعظم .

يجده ينص على أن هشاماً كان يأمره بالكتابة عنه إلى ولاته في الشئون التي تعرض له (١).

فالخليفة لم يعد يُملى كتبه على كتابه كما كان الشأن في القديم ، بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة ، ثم يعرضها عليه ، ومن ثَمَّ لم يعد الضمير في الرسالة ضمير متكلم ، بل أصبح ضمير غائب ، فالكاتب يقول في مستهل رسالته : « بلغ أمير المؤمنين كتابك » ونحو ذلك . ومن هنا كنا نزع أن كتب هشام بصفة عامة لم يكتبها هو وإنما كتبها سالم وتلميذاه عبد الله وعبد الحميد . وقد يُنصَّ على التلميذين ، أما سالم فقلما نصت المصادر على اسمه . وتحول عبد الحميد من ديوان هشام إلى ديوان مروان بن محمد عامله على أرمينية . ولعل من الطريف أن الرسائل التي صدرت عن ديوان هشام تُطبع بطوايع أسلوبية واحدة ، إذ تجرى في أسلوب من الازدواج ومن اللغة الجزلة الرصينة ، على شكلة القطعة التالية من رسالة على لسان هشام إلى يوسف بن عمر وقد استخفَّ ببعض أهله (٢) .

« حلت هضبة أصبحت تنحو (٣) بها عليهم مفتخراً ، هذا إن لم يد هذه (٤) بك قلة شكرك متحطماً وقيداً (٥) ، فهلا - يا بن مجرشة (٦) قومك أعظمت رجلهم عليك داخلا ، ووسعت مجلسه إذ رأته إليك مقبلا ، وتجافيت له عن صدر فراشك مكرماً ، ثم فاضته (٧) مقبلا عليه ببشرك إكراماً لأمير المؤمنين » .

والرسالة طويلة ، وهي كلها من هذا النسيج الأنيق الذي يزينه الازدواج والصور البيانية ، وقد أثرت لسالم رسالة يشكر بها بعض إخوانه على صنع قدّمه إليه ، وهي على هذا النمط (٨) .

« أما بعد فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إلى منك ، جسيم الرجاء فيما بقى لي عندك . قد جعل الله مستقبل رجائي منك عوناً لي على شكرك ، وجعل

(١) الجهشاري ص ٦٢ .

(٢) طبري ٦٨/٥ وما بعدها .

(٣) تنحو : تشرف وتطل .

(٤) يدهده : يسقط .

(٥) وقيداً : صريعاً .

(٦) المجرشة : الماشطة .

(٧) فاضته : حدثه .

(٨) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي

صفوت ٤٣١/٢ .

ما سلف إلى منك عوناً على مؤتلف الرجاء فيك .

وفي الرسالة ما يصور دقة تفكيره ولطف مداخله إلى ما يريد من إخوانه ، فهو يشكر ويرجو ، ويجعل ما سلف آية على تحقيق رجائه . واحتفظ المبرد في كامله برسالة لابنه عبد الله كتب بها على لسان هشام سنة تسع عشرة ومائة إلى خالد القسري حين أخذ ابن حسان النبطي وكيل هشام على ضياعه بالعراق فضربه بالسياط . وهو يفتحها بقوله (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمرٌ لم يحتمل لك إلا ما أحب من ربِّ (٢) الصنيعة قبلك واستقام معروفه عندك . وكان أمير المؤمنين أحق من استصلح ما فسد عليه منك ، فإن تعدُّ لمثل مقالتك وما بلغ أمير المؤمنين عنك رأى في معالجتك بالعقوبة رأيه . إن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة أبطرت ، فأساء حمّل الكرامة ، واستقل العافية ، ونسب ما في يديه إلى حيلته وحسبه وبيته ورهطه وعشيرته ، فإذا نزلت به الغيرة (٣) ، وانكشطت (٤) عنه تماية الغنى والسلطان ، ذل منقاداً ، وندم حسيراً ، وتمكن من عدوه قادراً عليه قاهراً له . . . »

وأطنب عبد الله في الرسالة مبيناً لخالد ما بلغ هشاماً من فلتات لسانه ، ومصرفاً لأمره بالقياس إلى سلفه الحجاج وقضائه على الفتن والثورات ، وكيف أن هشاماً أعلى من شأنه بتوليته على العراق مع وجود من يتعلوه ويتغمره . ويمضي يعدد عليه أخطائه في سياسته وكيف أنه يستعين بالمجوس في أعماله ، وكيف ضيَّع أموالاً كثيرة ، هي أموال المسلمين ، في حفر نهر المبارك ، وكيف يبتز أموال رعاياه باسم هدايا النيروز والمهرجان وينحى عليه باللائمة فيما صنع بابن حسان ، ويسجل عليه نقص الخراج وأنه ولَّى أسداً أخاه خراسان ، مظهراً بها العصبية اليمنية متحاملاً على المضرة . وهو في ثنايا ذلك يتهدده برواجع بغيه وأنه إن لم يكف عن غيِّه فقبيل أمير المؤمنين كثيرون خير منه عاقبة وعملاً . وطالت الرسالة ، حتى لكانها تاريخ مختصر لخالد القسري وولايته الطويلة

(٣) الغير : حوادث الدهر .

(٤) انكشطت : انكشفت .

(١) المبرد ص ٧٩٠ وما بعدها .

(٢) رب الصنيعة : إتمامها وتنميتها .

على العراق . وهي جميعها مكتوبة بهذا الأسلوب الذي رأيناه في فاتحتها ، والذي ثبتته سالم في دواوين هشام ، وقد انتهى هذا الأسلوب عند تلميذه عبد الحميد إلى الغاية المرتقبة .

عبد الحميد ^(١) الكاتب

اسم أبيه يحيى بن سعيد ، من موالى بنى عامر بن لؤى ، وهو فارسي الأصل . ويقول أكثر من ترجموا له إنه من أهل الأنبار بالعراق ^(٢) وسكن الرقة . وكان في أول أمره يتنقل في القرى معلماً في كتابتها ، وعرف في نفسه فصاحة ومهارة بيانية ، فالتحق بديوان هشام بن عبد الملك ، وأُعجب به سالم فأصهر إليه ، وما زال به حتى خرج كاتباً لا يبارى . وعرفه مروان ابن محمد ، وكان عاملاً لهشام ، كما مرّ بنا ، على أرمينية ، فاتخذته كاتباً له . ولعلنا لا نخطئ في الحكم إذا قلنا إن ما أثبتته الطبرى من رسائل مروان في ولايته إلى هشام ومن تلاه من الخلفاء وإلى أبناء عمومته إنما كان بقلم عبد الحميد . ويتولّى مروان الخلافة (١٢٧ - ١٣٢ هـ) فيصبح عبد الحميد رئيس ديوانه ، وتتوالى رسائله الرائعة ، وعبثاً حاول أن يلم الشعث حين انقضت جيوش أبي مسلم من خراسان ، حتى إذا هزم مروان في موقعة الزاب ولّى وجهه معه إلى مصر حيث قُتل معاً في معركة بوسير .

وهكذا كان وفيّاً لمروان حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وزعم بعض الرواة أنه فتر بعد موقعة الزاب على وجهه ، واختفى مدة ، ثم وقف عليه السفاح فأحضره وعذبه ، حتى مات . وزعم آخرون أنه اختفى عند ابن المقفع قبل عثور السفاح عليه . وهي مزاعم لا تؤيدها الروايات الوثيقة ، ولعل مما يدل

(١) انظر في عبد الحميد الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٧٢ وما بعدها ووفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية) ٣٠٧/١ . والفهرست ص ١٧٠ والمسالك والممالك للإصطخرى (طبع ليدن) ص ١٤٥ والبيان والتبيين ٢٠٨/١ ، ٢٥١ ، ٢٩/٣ وعيون الأخبار ٢٢/١ والصناعتين للمسكوى (طبعة الحلبي) ص ٦٩ وصبح الأعشى ٨٥/١ ، ١٩٥/١٠ واليتيمة للشمالي (طبعة الصاوي) ١٣٧/٣ والجزء الثاني من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ومن حديث الشعر والنثر لطلح حسين ص ٤٠ وما بعدها . (٢) انظر الفهرست ص ١٧٠ حيث يقول إنه من أهل الشام .

(١) انظر في عبد الحميد الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٧٢ وما بعدها ووفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية) ٣٠٧/١ . والفهرست ص ١٧٠ والمسالك والممالك للإصطخرى (طبع ليدن) ص ١٤٥ والبيان والتبيين ٢٠٨/١ ، ٢٥١ ، ٢٩/٣ وعيون الأخبار ٢٢/١ والصناعتين للمسكوى (طبعة

على أنه قُتل في مصر أننا نجد بها أبناءه وأحفاده ، وقد استخدمهم بعض
الولاة في دواوينهم^(١)

وعبد الحميد بدون ريب أبلغ كتاب هذا العصر وأبرعهم ، وقد ساءه الجاحظ
في بيانه عبد الحميد الأكبر ، ونصح الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لهم^(٢) ،
وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل : « فُتحت الرسائل بعبد الحميد
وخُتمت بابن العميد » وفيه يقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون ولطريقته
لزموا ، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل » . وقد أجمع كثيرون على أنه
أول من استخدم التحميدات في فصول الكتب ، وكأنه تأثر في ذلك بتحמידات
واصل وغيره من الوعّاظ ، وقد احتفظ كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور
بطائفة منها لا تقل كماً ولا كيفاً عن تحميد واصل الذي مرّ بنا في أول خطبته
المتروعة الرائ. ولا تلفتنا عند عبد الحميد براعته الأدبية في صنع رسائله فحسب ،
ولنما يلفتنا أيضاً أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ،
محاكياً في ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التي أثرت عن الساسانيين
والتي يُقال إنه كان أحدَ نقلتها إلى العربية^(٣) . وليس معنى ذلك أنه وقف
عند النقل والترجمة ، فقد مضى يحاكي هذه الرسائل لا محاكاة طبق الأصل
ولنما هذه المحاكاة التي تنهى إلى التمثل وصنع الأعمال الأدبية المبتكرة ، من
ذلك رسالته إلى الكتاب^(٤) وهي رسالة عامة ليست موجهة إلى شخص معين
أو كاتب بعينه ، إنما هي موجهة إلى هذه الطائفة التي أصبح لها كيان واضح
في حياة الدولة ، وقد وصف فيها عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكتاب في
تدبير الحكم وما ينبغي أن يتحلوا به من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية
تنصل بالخلفاء والولاة والرعية. ونحن لا نقرنها إلى ما استهلّ به الجهشيارى
كتابته « الوزراء والكتاب » من وصايا كان يوصى بها ملوك الفرس ووزراؤهم الكتاب
حتى نحس أن عبد الحميد تأثر هذه الوصايا في رسالته التي تُعدّ دستوراً دقيقاً
لوظيفة الكاتب وما عليه من حقوق للخلفاء والولاة وحقوق للرعية في سياستها

٢٩/٣ .

(١) الجهشيارى ص ٨٢ .

(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٤٢ .

(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وصبح الأعشى

(٣) الصناعتين ص ٦٩ والبيان والتبيين

٨٥/١ .

وضبط شئونها في الحراج وغير الحراج ، ونراه يرسم فيها ما ينبغي أن يحسنه الكتاب من ضروب العلم والثقافة ، يقول :

« فنافسوا ، معشر الكتاب ، في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثِقافُ أَلستكم ، وأجيدوا الخطَّ فإنه حليَّةُ كُتُبِكُم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيامَ العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعين لكم على ما تَسْمُون إليه بهممكم . ولا يضعفن نظركم في الحساب ، فإنه قِيَام كتاب الحراج منكم » .

فهو يطلب إليهم أن يتجملوا بحلى العلم والأدب ، ويصرّح بأن عليهم أن يوسّعوا ثقافتهم في الدين والفرائض حتى يقفوا على أحكام الشريعة فيما يتصل بمعاملة أهل الذمة ومعاملة المسلمين أنفسهم في شئون الحراج . وقد طلب أن يضيفوا إلى ذلك إتقاناً لعلم الحساب ، وعيّن لهم الينابيع التي تعينهم على إحسان التعبير عما في أنفسهم وعلى رأسها القرآن الكريم ثم الأشعار ليعرفوا غريبها ومعانيها . ومضى فطلب إليهم أن يتفقهوا بتاريخ العرب ، وتاريخ العجم وأحاديث ملوكها وسيرها ، لينتفعوا بذلك في كتاباتهم السياسية . ونراه في تضاعيف رسالته يطلب إلى الكتاب أن يؤلفوا بينهم ما يشبه النقابة في عصرنا ، فقد حضّمهم على الأخذ بيد من ينو به الزمان منهم ومساعدته ، حتى يعود إلى ما كان عليه من الرفق في العيش .

ولعباد الحميد بجانب هذه الرسالة رسالة في وصف الإخاء رواها ابن طيفور^(١) وهي في رأينا تكمّلها ، فقد عرض في رسالة الكتاب لأخوتهم وما ينبغي أن يجمعهم من إلف الوداد والصدقة ، ومضى في هذه الرسالة يفصّل الحديث في معنى الإخاء وحاجة الأفراد إليه مبيّناً دعاؤه التي تكفل له البقاء وتجعل حياة الناس صفاء مستحباً وعشرة عذبة ، بما يبرّ به الأخ أخاه حين تنزل به عوارض الأقدار وحوادث الزمان . وبذلك تدخّل الرسالة في هذا الضرب من الأدب الأخلاقي الذي شاع في بلاط الساسانيين ، وصدر عنه ابن المقفع في كتابيه

(١) انظر جوهرة رسائل العرب ٢/٤٣٤ .

الأدب الكبير والأدب الصغير (١).

وعلى نحو ما تتضح ثقافة عبد الحميد بالأدب الأخلاقي الساساني في الرسلتين السابقتين تتضح ثقافته بأدب القوم السياسي في رسالته الطويلة التي كتبها على لسان مروان إلى ابنه (٢) وولى عهده عبد الله حين أمّره بمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الصّفة-رى، وكانت ثورته قد استفحلت بالعراق والموصل سنة ١٢٨. ولا نكاد نلمّ بهذه الرسالة حتى نراها طويلة طويلاً غير مألوف، إذ امتدت إلى نحو أربعين صحيفة من القطع الكبير. وهو يستلها بمقدمة يذكر فيها اختيار أمير المؤمنين له في محاربة الضحاك وأصحابه الذين انتهكوا حرمة الإسلام وعاثوا في الأرض مستحلّين دماء المسلمين، وأنه رأى أن يكتب إليه بعهدهم يؤدي به حقّ الله الواجب عليه في إرشاده. ويمضي العهد بعد ذلك موزّعاً على موضوعات ثلاثة كبيرة، وكل موضوع يتشعب شعباً كثيرة، وكل شعبة تستقل بفقرة محدودة تحيط بدقائقها. وأول هذه الموضوعات يتناول فيه عبد الحميد آداب قائد الجيش في سلوكه مع نفسه ومع حاشيته ورؤساء جنده. ويتناول الموضوع الثاني سياسته في لقاء العدو وما ينبغي أن يتخذ من عيون ترصد حركاته، ويُفيض في بيان الخصال التي ينبغي أن يتصف بها رؤساء جيشه والأخرى التي ينبغي أن تتصف بها طلائعه. وفي الموضوع الثالث يتناول نظام الجيش في الحرب، ويقول إنه ينبغي أن لا يسير إلا في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة أو مؤخرة، ويصور له كيف يُعِدُّ جيشه حين اللقاء وكيف يُنْقِسمه إلى وحدات، كل وحدة مائة رجل عليهم شخص من أهل المروءة والنجدة. ويشير إلى ما ينبغي أن يتحلّى به خازن أمواله من خلال. وينصحه أن يتخذ كل وسيلة لإفساد رجال العدو عليه بمكائبتهم ووعدده لهم بالمنال والولايات. ودائماً ينصحه بالتقوى والاعتماد على الله في غُدُوّه ورَواحِه ومنازلة خصمه. ويختم الرسالة بالدعاء له.

والرسالة على هذا النحو دستور كبير لقائد الجيش، وهو دستور استعان

(١) انظر كتابنا «الفن ومذاهبه في النثر» (٢) صبح الأعشى ١٠/١٩٥

العربي «ص ١٣٩ وما بعدها.

فيه عبد الحميد بما قرأه في أدب الفرس السياسى من وصايا وتعاليم ، كانوا يديرونها في كتبهم ، هي خلاصة تجاربهم في حروبهم وسياسة حكمتهم وماوكهم . وقد شفّعها بتعاليم الإسلام الزكية واطّرد له فيها أسلوبه المرن الشفاف الذى لا يحجب شيئاً من الفكرة ، بل يوضّحها من جميع شعبها وأطرافها بما أتيح له من بيان باهر استطاع أن ينفذ من خلاله إلى صياغة محكمة ، وهي صياغة لا تكاد تفرق في شيء عن صياغة الحسن البصرى وواصل بن عطاء وأضرابهما من الوعاظ الذين ألانوا اللغة ومرّبوها لأداء معانيهم ، وكأنما تحول إلى عبد الحميد أسلوبهم ، حتى أصبح لا يفرق عنهم في شيء ، فهو يزاوج في ألفاظه ، وهو يتخذ إلى ذلك طريقهم في الترادف ، موثّقاً كلامه بالصور والطبقات والمقابلات الكثيرة .

وقد حاول طه حسين أن يصل عبد الحميد بالثقافة اليونانية^(١) ، معتمداً في ذلك على تقسيمه الجيش إلى وحدات كل وحدة مائة على شاكلة ما كان معروفاً عند اليونان ، وعلى أنه بالغ في استخدام الحال ونشرها في كلامه . ويضعف الحجة الأولى أن عبد الحميد كان يعيش في الشام ، وكانت الحروب قائمة بين العرب والبيزنطيين منذ الفتوح ، وكان العرب بعامة يعرفون نظم الجيوش عند البيزنطيين والفرس جميعاً ، فعرفه عبد الحميد بذلك لا تصله مباشرة بالثقافة اليونانية . أما مسألة استخدامه الحال فلم يوضّح طه حسين كيف كانت خاصة من خصائص اللغة اليونانية ، ومعروف أنها من خواص اللغة العربية ، وهي شائعة في الشعر الجاهلى والقرآن الكريم ، ومرّت بنا قطع من كتابات سالم وابنه عبد الله ، وفيها الحال واضحة . والحق أن عبد الحميد إذا كان قد اتصل بالثقافة اليونانية ، فعن طريق غير مباشر ، نقصد طريق أستاذه سالم الذى كان يحسنها وينقل عنها أحياناً على نحو ما مرّ بنا .

وليس من شك في أن صلة عبد الحميد بالثقافة الفارسية أوضح منها بالثقافة اليونانية . وكان يضيف إلى ذلك ثقافة واسعة بالشعر العربى ، وهي تتضح في رسالة إلى العهد السالفة حين نراه يقف ليفصّل له ما ينبغي أن تكون عليه

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٤ وما بعدها .

أسلحته وخيئلته من صفات، وكأنه ينثر أشعار أوس بن حَجَر وغيره من الجاهليين فيها نثراً. ومن هذا الباب رسالته ^(١) التي وصف بها الصيد، وجوارحه ومعاركها مع الظباء والآرام وحُمر الوحش، وما وقعوا عليه من بعض الغُدران والرياض وما أصابهم من بعض الأمطار، وكأنه يتحدث بلسان امرئ القيس وزهير ومن على شاكلتهما من الشعراء الجاهليين.

والحق أن النثر الفني تطور تطوراً واسعاً عند عبد الحميد، فقد تحولت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية تُكْتَب في موضوعات مختلفة من الإخاء وقيادة الحروب والصيد. وهي لا تكتب في ذلك كتابة موجزة، فلم تعد الكتابة وحدها كافية، بل أصبح أساساً فيها أن تُسَنَد بالتفنن في القول وتشيعب المعاني معتمدة على ثقافات مختلفة: أجنبية وعربية. وأخذت تَزَحَّم الشعر وتحاول أن تقتحم عليه ميادينه أو على الأقل بعض هذه الميادين، إذ نرى عبد الحميد يُجَرِّى قلمه في وصف الخيل والسلاح ووصف الصيد. ودائماً تروعا براعته البيانية، ولا نستطيع أن ننقل إلى القارئ إحدى رسائله الأدبية الطويلة ليتبين هذه البراعة، غير أنه ينبغي أن لا نغضى دون تقديم نموذج من كتابته، ونحن نسوق للقارئ هذه الرسالة ^(٢) التي كتب بها إلى أهله يعزيهم عن نفسه، وهو منهزم مع مروان:

«أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالكُرْه والسرور، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها، فمن درت ^(٣) له بحلاوتها، وساعده الحظُّ فيها سكن إليها ورضى بها، وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعَضَّتْه بأنيابها، وتوطأته بثقلها، قَلَّاهَا ^(٤) نافرأ عنها، وذمَّهَا ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً منها، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من دَرِّهَا أفأويق ^(٥) استحلبنها، ثم شَمَسَتْ ^(٦) منا نافرة، وأعرضت عنامتكرة، ورَحَّتْنَا ^(٧) مولية، فُلُح عذبتها، وأمرَّ

(٥) الأفويق: ما يتجمع في الضرع من اللبن.

(٦) شمس: من شمس الفرس إذا جمح.

(٧) رحتنا: من رجه الفرس إذا ركله.

(١) جمهرة رسائل العرب ٢/٥٤٤.

(٢) الجهشيارى ص ٧٢.

(٣) درت: من الدر وهو اللبن.

(٤) قلاها: كرمها وأبغضها.

حلوها، ونحسّن ليتها، ففرقتنا عن الأوطان، وقطعتنا عن الإخوان، فدارنا نازحة،
وطيرنا بارحة^(١)، قد أخذت كل ما أعطت، وتباعدت مثلما تقربت، وأعقبت
بالراحة نصبا^(٢)، وبالجدل^(٣) هما، وبالأمن خوفاً، وبالعز ذللاً، وبالجدّة^(٤)
حاجة، وبالسراء ضراء، وبالحياة موتاً، لا تترحم من استرحمها، سالكة بنا
سبيل من لا أوبة له، منفيين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحياء .

والرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد التي تميز بها في أسلوبه
ومعانيه، فالألفاظ منتخبة وليس فيها نوعر ولا غريب وحشي، وإنما فيها
العدوبة والحلاوة. والمعاني غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء، وإنما فيها
الوضوح وانكشاف الدلالة. وهو يعنى بالترادف في أسلوبه ترادفاً ينتهي به
إلى ازدواج واضح، ازدواج من شأنه أن يؤكد المعاني بما يحمل من معادلات
موسيقية تثبت في ذهن وتجلوها جلاء تاماً. وهو يضيف إلى ذلك حلي من
طباقات وتصويرات تُضفي على أسلوبه روعة بيانية خلابة، بل إننا لا ندقق في
القول حين نزع أنه يضيف هذه الحلي، فإنها عنده جزء لا يتجزأ من جوهر الكلام،
وكانها سداً ولحمته. والحق أن عبد الحميد أوفى بالكتابة الأدبية في العصر
الأموي على كل ما كان يُستَظَر لها من رقي وإبداع فني .

(٣) الجدل : السرور .

(٤) الجدّة : الميسرة .

(١) الطير البارحة : التي تمر من اليمين إلى

اليسار، والعرب القدماء كانوا يتشامون بها .

(٢) نصبا : تعباً

خاتمة

١

خلاصة

انقسم العصر الإسلامي في هذا الجزء إلى كتابين ، اختص أولهما بعصر صدر الإسلام وثانيهما بعصر بني أمية ، وقد بدأت الكتاب الأول بالحديث عن الإسلام وقِيَمِهِ الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية ، مبيناً كيف أخرج العرب من الظلمات إلى النور وبعثهم بعثاً جديداً استضاءوا فيه بهدى القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى من أسلموا يجاهدون معه قريشاً والعرب ، حتى دخلوا في دين الله أفواجاً . وألّمت بالإسلام بعد وفاة الرسول أحداث خطيرة ، فحروب الردة تتبعها الفتوح وفتنة عثمان تتبعها حروب على . وتأثر الشعراء بذلك كله مستلهمين مثالية الإسلام الرفيعة ، وهم حقا اختلفوا في مدى تأثيرهم واستلهاهم لتلك المثالية ، إذ كان منهم من مسّ الدين روحه مسّاً عنيفاً ، ومنهم من مسّ روحه مسّاً خفيفاً . ولكن حتى هؤلاء الأخيرين وجدتهم يتأثرون بالدين الخفيف ، على نحو ما يصور لنا ذلك الحطّيبشة ، فقد قال القدماء عنه إنه كان رقيق الدين ، ومع ذلك نراه يدعو إلى التقوى والعمل الصالح ، معلناً أنه مسلم ، وأنه من أجل ذلك لا يعمد إلى الإقذاع في الهجاء فحسبُ التهمك والسخرية . وكان بجانبه كثيرون يتعمقهم الإسلام من مثل حسان وكعب بن زهير ، بل كان هناك من أثّر في نفوسهم تأثيراً عنيفاً مثل لبيد والناطقة الجعدى فإن بعض قصائدهما تتحول إلى مواظ خالصة .

وكان تأثير النثر بالإسلام أقوى قوة ، فقد نزل فيه الذكر الحكيم المعجز ببلاغته ، وألقى به الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديثه وخطبه الرائعة . وبذلك

تحولت العربية من لغة وثنية ساذجة إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، تخوض في معان جديدة من عبادة الله الواحد الأحد ووَصَف الكون في طرفيه من النشأة والدُّثور ورَسَم الكمالات الروحية ووضع التشريعات المحكمة التي تحقق للناس السعادة في الدارين . وكانت خطابة الرسول تارة وعظاً وتارة تشريعاً، وقد تَجَمَّع بين الطرفين . ومضى الخلفاء الراشدون على هدى الرسول يعظون الناس ، وأخذت تدفع أبا بكر وعمر مواقف جديدة للكلام ، إذ أخذوا بخطبون في الجيوش الفاتحة محمَّسين وموصين باتباع تعاليم الإسلام السمحة في معاملة الأمم المغلوبة . وسار في نفس الدرب عثمان ، ثم على بن أبي طالب ، وكان خطيباً مفوهاً ، وقد اندلعت الحروب الداخلية طوال عهده واندلعت معها خطابة كثيرة في صفوفه وفي الصفوف المعارضة كما اندلعت مناظرات مختلفة في الآراء المتقابلة ، وكل ذلك فسَّح طاقة النثر العربي في صدر الإسلام ، ومدَّ أطنابها مدّاً واسعاً . وجَدَّتْ بجانب ذلك حاجة شديدة إلى الكتابة ، لا كتابة الذِّكْرِ الحكيم فحسب بل أيضاً كتابة معاملات المسلمين وعقودهم وكتابة موثيق الرسول صلى الله عليه وسلم وعهوده ، وأخذ يفرغ لذلك كتَّاب مختلفون ذكرهم الجهمشيارى وغيره . وتحدَّث الفتوح ، وتكثر الرسائل بين الخلفاء وقوادهم وولاتهم ، كما تكثر المعاهدات ، وفي أثناء ذلك ينشأ النثر الكتابي عند العرب ويرقى ، كما رقى النثر الخطابي ، بما أخذ يحمل من تعاليم الإسلام وتشريعاته .

وانتقلت إلى الكتاب الثاني الخاص بعصر بني أمية ، فتحدثت عن مراكز الشعر في هذا العصر ، ووقفت أولاً عند المدينة ومكة وما غرقتا فيه من الحضارة والترف واللهو والغناء ، مما كان له أثر واسع في نمو الغزل بهما وذيوعه على كل لسان . وكان سكان نجد وبوادي الحجاز يعيشون في شظف من العيش هياً بتأثير الإسلام ومثاليته الروحية لظهور ضرب من الغزل العذري العفيف وشيوعه . وحدث أن عشائر قيسية كثيرة رحلت مع الفتوح إلى الشام والجزيرة فاصطدمت هناك بالقبائل اليمنية وبقبيلة تغلب المضرية . ونشبت بين الطرفين سلسلة حروب دامية عادت فيها العصبية القبلية والحمية الجاهلية ، فاشتعل الفجر والهجاء . وكانت الكوفة مستقراً للشيعة وثوراتهم ضد بني أمية فطُبع شعرها في جمهوره

بطابع شيعي حزين . وأخذت العصبية تحتدم في البصرة احتداماً ، وحملها منها الجنود المحاربون في خراسان ، فكثّر الشعر الذي ينطق عنها في البيتين . وكثرت سيول المديح فيهما وفي الكوفة ، ومضت أسراب تنغني بالزهد أو بالهجون ، وأسراب أخرى تنغني بنظرية الخوارج السياسية وخاصة في البصرة وبين جيوش الأزارقة في فارس . ولم ينشط الشعر في الشام إلا قليلاً ، فإن أكثر ما أنشد فيها وقد عليها إما مع مدّاح الأمويين وإما مع العشائر القيسية التي هاجرت إلى الشمال وإما مع بني أمية أنفسهم ، فقد ظهر بينهم غير شاعر . وكان الشعر في المراكز الأخرى خامداً ، ومصر تنقدّمها لا بشعرائها الذين نبتوا فيها ، ولكن بمن وفدوا على ولايتها مادحين .

وكانت تؤثر في الشعر الأموي مؤثرات عامة مختلفة ، فقد امتزج العرب في البلدان المفتوحة بالموالي ، وسرعان ما هجروا لغاتهم إلى العربية وعبروا بها عن عقولهم وقلوبهم وأعماق وجدانهم ، مما أحدث فيها صوراً مختلفة من التطور ، إذ دخلت فيها بعض الألفاظ الأعجمية وظهرت على ألسنة الموالي لكلمات مختلفة وانتشر الالحن ، وأخذت سلائق بعض العرب أنفسهم في الضعف . وقد مضى الشعراء جميعاً يستلهمون الإسلام في أشعارهم سواء حين يتغزلون أو يمدحون أو يهجون أو يحمسون للجهاد في سبيل الله أو حتى حين يصفون الصحراء . وتوزعتهم الفرق السياسية من زبيرية وخوارج وشيعة وغيرهم . ونعموا بالحضارات الأجنبية ، وساقهم ذلك إلى ضروب من المتاع الحسى واللهو والترّف . ودُعمت عقولهم بعناصر ثقافية مختلفة : جاهلية وإسلامية وأجنبية ، وانبعث بينهم فرق الجبّرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، وخضعوا لمؤثرات اقتصادية مختلفة . وكل ذلك نرى أصداءه في الشعر كما نرى فيه تعاوناً وثيقاً بين العرب والموالي ، فقد عاشوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكأنما مُحيت بينهم الفوارق الجنسية ، حتى ليفتخر الأعاجم بمواليهم من العرب ، إذ يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم من أبناء هذه القبيلة أو تلك ، ويتبادل العرب معهم نفس الشعور .

وكثّر شعراء المديح والهجاء كثرة مفرطة ، فقد كان المدّاحون يَغْدُونَ ويروحون على أبواب الولاة والقواد والأجواد ناثرين ورودَ الثناء محمّلين بنفائس

الأموال ، وخير من يمثلهم نُصَيْبُ والقطامي وكعب بن معَعدان الأشقرى وزباد الأعجم . وسعرت العصبية القبلية شعراء الهجاء وخير من يمثلهم ابن مفرغ والحكم بن عَبدل وثابت قُطْنَة . وما لاريب فيه أن أبرع شعراء الهجاء والمديح جميعاً شعراء النقائض النابهون : الأخطل والفرزدق وجريز ، فقد أتاحوا للنقيضة كل ما كان ينتظرها من رقى ونهوض ، كما أتاحوا للمدح كل ما كان ينتظرها من براعة وازدهار .

ووقف كثير من الشعراء في صفوف الفرق السياسية يحامون عنها ويناضلون وكانت لكل فرقة نظرية في الخلافة تدافع عنها وتدود . أما الزبيريون فكانوا يرون من الواجب أن تعود حاضرة الخلافة إلى الحجاز وأن يستند الخليفة في حكمه إلى قريش لا إلى كُتَلب وغيرها من القبائل اليمنية التي يستند إليها الأمويون ، وابن قيس الرقيّات أهم من صدر في شعره عن هذه النظرية . وكان الخوارج يرون أن الخلافة حقٌ للمسلمين جميعاً لا لقريش وحدها ، وأنه ينبغي أن يتولّاها خير المسلمين تقوى وزهداً ، ولو كان عبداً حبشياً ، وقد وهبوا أنفسهم للنضال عن نظريتهم مذيعين في أشعارهم حماسة دينية ملتهبة ورغبة عنيفة في الاستشهاد وزهداً قوياً في الحياة ومتاعها الزائل ، ويمثلهم عمران بن حِطّان والطّرِمّاح . وكان الشيعة يرون أن الخلافة حقٌ شرعى لأبناء علي اغتصبه منهم الأمويون وينبغي أن يُردّ عليهم ، وكان استشهاد أئمتهم لا يبرح ذاكرتهم ، فضوا ببيكونهم بدموع غزار ، مُحفّظين الناس على أن يثأروا لهم من الأمويين ويذيقوهم حتفهم ، كما مضوا يصوّرون عقيدتهم فيهم وما يكتنّون لهم ولأهل البيت من عواطف حارة متبتلين بذلك إلى الله ورسوله الكريم ، ويمثلهم كثير والكُمَيْت . وكان كثير من أشراف العرب وخاصة في الكوفة مغيظين مُحفّقين على الأمويين لجعل الخلافة وراثية فيهم من دون العرب جميعاً ، وعبر عن ذلك ابن الأشعث في ثورته وشاعره أعشى همدان في شعره واصطف مع الأمويين شعراء كثيرون يدعون لهم ويناضلون ضد كل هؤلاء الخصوم ، على شاكلة ما نرى عند عبد الله بن الزبير الأسدي الكوفي وعدى بن الرقاع الدمشقي .

وتلقانا طوائف من الشعراء عاشت حياتها في اتجاه واحد أو على الأقل

في اتجاه غلب على حياتها وساد ، فمن ذلك أصحاب الغزل الصريح من أمثال ابن أبي ربيعة والأحوص ونعري ، وأصحاب الزهد من أمثال أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري ، وأصحاب اللهو والمجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبي الهندي ، وأصحاب شعر الغليظة من أمثال ذي الرمة . ومن ذلك الرجّاز ، وقد نهضوا بالأرجوزة من وجوه ، إذ جعلوها تتسع لكل أغراض القصيدة ، وأضافوا لذلك موضوعاً جديداً هو الطرديات ، كما أضاف نفرٌ منهم إلى غاياتها وجدانية غاية تعليمية جديدة إذ تحرّروا أن يودعوا أراجيزهم كل ما استطاعوا من شواذ اللغة وشواردها الآبدة .

وازدهرت الخطابة في العصر الأموي ازدهاراً ، لعل العرب لم يعرفوه في أي عصر من عصورهم القديمة ، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية ، وعملت بواعث كثيرة على أن تتوهج هذه المواهب في الخطابة حينئذ ، بسبب ما نشأ من خصومات سياسية عنيفة ، فكان هناك خطباء الخوارج وخطباء الشيعة وخطباء الزبيريين والثوار المختلفين وخطباء الأمويين ، وكلٌ منهم يحاول استمالة القلوب إليه بالتفنن في بيانه ، وخير من يمثلهم زياد بن أبيه . ونمت بجانب هذه الخطابة خطابة المحافل بين أيدي الخلفاء والولاة ، إذ أخذ أصحابها يُعزّنونَ بتجوير كلامهم ، وخيرٌ من يمثلهم الأحنف بن قيس . واحتدمت خطابة الوعظ والقصص الديني احتداماً ، وما فتئ أصحابها يطلبون كل وسيلة بيانية كي يؤثروا في الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ثبتته تثبيتاً قوياً ، وهو أسلوب نهض على حُلّى من الازدواج والخيالات والمقابلات ودقائق المعاني . وقد مضوا يعلمون الشباب في البصرة والكوفة كيف يبرعون في الخطابة والمناظرة ، وبذلك أعدوا لنشأة علم البلاغة العربية ، وخير من يمثلهم الحسن البصري .

ونمتي التدوين في هذا العصر نمواً واسعاً ، إذ دونوا معارفهم التي تتصل بالجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها كما دونوا معارفهم التي تتصل بالإسلام وما يرتبط به من تفسير الذكر الحكيم والحديث النبوي والفقه والمغازي وقصص الأنبياء ، ومضوا يدونون أخبار الأمم الماضية وأخبار الدولة الإسلامية وما صادفها

من أحداث وخطوب . وأخذت تظهر مصنفات في المثالب والأمثال والمواظ
والحكيم وفي مسائل العقيدة . ودونوا كثيراً من الرسائل والخطب ، كما نقلوا
إلى العربية بعض المعارف الأجنبية ، وخاصة في الكيمياء والطب والنجوم .
وكررت كثرة مفرطة الرسائل وخاصة السياسية . وأخذ كتاب الدواوين
المحترفون ينهضون بالكتابة الديوانية ، حتى كان سالم رئيس ديوان هشام بن
عبد الملك ، فإذا هو يتخذ فيها أساليب خطباء الوعظ والقصص الديني الذي تحدثنا
عنه آنفاً ، وتبعه عبد الحميد الكاتب ، فأوفى بالكتابة الديوانية على الغاية
من غزارة المعاني وروعة الأسلوب وإعطائه حقوقه من الجزالة والرونق والطلاوة ،
ومضى يبدع رسائل أدبية لا يقصد بها إلى سياسة ، إنما يقصد بها إلى الأدب
من حيث هو فن جميل .

٢

تعليق

كل الشعراء الذين ذكرناهم في الخلاصة السابقة ترجمنا لهم ترجمات تختلف
طولا وقصراً حسب شخصياتهم الأدبية ، وقد نظم ابن سلام المخضرمين منهم
في طبقات الجاهليين العشرة الذين أودعهم كتابه « طبقات فحول الشعراء » وقد
جعل الطبقة الأولى للجاهليين وحدهم ، أما الطبقة الثانية فأدخل فيها كعب
ابن زهير والخطيئة من المخضرمين ، وجعل الطبقة الثالثة للبيد والناطقة الجعدى
وأبي ذؤيب الهذلي والشماخ ، وكلهم عاشوا في العصرين الجاهلي والإسلامي . وخص
الطبقة الرابعة بمن عاشوا في الجاهلية . ثم مضى في الطبقات الست الباقية يمزج
جاهليين بمخضرمين . وتحدث عن شعراء المراثي وشعراء القسري ، مُشيداً بحسان
ابن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد ترجمنا لمن وضعهما في الطبقة
الثانية مع بعض الجاهليين وهما كعب والخطيئة ، كما ترجمنا الاثنين من الطبقة الثالثة ،
وهما لبيد والناطقة الجعدى ، وترجمنا لحسان . ولم نترجم لأحدوراءهم من المخضرمين
اكتفاء بهم ، إذ يُعدُّون في الذروة من شعراء عصرهم ، ولأن لهم دواوين

كبيرة توضح شخصياتهم ومدى ما أثّر به الإسلام في أشعارهم. ولم نُغفل مَنْ سواهم ، ممن داروا عند ابن سلام وفي الكتب الأدبية والتاريخية ، بل مثلنا لهم بأشعار كثيرة ، ووضعنا بلازاء المجيدين منهم في الهوامش مراجع أخبارهم وأشعارهم ، ليستعين بها من يريد متابعة دراستهم .

وإذا تركنا المخضرمين عند ابن سلام إلى شعراء عصر بني أمية وجدناه يسلكهم في طبقات عشر ، يسميها طبقات الإسلام ، ومن يقرن مَنْ سَماهم في تلك الطبقات إلى من ترجمنا لهم يرى أننا أعرضنا عن كثيرين ممن ذكرهم وعُنيّا بآخرين لم يمحروا على لسانه ، لأنهم فعلاً يتقدمون من أعرضنا عنهم من حيث تمثل الحياة التي عاشوها ، ومن حيث الشعر والشاعرية ، ومن ثمّ اهتمّ بجمهورهم صاحبُ الأغاني ، ففتح لهم في كتابه فصلاً طويلاً ، وعنى الرواة بدواوينهم أو على الأقل بكثير منها ، فصنعه صنعة مُحكمة . وكثرة من سَماهم ابن سلام ليس لهم دواوين محفوظة ولا أخبار كثيرة مسجلة ، وهم غالباً من نجد ، وكأنه إنما عنى بمن كانوا يدورون على ألسنة اللغويين متمثلين بأشعارهم ومستشهدين ، ونفس ترتيبه لطبقاتهم يدل على ذلك دلالة بينة ، فقد سلك الراعي في الطبقة الأولى مع جرير والفرزدق والأخطل ، وهو شاعر مقلّ ، ويدنو عن طبقتهم درجات. وإنما دعاه إلى ذلك ما اشتد به في بيئة اللغويين من إحسانه لنعت الإبل ، وحشده في هذا النعت لأوابد الألفاظ . ولو أنصف لأخبره عن طبقته ووضع فيها بدلاً منه ذا الرُمة الذي يتقدم جميع شعراء عصره في وصف الصحراء وكل ما يتصل بها من إبل وغير إبل .

وقد جعل ابن سلام ذا الرُمة في الطبقة الثانية وقرن به فيها البعث والقطامي وكثيراً ، والبعث مقل ولا يرتفع بجناحه إلى آفاقهم جميعاً . ولذلك أهملناه كما أهملنا أصحاب الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة ، وهم على الترتيب كعب بن جعيل وعمر بن أحمرو سحيم بن وثيل وأوس بن مغيرة ، ونهشل بن حرثي وحُمَيْد بن ثور الهلالي والأشهب بن رُميلة وعمر بن بلحّاء التميمي ، وأبو زُبَيْد الطائي والعُجَيْر وعبدالله بن همام السلولياني ونُفَيْع بن لقيط الأسدي ، جميعهم مقلّون ، ولا يمثلون عصرهم لا في أحداثه الجسام ولا في تطور فنون الشعر وأغراضه .

وجعل في الطبقة السادسة ابن قيس الرقيات والأحوص وحميلاً ونُصَيْباً ، وهم أعلى من طبقتهم ، وقد ترجمنا لهم جميعاً . وقترن بالمتوكل الليثي في الطبقة السابعة ابن مفرغ وزياداً الأعجم وعدى بن الرقاع ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا المتوكل لقلة أشعاره . وجعل في الطبقة الثامنة عَقِيل بن عُلْفَة وشبيب بن البرصاء ، وشعرهما جميعاً قليل قلة شديدة . وسلك في الطبقة التاسعة أربعة من الرجات هم : الأغلب العجلي وأبو النجم والمجّاج ورؤبة ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا الأغلب لقلة أراجيزه . وجعل الطبقة العاشرة لمزاحم العُقَيْلِيّ ويزيد بن الطُّشْرِيَّة وأبي دُوَاد الرُّؤاسي والقُحَيْشَف العُقَيْلِيّ ، وجميعهم مقلون . وعلى هذا النحو وضع ابن سلام في طبقات الإسلام شعراء مقلين لم يبلغوا في الشعر مبلغاً مذكوراً ، ونحى كثيرين يُغْنُون فيه غناء محموداً ، مسوقاً في ذلك بدوافع لغوية خالصة ، ومن تسمّى شعراء نجد والبادي ، ولم يكده يُعْنَى بشعراء المدن مع أنهم يَفْضَلُونهم بما دفعوا إليه الشعر من تطور مع الحياة الجديدة وبما نظموا من آيات رائعة . وقد أهمل ابن أبي ربيعة ، وهو أكبر شعراء الغزل في عصره ، وأهمل معه العرجي وأهمل شعراء الخوارج من أمثال عمران بن حِطَّان والطَّرِمَّاح ، ولم يُعْنَ من شعراء الشيعة إلا بكُثْبِير ، وأهمل شعراء الزهد من أمثال أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري وشعراء المحبون من أمثال الوليد بن يزيد وأبي الهيثم .

وبذلك كله كانت طبقات الإسلام عند ابن سلام قاصرة عن إعطاء صورة حقيقية لحياة الشعر الخصب في عهد بني أمية . وقد ترجمت لكل من ذكرتهم آنفاً ممن أهملهم ولآخرين لا يقلون عنهم إبداعاً . ومضيت أمثل في كل جانب من جوانب العصر وفي كل فن من فنون الشعر بأشعار مختلفة لغير من ترجمت لهم ناثراً في الهوامش مراجع كثيرين منهم ، تُعين على التوسع في دراستهم . والذي لا شك فيه أن شعراء العصر الأموي تطوروا بالشعر في جميع مناحيه واتجاهاته وأنهم استطاعوا أن يمثّلوا عصرهم فيه بجميع انطباعاته ، ناطقين بلسانه نُطْقاً أشاعوا فيه الروعة والجمال .

فهرس الموضوعات

صفحة	
٥ — ٧	مقدمة
٩ — ١٣٥	الكتاب الأول في عصر صدر الإسلام
١١ — ٢٤	الفصل الأول : الإسلام
١١	(١) قيم روحية
١٥	(٢) قيم عقلية
١٨	(٣) قيم اجتماعية
٢٢	(٤) قيم إنسانية
٢٥ — ٤١	الفصل الثاني : القرآن والحديث
٢٥	(١) نزول القرآن وحفظه وقراءاته
٢٧	(٢) سور القرآن وتفسيره في العهد الأول
٣٠	(٣) أثر القرآن في اللغة والأدب
٣٤	(٤) الحديث النبوي
٤٢ — ٦٧	الفصل الثالث : الشعر
٤٢	(١) كثرة الشعر والشعراء المخضرمين
٤٦	(٢) الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم
٥٣	(٣) الشعر في عصر الخلفاء الراشدين
٦٢	(٤) شعر الفتنوح

صفحة

١٠٥ - ٦٨	الفصل الرابع : الشعراء المخضرمون ومدى تأثيرهم بالإسلام
٦٨	(١) كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام . . .
٧٧	(٢) حسان بن ثابت
٨٣	(٣) كعب بن زهير
٨٩	(٤) ليبيد
٩٥	(٥) الخطيئة
١٠٠	(٦) النابغة الجعدي
١٣٥ - ١٠٦	الفصل الخامس : النثر وتطوره
١٠٦	(١) تطور الخطابة
١١٤	(٢) خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم
١٢١	(٣) خطابة الخلفاء الراشدين
١٢٩	(٤) الكتابة
٤٧٩ - ١٣٧	الكتاب الثاني في عصر بني أمية
١٦٨ - ١٣٩	الفصل الأول : مراكز الشعر الأموي
١٣٩	(١) المدينة ومكة
١٤٨	(٢) نجد وبوادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال
١٥٣	(٣) الكوفة والبصرة
١٦١	(٤) خراسان
١٦٥	(٥) الشام
١٦٦	(٦) مصر والمراكز الأخرى
٢١٤ - ١٦٩	الفصل الثاني : مؤثرات عامة في الشعر والشعراء
١٦٩	(١) الامتزاج بالأهم الأجنبية وتعربها وأثر ذلك في اللغة

صفحة	
١٧٦	(٢) الإسلام وأثره في موضوعات الشعر . . .
١٨٢	(٣) السياسة
١٩٣	(٤) الحضارة
١٩٩	(٥) الثقافة
٢٠٧	(٦) الاقتصاد وموقف العرب من الموالى . . .
٢٨٩ — ٢١٥	الفصل الثالث : شعراء المديح والمهجاء
	(١) شعراء المديح : نصيب ، القطامي ، كعب بن
٢١٥	معدان الأشقرى الأزدي ، زياد الأعجم . . .
	(٢) شعراء المهجاء : ابن مفرغ ، الحكم بن عبدل ،
٢٢٤	ثابت قطنة
٢٤١	(٣) شعراء النقائض
٢٥٨	(٤) الأخطل
٢٦٥	(٥) الفرزدق
٢٧٦	(٦) جرير
٣٤٦ — ٣٩٠	الفصل الرابع : شعراء السياسة
٣٩٠	(١) شعراء الزبيريين : ابن قيس الرقيات . . .
٣٠٢	(٢) شعراء الخوارج : عمران بن حطان ، الطرماح . . .
٣١٥	(٣) شعراء الشيعة : كثير ، الكميت
٣٢٩	(٤) شعراء ثورة ابن الأشعث : أعشى همدان . . .
	(٥) شعراء بني أمية : عبد الله بن الزبير ، عدى
٣٣٦	بن الرقاع
٤٠٤ — ٣٤٧	الفصل الخامس : طوائف من الشعراء
	(١) شعراء الغزل الصريح : عمر بن أبي ربيعة ،
٣٤٧	الأحوص ، العرجي

صفحة

(٢) شعراء الغزل العذرى : قيس بن ذريح ، جميل	
ابن معمر	٣٥٩
(٣) شعراء الزهد : أبو الأسود الدؤلى ، سابق البربرى	٣٦٩
(٤) شعراء اللهو والمجون : الوليد بن يزيد : أبو الهندي	٣٧٦
(٥) شعراء الطبيعة : ذو الرمة	٣٨٥
(٦) الرجاز : أبو النجم العجلى ، العجاج : رؤبة	٣٩٤
الفصل السادس : الخطابة والخطباء	٤٠٥ — ٤٥٠
(١) ازدهار الخطابة	٤٠٥
(٢) خطباء السياسة : زياد بن أبيه	٤١٠
(٣) خطباء المحافل : الأحنف بن قيس	٤٢٨
(٤) خطباء الوعظ والقصص : الحسن البصرى	٤٣٥
الفصل السابع : الكتابة والكتاب	٤٥١ — ٤٧٩
(١) التدوين	٤٥١
(٢) كثرة الرسائل المدونة	٤٥٦
(٣) كتاب الدواوين : عبد الحميد الكاتب	٤٦٥
خاتمة	٤٨٠ — ٤٨٧
(١) خلاصة	٤٨٠
(٢) تعليق	٤٨٥

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

- الوجيز فى تفسير القرآن الكريم
الطبعة الثانية ٢١١٢ صفحة
- سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات
- عالمية الإسلام
الطبعة الأولى ١٢٠ صفحة
- الحضارة الإسلامية فى القرآن والسنة
الطبعة الأولى ٣٣٤ صفحة
- معجزات القرآن
الطبعة الأولى ٢٦٠ صفحة
- فى تاريخ الأدب العربى
- العصر الجاهلى
الطبعة الثالثة والعشرون ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامى
الطبعة العشرون ٤٩٦ صفحة
- العصر العباسى الأول
الطبعة الخامسة عشرة ٥٨٠ صفحة
- العصر العباسى الثانى
الطبعة الثانية عشرة ٦٦٠ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية - العراق - إيران
الطبعة الرابعة ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الشام
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات
مصر
الطبعة الثالثة ٥٠٤ صفحة

• عصر الدول والإمارات الأندلس

- الطبعة الثالثة ٥٥٢ صفحة
- عصر الدول والإمارات
ليبيا - تونس - صقلية
الطبعة الأولى ٤٤٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان
الطبعة الأولى ٧٠٨ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة الثانية عشرة ٥٢٨ صفحة
- الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة الثانية عشرة ٤٠٠ صفحة
- التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة
- دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة
- شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٨ صفحة
- الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة الثانية عشرة ٣١٢ صفحة
- البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبى:
طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره
الطبعة الثامنة ٢٨٠ صفحة

● الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور

الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

● فى التراث والشعر واللغة

الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

● فى الشعر والفكاهة فى مصر

الطبعة الأولى ١٢٨ صفحة

● فى الدراسات النقدية

● فى النقد الأدبى

الطبعة الثامنة ٢٥٢ صفحة

● فصول فى الشعر ونقده

الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة

● فى الأدب والنقد

الطبعة الأولى ١٥٢ صفحة

● فى الدراسات البلاغية واللغوية

● البلاغة : تطور وتاريخ

الطبعة العاشرة ٣٨٠ صفحة

● المدارس النحوية

الطبعة الثامنة ٣٧٦ صفحة

● تجديد النحو

الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة

● تيسير النحو التعليمى قديما وحديثا

مع نهج تجديده

الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحة

● تيسيرات لغوية

الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة

● فى مجموعة نوايغ الفكر العربى

● ابن زيدون

الطبعة الثانية عشرة ١٢٤ صفحة

● فى مجموعة فنون الأدب العربى

● الرثاء

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

● المقامة

الطبعة السابعة ١٠٦ صفحات

● النقد

الطبعة الخامسة ١٣٦ صفحة

● الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

● الرحلات

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

● فى التراث المحقق

● المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثانى - الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة

● كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

● كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة

● الدرر فى فى اختصار المغازى والسير

لابن عبد البر

الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

● السيرة النبوية

● محمد خاتم المرسلين

الطبعة الأولى ٤٨٠ صفحة

● فى سلسلة اقرأ

● الفكاهة فى مصر

الطبعة الثانية

● معنى (١)

الطبعة الثانية

● معنى (٢)

الطبعة الأولى

● القسم فى القرآن الكريم

الطبعة الأولى

● مع العقاد

الطبعة الخامسة

● البطولة فى الشعر العربى

الطبعة الثانية